تاريخ الأمم الإسلامية

﴿ الدولة العباسية ﴾

لمؤلفه

محمد الخضرى

أستاذ تاريخ الامم الاسلامية بالجامعة المصرية

ووكيل مدرسة القضاء الشرعي

طبعة ثانية نمرة ١٣٣

سنة ١٣٣٩ هـ — ١٩٢١ م

طبع بمطبعة دار إحياء الكتب العربية بمصر

على نفقة أصحابها

عيسى البابى الحلبى وشركاه

الى صاحب السمو الأمير احمد فؤاد بن اسماعيل[1]

مولاي

ان ما تفضلت به من كلماتك المشجعة حدا بي الى السير قدُماً في اظهار ما ألقيه من محاضرات التاريخ بالجامعة المصرية وأرجو أن أكون قد وفقت لتحقيق شيء من رغباتكم العالية في كتابة التاريخ الاسلامي واذا ساعدني حسن حظي فحازت هـذه المجموعة رضا سموكم شجعني ذلك على اظهار ما يليها من تاريخ مصر الذي كان جدكم ساكن الجنان تغمده الله برحمته واسطة العقد بين مؤسسي دوله الاسلامية .

ولكتابي هذا حق الفخر بظهوره في عهد محب العلم ومشيد أركانه صاحب العظمة السلطان حسين كامل الاول سلطان مصر سدد الله خطاه وأناله رغباته في أمته ؟

محمد الخضرى

---

١ اعتلى سموه عرش مصر في ٢٢ ذى حجة سنة ١٣٣٥ هـ — ٩ اكتوبر سنة ١٩١٧ ونودى به سلطاناً بعنوان صاحب العظمة السلطان فؤاد الاول

وقد آثرنا العنوان الذى رسمناه وقت أن طبع الكتاب مرة لانه يهم قراء التاريخ ان حب سموه العلم وهو أمير كحب عظمته له وهو سلطان . أدام الله له التوفيق وسدد خطاه وأقر



أما بعد حمد الله فاني أقدم للمشتغلين بالتاريخ مجموعة محاضراتى الثانية فى تاريخ الامم الاسلامية وهي تنتظم تاريخ الدولة العباسية السياسي فى المشرق . والتاريخ العباسي جزء عظيم من تاريخ المسلمين يبتدىء من سنة ١٣٢ الى سنة ٦٥٦ أي ٥٢٤ سنة وقد بقى بيتهم بعد ذلك له اسم الخلافة بمصر الى سنة ٩٢٣ ولكني لم أسر معهم من العراق الى مصر وأبقيت تصاريف أحوالهم هناك الى تاريخ مصر لما بين التاريخين من الارتباط وقد بذلت جهدى فى تصوير حالهم السياسى من مبتدأ خلافتهم على أيدي دعاتهم بخراسان والعراق الى منتهاها على يد هولاكوخان المغولى حفيد جنكيزخان . بينت تلك الحال فى أدوار الدولة المختلفة من قوة وضعف مع توضيح الاسباب التى رفعت هـذه الدولة الي الذروة العليا من سعة الملك ونفوذ الكلمة والاسباب التي نزلت بها الى الحضيض من ضيق رقعة الملك وسقوط الهيبة وضعف النفوذ وقد ختمت الحديث عنها بفصل فيه اجمال تلك الاسباب

وتركت تاريخها العلمي لما رأيت من جعل ذلك في محاضرات خاصة تنتظم تاريخ الاسلام العلمي كله لارتباط بعضه ببعض ولعدم اتباع الحركة العلمية لقوة بنى العباس السياسية فقد كانت الدولة العباسية في عهد آل سلجوق في حال ضعف سياسي شديد لان الخلفاء لم يكن لهم اذ ذاك الا الاسم ومع ذلك فقد كانت الحركة

واني أعد قراء كتابي هـذا بمجموعة محاضرات الحركة العلمية في البلاد لاسلامية وأرجو من الله التوفيق

وقد كانت الاقاليم الاسلامية فى عهد الدولة العباسـية ميدانا عظيما للافراد الذين ينتمون الى بيوت قديمة المجد والافراد العصاميين يتسابقون الى التغلب عليها من بلاد الاندلس غربا الى بلاد الترك والهند شرقا فكم من دول قامت وعظمت مدنيتها ثم انتهت بغلبة غيرها عليها ومن هذه الدول من كان يقوم باسم الملك تاركا اسم الخلافة لبني العباس ومنهـم من كان يقوم باسم الملك والخلافة جميعا كالدولة الاموية بالاندلس والادريسيه بالمغرب الاقصي والفاطمية بأفريقية ومصر والزيدية بطبرستان فرأيت من الواجب ان أذكر مع كل خليفة عباسى من كان فى عصره متغلبا على أي اقليم من الاقاليم الاسلامية واذا ابتدأت دولة في عهد خليفة ذكرت عنها جملة مختصرة تبين كيف نشأت والمدة التى قامت فيها وثبت ملوكها وقصدت بذلك أن تكون الرقعة الاسلامية كلها واضحة الصورة فى جميع العصور وقد ألممت في أكثر الأحيان بذكر الملوك المعاصرين فى أوروبا ولاسيا الذين كانت لهم صلات بالدول المشرقية في عهد الدولة العباسـية كملوك الروم بالقسطنطينية وملوك فرنسا . ومما عنيت به أحوال البيت العلوي الذي ظل ينافس العباسيين من بدء دولتهم الى سقوطها وقد كانوا من أكبر الاسـباب في ضعف العباسيين وجرأة المخالفين لهم على خلافهم فذكرت أحوال طوائفهم الكبرى الثلاث وهى الزيدية والامامية الاثنى عشرية والامامية الاسماعلية وما قامت به كل طائفة من الرجة في أنحاء العالم الاسلامي

وانى أظن أن هذه المجموعة على صغر حجمها قد سدت حاجة كان المشتغلون بالتاريخ الاسلامى يشـعرون بها وأرجو من الله التوفيق لاتمام سلسلة هذا التاريخ انه نعم المعين ٠

الدولة العباسية

البيت العباسى

عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بقي عقبه من كثير من أولاده واكثر العدد الاكبر والجمهور العظيم كان من ولديه العباس وأبى طالب فقد ملأ بنوهما السهول والحزون من الاقاليم الاسلامية من أقصي حجر في بلاد المغرب الى بلاد ماوراء النهر فيأواسط آسيا

ولكل من البيتين تاريخ جليل بين تاريخ الامم الاسلامية ونحن الآن شارعون فى تاريخ البيت الاول

العباس بن عبد المطلب

أمه نُتَيلة بنت جناب بن كليب من النَّمِر بن قاسط احدى قبائل ربيعة بن نزار. ولد قبل حادث الفيل بثلاث سنين فهو أسن من رسول الله صلى الله عليه وسلم بثلاث سنين

كان العباس من سادات بني هاشم وعقلائهم وكان صديقا وفيا لأبي سفيان صخر بن حرب . لما جاء الاسلام كان من المخلصين لرسول الله صلى الله عليه وسلم وان لم يظهر متابعته . وكان هو الذي تولى احكام الأمر لرسول الله مع الانصار حين الهجرة فقد قال لهم في ليلة البيعة يامعشر الخزرج انكم قد دعوتم محمدا الى مادعوتموه اليه ومحمد من أعز الناس في عشيرته يمنعه والله من كان منا على قوله ومن لم يكن منا على قوله منعة للحسب والشرف وقد أبى محمد الناس كلهم غيركم فان كنتم أهل قوة وجلد وبصر بالحرب واستقلال بعداوة العرب قاطبة فانها سترميكم عن قوس واحدة فارتؤا رأيكم وأتمروا أمركم ولاتفترقوا الا عن ملأ منكم واجتماع فان أحسن الحديث

أصدقه — وأخرى صفوا الى الحرب كيف تقاتلون عدوكم قال فأسكت القوم وتكلم عبد الله بن عمرو بن حرام فقال نحن والله أهل الحرب غذينا بها ومرنا عليها وورثناها عن آبائنا كابرا عن كابر نرمي بالنبل حتى تفنى ثم نطاعن بالرماح حتى تكسر ثم نمشي بالسيوف فنضارب بها حتى يموت الاعجل منا أو من عدونا . فقال العباس أنتم أصحاب حرب فهل فيكم دروع . قالوا نعم شاملة — وقال البراء بن معرور قد سمعنا ماقلت انا والله لو كان في أنفسنا غير مانتطق به لقلناه ولكننا نريد الوفاء والصدق و بذل مهج أنفسنا دون رسول الله صلى الله عليه وسلم . وتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن ثم دعاهم الى الله ورغبهم في الاسلام وذكر الذي اجتمعوا له فأجاب البراء بن معرور بالايمان والتصديق فبايعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك والعباس بن عبد المطلب آخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤكد له البيعة تلك الليلة على الانصار

ولما خرجت قريش الى بدر أخرج العباس وبنو أخيه اليها كرها ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم لاصحابه يوم بدر من لقي منكم العباس وطالبا وعقيلا ونوفلا وأبا سفيان فلا تقتلوهم فانهم أخرجوا مكرهين . وكان العباس في جملة أسرى بدر ففدي نفسه وفدي عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحرث بن عبد المطلب ثم رجع وأقام بمكة وكان مقامه بها انه كان لايُغَبى على رسول الله صلى الله عليه وسلم خبرا يكون الا كتب به اليه وكان من هناك من المؤمنين يتقوون به ويصيرون اليه وكان لهم عونا على اسلامهم ولقد كان يطلب أن يقدم على النبي صلى الله عليه وسلم فكتب اليه عليه السلام ان مقامكم مجاهد حسن فأقام بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهاجر الى المدينة قبيل الفتح وحضر معه فتح مكة وكان سببا في نجاة أبي سفيان وفي تشريفه بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم من دخل دار أبي سفيان فهو آمن . وحضر غزوة حنين وكان له فيها أحسن بلاء ثم خرج الى المدينه فأقام بها

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجبه ويكرمه وعلى ذلك جرى الخلفاء من بعده

وكانت وفاته في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه يوم الجمعة لاربع عشرة خلت من رجب سنة ٣٢ وهو ابن ثمان وثمانين سنة ودفن بالبقيع

وأعقب من الولد الفضل وهو أكبر أولاده وبه كان يكني وعبد الله وعبيد الله وعبد الرحمن وقثم ومعبد وأم حبيبة أمهم جميعاً لُبابة بنت الحارث بن حزن من بني هلال بن عامر من قيس عيلان وفي ولد أم الفضل هؤلاء من العباس يقول عبد الله ابن يزيد الهلالي

ماولدت نجيبة من فحل   بجبـل نعلمه أو سهل
كستة من بطن أم الفضل   أكرم بها من كهلة وكهل

وكان للعباس من غيرها كثير بن العباس وتمام وصفية وأميمة وأمهم أم ولد . والحارث وأمه جميلة بنت جندب من هذيل . وليس للفضل وعبد الرحمن وقثم وكثير وتمام عقب وعقب العباس من سواهم ولا سيما من عبد الله فانه هو الذى انتشر منه عقب العباس وهو جد الخلفاء العباسيين

عبد الله بن العباس

هو ثاني ولد العباس بن عبد المطلب ولد قبل الهجرة بسنتين فكانت سنه حين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث عشرة سنة وكان عليه السلام يحبه ودعا له فقال اللهم علمه التأويل فكان رضي الله عنه أعلم الناس بآيات القرآن وتأويلها وافقه في الدن على ما أوتيه من اسان طلق ذلق غواص على موضع الحاجة وكان عمر رضي الله عنه يحبه ويدخله مع كبار الصحابة في مجاس شوراه الخاص ويستفتيه فى كثير من المسائل على صغر سنه . وولاه عثمان الموسم سنة ٣٥ من الهجرة وهو محصور فأقام الموسم ولما بويع على رضى الله عنه بالخلافة كان له عضدا ونصيرا في حروبه كلها وولاه البصرة وأعمالها ويقال انه انحرف عنه في أواخر أيامه وترك البصرة ورحل الى مكة فأقام بالطائف وقيل ان ذلك كان بعد مقتل على

ظل ابن عباس مقيما فى الطائف حياة معاوية كلها وكان معاوية يجله ويتودد

اليه كثيرا كما كان يفعل مع سائر بني هاشم وكانت وفاته سنة ٦٨ وعبد الله هو الذي نما من نسله البيت العباسي لان اخوته لم يكن لهم نسل باق وعقب عبد الله الذى نما انما هو من ولده علي بن عبد الله بن عباس

علي بن عبد الله بن عباس

أمه زُرْعة بنت مِشرح بن معديكرب من كندة ولد ليلة قتل على بن أبي طالب سنة ٤٠ من الهجرة فسمى باسمه وكني بكنيته أبى الحسن وهو أصغر أولاد أبيه وكان سيدا شريفا بليغا ويقال كان أجمل قرشي على وجه الارض وأوسمهم وأكثرهم صلاة وكان مفرطا في الطول اذا طاف فكأنما الناس حوله مشاة وهو راكب من طوله . وقد أقطعه بنو أمية قرية اسمها الحُمَيمة بالشُراة (وهى صقع بالشام في طريق المدينة من دمشق بالقرب من الشوبك وهو من اقاليم البلقاء) فأقام بها وفيها ولد أكثر أولاده وكانت وفاته سنة ١١٧

وأعقب على اثنين وعشرين ولدا ذكرا واحدى عشرة أنثى . وذكور أولاده هم محمد وداود وعيسى وسليمان وصالح وأحمد وبشر ومبشر واسماعيل وعبد الصمد وعبد الله الاكبر وعبيد الله وعبد الملك وعثمان وعبد الرحمن وعبد الله الاصغر ويحيي واسحاق ويعقوب وعبد العزيز واسماعيل الاصغر وعبد الله الاوسط . ستة منهم لاعقب لهم والباقون أعقبوا كثيرا ومنهم انتشر البيت العباسي وكثر جدا . وبيت الخلافة في محمد أكبر أولاده

محمد بن علي

هو والد ابراهيم الامام وأبي العباس السفاح وأبي جعفر المنصور الذين هم مبدأ الخلافة العباسية وهو الذي ابتدأت الدعوة على يديه وكان ذلك في حياة أبيه علي ولكن لم يكن لابيه ذكر فى هذه الدعوة

وحيث قد ذكرنا هذا البيت الرفيع العماد فلنشرع في بيان كيف وجدت فكرة الخلافة عند العباسيين وكيف كانت الدعوة اليهم وكيف تمكنوا من قلب الدولة الاموية والحلول محلها

كيف نشأت فكرة الخلافة

في بنى العباس

توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس يؤثر عنه خبر مكشوف فيمن يتولى خلافة المسلمين بعده وكان العباس بن عبد المطلب قد أشار على علي بن أبي طالب أن يدخل على رسول الله صلي الله عليه وسلم وهو مريض فيسأله عن الخلافة بعده فان كانت فيهم والا أوصى بهم من سيكون خليفة فامتنع من ذلك على قائلا انه ان منعنا اياها لا ننالها أبدا

توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم والحال ما ذكرنا فمال الجمهور الاسلامى الى مبايعة أبي بكر الصديق رضى الله عنه بعد المناظرات التى جرت بين المهاجرين والانصار في سقيفة بنى ساعدة وكانت هناك فئة قليلة تميل الى أن تكون الخلافة فى بني هاشم رهط النبى الأدنين ولم يكن فيهم من أعمامه الا العباس بن عبد المطلب وكان من بني أعمامه جماعة رأسهم وذو الفضل والسابقة فيهم علي بن أبي طالب . ومع ان العباس كان في ذلك الوقت أسن بنى هاشم لم يكن من هذه الفئة القليلة من يقدمه على علي ابن أبى طالب لما لعلي من المزايا الكثيره التى بيناها فيما سبق . وكان على نفسه يرى انه أحق الناس أن يكون خليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وكذلك كانت ترى فاطمة زوجه ومن أجل ذلك امتنع عن مبايعة أبي بكر مدة حياة فاطمة رضي الله عنها فلما ماتت دخل فيما دخل فيه الجمهور وبايع أبا بكر على ملأ من الناس

عاش علي والعباس فى عهد أبي بكر ثم بايعا عمر لما عهد اليه أبو بكر بالخلافة وظلا مدة حياته محترمين مطيعين الى أن استخلف ثالث الخلفاء عثمان بن عفان بعد مناظرات طويلة بين رجال الشورى الذين عهد اليهم عمر اختيار الخليفة من بعده وكان على يرى أن رجال الشورى اتبع كثير منهم هواه فى العدول عنه

وفي أواخر خلافة عثمان توفى العباس بن عبد المطلب تاركا عقباً كثيرا أشهرهم عبد الله بن عباس وهو ثاني أولاده ولم يعلم أن أحدا منهم كان يتطلع الي الخلافة أو يأمل أن تكون له أو لاحد من أولاده

بعد مضي ست سنوات من خلافة عثمان وجدت حركة فى بعض النفوس تتجه الى نقل الخلافة من عثمان بن عفان الى علي بن أبي طالب وقام بأمر ذلك دعاة انتشروا في الامصار الاسلامية الكبري وهي الكوفة والبصرة والفسطاط وتذرعوا الى ذلك بالعيب في ولاة عثمان والطعن فيهم بأعمال زعموهم ارتكبوها وكان من فى مصر يكتب الى من في المصر الآخر بما عندهم من ذلك فيشيعونه بين الناس فيقول الناس أما نحن ففي عافية مما ابتلى به هؤلاء وجميعهم يكتبون الى ناس فى المدينة بمثل ذلك حتى ملؤا البلاد طعنا . ولما وجدوا لذلك ارتياحا من بعض النفوس انتقلوا من ذلك الى الطعن فى عثمان نفسه فنسبوا اليه أمورا منها ما هو غير صحيح ومنها ما هو صحيح وقد فعل أسلافه مثله فلم يقدر أن يطعن فيهم طاعن وساعدهم لين عثمان وخوفه من فتح أبواب الفتنة على ماقصدوا اليه

ألفت وفود من غوغاء الامصار الثلاث ممن تأثر بهذه الفتن فذهبت الى المدينة وهي حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم وحاضرة الاسلام الكبرى ومقر الخلافة الاسلامية متظاهرين ببث شكواهم من عمال عثمان فأشكاهم عثمان من جميع ماشكوا منه ولان لهم جدا حتى لا يوجد لهم سبيلا الى الفتنة فأظهروا الاقتناع وأزمعوا الرحيل الى أوطانهم وسار كل وفد في الطريق التي توصله الى مصره وبعد أيام عادت هذه الغوغاء متمسكة بكتاب مزور زعموه صادرا من عثمان الى عامله بمصر يأمره فيه بقتل رجال الوفد من المصريين عقابا لهم وتنكيلا والكتاب مختوم بخاتم عثمان فلما أروه اياه حلف لهم انه ما كتبه ولا أمر بكتابته وهو صادق في يمينه فاتهموا بذلك كاتبه مروان بن الحكم وطلبوا منه أن يسلمهم اياه فأبى فأعلنوا العداء وصرحوا بما فى أنفسهم من الشر وحصروا عثمان في داره مدة ثم اقتحموا عليه داره

وقتلوه ظلما وعدوانا ففتحوا على المسلمين باب فتنة وانقسام لا يغلقه مرور الزمان ولا كر الايام

بعد ان تم لهم ما أرادوا عرضوا الخلافة على علي بن أبي طالب فقبلها بعد تردد ·

أمضى رحمه الله حياته فى حرب مخالفيه في البصرة والنهروان وصفين ولم تصف له الخلافة يوما واحدا الى أن اغتاله أحد الخوارج فى رمضان سنة ٤ من الهجرة فى حاضرة خلافته وهي الكوفة

كان الجمهور الاسلامى في ذلك الوقت قد انضم الى خصمه معاوية بن أبي سفيان حيث كان في بيعته أهل الشام الذين هم أنصاره وأهل الحجاز واليمن ومصر · أما الكوفة فكانت مقرا لشيعة علي ومحبيه الذين كان منهم من يرى تفضيله لا على خصمه معاوية فقط بل على من سبقه من الخلفاء أيضاً ومع هذا فانه لم ينل منهم ما يناسب تلك العقيدة من الطاعة والاخلاص بل كثيرا ما أهملوا أوامره التى كان يصدرها اليهم من جهة الاستعداد لحرب أهل الشام ولذلك أسباب لسنا بصدد بيانها الآن

لما قتل رحمه الله رأت الشيعة أن يقوم في الخلافة مقامه ابنه الحسن وهو السيد العظيم الشأن أبوه علي بن أبي طالب وأمه فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم وقد رأى رضي الله عنه بثاقب فكره ان الذين لم ينل منهم أبوه ما يرجوه لا يحسن الاعتماد عليهم ففضل الصلح مع معاوية على شروط اشترطها لنفسه ولأتباعه وتنازل عن الخلافة مفضلا جمع كلمة المسلمين والسكنى بطيبة مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقام على ذلك حتى توفى بها سنة ٥٠ من الهجرة

ظل معاوية يسوس الناس بما عرف عنه من لين العريكة وسخاء اليد فاجتمعت الامة على طاعته والرضا به وسكنت الدعوة الى أهل البيت وخبت نار التشيع الا انها كانت مستكنة في أنفس ذويها ينتظرون الوقت الملائم للهبوب

أدلى معاوية بالخلافة لابنه يزيد فلما تولاها هبت أعاصير الفتنة في المدينة ومكة والكوفة

فاما المدينة فثارت تطلب عزل يزيد وتولي كبر الثورة بعض أبناء الانصار ولكن هذه الثورة قمعت بشدة مسلم بن عقبة المري الذي أوقع بأهلها وقعة الحرة المشهورة

وأما مكة فعاذ بها عبد الله بن الزبير طالبا الخلافة لنفسه

وأما الكوفة فان من بها من الشيعة أرسلوا يطلبون اليهم الحسين بن علي شقيق الحسن ليبايعوه بالخلافة وينزعوا من أعناقهم بيعة يزيد فلم يكن من الحسين الا أن لبى دعوتهم مع علمه بتاريخهم مع أخيه وأبيه وسار اليهم من غير جند يركن اليه ولا مال يستعين به فقابلته ببعض الطريق جنود عبيد الله بن زياد عامل يزيد بالعراق وكلها جنود عراقية ليس بها أحد من أهل الشام فلم يكن له قبل بمدافعتهم وقتل رحمه الله بكربلاء . ولم تقم شيعة أبيه بشيء من المساعدة بل ظلوا في مساكنهم آمنين مطمئنين ولسان حال الحسين يقول

لا ألفينك بعد الموت تندبنى وفي حياتي ما زودتنى زادي

انتهت هذه الحوادث ومات يزيد وعظم أمر ابن الزبير ودخل في دعوته أهل الحجاز ومصر والعراق وأبي أن يبايعه رجال بنى هاشم الذين كانوا بمكة كمحمد بن علي المشهور بابن الحنفية وعبد الله بن عباس وغيرهما فاضطهدهم وحبسهم

ظهر في تلك الاوقات رجل أراد أن ينتفع من وراء هذه الفتن ويجعل لنفسه مركزا في البلاد العراقية مستعينا بما تضمره قلوب أهل الكوفة من التشيع لاهل البيت وهو المختار بن أبي عبيد الثقفي فذهب الى الكوفة لابساً ثوب التشيع ناعياً على من قتل الحسين بن على وداعياً الى الامام المهدي وهو محمد بن علي الذي صار بعد أخويه أكبر أبناء علي رضي الله عنه وتوسل الى غايته بكل ما يمكن من عبارات التأثير حقاً كانت أم كذبا وكان عقلاء أهل الكوفة يسمونه الكذاب لكثرة ما كان يصدر عنه من الاكاذيب التى تؤثر عادة في أنفس الغوغاء وقد أمكنه ان يجتذب الى نفسه رؤساء الشيعة في الكوفة وأرسل الى محمد بن علي وهو مضطهد محبوس بمكة جندا يخلصونه من شدته فنجحوا واجتمع في حج هذه السنة بمكة

أربعة ألوية لواء لابن الزبير ولواء لبني أمية ولواء للخوارج ولواء لاصحاب محمد بن علي الا أن الله حفظ الحاج فلم يقع قتال بين هذه الجنود المختلفة الأهواء التي يكره بعضها بعضا

لم يطل حبل المختار بالكوفة فان عبد الله بن الزبير جهز له جيشاً يقوده أخوه مصعب فسار اليه ومالأه أكثر اشراف أهل العراق لما ظهر لهم من أكاذيب المختار وسوء طويته وبذلك كانت الغلبة لمصعب الا ان ذلك لم يقض على التشيع في بلاد العراق بل ظل كامنا ينتظر من يثيره لينتفع منه

أما محمد بن علي فانه بايع عبد الملك بن مروان بعد أن استقر الامر له وقضى على فتنة ابن الزبير ودانت له الاقاليم الاسلامية كلها ومع قيامه بهذه البيعة لم تزل له شيعة تراه أحق بالخلافة الا أنه مغلوب على أمره حتى انه لما مات غلا فيه بعضهم فأنكر موته وقال انه تغيب وسيرجع وقال في ذلك شاعرهم السيد الحميري

ألا أن الأئمة من قريش ... ولاة الحق أربعة سواء
علي والأئمة من بنيه ... هم الاسباط ليس بهم خفاء
فسبط سبط ايمان وبر ... وسبط غيبته كربلاء
وسبط لا يذوق الموت حتى ... يقود الخيل يقدمها اللواء

اضطربت أفكار الشيعة بعد موت محمد بن علي فمنهم من استمر على ولائه وقال بغيبته ورجعته كما قلنا ومنهم من تولى بعده ابنه أبا هاشم ويقال لهذا الفريق والذي قبله الكيسانية ينسبون الى كيسان وهو لقب المختار بن أبي عبيد

ومنهم من تولى بعد الحسين ابنه علياً المعروف بزين العابدين وهو ممن بايع يزيد ابن معاوية وعبد الملك بن مروان ولم يعرف عنه أنه طلب الخلافة لنفسه — قال هؤلاء ان الخلافة محصورة في أولاد علي من فاطمة رضي الله عنها ولما كان الحسين هو الذي قتل دون الخلافة فهي في عقبه وعلي هو الذي بقي من أولاد الحسين بعد وقعة كربلاء. وقد يقولون ان علياً هو الوصي أوصى اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخلافة ثم الامام من بعده

الحسن ثم الحسين ثم علي وهكذا لا بد للامة من امام منصوص عليه و يقال لهؤلاء الشيعه الامامية

كان أكبر ولد العباس فى ذلك الوقت على بن عبد الله بن عباس وهو الذي انتشر منه العباسيون وكان قد فارق الحجاز وأقام بالحميمة التي أقامه بها بنو أمية والذي أنزله بها الوليد بن عبد الملك وقد ظهرت فكرة انتقال الخلافة الى ولد العباس منذ على هذا و يقال ان السبب فى ذلك ان أبا هاشم بن محمد بن علي بن أبي طالب لما حانت منيته كان مقيما بالحميمة عند بنى عمه فأدلى بنصيبه من الخلافة الى علي هذا وأولاده وأوصى أولياءه به فصارت الشيعة الكيسانية فى جانب علي بن عبد الله ابن عباس

أما بقية الشيعة فانهم بعد وفاة على زين العابدين افترقت بهم الطرق فمنهم من تولى بعده ابنه محمدا الباقر زاعمين انه الامام بعد أبيه . ومنهم من قال ان الخلافة حق لكل فاطمي اتصف بصفات العلم والشجاعة والسخاء ومن هؤلاء من قام بمساعدة زيد بن على بن الحسين وهم المعروفون بالشيعة الزيدية

والذين حاولوا الوصول الى الخلافة وانتزاعها من بنى أمية هم الشيعة الكيسانية الذين ساعدوا على بن عبد الله والشيعة الزيدية الذين ساعدوا زيدا وابنه يحيي

وكانت وفاة على بن عبد الله ومحمد الباقر فى زمن متقارب بالحميمة فانتقل ولاء الكيسانية الى محمد بن على بن عبد الله بن عباس لان أباه أوصى اليه وانتقل ولاء الامامية الى جعفر الصادق بن محمد الباقر ولم يفعل أنصار الأئمة شيئاً ليرجعوا الخلافة الى ذوي الحق فيها حسب رأيهم .

أما الشيعة الزيدية فقد دعاهم الى النصرة زيد بن على فقاموا بنصرته حيث خرج بالكوفه طالباً الخلافة الأن بنى أميه لم تكن قد ظهرت فيهم العيوب التى أودت بحياتهم بعد فسرعان ما انتصروا على زيد وأطفؤا ثورته وقتلوه وصلبوه وثار بعده ابنه يحيي فكانت خاتمته خاتمة أبيه

أما محمد بن علي بن عبد الله بن عباس فهو يعسوب القوم وذو العقل الراجح فيهم فانه رأى أن نقل السلطان من بيت الى بيت لابد أن يسبق باعداد أفكار الامة الى هذا النقل وان كل محاولة فجائية لا بد أن تكون عاقبتها الفشل فرأى أن يسير فى المسألة بالأناة المصحوبة بالحزم فعهد الى شيعته ان يؤلفوا منهم دعاة يدعون الناس الى ولاية أهل البيت بدون أن يسموا أحـدا خوفا من بنى أمية أن يقضوا على المدعو اذا عرف ورأوا أن أحسن منطقة يبثون فيها الدعوة هي الكوفة وبلاد خراسان . أما الكوفة فهي مهد التشيع لاهل البيت من قديم فيمكنهم أن يأووا اليها ويجعلوها نقطة مواصلاتهم · وأما خراسان فسهولة الدعوة فيها مبنية على امرين الاول ان فكرة التشيع يفهمها الخراساني من المسلمين بسهولة لان مؤداها نقل الخلافة الى بيت النبى صلى الله عليه وسلم صاحب الرسالة وسيد الامة وذلك قريب مما كان عندهم من الملك الذي يتوارثه أهل بيته ولا يجوز نقله الى غـير بيت الملك الا ان كان ذلك عن اختلاس — الثانى ان البلاد الفارسية كانت ذات تاريخ وملك قديمين ولذلك فائدة كبيرة في حياة النفوس وقد عاملهم بنو أمية معاملة السادة للعبيد فكان العنصر العربي بينهم هو صاحب الكلمة العليا والنفوذ السائد ولا يتولى من ليس منهم شيئاً من الولايات العامة فكان أهل فارس مستعدين لان يقوموا بتغيير الدولة الحاضرة واخراج الخلافة الى الدولة المستقبلة كي يكون لهم فيها حظ أحسن من حظهم فى دولة بنى أمية . قال أبو بكر بن أحمد بن محمد الهمداني المعروف بابن الفقيه في كتاب البلدان

وقد كان محمد بن على بن عبد الله قال لدعاته حين أراد توجيههم الى الامصار — أما الكوفة وسوادها فشيعة على وولده — وأما البصرة وسوادها فعثمانيه تدين بالكف تقول كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل — وأما الجزيرة فحرورية مارقة واعراب كاعلاج ومسلمون في أخلاق النصارى — وأما أهل الشام فليس يعرفون الا آل أبي سفيان وطاعة بني مروان وعداوة راسخة وجهل متراكم — وأما مكة

والمدينة فقد غلب عليهما أبو بكر وعمر ولكن عليكم بخراسان فان هناك العدد الكثير والجلد الظاهر وهناك صدور سليمة وقلوب فارغة لم تتقسمها الاهواء ولم يتوزعها الدغل وهم جند لهم أبدان وأجسام ومنا كب وكواهل وهامات ولحي وشوارب وأصوات هائلة ولغات فخمة تخرج من أجواف منكرة وبعد فانى أتفاءل الى المشرق والى مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق »

تأليف الجمعية السرية

للدعوة

ابتدأ تأليف هـذه الجمعية وعلى بن عبد الله بن عباس حي لم يمت بعد لانها ابتدأت في أول القرن الثانى وعلى لم يمت الا سنة ١١٧ على قول وسنة ١١٤ على قول وكان الخليفة من بنى أمية اذ ذاك عمر بن عبد العزيز بن مروان وكانت تتألف من كثير من الدعاة والرؤساء

وجعل للدعوة مركزان أحدهما بالكوفة التي أعتبرت نقطة المواصلات وأقيم فيها ميسرة مولى على بن عبد الله والثانى بخراسان التى هي محل الدعوة الحقيقى ووجه اليه محمد بن خنيس وأبو عكرمة السراج واختير من الدعاة اثنا عشر نقيباً وهم

(١) سليمان بن كثير الخزاعي (٧) لاهز بن قريظ التميمي
(٢) مالك بن الهيثم « (٨) موسى بن كعب «
(٣) طلحة بن زريق « (٩) القاسم بن مجاشع «
(٤) عمرو بن أعين « (١٠) أبو داود خالد بن ابراهيم الشيبانى
(٥) عيسي بن أعين « (١١) أبو على الهروي شبل بن طهمان الحنفي
(٦) قحطبة بن شبيب الطائى (١٢) عمران بن اسمعيل المعيطي

. . . واختار سبعين رجلا ليكونوا مؤتمرين بأمر هؤلاء وكتب اليهم محمد بن على كتابا ليكون لهم مثالا وسيرة يسيرون بها

وقد ظل رجال الدعوة يشتغلون بها من مفتتح القرن الثانى الى سنة ١٣٢ وهي السنة التى تم فيها النجاح وبويع فيها لابى العباس السفاح

وهذه المدة تنقسم الى قسمين متمايزين الاول عصر الدعوة المحضة الخالية عن استعمال القوة وذلك قبل أن ينضم الى القوم أبو مسلم الخراسانى وذلك فى الوقت الذي كانت الدوله الاموية فيه متماسكه القوى لم ينقسم فيها البيت المالك على نفسه ولم تحصل العصبية القومية بين جند هذه الدولة بخراسان وذلك نحو ٢٧ سنة والعصر الثانى عصر استعمال القوة مع الدعوة حينما تهيأت الاسباب الداعية الى ذلك

العصر الاول

(من سنة ١٠٠ الى سنة ١٢٧)

كان الدعاة فيه يجوبون البلاد الخراسانية ظاهر أمرهم التجارة وباطنها الدعوة ينتهزون الفرص ثم يبلغون أمرهم الى القائم بالكوفة وهو يوصلها الى الحميمة أو الى مكة حيث يجتمع المسلمون لأداء فريضة الحج وكان ذلك المجتمع أعظم ساتر لامر الدعاة لانهم كانوا اذا قفلوا من خراسان ساروا حجاجاً وكانت اقامة محمد بن على بالحميمة سبباً آخر في انتظام المواصلات وكتم سرها

وكان أول ماظهر من أمرهم بخراسان سنة ١٠٢ حيث جاء رجل من تميم الى أمير خراسان سعيد بن عبد العزيز بن الحارث بن الحكم بن أبى العاص الذي يقال له سعيد خذينة وقال له ان ههنا قوما قد ظهر منهم كلام قبيح فبعث اليهم سعيد فأتى بهم فسألهم من أنتم قالوا أناس من التجار قال فما هذا الذي يحكي عنكم قالوا

لا ندري قال جشم دعاة فقالوا ان لنا في أنفسنا وتجارتنا شغلا عن هذا فسأل من يعرف هؤلاء فجاء أناس من أهل خراسان جلهم من ربيعة واليمن فقالوا نحن نعرفهم وهم علينا ان أتاك منهم شيء تكرهه فخلى سبيلهم

وفي سنة ١٠٥ انضم الى هذه الجمعية بكير بن ماهان وهو شيخ عظيم من شيوخ هذه الدولة وكبار دعاتها وكان موسرا فساعد القوم بماله وصادف أن توفى في ذلك الوقت ميسرة القائم بالكوفة فأقامه محمد بن على مقامه فكان هو ربان هذه الدعوة يأتمر الدعاة بأمره ويسيرون في الطريق التى يشرعها لهم

كان من أول النكبات التى لحقت بهم أنه وشى بجمع من دعاتهم الى أسد ابن عبد الله القسري أمير خراسان وهو وال شديد قاس فأتي بهم وفيهم أبو عكرمة وأبو محمد الصادق ومحمد بن خنيس وعمار العبادي فقطع أيدي من ظفر به منهم وأرجلهم وصلبهم وأفلت عمار العبادي حتى أتي الكوفة فأخبر بكير بن ماهان بذلك الخبر المشؤم فكتب به الى محمد بن على فأجابه (الحمد لله الذي صدق مقالتكم ودعوتكم وقد بقيت منكم قتلى ستقتل) وقد وقع بعد ذلك عمار العبادى فى يد أسد فألحقه باخوانه

وكان أسد بن عبد الله أشد ولاة خراسان على الشيعة فكان لا يرحم أحدا منهم وقع في يده بل شرد بهم ونكل ونفي من نفي وقتل من قتل ولذلك لم يكن للدعوة فى أيامه كبير أثر حتى عزل عن خراسان سنة ١٠٩ وتلك ولايته الاولى ثم ولى خراسان مرة ثانية فأعاد معهم سيرته الاولى ففي سنة ١١٧ أخذ جماعة منهم فقتل بعضهم ومثل ببعضهم وحبس بعضهم وكان فيمن أخذ سليمان بن كثير شيخ الدعوة ومالك بن الهيثم وموسى بن كعب ولاهز بن قريظ وخالد بن ابراهيم وطلحة ابن زريق وغيرهم من النقباء فأتى بهم فقال لهم يافسقة ألم يقل الله عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه والله عزيز ذو انتقام فقال سليمان بن كثير أتكلم أم أسكت قال بل تكلم قال نحن والله كما قال الشاعر

لو بغير الماء حلقي شرق كنت كالغصان بالماء اعتصاري

تدري ماقصتنا صيدت والله العقارب بيدك أيها الأمير انا أناس من قومك (اليمن) وان هذه المضرية انما رفعوا اليك هذا لانا كنا أشد الناس على قتيبة بن مسلم وانما طلبوا بثأرهم

فانظروا كيف كان القوم يستعملون العصبيات القومية في أحرج مواقفهم للخلاص مما يقعون فيه أحيانا وقد كان ذلك الجواب سبباً في خلاص هؤلاء النقباء مما وقعوا فيه حيث وجدوا من قومهم من يدبر مع الامير أمر خلاصهم وقد خلصوا وكانت وفاة أسد سنة ١٢٠ فتنفست الشيعة بخراسان بعد وفاته

حصل بعد ذلك فى العالم الاسلامى ما كان له أعظم الفضل فى نجاح الشيعة وقصور أعدائهم عن فل حدهم وذلك

﴿ أولا ﴾ انشقاق البيت الاموي حتى تزعزع بنيانه وتصدعت أركانه وأول ذلك كان بخروج يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان على ابن عمه الوليد بن يزيد بن عبد الملك واستعان على ذلك بالقدح فى الوليد ونسبته الى العظائم من الفسوق والكفر واحلال ما حرم الله فكان معه قوم ساعدوه على ذلك وكان بعض بنى أمية يتمثل بقول الشاعر

اني أعيذكم بالله من فتن مثل الجبال تسامى ثم تندفع
ان البرية قد ملت سياستكم فاستمسكوا بعمود الدين وارتدعوا
لاتلحمن ذئاب الناس أنفسكم ان الذئاب اذا ما ألحمت رتعوا
لاتبقرن بأيديكم بطونكم فثم لا حسرة تغني ولا جزع

ولما تم ليزيد أمره ولم يعبأ بقول ناصح انتهز بعض أهل بيته هذه الفرصة لينال الخلافة وهو مروان بن محمد بن مروان فانه كتب الى الغمر بن يزيد أخي الوليد يهيجه للمطالبة بدم أخيه وقال فى ذلك الكتاب (أما بعد فان هذه الخلافة من الله على مناهج رسله واقامة شرائع دينه أكرمهم الله بما قلدهم يعزهم ويعز من يعزهم والحين

على من ناوأهم فابتغي غير سبيلهم فلم يزالوا أهل رعاية لما استودعهم الله منها يقوم بحقها ناهض بانصار لها من المسلمين وكان أهل الشام أحسن خلقه فيه طاعة وأذبه عن حرمه وأوفاه بعهده وأشده نكاية في مارق مخالف ناكث ناكب عن الحق فاستدرت نعمة الله عليهم وقد عمر بهم الاسلام وكبت بهم الشرك وأهله وقد نكثوا أمر الله وحاولوا نكث العهود وقام بذلك من أشعل ضرامها وان كانت القلوب عنه نافرة — والمطلوبون بدم الخليفة ولاته من بني أمية فان دمه غير ضائع وان سكنت بهم الفتنة والتأمت الامور فأمر الله لامر دله وقد كتبت بحالك فيما أبرموا وما ترى فاني مطرق الى أن أرى غيرا فاسطو بانتقام وأنتقم لدين الله المبتول وفرائضه المتروكة مجانة ومعي قوم أسكن الله طاعتي قلوبهم أهل اقدام الى ما قدمت به عليهم ولهم نظراء صدورهم مترعة ممتلئة لو يجدون منزعا وللنقمة دولة تأتي من الله و وقت موكل ولم أشبه محمدا ولا مروان غير أن رأيت غيرا ان لم أشمر للقدرية ازاري وأضربهم بسيفي جارحا وطاعناً برمى قضاء الله في ذلك حيث أخذ أو يرمى في عقوبة الله حيث بلغ منهم فيها رضاه وما اطراقى الا لما أنتظر مما يأتيني عنك فلا تدعن ثارك بأخيك فان الله جارك وكافيك وكفى بالله طالباً ونصيرا

وكان مروان فى ذلك الوقت أميرا للجزيرة وأرمينية ومعه جيش كبير يأتمر بأمره ولم يزل حتى أقدم على طلب الخلافة مستمسكا بهذا الحبل حتى نالها ولم يكن نيله لها بمزيل أسباب الخلاف والانشقاق في هذا البيت ولا شبهة ان انشقاق البيت المالك يحدث بطبيعة الحال انشقاقاً في قوة الدولة فلا تقوي على مصادمة عدوها

﴿ ثانياً ﴾ ظهور العصبية القومية في خراسان وانشقاق القبائل العربية وذلك أن العرب يرجعون الى شعبين عظيمين قحطان ونزار . فملك العرب القديم كان في اليمن فلما جاء الاسلام تحول الى نزار لمكان رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم وكان أمر النبوة والوحي قد باعد بين الناس وحمية الجاهلية فتآخى اليمانيون والنزاريون ووجهوا قوتهم المتحدة الى أعدائهم فنالوا في زمن قليل مالم تنله أمة قبلهم في مثل الزمن الذى ارتفع فيه قدرهم

. ولما طال الزمن تراجع الناس الى شيء مما كانوا عليه في الجاهلية بسبب أمراء السوء الذين كانوا يحيون لهم تلك الجاهلية من غير أن ينظروا الى سوء مغبتها وظهر ذلك في أقوال شعرائهم التى لها أثر شديد في أنفسهم وقد أدرك بعض شعرائهم النتائج السيئة من ذلك فقال الحارث بن عبد الله بن الحشرج الجعدي

أبيت أرعى النجوم مرتفقا　　اذا استقلت تجرى أوائلها
من فتنــة أصبحت مجللة　　قد عم أهل الصلاة شاملها
من بخراسان والعراق ومن　　بالشام كل شــحاه شاغلها
فالناس منهـا في لون مظلمة　　دهمــاء ملتجة غياطلها
يمسى السفيه الذي يعنف بالجهــــل سواء فيها وعاقلهـا
والناس في كربة يكاد لهـا　　تنبذ أولادهـا حواملها
يغـدون منها فى كل مبهمة　　عمياء تمنى لهـا غوائلها
لا ينظر الناس في عواقبهـا　　الا التى لا يبـين قائلها
كرغوة البكر أو كصيحة حبـــلى طرقت حولهـا قوابلها
فجاء فينا أزري بوجهتــه　　فيها خطوب حمر زلازلهـا

وهذا أحسن وصف سمعته فى وصف الفتن وغمرها الناس كافة من سفيه وحليم كان بخراسان واليان مختلفان جاء أحـدهما بعد الآخر فأما أولهما فهو أسد بن عبد الله القسرى وهو من اليمن فكان ضلعه مع قومه من أهل اليمن يتعصب لهم وكان شيعته بخراسان قوية الى قوة الدولة نفسها فلم يكن هناك ما يهيجه وثانيهما نصر ابن سيار وهو من كنانة ثم من مضر فكان ضلعه مع قومه الا أن شيعته بخراسان لم تكن بذاك وقد كان هشام بن عبد الملك بن مروان الذي ولاه يعلم ذلك فانه لمـا استشار فيمن يوليه خراسان بعد أسد كان مستشاره يسمى له أشخاصا بمـا لهم من محامد ومذام فلما جاء ذكر نصر بن سيار قال ان اغتفرت له واحدة فانه عفيف مجرب عاقل قال هشام وما هى فقال المشير عشيرته بها قليلة فقال هشام أتريد عشيرة أكثر

مني أنا عشيرته . وهذه جملة صحيحة في زمن قوة الدولة الناشئة عن اتحاد الفاتحين فأما بعد الانصداع فليست بصحيحة

ظهر الانشقاق في عهد نصر بن سيار هذا بين النزارية واليمانية وكان رئيس النزارية وكبيرهم نصر بن سيار الامير وكبير اليمانية جديع بن شبيب المعنى المعروف بالكرماني وانما عرف بذلك لانه ولد بكرمان وكان نصر والكرماني قبل ذلك متصافيين الا أن الفتنة الناشئة عن حمية الجاهلية فرقت بينهما . وكانت النزارية أيضاً منشقة فربيعة في جانب ومضر في جانب وكان أكثر ربيعة مع شيبان بن سلمة الحروري الخارج على الدولة يطلب العمل بكتاب الله وسنة رسوله فكانت هذه الفرق الثلاث متعادية

حصلت حروب بين نصر والكرماني وكانت القوة للكرماني فأجلى نصرا عن مرو حاضرة خراسان فهدم اليمنيون دور المضرية فقالت امرأة من ضبة وهي أم كثير الضبية

لا بارك الله في أنثي وعذبها ... تزوجت مضريا آخر الدهر
أبلغ رجال تميم قول موجعة ... أحللتموها بدار الذل والفقر
ان أنتم لم تكروا بعد جولتكم ... حتى تعيدوا رجال الازد والظهر
انى استحييت لكم من بذل طاعتكم ... هـذا المزوني يجبيكم على قهر

قال شاعر آخر

ألا يانصر قد برح الخفـاء ... وقد طال التمنى والرجاء
وأصبحت المزون بارض مرو ... تقضي فى الحكومة ماتشاء
يجوز قضاؤها فى كل حكم ... على مضر وان جار القضاء
وحمـير فى مجالسهـا قعود ... ترقرق فى رقابهـم الدماء
فان مضر بذا رضيت وذلت ... فطال لهـا المذلة والشقاء
وان هي اعتبت فيهـا والا ... فحـل على عسا كرها العفاء

في أثناء وقوع هذه الحوادث توفي محمد بن علي امام الشيعة الذي يدعون اليه وأدلى بالامر من بعده الى ابنه ابراهيم وأعلم الشيعة بذلك فقاموا بالدعوة اليه مكان أبيه . ثم توفي بكير بن ماهان شيخ الشيعة بالكوفه فأقام ابراهيم بن محمد مكانه حفص بن سليمان المعروف بابي سلمة الخلال وأصله مولي لبني الحارث بن كعب وكان صهرا لبكير بن ماهان فاوصى ابراهيم أن يقيمه مكانه

واتصل بابراهيم في تلك الاوقات شاب من نوابغ الشبان وذوي المقدرة والعزيمة وهو أبو مسلم الخراساني وأصله مولى لعيسى بن معقل العجلى اشتراه منه بكير بن ماهان وعنه تلقى أصول التشيع ثم اتصل بمحمد بن علي سنة ١٢٥ ثم بابنه ابراهيم وكانت تظهر عليه مخايل النجابة وقوة العزم وكانت الشيعة بخراسان في حاجة الى مثله ليشرعوا في العمل بعد أن أمكنتهم الفرصة بما وقعت فيه الدولة الاموية من الخلاف وما وقع فيه عرب خراسان من الانشقاق فاختار ابراهيم أبا مسلم لتلك المهمة وكتب الى أصحابه اني قد أمرته بأمري فاسمعوا منه واقبلوا قوله فانى قد أمرته على خراسان وماغلب عليه بعد ذلك وكان مما أوصى به أبا مسلم قوله

« ياعبد الرحمن انك رجل منا أهل البيت فاحتفظ وصيتي . وانظر هذا الحي من اليمن فاكرمهم وحل بين أظهرهم فان الله لايتم هذا الامر الا بهم . وانظر هذا الحي من ربيعه فاتهمهم في أمرهم . وانظر هذا الحي من مضر فانهم العدو القريب الدار فاقتل من شككت فيه ومن كان في أمره شبهة ومن وقع في نفسك منه شيء وان استطعت ألا تدع بخراسان لسانا عربيا فافعل فأيما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله ولا تخالف هذا الشيخ (يعني سليمان بن كثير) ولا تعصه وان أشكل عليك أمر فاكتف به منى »

وانما أمره بتقريب أهل اليمن لانهم أعداء الدولة الحاضرة للعصبية التى كانت نارها مشتدة بين أهل خراسان اذ ذاك ولهذا السبب أوصاه بالشدة على مضر فانهم كانوا أصحاب الدوله . ومما يدل علي اعتماد بنى العباس على أهل خراسان دون العرب

قول الامام (وان استطعت ألا تدع بخراسان لسانا عربيا فلفعل-) ساو أبو مسلم مزودا بهذه الوصية حتى حل بخراسان وذلك سنة ١٢٨ وكانت الحال قد بلغت أشدها بين العرب بخراسان فاقام يدبر الامور . وبعد سنة تهيأ لزيارة الامام ومعه عدد كبير من الدعاة ولما بلغ قومس أتاه كتاب من الامام يقول فيه (اني قد بعثت اليك براية النصر فارجع من حيث ألفاك كتابي ووجه الى قحطبة بما معك يوافني به في الموسم) فعاد أبو مسلم الى مرو مستعدا للعمل

دور العمل

نزل أبو مسلم بقرية من قرى مرو يقال لها سفيذنج وهناك بث دعاته في الناس ليجتمعوا اليه فانثال اليه الناس وكان ذلك فى رمضان سنة ١٢٩ . ولخمس بقين منه عقد اللواء الذي بعث به الامام ويدعي الظل على رمح طوله أربعة عشر ذراعا وعقد الراية التى تدعى السحاب على رمح طوله ثلاثه عشر ذراعا وهو يتلو قوله تعالى (اذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير) ولبسوا السواد الذي جعل شعارا للدولة العباسية وقدم على أبي مسلم الدعاة من أهل مرو ومن أجاب الدعوة

كان أول مافعله أبو مسلم ان أمر برم حصن سفيذنج وأقام به هو ومن معه ولما حضر عيد الفطر سنة ١٢٩ أمر سليمان بن كثير أن يصلي به وبالشيعة ونصب له منبرا في العسكر وأمره أن يبدأ بالصلاة قبل الخطبة بغير أذان ولا اقامة وكانت بنو أمية تبدأ بالخطبة والاذان ثم بالصلاة بالاقامة كصلاة يوم الجمعة فيخطبون على المنابر جلوسا في الجمعة والاعياد . وأمره أن يكبر ست تكبيرات تباعا ثم يقرأ ويركع بالسادسة ويفتتح الخطبة بالتكبير ويختمها بالقرآن وكانت بنو أمية تكبر فى الركعة الاولى أربع تكبيرات يوم العيد وفي الثانية ثلاث تكبيرات ولما تمت الصلاة انصرف هو ومن معه الى طعام أعد لهم مستبشرين

كتب أبو مسلم الى نصر بن سيار يقول له (أما بعد فان الله تباركت أسماؤه وتعالى ذكره عير أقواما في القرآن فقال (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن

أهدى من احـدى الأمم فلما جاءهم نذير مازادهم الا نفورا استكبارا فى الارض ومكر السيء ولا يحيق المكر السيء الا بأهله فهل ينظرون الا سنة الاولين فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا) فتعاظم نصر الكتاب ولا سيما انه رأى أبا مسلم بدأ فيه بنفسه

وكان جوابه ان وجه الى أبى مسلم مولي له اسمه يزيد في خيل عظيمة فوجه اليه أبو مسلم مالك بن الهيثم الخزاعي فالتقوا بقرية تدعى آلين وكانت بين الفريقين موقعة انتهت بانتصار الشيعة وأسر يزيد رئيس جند نصر بعد ان جرح فأمر أبو مسلم بمداواته حتى برأ ثم خيره بين أن يقيم معه ويدخل في دعوته وأن يرجع الى مولاه سالما ويعطي عهد الله وميثاقه ألا يحاربهم ولا يكذب عليهم وأن يقول فيهم مارأى فاختار الرجوع الى مولاه وقال أبو مسلم لمن معه ان هذا سيرد عنكم أهل الورع والصلاح فانا ما نحن عندهم على الاسلام

قدم يزيد على نصر فقال له نصر لا مرحباً بك والله ماظننت استبقاك القوم الا ليتخذوك حجة علينا فقال يزيد هو والله ماظننت وقد استحلفوني ألا أكذب عليهم وأنا أقول انهم يصلون الصلاة لمواقيتها بأذان واقامة ويتلون كتاب الله ويذكرون الله كثيرا ويدعون الى ولاية رسول الله صلى الله عليه وسلم وما أحسب أمرهم الا سيعلو ولولا أنك مولاي أعتقتني من الرق مارجعت اليك ولأقمت معهم

كثرت بعد ذلك وفود الناس على أبى مسلم ووجدت الدعوة في قلوبهم مكانا صالحا فضاقت عليه سفيذنج فرحل الى الماخوان وهي قرية كبيرة من قرى مرو كانت للعلاء ابن حريث ولابي العلاء خالد بن عثمان فحصنها وخندق حولها وكانت عدة من معه فى الخندق سبعة آلاف رجل

رأى عرب خراسان ان ما بينهـم من هذه الفرقة والحروب تشد أزر عدوهم وكانوا ثلاث فرق كما قدمنا وكان الكرمانى قد قتل فى احدى وقائعه مع نصر وأجلى قومه عن مرو وخلفه في قيادة اليمانيين ابنه على فكتب نصر الى شيبان الحروري

يقول له ان شئت فكف عني حتى أقاتله وان شئت فاتفق معي على حربه حتى أقتله أو أنفيه ثم نعود الى أمرنا الذي كنا عليه فهم شيبان أن يفعل ولكن أبا مسلم كانت له عين لا تنام فأرسل الى علي بن الكرماني يقول له انك موتور قتل أبوك ونحن نعلم انك لست على رأي شيبان وانما تقاتل لثأرك فامنع شيبان من صلح نصر فدخل ابن الكرماني على شيبان ولم يزل به حتى ثناه عن رأيه فأرسل نصر الى شيبان انك لمغرور وايم الله ليتفاقمن هذا الامر حتى تستصغرني بجانبه

وفي أثناء ذلك كان أبو مسلم يرسل قواده فيستولون على البلاد من عمال نصر ولا يجدون مقاومة تذكر. ولما رأت ذلك ربيعة وعلمت شدة أمر أبي مسلم أرسلت الى نصر تطلب منه الموادعة فأجاب الى ذلك وتوادعوا سنة . بلغ ذلك أبا مسلم فأرسل الى ابن الكرماني يهيجه بأخذ الثأر فقال أني ماصالحت نصرا وانما صالحت شيبان وأنا لذلك كاره وأنا موتور ولا أدع قتاله فعاود القتال وأبي شيبان ان يعينه وقال لا يحل الغدر فأرسل ابن الكرماني الى أبي مسلم يستنصره وهذا كل مايريده فأرسل اليه اني معك على نصر فاشتد ذلك على نصر وكتب الى أبي مسلم يلتمس منه ان يدخل مع نصر وبعثت اليه ربيعة بمثل ذلك كلهم طلب معونة هذا الفتاك الذي ليست له غاية الا الفتك بهم جميعا فأمرهم أبو مسلم أن يقدم عليه وفد كل منهم حتى يختار ففعلوا وأمر أبو مسلم متكلمي الشيعة أن يختاروا وفد ربيعة وقحطان فان السلطان في مضر وهم عمال مروان وهم قتلة يحيى بن زيد . ولما قدمت عليه الوفود فعل الشيعة ما أمروا به فنهض وفد مضر تعلوهم المذلة والكآبة ورجع وفد ربيعة وقحطان مسرورين ظافرين ولم يدروا ماخبأه لهم الغيب

بذلك ظفر أبو مسلم ظفرا عظيما فانه فرق كلمة العرب بعد ان كادت تجتمع عليه فقام من الماخوان في جمادى الاولي سنة ١٣٠ يريد مرو وأرسل اليه ابن الكرماني ان ادخل حائط مرو من قبلك وأدخل أنا وعشيرتي من قبلي فأرسل اليه أبو مسلم ان لست آمن ان تجتمع يدك ويد نصر على حربي ولكن ادخل أنت

فأنشب الحرب فدخل ابن الكرمانى وأنشب الحرب وأمر أبومسلم أحد قواده بدخول مرو فدخلها وأعقبه أبو مسلم دخل والقتال دائر بين الكرماني ونصر فأمر الفريقين ان يكفا وهو يتلو (ودخل المدينة علي حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه). ومضى أبو مسلم حتى دخل دار الامارة وهرب نصر مستخفيا

صفت مرو لابي مسلم وأمر أحد النقباء باخذ البيعة علي أهلها ونص البيعة (أبايعكم على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم عليكم بذلك عهد الله.وميثاقه والطلاق والعتاق والمشي الى بيت الله الحرام وعلى ألا تسألوا رزقا ولاطعما حتى يبدأكم به ولاتكم وان كان عدو تحت قدمه فلا تهيجوه الا بأمر ولاتكم) وأخذ أبو مسلم ثقات أصحاب نصر وصناديدهم فكتفهم وحبسهم ثم قتلهم

أرسل بعد ذلك الى شيبان الحروري يدعوه الى بيعته فأبى وسار عن مرو الى سرخس فوجه اليه أبومسلم جندا فكانت هناك موقعة قتل فيها شيبان وعدد عظيم ممن معه . و بعد نيل هذا الانتصار عمد الى ابنى الكرماني على وعثمان اللذين ائتمناه على حياتهما فقتلهما وأكثر أصحابهما

صفت خراسان كلها لابي مسلم فبعث العمال الى جميع الولايات وأمر أحد قواده قحطبة بن شبيب ان يتبع نصرا ومعه لواء عقده له ابراهيم الامام فساروراءه من بلد الى بلد حتى مرض نصر بالري ومات بساوة فاقبل قحطبة بجنوده واستولى على الري فتم للشيعة خراسان وبلاد الجبل ثم سير قحطبة ابنه الحسن فاستولى على همذان ومنها سار الى نهاوند فحصرها ولحقه بها أبوه فاجتمعا عليها ثلاثة أشهر ثم فتحت وتلاها شهر زور والموصل . سار قحطبة بعد ذلك واغلا في بلاد العراق فقصده ابن هبيرة أمير العراق من قبل مروان بن محمد وكان اجتماعهما غربى الفرات على نحو ٢٣ فرسخا من الكوفة وقبل أن تقع بينهما الموقعة الكبرى مات قحطبة فولي أمرة الجيش ابنه الحسن وكان قحطبة قبل موته قد قال اذا قدمتم الكوفة فوزير آل محمد ابو سلمة الخلال فسلموا الامر اليه

جرت أثناء ذلك وقائع انهزم فيها ابن هبيرة فسار منها حتى أتى واسطا . وقبل ان يدخل الحسن بن قحطبة الكوفة خرج منها محمد بن خالد القسرى مسودا فاستولى على قصرها ولم يكن قد علم بهلاك قحطبة فكتب اليه يعلمه فوصل الكتاب الى ابنه الحسن فارتحل الى الكوفة فدخلها فى المحرم سنة ١٣٢ وسلم الامر لابي سلمة الخلال فوجه الحسن الى قتال ابن هبيرة بواسط وضم اليه قوادا . ووجه حميد بن قحطبة الى المدائن . ووجه المسيب بن زهير وخالد بن برمك الى دير قنى . وبعث المهلبي وشراحيل الى عين التمر . وبسام بن ابراهيم الى الاهواز وخرج هو من الكوفة فعسكر عند حمام أعين على نحو ثلاثة فراسخ من الكوفة

جرت هذه الوقائع بخراسان والعراق ونار الفتنة مشتعلة بالشام وبالحجاز

افتضاح الامر

مضت هذه المدة كلها وليس عند بنى أمية علم بمن تدعو اليه الشيعة فانهم كانوا يدعون الى الرضا من آل محمد صلى الله عليه وسلم ولا يعلم السر الا النقباء والدعاة أما العامة فمبلغ علمها أنها تدعي لرجل من آل البيت حتى وقع فى يد مروان بن محمد كتاب لابراهيم الى أبي مسلم جواب كتاب لابى مسلم يأمره فيه بقتل كل من يتكلم بالعربية بخراسان فارسل مروان في الحال الى عامله بدمشق يأمره بالكتاب الى صاحبه بالبلقاء أن يسير الى الحميمة ويأخذ ابراهيم بن محمد ويوجه به اليه ففعل العامل ما أمر به وقبض على ابراهيم ولما أحس ابراهيم بما يراد به نعى نفسه الى أهل بيته وأوصى الى أخيه أبي العباس وأمر أهله بالسير الى الكوفة والسمع والطاعة لابي العباس . أما ابراهيم فحبس فى سجن حران مع جماعة من أعداء مروان من بني أمية ولم يزل في سجنه حتى مات وكيفية موته مبهمه اختلف فيها المؤرخون فمنهم من قال انه سقى سما ومنهم من قال هدم عليه بيت فمات . ومما قيل في رثائه

قدكنت أحسبني جلدا فضعضعني ... قبر بحران فيه عصمة الدين

فيه الامام وخير الناس كلهم ... بين الصفائح والاحجار والطين

فيه الامام الذي عمت مصيبته وعيلت كل ذي مال ومسكين
فلا عفا الله عن مروان مظلمة لكن عفا الله عمن قال آمين

وأما أهل بيته فتجهزوا يريدون الكوفة حتى قدموها في صفر سنة ١٣٢ ورئيس القوم وقائدهم أبوسلمة الخلال الذي كان يعرف في ذلك الوقت بوزير آل محمد فأنزلهم في احدى دور الكوفة وكتم أمرهم عن سائر القواد أربعين ليلة وكان لا يزال في معسكره بحمام أعين خارج الكوفة

ويقال انه لما سبر أحوالهم عزم على العدول عنهم الى بني علي فكاتب ثلاثة من أعيانهم جعفر الصادق بن محمد الباقر وعبد الله المحض بن حسن بن حسن وعمر الاشرف بن زين العابدين وأرسل الكتب مع رجل من مواليهم وقال له اقصد أولا جعفر بن محمد فان أجاب فأبطل الكتابين الآخرين فان لم يجب فالق عبد الله المحض فان اجاب فأبطل كتاب عمر وان لم يجب فالق عمر فذهب الرسول الى جعفر بن محمد اولا ودفع اليه كتاب ابى سلمة فقال مالي ولابي سلمة وهو شيعة لغيري فقال له الرسول اقرأ الكتاب فقال جعفر لخادمه أدن السراج مني فأدناه فوضع الكتاب على النار حتى احترق فقال الرسول ألا تجيبه فقال قد رأيت الجواب . ثم مضى الرسول الى عبد الله المحض ودفع اليه الكتاب فقرأه وقبله وركب في الحال الى جعفر وقال هذا كتاب أبي سلمة يدعوني فيه الى الخلافة قد وصل على يد بعض شيعتنا من أهل خراسان فقال له جعفر ومتى صار أهل خراسان شيعتك أأنت وجهت اليهم ابا مسلم هل تعرف أحدا منهم باسمه أو بصورته فكيف يكونون شيعتك وأنت لا تعرفهم وهم لا يعرفونك فقال عبدالله كأن هذا الكلام منك لشيء فقال جعفر قد علم الله أني أوجب النصح على نفسي لكل مسلم فكيف ادخره عنك فلا تمن نفسك الاباطيل فان هذه الدولة ستتم لهؤلاء وقد جاءني مثل الكتاب الذي جاءك فانصرف عبد الله من عنده غير راض . وأما عمر بن زين العابدين فانه رد الكتاب وقال أنا لا أعرف صاحبه فأجيبه . أحس بعض القواد بأمر أبى سلمة فأحبطوا ما أراده وذهبوا الى

الكوفة فقابلوا أبا العباس وسلموا عليه بالخلافة ودخل بعدهم أبو سلمة ففعل كما فعلوا وقد أبقى هذا العمل في نفس أبى العباس ماابقى فترتب عليه ما يأتي ذ كره

خرج أبو العباس يوم الجمعة ١٣ ربيع الاول فصلى بالناس وكان فى خطبته بعد حمد الله والثناء عليه ان افتخر بقرابته من رسول الله صلى الله علية وسلم ثم ذكر الخلفاء الراشدين وأثنى عليهم ونعى على بني حرب وبنى مروان أثرتهم وظلمهم ثم قال (واني لأرجو الا يأتيكم الجور من حيث أتاكم الخير ولا الفساد من حيث جاءكم الصلاح وما توفيقنا أهل البيت الا بالله يا أهل الكوفة أنتم محل محبتنا ومنزل مودتنا أنتم الذين لم تتغيروا عن ذلك ولم يثنكم عنه تحامل أهل الجور عليكم حتى أدركتم زمننا وأتاكم الله بدولتنا فأنتم أسعد الناس بنا وأكرمهم علينا وقد زدتكم في اعطياتكم مئة درهم فاستعدوا فأنا السفاح المبيح والثائر المنيح) وبهذه الجملة الاخيرة لقب السفاح

كان السفاح اذ ذاك موعوكا فاشتد به الوعك فجلس على المنبر وصعد داود بن علي عمه وكان من افصح بني العباس فخطب خطبة جاء فيها (انا والله ماخرجنافى هذا الامر لنكثر لجينا ولا عقيانا ولا نحفر نهرا ولا نبنى قصرا وانما اخرجنا الأنفة من ابتزازهم حقنا والغضب لبني عمنا وما كرثنا من أموركم وبهظنا من شئونكم ولقد كانت أموركم ترمضنا ونحن على فرشنا ويشتد علينا سوء سيرة بنى أميه فيكم وخرقهم بكم واستذلالهم لكم واستئثارهم بفيئكم وصدقاتكم ومغانمكم لكم ذمة الله وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم وذمة العباس رحمه الله ان نحكم فيكم بما أنزله الله ونعمل فيكم بكتاب الله ونسير في العامة منكم والخاصة بسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم) ثم منى أهل الكوفة بما يحلو في أسماعهم ومدح أهل خراسان بما قاموا به من نصر أهل بيت النبى صلى الله عليه وسلم واعادة حقوقهم وقال في آخر خطبته (ألا وانه ماصعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم الا أمير المؤمنين على بن أبي طالب وأمير المؤمنين عبد الله بن محمد (وأشار بيده الى أبي العباس) فاعلموا ان هذا الامر فينا حتى نسلمه الى عيسى بن مريم صلوات الله عليه)

بعد ان تمت الخطبتان والصلاة خرج السفاح الى القصر وأجاش أخاه أبا جعفر ليأخذ البيعة على الناس فى المسجد فلم يزل يأخذها عليهم حتى صلى بهم العصر ثم صلى بهم المغرب وجنهم الليل فدخل

ثم خرج أبو العباس الى المعسكر بحمام أعين واستخلف على الكوفة عمه داود بن على

. بعد ان بلغوا هذا المبلغ بقى عليهم ان يقضوا على مروان بن محمد والقوة العظمى التي معه بالجزيرة وعلى ابن هبيرة والقوة التى معه بواسط

كان مروان بحران معه قوة عظيمة ومنها سار حتى أتى الموصل فاختار أبو العباس من أهل بيته عمه عبد الله بن على ليكون قائدا للجنود التي اختيرت لحرب مروان وكان ملتقى هذين الجيشين على نهر الزاب الاعلى وهو أحد روافد نهر دجلة يأتيها من الشرق وكانت الواقعة شديدة جدا انتهت بانتصار عبد الله وجنوده فهرب مروان واحتوى عبد الله معسكره كله وذلك لاحدي عشرة خلون من جمادى الآخرة سنة ١٣٢ وكان مع مروان من الجنود ١٢٠ ألفا من نخبة أهل الشام وخيرة جنودها

- انهزم مروان حتى أتى حران وعاملها ابن أخيه ابان بن يزيد بن محمد فاقام بها نيفا وعشرين يوما ولما دنا منه عبد الله رحل عنها بأهله وولده وقدم عبد الله فلقيه ابان مسودا مبايعا له فبايعه ودخل في طاعته فأمنه ومن كان بحران والجزيرة

مضى مروان حتى أتى قنسرين وعبد الله يتبعه ثم مضى منها الى حمص ثم أتى دمشق وعليها الوليد بن معاوية بن مروان فلما أحس باقتراب عبد الله رحل عنها فجاءها عبد الله ودخلها عنوة معترضاً أهلها وقتل الوليد بن معاوية أميرها فيمن قتل

- . مر مروان بالأردن وفلسطين ومضى حتى أتى الفسطاط ومنها خرج الى بوصير وهي قرية من مركز الواسطى ببني سويف

- أما عبد الله بن على فجاءه كتاب من أبي العباس يأمره ان يوجه صالح بن على في ملاحقة مروان فسار صالح في ذي القعدة سنة ١٣٢ وكان يسير على ساحل البحر

والسفن حذاءه حتى وصل الى مصر ومن هناك سار حتي أتى بوصير وهناك قتل مروان ابن محمد لثلاث بقين من ذي الحجة سنة ١٣٢ و بقتله انتهت دولة بني أمية من المشرق وتوطدت دعائم الدولة العباسية

وأما يزيد بن عمر بن هبيرة فانه لما انهزم من جيش خراسان أتى واسطا وتحصن بها وكان مشيروه قد أشاروا عليه بأن يذهب الى الكوفة فيقاتل حتى يقتل أو يظفر وحذروه واسطا كيلا يصير في حصار وليس بعد الحصار الا القتل فخالف تلك الشورى فسير أبو سلمة الجيوش تحت قيادة الحسن بن قحطبه فكانت بينهم وقائع ثم احتمى ابن هبيرة ومن معه بحصونهم . ولما طال الامر أرسل أبو العباس أخاه أباجعفر على الجيش فاحتدم القتال بين الفريقين وظلوا هكذا أحد عشر شهرا ولما أتى ابن هبيرة قتل مروان بن محمد طلب بمن معه الصلح وجرت السفراء بينه وبين ابي جعفر حتى جعل له أمانا وكتب به كتابا مكث يشاور العلماء فيه أربعين ليلة حتى رضيه ابن هبيرة ثم أنفذه الى أبي جعفر فانفذه أبو جعفر الى السفاح فامر بامضائه وكان رأي أبي جعفر الوفاء له بما أعطاه وكان السفاح لا يقطع أمرا دون أبي مسلم فكتب أبو مسلم الى السفاح يقول له ان الطريق السهل اذا ألقيت فيه الحجارة فسد لا والله لا يصلح طريق فيه ابن هبيرة

ولما تم الكتاب خرج ابن هبيرة الى أبي جعفر فدخل عليه وحادثه ساعة و بعد أيام أمر أبو جعفر بقتل ابن هبيرة ومداد الامان لم يجف وقتل معه عدة من وجوه أصحابه ورثاه منقذ بن عبد الرحمن الهلالي بقوله :

منع العزاء حرارة الصدر والحزن عقد عزيمة الصبر
لما سمعت بوقعة شملت بالشيب لون مفارق الشعر
افني الحماة الغران عرضت دون الوفاء حبائل الغدر
مالت حبائل امرهم بفتى مثل النجوم حففن بالبدر
عالى نعيهم فقلت له هلا اتيت بصيحة الحشر

لله درك من زعمت لنا ان قد حوته حوادث الدهر
من للمنابر بعد مهلكهم او من يسد مكارم الفخر
فاذا ذكرتهم شكا الما قلبي لفقد فوارس زهر
قتلى بدجلة ما ينهنهم الاعباب زواخر البحر
فلتبك نسوتنا فوارسهم خير الحماة ليالي الذعر

وبقتل ابن هبيرة انطفأ آخر مصباح للدولة الاموية

قامت الدولة العباسية ودخل في حوزتها هذا الملك الطويل العريض الذي وضع اساسه خارج جزيرة العرب ابو بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وشاد بنيانه امير المؤمنين عمر بن الخطاب ومكن قواعده وزان جوانبه بنو امية بن عبد شمس وسنأتي على وصفه بعد ان نبدي ملاحظة بشأن قيام هذه الدولة

قامت هذه الدولة باسم الدين والسلاح الذي استعمل فيها للتأثير في العقول هو اعادة الامر لآل محمد صلى الله عليه وسلم ونزعه من آل مروان الذين وصفهم الداعون بما شاؤا من صفات النقص والبعد عن الدين ووضعوا في ذمهم احاديث اسندوها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يعرفها رجال النقد من المحدثين . كان ذلك السلاح يصل الى شغاف القلوب فيثيرها من مكمنها

اختار القوم لغرس دعوتهم بلادا كانت قبل مهدا للتشيع وحب آل البيت وهي الكوفة وخراسان فقديما قامت بلاد العراق بنصر على بن أبي طالب وقامت لتثأر بالحسين بن على وجاهدت فى نصرة زيد بن على بن الحسين وابنه يحيى فلم تترك فرصة لذلك الا انتهزتها . ثم اختاروا بلاد خراسان لتكون مشرقا لقوتهم واذاعوا في ذلك أحاديث كثيرة فأعدوا قلوب أهليها لذلك . وكان الذين دخلوا فى الاسلام من الفرس اقرب من غيرهم الى التأثر بآراء الشيعة لانهم لا يفرقون بين خلافة وملك وكان الملك عندهم ينال بالارث وهو منحة يمنحها الله للاسرة المالكة فمن عارضها فيه فهو خارج عليها يستحق المقت واللعنة فاذا التى اليهم فى التعاليم ان بنى أمية غصبوا

أهـل بيت النبي حقهم سهلت الى ذلك اجابتهم واعتقدوا ان بنى أمية يجب قتالهم وتخليص هذا الحق المقدس منهم ولهذا كان من الوصايا التى بنيت عليها سياسة الدعوة العباسية (ان قدرت الا تبقى بخراسان من يتكلم بالعربية فافعل) وهي وصية لم تلاحظ فيها العواقب البعيدة وانما لوحظت فيها الفوائد العاجلة

وفوق ماتقدم كانت أمة الفرس ذات تاريخ عظيم قديم وكانت لها السيادة على أكثر الامم العربية بالعراق واليمن ثم رأوا دولتهم قد دالت وصاروا موالي للعرب يتحكم العرب في رقابهم وفي أموالهم فوجدوا هذه فرصة يستردون بها شيئاً مما كان لهم من العظمه التاريخية ويذلون هؤلاء العرب الذين سطوا عليهم فرأوا انهم بمساعدتهم لهذه الدولة الجديدة يكونون اصحاب الكلمة المسموعة فيها والسلطان النافذ . وتأثير هذا السبب فى الخاصة أكثر منه في العامة . فهذا النزاع كان فى الحقيقة بين العرب والفرس لا بين بنى أمية والعباس وحدهم

استعان القوم بامر هـذه الدعوة على عرب خراسان بما كان بينهم من الخلاف الذي احيته العصبية الجاهلية وهذه العصبيات عند العرب لا يمكن اخمادها الا من طريق الدين وكان تأثيره قد ضعف اذ ذاك على ان الامراء كانوا يزيدون من سورته حدة كأنهم رأوا ان سلطانهم لا يتم اذا اجتمعت الامة . وقد أثبت التاريخ ان جميع الاغبياء من الملوك والامراء متى رأوا مصلحتهم في ايقاع الخلاف والنفرة بين أممهم وعملوا بذلك يزول بسرعة ملكهم

استعمل فى الوصول الى احياء الدولة العباسية عسف شديد جدا فقد كان من الوصايا التى القيت الى أبي مسلم (واقتل من شككت فيه) ولا يخفى ان حزم أبي مسلم كان يسوقه الى كثرة الشك فيمن دخل تحت لوائه من عرب وعجم فلم يكن يتأخر لحظة فى قتل من دخله أقل ريب فيه حتى وصل الي غرضه وسنبين ان هذه القاعدة أتت على أكبر رجال هذه الدولة وعلى أبي مسلم أيضاً وقد أحصي من قتله أبومسلم صبرا فكان ستمائة ألف

ولم يكن القوم يأنفون من الغدر بمن ائتمنهم وهـذا على خلاف ما كانت عليه العرب في جاهليتهم وفي بدء اسلامهم وفي فتوحهم فقد كان الوفاء عندهم من ألزم مايجب عليهم ووصايا أمرائهم في ذلك معروفة مشهورة فلما دخل بينهم هؤلاء الاغنام سهلوا لهم طريق الغدر بمن ائتمنهم على حياته واستحقوا بذلك ماحلاهم به محمد بن على بن طباطبا فى كتابه المعروف بالفخرى في الآداب السلطانية قال اعلم ان الدوله العباسية كانت دولة ذات خدع ودهاء وغدر وكان قسم التحيل والمخادعة فيها أوفر من قسم القوة والشدة

وصف المملكة الاسلامية حين استيلاء بنى العباس

كانت المملكة الاسلامية تمتد من أقصى المشرق عند كاشغر الي السوس الاقصى على شاطيء بحر الظلمات وطولها على ماذكره أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي المعروف بالبشارى في كتابه الموسوم بأحسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ٢٦٠٠ فرسخ وتمتد عرضاً من شواطيء بحر قزوين الى أواخر بلاد النوبة وهي منقسمة الى أقسام كبرى وكل قسم يشتمل على ولايات وها نحن أولاء نذكر هذه الاقسام وما فيها من الولايات

(١) جزيرة العرب وتشتمل على أربع كور جليلة

الاولى — الحجاز وقصبته مكة ومن مدنه طيبة وينبع والجار وجـدة والطائف وغيرها

الثانية — اليمن وما كان نحو البحر فهو غور واسمه تهامة وقصبته زبيد وما كان من ناحية الجبل فهو نجد وقصبته صنعاء

الثالثة — عمان وقصبتها صحار على شاطيء بحر الهند

الرابعة — هجر وقصبتها الاحساء

ويتبع اليمن من النواحي الاحقاف وبها من المدن حضرموت . ومهرة وبها من المدن الشحر . ويتبع هجر اليمامة وقصبتها حجر . ويتبع الحجاز وادي القري

وبهذه الجزيرة مكة وبها بيت الله الحرام والكعبة المقدسة التى جعلها الله قياما للناس وهي قبلة المسلمين كافة في صلاتهم — وبها طيبة وهي مهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم ومبعث النور الاسلامى

وأمة هـذا القسم عربية محضة تتكلم اللسان العربي الا بصحار فان نداءهم وكلامهم بالفارسية وأكثر أهل عدن وجدة فرس الا أن اللغة عربية

ومذاهبهم السياسية التشيع ببلاد اليمن والخوارج بعمان وهجر والسنة فيما عداهما

وبشمال هـذا القسم بادية العرب وهى بادية ذات مياه وغدران وآبار وتلال ورمال وقرى ونخيل قليلة الجبال كثيرة العرب مخيفة السبل خفية الطرق طيبة الهواء ردية الماء ليس بها بحيرة ولا نهر الا الازرق ولا مدينة الا تيماء وفيها اثنا عشر طريقا توصل الى مكة منها تسع طولا يؤدين الى مكة وثلاث عرضاً يؤدين الى الشام وبها طريق آخر لوادي القرى يؤدى اليها من البصرة ثم الى مصر وهـذه الطرق هى (١) طريق مصر (٢) طريق الرملة (٣) طريق الشراة (٤) طريق تبوك (٥) طريق وبير (٦) طريق بطن السر (٧) طريق الرحبة (٨) طريق هيت (٩) طريق الكوفة (١٠) طريق القادسـية (١١) طريق واسط (١٢) طريق وادي القرى (١٣) طريق البصرة وقد أجاد وصف هذه الطرق البشارى في كتابه أحسن التقاسيم ص ٢٤٩ وما بعدها فراجعه

(١) اقليم العراق وبه ست كور

الاولى — الكوفة وقصبتها الكوفة وهي من المدن الاسلامية وبها من المدن القادسية وعين التمر

الثانية — البصرة وقصبتها البصرة وهي من المدن الاسلامية وبها من المدن الأبلة وعبادان

الثالثة — واسط وقصبتها واسط وهي من المدن الاسلامية وبها من المدن فم الصلح

الرابعة — المدائن وقصبتها المدائن وهي مدينة كسروية وبها النهروان والدسكرة وجلولاء

الخامسة — حلوان وقصبتها حلوان وبها من المدن خانقين والسيروان

السادسة — سامراء وقصبتها سامراء وبها من المدن الكرخ وعكبرا والانبار وهيت وتكريت

وهذا الاقليم كان يسمى فى القديم اقليم بابل وهكذا كان اسمه فى التقويم لاول عهد العباسيين ولقد كان زهرة ملك العباسيين وأجمل بلدان الدنيا وأثراها ورافداه الدجلة والفرات من أحسن أنهار الدنيا

وأمة هـذا الاقليم نبطية دخل عليها العرب في بلادها فزاحموها وصارت كأنها لهم ولذلك صارت لغـة هذا الاقليم عربية وأصبح لغاتهم الكوفية لقربها من البادية وبعدهم عن النبط وأما البطائح فنبط والذين نزلوا بهذا الأقليم من العرب أ كثر من الذين نزلوا منهم بأي اقليم آخر ماعدا الشام والجزيرة وقد كانوا بهذه الاقاليم الثلاثة قبل الاسلام وكان بها منهم ملوك المناذرة بالعراق والغساسـنة بالشام الا انهم لم يكونوا مستقلين بالملك بل كانوا تحت رعاية الفرس والروم فلما جاء الاسلام اتسق لهم الملك بالاقليمين وكان الشام مهد الدولة الاموية كما كان العراق مهد الدولة العباسية

ومساحة العراق طولا من البحر الى السن ١٢٥ فرسخ وعرضه من العذيب الى عقبة حلوان ٨٠ فرسخاً فاذا كسرته كان ١٠٠٠٠ فرسخ

(٣) اقليم الجزيرة جزيرة أقور أو أثور أو أشور وهي ما بين دجلة والفرات وبها ثلاثة كور

الاولى — ديار ربيعة وقصبتها الموصل ومن مدنها الحديثة وسنجار ونصيبيين ودارا ورأس العين وثمانين وبها ناحية جزيرة ابن عمر

الثانية — ديار مضر وقصبتها الرقة وبها من المدن باجروان وحصن مسلمة وحران والرها

الثالثة — ديار بكر وقصبتها آمد وبها من المدن ميافارقين وحصن كيفا

وقد نزل العرب قبل الاسـلام بهذا الاقليم وكانت به قبائل شتى من جميع

العدنانيين حتى سميت كورة باسمائهم ولذلك يعتبر اقليما عربيا محضا لان من كان به من الآشوريين وغيرهم درست آثارهم وينتهي هذا الاقليم الى حدود الروم وأرمينية

(٤) اقليم الشام وبه ست كور

الاولى — قنسرين وقصبتها حلب ومن مدنها انطاكية وبالس وسميساط ومنبج وقنسرين ومرعش واسكندرونه ومعرة النعمان

الثانية — حمص وقصبتها حمص ومن مدنها سلمية وتدمر واللاذقية وانطرسوس

الثالثة — دمشق وقصبتها دمشق ومن مدنها بانياس وصيدا و بيروت واطرابلس

الرابعة — الأردن وقصبتها طبرية ومن مدنها صور وعكا و بيسان وأذرعات

الخامسة - فلسطين وقصبتها الرملة وبها بيت المقدس وعسقلان و يافا وارسوف وقيسارية واريحا وعمان

السادسة - الشراة وقصبتها صغر ومن مدنها مآب وعمان وتبوك واذرح

وهـذا الاقليم دخله العرب قبل الاسلام وملكوا به وزاحموا من كان به من الامم القديمة

ولما جاء الاسلام كان مهدا عظيما من مهاد الحضارة العربية الاسلامية ولغة أهله عربية

وحدود هـذا الاقليم من الشمال بلاد الروم وكانت المدن التى على حدوده وحدود الجزيرة يقال لها الثغور وعندها يكون الجهاد لرد غارة الروم وحفظ البلاد الاسلامية وفتح ما يمكن فتحه من البلدان

وبهذا الاقليم بيت المقدس وهو ثالث المساجد المقدسة بناه سليمان بن داود عليهما السلام حينما كان ملكا على بني اسرائيل واحتفل فى بنائه كثيرا ويعظمه جميع الاديان من موسوى وعيسوي ومحمدي

(٥) اقليم مصر وبه سبع كور على حسب التقويم القديم.

الاولى - الجفار وقصبتها الفرما وبها من المدن البقارة والورادة والعريش

الثانية – الحوف وقصبتها بلبيس وبها من المدن مشتول وفاقوس وغيرهما

الثالثة – الريف وقصبتها العباسية وبها من المدن دمنهور وسنهور وبنها العسل وشطنوف ومليج والمحلة الكبيرة ودقهلة

الرابعة – اسكندرية وقصبتها اسكندرية وبها من المدن رشيد ومريوط والبرلس وذات الحمام

الخامسة – مقدونيا وقصبتها الفسطاط ومن مدنها العزيزية والجيزة وعين شمس

السادســة – الصعيد وقصبتها اسوان وبه من المدن قوص واخميم والبلينا والفيوم وغيرهما

السابعة – الواحات

وأمة هذا الاقليم كانت فى القديم مصرية قبطية ساكنها كثير من الامم التى ملكتها كاليونان والرومان وغيرهم وكان بالحوف بعض قبائل عربية تقيم فيها ولما جاء الاسلام جاءها كثير من العرب الفاتحين فاقاموا فى مدنها الكبرى ثم جاءت قبائل كثيرة من قيس في عهد الدولة الاموية وأقامت بالحوف (الشرقية) ثم اختلطت هذه الامة الفاتحة بالمصريين تمام الاختلاط فتزاوجوا حتى غلب على الجمهور اللسان العربى والدين الاسلامى وذلك بعد تملك الدولة العباسية

أما أول عهدها فكان أكثر الفلاحين بالقرى أقباطاً لايزالون على دينهم

(٦) اقليم المغرب وهو ثماني كور

الاولى – برقة وقصبتها برقة وبها من المدن رمادة واطرابلس

الثانية – افريقية وقصبتها القيروان وبها من المدن اسفاقس وسوسة وتونس وبونة وجزيرة بنى زغنايه – ومنستير

الثالثة – تاهرت وقصبتها تاهرت وبها من المدن مطماطة ووهران وغيرهما

الرابعة – سجلماسة وقصبتها سجلماسة وبها من المدن درعة واصلى وتازروت

الخامسة – فاس وقصبتها فاس وتسمى الكورة السوس الادنى وأما فاس فمحدثة

بعد عهد العباسيين ومن مدنها البصرة وورغة وصنهاجة وهوارة وسلا

السادسة – السوس الاقصى وقصبتها طرفانه ومن مدنها اغمات وماسة وغيرهما

السابعة – الاندلس وقصبتها قرطبة وكانت لعهد بنى أمية تتبع أمير افريقية وعليها وال من قبله . وهذا الاقليم كان يسكنه قبل الاسلام البربر وساكنهم فيه كثير من الرومان والويزيغوط الذين ملكوا المغرب قبل الاسلام فلما جاء الاسلام دخله العرب الفاتحون وزاحموا البربر الا أنهم لم يكثروهم لقلتهم ولم يكثر العنصر العربي بها الا بعد ذلك في منتصف القرن الخامس فامة هذا الاقليم الغالبة عليه لهذا العهد بربرية واللسان الغالب هو اللسان البربري

(٧) اقليم المشرق وهو اقليم ذو جانبين الاول في الشرق وهو ما كان شرقى جيحون أو أموداريا ويسمى بما وراء النهر أو هيطل والثاني في الغرب وهو ما كان غربي جيحون ويسمى خراسان

(١) ماوراء النهر قال البشارى هذا الجانب أخصب بلاد الله تعالى وأكثرها خيرا وفقها وعمارة ورغبة في العلم واستقامة فى الدين وأشد بأسا وأغلظ رقاباوأدوم جهادا وأسلم صدورا وأرغب فى الجماعات مع يسار وعفة ومعروف وضيافة وتعظيم لمن يفهم

وبهذا القسم ست كور

الاولى — فرغانه وقصبتها اخسيكت ومن مدنها نصراباذ وأوزكند ومرغينان وغيرها

الثانيــة – اسبيجاب وقصبتها اسبيجاب ومن مدنها فاراب وترار وطراز وبلاسكون وغيرها

الثالثة – الشاش وقصبتها بنكث ومن مدنها نكث وغيرها

الرابعة – أشروسنه وقصبتها بنجكث

الخامسة – الصغد وقصبتها سمرقند وهي مصر الاقليم

السادسة – بخارى وقصبتها بخارى ومن مدنها بيكند

وهذا الاقليم يمر به نهر جيحون العظيم ويتشعب منه أنهار كثيرة ويقلب فيه أنهار ستة وعليه كور ومدن فالكور هي الخُتَّل وقصبتها هُلْبك ثم قواديان ومدينتها نير- ثم خوارزم وهي على حافتي جيحون قصبتها العظمى شرق النهر وهي كاث ولها قصبة أخرى غربية وهي الجرجانية وعلى النهر من المدن ترمذ وكالف ونويدة زَمّ وفِربَز وآمل

(ب) خراسان وبها تسع كور

الاولى – بلخ وقصبتها بلخ وبها ناحية طخارستان ومن مدنها ولوالج والطالقان

الثانية – غزنين وقصبتها غزنين وبها من المدن كابل

الثالثة – بُست وقصبتها بست . وبعض الناس يجمع غزنين الى بست ويجعلهما كورة واحدة يسميها كابلستان

الرابعة – سجستان وقصبتها زَرَنج

الخامسة – هراة وقصبتها هراة ومن مدنها باذغيس

السادسة – جوزجانان وقصبتها اليهودية

السابعة – مرو الشاهجان وهي القصبة وبها ناحية مرو الروز

الثامنة – نيسابور والقصبة ايرانشهر وبها من المدن بيهق وطوس ونسا وابيورد

التاسعة – قهستان وقصبتها قاين

وهذا الاقليم من أعمر الاقاليم الاسلامية وأهل خراسان منه هم الذين أقاموا الدولة العباسية وشيدوا صرحها ومعظمهم كان شيعة لهم أما أهل ماوراء النهر فجلهم من التركمان ولم يكن الاسلام قد شملهم لاول عهد العباسيين . وقد دخل العرب هذا الاقليم ولم يتجاوزوا النهر الا في عهد الدولة الاموية وقد كثرت فتوحهم فيما وراء النهر فى عهد قتيبة بن مسلم الباهلى العامل من قبل الحجاج . ولم تتغلب اللغة العربية على هذا الاقليم وما يأتي بعد من الاقاليم الفارسية ولكن الدين الاسلامى شملهم فصار منهم أمة اسلامية قادرة عمها العلم ولا سيما الديني ووجد منهم أفاضل

الفقهاء من الشافعية والحنفية والمحدثين والعلماء فى العلوم كافة

قال البشارى في أحسن التقاسيم وألسنتهم مختلفة أما لسان نيسابور ففصيح مفهوم غير أنهم يكسرون أوائل الكلم ويزيدون الياء وفيه رخاوة ولجاج وأهل طوس ونسا أحسن لسانا وفى كلام سجستان تحامل وخصومة يخرجونه من صدورهم ويجهرون فيه . ولسان بست أحسن ولا بأس بلسان المروين غير أن فيه تحاملا وطولا ومدا في أواخر الكلم . ولسان بلخ أحسن الالسن الا أن لهم فيه كلمات تستقبح . ولسان هراة وحش تراهم ينقمون ويتكافون ويتحاملون ثم يخرجون الكلام آخر ذلك ملوثا بالكره الى آخر ما قال

(٨) اقليم الديلم وبه خمس كور

الاولى — قومس وقصبتها الدامغان ومن مدنها سمنان و بسطام

الثانية — جرجان وقصبتها شهرستان ومن مدنها استراباذ وآبسكون

الثالثة — طبرستان وقصبتها آمل ومن مدنها سالوس وسارية

الرابعة — الديلمان وقصبتها بروان

الخامسة — الخزر وقصبتها اتل ومن مدنها بلغار وسمندر وبهذه الكورة نهر اتل

وهذا الاقليم لم يفش الاسلام به الا في عهد الدولة العباسية ولم يتأثر كثيرا باللغة العربية

(٩) اقليم الرحاب وهو ثلاث كور

الاولى — أران وقصبتها برذعة ومن مدنها تفليس وشروان وباب الابواب وملازكرد

الثاني — أرمينية وقصبتها اردبيل ومن مدنها مدليس وخلاط وخوى وسلماس وأرمية ومراغة ومرند وقاليقلا

الثالث — اذربيجان وقصبتها اردبيل ومن مدنها تبريز

وهذا الاقليم به كثير من الاجناس والالسنة فيه الكرد والارمن والفرس وغيرهم

ويخترقه نهر الكر وهو يتخلل مدينة برذعة ومدينة تفليس و به نهر الرس ونهر الملك ولم يفش الاسلام بهذه البلاد الا في عهد الدولة العباسية واللغة العربيه به قليلة

(١٠) اقليم الجبال و به ثلاث كور

الاولى – الري وقصبتها الري وبها من المدن آوة وساوة وقزوين وأبهر

الثانية – همذان وهي القصبة ومصر الاقليم

الثالثة – أصفهان وقصبتها اليهودية

(١١) اقليم خوزستان ويعرف بالاهواز وبه سبع كور وهي

الاولى – السوس وهي تتاخم العراق والجبال

الثانيه – جنديسابور وهي القصبة وكانت مصر الاقليم

الثالثة – تستر وهي القصبه وليس بالاقليم أجل منها

الرابعة – عسكر مكرم وهي القصبة وبها من المدن جوبك وزيدان وسوق الثلاثاء

الخامسة – الاهواز وبها من المدن تيري ومناذر الكبرى ومناذر الصغرى

السادسة – الدورق كورة تتاخم العراق من مدنها آزر وأجم وغيرها وقصبتها الدورق

السابعة – رامهرمز كورة تتاخم فارس وهي القصبة

ولهذا الاقليم لسان خاص به يعرف باللسان الخوزي

(١٢) اقليم فارس وبه ست كور

الاولى – أرجان وهي القصبة

الثانية – اردشير خرة وقصبتها سيراف وهى ممتدة على البحر

الثالثة – درابجرد وهي القصبة وكانت في القديم مصر الاقليم

الرابعة – شيراز وقصبتها على اسمها وهي مصر الاقليم وبها من المدن البيضاء وفسا

الخامسة – سابور وقصبتها شهرستان ومن مدنها كازرون والنوبندجان وتوز

السادسة – اصطخر وهي أوسع الكور وقصبتها على اسمها

وبهذا الاقليم عدد عظيم من الاكراد وباسمه سميت البلاد الفارسية كلها

(١٣) اقليم كرمان وبه خمس كور

الاولى ـ بردسير وقصبتها على اسمها ومن مدنها ماهان وكوغون وزرند

الثانية ـ نرماسير وهي القصبة

الثالثة ـ السيرجان وقصبتها على اسمها وهى مصر الاقليم

الرابعة ـ بم وهي تتاخم فارس

الخامسة ـ جيرفت وهي على البحر

(١٤) اقليم السند وبه خمس كور

الاولى ـ مكران وقصبتها بنجبور

الثانية ـ طوران وقصبتها قصدار

الثالثة ـ السند وقصبتها المنصورة ومن مدنها ديبل

الرابعة ـ ويهند والقصبة باسمها

الخامسة ـ قنوج وهي القصبة

وبهذا الاقليم نهر مهران وهو يشبه النيل فى الحلاوة والزيادة ووجود التماسيح .
فهذه أربعة عشر اقليما منها ستة عربية وثمانية أعجميه والمراد بكونها عربية تغلب اللسان العربي على أهلها والا فأصل اقليم العرب هو جزيرتهم فحسب

وتشتمل هذه الاقاليم على ثلاث وثمانين كورة يجبى منها جميعها الخراج الى حاضرة الدولة حيث يحمل منها ما بقى عن مصروفها وذلك شيء عظيم

هذا هو الملك الطويل العريض الذي ورثه العباسيون بهمة شيعتهم من أهل خراسان . وليس عدد ولاة هذه الدولة بعدد الاقاليم التى بيناها بل كان بعض الاقاليم فيه الواليان والثلاثة وبعضها قد يضم الى والى اقليم آخر حسب الاحوال
ففى بعض أيام بنى أمية قد جمع العراقان وفارس كلها لوال واحد كما كان الحجاج ابن يوسف فقد كان أمير المشرق كله من نهر الفرات الى نهر جيحون وله ولاة من

قبله على الاقاليم أو الكور التي تحت يده . وفي بعض الاحيان كانت تضم أفريقيه كلها الى والى مصر ويرسل من قبله واليا على أفريقيه

والجزيرة العربية لم تجتمع كلها لوال واحد بل كان للحجاز وال ولليمن وال أما اليمامة وعمان فربما أضيفتا الى والي العراق كما كان الحجاج بن يوسف

ونحن الآن شارعون في تفصيل أحوال بنى العباس وتبيين مافعلوه في هذا الميراث مقارنين ذلك عند اللزوم بما كان عليه الحال في الدوله الامويه

فصل في ولاية العهد والبيعة

الاصل في انتخاب الخليفة رضا الامة فمن ذلك يستمد قوته . هكذا رأي المسلمون عند وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد انتخبوا أبا بكر الصديق اختيارا منهم لا استنادا الى نص أو أمر من صاحب الشريعة صلى الله عليه وسلم وبعد ان انتخبوه بايعوه ومعنى ذلك عاهدوه على السمع والطاعة فيما فيه رضا الله سبحانه كما انه عاهدهم على العمل فيهم باحكام الدين من كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا التعاهد المتبادل بين الخليفة والامة هو معنى البيعة تشبيها له بفعل البائع والمشتري فانهما كانا يتصافحان بالايدي عند اجراء عقد البيع .

فمن هذه البيعة تكون قوة الخليفة الحقيقية وكانوا يرون الوفاء بها من ألزم مايوجبه الدين وتحتمه الشريعه

وقد سن أبوبكر رضي الله عنه طريقة أخرى في انتخاب الخليفة وهي أن يختار هو من يخلفه ويعاهده الجمهور على السمع والطاعة وقد وافق الجمهور الاسلامى على هذه الطريقة ورأي ان هذا مما تجب الطاعة فيه وذلك العمل هو ولاية العهد

وأول من اختار الخليفة بعده من عشيرته الادنين معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه حيث اختار للخلافة ابنه يزيد وأخذ بيعة الجمهور له وصار الخلفاء من بعده يعهدون على هذا النمط وقد بينا فى تاريخ الدوله الامويه الاغلاط التى ارتكبها الامويون في ولاية العهد وانها كانت من الاسباب التى قضت عليهم

اتبع بنو العباس فى ولاية العهد الاسلوب الذي سار عليه الأمويون وهو عقد الولاية لا كثر من واحد من الابناء والاخوة ولم يعتبروا بمن مضي قبلهم فقد كان ذلك مبعث شرور وفتن شديدة ولما سار هؤلاء سيرة أسلافهم جلبوا على أنفسهم تلك الشرور بعينها ولم يعتبر الخلف بما أصاب السلف كما يتضح مما يأتي

ولى السفاح عهده رجلين يلي أحدهما الآخر أخاه أبا جعفر المنصور فابن أخيه عيسى بن موسى بن محمد بن على فلما تولى أبو جعفر وشب ابنه محمد المهدي عز عليه أن يلي بعده ابن أخيه ويحرم ابنه فسام عيسي أن يخلع نفسه من ولاية العهد على أن تكون رتبته تلو رتبة المهدي فأظهر عيسي اباء فساموه خطة لا يرضى بها الا الذليل حتى أظهرت ذات نفسه في شعر قاله وهو

خيرت أمرين ضاع الحزم بينهما اما صغار واما فتنة عمم
وقد هممت مرارا أن أساجلهم كأس المنيـة لولا الله والرحم

ويقال ان أبا جعفر سقاه شرابا يتلفه فكاد يموت منه ولكنه أبلى من علته فقال في ذلك أحد شعراء الدولة

أفلت من شربة الطباب كما أفلت ظى الصريم من قتره
من قانص ينفذ الفريص اذا ركب سهم الحتوف فى وتره
دافع عنك المليك صولة ليـــث يريد الاسد فيذرى خمره
حتي أتانا وفيـه داخـلة تعرف في سـمعه وفي بصره
أزعر قد طار عن مفارقه وحف أثيث النبات من شعره

ثم أجاب عيسى الى ما طلب منه هذا مع ما كان من حسن أثر عيسى بن موسى فى الدولة واستهدافه للنوائب وقوده الكتائب لشد دولة المنصور

لما ولى المهدي وشب ابناه موسى وهارون أعاد هذه السيرة بعينها مع عيسى ابن موسى وطلب منه أن يخلع نفسه من الخلافة ليولي المهدي العهد ولده فكان ما أراد بعـد أن قاسى عيسى ما قاسى من صنوف الاذي ومع ما رآه المهدي من نتائج

تولية اثنين للعهد لم يتعظ بل ولى ولديه موسى الهادي فهارون الرشيد .

جاء الهادي فحاول أن يخلع أخاه هارون مع ان ابنه لم يبلغ الحلم فلم يفلح لان الدفاع عن الرشيد كان قويا وقربت منية الهادي فأخرت النتائج السيئة ويقال انه مات مسموما

ولى الرشيد ففكر فى ولاية العهد وكان أكبر ولده محمد المأمون فعدل عنه الى أخيه محمد الامين لانه ابن زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور والمأمون أمه أمة جلبية من بلاد فارس وكان ذلك العقد سنة ١٧٣ وسن الامين لا يتجاوز ثلاث السنوات وبعد عشر سنين رأى أن يضم المأمون ليكون ولي العهد بعد الامين وذلك برأي جعفر بن يحيى البرمكي وسعيه فعقد له سنة ١٨٣ . ثم طلب عبد الملك بن صالح ابن على من الرشيد ان يبايع لثالث أولاده القاسم بن الرشيد ففعل وسماه المؤتمن وقسم البلاد بين أولاده الثلاثة فجعل الشرق للمأمون وهو خراسان والرى الى همذان وجعل الغرب للأمين وهو المغرب ومصر والشام وجعل للمؤتمن الجزيرة والثغور والعواصم فألقى بذلك بأسهم بينهم ووضع بيده بذور الفتنة والشر حتى قال بعض شعراء العصر

أقول لغمة فى النفس منى ... ودمع العين يطرد اطرادا
خذى للهول عدته بحزم ... ستلقى ما سيمنعك الرقادا
فانك ان بقيت رأيت أمرا ... يطيل لك الكآبة والسهادا
رأى الملك المهذب شر رأى ... لقسمته الخليفة والبلادا
رأى مالو تعقبه بعلم ... لبيض من مفارقه السوادا
أراد به ليقطع عن بنيه ... خلافهم ويبتذلوا الودادا
فقد غرس العداوة غير آل ... وأورث شمل ألفهم بدادا
والقح بينهم حربا عوانا ... وسلس لاجتنابهم القيادا
فويل للرعية عن قليل ... لقد أهدى لها الكرب الشدادا
وألبسها بلاء غير فان ... وألزمها التضعضع والفسادا

ستجرى من دمائهم بحور   زواخر لا يرون لها نفاد
فوزر بلائهم أبدا عليه   أغيا كان ذلك أم رشادا

وحج الرشيد بعقب ذلك وهناك كتب لعبد الله المأمون ابنه كتابين أجهد الفقهاء والقضاة أنفسهم فيهما أحدهما على محمد الامين بما اشترط عليه من الوفاء بما فيه والآخر نسخة البيعة التى أخذها على الخاصة والعامة والشروط لعبد الله على محمد وعليهم وجعل الكتابين في البيت الحرام بعد أخذ البيعة على محمد واشهاده عليه بها الله وملائكته ومن كان فى الكعبة معه من سائر ولده وأهل بيته ومواليه وقواده ووزرائه وكتابه وغيرهم وكانت الشهادة بالبيعة والكتاب في البيت الحرام وتقدم الى الحجبة فى حفظهما ومنع من أراد اخراجهما والذهاب بهما وقرئ الكتابان فى داخل البيت الحرام بحضر من الأخوين وشهد عليهما الحاضرون

وقد أكد الأمر في العهدين تأكيدا بلغ الغاية من التشديد ولكن طبيعة الملك غلابة . ماتم الامين ان استخلف حتى حاك في صدره ماحاك في صدر أسلافه وهو تقديم ابنه في ولاية العهد على أخيه وعرض ذلك على المأمون وهو بين جنده وقواده بخراسان فاباه طبعا لأن من ورائه قوة تدفع عنه وكان من جراء ذلك الخلاف الهائل والوقائع المفظعة التى كانت بين جند الامين والمأمون وتعطلت المسالك والدروب وحصرت بغداد حصرا شنيعا وانتهى الامر بخلع الامين ثم قتله وحدث بعقب ذلك ثورات شديدة في أكثر البلدان الاسلامية ولو كانت لخصومهم من آل على قوة منظمة لنجحوا وثلوا عرش ملك العباسيين

لم يعهد المأمون الا لاخيه المعتصم وكذلك المعتصم لم يعهد الا لابنه الواثق ومات الواثق عن غير عهد فاختير للخلافة أخوه المتوكل اختاره لها كبار الدولة بعد موت الواثق

جاء المتوكل وغلط غلطة جده الرشيد فبايع بولاية العهد لاولاده الثلاثة وهم محمد المنتصر بالله ومحمد المعتز بالله وابراهيم المؤيد بالله وعقد لكل منهم لواءين أحدهما

أسود وهو لواء العهود والآخر أبيض وهو لواء العمل فأقطع أكبرهم المنتصر أفريقية والمغرب كله والعواصم والثغور جميعها الشامية والجزرية وبلاد الجزيرة والعراق والحجاز واليمن والاهواز والسند ومكران وأقطع ثانيهما خراسان ومايضاف اليها وطبرستان والري وأرمينية وأذربيجان وكور فارس وأقطع ثالثهم جند حمص وجند دمشق وجند فلسطين .

حذا هذا الرجل حذو جده مع مارأي من سوء العاقبة ونقض العهود والمواثيق ثم زاد الطين بلة فعزم فى أخريات ايامه أن يخلع المنتصر أكبر الاخوة من ولاية العهد فمالأ المنتصر وجماعة من الاتراك على قتله فقتلوه وتولى المنتصر وبايعه أخواه ولم يلبث ان خلعهما بعد أربعين ليلة من ولايته فأما المؤيد فقابل ذلك بالسمع والطاعة وأما المعتز فأبى وقال ان أردتم القتل فشأنكم ثم أجاب بعد تهديد ووعيد وأشهد كلا الاخوين على نفسه بالخلع القضاة وبنى هاشم والقواد ووجوه الناس هذا مع ان المنتصر لم يكن له ابن كبير يصح ان يلى العهد . وأعقب ذلك موت المنتصر فلم يتمتع بما استعجل به فمات من غير عهد

اختير للخلافة بعده أحمد المستعين بالله بن محمد بن المعتصم أخرجها الموالى عن أولاد المتوكل خوفا أن يفتكوا بهم لقتلهم أباهم

اختل نظام الخلافة ببغداد فى ذلك الوقت اذ صار كبار الاتراك الذين هم من بقايا المعتصم ومن معهم من رجال الدولة يولون من شاؤا و بعد زمن يخلعونه ثم يولون غيره حتى أتي المعتمد بالله وهو الخامس عشر منهم فعهد الى ابن أخيه أحمد المعتضد بن طلحة بن المتوكل وعهد المعتضد الى ابنه المكتفي ثم عادت الاضطرابات والخلع والقتل في الخلفاء حتى جاءت دولة بنى بويه وفي عهدهم لم يكن للخلفاء الا الاسم والتولية والعزل لبني بويه وجميع الخلفاء الذين ولوا في عهدهم خلعوا الا أحمد القادر بالله فانه طال حكمه وعهد من بعده الى ابنه القائم

بعد ذلك تسلسلت الخلافة من الخليفة الى ابنه حتى انتهت الدولة بظهور التتار

حيث أغار هولاكوخان حفيد جنكزخان موحد التتر وقتل المستعصم سنة ٦٥٦

وخلاصة القول أن ولاية العهد فى النصف الاول من خلافة بني العباس كانت جارية على السنن المعيب وهو تولية أكثر من واحد فترتب على ذلك شرور كثيرة وكوارث عظيمة ولم يلتفت أحد منهم لوضع نظام لذلك مع ما كانوا عليه من العلم والعرفان . أما البيعة فكانت فى الصدر الاول عبارة عن المصافحة وقول المبايع أبايعك على السمع والطاعة على العمل بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم . ثم زيدت عليها ايمان في أواخر الدولة الاموية وزادت الايمان كثيرا فى أوائل عهد الدولة العباسية ويظهر لكم ذلك من ختام العهدين اللذين كتبهما الامين والمأمون وحفظا في البيت الحرام وقد أثارت تلك الايمان مسألتين شرعيتين بمكان عظيم من الاهمية

أولاهما طلاق المكره لانه لايخفى ان من ضمن تلك الايمان يمين الطلاق ومن رأى فقهاء الحجاز أن ليس للمكره يمين وقد أفتى مالك بعدم وقوع طلاق المكره وكان ذلك سبباً لاهانات شديدة أصابته فى عهد المنصور ثاني خلفاء العباسيين وقد تغلب بسبب ذلك رأى فقهاء العراق ان طلاق المكره واقع

الثانية اضافة الطلاق الي الزوجة التى لم تكن وقت اليمين فان البيعة لم تكن لتكتفي بطلاق الزوجات الموجودات بل تعدت ذلك الى من يتزوجهن الحالف الى خمسين سنة أو ثلاثين سنة وكذلك اضافة العتق الى المملوكين الذين يحدثون بعد البيعة الى أجل معين أو غير معين . قال فقهاء العراق ان ذلك صحيح ويلحق الطلاق من يتزوجها الحالف وخالف ذلك بعض فقهاء الحجاز كالشافعى محمد بن ادريس وقد تغلب طبعاً رأى فقهاء العراق

١ ـ السفاح

هو أبو العباس عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس وأمه ريطة بنت عبيد الله بن عبد الله بن عبد المدان الحارثي ولد سنة ١٠٤ بالحميمة وهي القرية التى كان أبوه وجده نازلين بها وكان أبوه قد عهد بأمر الدعوة لابنه ابراهيم ولما أحس ابراهيم باقتراب منيته عهد لاخيه أبي العباس وأمره أن يسير بأعمامه وأهل بيته الى الكوفة فسار اليها وبويع بالخلافة يوم الخميس لثلاث عشرة خلت من ربيع الاول سنة ١٣٢ (٣٠ أكتوبر سنة ٧٤٩) وكان مروان لايزال حيا ثم قتل مروان لثلاث بقين من ذي الحجة سنة ١٣٢ (٥ أغسطس سنة ٧٥٠) ومن هذا اليوم يبتدئ التاريخ خلافة أبي العباس ولم يزل خليفة الى ان توفى بمدينة الانبار يوم الاحد لثلاث عشرة خلت من ذي الحجة سنة ١٣٦ (٩ يونيه سنة ٧٥٤) فتكون خلافته أربع سنوات وتسعة أشهر من لدن بويع الى ان مات وأربع سنوات وأربعة عشر يوما من لدن قتل مروان

وكان يعاصره في مملكة الروم الشرقية بالقسطنطينية قسطنطين الخامس (٧٤١ — ٧٧٥) وكان يملك فرنسا في عهده بابن ابراف من العائلة الثانية الكارلونجيانية ابتدأ ملك أبي العباس بالكوفة ومنها انتقل الى الحيرة ثم الى الانبار ولم يكن بنو العباس يثقون بأهل الكوفة لأنهم كانوا يتشيعون لآل أبى طالب

الاحوال الداخلية

لم تكن هزيمة مروان وقتله منتهى متاعب العباسيين فانه كان لا يزال في الامة العربية قواد ضلعهم مع بنى أمية ولايزال عندهم شيء من القوة فكانوا يثورون اما خوفا على أنفسهم من بني العباس الذين أظهروا قسوة شديدة في معاملة مغلوبيهم واما طمعاً في اعادة تلك الدولة العربية التى كان لهم منها نصيب وافر فقضى ابو العباس أكثر حياته في اخماد تلك الثورات التي كانت كثيرة ولا سيما بالشام والجزيرة

والتغلب على يزيد بن هبيرة الذي كان أمير العراق لمروان بن محمد وتحصن بمدينة واسط بعد غلبة العباسيين على الكوفة وما معها

وقد كانت حياته مفعمة بحوادث القسوة التى لم يشهد التاريخ مثلها مع بقايا بنى أمية ومع غيرهم من أولياء الدولة الذين كان لهم الاثر المحمود فى احيائها

من الناس من اذا ظفر بخصومه قابلهم بالعفو عن ماضيهم واستصلح بذلك قلوبهم ولعمرى ان ذلك لمن عزم الامور وليس يكون الا ممن استشعر من نفسه تمام القدرة ورأى ان سلطانه انما يتم اذا ائتلفت القلوب المتنافرة فاما من خاف عود القوة الى عدوه المغلوب أوكان يرى سلطانه لا يكون الا على فرقة رعيته فانه يقسو على من ظفر به قسوة تختلف بحسب الاحوال والاستعداد

انظروا الى مافعله رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما ظفر بخصومه أهل مكة وهم الذين تحالفوا على قتله وأخرجوه من بلده ثم جردوا السيوف لحربه وهيجوا الاحزاب من قبائل العرب ليكونوا عليه فى دار هجرته انهم فعلوا ذلك لكنه لما ظفربهم في السنة الثامنة من الهجرة قال لهم ماتظنون أني فاعل بكم قالوا خيرا أخ كريم وابن أخ كريم فقال لهم كما قال يوسف الصديق لاخوته « لاتثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين » أما بنو العباس فقد قسوا في معاملة بنى أمية قسوة ربما لم نجد لها مثلا في الدول التى قامت على أثر دولة أخري . فعل ذلك السفاح بالعراق وعبد الله بن على بالشام ونهر أبى فُطرس وسليمان بن على بالبصرة وداود ابن على بالحجاز

فاما السفاح فقد روي أبو الفرج الاصبهانى فى كتابه الاغاني بسنده قال كان أبو العباس جالساً فى مجلسه علي سريره و بنو هاشم دونه على الكراسى و بنو أمية على الوسائد قد ثنيت لهم وكانوا فى أيام دولتهم يجلسون هم والخلفاء منهم على السرير ويجلس بنو هاشم على الكراسي فدخل الحاجب فقال ياأمير المؤمنين بالباب رجل حجازى أسود راكب على نجيب متلثم يستأذن ولا يخبر باسمه ويحلف ألا يحسر

اللثام عن وجهه حتى براك قال هذا مولاي سديف يدخل فدخل فلما نظر الى أبي العباس وبنو أمية حوله حسر اللثام عن وجهه وأنشأ يقول

أصبح الملك ثابت الآساس ... بالبهاليل من بني العباس
بالصدور المقدمين قديما ... والرؤس القماقم الرؤاس
يا أمير المطهرين من الذم ويا ... رأس منتهى كل راس
أنت مهدى هاشم وهداها ... كم أناس رجوك بعد اياس
لا تقيلن عبد شمس عثارا ... واقطعن كل رقلة وغراس
انزلوها بحيث أنزلها الله ... بدار الهوان والاتعاس
خوفهم أظهر التودد منهم ... وبهم منكم كحز المواسى
أقصهم أيها الخليفة واحسم ... عنك بالسيف شأفة الارجاس
واذكرن مصرع الحسين وزيدا ... وقتيلا بجانب المهراس
والامام الذى بحران أمسى ... رهن قبر ذى غربة وتناسى

فتغير لون أبي العباس وأصابه زمع ورعدة فالتفت بعض ولد سليمان بن عبد الملك الى رجل منهم فقال قتلنا والله العبد ثم أقبل أبو العباس عليهم وقال يابني للفواعل أرى قتلا كم من أهلي قد سلفوا وأنتم أحياء تتلذذون بالدنيا خذوهم فأخذتهم الخراسانية بالكافر كوبات فأهمدوا الا ماكان من أمر عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز فانه استجار بداود بن علي فأجاره واستوهبه من السفاح

وهذا عمل شنيع جدا ولولا تضافر الروايات بالحادثة لما تحملنا عناء تسطيرها وقد بلغ الضعف الانساني حده بالرجل ولا يستغرب هذا الفعل من جماعة كان من أصولهم قتل أوليائهم لأقل ريبة أو شبهة . وهؤلاء أعداؤهم بالامس ويخافون ان تكون لهم أنصار فيعيدون الحرب جذعة

ودخل سديف هذا على السفاح وعنده سليمان بن هشام بن عبد الملك فأنشده

لا يغرنك ما ترى من أناس ... ان تحت الضلوع داء دويا

فضع السيف وارفع السوط حتى لاترى فوق ظهرها أمويا

فأمر السفاح بسليمان فقتل . ومما قاله سديف هذا يهيج السفاح

كيف بالعفو عنهم وقديما قتلوكم وهتكوا الحرمات

أين زيد وأين يحيى بن زيد يالها من مصيبة وترات

والامام الذى أصيب بحرا ن امام الهدى ورأس الثقات

قتلوا آل أحمد لاعفا الذنب لمروان غافر السيئات

وأما عبد الله بن علي فكان للأمويين منه يوم عصيب بنهر أبي فطرس بالشام تتبع من كان بالشام من أولاد الخلفاء وغيرهم فأخذهم ولم يفلت منهم أحد الا رضيع أو من هرب الى الاندلس فقتلهم ولما فرغ من قتلهم قال

بني أميــة قد أفنيت جمعكم فكيف لى منكم بالاول الماضي

يطيب النفس ان النار تجمعكم عوضتم من لظاها شر معتاض

منيتم لا أقال الله عثرتكم بليث غاب الى الاعداء نهاض

ان كان غيظي لفوت منكم فلقد منيت منكم بماربي به راضى

ولم يكفه ذلك بل عمد الى قبور بنى أمية فنبشها حتى يمحو آثارهم فنبش قبر معاوية بن أبي سفيان فلم يجدوا فيه الا خيطا مثل الهباء ونبش قبر يزيد بن معاوية فوجدوا فيه حطاما كانه الرماد . ونبش قبر عبد الملك بن مروان فوجدوا جمجمته وكان لا يوجد في القبر الا العضو بعد العضو غير هشام بن عبد الملك فانه وجد صحيحا لم يبل منه الا أرنبة أنفه فضربه بالسياط وصلبه وحرقه وذراه بالريح

وأما سليمان بن على فانه قتل بالبصرة جماعة منهم أحضرهم وعليهم الثياب الموشية فأمر بهم فقتلوا وجروا بأرجلهم فقتلوا على الطريق

وأما داود بن علي فقتل منهم بمكة والمدينة عددا وافرا وكان قد حضر الى مكة ومعه عدد من بني هاشم وعدد من بنى أمية فأنشده ابراهيم بن هرمة قصيدة يقول فيها

فلا عفا الله عن مروان مظلمة ولا أمية بئس المجلس البادى
كانوا كعاد فأمسى الله أهلكهم بمثل ما أهلك الغاوين من عاد
فلن يكذبنى من هاشم أحـد فيما أقول ولوأ كثرت تعدادى

فشمر عن ساعده فى قتل الامويين حتى لم يبق منهم أحـدا ارضاء لشهوة الانتقام التى تمكنت من قلوب بنى العباس ولم تخجلهم تلك الوحشية القاسية

ومما قيل من الكلام الجيـد فى رثاء هؤلاء التعساء ماقاله مولاهم عبد الله ابن عمر العبلى

تقول امامـة لمـا رأت نشوزى عن المضجع الانفس
وقلة نومى على مضجعي لدى هجعة الاعين النعس
أبي ما عراك فقلت الهمو م عرون أباك فلا تبلسي
لفقد الاحبـة اذ نالهـا سهام من الحدث المبئس
رمتها المنون بلا نكل ولا طائشات ولا نكس
باسهمهـا المتلفـات النفو س متي ماتصب مهجة تخاس
فصرعنهم في نواحي البـلا د ملقى بارض ولم يرمس
تـقى أصيب وأثوابه من العيب والعار لم تدنس
وآخر قد دس في حفـرة وآخر قد طار لم يحسس
اذا عن ذكرهم لم ينم أبوك وأوحش في المجلس
فذاك الذي غالنى فاعلمي ولا تسألى بامرئ متعس
أذلوا قنـاتى لمن رامها وقد الصقوا الرغم بالمعطس

وكانت هـذه المعاملة الشنيعة سبباً لهروب يعسوبهم عبد الرحمن بن معاوية ابن هشام بن عبد الملك الى المغرب وتأسيسه بها مملكة واسعة الاطراف أعاد فيها مجد بيته وكانت تناصي فى العلو والاحترام خلافة بني العباس فى المشرق علي صغر رقعتها لم نزل بنو العباس يسومون بقايا بنى أمية سوء العذاب فاختفي بعضهم وهرب

بعضهم وكان ممن اختفى عمرو بن معاوية بن عمرو بن عتبة بن أبي سفيان فلما رأي أنه لا يكون فى قبيلة ولا ناحية الا شهر أمره بها اعتزم أن يفدي حرمه بنفسه وصار الى سليمان بن على بالبصرة فقال له أصلح الله الامير لفظتني البلاد اليك ودلنى فضلك عليك فاما قتلتنى غانما واما رددتنى سالما فقال ومن أنت ما أعرفك فانتسب له فقال سليمان مرحبا بك أقعد فتكلم آمنا غانما ما حاجتك فقال ان الحرم اللواتي أنت أقرب الناس اليهن معنا وأولى الناس بهن بعدنا قد خفن لخوفنا ومن خاف خيف عليه فدمعت عينا سليمان ثم قال يا ابن أخي يحقن الله دمك ويحفظك في حرمك ويوفر عليك مالك والله لو أمكنني ذلك فى جميع أهلك لفعلت فكن متواريا كظاهر وآمنا كخائف ولتأتني رقاعك فكان عمرو يكتب اليه كما يكتب الرجل الى أبيه وعمه. ثم كتب سليمان الى السفاح (يا أمير المؤمنين انه قد وفد وافد من بنى أمية علينا وانا انما قتلناهم على عقوقهم لا على أرحامهم فاننا يجمعنا واياهم عبد مناف والرحم تبل ولا تقطع وترفع ولا توضع فان رأي أمير المؤمنين أن يهبهم لى فليفعل وان فعل فيجعل كتابا عاما الى البلدان نشكر الله تعالى على نعمه عندنا واحسانه الينا) فأجابه الى ماسأل فكان هذا أول أمان بنى أمية بعد أن بدد شمل سرواتهم قتلا وتشريدا واطمأن من جهتهم بال السفاح ولكن بعد أن فتح على نفسه وعلى من يخلفه بعده من آل بيته فتحا لا يمكنهم رتقه وهو وجود خلافة أخرى اسلامية بالجنوب الغربى من قارة أوربا

ولم تكن الشدة في المعاملة قاصرة على أعدائهم بل نال أولياءهم منها شيء عظيم لا ننسى أن من أعظم الرجال أثرا فى قيام هـذه الدولة أبا سلمة حفص بن سليمان الذي كان يقال له وزير آل محمد . لما تم الامر لبني العباس اتهموه بانه كان يريد تحويل الخلافة عنهم الى آل على بن أبي طالب وكانوا يريدون قتله لكنهم أحبوا مشاورة أبي مسلم فى ذلك فبعث السفاح أخاه أبا جعفر الى خراسان لمقابلة أبى مسلم واستشارته فى ذلك فسار أبو جعفر حتى جاء مرو وهناك أخبر أبا مسلم خبر

أبي سلمة فقال أكفيكموه ثم انتدب رجلا وأمره أن ينطلق الى الكوفة فيقتل أبا سلمة حيث لقيه فقدم الرجل الكوفة وتربص لابي سلمة حتى خرج من عند السفاح وقتله غيلة فى طريقه وأشاعوا أن الخوارج قتلوه ثم قتل بعد ذلك أبومسلم جميع عماله بفارس . هكذا ذهبت حياة هذا الرجل ذي الاثر الصالح في دولتهم من غير تحقيق أمره ولا استماع لحجته بل فعلوا به فعل من لا نظام لهم ولادولة

وفي هذا الوقت اتهم أبو مسلم بتلك التهمة رجلا آخر لا يقل أثرا عن أبي سلمة وهو سليمان بن كثير الذي قال له فى حقه ابراهيم الامام (ولا تخالف هذا الشيخ ولا تعصه واذا أشكل عليك أمر فاكتف به مني) فأحضره وقال له أتحفظ قول الامام لى من اتهمته فاقتله قال نعم قال فانى قد اتهمتك . فقال أنشدك الله قال لاتناشدني الله وأنت منطو على غش الامام فامر به فضرب عنقه . قتل الرجل بعد استقرار الامر بمجرد تهمة لم تظهر للناس صحتها ولم تنفعه سابقته ولاحسن أثره

وعلى الجملة فان حياة أبي العباس انقضت كلها في الخلاص من بني أمية والاطمئنان من جهة كل من يرتابون في اخلاصه فسفكت دماء كثيرة وأحدثت قدوة سيئة فى نكث العهود واغتيال المخالفين

وكان أكبر الرجال في عهده الذين لهم سلطان ونفوذ وشدة عزيمة ثلاثة رجال (١) أبو مسلم الخراسانى بالمشرق (٢) أبو جعفر المنصور بالجزيرة وأرمينية والعراق (٣) عبد الله بن على بالشام ومصر فهؤلاء الثلاثة كانوا أساطين دولته وعلى أيديهم كان كل ما يجرى فيها من خير وشر الا ان هؤلاء الثلاثة لم يكن عندهم اخلاص بعضهم لبعض فان أبا جعفر كان يحسد أبا مسلم على سلطانه النافذ وكلمته المطاعة حتى طلب من السفاح ان يغتاله وأكثر في ذلك وكاد السفاح يوافقه لولا خوفه من الخراسانية ان يعيدوا الحرب جذعة . وعبد الله بن على كان يطمع ان تكون الخلافة له بعد السفاح لما له من سابق الخدمة فى تأسيس الدولة وانه الذي قام بهزيمة مروان وقطع دابر بنى أمية وكان يخاف ان يفوز بها ابو جعفر . فكانت هذه الافكار سببا فى حوادث جسام سيمر بكم ذكرها

أراد أبو مسلم القدوم من مرو على السفاح فكتب اليه يستأذنه في الحج وأذن له . ولما كان السفاح لا يميل الى تولية أبي مسلم موسم الحج أرسل الى أخيه أبي جعفر يأمره أن يستأذنه في الحج ففعل وأذن له و بطبيعة الحال ولاه الموسم ولم يكن لابي مسلم أن يظهر اشمئزازه من تقدم أبي جعفر عليـه وان كان قد قال شيئاً من ذلك لبعض خاصته حيث قال أما وجد أبو جعفر عاما يحج فيه غير هذا

لما وصل أبو مسلم الأنبار قال له السفاح لولا ان أبا جعفر أرسل الى يستأذنني في الحج هذا العام لوليتك الموسم . وقد حج فى هذا العام وهو سنة ١٣٦ فخلان ومرا من طريق واحدة يقدم أحـدهما الآخر وكان أبو مسلم يظهر من قوته وكرمه في الطريق ما يزيد فى حسد أبي جعفر له وكان ذلك من متممات عزمه على الفتك به

كان معظم الولاة للسفاح من أعمامه و بنى أعمامه . وكان في عهده من الاصلاح الداخلى ضرب المنار والأميال من الكوفة الى مكة وكانوا يمسحون الارض بالذراع الهاشمية وعند تمام الميل يكتبون عليـه كلمة واحد ثم اثنين وهكذا وقد جعلوا في الطريق منارا به يأمن السارون الضلال فى تلك الفيافى وهو عمل عظيم

وكانت قاعدة الخلافة في عهد السفاح الكوفة أولا ثم انتقل منها الى الحيرة ثم انتقل أخيرا الى الأنبار ونقل اليها دواوينه وهي التى مات فيها

ولاية العهد

في سنة ١٣٦ عقد السفاح لاخيه أبي جعفر الخلافة من بعده وجعله ولى عهد المسلمين ومن بعد أبي جعفر عيسى بن موسى بن محمد بن على وكتب العهد بذلك وصيره في ثوب وختم عليه بخاتمه وخواتيم أهل بيته ودفعه الي عيسى بن موسى . وقد ابتدأ السفاح بفعله هذا الغلطة الشنيعة التى سبق بها في عهد بنى أمية وهي تولية اثنين العهد وكانت من أسباب ما أصاب بنى أمية من الخلاف والفرقة

وفاة السفاح

أصيب السفاح بالجدرى وهو بالأنبار وتوفى بها فى ١٣ ذي الحجة سنة ١٣٦ ودفن بالانبار فى قصره و بلغت وفاته أبا جعفر وهو عائد من حجته

٢ – المنصور

هو أبو جعفر عبد الله بن محمد بن علي وأمه أم ولد اسمها سلامة ولد بالحميمة سنة ١٠١

ولما انتقل أبو العباس من الحميمة الى الكوفة كان فيمن معه . ولما أفضت الخلافة الى أبي العباس كان عضده الأقوى وساعده الأشد في تدبير الخلافة . وفي السنة التى توفى فيها أبو العباس عقد العهد لاخيه أبي جعفر وكان اذ ذاك أميرا على الحج . ثم توفى السفاح وأبو جعفر بالحجاز فاخذ البيعة له بالأنبار ابن أخيه عيسى بن موسى وكتب اليه يعلمه وفاة السفاح والبيعة له فلقيه الرسول باحدى المنازل عائدا بعد انتهاء الحج . وقد تمت البيعة له في اليوم الذي توفى فيه أخوه (٨ يونية سنة ٧٥٤) واستمر خليفة الى أن توفى يوم الاحد سابع ذي الحجة سنة ١٥٨ (٨ أكتوبر سنة ٧٧٥) فكانت خلافته ٢٢ سنة هلالية الا ستة أيام

وكان يعاصره في الاندلس عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام بن عبد الملك (١٣٨ — ١٧٢)

ويعاصره فى فرنسا بابن بيراف ثم شرلمان (٧٦٨ — ٨١٤) ويعاصره فى مملكة الروم بالقسطنطينية قسطنطين الخامس

الاحوال لعهد المنصور

تولى المنصور الخلافة ولم تكن قد توطدت دعائمها . لم يكن يخاف عليها من الدولة البائدة دولة الأمويين لانه لم تبق لهم بقية يخاف منها وانما كان الخوف ينتاب المنصور من ثلاث جهات

الاولى منافسة عمه عبد الله بن على له فى الامر لما كان له من نباهة الذكر في بني العباس ولانه كان يدبر أمر جبوش الدولة من أهل خراسان وأهل الشأم والجزيرة والموصل الذين أمره عليهم السفاح قبل وفاته ليغزوبهم الروم وقد أظهر

المنصور خوفه هذا لأبي مسلم حينما جاءه الخبر بوفاة أخيه والبيعة له

الثانية من عظمة أبى مسلم الخراسانى مؤسس الدولة فانه كان يري له من الصولة وشدة التمكن في حياة أخيه ما لم يكن يري معه لهم أمرا ولا حكما ومثل المنصور فى علو نفسه لا يرضيه أن يكون له في الامر شريك ذو سطوة وسلطان مثل أبى مسلم على أن هناك أمرا آخر ربما كان يدور بخاطره وهو أن يستقل أبو مسلم بأمر خراسان ويخلع المنصور ثم يختار للخلافة رجلا آخر يكون تحت تصرفه وسلطانه فيعود الامر لاهل فارس .

الثالثة وهي أقوى هذه الجهات الثلاث خوفه من بنى عمه آل على بن أبي طالب الذين لا يزال لهم في قلوب الناس مكان مكين وأخصهم محمد بن عبد الله بن حسن ابن حسن بن على بن أبى طالب لما سيأتي بيانه فكان المنصور يتخوف أن يخرج عليه طالبا بالخلافة والذي كان يزيد هواجسه أنه عام حج في حياة أخيه لم يحضره محمد ولا أخوه ابراهيم ابنا عبد الله مع من شهده من سائر بنى هاشم

كان المنصور يجمع الى الجرأة وبعد الهمة المكر والدهاء فعزم ان يضرب أعداءه بعضهم ببعض حتى يستريح منهم جميعا

عبد الله بن على

أرسل عيسى بن موسى الى عبد الله بن على ببيعة المنصور وعبد الله غاز فانصرف بمن معه من الجيوش قد بايع لنفسه حتى بلغ حران . علم بذلك المنصور وقد نزل الانبار وجمع بها خزائنه ودواوينه فاستحضر أبا مسلم وسيره لحرب عبد الله فسار أبو مسلم نحو عبد الله بحران وقد جمع اليه الجنود والسلاح والطعام والعلوفة وما يصلحه وخندق حول معسكره وكان جنده مؤلفا من أهل الشام والجزيرة وأهل خراسان فخاف ألا يناصحه أهل خراسان اذا رأوا أبا مسلم مطلا فقتل منهم نحو سبعة عشر ألفا أمر صاحب شرطته فقتلهم وربما كان هذا العدد مبالغا فيه ولكنه على كل حال قتل منهم عددا كبيرا فضعضع من قوته وجلل نفسه من العار مالا يمحوه الزمان

باعتدائه الفظيع على جزء عظيم من جنده لم يظهر لهم جرم . ومما دل على قلة حزمه انه كان من ضمن القواد الذين معه حميد بن قحطبة وهو من كبار القواد في الدولة العباسية فأراد ان يستريح منه ولكنه لم يجرأ ان يقتله في المعسكر خوفا من تغير الجند فكتب له كتابا ووجهه الى حلب وعليها زفر بن عاصم وفي الكتاب اذا قدم عليك حميد فاضرب عنقه ولما كان حميد ممن لا تغرهم هذه الخدعة فك الكتاب فى الطريق وقرأه ولما علم ما فيه دعا أناسا من خاصته فأخبرهم الخبر وأفشى اليهم أمره وشاورهم وقال من أراد منكم ان ينجو ويهرب فليسر معي فاني أريد ان آخذ طريق العراق ومن يرد منكم ان يحمل نفسه على السير فلا يفشين سري وليذهب حيث أحب فاتبعه على ذلك ناس من أصحابه وبذلك فقد عبد الله قائدا محنكا مثل حميد ترك عبد الله مدينة حران وأقبل الى نصيبين فاتخذها معسكرا وحصنها فأقبل اليه أبو مسلم وكان داهية قد مارس الحروب ومعه جند مدرب لا يفسد عليه بالعصيان تدبيره فأراد ان يحتل موقع عبد الله لحصانته فكتب اليه اني لم أومر بقتالك ولم أوجه له ولكن أمير المؤمنين ولاني الشام وانما أريدها ولم تكن هذه الحيلة لتنطلى على عبد الله لانه يعرف مكايد خصمه ولكن جند الشام الذين معه قالوا له كيف نقيم معك وهذا يأتي بلادنا وفيها حرمنا فيقتل من قدر عليه من رجالنا ويسبى ذرارينا ولكنا نخرج الى بلادنا فنمنع حرمنا وذرارينا ونقاتله ان قاتلنا فقال لهم عبد الله والله ما يريد الشام وما وجه الا لقتالكم ولئن اقمتم ليأتينكم فلم تطب انفسهم وابوا الا المسير الى الشام . فارتحل عبد الله متوجها الى الشام وحينئذ تحول ابو مسلم حتى نزل معسكر عبد الله بن على ولما بلغ ذلك عبد الله علم ان الحيلة قد تمت عليه وعاد فنزل معسكر أبي مسلم

كان اهل الشام اكثر فرسانا واكمل عدة ولكن المركز الحصين الذى احتله ابو مسلم عوض عليه كثرة عدوه وبذلك استمر القتال بين الفريقين نحو ستة اشهر والحرب بينهما سجال الا ان القوة راجحة في معسكر اهل الشام حتى اذا كان

يوم الثلاثاء لسبع خلون من جمادى الآخرة سنة ١٣٧ كانت بينهما الموقعة الفاصلة وقد استعمل فيها أبو مسلم دهاءه الحربي فاكتسب الظفر وذلك انه أرسل الى الحسن بن قحطبة وكان على الميمنة أن أعر الميمنة وضم أكثرها الى الميسرة وليكن في الميمنة حماة أصحابك فلما رأي ذلك عبد الله أعرى ميسرته لمقاتلة ميمنة أبي مسلم وضم أكثر جنودها الى الميمنة بازاء ميسرة أبي مسلم ثم أرسل أبو مسلم الى الحسن ان مر أهل القلب فليحملوا مع من بقي في الميمنة على ميسرة أهل الشام فحملوا عليها فحطموها وجال أهل القلب والميمنة وركبهم أهل خراسان فكانت الهزيمة

وهنا فعل عبد الله بن علي فعلا لا يليق بشرف بنى هاشم وعلو اسمهم في ميادين القتال فانهم كانوا يرون الفرار عارا لا تحتمله أنفسهم الأبية فاما ظفر أو قتل ولكن عبد الله قال لاحد قواده ما ترى فقال أرى ان تصبر وتقاتل حتى تموت فان الفرار قبيح بمثلك وقبل عبت على مروان فقلت قبح الله مروان جزع من الموت ففر فلم يعجبه هذا الرأي وفر الى العراق تاركا معسكره فاحتواه أبو مسلم فأمن الناس ولم يقتل أحدا وأمر بالكف عنهم

أما عبد الله فانه سار الى البصرة وكان أميرها أخاه سليمان بن علي فآواه وأقام عنده مدة متواريا ولما علم المنصور بذلك أرسل الى سليمان يأمره باشخاص عبد الله ابن علي اليه وأعطاه من الامان لعبد الله مارضيه ووثق به فخرج به سليمان حتى قدم به الى المنصور سنة ١٣٩ فأمر بحبسه وحبس من كان معه ثم أمر بقتل بعضهم وأرسل آخرين منهم الى خراسان فقتلوا هناك واستمر عبد الله في محبسه حتى مات سنة ١٤٧

هذه كانت خاتمة حياة ذلك البطل الذي كان على يده أكبر عمل في تأسيس الدولة العباسية كما كان علي يده أكبر الفظائع في اهلاك البقايا من بنى أمية ولانحجم عن اظهار نفورنا من هذه الطرق التى يلجأ اليها ذوو الخداع والمكر لتنفيذ أغراضهم وتأييد ملكهم غير ناظرين الى النتائج الخبيثة التي تجلب الشر علي أمتهم فان المنصور لم يعبأ بتلك المواثيق التى أعطاها لعبد الله واستخف بها كما استخف بأمان ابن هبيرة

قبل ذلك كما انا لا نحجم عن أن تقول ان عبد الله ختم حياته شر ختام بهربه من ميدان القتال فان طلاب العظائم اذا حال القدر بينهم وبينها لا يرضون الدنية لانفسهم ويموتون دون العار الذي يلحقهم ويلحق أهل بيتهم بسببهم

أبو مسلم

استراح المنصور من عبد الله بن علي على يد أبي مسلم فوجه الهمة الى الراحة من هذا العدو الثاني الذي لا يطمئن على ملكه وهو حي لانه أصبح صاحب الشوكة والسلطان في الدولة وليس المنصور ممن يمكنه الصبر على ذلك ، والذي زاد الامر عنده أنه قد ألقي اليه أن أبا مسلم لا يحترم كتبه ويستهزئ بها اذا وردت اليه فصمم على الفتك بابي مسلم

حصلت حادثة أوقعت الريبة في قلب أبي مسلم وذلك انه بعد تمام الهزيمة أرسل المنصور من قبله رسولا ليحصى المغانم التي غنمت من عبد الله فلما ورد الرسول المعسكر غضب أبو مسلم وكاد يقتل الرسول لولا ان قيل له ماذنبه انما هو رسول فخلى سبيله ولم يمكنه مما جاء له وقال أكون امينا على الدماء غيرامين على الاموال ، فعاد الرسول واخبر المنصور ، لم يكن يحب ان تدخل أبا مسلم اقل ريبة منه لخوفه ان يمضي الى خراسان وبذلك لا يتمكن منه الا بعد معاناة شدائد يريد اختصارها وليأمن من ذلك كتب الى ابى مسلم (اني قد وليتك مصر والشام فهي خير لك من خراسان فوجه الي مصر من أحببت وأقم بالشام حتى تكون بقرب امير المؤمنين فان احب لقاءك اتيته من قريب) فلما جاء الكتاب أبا مسلم غضب وقال هو يوليني الشام ومصر وخراسان لي وصمم على المضي الى خراسان وأقبل من الجزيرة مجمعا على الخلاف مريدا خراسان . رأى المنصور انه لم يبق الا استعمال الدهاء لايقاع ابي مسلم في فخ ينصبه له حتى لا يثير حربا شعواء لا تعلم نتيجتها فتوجه الى المدائن وكتب الى ابي مسلم بالمصير اليه فكتب اليه ابومسلم (انه لم يبق لأمير المؤمنين اكرمه الله عدو الا أمكنه الله منه وقد كنا نروي عن ملوك آل ساسان ان اخوف ما يكون الوزراء

اذا سكنت الدهماء فنحن نافرون من قربك حريصون على الوفاء لك بعهدك ما وفيت حريون بالسمع والطاعة غير أنها من بعيد حيث تقارنها السلامة فان أرضاك ذلك كنا كأحسن عبيدك فان أبيت الا أن تعطي نفسك ارادتها نقضت ما ابرمت من عهدك ضنا بنفسي) وهذا الكتاب مما زاد النار اشتعالا فى قلب المنصور لانه كتاب رجل مدل بما له من القوة حتى وضع نفسه قرنا للخليفة ادلالا بمركزه وسابقته في اقامة دعائم الخلافة العباسية فكتب اليه المنصور (قد فهمت كتابك وليست صفتك صفة أولئك الوزراء الغششة ملوكهم الذين يتمنون اضطراب حبل الدولة لكثرة جرائمهم فانما راحتهم فى انتثار نظام الجماعة فلم سويت نفسك بهم فأنت فى طاعتك ومناصحتك واضطلاعك بما حملت من أعباء هذا الامر على ما أنت به وليس مع الشريطة التى أوجبت منك سماع ولا طاعة وحمل اليك أمير المؤمنين عيسي بن موسى رسالته لتسكن اليها ان أصغيت اليها واسأل الله ان يحول بين الشيطان ونزغاته وبينك فانه لم يجد بابا يفسد به نيتك أوكد وأقرب من طبه من الباب الذي فتحه عليك)

أرسل هذا الكتاب مع عيسى بن موسى ووجه معه أبا حميد المروزي وأمره ان يكلم أبا مسلم بألين ما يكلم به أحدا وان يمنيه فان أبي قال له – يقول لك أمير المؤمنين لست للعباس وأنا بريء من محمد ان مضيت مشاقا ولم تأتنى ان وكلت أمرك لاحد سواي وان لم أل طلبك وقتالك بنفسي ولو خضت البحر لخضته ولو اقتحمت النار لاقتحمتها وراءك حتى أقتلك أو أموت قبل ذلك

سار أبو حميد حتى ورد على أبي مسلم فكلمه كلاما رفيقا فيه نصيحة وتذكير بحقوق الامام وتخويف من تفريق الكلمة فاستشار أبو مسلم مختصيه فأشاروا عليه بألا يقدم على المنصور لانه لم يعد يأمنه بعد ان وقع في نفسه ما وقع فقال لابي حميد ارجع الى صاحبك فليس من رأيي ان آتيه وحينئذ باغه أبو حميد الرسالة الاخيرة فوجم لها أبو مسلم لان هؤلاء الجبابرة يعتريهم طائف من الجبن اذا هم وصلوا الى قمة علوهم

فمثل هذه الكلمات القاسية من المنصور رجعلته يخنع ويلين والذي زاده حيرة وارتباكا مافعله المنصور من التدبير العظيم الذى يضعف آمال أبي مسلم من خراسان وجنودها ذلك انه كتب الى خليفة أبي مسلم على جند خراسان يعطيه امارة خراسان ماعاش ولا شيء أكبر من ذلك يقطع صلته بأبي مسلم فكتب اليه حين بلغته الاخبار بقرب مجيئه الى خراسان (انا لم نخرج لمعصية خلفاء الله وأهل بيت نبيه صلى الله عليه وسلم فلاتخالفن امامك ولا ترجعن الا باذنه) فوافاه هذا الكتاب حين مجيء رسالة المنصور فزاده ذلك رعبا ولم يجد بدا من أن يحول وجهه عن خراسان ويقصد المنصور. كان المنصور مصمما على قتل أبي مسلم ولكن اجتهد ان يكون الرجل آمنا لا يحس بشيء من الجفاء فلما قارب أبو مسلم المدائن أمر الناس وبني هاشم فتلقوه حتى اذا دخل على المنصور سلم عليه سلاما لا يشوبه شيء مخيف وأمره ان ينصرف ويزيل وعثاء السفر ويستريح ليلة . ولما جاء الغد أمر عثمان بن نهيك رئيس الشرطة فجاء بأربعة رجال من الحرس وأمرهم ان يكونوا خلف الرواق فاذا هو صفق خرجوا فقتلوا أبا مسلم . ثم دعاه فدخل عليه فأقبل يحدثه . ومن تمام تدبيره انه شرع يسأله عن نصلين أصابهما فى متاع عبد الله بن على فقال هذا أحدهما للذي هو معه فقال المنصور أرنيه فانتضاه وناوله اياه فهزه أبو جعفر ثم وضعه تحت فراشه وانما فعل ذلك ليأمن على نفسه ان يفتك به أبو مسلم اذا أحس بالشر ثم صار يسأله عن أشياء أخذها عليه وأخيرا سأله عن سبب قصده خراسان مراغما فقال دع هذا فما أصبحت أخاف أحدا الا الله فصفق حينئذ المنصور بيديه فخرج اولائك الحرس الاربعة فاعتوروه بسيوفهم حتي ذهبت نفسه .
ثم اراد ان يفرق الجمع الذي اقبل مع ابي مسلم فأعطاهم جوائز ألهتهم عن التفكير فى الخلاف ثم ارسل الى القواد الذين في جيش ابي مسلم جوائز سنية وارضي جميع الجند حتى رضوا

وبقتل ابي مسلم عرف المنصور انه ابتدأ سلطانه الحقيقي الذي لا يشاركه فيه ولم يأس على ابي مسلم لانه رأى امام نظره كثيرين من القواد يقومون مقامه

من الضروري ان ننبه الافكار الى ان نوابغ القواد الذين خدموا الخلفاء وأسسوا ملكهم انتهت حياتهم فى الغالب بمثل ما انتهت به حياة أبي مسلم وسبب ذلك ان هؤلاء القواد يكونون في بادئ الامر ذوى الكلمة المسموعة والسلطان الواسع بين جنودهم لانهم هم المباشرون للحروب والوقائع وهم الذين يقدمون للجند أعطياتهم فاذا ساعدهم الحظ وتمت على أيديهم الانتصارات الباهرة وقامت الدولة بأسهم وشدة حزمهم لم يكن لنفوذهم في الدولة حد يقفون عنده لانهم يرون ان الامر انما جاء لصاحبهم بفضل مجهودهم الذي بذلوه فاذا كان الخليفة بعيد الهمة ذكي الفؤاد لم يسعه ان يحمل كل هذا واذا ألجأته الضرورة حمله على مضض واذا أمكنته الفرصة لم يتأخر عن انتهازها . وليس من طبيعة القائد الفاتح ان يضرب صفحا عماله من الآثار ويتنازل عن اجتناء الثمرة وقت ادراكها

ومع مابدا من أبى مسلم من العسف الشديد لانبخسه حقه ولا نتأخر عن الاعتراف بأنه كان من نوابغ الرجال الذين أسسو الدول العظام ولو كانت الضحايا التى ذهبت فى تأسيس الدولة أقل مما ضحى لعددناه من كبار السواس الا انه سفك دماء كثيرة وكانت التهمة في نظره كافية لازهاق نفس المتهم فمثل هذا نصفه بالقوة والعزيمة والثبات والدهاء ولكن لا نصفه بحسن السياسة وما رأيت أجهل من أبي مسلم في قدومه على المنصور بعد ما احتج به على سليمان بن كثير شيخ الدعوة بقوله أتذكر قول الامام لى من اتهمته فاقتله . فاذا كانت هذه قاعدة يرى العمل بها واجبا أفلا يكون فيما صنعه مع أبي جعفر ما يدعو الى الريبة فيه واستحقاقه القتل فهو اذا كان قادما على القتل بمقتضى أصل كثيرا ما نفذه ولذا لا يكون قتله محلا للنظر والاستغراب (وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون)

محمد بن عبد الله و بنو الحسن بن على

قدمنا ان المتشيعين لآل البيت كانوا فرقا ثلاثة فرقة ترى ان امام المسلمين معين بالنص من ولد فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم وهؤلاء امامية وكانوا يتولون الى

وقت المنصور جعفر بن محمد بن علي بن الحسين المعروف بالصادق . وفرقة ترى ان امام المسلمين يكون من بني فاطمة الا أنه معين بالوصف لا بالاسم وهؤلاء امامية زيدية يرون الخروج مع كل من دعا الى نفسه من بنى فاطمة متى كانوا موصوفين بالصفات الواجب ان تكون في الامام من العلم والشجاعة والورع وغير ذلك وهم نصراء زيد بن علي وابنه يحيي . وفرقة ترى امامة أهل البيت من غير تقييد ببنى فاطمة وهم الذين نصروا بنى العباس وكانت الفرقتان الاوليان منتشرتين في كثير من الاقاليم العربية والاعجمية وكانت الدعوة العباسية قبل ظهور أمرها مبهمة لانها كانت الى الرضا من أهل بيت النبي صلي الله عليه وسلم فلما ظفرت الدولة العباسية بظفر دعاتها نفس عليهم بنو عمهم من العلويين الخلافة وعدوهم غاصبين للامر كما عدوا بنى أمية من قبلهم وأعظمهم في ذلك رجلان أحدهما جعفر الصادق امام الامامية ولكنه رضي بما تم ولم يحرك ساكنا وكان يوصى أصحابه بالخلود الى السكينة لانه لم ير فرصة معقولة وثانيهما محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب وهذا كان أطمع فى الامر لما زعموه من ان بنى هاشم انتخبوه للخلافة وبايعوه لها فى أواخر عهد بني أمية وكان ممن بايعه أبو جعفر المنصور فلما جاءت الدولة العباسية لم يبايع لأبي العباس ولا لأبي جعفر ولما حج أبو جعفر فى عهد أخيه حضره بالمدينة بنو هاشم جميعا الا محمد بن عبد الله وأخاه ابراهيم فسأل المنصور عنهما فقال له زياد ابن عبيد الله الحارثي أمير المدينة ما يهمك من أمرهما انا آتيك بهما فضمنه اياهما وأبقاه عاملا على المدينة . ثم انه دعا بنى هاشم رجلا رجلا كلهم يخليه فيسأله عن محمد فيقول يا أمير المؤمنين قد علم انك قد عرفته يطالب هذا الشان قبل اليوم فهو يخافك على نفسه وهو لا يريد لك خلافا ولا يحب لك معصية وما أشبه هذه المقالة الا حسن بن زيد بن حسن بن علي فانه أخبره خبره وقال والله ما آمن وثوبه عليك فر رأيك فأيقظ بقوله من لا ينام

صار المنصور يحتال بأنواع الحيل ليعرف الاخبار عن محمد واستخراج ماعند

أبيه عبد الله بن حسن من أخباره ولما علم ان عبد الله يعرف نية ابنه حج سنة ١٤٠ وسأل عبد الله عن ابنيه فأنكر ان يكون عنده علم بهما فتيقن المنصور كذبه وحبسه وصادر أمواله

لم ير المنصور بعد ذلك من ابن زياد صدقا في الحصول على محمد وابراهيم فعزله وولى بدله على المدينة محمد بن خالد بن عبد الله القسري وبسط يده في النفقة فى طلبه فأنفق كثيرا من المال في هذه السبيل وبحث بحثا كثيرا في المدينة وخارجها فلم يصل الى نتيجة فعزله المنصور وأشير عليه أن يولى المدينة رجلا من آل الزبير ليكون ما بين آل الزبير وآل علي من العداوة سائقا له الى البحث الشديد والجد فى الامر فلم يرق هذا فى عيني المنصور وقال أعاهد الله الا أثأر من أهل بيتى بعدوى وعدوهم ولكن أبعث عليهم صعلوكا من صعاليك العرب فولى على المدينة رياح بن عثمان بن حيان المرى فورد المدينة فى شهر رمضان سنة ١٤٤ وهو عازم على عسف الاعراب الذين يستخفي محمد بن عبد الله عندهم فكان أول شيء فعله ان استهان بمحمد بن خالد القسرى الذى كان قبله واليا وعذبه هو وكاتبه ثم أرهق محمد بن عبد الله طلبا حتى لقى شدائد ما كان يراها فى عهد أسلافه من ولاة المدينة فقال في ذلك

منخرق السربال يشكو الوجى تنكبه أطراف مرو حداد
شرده الخوف وأزرى به كذاك من يكره حر الجلاد
قد كان في الموت له راحة والموت حتم فى رقاب العباد

وزاد المنصور في ارهاق محمد فأمر بأخذ بني الحسن كلهم نحو ثلاثة عشر رجلا وحبسهم بالمدينة ولما علم محمد بذلك جاء الى أمه هند وقال لها انى قد حملت أبي وعمومتى مالا طاقة لهم به ولقد هممت أن أضع يدى في أيديهم فعسى ان يخلى عنهم . فتنكرت هند ولبست اطمارا ثم جاءت السجن كهيئة الرسول فأذن لهـا فلما رآها عبد الله أبو محمد أثبتها فنهض اليها فأخبرته بما قال محمد فقال كلا بل نصبر فوالله اني لارجو ان يفتح الله به خيرا قولى له فليدع الي أمره وليجد فيه فان فرجنا بيد الله . فانصرفت وتم محمد على اختفائه

لم يزل بنو حسن محبوسين عند رياح بالمدينة حتى حج أبو جعفر سنة ١٤٤ فلما لم يجد عندهم ما يبرد غلته من جهة محمد وأخيه ابراهيم أمر بحملهم الى العراق وأشخص معهم محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان وهو أخو بنى حسن بن حسن لامهم أمهم جميعا فاطمة بنت حسين بن على وكان ابراهيم بن عبد الله صهره على ابنته حملوا مقيدين بالاغلال والاثقال وسيربهم على شر ما يكون حتى أتى بهم العراق فحبسوا بقصر ابن هبيرة وهو بلد شرقى الكوفة مما يلي بغداد على نهر الفرات . وقد استعمل معهم المنصور من الفظائع مالا طاقة للانسان على تسطيره وكان عظم فظائعه مع محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان . وكانت نتيجة هذا الحبس الشديد ان مات أكثرهم فى الحبس مع ان بنى العباس ملؤا الدنيا تهويلا ورياء بأنهم خرجوا انتقاما من قتلة الحسين بن على وزيد بن حسن ويحيي بن زيد وهؤلاء انما قتلوا فى ميادين القتال وهم خارجون ولم يقتل بنو أمية أحدا من آل على بالشكل الفظيع الذى ذهب به بنو حسن فى عهد بني عمهم من آل العباس

كانت نتيجة هذا الاحراج وهذه الفظائع ان عزم محمد على الظهور بالمدينة وتحدث أهلها بذلك وعلم به رياح أمير المدينة فأحب ان يعد عدته لذلك فعوجل . دخل محمد المدينة ومعه ٢٥٠ رجل فأتى السجن ففتحه وأخرج من فيه ولم يقاومه أهل المدينة بل أعانوه وخذلوا رياحا وكان خروجه فى أول يوم من رجب سنة ١٤٥ و بعد ان استولى على البلد صعد منبر الحرم وقال (أيها الناس انه كان من أمرنا وأمر الطاغية عدو الله أبي جعفر مالم يخف عليكم من بنائه القبة الخضراء التى بناها معاندا الله في ملكه وتصغيرا للكعبة الحرام وانما أخذ الله فرعون حين قال أنا ربكم الأعلى وان أحق الناس بالقيام بهذا الدين أبناء المهاجرين الاولين والانصار المواسين اللهم انهم قد أحلوا حرامك وحرموا حلالك وآمنوا من أخفت وأخافوا من آمنت اللهم فأحصهم عددا واقتلهم بددا ولاتغادر منهم أحدا أيها الناس اني والله ماخرجت بين أظهركم وأنتم عندى أهل قوة ولاشدة ولكني اخترتكم لنفسى والله ماجئت هذه وفى الارض مصر يعبد الله فيه الا وقد أخذت لى فيه البيعة)

وكان الذي أوقع محمدا في هـذا الغلط وجعله يفهم ان دعوته عمت البقاع ان المنصور كان يكتب لمحمد على ألسن قواده يدعونه الى الظهور ويخبرونه انهم معه فكان محمد يقول لو التقينا مال الى القواد كلهم فهذا الذي جعله يظن هذا الظن ، ومما زاده خطأ فى قدر قوة نفسه انه كان متفقا مع أخيه ابراهيم ان يخرج بالبصرة في اليوم الذي يخرج فيه محمد بالمدينة حتى يهول أمرهما أبا جعفر فيفت ذلك في عضده ولكن ابراهيم لم يخرج هذا اليوم لمرض أصابه أو ان محمدا سبق الميعاد والنتيجة انهما لم يخرجا معا . وأعظم خطر على الانسان ما يصيبه من قبل فهمه فى نفسه فانه اذا خاض العظائم وهو يظن لنفسه من القوة ما ليس لها كان حريا بالفشل والخيبة

على انه فضلا عن ذلك كله جعل نفسه محصورا بالمدينة وهي ليست بمركز حربي يمكن القائد ان يبقى فيه على الدفاع طويلا وحياتها من خارجها فلا تحتمل الحصار الا قليلا فلم يكن محمد موفقا في تدبيره مع ما كان يتحلى به من الخصال التى كانت ترفعه في أعين أهل المدينة على أبي جعفر فانهم كانوا لا يرون فيه غشم أبي جعفر ولا ميله للعسف والظلم بل كان يكره سفك الدماء ويتجنبه ماوجد الى ذلك سبيلا ويحب الخير للناس وكان لذلك يلقب عندهم بالنفس الزكية وبالمهدى . ولما استفتي مالك امام دار الهجرة فى الخروج مع محمد وقيل له ان فى أعناقنا بيعة المنصور قال انما بايعتم مكرهين وليس على مكره يمين ولكن هذا كله لايفيد مع ضعف المركزالطبيعي ولذا قل له محمد بن خالد القسرى لما ظهر انك قد خرجت في هذا البلد والله لو وقف على نقب من أنقابه لمات أهله جوعا وعطشا فانهض معي فانما هى عشر حتى أضرب به بمائة ألف سيف فأبى عليه ذلك . ولما علم المنصور بخروجه قال للربيع بن عبيد الله بن عبد المدان خرج محمد . فقال أين قال بالمدينة فقال الربيع هلك والله خرج في غير عدد ولا رجال

كان المنصور حين بلوغه الخبر مشتغلا ببناء بغداد فسار الى الكوفة ليرعى أحوالها بنفسه لان أهلها شيعة لآل علي ويخاف منهم ان يخرجوا لمساعدة محمد فاقفل أبوابها

حتى لا يخرج منها أحد ولا يدخلها أحد . ثم أحب ان يراسل محمداً قبل الحرب فكتب اليه كتاباً هـذه نسخته (بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عبد الله أمير المؤمنين الي محمد بن عبد الله أما بعد فانما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الارض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الارض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم الا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا ان الله غفور رحيم . ولك عهد الله وميثاقه وحق نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ان تبت من قبل ان أقدر عليك ان أؤمنك على نفسك وولدك واخوتك ومن بايعك وتابعك وجميع شيعتك وان أعطيك ألف ألف درهم وان أنزلك من البلاد حيث شئت وأقضى لك ما شئت من الحاجات وان أطلق من فى سجنى من أهل بيتك وشيعتك وأنصارك ثم لا أتبع أحدا منكم بمكروه فان شئت ان تتوثق لنفسك فوجه الىّ من يأخذ لك من الميثاق والعهد والامان ماأحببت والسلام)

فكتب اليه محمد بن عبد الله (بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله محمد المهدى أمير المؤمنين الى عبد الله بن محمد أما بعد طسم تلك آيات الكتاب المبين نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ان فرعون علا فى الارض وجعـل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم انه كان من المفسدين ونريد ان نمن على الذين استضعفوا فى الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الارض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون وأنا أعرض عليك من الامان مثل الذي أعطيتني وقد تعـلم ان الحق حقنا وانكم انما طلبتموه بنا ونهضتم فيه بشيعتنا وخبطتموه بفضلنا وان أبانا عليا عليه السلام كان الوصى والامام فكيف ورثتموه دوننا ونحن أحياء وقد علمت انه ليس أحـد من بنى هاشم يمت بمثل فضلنا ولا يفخر بمثل قديمنا وحديثنا ونسبنا وسببنا وانا بنو ام رسول الله صـلي الله عليه وسلم فاطمة بنت عمرو فى الجاهلية دونكم وبنو ابنته فاطمة فى الاسـلام

من بينكم فأنا أوسط بنى هاشم نسبا وخيرهم أما وأبا لم تلدني العجم ولم تعرق فيّ أمهات الاولاد وان الله تبارك وتعالى لم يزل يختار لنا فولدنى من النبيين أفضلهم محمد صلى الله عليه وسلم ومن أصحابه أقدمهم اسلاما وأوسعهم علما وأكثرهم جهادا على ابن أبى طالب ومن نسائهم أفضلهن خديجة بنت خويلد أول من آمن بالله وصلى الى القبلة ومن بناته أفضلهن وسيدة نساء أهل الجنة ومن المولودين فى الاسلام الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة ثم قدعلمت ان هاشما ولد عليا مرتين وان عبد المطلب ولد الحسن مرتين وان رسول الله صلى الله عليه وسلم ولدنى مرتين من قبل جديّ الحسن والحسين فما زال الله يختار لى حتى اختار لي في النار فولدني أرفع الناس درجة في الجنة وأهون أهل النار عذابا فأنا ابن خير الاخيار وابن خير الاشرار وابن خير أهل الجنة وابن خير أهل النار ولك عهد الله ان دخلت فى بيعتى ان أؤمنك على نفسك وولدك وكل ما أصبته الا حدا من حدود الله أوحقا لمسلم أو معاهد فقد علمت ما يلزمك فى ذلك فأنا أوفى بالعهد منك وأحرى لقبول الامان فأما أمانك الذي عرضت عليّ فأى الأمانات هو أأمان ابن هبيرة أم أمان عمك عبد الله بن على أم أمان أبي مسلم والسلام

فكتب اليه أبو جعفر (بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عبد الله أمير المؤمنين الى محمد بن عبد الله أما بعد فقد أتاني كتابك وبلغنى كلامك فاذا جل فخرك بالنساء لتضل به الجفاة والغوغاء ولم يجعل الله النساء كالعمومة ولا الآباء كالعصبة والاولياء ولقد جعل العم أبا وبدأ به على الوالد الادنى فقال جل ثناؤه عن نبيه عليه السلام واتبعت ملة آبائي ابراهيم واسمعيل واسحاق ويعقوب . ولقد علمت ان الله تبارك وتعالى بعث محمدا صلى الله عليه وسلم وعمومته أربعة فأجابه اثنان أحدهما أبي وكفر به اثنان أحدهما أبوك . فاما ما ذكرت من النساء وقراباتهن فلو أعطين على قرب الانساب وحق الاحساب لكان الخير كله لآمنة بنت وهب ولكن الله يختار لدينه من يشاء من خلقه فاما ماذكرت من فاطمة أم أبي طالب فان الله لم يهد من ولدها أحدا الى

الاسلام ولو فعل لكان عبد الله بن عبد المطلب أولاهم بكل خير في الآخرة والاولى وأسعدهم بدخول الجنة غدا ولكن الله أبى ذلك فقال انك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء . فاما ما ذكرت من فاطمة بنت أسد أم علي أبى طالب وفاطمة أم الحسن وان هاشما ولد عليا مرتين وان عبد المطلب ولد ا[illegible] مرتين فخير الاولين والآخرين محمد صلى الله عليه وسلم لم يلده هاشم الا مرة واحدة ولم يلده عبد المطلب الا مرة واحدة وأما ما ذكرت من انك ابن رسول الله فان الله عز وجل أبى ذلك فقال ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين ولكنكم بنو ابنته وانها لقرابة قريبة غير أنها لا تحوز الميراث ولا يجوز أن تؤم فكيف تورث الامامة من قبلها ولقد طلب بها أبوك بكل وجه فاخرجها تخاصم ومرضها سرا ودفنها ليلا فابي الناس الا تقديم الشيخين ولقد حضر أبوك وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمر بالصلاة غيره ثم أخذ الناس رجلا رجلا فلم يأخذوا أباك فيهم ثم كان فى أصحاب الشورى فكل دفعه عنها بايع عبد الرحمن عثمان وقبلها عثمان وحارب أباك طلحة والزبير ودعا سعدا الى بيعته فاغلق بابه دونه ثم بايع معاوية بعده وأفضى أمر جدك الى أبيك الحسن فسلمه الى معاوية بخرق ودراهم وأسلم فى يديه شيعته وخرج الى المدينة فدفع الامر الى غير أهله واخذ مالا من غير حله فان كان لكم شيء فقد بعتموه . فاما قولك ان الله اختار لك فى الكفر فجعل أباك أهون أهل النار عذابا فليس في الشر خيار ولا من عذاب الله هين ولا ينبغي لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر ان يفخر بالنار وسترد فتعلم وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون . وأما قولك انك لم تلدك العجم ولم تعرق فيك أمهات الاولاد وانك أوسط بني هاشم نسبا وخيرهم أما وأبا فقد رأيتك فخرت على بنى هاشم طرا وقدمت نفسك على من هو خير منك أولا وآخرا وأصلا وفصلا فخرت على ابراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلي والد ولده فانظر ويحك أين تكون من الله غدا وما ولد فيكم مولود بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل من على بن الحسين وهو لام ولد

ولقد كان خيرا من جدك حسن بن حسن ثم ابنه محمد بن علي خير من أبيك وجدته أم ولد ثم ابنه جعفر خير منك . ولقد علمت ان جدك عليا حكم حكمين وأعطاهما عهد الله وميثاقه على الرضا بما حكم به فاجتمعا على خلعه . ثم خرج عمك الحسين بن علي على ابن مرجانة فكان الناس الذين معه عليه حتى قتلوه ثم أتوا بكم على الاقتاب بغير أوطية كالسبي المجلوب الى الشام . ثم خرج منكم غير واحد فقتلتكم بنو أمية وحرقوكم بالنار وصلبوكم على جذوع النخل حتى خرجنا عليهم فأدركنا بثأركم اذ لم تدركوه ورفعنا أقداركم وأورثناكم أرضهم وديارهم بعد ان كانوا يلعنون أباك في ادبار الصلوات المكتوبة كما تلعن الكفرة فعنفناهم وكفرناهم وبينا فضله وأشدنا بذكره فاتخذت ذلك علينا حجة وظننت أنا لما ذكرنا من فضل علي أنا قدمناه على حمزة والعباس وجعفر كل أولئك مضوا سالمين مسلما منهم وابتلي أبوك بالدماء . ولقد علمت ان مآثرنا في الجاهلية سقاية الحجيج الاعظم وولاية زمزم وكانت للعباس دون اخوته فنازعنا فيها أبوك الى عمر فقضي لنا عمر . وتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس من عمومته أحد حيا الا العباس فكان وارثه دون بني عبد المطلب . وطلب الخلافة غير واحد من بني هاشم فلم ينلها الا ولده فاجتمع للعباس انه أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم خاتم الانبياء وبنوه القادة الخلفاء فقد ذهب بفضل القديم والحديث . ولولا ان العباس اخرج الى بدر كرها لمات عماك طالب وعقيل جوعا أو يلحسا جفان عتبة وشيبة فأذهب عنهما العار والشنار . ولقد جاء الاسلام والعباس يمون ابا طالب للازمة التي اصابتهم ثم فدا عقيلا يوم بدر فقدمُنّـا كم في الكفر وفدينا كم من الاسر وورثنا دونكم خاتم الانبياء وحزنا شرف الآباء وادركنا من ثأركم ما عجزتم عنه ووضعنا كم بحيث لم تضعوا انفسكم والسلام .

بعد هذه المكاتبة التي لم تجد الا اظهار العيوب لم يكن الا الجد في الامر وكان المنصور يتخوف ان يبلغ خروج محمد أهل خراسان فتفسد قلوبهم فكان يعمي الاخبار عليهم . واختار لمناضلة محمد عيسى بن موسي الذي كان السفاح جعله ولي

عهد بعد المنصور فقال عيسى للمنصور شاور عمومتك فقال امض ايها الرجل فوالله ما يراد غيري وغيرك وماهو الا ان تشخص او اشخص وزود عيسى بوصية يحمد عليها اذ قال ياعيسى اني بعثتك الى ما بين هذين (واشار الى جنبيه) فان ظفرت بالرجل فشم سيفك وان تغيب فضمنهم اياه حتى يأتوك به فانهم يعرفون مذاهبه .
وجهز المنصور الجيش احسن جهاز فلما وصل الى فيد بعث الى رجال من اهل المدينة في خرق من الحرير فلما وردت كتبه المدينة تفرق ناس عن محمد وخرج بعضهم الى عيسى ومنهم ناس من آل علي

ولما شعر محمد بقرب عيسى بن موسى خندق حول المدينة اما عيسى فانه أقبل بجنوده حتى وصل الى المدينة وهناك ارسل فصيلة من جنوده تحرس طريق مكة حتى اذا اراد محمد الهرب اليها لم يجد طريقا وكان نزول عيسى على المدينة فى ١٢ رمضان سنة ١٤٥ وقبل اللقاء قدم دعوة محمد الى الخضوع فلم يجبه ثم دارت الموقعة بين الفريقين وقد ظهرت شجاعة محمد بن عبد الله ظهورا عظيما ولكن عدوه كان عظيما فلم يلبث ان قتل وظهرت الاعلام السوداء على مرتفعات المدينة وعلى منارة المسجد النبوي فسلم المحاربون وكان قتل محمد لاربع عشرة ليلة خلت من رمضان .

وعند ذلك ارسل عيسى الى ابي جعفر ببشارة الفتح وبراس محمد بن عبد الله وأمن المدينة واهلها وفى ١٩ رمضان شخص يريد مكة بعد ان قبض اموال بنى حسن كلها .

وكان مكث محمد منذ قام الى ان قتل شهرين و ١٧ يوما

ابراهيم بن عبد الله

هو أخو محمد دخل البصرة ودعا الناس سرا الى اخيه فبايعه كثير من اهلها واجابه فتيان من العرب وكان ابو جعفر يظن انه يخرج بها فانه لما بلغه خروج محمد بالمدينة استشار جعفر بن حنظلة البهراني وكان صاحب رأي فقال حصّن البصرة لأن محمدا ظهر بالمدينة وليسوا اهل حرب بحسبهم ان يقيموا شأن انفسهم واهل

الكوفة تحت قدمك وأهل الشام أعداء آل أبي طالب فلم يبق الا البصرة فاهتم بارسال الجنود واقامة المسالح بين الكوفة والبصرة لئلا يخرج أهل الكوفة لمساعدة ابراهيم

ظهر ابراهيم بالبصرة واستولى عليها وعلى ماقرب منها والاهواز وواسط ولم يزل على أمره ذلك حتى أتاه نعي أخيه محمد قبل فطر سنة ١٤٥ بثلاثة أيام فصلى بالناس يوم الفطر وعليه أثر الانكسار

أرسل أبو جعفر الى عيسى بن موسى يستحثه للقدوم ليتولى حرب ابراهيم فجاء مسرعا وسار نحو البصرة وخرج ابراهيم لملاقاته فالتقيا عند باخمرى وكانت العاقبة لعيسى فقتل ابراهيم لخمس ليال بقين من ذى القعدة سنة ١٤٥

وكان محمد وأخوه ابراهيم من أحسن الطالبين خلقا وأنظفهم تاريخا لم يعرف عنهما ما يشينهما في معاملة الناس وفي صدق العزيمة الا ان الحظ خانهما

وللمنصور خطبة نفيسة يبرر بها عمله مع بنى الحسن أمام شيعته من أهل خراسان وغيرهم قال فيها :

يا أهل خراسان أنتم شيعتنا وأنصارنا وأهل دولتنا ولو بايعتم غيرنا لم تبايعوا من هو خير منا وان أهل بيتى هؤلاء من ولد على بن أبي طالب تركناهم والذي لا اله الا هو والخلافة فلم نعرض لهم فيها بقليل ولا كثير فقام على بن ابى طالب فتلطخ وحكم عليه الحكمين فافترقت عنه الامة واختلفت عليه الكلمة ثم وثبت عليه شيعته وانصاره واصحابه وبطانته وثقاته فقتلوه . ثم قام من بعده ابنه الحسن فوالله ما كان فيها برجل قد عرضت عليه الاموال فقبلها فدس اليه معاوية انى اجعلك ولى عهدى من بعدى فخدعه فانسلخ له مما كان فيه وسلمه اليه فاقبل على النساء يتزوج فى كل يوم واحدة فيطلقها غدا فلم يزل على ذلك حتى مات على فراشه ثم قام من بعده الحسين ابن على فخدعه اهل العراق واهل الكوفة واهل الشقاق والنفاق والاغراق والفتن اهل هذه المدرة السوداء (وأشار الى الكوفة) فوالله ما هي بحرب فأحاربها ولا سلم

فأسالها فرق الله بيني وبينها فخذلوه وأسلموه . ثم قام من بعده زيد بن علي فخدعه أهل الكوفة وغروه فلما أخرجوه اظهروه وأسلموه وقد كان أبي محمد بن علي فناشده في الخروج وسأله ان لا يقبل اقاويل اهل الكوفة وقال انا نجد في بعض علمنا ان بعض اهل بيتنا يصلب بالكوفة وانا أخاف ان تكون ذلك المصلوب وناشده عمي داود بن علي وحذره غدر اهل الكوفة فلم يقبل وأتم على خروجه فقتل وصلب بالكناسة ثم وثب علينا بنو امية فأماتوا شرفنا وأذهبوا عزنا والله ما كانت لهم عندنا ترة يطلبونها وما كان ذلك كله الا فيهم وبسبب خروجهم عليهم فنفونا من البلاد فصرنا مرة بالطائف ومرة بالشام ومرة بالشراة حتى ابتعثكم الله لنا شيعة وانصارا فأحيا شرفنا وعزنا بكم اهل خراسان ودمغ بحقكم اهل الباطل واظهر حقنا واصار الينا ميراثنا عن نبينا صلى الله عليه وسلم فقر الحق مقره واظهر مناره واعز انصاره فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين فلما استقرت الامور فينا على قرارها من فضل الله علينا وحكمه العادل لنا وثبوا علينا ظلما وحسدا منهم لنا وبغيا لما فضلنا الله به عليهم واكرمنا به من خلافته وميراث نبيه صلى الله عليه وسلم

جهلا عليّ وجبنا عن عدوهم لبئست الخلتان الجهل والجبن

اني والله يا اهل خراسان ما اتيت من هذا الامر ما اتيت بجهالة بلغني عنهم بعض السقم والتعرم وقد دسست لهم رجالا فقلت قم يافلان فخذ معك من المال كذا وحذوت لهم مثالا يعملون عليه فخرجا حتي اتوهم بالمدينة فدسوا اليهم تلك الاموال فوالله ما بقي منهم شيخ ولا شاب ولا صغير ولا كبير الا بايعهم بيعة استحلات بها دماءهم واموالهم وحلت لي عند ذلك بنقضهم بيعتي وطلبهم الفتنة والتماسهم الخروج علي فلا يرون اني اتيت ذلك على غير يقين) ثم نزل وهو يتلو على درج المنبر هذه الآية (وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل انهم كانوا في شك مريب

وقد بقيت بقايا بني الحسن مشردين في عهد ابي جعفر بعد ان قتل منهم من

قتل ومات من مات وحبس من حبس ومن غريب ما رأيت من رواية محمد بن جرير الطبرى ان المهدى آلت اليه خزانة مما خلف والده فدخلها مع زوجه ريطة فاذا ازج كبير فيه جماعة من قتلى الطالبيين وفي آذانهم رقاع فيها أنسابهم واذا فيهم اطفال و رجال وشباب ومشائخ عدة كثيرة فلما رأي ذلك المهدى ارتاع لما رأى وأمر فحفرت لهم حفيرة فدفنوا فيها وعمل عليهم دكان اه هذه كبرى الحوادث التي حصلت لعهد المنصور

وكانت الطريقة التى تدار بها البلاد لا تختلف عن طريقة بنى أمية فكان فى كل ولاية وال يعينه الخليفة وأعماله هي اقامة الصلاة المسلمين وجهاد العدو وجباية الخراج وحفظ الامن وفصل الخصومات بين الناس وقد كان الوالى تسند اليه أحيانا هذه الامور الخمسة فيكون امام القوم وقائد الجند وينتدب للخراج والشرطة والقضاء من يراه أهلا للقيام بها واحيانا يكون اليه الصلاة والشرطة والجهاد والخراج ويكون للحرب أمير آخر مستقل عن أمير الصلاة ويعين القاضي من قبل الخليفة رأسا

ولم تكن الولايات متعينة العدد بل تارة يضم ولا يتان الى وال واحد وتارة يفصل بينهما حسب ما يراه الخليفة في مقدرة الوالى فكان أبو مسلم مثلا واليا لخراسان كلها و بلاد الري والجبل وعليها ولاة من قبله . وكان أكثر الولاة لعهد المنصور من اهل بيته وممن اصطنعهم من العرب والموالى ولم يكونوا يحبون ان تطول مدة الوالى في ولاية ولا سيما في الاطراف كمصر وخراسان خوفا ان تحدثه نفسه بالاستقلال عن الخليفة وقد حصلت من ذلك حوادث في خراسان تلافاها المنصور بحيلته وقوته

وجميع امور الولايات ترجع الى الخليفة الذى هو صاحب الامر المطاع ومعينوهم

﴿ أولا ﴾ الوزير والوزارة لم تكن معروفة بهذا الاسم فى عهد الدولة الاموية وأول من سمي بهـا لعهد ابي العباس السفاح ابو سلمة الخلال شيخ الدعوة بالكوفة فقد كان يعرف بوزير آل محمد واصله مولى لبنى الحرث بن كعب وكان سمحا كريما مطعاما كثير البذل مشغوفا بالتموق في السلاح والدواب فصيحا عالما بالاخبار

والاشعار والسير والجدل والتفسير حاضر الحجة ذايسار ومزوءة ظاهرة وقد قدمنا خبر انهامه بالميل لآل علي ومقتله بسبب ذلك فقال شاعر في رثائه

ان الوزير وزير آل محمـــد ‏ ‏ ‏ أودى فمن يشناك كان وزيرا

ان السلامة قد تبين وربما ‏ ‏ ‏ كان السرور بما كرهت جديرا

فاستوزر السفاح بعده ابا الجهم الى ان مات السفاح وولى المنصور فكان في نفسه منه أشياء فيقال انه سمه والصحيح ان السفاح استوزر بعد أبي سلمة خالد بن برمك جد البرامكة الذين ظهر مجدهم في عهد هرون الرشيد وكان خالد من رجال الدعوة العباسية الذين أقاموا دولتها وهو من ابناء رؤساء الفرس الذين كانت اليهم بيوت العبادة قبل شيوع الاسلام بالبلاد الفارسية وهو أول من اعتنق الاسلام من أهل بيته وكان خالد فاضلا كريما حازما يقظا استوزره السفاح ويقال انه لم يكن يتسمى باسم الوزير تطيرا مما جرى على أبي سلمة فكان يعمل عمل الوزراء ولا يسمي وزيرا

لما تولى المنصور لم تكن للوزارة في ايامه ابهة ولا كبير قدر لما كان موصوفا به من الاستبداد بأموره أبقى في وزارته خالدا مدة ليست بالطويلة ثم أعفاه وولى

ابا ايوب سليمان بن ابى سليمان مخلد المورباني الخوزى

وموريان قرية من قرى الاهواز كان في اواخر دولة بنى امية كاتبا لسليمان بن حبيب بن المهلب بن ابي صفرة وكان المنصور فى ذاك الزمن ينوب عن سليمان هذا في بعض كور فارس فاتهمه بانه احتجز مالا لنفسه فضربه بالسياط ضربا شديدا وكان يريد الفتك به بعد ضربه فخلصه منه ابو ايوب فاعتدها المنصور يدا له فضلا عما عرف به ابو ايوب من المقدرة والنباهة فاستوزره المنصور وخف على قلبه وتمكن منه وكان مع هـذا يخشى المنصور جدا ويرعد فرائصه اذا دعاه اليه روى ابن خلكان ان خالد بن يزيد الارقط قال بينا ابو ايوب جالس في امره ونهيه اتاه رسول المنصور فتغير لونه فلما رجع تعجبنا من حالته فضرب مثلا لذلك وقال زعموا ان البازى

قال للديك ما في الارض حيوان أقل وفاء منك قال وكيف ذلك قال أخـذك أهلك بيضة فحضنوك ثم خرجت على أيديهم وأطعموك في أكفهم ونشأت بينهم حتى اذا كبرت صرت لا يدنو منك أحد الا طرت ههنا وههنا وصوت وأخذت أنا مسنا من الجبال فعلموني وألفوني ثم يخلى عني فآخذ صيدا في الهواء وأجيء به الى صاحبي فقال له الديك انك لو رأيت من البزاة في سفافيدهم المعدة للشي مثل الذى رأيت من الديوك لكنت أنفر مني ولكنكم أنتم لو علمتم ما أعلم لم تتعجبوا من خوفي مع ماترون من تمكن حالى

وقد كان ما خافه أبو ايوب فان المنصور غضب عليه سنة ١٥٣ وعذبه وأخذ أمواله وحبس أخاه وبنى أخيه سعيدا ومسعودا ومخلدا ومحمدا وطالبهم وكانت منازلهم المناذر وقد قال في هذه النكبة احد شعراء العصر

قد وجدنا الملوك تحسد من أعـــطته طوعا أزمة التـدبير
فاذا ما رأوا له النهي والامـــر أتوه من بأسهم بنكير
شرب الكأس بعدحفص سليـــمان ودارت عليه كف المدير
ونجا خالد بن برمك منهـا اذ دعوه من بعدها بالامـير
أسوأ العـالمين حالا لديهم من تسمى بكاتب أو وزير

وهـذه الابيات القليلة تشرح لنا ما كان يدور على ألسنة القوم اذ ذاك في نكبات الوزراء التي لم تكن قليلة بل قلما نجد في وزراء بنى العباس من سلم منها . ويقال ان سبب نكبة أبي ايوب سعى ابان بن صدقة كاتبه به عند المنصور وكان موته سنة ١٥٤

الربيع بن يونس

استوزر المنصور بعد ابي ايوب الربيع بن يونس كان أحد جدوده أبو فروة كيسان مولي عثمان بن عفان من سبى جبل الخليل ونشأ اولاده في الكتابة في عهد بنى امية ولما جاءت الدولة العباسية كان الربيع ممن يخدم المنصور وكان كثير الميل

اليه حسن الاعتماد عليه فكانت اليه الحجابة وهى من الوظائف الكبرى في الدولة وسيأتى شرحها

ولما قبض المنصور على أبي أيوب استوزره بعده فظل فى خدمته الى أن مات المنصور. وكان الربيع عارفا بخدمة الخلفاء محبوبا عندهم ولاسيما المنصور وكان جليلا نبيلا منفذا للامور مهيبا فصيحا كافيا حازما عاقلا فطنا خبيرا بالحساب والاعمال حاذقا بأمر الملك بصيرا بما يأتي ويذر محبا لفعل الخير

ولما مات المنصور بمكة كان معه وهو الذي أخذ البيعة للمهدي بعده وكان ذلك مما جعل المهدي يبقيه على درجته التي كان عليها في عهد أبيه الا انه كان حاجبا لا وزيرا وكانت وفاته سنة ١٧٠ فى عهد الهادى ويقال انه سمه

﴿ ثانيا ﴾ الحاجب وهو موظف كبير لا يمثل أحد بين يدي الخليفة الا باذنه وقد وجد الحاجب فى عهد بني أمية وقد أحدثوه لما خشوا على انفسهم من الفتاكين بعد حادثة الخوارج مع على وعمرو بن العاص ومعاوية بن ابي سفيان مع ما في فتح أبوابهم من ازدحام الناس عليهم وشغلهم به عن المهمات فاتخذوا من يقوم لهم بذلك وسموه الحاجب وقد روى ان عبد الملك قال لحاجبه قد وليتك حجابة بابي الا عن ثلاثة المؤذن للصلاة فانه داعى الله وصاحب البريد فأمر ما جاء به وصاحب الطعام لئلا يفسد وكان الى الحاجب التقدم والتأخير في الاذن حسبما يرى من مقامات الناس ودرجاتهم

وقد ظلت الحجابة فى ارتقاء كلما ارتقت الحضارة وقد سار خلفاء بنى العباس على نمط بنى أمية فى ذلك وكان للحاجب في عصرهم مرتبة عليــة وكثيرا ما كان يستشار في الامور التى تنزل بالخلافة

﴿ ثالثا ﴾ الكاتب وهو الذى يتولى مخاطبة من بعد عن الحضرة من الملوك والامراء وغيرهم وكثيرا ما كان يتولى الخليفة نفسه تلك الكتابة كما ورد ان المنصور لمــا جاءته رسالة محمد بن عبد الله قال له كاتبه دعني أجبه عليها فقال أبو جعفر لا

بل أنا أجيبه عنها اذ تقارعنا على الاحساب فدعني واياه . وأحيانا كان يتولى الكتابة الوزير

﴿ رابعا ﴾ صاحب الشرط وهو المحافظ على الامن وكان المنصور يختار لصاحب الشرط آمن الرجال وأشدهم وكان له سلطان عظيم على المريبين والجناة الا ان استبداد المنصور بالامور ومباشرته لصغيرها وكبيرها كانا يقللان من أهمية كل عامل

﴿ خامسا ﴾ القاضي وكان ينظر في قضايا مدينة المنصور وحدها ولم يكن له سلطان على قضاة الاقاليم لان منصب قاضي القضاة لم يكن أنشئ بعد . ومن مشهوري قضاة المنصور محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى ولد سنة ٧٤ للهجرة وتفقه بالشعبي اقام قاضيا بالكوفة ثلاثين سنة في الدولتين الاموية والعباسية وهو معدود من فقهاء أهل الرأى وكان بينه وبين أبي حنيفة الامام وحشة يسيرة وقد كان أبو حنيفة يعترض عليه في بعض أحكامه وهو أصغر منه سنا فشكاه ابن أبي ليلى للأمير فمنعه الامير من الفتيا وكانت وفاة ابن أبى ليلى سنة ١٤٨

هذه المناصب الخمسة هي أهم المناصب في الدولة وجميع الوظائف الاخرى ترجع اليها وكان فى كل ولاية صورة من ذلك

الجيش

أهم ما تظهر به الدولة جيشها الذى يذود عن حياضها ويحمى بيضتها وقد كان الجيش لعهد الدولة الاموية عربيا محضا جنوده وقواده فلما جاءت الدولة العباسية كان ظهور نجمها على يد أهل خراسان الذين يرجع اليهم أكبر الفضل فى ثل عرش الدولة الاموية وبالضرورة يكون لهم حظ وافر من الدولة وحمايتها لذلك كان جيش الديوان في اول عهد العباسيين مؤلفا من فريقين

﴿ الاول ﴾ الجيوش الخراسانية — الثاني الجيوش العربية وقوادهم من الفريقين بعضهم من العرب وبعضهم من الموالى وكان التنازع شديدا بين الفريقين بداعي العصبية كل يتعصب لابناء جنسه . وكان أكبر القواد المعروفين في اول عهد الدولة

أبو مسلم الخراساني لجيوش المشرق الخراسانية وعبد الله بن علي لجيوش المغرب واعظمها عربي من الجزيرة والشام . ولما خرج عبد الله بن على عن طاعة المنصور وأرسل أبو مسلم لحربه فانتصر عليه رجحت كفة الخراسانيين وصارت الثقة بهم أعظم ولكن ذلك لم يمنع المنصور من القضاء على ابي مسلم الذى نظر اليه نظرة الشريك المساوى في القوة والسلطان ويظهر ان المنصور لم يكن يرى لمصلحته ومصلحة اهل بيته ان تظل كفة اهل خراسان راجحة فاصطنع كثيرا من رجالات العرب وسلمهم قيادة الجيوش كما استعان بأهل بيته ومن أعظم قوادهم عيسى بن موسى الذى سيره المنصور لحرب محمد بن عبد الله واخيه ابراهيم .

ومن مشهوري قواده العرب . معن بن زائدة الشيباني وهو قائد شجاع كان فى ايام بنى امية متنقلا في الولايات ومنقطعا الى يزيد بن عمر بن هبيرة الفزارى امير العراقين فلما جاءت الدولة العباسية وحوصر يزيد بن عمر بواسط ابلى معه يومئذ بلاء حسنا فلما سلم يزيد وقتل خاف معن على نفسه من المنصور فاستتر مدة طويلة حصلت له فيها غرائب من اظرفها انه تنكر وركب جملا يقصد البادية فبينا هوخارج من باب المدينة تبعه عبد اسود متقلد سيفا فقبض على خطام جمله فأناخه وقبض على يدى معن وقال أنت طلبة أمير المؤمنين أنت معن بن زائدة فلما رأى الجد منه اخرج عقد جوهر ثمنه اضعاف ماجعله المنصور لمن يأتى بمعن فقال للاسود خذه ولا تكن سببا لسفك دمى فتأمله الاسود وقال لست اقبله حتى اسألك عن شيء فان صدقتنى اطلقتك ان الناس وصفوك بالجود فهل وهبت مالك كله قال لا قال فنصفه قال لا ولم يزل حتى بلغ العشر فقال معن نعم فقال له الاسود انا رزقى من المنصور كل شهر عشرون درهما وهذا الجوهر قيمته الوف دنانير وقد وهبته لك ووهبتك لنفسك ولجودك المأثور بين الناس ولتعلم ان في الدنيا من هو اجود منك فلا تعجبك نفسك ولتحقر بعد هذا كل جود فعلته ولا تتوقف عن مكرمة ثم رمى العقد فى حجره وترك خطام الجمل وولى منصرفا فقال له معن قد والله فضحتنى ولسفك دمى اهون على

مما فعلت فخذ ما دفعته لك . فانى فى غنى عنه فضحك وقال أردت أن تكذبني فى مقالى والله لا أخذته ولا أخذت لمعروفى ثمنا ومضى لسبيله . وما زال معن مستترا حتى كان يوم الهاشمية يوم أن ثار الراوندية بالمنصور وهم قوم من أهل خراسان منسوبون الى بليدة قرب قاشان وكانوا على رأى أبى مسلم صاحب دعوة بنى هاشم يقولون بتناسخ الارواح ويظهر على رغم الروايات المتناقضة انهم كانوا يريدون الاخذ بثأر أبي مسلم ويقتلون أبا جعفر فاجتمع منهم زهاء ستمائة وقصدوا نحو المنصور فتنادى الناس وغلقت أبواب المدينة فلم يدخل أحد فخرج المنصور من قصره وفى ذلك الوقت ظهر معن فانتهى الى أبي جعفر فرمى بنفسه وترجل وادخل خرقة قبائه في منطقته واخذ بلجام دابة المنصور وقال أنشدك الله يا أمير المؤمنين الا رجعت فانك تكفى فلم يرجع وجاء الربيع ليأخذ بلجام الدابة فقال له معن ليس هذا من أيامك ثم تكاثر عليهم الناس فقتلوهم جميعا وشرفت تلك الفعلة معنا في نظر أبي جعفر حتى سماه أسد الرجال فقال معن والله يا أمير المؤمنين لقد أتيتك وأنا وجل القلب فلما رأيت ما عندك من الاستهانة بهم وشدة الاقدام عليهم رأيت أمرا لم أره من خلق في حرب فشد ذلك من قلبى وحملني على ما رأيت مني . وكان ذلك سببا لاعطائه الامان ووصله بعشرة آلاف درهم وتوليته اليمن فمكث فيها مدة أحسن فيها السيرة في أهلها حتى ردهم الى الطاعة والجماعة . ثم ولي في آخر أمره سجستان ، ولما كان سنة ١٥١ كان فى داره صناع يعملون له عملا فاندس بينهم قوم من الخوارج فقتلوه بمدينة بُست . وكان معن جوادا ممدحا وشاعره الخصيص به مروان بن أبي حفصة له فيه المدح الرائقة كما له فيه المراثي المشجية ومن طرف بدائهه ان معنا دخل على المنصور مرة فقال له ايه يا معن تعطى مروان بن أبي حفصة مائة ألف درهم على قوله

معن بن زائدة الذي زادت به ... شرفا على شرف بنو شيبان

فقال كلا يا أمير المؤمنين وانما أعطيته على قوله

ما زلت يوم الهاشمية معلنا ... بالسيف دون خليفة الرحمن

فمنعت حوزته وكنت وقاءه من وقع كل مهند وسنان

ومنهم عمرو بن العلاء من أعظم قواد المنصور وهو الذى يقول فيه بشار ابن برد الشاعر

فقل للخليفة ان جئته نصيحا ولا خير فى المتهم
اذا أيقظتك حروب العدا فنبه لها عمرا ثم نم
فتى لا ينام على دمنة ولا يشرب الماء الا بدم

ويقول فيه أبو العتاهية

ان المطايا تشتكيك لانها قطعت اليك سباسبا ورحالا .
فاذا وردن بنا وردن مخفة واذا رجعن بنا رجعن ثقالا

وجهه المنصور سنة ١٤١ لحرب بلاد طبرستان وكانت مضطربة بثورة المصمغان ملك دنباوند والاصبهبذ وكان توجيهه اليها بمشورة أخى المصمغان فانه قال للمنصور يا أمير المؤمنين ان عمر أعلم الناس ببلاد طبرستان فوجهه وضم اليه خازم بن خزيمة وهو من القواد الكبار فدخل الرويان ففتحها وأخذ قلعة الطاق وما فيها وطالت الحرب فألح خازم على القتال ففتح طبرستان وقتل من أهلها فأكثر وصار الاصبهبذ الى قلعته وطلب الامان على ان يسلم القلعة بما فيها من ذخائره ثم بدا للاصبهبذ فدخل جيلان من الديلم فمات بها وأخذت ابنته فتسراها العباس بن محمد وهي أم ابنه ابراهيم . وصمدت الجنود للمصمغان فظفروا به

ولم يزل عمر بن العلاء فى رتبته الى مدة المهدى محمد بن أبي جعفر

حاضرة الخلافة

لما ولى أبو جعفر انتقل من الانبار الى الهاشمية التى أسسها أخوه أبو العباس واقام بها الى ان عزم على تأسيس مدينة بغداد حاضرة بنى العباس الكبرى ومظهر فخرهم ومدنيتهم وكان يريد ان يكون بعيدا عن الكوفة فخرج يرتاد مسكنا لنفسه وجنده ويبتني به مدينة حتى صار الى موضع بغداد وقال هذا موضع معسكر صالح هذه دجلة

ليس بيننا وبين الصين شيء يأتينا فيها كل مافي البحر وتأتينا الميرة من الجزيرة وأرمينية وما حول ذلك وهذا الفرات يجيء فيه كل شيء من الشام والرقة وما حول ذلك فنزل وضرب عسكره على الصَّرة وهو نهر بين الدجلة والفرات ثم أمر بخط المدينة على مثال وضعه وهي مدورة الشكل تقريبا وجعل لها سورين أحدهما داخل وهو سور المدينة وسمكه في السماء ٣٥ ذراعا وعليه أبرجة سمك كل برج منها فوق السور خمسة أذرع وعلى السور شرف وعرض السور من أسفله نحو عشرين ذراعا ويليه من الخارج فصيل بين السورين وعرضه ٦٠ ذراعا ثم السور الاول وهو سور الفصيل ودونه خندق . وللمدينة أربعة أبواب كل اثنين منها متقابلان ولكل منها باب دون باب بينهما دهليز ورحبة تدخل الى الفصيل الدائر بين السورين فالأول باب الفصيل والثاني باب المدينة فاذا دخل الداخل من باب خراسان عطف على يساره في دهليز ازج معقود بالآجر والجص عرضه عشرون ذراعا وطوله ثلاثون المدخل اليه في عرضه والمخرج منه من طوله يخرج الى رحبة مادة الى الباب الثانى طولها ٦٠ ذراعا وعرضها ٤ ولها في جنبتيها حائطان من الباب الاول الى الباب الثاني في صدر هذه الرحبة في طولها الباب الثانى وهو باب المدينة وعن يمينه وشماله في جنبتي هذه الرحبة بابان الى الفصيلين . والابواب الاربعة على صورة واحدة في الأبواب والفصلان والرحاب والطاقات . ثم الباب الثانى وهو باب المدينة وعليه السور الكبير فيدخل من الباب الكبير الى دهليز ازج معقود بالآجر والجص طوله ٢٠ ذراعا وعرضه ١٢ وعلى كل ازج من آزاج هذه الابواب مجلس له درجة على السور يرتقى اليه منها . على هذا المجلس قبة عظيمة ذاهبة في السماء سمكها ٥٠ ذراعا مزخرفة وعلى رأس كل قبة منها تمثال تديره الريح لا يشبه نظائره

وعلى كل باب من أبواب المدينة الأوائل والثوانى باب حديد عظيم جليل المقدار كل باب منها فردان

وابتني قصره الذى يسمى الخلد على دجلة وكان موضعه وراء باب خراسان .

ومد المنصور من نهر دجيل الآخذ من دجلة وقناة من نهر كرخايا الآخذ من الفرات وجرهما الى المدينة فى عقود وثيقة من أسفلها محكمة بالصاروج والآجر من أعلاها فكانت كل قناة منهما تدخل المدينة وتنفذ فى الشوارع والدروب والارباض وتجري صيفا وشتاء لاينقطع ماؤها في وقت وجر لاهل الكرخ أربعة أنهر يقال لأحدها نهر الدجاج وللثانى نهر القلائين وللثالث نهر طابق وللرابع نهر البزازين . والكرخ هو أسواق المدينة التى نقلها المنصور من مدينته في الجهة الجنوبية بين الصراة ونهر عيسى بناها المنصور ورتب كل صنف منها فى موضعه وبنى لأهل الاسواق مسجدا يجمعون فيه ولا يدخلون المدينة وسميت الشرقية لأنها شرقى الصراة . ولابي عبدالله ابراهيم ابن محمد بن عرفة نفطويه فى الكرخ

سقى أربع الكرخ الغوادى بديمة وكل ملث دائم الهطل مسبل
منازل فيها كل حسن وبهجة وتلك لها فضل على كل منزل

وفى سنة ١٥١ بنى المنصور الرصافة للمهدي ابنه وعمل لها سورا وخندقا وميدانا وبستانا وأجرى لها الماء . وربع الرصافة يسمى عسكر المهدى لان المهدى عسكر به عند شخوصه من الرى

وبنى المنصور قصره والجامع في وسط المدينة وكان في صدر قصر المنصور ايوان طوله ثلاثون ذراعا وعرضه عشرون وفي صدر الايوان مجلس عشرون ذراعا فى عشرين وسمكه عشرون وسقفه قبة وعليه مجلس فوقه القبة الخضراء وسمكه من أول حد عقد القبة عشرون ذراعا فصار من الارض الي رأس القبة الخضراء ثمانين ذراعا . وعلى رأس القبة تمثال فرس عليه فارس بيده رمح

وقد أنفق المنصور على مدينته هذه ثمانية عشر ألف ألف دينار على ما حكاه ياقوت . وفي بعض الروايات أقل من ذلك . ولما تم بناؤها حشر اليها المنصور العلماء من كل بلد واقليم فأمها الناس أفواجا ولم تزل تتعاظم ويزداد عمرانها حتى صارت أم الدنيا وسيدة البلاد ومهد الحضارة الاسلامية في عهد الدولة العباسية وأربى سكانها

على مليونين . قال الخطيب البغدادى لم يكن لبغداد في الدنيا نظير في جلالة قدرها وفخامة أمرها وكثرة علمائها وأعلامها وتميز خواصها وعوامها وعظم أقطارها وسعة أطرارها وكثرة دورها ومنازلها ودروبها وشوارعها ومحالها وأسواقها وسككها وأزقتها ومساجدها وحماماتها وطرقها وخاناتها وطيب هوائها وعذوبة مائها وبرد ظلالها وأفيائها واعتدال صيفها وشتائها وصحة ربيعها وخريفها وزيادة ماحصر من عدد سكانها وأكثر ما كانت عمارة وأهلا في أيام الرشيد اذ الدنيا قارة المضاجع دارة المراضع خصيبة المواقع موردة المشارع

الاحوال الخارجية

في عهد المنصور هرب عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان الى بلاد الاندلس وأسس بها الدولة الاموية الثانية وكان المنصور يعجب به وبقدرته وعزيمته التى جعلته وهو شريد طريد يؤسس ملكا في هذه البلدان القاصية ولم يكن بين الرجلين بالضرورة علاقة حسنة ولم يتسم عبد الرحمن بأمير المؤمنين بل تسمي بالامير فقط . وهذه أول بلاد اقتطعت من الخلافة الاسلامية الكبرى بالمشرق .

أما مملكة الروم التى كانت تحاد الخلافة الاسلامية من الشمالى فكان يعاصر المنصور فيها قسطنطين الخامس كما قدمنا وكانت العلاقة بين الامتين منقطعة لاتترك احداها قتال الاخرى متى عنت الفرصة وكان من النظام المتبع في الخلافة ارسال الجيوش تغزو الروم فى الصيف وتسمى بالصوائف ولم يكن ذلك ينقطع الا لمانع .

أول ما حصل في عهد المنصور ان الروم بقيادة ملكهم أغاروا سنة ١٣٨ على ملطية وكانت اذ ذاك من الثغور الاسلامية فدخلوها عنوة وقهروا أهلها وهدموا سورها ولكن الملك عفا عمن فيها من المقاتلة والذرية

ولما علم بذلك المنصور أغزى الصائفة عمه صالح بن على ومعه أخوه العباس بن محمد بن علي فبنى ما كان صاحب الروم هدمه من ملطية وقد أقام فى استتمام ذلك

الى سنة ١٣٩ . ثم غزوا الصائفة من درب الحدث فوغلا في أرض الروم وغزا مع صالح أختاه أم عيسى ولبابة ابنتا علي وكانتا نذرتا ان زال ملك بنى أمية أن تجاهدا في سبيل الله — وغزا من درب ملطية جعفر بن حنظلة البهرانى

وفي هذه السنة استقر الامر بين المنصور وملك الروم على المفاداة فاستنقذ المنصور من الروم أسراء المسلمين .

وفى سنة ١٤٠ غزا الصائفة الحسن بن قحطبة مع عبد الوهاب بن ابراهيم الامام وأقبل قسطنطين صاحب الروم في جيش كثيف فنزل جيحان فبلغه كثرة المسلمين فاحجم عنهم ثم لم تكن صائفة بعد ذلك الى سنة ١٤٦ لاشتغال أبي جعفر بأمر محمد وابراهيم ابني عبد الله

ولم تزل الصوائف بعد ذلك تتوالى الى سنة ١٥٥ وفيها طلب صاحب الروم الصلح على أن يؤدى للمسلمين الجزية

وكانت هذه الحروب بين الطرفين اغارات لم يقصد بها فتح بل كان كل واحد من الطرفين ينتهز الفرصة فيجتاز الحدود التى لصاحبه ثم يعود الى مقره ثانية ولم تكن المصالحات يطول زمنها بل سرعان ما يعودون الى ما كانوا عليه

أما حدود المملكة من الجهات الاخرى فكانت في الغالب محلا للاضطرابات ولكنها كانت تسكن حالا بما يبذله المنصور من الهمة في ارسال الجنود اليها ليقظته ومعرفته بالامور على وجهها . وكان في كل ثغر جنود مرابطون من المرتزقة وهم المفروض لهم عطاء في الديوان ومن المطوعة وهم الذين ينتدبون للجهاد في سبيل الله لا يطلبون على ذلك أجرا الا من الله وكان الخليفة هو الذى يعين قائدهم وكان عددهم فى ذلك الوقت كثيرا

صفات المنصور وأخلاقه

كان المنصور أعظم رجل قام من آل العباس شدة و بأسا ويقظة وثباتا ونحن نسوق هنا جملة من أخلاقه لترتسم صورة هذا الرجل العظيم فى الاذهان

كيف كان يقضي وقته

كان شغله فى صدر النهار بالأمر والنهى والولايات والعزل وشحن الثغور والاطراف وأمن السبل والنظر فى الخراج والنفقات ومصلحة معاش الرعية لطرح عالتهم والتلطف لسكونهم وهدئهم فاذا صلى العصر جلس لاهل بيته الا من أحب ان يسامره . فاذا صلى العشاء الآخرة نظر فيما ورد عليه من كتب الثغور والاطراف والآفاق وشاور سماره من ذلك فيما أرب . فاذا مضى ثلث الليل قام الى فراشه وانصرف سماره فاذا مضى الثلث الثاني قام من فراشه فاسبغ وضوءه وصف فى محرابه حتى يطلع الفجر ثم يخرج فيصلى بالناس ثم يدخل فيجلس فى ايوانه

كيف كان خلقه في بيته وخارجه

قال سلامة الابرش كان المنصور من أحسن الناس خلقا مالم يخرج الى الناس وأشد احتمالا لما يكون من عبث الصبيان فاذا لبس ثيابه تغير لونه وتربد وجهه واحمرت عيناه فيخرج فيكون منه ما يكون فاذا قام من مجلسه رجع بمثل ذلك فنستقبله فى ممشاه فربما عاتبنا . وقال له يوما يا بنى اذا رأيتنى قد لبست ثيابي أو رجعت من مجلسى فلا يدنون مني أحد منكم مخافة أن أعره بشيء

الجد في بلاطه

قال يحي بن سليم كاتب الفضل بن الربيع لم ير المنصور في لهو قط ولاشيء يشبه اللهو واللعب والعبث الا يوما واحدا فانا رأينا ابنا له يقال له عبد العزيز قد خرج على الناس متنكبا قوسا متعمما بعمامة مترديا ببرد في هيئة غلام اعرابي راكبا على قعود بين جوالقين فيهما مقل ومساويك ونعال وما يهديه الاعراب فعجب الناس من ذلك وأنكروه فمضى الغلام حتى عبر الجسر وأتي المهدى بالرصافة فاهدى اليه ذلك فقبل المهدى الجواليق وملأهما دراهم فانصرف بين الجوالقين فعلم انه ضرب من عبث الملوك . وذكر عن حماد التركى قال كنت واقفا على رأس المنصور فسمع

جلبة في الدار فقال أما هذا يا حماد انظر فذهبت فاذا خادم له قد جلس بين الجواري وهو يضرب لهن بالطنبور وهن يضحكن فجئت فأخبرته فقال وأى شيء الطنبور فوصفه له فقال له أصبت صفته فما يدريك أنت ما الطنبور فقال رأيته بخراسان ثم قام حتى أشرف عليهم فلما بصروا به تفرقوا فأخذ الخادم الضارب وكسر الطنبور على رأسه وأخرج من قصره

كيف كان يهتم بعماله

قال المنصور ما كان أحوجني الى أن يكون علي بابي أربعة نفر لا يكون علي بابي أعف منهم قيل له يا أمير المؤمنين من هم ؟ قال هم أركان الملك ولا يصلح الملك الا بهم كما ان السرير لا يصلح الا بأربعة قوائم ان نقصت واحدة تداعى وهى : أما أحدهم فقاض لا تأخذه فى الله لومة لائم — والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوى — والثالث صاحب خراج يستقصى ولا يظلم الرعية فاني عن ظلمها غني — والرابع — ثم عض على أصبعه السبابة ثلاث مرات يقول فى كل مرة آه . قيل له ومن هو يا أمير المؤمنين قال صاحب بريد يكتب بخبر هؤلاء على الصحة

وولى رجلا من العرب حضرموت فكتب اليه والى البريد انه يكثر الخروج في طلب الصيد ببزاة وكلاب قد أعدها فعزله وكتب اليه (ثكلتك أمك وعدمتك عشيرتك ما هذه العدة التى أعددتها للنكاية فى الوحش انا انما استكفيناك أمور المسلمين ولم نستكفك أمور الوحوش سلم ما كنت تلى من عملنا الى فلان بن فلان والحق بأهلك ملوما مدحورا)

وظفر مرة برجل من كبراء بنى أمية فقال اني سائلك عن أشياء فاصدقنى ولك الامان . قال نعم . فقال المنصور من أين أتى بنو أمية حتى انتشر أمرهم . قال من تضييع الاخبار . قال فأى الاموال وجدوها أنفع قال الجوهر . قال فعند من وجدوا الوفاء . قال عند مواليهم — فأراد المنصور أن يستعين فى الاخبار بأهل بيته ثم قال أضع من أقدارهم فاستعان بمواليه

وذكر ابراهيم بن موسى بن عيسي ان ولاة البريد في الآفاق كلها كانوا يكتبون الى المنصور أيام خلافته كل يوم بسعرالقمح والحبوب والأدم وبسعر ما كول وبكل ما يقضي به القاضى في نواحيهم وبما يعمل به الوالى وبما يرد بيت المال وكل حدث وكانوا يكتبون حوادث النهار اذا صلوا المغرب ويكتبون اليه بما كان فى كل ليلة اذا صلوا الغداة فاذا وردت كتبهم نظر فيها فاذا رأي الاسعار على حالها أمسك وان تغيرشيء عن حاله كتب الى الوالى والعامل هناك وسأل عن العلة التى نقلت ذاك عن سعره فاذا ورد الجواب بالعلة تلطف لذلك برفقه حتى يعود سعره ذلك الى حاله . وان شك فى شيء مما قضى به القاضي كتب اليه فى ذلك وسأل من بحضرته عن عمله فان أنكر شيئا عمل به كتب اليه يوبخه ويلومه

ثباته عند الشدائد

من الخلال التى ذللت للمنصور طريق النجاح انه لم يكن من أولئك الرجال الذين يملأ الهم صدورهم قبل موقعه ويضيقون به ذرعا اذا وقع بل كان رابط الجأش يقابل الكوارث بعزم صادق لا يبالى فيعد له ما يلزم من العدة . لما تتابعت الاحداث على أبي جعفر في عهدمحمد وابراهيم ابنى عبد الله تمثل

تفرقت الظباء على خداش　　　فما يدرى خداش ما يصيد

ثم أمر باحضار القواد والموالى والصحابة وأهل بيته وأمر حمادا التركى باسراج الخيل وسليمان بن مجالد بالتقدم والمسيب بن زهير بأخذ الابواب ثم خرج فى يوم من أيامه حتى علا المنبر فازم عليه طويلا لا ينطق ثم قال :

مالى أكفكف عن سعد ويشتمني　　　ولو شتمت بنى سعد لقد سكنوا

جهلا عليّ وجبنا عن عدوهم　　　لبئست الخلتان الجهل والجبن

ثم جلس وقال

فألقيت عن رأسي القناع ولم أكن　　　لأكشفه الا لاحدى العظائم

والله لقد عجزوا عن أمر أقمنا به فما شكروا الكافي ولقد مهدوا فاستوعروا

وغمطوا الحق وغمصوا فماذا حاولوا أشرب رنقا على غصص أم أقيم على ضيم ومضض والله لا أكرم أحدا باهانة نفسي والله لئن لم يقبلوا الحق ليطلبنه ثم لا يجدونه عندى والسعيد من وعظ بغيره . قدم ياغلام ثم ركب

ولما قصد الكوفة حين علم بمخرج محمد كان معه عثمان بن عمارة واسحاق بن مسلم العقيلي وعبد الله بن الربيع المدانى فقال عثمان أظن محمدا خائبا ومن معه من أهل بيته ان حشو ثياب هذا العباسى لمكر ودهاء . وانه فيما نصب له محمد من الحروب لكما قال ابن جذل الطعان

فكم من غارة ورعيل خيل تداركها وقد حمى اللقاء
فرد مخيلها حتى ثناها باسمر ما يرى فيه التواء

فقال له اسحاق بن مسلم قد والله سبرته ولمست عوده فوجدته خشنا وغمزته فوجدته صليبا وذقته فوجدته مرا وان من حوله من بنى أبيه لكما قال ربيعة بن مكدم

سما لى فرسان كأن وجوههم مصابيح تبدو في الظلام زواهر
يقودهم كبش أخو مصمئلة عبوس السرى قد لوحته الهواجر

وقال عبد الله بن الربيع هو والله خيس ضيغم شموس للاقران مفترس والارواح مختلس وانه فيما يهيج من الحرب كما قال أبو سفيان بن الحرث

وان لنا شيخا اذا الحرب شمرت بلبهته الاقدام قبل النوافل

ويكفيه فخرا أنه قام فى وجه معانديه ومخالفيه وهم كثيرون فى جهات شتى فقهرهم جميعا ووطد دعائم الملك بعد ان كاد يذهب من آل العباس قبل أن يستقر الا أنه يؤخذ عليه ويحط من شأنه غدراته الثلاث التى عرفت عنه فقد غدر بابن هبيرة بعد ان أعطاه الأمان ولم يبد من الرجل شيء يريب وغدر بعمه عبد الله بن على بعد ان أعطاه الامان وغدر بأبي مسلم . وربما تكون له شبهة في القضاء على عمه وعلى أبي مسلم ولكن الذى لا يليق بخليفة المسلمين وامامهم أن يستعمل الايمان والعهود وسيلة لاستنزال أعدائه ثم يغدر بهم

ومن غريب أمره انه كان تزوج أروى بنت منصور الحميري وهي أم ولديه محمد وجعفر الاكبر وكان شرط لها ان لا يتزوج عليها ولا يتسرى وكتبت عليه بذلك كتابا أكدته وأشهدت عليه شهودا فعزب بها عشر سنين فى سلطانه فكان يكتب الى الفقيه بعد الفقيه من أهل الحجاز يستفتيه ويحمل اليه الفقيه من أهل الحجاز وأهل العراق فيعرض عليه الكتاب ليفتيه فيه برخصة فكانت أروى اذا علمت بمكانه بادرته فأرسلت اليه بمال جزيل فاذا عرض عليه أبو جعفر الكتاب لم يفته فيه برخصة حتى ماتت بعد عشر سنين من سلطانه ببغداد . فانظروا كيف كان يحاول الخلاص من عقد عقده على نفسه ويريد أن يلقى تبعته على غيره من الفقهاء ويعرضهم لمخالفة الضمائر والذمم وان كان هذا الحديث في الجملة يدلنا على ان الغدر لم يصر طبعا للمنصور وانما كانت حوادث مرت وحمله عليها السبب الذى لم يمكنه تلافيه

اقتصاده

عرف المنصور بميله الى الاقتصاد في النفقات حتى امتلأت بالاموال خزائنه ولذلك ترك لابنه المهدى ثروة جعلته مدة حكمه هادئ البال ينفق عن سعة ولا يخشى نفادا . ولم يكن المنصور يعطى الشعراء تلك العطايا البالغة حد السرف وانما كانت أعطياته الى القلة أميل وكان يراقب أولاده حتى لا يدعهم يميلون الى السرف

وكانت أرزاق العمال أيام المنصور ٣٠٠ درهم ولم يزل الامر على ذلك الى أيام المأمون فكان أول من سن زيادة الارزاق الفضل بن سهل

وعلى الجملة فلم يقم فى بني العباس مثل المنصور في ثباته وعلو همته وشدته على المريب واهتمامه بأمر العامة وجده في بلاطه — وكان فوق ذلك كله فصيحا يبلغ ما يريد من الكلام عند الحاجة

وكانت القوة الاسلامية في يده وطوع أمره الا انها لم تكن عربية خالصة كما كان الحال في الدولة الاموية وكانت قوة العرب لعهده لا تزال راجحة

وفاة المنصور

في سنة ١٥٨ حج المنصور . شخص من مدينة السلام متوجها الى مكة فى شوال فلما صار من منازل الكوفة عرض له وجعه الذى توفى به ولم يزل يزداد حتى وصل بستان ابن عامر فاشتد يه وجعه ثم صار الى بئر ميمون وهو يسأل عن دخول الحرم ويوصى الربيع بما يريد وتوفى في سحر ليلة السبت ٦ ذي الحجة سنة ١٥٨ ولم يحضره عند وفاته الا الربيع الحاجب فكتم موته ومنع النساء وغيرهن من البكاء عليه ثم أصبح فحضر أهل بيت الخلافة وجلسوا مجالسهم فأخذ الربيع بيعتهم لامير المؤمنين المهدي ولعيسى بن موسى من بعده ثم دعا بالقواد فبايعوا وتوجه العباس بن محمد بن على ومحمد بن سليمان بن على الى مكة ليبايعا الناس فبايعوا للمهدى بين الركن والمقام

ثم أخذ فى جهاز المنصور وغسله وكفنه ففرغ من ذلك مع صلاة العصر وجعل رأسه مكشوفا من أجل أنه مات محرما وصلى عليه عيسى بن موسى ودفن بثنية المعلاة بعد خلافة مدتها ٢٢ سنة الا ستة أيام رحمه الله .

وكان له من الولد ثمان ذكور وبنت . فالذكور محمد المهدي وجعفر الاكبر وأمهما أروى بنت منصور الحميرية وسليمان وعيسى ويعقوب وأمهم فاطمة بنت محمد من ولد طلحة بن عبيد الله — وجعفر الاصغر وأمه أم ولد كردية . وصالح المسكين وأمه أم ولد رومية . والقاسم وأمه أم ولد وقد مات منهم جعفر الاكبر والقاسم قبل وفاة المنصور والبنت اسمها العالية أمها امرأة من بنى أمية وقد تزوج العالية اسحاق بن سليمان بن على .

---

٣ – المهدى

هو محمد المهدى بن المنصور وأمه أروى بنت منصور الحميرية وكانت تكنى أم موسى ولد سنة ١٢٦ بالحميمة من أرض الشراة وكانت سنه اذ جاءتهم الخلافة ست سنوات . ولما استخلف أبوه كان فتى سنه عشر سنوات . ولما بلغ مبلغ الرجال كان أبوه برشحه لولاية العهد فولاه سنة ١٤١ وسنه ١٥ سنة قيادة الجنود المتوجهة الى خراسان وأمره أن ينزل الرى حينما وقعت فتنة عبد الجبار بن عبد الرحمن عامل المنصور على خراسان . وبعد انتهاء تلك الفتنة أمره بغزو طبرستان . ثم انصرف عائدا من خراسان سنة ١٤٤ فلقيه أبوه بقرماسين وانصرفا جميعاً الى الجزيرة لمراقبة ثغورها — وفي هذه السنة بنى المهدي بريطة بنت أبي العباس السفاح

وفي سنة ١٤٧ ولاه أبوه العهد وقدمه على عيسى بن موسى . ثم عاد الى الرى فأقام الي سنة ١٥١ وفيها قدم على أبيه فبني له ولجنده الرصافة وهى الجانب الشرقى من بغداد وولاه الحج سنة ١٥٣ . وفى سنة ١٥٥ أسس مدينة الرافقة على طراز مدينة بغداد . ولم نزل يستعين به في الاعمال حتى توفى في التاريخ الذى تقدم ذكره ٦ الحجة سنة ١٥٨ (٧ أكتوبر سنة ٧٧٥)

بيعة المهدي

بعد ان أخذ الربيع بيعة المهدي على بنى هاشم والقواد الذين كانوا يرافقون المنصور في حجه وجه رسولا الى مدينة السلام بخبر الوفاة وبعث معه بقضيب النبي صلى الله عليه وسلم وبردته التى يتوارثها الخلفاء وبخاتم الخلافة فقدمت الرسل يوم الثلاثاء للنصف من ذي الحجة . وفي ذلك اليوم بايعه أهل مدينة السلام . ومكث في خلافته الى أن توفى ليلة الخميس لثمان بقين من المحرم سنة ١٦٩ (٤ أغسطس سنة ٧٨٥) بماسبذان فتكون مدته عشر سنين وشهرا ونصفا

وكان يعاصره فى بلاد الاندلس عبد الرحمن الاول مجدد الدولة الاموية فى المغرب . ويعاصره فى فرنسا شارلمان · ويعاصره فى مملكة الروم الشرقية لاون الرابع (٧٧٥ — ٧٨٠) ثم قسطنطين السادس واصغره كانت أمه ايريني تدبر أمره

الحال في عهد المهدي

كانت خلافة المهدي مرفهة عن الناس ما كانوا يلقونه من بعض الشدة أيام المنصور فقد كان المنصور يؤسس ملكا له خصوم فكان يكتفي بالريبة والظنة فيعاقب بهما وفي مثل ذلك كثيرا مايؤخذ البريء بالمذنب والمطيع بالعاصى فلما جاء المهدي كانت الخلافة العباسية قد توطدت وأنياب العلويين قد كسرت وان كانت قد بقيت لهم بقايا يتطاءون للخلافة فهم لا يحتاجون فى الاحتراس منهم الى مثل ما كان المنصور يحتاج اليه من الشدة فان كبارهم قد وضعوا تحت نظر الخليفة ببغداد والذين كانوا بالمدينة اكتفي بمراقبة الامير لهم فكانوا يعرضون عليــه كل يوم ولذلك كانت حياة المهدي حياة سعيده لنفسه ولامته وهو بعد أبيه يشبه في كثير من الوجوه الوليد بن عبد الملك بعد أبيه

في أول ولايته أمر باطلاق من كان فى سجن المنصور الا من كان قبله تباعة من دم أوقتل ومن كان معروفا بالسعي في الارض بالفساد أو كان لاحد قبله مظلمة أوحق فالذين أطلقهم هم من كان جرمهم سياسيا أما أرباب الجنايات والمحبوسون لحقوق مدنية فانهم ظلوا في حبسهم وكان ممن أطلق يعقوب بن داود الذي سيأتي ذكره في كبار الرجال في عهد المهدي

ومما أجراه من الاصلاح أمره ببناء القصور في طريق مكة أوسع من القصور التى كان السفاح بناها من القادسية الى زبالة وأمر بالزيادة في قصور السفاح وترك منازل المنصور التى بناها على حالها . وأمر باتخاذ المصانع في كل منهل وهي حيضان تبنى وتملأ من مياه الآبار حتى يكون الاستقاء سهلا على رجال القوافل الذين لا ينقطع مرورهم من تلك الجهات . وأمر بتجديد الاميال والبرك وحفر الركايا مع المصانع

وجعل لذلك عاملا خاصا يقوم به . وأمر أن يجري على المجذومين وأهل السجون فى جميع الآفاق حتى لا يحتاج المجذمون الى المشي فى الطرق وسؤال الناس فيكونون سبباً في انتشار المرض وحتى يكون للمسجونين ما يقوم بأودهم فلا يموتوا جوعا الا من كان له أهل يسألون عنه

وأقام البريد بين مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومكة واليمن بغالا وابلا ولم يقم هنالك بريد قبل ذلك

ومن آثاره زيادته في المسجد الحرام فأدخل فيه دورا كثيرة مما يحيط به . ومما يؤخذ عليه أنه أمر بمحو اسم الوليد بن عبد الملك من حائط المسجد النبوى وكتابة اسمه مكانه . وقديما شغف الملوك بهذه الاغارات التى تجعل ثقتنا ضعيفة بما نراه منقوشاً على الآثار فان الخلف منهم كان اذا رأى للسلف أثرا باقيا يستحق به المدح والثناء فسرعان ما يأمر بازالة اسم الباني ويضع اسمه مكانه كما حكى ذلك في الآثار المصرية وهذا غش وتدليس على المتأخرين لا يحسن بالسوقة أن يفعلوه فضلا عن الملوك ولكن هكذا كان .

وكان المهدي يجلس المظالم وتدخل القصص اليه فارتشى بعض أصحابه بتقديم بعضها فاتخذ بيتا له شباك حديد على الطريق تطرح فيه القصص وكان يدخله وحده فيأخذ ما يقع بيده من القصص أولا فأولا فينظر فيه فلا يقدم بعضها على بعض

وكان المهدي مغرى بالزنادقة الذين يرفع اليه أمرهم فكان دائما يعاقبهم بالقتل ولذلك كانت هذه التهمة في زمنه وسيلة الى تشفي من يحب أن يتشفى من عدو أو خصم . والذي أغراه بذلك ما كان من فتنة المقنع الخرساني كان من احدى قرى مر و وكان يقول بتناسخ الارواح فاستغوى بشرا كثيرا وصار الى ما وراء النهر فوجه المهدي لقتاله عدة من القواد فيهم معاذ بن مسلم وهو يومئذ على خراسان ثم أفرد المهدي لمحاربته سعيد الحرشى وضم اليه القواد فاستعد المقنع للحصار في قلعة كش فحاصره سعيد بقلعته ولما اشتد عليه الحصار وأحس بالهلكة شرب سما وأسقاه

نساءه وأهله فمـات وماتوا جميعا ودخل المسلمون قلعته واحتزوا رأسه

الوزارة

كان مظهر الوزارة فى عهد المهدي أوضح منه في عهد أبيه المنصور لما كان من ركون المهدي الى وزرائه واعتماده عليهم أكثر ممـا كان يعتمد أبوه وكان أول وزرائه كبير الكفاءة فانه جمع له حاصل المملكة ورتب الديوان وقرر القواعد وكان كاتب الدنيا وأوحد الناس حذقا وعلما وخبرة وهو أبو عبيد الله معاوية بن يسار مولي الاشعريين كان كاتب المهدي ونائبه قبل الخلافة ضمه المنصور اليه وكان قد عزم على أن يستوزره لكنه آثر به ابنه المهدي فكان غالبا على أموره لا يعصي له قولا وكان المنصور لا يزال يوصيه به ويأمره بامتثال مشورته فلما مات المنصور وولى المهدي فوض اليه تدبير المملكة وسلم اليه الدواوين وكان مقدما في صناعته وله ترتيبات في الدولة منها انه نقل الخراج الى المقاسمة وكان السلطان يأخذ على الغلات خراجا مقررا ولا يقاسم فلمـا تولى أبو عبيد الله الوزارة قرر أمر المقاسمة وجعل الخراج على النخل والشجر وصنف كتابا فى الخراج ذكر فيه أحكامه الشرعية ودقائقه وقواعده وهو أول من صنف كتابا فى الخراج وتبعه الناس بعـد ذلك فصنفوا كتبا فى الخراج سيأتي ذكرها

وكان الربيع الحاجب يساعد أبا عبيد الله ويقوم بتأييده عند المنصور اذا شكاه أحد بشكوى فلمـا توفى المنصور وقام الربيع بأمر بيعة المهدى بمكة عاد الى دار السلام فرأى ان يقابل أولا أبا عبيد الله قبل أن يرى المهدي فحضر اليه واستأذن عليه فلم يأذن له الا بعد صلاة العشاء ولما دخل عليه كان متكئا فلم يقم له ولم يحفل به فقعد الربيع بين يديه على البساط وأبو عبيد الله متكئ فجعل يسائله عن مسيره وسفره وحاله ولم يسأله عما فعل فى أمر بيعة المهدي فذهب الربيع يبتدىء بذكره فقال له قد بلغنا نبؤكم فقام الربيع متغير القلب على أبي عبيد الله وقال لابنه الفضل والله الذي لا اله الا هو لأخلعن جاهي ولانفقن مالي حتى أبلغ من أبي عبيد الله .

كان أبو عبيد الله من كبار الوزراء فهو أحذق الناس بصناعة الكتابة التي كانت فى تلك الازمنة سلما للوزارة وكان مع ذلك من أعف الناس فلم يجد الربيع مع دهائه ونفوذ حيلته مطعنا في أبي عبيد الله لانه كان بعيدا عما يكرهه الخلفاء من وزرائهم

كان لابي عبيد الله ابن متهم فى دينه وقد أسلفنا ما كان المهدي يكره من الزندقة فرأى الربيع ان ذلك خير وسيلة للافساد بين الخليفة ووزيره فما زال يحتال في ذلك حتى اتهم المهدي ابن أبى عبيد الله فأمر باحضاره وقال يامحمد اقرأ فذهب ليقرأ فاستعجم عليه القرآن فقال لابي عبيد الله يامعاوية ألم تخبرني ان ابنك جامع للقرآن فقال بلى ياأمير المؤمنين ولكنه فارقنى منذ سنين وفى هذه المدة نسي القرآن فقال (قم فتقرب الى الله بدمه) فذهب ليقوم فوقع فقال العباس بن محمد ياأمير المؤمنين ان شئت أن تعفي الشيخ ففعل وأمر المهدى بابنه فضربت عنقه

كان بعد ذلك من السهل أن يتخوف المهدي من أبي عبيد الله لانه قتل ابنه فاستوحش منه وبذلك بلغ الربيع ما أراد واشتفى وزاد وتلك حال الامراء المستبدين الذين جعلوا آذانهم صيدا لكل قول فلا نزال أهل الاهواء يلعبون بهم ويحرمونهم من خدمة الصادقين من أنهم بمثل تلك التهم التى من السهل على المفسدين توجيهها لانهم لا ينتظرون تحقيقا لها وكانت وفاة أبي عبيد الله معزولا سنة ١٧٠ وكان عزله سنة ١٦١

استوزر المهدي بعده أبا عبد الله يعقوب بن داود بن طهمان مولى بنى سليم . كان أبوه قديما كاتبا لنصر بن سيار عامل بنى أمية على خراسان خرج أولاده أهل علم وأدب وعلم بأيام الناس وسيرهم وأشعارهم ونظروا فاذا ليس لهم عند بنى العباس منزلة فلم يطمعوا في خدمتهم لحال أبيهم من كتابة نصر فأظهروا مقالة الزيدية ودنوا من آل عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على وطمعوا أن يكون لهم دولة فيعيشوا فيها فكان يعقوب يجول البلاد منفردا بنفسه ومع ابراهيم بن عبد الله أحيانا فى طلب البيعة لمحمد بن عبد الله فلما ظهر محمد وابراهيم كان على بن داود كاتبا لابراهيم وكان

يعقوب من الخارجين مع ابراهيم فلما قتل توارى على ويعقوب واخوتهما من المنصور فطلبهم وظفر بهم فأخذ عليا ويعقوب وحبسهما في المطبق أيام حياته فلما مات المنصور وبويع المهدي من عليهما فيمن من عليه وكان معهما في المطبق اسحاق بن الفضل بن عبد الرحمن بن عباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب فكانت بينهما صداقة

كان المهدي يخشى الزيدية وتدبيرهم المكايد لملكه فكان يطلب رجلا له معرفة بهم ليدخل بينهم وبينه فدل على يعقوب فلما دخل عليه وفاتحه وجده رجلا كاملا فسأله عن عيسى بن زيد فوعده يعقوب ان يدخل بينه وبينه وكان الناس في ذلك الزمن رموه بأن منزلته عند المهدي انما كانت للسعاية بآل علي وكان يعقوب يتبرأ من ذلك

قرب المهدي يعقوب بن داود اليه وولاه وزارته بعد أبي عبيد الله فأرسل للزيدية فأتى بهم من كل حدب وولاهم أمور الخلافة في المشرق والمغرب كل جليل وعمل نفيس والدنيا كلها في يديه

ومن علو منزلته انه أمره المهدي بتوجيه امنائه في جميع الآفاق فكان لا ينفذ للمهدى كتاب الى عامل فيجوز حتى يكتب يعقوب الى أمينه وثقته بانفاذ ذلك

كان ذلك العلو داعيا لان حسده موالى المهدي فسعوا عليه وأعانهم الشعراء فقال فى ذلك بشار بن برد

بنى أميــة هبوا طال نومكم ان الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم ياقوم فالتمسوا خليفة الله بين الناى والعود

كانت السعاية بيعقوب بسبب ميله لاسحاق بن الفضل وانه يريض له الامور وأفهموا المهدي ان اسحاق يروم الخلافة وأن يعقوب يساعده وأن المشرق والمغرب في يده وفى أيدى أصحابه وانما يكفيه أن يكتب لهم فيثوروا جميعا فى يوم واحد على ميعاد فيأخذ الدنيا لاسحاق بن الفضل فملأ ذلك قلب المهدي وصادف ان طلب

يعقوب من المهدي عقب ذلك ولاية مصر لاسحاق بن الفضل فتغير وجه المهدي ثم دس اليه جارية من جواريه وهبها له تتسمع ما يبدر منه ثم سلم اليه علويا أمره بقتله فمن عليه يعقوب وأخرجه خفية وأخبر المهدي انه قتله وكانت الجارية قد أرسلت بخبر العلوي اليه فأرسل من جاءه به من الطريق ولما رآه يعقوب سقط في يده وأمر المهدي باعادته الى المطبق فحبس ولم يزل محبوسا حتى أخرجه الرشيد من سجنه . وأمر المهدي بعزل أصحاب يعقوب عن الولايات في الشرق والغرب وأمر أن يؤخذ أهل بيته ويحبسوا ففعل ذلك بهم وكان ذلك سنة ١٦٦ فكانت وزارته خمس سنوات

وفي هذه الوزارة أحدث ديوان كانوا يسمونه ديوان الازمة وأول من عمل ديوان الزمام عمر بن بزيع وذلك انه لما جمعت له الدواوين فكر فاذا هو لا يضبطها الا بزمام يكون له على كل ديوان فاتخذ دواوين الأزمة وولى كل ديوان رجلا وكان واليه على زمام ديوان الخراج اسماعيل بن صبيح ولم يكن لبني أمية ديوان أزمة وفي سنة ١٦٨ ولى المهدى على بن يقطين ديوان زمام الازمة على عمر بن بزيع

استوزر المهدي بعده الفيض بن أبي صالح وهو من أهل نيسابور وكان أهل بيته نصارى فانتقلوا الى بني العباس وأسلموا وتربى الفيض في الدولة العباسية وتأدب وبرع وكان سخيا مفضالا متخرقا في ماله جوادا عزيز النفس كبير الهمة كثير الكبر والتيه واستمر الفيض وزيرا للمهدي حتى مات ولم يستوزره أحد من الخلفاء بعده ومات في أول أيام الرشيد سنة ١٧٣

الاحوال الخارجية

كما كان منظر الخلافة في داخل المملكة باهرا كان كذلك مظهرها في نظر الامم الاخرى الا أنه مما يؤسف له سوء العلاقة بين الخلافة المشرقية ببغداد وبين أمير الاندلس عبد الرحمن الداخل فقد كان المنصور والمهدي يهمان بأمره ويودان ازالة دولته ولكن الشقة بين الرجلين بعيدة فلم يمكن واحدا منهما أن يجرد له جيشا يخترق صحارى أفريقية ويغزوه في بلاد الاندلس فاكتفى كل من الفريقين بمعاداة الآخر.

وكان شارلمان في ذلك الوقت مهتما باعادة الدولة الرومانية الغربية التى امحت آثارها وقد فطن الى ما بين الطرفين المسلمين من العداوة فاحب الاستفادة منها والتقرب بمحاربة أمير الاندلس الى قلب خليفة بغداد ليكتسب بذلك نفوذا فى الخلافة الاسلامية ويرتفع قدره على ملك الزوم فى القسطنطينية وجد فى ذلك حتى تمكن من اتمام هذه المواصلات فى عهد الرشيد كما سيأتي

أما العلاقات بين المهدي و بين ملك الروم فكانت سيئة فلم تكن الاغارات من الطرفين تبطل بل كانت الصوائف من طرف المسلمين كما كانت الاغارات من ملك الروم وكانت الحروب برا و بحرا

وفى سنة ١٦٣ احتفل المهدى بأمر الصائفة وولى أمرها ابنه هارون وفرض البعوث على جميع الاجناس من أهل خراسان وغيرهم وخرج المهدي مع الجيش حتى أتى البردان فاقام به نحوا من شهرين يتعبأ ويتهيأ ويعطى الجنود وأخرج صلات لاهل بيته الذين شخصوا معه . وكانت هذه الغزوة من أهم الغزوات في عهد المهدى فتح الله عليهم فيها فتوحا كثيرة وأبلاهم فى ذلك الوجه بلاء جميلا ففتحوا حصن سمالا بعد أن أقاموا عليه ثمانية وثلاثين ليلة وقد نصب عليها المنجنيق حتى فتحت وكان فتحها على ثلاثة شروط ألا يقتل أهلها ولا يرحلوا ولا يفرق بينهم فاعطوا ذلك فنزلوا ووفى لهم هارون . ثم قفل بالمسلمين سالمين الا من كان أصيب منهم بسمالا

وفى سنة ١٦٥ غزا الصائفة هارون مرة أخرى فوغل في بلاد الروم وكان عدد جيشه ٩٥٧٩٣ رجلا حمل لهم من العين ١٩٤٤٥٠ دينارا ومن الورق ١٤١٤٨٠٠ درهم ولم يزل هذا الجيش سائرا حتى بلغ خليج البحر الذي على القسطنطينية وكان الذي يقوم بأمر الروم ايريني أم الملك نيابة عن ابنها فجرت بينها وبين هارون مكاتبات فى طلب الصلح والموادعة واعطاء الفدية فقبل منها ذلك هارون واشترط عليها أن تقيم الادلاء والاسواق فى طريقه لانه كان قد دخل مدخلا صعبا مخوفا على المسلمين فاجابته الى ما سأل . والذى وقع عليه الصلح بينه وبينها ٩٠٠٠٠ دينار

تؤديها في نيسان من كل سنة وفي حزيران فقبل ذلك وأقامت له الأسواق في منصرفه ووجهت معه رسولا الى المهدي بما بذلت على أن تؤدي ماتيسر من الذهب والفضة والعروض وكتبوا كتاب هدنة الى ثلاث سنوات وسلمت الاسارى . وقال مروان ابن أبي حفصة في هذه الغزوة لهارون

أطفت بقسطنطينية الروم مسندا　　اليها القنا حتى اكتسى الذل سورها
وما رمتها حتى أتتك ملوكها　　بجزيتها والحرب تغلي قدورها

وكان قفول هارون من وجهه هذا في محرم سنة ١٦٦ وقدمت الروم بالجزية معه وذلك ٦٤٠٠٠ دينار رومية و ٢٥٠٠ دينار عربية و ٣٠٠٠٠ رطل مرعزى

وفي رمضان سنة ١٦٨ أي قبل انقضاء مدة الهدنة نقض الروم الصلح وغدروا فوجه اليهم علي بن سليمان بن علي وهو والي الجزيرة وقنسرين يزيد بن بدر البطال في سرية فردوا الروم وغنموا وظفروا . والنتيجة ان مدة المهدى كان أكثرها حربا مع المسلمين والروم وكان الفريقان في موقف الدفاع أحيانا والهجوم أحيانا الا أن الظفر كان في الغالب للمسلمين

غزو الهند

كان المسلمون يملكون الى نهر مهران الفاصل بين السند والهند فأراد المهدى أن يغزى جنوده بلاد الهند ففي سنة ١٥٩ وجه عبد الملك بن شهاب المسمعى في البحر الى بلاد الهند وفرض معه لألفين من أهل البصرة من جميع الاجناد وأشخص معه من المطوعة الذين كانوا يلزمون المرابطات ١٥٠٠ ووجه معه قائدا من أبناء الشام في ٧٠٠ من أهل الشام وخرج معه من مطوعة أهل البصرة ١٠٠٠ رجل ومن الاسواريين والسبابجة ٤٠٠٠ فكان تمام عدتهم ٩٢٠٠ رجل مضوا حتى أتوا مدينة باربد من بلاد الهند سنة ١٦٠ فناهضوها بعد قدومهم بيوم وأقاموا عليها يومين فنصبوا المنجنيق وناهضوها بجميع الآلة وتحاشد الناس وحضن بعضهم بعضا حتى فتحوها عنوة ودخلت خيلهم من كل ناحية حتى ألجؤهم الى بلدهم فأشعلوا فيها النيران

والنفط وغلبوا أهلها على أمرهم بعد ان قتل من المسلمين بضعة وعشرون رجلا ثم أقاموا بالمدينة حتى يطيب لهم الريح فأصابتهم أمراض مات بسببها نحو ألف منهم ثم انصرفوا حين أمكنهم الانصراف حتى بلغوا ساحلا من فارس يقال له بحر حمران فعصفت عليهم فيه الريح فكسرت عامة مراكبهم فغرق منهم بعض ونجا بعض . ويظهر ان هذه الغزوة ليست الا اغارة لا عملا يقصد به توسيع المملكة

صفات المهدى

كان المهدي لا يشرب النبيذ وان كان سماره يشربونه في مجلسه وكان يسمع الغناء

وكان من خلقه الحياء والعفو فكان اذا وقع أحد من خصومه في يده عفا عنه وكان يتأثر بالقرآن . كان في حبسه موسى بن جعفر العلوي فقرأ مرة في صلاته « فهل عسيتم ان توليتم أن تفسدوا في الارض وتقطعوا أرحامكم » فأتم صلاته والتفت الى الربيع وأمره باحضار موسى فلما جيء به قال له ياموسى اني قرأت هذه الآية فخفت أن أكون قطعت رحمك فوثق لى انك لا تخرج على فقال نعم فوثق له فخلاه

وكان خليفة عادلا يجلس للمظالم بنفسه وبين يديه القضاة فيزيل عن الناس مظالمهم ولو كانت قبله وكان اذا جلس للمظالم قال أدخلوا على القضاة فلو لم يكن ردى المظالم الا للحياء منهم لكفي ، قال المسور بن مساور ظلمني وكيل المهدى وغصبني ضيعة لى فأتيت سلاما صاحب المظالم وأعطيته رقعة مكتوبة فأوصلها للمهدى وعنده عمه العباس بن محمد وابن علاثة وعافية القاضى فأمر المهدى بادخاله وسأله عن مظلمته فأخبره بها فقال له ترضى باحد هذين فقال نعم فقال تكلم فقال مساور أصلح الله القاضى ان هـذا ظلمني في ضيعتي وأشار الى المهدى فقال القاضى ما تقول يا أمير المؤمنين . قال ضيعتى في يدى فقال مساور أصلح الله القاضي سله صارت اليه الضيعة قبل الخلافة أو بعدها فقال المهدى بعد الخلافة فقال القاضي أطلقها له قال قد فعلت .

والعـدل والحلم والعفو فى الخلفاء من الصفات التى تدل على علو أقدارهم وعظيم سلطانهم وهكذا كان المهدى مع ما امتاز به من الجود وفصاحة اللسان وكان أبوه قد علمه تعليما عربيا محضا في صغره وقد ألف له المفضل الضبى أمثال العرب وجمع له مختارات شعرهم . وكان يقول ما تقرب الى أحد بوسيلة ولا تذرع بذريعة هي أقرب من تذكيره اياي يدا سلفت منى اليه اتبعها أختها فاحسن ربها لان منع الأواخر يقطع شكر الاوائل

وكان المهدى ميالا الى السنة يحب ألا يخالف سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فمن ذلك أنه أمر بنزع المقاصير من مساجد الجماعات وتصيير منابرها الى المقدار الذى عليه منبر رسول الله صلي الله عليه وسلم وكتب بذلك الى الآفاق فعمل به . وزار مرة مولاه أبا عون وهو مريض فقال له أوصني بحاجتك فشكره أبو عون وقال يا أمير المؤمنين حاجتى أن ترضى عن عبد الله بن أبي عون وتدعو به فقد طالت موجدتك عليه فقال يا أبا عون انه على غير الطريق وعلى خلاف رأينا ورأيت انه يقع فى الشيخين أبي بكر وعمر ويسىء القول فيهما فقال أبو عون هو والله يا أمير المؤمنين علي الامر الذى خرجنا عليه ودعونا اليه فان كان قد بدا لكم فرونا بما أحببتم حتى نطيعكم . ويظهر ان هـذه الفكرة كانت موجودة حقيقة في مبدأ الدعوة العباسية ولكنهم رفضوها بعد أن كان ما كان من أمر الطالبيين وثوراتهم المتتالية فرأى العباسيون أن يقتصروا بعلي رضي الله عنه على الدرجة التى كان عليها من التأخر في الرتبة عن أسلافه من الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم أجمعين

ولاية العهد

قدمنا أن المهدي نزع من ولاية العهد عيسى بن موسى بن على وجعل محله ابنه موسى الهادى ثم جعل بعده ابنه هارون الرشيد

وفاة المهدى

فى سنة ١٦٩ أراد المهدى الخروج الى جرجان فلما وصل الى ماسبذان أدركته هناك منيته ليلة الخميس لثمان بقين من المحرم في قرية يقال لها الروذ وصلى عليه ابنه هارون لانه كان فى صحبته .

٤ — الهادى

هو موسى الهادى بن محمد المهدى بن أبي جعفر المنصور وأمه أم ولد اسمها الخيزران كانت ملكا للمهدى وفى سنة ١٥٩ أعتقها وتزوجها أى بعد ان ولدت له الهادى والرشيد . ولد الهادي سنة ١٤٤ وولاه أبوه العهد وسنه ١٦ سنة وكان توليه قيادة الجنود في المشرق فقادها فى نواحي جرجان لمحاربة الخارجين والمخالفين . وفى اليوم الذى توفي فيه أبوه كان مقيما بجرجان وكان مع المهدى ابنه هارون فاخذ له البيعة على الجند وأرسل اليه بخاتم الخلافة وبالقضيب والبردة والتعزية والتهنئة وكان ذلك فى ٢٢ محرم سنة ١٦٩ (٤ أغسطس سنة ٧٨٥) ولم يزل خليفة حتى توفى في ١٤ ربيع الاول سنة ١٧٠ (١٣ سبتمبر سنة ٧٨٦) فكانت مدته سنة وشهرا و ٢٢ يوما وسنه حين مات ٢٦ سنة

وكان يعاصره في الممالك الثلاث من كانوا يعاصرون أباه

الحال فى عهده

كان الهادى على سنن أبيه فى كراهة الزنادقة فالتفت اليهم ونكل بهم تنكيلا والزندقة على ما يظن كانت عندهم عنوانا على ترك التدين والمجازفة فى التعبير عن الدين روي الطبرى ان ممن قتل الهادى يزدان بن باذان الكاتب ذكر عنه انه حج فنظر الى الناس فى الطواف يهرولون فقال ما أشبههم الا ببقرة تدوس في البيدر وله يقول العلاء بن الحداد الاعمى

أيا أمين الله في خلقه ووارث الكعبة والمنبر
ماذا ترى في رجل كافر يشبه الكعبة بالبيدر
ويجعل الناس اذا ماسعوا حمرا تدوس البر والدوسر

وروى الطبري بسنده ان المهدى قال يوما لموسى وقد قدم اليه زنديق فاستتابه فأبى أن يتوب فضرب عنقه وأمر بصلبه يابنى ان صار لك هذا الامر فتجرد لهذه العصابة (يعنى أصحاب مانى) فانها تدعو الناس الى ظاهر حسن كاجتناب الفواحش والزهد في الدنيا والعمل للآخرة ثم تخرجها الى تحريم اللحم ومس الماء الطهور وترك قتل الهوام تحرجا وتحوبا ثم تخرجها من هذه الى عبادة اثنين أحدهما النور والآخر الظلمة ثم تبيح بعد هذا نكاح الاخوات والبنات والاغتسال بالبول وسرقة الاطفال من الطرق تنقذهم من ضلال الظلمة الى هداية النور فارفع فيها الخشب وجرد فيها السيف وتقرب بأمرها الى الله لا شريك له فاني رأيت جدك العباس فى المنام قلدنى بسيفين وأمرني بقتل أصحاب الاثنين .

ومن غريب ما يروى انه أتى للمهدي برجلين من بني هاشم أحدهما ابن لداود ابن على والثانى يعقوب بن الفضل بن عبد الرحمن بن عباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب وقد اتهما بالزندقة وأقرا عنده بالزندقة فأما يعقوب بن الفضل فقال له أقربها بيني وبينك فاما ان أظهر ذلك عند الناس فلا أفعل ولو قرضتني بالمقاريض فقال له ويلك لو كشفت لك السموات وكان الامر كما تقول كنت حقيقا أن تعصب لمحمد ولولا محمد صلى الله عليه وسلم من كنت هل كنت الا انسانا من الناس

أما والله لولا اني كنت جعلت لله على عهدا اذ ولاني هذا الامر ألا أقتل هاشميا لما ناظرتك ولقتلتك ثم التفت الى موسى الهادى فقال ياموسى أقسمت عليك بحقى ان وليت هذا الامر بعدى ألا تناظرهما ساعة واحدة فمات ابن داود بن على فى الحبس قبل وفاة المهدى وأما يعقوب فبقى حتى مات المهدي وقدم موسى من جرجان فساعة دخل ذكر وصية المهدي فأرسل الى يعقوب من القى عليه فراشا واقعدت الرجال عليه حتى مات

ثورة الحسين بن علي

في عهد الهادي خرج عليه بالمدينة الحسين بن على بن الحسن المثلث سنة ١٦٩ وكان والى المدينة لوقته عمر بن عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب وسبب خروجه ان عمر بن عبد العزيز أخذ الحسن بن محمد النفس الزكية وجماعة كانوا على شراب لهم فأمربهم فضربوا جميعا ثم أمربهم فجعل في أعناقهم حبال وطيف بهم في المدينة فصار اليه الحسين بن على فكلمه فيهم وقال له ليس هذا عليهم وقد ضربتهم ولم يكن لك أن تضربهم لأن أهل العراق لا يرون به بأسا فلم تطوف بهم فبعث اليهم وقد بلغوا البلاط فردهم وأمربهم الى الحبس فحبسوا يوما وليلة ثم كلم فيهم فأطلقهم جميعا وكانوا يعرضون كما قدمنا (براقبون) ففقد الحسن بن محمد وكان الحسين ابن علي ويحيى بن عبد الله بن الحسن كفيلاه لان العمري كان كفل بعضهم من بعض فغاب عن العرض ثلاثة أيام فأخذ الكفيلين وسألهما عنه فحلفا انهما لا يدريان موضعه فكلمهما بكلام أغلظ لهما فيه فحلف يحيى بن عبد الله ألا ينام حتى يأتيه به أو يضرب عليه باب داره حتى يعلم انه قد جاءه به فلما خرجا قال الحسين سبحان الله مادعاك الى هذا وأين تجد حسنا حلفت له بشيء لاتقدرعليه قال والله لا نمت حتى أضرب عليه باب داره بالسيف فقال حسين تكسر بهذا ما كان بيننا وبين أصحابنا من الصلة قل قد كان الذي كان فلا بدمنه وكانوا قد تواعدوا على أن يخرجوا بمنى أو بمكة أيام الموسم وكان بالمدينة جماعة من أهل الكوفة من شيعتهم وممن كان بايع الحسين بن على ففي آخر الليل خرجوا وجاء يحيى بن عبدالله حتى ضرب باب دار مروان على العمري فلم يجده فيها وتوارى منهم فجاؤا حتى اقتحموا المسجد . ولما أذن الصبح جلس الحسين على المنبر وعليه عمامة بيضاء وجعل الناس يأتون المسجد فاذا رأوهم رجعوا ولا يصلون فلما صلى الغداة جعل الناس يأتونه ويبايعونه على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم للمرتضى من آل محمد وقاومهم جماعة من نصراء الدولة فلم يفلحوا . ولما تم للحسين بن علي ما أراد انتهبت جماعته ما في بيت المال .

أقام الحسين بالمدينة بعد اعلان الخروج أحد عشر يوما ثم فارقها لست بقين من ذى القعدة قاصدا مكة

انتهى خبر الحسين الى الهادى وقد كان حج في تلك السنة رجال من أهل بيته منهم محمد بن سليمان بن علي والعباس بن محمد وموسى بن عيسى سوى من حج من الاحداث وكان على الموسم سليمان بن أبي جعفر المنصور فامر الهادى بالكتاب بتولية محمد بن سليمان على الحرب فلقيهم الكتاب وقد انصرفوا عن الحج . وكان محمد بن سليمان قد خرج فى عدة من السلاح فشمر للحرب وسار نحو الحسين ابن علي فلقيه بفخ وكانت عاقبة الوقعة أن قتل الحسين بن على الثائر وجماعة ممن معه وأفلت من الموقعة رجلان لهما تاريخ جليل وهما ادريس بن عبد الله بن الحسن ابن الحسن بن علي أخو محمد النفس الزكية وهو مؤسس دولة الادارسة بالمغرب الاقصى والثاني أخوه يحيى بن عبد الله الذي ذهب الى بلاد الديلم وسيأتي خبرهما في دولة الرشيد

ومما يحسن ذكره ماروواه الطبري قال دخل عيسى بن داب على موسى بن عيسى عند منصرفه من فخ فوجده خائفا يلتمس عذرا من قتل من قتل فقال أصلح الله الامير أنشدك شعرا كتب به يزيد بن معاوية الى أهل المدينة يعتذر فيه من قتل الحسين بن علي رضي الله عنه قال أنشدني فانشده

يا أيها الراكب الغادي لطيته ... على عذافرة في سيرها قحم
أبلغ قريشا على شحط المزار بها ... بيني وبين حسين الله والرحم
وموقف بفناء البيت أنشده ... عهد الاله وماترعى به الذمم
عنفتم قومكم فخرا بامكم ... أم حصان لعمري برة كرم
هى التى لا يدانى فضلها أحد ... بنت النبى وخير الناس قد علموا
وفضلها لكم فضل وغيركم ... من قومكم لهم من فضلها قسم
انى لا علم أو ظنا كعالمه ... والظن يصدق أحيانا فينتظم

ان سوف يتركـكم ما تطلبون بها قتلى تهادا كم العقبان والرخم
ياقومنا لاتشبوا الحرب اذ خمدت ومسكوا بحبال السلم واعتصموا
لا تركبوا البغي ان البغي مصرعة وان شارب كأس البغي يتخم
قد جرب الحرب من قد كان قبلكم من القرون وقد بادت بها الامم
فأنصفوا قومكم لا تهلكوا بذخا فرب ذي بذخ زلت به القدم

قال فسرى عن موسى بن عيسى بعض ما كان فيه

صفات الهادي

كان الهادي شديد الغيرة على حرمه و يشبه فى ذلك سليمان بن عبد الملك فى بنى أمية وقد نهى أمه الخيزران أن يدخل عليها أحد من القواد أو رؤساء حكومته بعد ان كان لها من نفوذ الامر فيعهد المهدي مالم يكن لامرأة غيرها (قالوا) كانت الخيزران فى أول خلافة موسى الهادى تفتات عليه في أموره وتسلك به مسلك أبيه من قبله في الاستبداد بالامر والنهي فأرسل اليها ألا تخرجى من خفر الكفاية الى بذاءة التبذل فانه ليس من قدر النساء الاعتراض فى أمر الملك وعليك بصلاتك وتسبيحك وتبتلك وكانت الخيزران في خلافة موسى كثيرا ما تكلمه فى الحوائج فكان يجيبها الى كل ما تسأله حتى مضى لذلك أربعة أشهر من خلافته وانثال الناس عليها وطمعوا فيها فكانت المواكب تغدو الى بابها فكلمته يوما فى أمر لم يجد الى اجابتها اليه سبيلا فاعتل بعلة فقالت لابد من اجابتى قل لا أفعل قالت فاني قد تضمنت هذه الحاجة لعبد الله بن مالك فغضب موسى وقال ويلي على ابن الفاعلة قد علمت انه صاحبها والله لاقضيتها لك قالت اذا والله لا أسألك حاجة أبدا قال اذا والله لا أبالى وحمي غضبه فقامت مغضبة فقال مكانك تستوعبى كلامى والله والا فانا نفى من قرابتى من رسول الله صلى الله عليه وسلم لئن بلغني أنه وقف ببابك أحد من قوادي أو أحد من خاصتي أو خدمى لأضربن عنقه ولاقبضن ماله فمن شاء فليلزم ذلك- ما هذه المواكب التى تغدو وتروح الى بابك في كل يوم أمالك مغزل

يشغلك أو مصحف يذكرك أو بيت يصونك اياك ثم اياك مافتحت بابك لملي مسلم أو ذمي فانصرفت ما تعقل ماتطأ فلم تنطق عنده بحلوة ولا مرة بعدها .

وكان شجاعا قويا روى عنه أنه كان يثب على الدابة وعليه درعان

وكان يرى أن الناس لا يصلحون اذا حجب خليفتهم عنهم حتى أنه قال للفضل ابن الربيع الذى أقامه فى حجابته بعد أبيه لا تحجب عنى الناس فان ذلك يزيل عنى البركة ولا تلق الىّ أمرا اذا كشفته أصبته باطلا فان ذلك يوقع الملك ويضر بالرعيه . وقال مرة لعلي بن صالح ائذن للناس على بالجفلى لا النقرى ففتحت الابواب فدخل الناس على بكرة أبيهم فلم يزل ينظر فى المظالم الى الليل .

وكان الهادى يشرب النبيذ ويسمع الغناء وهو أول من فعل ذلك من خلفاء بني العباس وأهل العراق يتوسعون في أمر النبيذ فيجيزون منه مالا يسكر

وكان كريما يشبه أباه فى أعطياته . ولم تطل مدته في الخلافة حتى يكون له في أحوال الأمة أثر ظاهر

ولاية العهد

كان الرشيد ولى العهد بمقتضي عقد المهدى فخطر للهادى أن يخلعه ويعهد الى ابنه جعفر وتابعه على ذلك القواد ودسوا الى الشيعة فتكلموا في أمر الرشيد وتنقصوه فى مسجد الجماعة وقالوا لا نرضى به . وأمر الهادي ألا يسار بحربة أمام الرشيد ومر يوما هو وجعفر بن الهادي راكبين فبلغا قنطرة من قناطر عيسا باذ فالتفت أبو عصمة الشرطى الى هارون فقال له مكانك حتى يجوز ولى العهد فقال هارون السمع والطاعة للامير فوقف حتى جاز جعفر . دعا ذلك الى اجتناب الرشيد فلم يكن أحد يجترىء أن يسلم عليه ولا يقربه وكان يحيى بن خالد يقوم بانزال الرشيد ولا يفارقه فسعى الى الهادي ان الذي يفسدعليك هارون هويحيي وكان هارون قد طاب نفسا بالخلع فقال له يحيى لا تفعل فدعا الهادي بيحيي وكلمه فى ذلك فقال ياأمير المؤمنين انك ان حملت الناس على نكث الايمان هانت عليهم أيمانهم وان تركتهم على بيعة

أخيك ثم بايعت لجعفر من بعده كان ذلك أوكد لبيعته فقال له الهـادي صدقت ونصحت ولى في هـذا تدبير . ومع ظهور اقتناع الهادي بصحة رأي يحيي لم يتركه مشيروه بل مازالوا يحرضونه على الرشيد حتى جد فيه واشتد غضبه منه وضيق عليه فأشار يحيي على الرشيد أن يستأذنه فى الخروج الي الصيد فأذن له الهادى . فلما غاب أكثر مما استأذن جعل يكتب اليه ويصرفه فتعلل الرشيد حتى تفاقم الأمر وأظهر الهادى شتمه وبسط مواليه وقواده ألسنتهم فيه

قطع ذلك النزاع كله مرض الهادي الذي لم يمهله الا ثلاثة أيام . وقد اتهم الناس أمه الخيزران بسمه لما كان منه من غل يدها عن المداخلة فى أمر الملك ونهى القواد والرؤساء عن الدخول اليها وانضم الى ذلك ما أولع به الهادي من الاساءة الى الرشيد وارادة عزله أو قتله وكان الرشيد برا بها وقد يؤكد ذلك انها أرسلت الى يحيي والهادي مريض تعلمه ان الرجل لما به وتأمره بالاستعداد لما ينبغي فاستعد يحيي للامر أكمل استعداد وهيأ الكتب للعمال من الرشيد بوفاة الهادي وانهم قد ولاهم الرشيد ما كانوا يلون . فلما مات الهادي نفذت الكتب على البرد وكانت وفاته بعيساباذ

٥ — الرشيد

هو هارون الرشيد بن محمد المهدى وأمه أم الهادي ولد بالري سنة ١٤٥ ولما شب كان أبوه يرشحه للخلافة فولاه مهام الامور . جعله أمير الصائفة سنة ١٦٣ وسنة ١٦٥ وفى سنة ١٦٤ ولاه المغرب كله من الأنبار الى أطراف أفريقية فكانت الولاة ترسل من قبله وفى سنة ١٦٦ جعله أبوه ولي عهد بعد الهادي . وفي سنة ١٦٩ وهي السنة التى توفى فيها المهدي أراد أن يقدمه على الهادي لما ظهر من شجاعته وعلو شأنه فحالت منية المهدي دون ذلك

بويع الرشيد بالخلافة يوم ان مات أخوه الهادي فى ١٤ ربيع الاول سنة ١٧٠

(١٤ سبتمبر سنة ٧٨٦) وسنه ٢٥ سنة ولم يزل خليفة الى أن توفى في ثالث جمادى الآخرة سنة ١٩٣ (٢٤ مارس سنة ٨٠٨) فكانت مدته ٢٣ سنة وشهرين و ١٨ يوما وكان سنه اذ توفي ٤٨ سنة

وكان يعاصره في الاندلس الامير عبد الرحمن الداخل (١٣٨ – ١٧٢) ثم هشام بن عبد الرحمن (١٧٢ – ١٨٠) ثم الحكم بن هشام (١٨٠ – ٢٠٦)

وفي المغرب الاقصى ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبي طالب (١٧٢ – ١٧٧) وهو أول المتغلبين من البيت الادريسي ثم ابنه ادريس (١٧٧ – ٢١٣)

ويعاصره في فرنسا شارل الكبير المعروف بشارلمان (٧٦٧ – ٨١٤)

ويعاصره في مملكة الروم بالقسطنطينية قسطنطين السادس وكانت تدبره لصغره أمه اريني (٧٨٠ – ٧٩٧) ثم استبدت بالملك من سنة ٧٩٧ الى سنة ٨٠٢ ثم خلعت وخلعها نقفور (٨٠٢ – ٨١١)

الحال لعهده

كان عهد الرشيد واسطة عقد المدة العباسية وصلت فيه الخلافة الى أفخم درجاتها صولة وسلطانا وثروة وعلما وأدبا ارتقت فيه حضارة الدولة العلمية والادبية والمادية الى أرقى درجاتها مما سنفصله بعد ووصل ترف الامة فى حاضرة الدولة وغيرها من الحواضر الى حد يؤذن بقرب الهبوط وكان في عهد الرشيد من كبار الرجال من تزدان بهم الممالك من رجال الادارة والحرب فعظمت الهيبة في الداخل والخارج وكانت أخلاق هارون مما يساعد على هذا الرقى كما سنبين ذلك كله مفصلا ونحن الآن ذاكرون الحوادث الكبرى التى كان لها أثر في مستقبل الامة

الطالبيون

كان الطالبيون شغل بنى العباس الشاغل فانهم كانوا لا يزالون متطلعين الى

نيل الخلافة كما كانت شيعتهم تتحين الفرصة الملائمة لاقامة دولتهم وكان بنو العباس من أجل ذلك لا يأمنون جانبهم لكن الرشيد في أول ولايته أراد أن يستميل قلوبهم بشيء من الاحسان اليهم وكان أول ما فعله معهم ان رفع الحجر عمن كان منهم ببغداد وسيرهم الى المدينة ما خلا العباس بن الحسن بن عبد الله بن على وكان أبوه الحسن فيمن أشخص . ومع هذا الذى بدا منه لم يتركه الطالبيون على سجيته فكان من أول الخارجين عليه يحيي بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على وهو من الناجين من وقعة فخ التي كانت في عهد الهادى ذهب الى بلاد الديلم فاشتدت شوكته بها وقوى أمره ونزع اليه الناس من الامصار والكور فاغتم الرشيد لذلك وترك شرب النبيذ ثم ندب الى قتاله الفضل بن يحيي بن خالد في خمسين ألفا ومعه صناديد القواد فسار سمت يحيي فكاتبه ورفق به واستماله وحذره وأشار عليه و بسط أمله وكاتب صاحب الديلم وجعل له ألف ألف درهم على أن يسهل له خروج يحيي وحملت اليه فاجاب يحيي الى الصلح والخروج على يديه على أن يكتب له الرشيد أمانا بخطه فكتب الفضل بذلك الى الرشيد فسره وعظم موقعه عنده وكتب الامان وأشهد عليه الفقهاء والقضاة وجلة بنى هاشم ومشايخهم ووجه به مع جوائز وكرامات وهدايا فوجه الفضل بذلك الى يحيي فقدم عليه وورد به الفضل بغداد فلقيه الرشيد بكل ما أحب وأمر له بمال كثير وأجرى عليه أرزاقا سنية وأنزله منزلا سريا بعد أن أقام بمنزل يحيي بن خالد أياما وكان يتولى أمره بنفسه ولا يكل ذلك الى غيره وأمر الناس بزيارته بعد انتقاله من منزل يحيي والتسليم عليه و بلغ الرشيد الغاية من اكرام الفضل لذلك وسنبين خاتمة أمره فى حديث نكبة البرامكة ولم يترتب على خروج يحيي هذا انفصال شيء من جسم الخلافة الاسلامية

ادريس بن عبد الله

كان ادريس بن عبد الله بن الحسن ممن هرب من وقعة فخ وهذا أخو يحيي سار الى مصر ومنها اتجه الى بلاد المغرب الاقصى فالتف عليه برابرة أوربة فكون

هناك أول خلافة للعلويين وهي دولة الادارسة وكان نزوله بمدينة وليلى سنة ١٧٢ وكانت بيعته في تلك السنة ولما بلغ هارون ان أمر ادريس قد استقام ببلاد المغرب وكثرت جنوده وفتح بلاد تلمسان وانه عازم على غزو أفريقية هم أن يرسل اليه جيشاً ولكن عدل عن ذلك لبعد الشقة واختار رجلا داهية اسمه سليمان بن جرير ويعرف بالشماخ وطلب منه أن يحتال فى قتل ادريس وزوده مالا وطرفا يستعين بها على أمره فسافر الرجل ووصل الى ادريس مظهرا النزوع اليـه متبرئا من الدعوة العباسية فقبله ادريس واختص به وأعجب بحديثه ولما انتهز الفرصة سمه اما في طيب واما فى سنون وفر هاربا فمات ادريس سنة ١٧٧ ولم يكن له ولد الا أمة كانت حاملا فانتظروا وضع حملها فوضعت ولدا ذكرا سمى ادريس على اسم أبيه وبايعوه بالخلافة واستمرت دولة الادارسة بالمغرب رغم أنف الرشيد

بذلك تم خروج اقليمين عظيمين عن الخلافة العباسية وهما بلاد الاندلس على يد عبد الرحمن بن معاوية الاموى وبلاد المغرب الاقصى مع تلمسان على يد ادريس بن عبد الله

كان الرشيد بسبب هذه الحوادث يخاف الطالبيين جدا ومن اتهم من الناس بالميل اليهم عاقبه أشد العقوبات وأخذ موسى بن جعفر المعروف بالكاظم الى بغداد فاقام بها الى ان مات وهو السادس من أئمة الشيعة الامامية

الخارجون عليه من غير العلويين

لم يكن اضطراب الدولة وزعزعة الامن ناشئاً من العلويين وحدهم بل كان هناك فريق من الامة ينعى على الخلفاء استبدادهم وخروجهم عمـا توجبه الاوامر الشرعية من كتاب الله وسنة نبيه وقد اتصل أمرهم من لدن أن خرجوا على علي بن أبي طالب الى زمن الرشيد الا أن خلفاء بنى أمية قد أخفتوا صوتهم بما كانوا يجردون لهم من الجيوش الجرارة على يد أمهر القواد كالمهلب بن أبى صفرة وغيره ومع ذلك فانهم لم يقدروا على افناء روحهم الثورية من الامة فكان لا يزال يخرج منهم خارجة

متى ظهر فيهم ذو مقدرة وكفاءة لخوض الحروب . وقد اشتهر زمن الرشيد بخوارج أولى بأس شديد أعادوا تاريخ أسلافهم فى عهد بنى أمية بعد أن كانت نيرانهم قد خبت مدة طويلة وأشهر هؤلاء الخوارج ذكرا وأعظمهم أثرا الوليد بن طريف الشارى الشيباني كان بطلا شجاعا يقيم بالجزيرة بنواحى نصيبين خرج على الرشيد سنة ١٧٨ ففتك بابراهيم بن خازم بنصيبين ثم مضى منها الى أرمينية ثم رجع الى الجزيرة سنة ١٨٩ﻫ واشتدت بها شوكته وكثرت أتباعه بعد ان هزم للرشيد جيوشا عدة فاهتم الرشيد بامره وجد الاهتمام ورأي ان يوجه اليه من ربيعة من يمكنه القيام في وجهه فوقع اختياره على يزيد بن مزيد الشيباني وهو ابن أخى معن بن زائدة فذهب يزيد وصار يخاتل الوليد ويماكره متبعا فى ذلك طريقة المهلب بن أبي صفرة مع قطرى بن الفجاءة وكانت البرامكة منحرفين على يزيد فقالوا له انه يراعيه لاجل الرحم والا فشوكة الوليد يسيرة فوجه اليه الرشيد كتاب مغضب وقال ولو وجهت أحدا من الخدم لقام بأكثر مما تقوم به ولكنك مداهن متعصب وأمير المؤمنين يقسم بالله لئن أخرت مناجزة الوليد ليبعثن اليك من يحمل رأسك الى أمير المؤمنين فلقى يزيد الوليد ولما اصطف جيشاهما وشبت الحرب ناداه ياوليد ما حاجتك الى التستر بالرجال ابرز لى فقال نعم والله فبرز الوليد وهو يرتجز

أنا الوليد بن طريف الشارى قسورة لا يصطلى بنارى
جوركم أخرجنى من دارى

وبرز اليه يزيد ووقف العسكران فلم يتحرك منهما أحد فتطاردا ساعة وكل واحد منهما لا يقدر على صاحبه حتى مضت ساعات من النهار فأمكنت يزيد فيه الفرصة فضرب رجله فسقط وصاح بخيله فسقطوا عليه واحتزوا رأسه . وكانت هذه الواقعة بالحديثة على فراسخ من الانبار سنة ١٧٩ . ثم وجه يزيد برأس الوليد وبكتاب الفتح الى الرشيد . ومن ألطف الرثاء ما قالته الفارعة أخت الوليد

بتل نهاكي رسم قبر كانه على جبل فوق الجبال منيف

تضمن مجدا عُد مليا وسوددا ... وهمة مقدام ورأس حصيف
فيا شجر الخابور مالك مورقا ... كانك لم تجزع على ابن طريف
فتى لا يحب الزاد الا من التقى ... ولا المال الا من قنا وسيوف
ولا الذخر الا كل جرداء صلدم ... معاودة للكر بين صفوف
كانك لم تشهد هناك ولم تقم ... مقاما على الاعداء غير خفيف
ولم تستلم يوما لورد كريهة ... من السرد في خضراء ذات رفيف
ولم تسع يوم الحرب والحرب لاقح ... وسمر القنا ينكزنها بانوف
حليف الندى ماعاش يرضى به الندى ... فان مات لا يرضى الندى بحليف
فقدناك فقدان الشباب وليتنا ... فديناك من فتياننا بألوف
ومازال حتى أزهق الموت نفسه ... شجا لعدو أو نجا لضعيف
ألا يالقوم للحمام وللبلى ... وللارض همت بعده برجوف
ألا يالقومي للنوائب والردى ... ودهر ملح بالكرام عنيف
وللبدر من بين الكواكب اذهوى ... وللشمس لما أزمعت لكسوف
ولليث كل الليث اذ يحملونه ... الى حفرة ملحودة وسقيف
ألا قاتل الله الحشي حيث أضمرت ... فتى كان للمعروف غير عيوف
فان يك أوداه يزيد بن مزيد ... فرب زحوف لفها بزحوف
عليه سلام الله وقفا فانني ... أرى الموت وقاعا بكل شريف

خطر المشرق

وضح الخطر على الدولة من قبل المغرب فقد انتقصت أطرافها بخروج عبد الرحمن ابن معاوية وادريس بن عبد الله وايس الخطر على هذا الطرف بأقل أثرا من الخطر على الطرف الآخر وهو مشرق الدولة وراء نهر جيحون فقد حصل ما يؤذن بخطر مستقبل من جراء والى خراسان

استشار الرشيد وزيره يحيي بن خالد في تولية على بن عيسى بن ماهان خراسان

فأشار عليه ألا يفعل فخالفه الرشيد وولاه اياها فلما شخص اليها ظلم الناس وجمع مالا جليلا ووجه الى الرشيد بهدايا لم ير مثلها من الخيل والرقيق والثياب والاموال فقعد الرشيد بالشماسيه على دكان مرتفع حين وصل اليه مابعث به على بن عيسى والى جانبه يحيى بن خالد فقال له هذا الذى أشرت ألا نوليه هذا الثغر فقد خالفناك فيه فكان في خلافك بركة وهو كالمازح معه اذ ذاك فقال يحى ياأمير المؤمنين جعلنى الله فداك أنا وان كنت أحب أن أصيب في رأيي وأوفق في مشورتي فأنا أحب الي من ذلك أن يكون رأى أمير المؤمنين أعلى وفراسته أثقب وعلمه أكثر من علمى ومعرفته فوق معرفتي وما أحسن هذا وأكثره ان لم يكن فيه ما يكره أمير المؤمنين واسأل الله أن يعيذه ويعفيه من سوء عاقبته ونتائج مكروهه قال وما ذاك قال أحسب ان هذه الهدايا ما اجتمعت له حتى ظلم فيها الأشراف وأخذ أكثرها ظلماً وتعديا ولو أمرني أمير المؤمنين لأتيته بضعفها الساعة من بعض تجار الكرخ قال وكيف ذاك قال قد ساومنا عونا على السفط الذي جاءنا به من الجوهر وأعطيناه به سبعة آلاف ألف فأبى ان يبيعه فأبعث اليه الساعة بحاجبي يأمره ان يرده الينا لنعيد فيه نظرنا فاذا جاءنا به جحدناه وربحنا سبعة آلاف ألف ثم كنا نفعل بتاجرين من تجار الكرخ مثل ذلك وعلى ان هذا أسلم عاقبة وأستر أمرا من فعل على بن عيسى فى هذه الهدايا بأصحابها فأجمع لأمير المؤمنين فى ثلاث ساعات أكثر من قيمة هذه الهدايا بأهون سعي وأيسر أمر وأجمل جباية مما جمعه على فى ثلاث سنين . فوقرت في نفس الرشيد وحفظها وأمسك عن ذكر علي بن عيسى فلما عاث على بن عيسى بخراسان ووتر أهلها وأخذ اموالهم واستخف برجالهم كتب رجال من كبرائها ووجهائها الى الرشيد وكتب جماعة من كورها الى قراباتهم واصحابهم يشكون سوء سيرته وخبث طعمته ورداءة مذهبه وتسأل امير المؤمنين ان يبدلها به فدعا يحى بن خالد فشاوره فى امر على بن عيسى وفي صرفه فأشار عليه بيزيد بن مزيد فلم يقبل مشورته . وكان قيل للرشيد ان على بن عيسى اجمع على خلافك فشخص الى الرى من اجل ذلك

فعسكر بالنهروان لثلاث عشرة بقيت من جمادى الاولى سنة ١٨٩ ثم سار الى الرى ثم الى قرماسين ثم عاد الى الرى فأقام بها نحو أربعة أشهر حتى قدم عليه على بن عيسى من خراسان بالاموال والهدايا والطرف وأهدى بعد ذلك الى جميع من كان معه من ولده وأهل بيته وكتابه وخدمه وقواده على قدر طبقاتهم ومراتبهم فرأى الرشيد منه خلاف ما كان ظن به وغير ما كان يقال فيه فرضي عنه ورده الى خراسان وخرج وهو مشيع له

عاد على بن عيسى الى مرو ناقما على كل من يظن انه تكلم فيه بسوء فآذى الناس وأخذ منهم الاموال ظلما . وحصل فى تلك الظروف ان أعلن العصيان رافع ابن ليث بن نصر بن سيار وجده نصر من قد عرفتم فى التاريخ الاموي . أما رافع فيظهر أنه كان ممن يتخذ دين الله هزوا ولعبا ويتضح ذلك من السبب الذى من أجله ثار . كان يحيي بن الاشعث الطائي تزوج ابنة عمه وكانت ذات يسار ولسان فأقام بمدينة السلام وتركها بسمرقند فلما طال مقامه بها وبلغها انه قد اتخذ أمهات أولاد التمست سبباً للتخلص منه وبلغ رافعا خبرها فطمع فيها وفي مالها فدس اليها من قال لها انه لا سبيل لها الى التخلص من صاحبها الا أن تشرك بالله وتحضر لذلك قوما عدولا وتكشف شعرها بين أيديهم ثم تتوب فتحل للازواج ففعلت ذلك وتزوجها رافع وبلغ الخبر يحيي بن الاشعث فرفعه الى الرشيد فكتب الى على بن عيسى يأمره أن يفرق بينهما وان يعاقب رافعا ويجلده الحد ويقيده ويطوف به في مدينة سمرقند مقيدا على حمار حتى يكون عظة لغيره فدرأ عنه سليمان بن حميد الحد وفعل به العقوبات الاخرى وحبسه فهرب من الحبس ولحق بعلى بن عيسى طالبا أمانه فلم يجبه على اليه وهم بضرب عنقه فكلمه فيه ابنه عيسى بن على وجدد طلاق المرأة وأذن له في الانصراف الى سمرقند فانصرف اليها فوثب بعاملها سليمان بن حميد فقتله فوجه اليه علي بن عيسى ابنه عيسى وكان أمره قد استفحل بسمرقند وبايعه الناس وطابقه من وراء النهر فلقى رافع عيسى بن على وهزمه . فأخذ على في فرض الرجال والتأهب

للحرب . أما رافع فانه غاظ أمره وكاتبه اهل نسف يعطونه الطاعة ويسألونه ان يوجه اليهم من يعينهم على قتل عيسى بن على فوجه صاحب الشاش في اترا كه وقائدا من قواده فأتوا عيسى بن على فاحدقوا به وقتلوه ولم يعرضوا لاصحابه وكان على بن عيسى فى ذلك الوقت ببلخ فلما سمع ما أصاب ابنه خرج عنها حتى آتى مرو مخافة أن يسير اليها رافع فيستولى عليها وكان عيسى ابنه قد دفن فى بستان داره ببلخ أموالا عظيمة قيل انها كانت ثلاثين ألف الف ولا يعلم بها على بن عيسى ولا اطلع عليها الا جارية كانت له فلمـا شخص على الى بلخ اطلعت الجارية على ذلك بعض الخدم وتحدث به الناس فاجتمع قراء اهل بلخ ووجوهها فدخلوا البسـتان فانتهبوه واباحوه للعامة فبلغ الرشيد الخبر فقال خرج من بلخ بغير اذني وخاف مثل هذا المال وهو يزعم انه قد أفضى الى حلى نسائه فيما انفق على محاربة رافع . فى ذلك الوقت تبينت له خيانة الرجل وجبنه وسوء سـياسته لاهل ولايته فعزم على خلعه ومصادرته فاحضر هرثمة بن اعين وهو قائد شجاع بطل فقال له اني لم اشاور فيك احدا ولم اطلعه على سرى فيك وقد اضطربت على ثغور المشرق وأنكر أهل خراسان امر على بن عيسى اذ خالف عهدي ونبذه وراء ظهره وقد كتب يستمد ويستجيش وانا كاتب اليه فاخبره اني امده بك واوجه اليه معك من الاموال والسلاح والقوة والعدة ما يطمئن اليه قلبه وتتطلع اليه نفسه وا كتب معك كتابا بخطى فلا تفضه ولا تطلعن فيه حتى تصل الى مدينة نيسابور فاذا نزلتها فاعمل بما فيه وامتثله ولاتجاوزه ان شاء الله وانا موجه معك رجاء الخادم بكتاب اكتبه الى علي بن عيسى بخطي ليتعرف ما يكون منك ومنه وهون عليه امر على فلا تظهرنه عليه ولا تعلمنه ما عزمت عليه وتأهب للمسير واظهر لخاصتك وعامتك اني اوجهك مددا لعلى بن عيسى وعونا له . وكان كتابه لعلى بن عيسى مبدوءا بهجر وفيه توبيخ وتقريع له علي مخالفته واعلام له بما امر هرثمة ان يفعله معه . اما عهده لهرثمة فهو :

هذا ماعهد هارون الرشـيد امير المؤمنين الى هرثمة بن اعين حين ولاه ثغر

خراسان وأعماله وخراجه أمره بتقوى الله وطاعته ورعاية أمر الله ومراقبته وان يجعل كتاب الله اماما له في كل ما هو بسبيله فيحل حلاله ويحرم حرامه ويقف عند متشابهه ويسأل عنه أولى الفقه في دين الله وأولى العلم بكتاب الله أو يرده الى امامه ليريه الله عزوجل فيه رأيه ويعزم له على رشده . وأمره أن يستوثق من الفاسق علي ابن عيسى وولده وعماله وكتابه وان يشد عليهم وطأته ويحل بهم سطوته ويستخرج منهم كل مال يصح عليهم من خراج أمير المؤمنين وفيء المسلمين فاذا استنظف ماعندهم وقبلهم من ذلك نظر في حقوق المسلمين والمعاهدين وأخذهم بحق كل ذي حق حتى يرده اليهم فان ثبتت قبلهم حقوق لامير المؤمنين وحقوق للمسلمين فدافعوا بها وجحدوها ان يصب عليهم سوط عذاب الله وأليم نقمته حتى يبلغ بهم الحال التي ان تخطاها بأدنى أدب تلفت نفوسهم وبطلت أرواحهم فاذا خرجوا من حق كل ذي حق أشخصهم كما تشخص العصاة من خشونة الوطاء وخشونة المطعم والمشرب وغلظ الملبس مع الثقات من أصحابه الى باب أمير المؤمنين ان شاء الله فاعمل يا أبا حاتم بما عهدت اليك فاني آثرت الله وديني على هواى وارادتي فكذلك فليكن عملك وعليه فليكن امرك ودبر في عمال الكور الذين تمر بهم في صعودك مالا يستوحشون معه الى أمر يريبهم وظن يرعبهم وابسط من آمال أهل ذلك الثغر ومن أمانهم وعذرهم ثم اعمل بما يرضى الله منك وخليفتك ومن ولاك الله أمره ان شاء الله . هذا عهدي وكتابي بخطي وانا أشهد لله وملائكته وحملة عرشه وسكان سمواته وكفى بالله شهيدا . وكتب أمير المؤمنين بخط يده لم يحضره الا الله وملائكته .

شخص هرثمة وقد اختار من ثقات رجاله ولاة على كور خراسان مع وصيتهم بكتمان امرهم الى اليوم الذى عينه لهم حتى اذا وصل مرو خرج علي بن عيسى لمقابلته لان هرثمة لم يدع مجالا للريبة الى قلبه فلما دخلا المنزل اطلعه على كتاب الرشيد اليه وأول كلمة منه تنبىء عن بقيته فأسقط في يده وبعد تلاوته الكتاب قبض عليه وقيده وكذلك قيد أولاده وكتابه وعماله ثم ذهب هرثمة الى المسجد الجامع فخطب وبسط

من آمال الناس وأخبرهم ان امير المؤمنين ولاه ثغورهم لما انتهى اليه من سيرة الفاسق على بن عيسى وما امره به فيه وفي عماله وأعوانه وانه بالغ من ذلك ومن انصاف العامة والخاصة والاخـذ لهم بحقوقهم أقصى مواضع الحق وامر بقراءة عهده عليهم فأظهروا السرور بذلك وانفسحت آمالهم وعظم رجاؤهم وعلت بالتكبير والتهليل اصواتهم وكثر الدعاء لامير المؤمنين بالبقاء وحسن الجزاء . ثم صادر جميع ما يملكه على بن عيسى هو واولاده وكتابه وارسل كل ذلك الى الرشيد وقلوا انه حمل على ١٥٠٠ بعير وارسل هرثمة الى الرشيد يخبره بما صنع . ولمـا استوفى ما عند على بن عيسى ارسله هو واولاده في الاغلال الى بغداد

وقد اهتم هرثمة بأمر رافع ولكن استفحال امره دعا الرشيد الى الذهاب بنفسه لحربه فشخص يريد خراسان في ربيع الآخر سنة ١٩٣ وهي السفرة التى مات فيها بطوس فلم يصل الى ما اراد وبقي رافع على حاله حتى أطاع المأمون من غير قتال

وزراء الرشيد

اول وزراء الرشيد يحيي بن خالد بن برمك . ولما كانت اسرة البرامكة من اعظم الاسر تاريخا واشهرها اسما في صدر الدولة العباسية أحببنا ان نشرح اوليتها

اسرة البرامكة .

تنسب هذه الاسرة الى جدها برمك وهو من مجوس بلخ وكان يخدم النوبهار وهو معبد كان للمجوس بمدينة بلخ توقد فيه النيران فكان برمك وبنوه سدنة له وكان برمك عظيم المقدار عندهم ولم يعلم هل اسلم او لا . لما جاءت الدعوة العباسية خراسان كان خالد بن برمك من اكبر دعاتها وزعمائها وكان ذا صفات عالية اهلته للسيادة ورفعة القدر فى صدر الدولة حتى استوزره ابو العباس السفاح بعد هلاك ابى سلمة حفص بن سليمان الخلال فكان مدبر امره غير انه لم يكن يسمى وزيرا واستمر على ذلك حياة ابي العباس فلما ولي ابو جعفر أبقى خالدا في منصبه مدة ثم ولاه فارس

بتدبير أبي أيوب الموريانى الذى تولى الوزارة بعده فأقام فيها مدة ثم انكسرت عليه جملة من المال فحمل الى بغداد وطولب بالمال ذكر الطبرى في حوادث سنة ١٥٨ أن أبا جعفر ألزمه ثلاثة آلاف ألف ونذر دمه وأجله ثلاثة أيام ولم يذكر سبب ذلك فاستعان في ذلك أصدقاءه فأعانه كثير منهم حتي جمع فى يومين ألفي ألف وسبعمائة ألف درهم . وفى غد ذلك اليوم الذى أصيب فيه بهذه المصيبة ولاه المنصور ولاية الموصل وكان ممدوح الولاية حسن السيرة قال أحمد بن محمد بن سوار الموصلى ماهبنا قط أميرا هيبتنا خالد بن برمك من غير ان تشتد عقوبته ولا نرى منه جبرية ولكن هيبة كانت له في صدورنا واستمر واليًا على الموصل حتى مات أبو جعفر وكانت وفاة خالد سنة ١٦٣ فى أوائل خلافة المهدى

أما يحيى بن خالد فكان واحد الدنيا علمًا وأدبًا وفضلا ونبلا وجودا رباه أبوه فأحسن تربيته وكان مولده سنة ١٢٠ فكانت سنه حين جاءت الدولة العباسية اثنتى عشرة سنة فتربى في كنف الدولة وكان عضد أبيه فى ملماته وشدائده وقد اختاره المنصور لولاية اذربيجان سنة ١٥٨ قال له قد أردتك لامر مهم من الامور واخترتك لثغر من الثغور وكانوا لا يولون ثغورهم الا من كانت ثقتهم به عظيمة فسار في ولايته سيرة أبيه في الموصل واستمر بها حتى مات المنصور

وفي سنة ١٦٢ اختاره المهدي ليكون كاتبا ووزيرا لابنه هارون فكان معه يدبر أمره وهارون لا يناديه الا ييا أبى وذلك لان زوجة يحي أم ابنه الفضل أرضعت هارون بلبان ابنها الفضل وأرضعت الخيزران أم هارون الفضل بلبان ابنها هارون وخرج معه فى غزوة الصائفة سنة ١٦٣ وكان على أمر العسكر ونفقاته وكتابته والقيام بأمره وكان فى تلك الغزوة الربيع بن يونس الحاجب غازيا عن المهدى فكان الذى بين الربيع ويحى على حسب ذلك وكان هارون يشاورهما ويعمل برأيهما . ولما ندب المهدى يحى لذلك المهم قال له انى قد تصفحت أبناء شيعتى وأهل دولتى واخترت منهم رجلا لهارون ابنى أضمه اليه ليقوم بأمر عسكره ويتولى كتابته فوقعت

عليك خيرتي له ورأيتك أولى به اذ كنت مربيه وخاصته وقد وليتك كتابته وأمر عسكره

ولما ولى المهدى ابنه هارون المغرب كله سنة ١٦٤ من الانبار الى أفريقية أمر يحي بن خالد ان يتولى ذلك فكانت اليه أعماله ودواوينه يقوم بها ويخلفه على ما يتولى منها واستمر على حاله تلك الى ان مات المهدى ولما ولى الهادى أبقاه على حاله مع هارون حتى اذا خطر ببال الهادي ان يخلع أخاه من ولاية العهد ابتدأت محنة يحى فانه هو الذي جرأه على الاستمساك بحقه الذي منحه اياه أبوه المهدي وكان هارون قد طاب نفسا بالخلع فقال له يحى لا تفعل فقال أليس يترك لى الهنىء والمرىء فهما يسعانني وأعيش مع ابنة عمي وكان هارون يجد بأم جعفر وجدا شديدا فقال له يحى وأين هـذا من الخلافة ولعلك الا يترك هذا فى يدك حتى يخرج أجمع ومنعه من الاجابة . فسعى الى الهادي بيحى وقيل له انه ليس عليك من هارون خلاف وانما يفسده يحى بن برمك فأرسل اليه الهادي وقال له لم تدخل بينى وبين أخي وتفسده على فقال يا أمير المؤمنين من أنا حتى أدخل بينكما انما صيرنى المهدي معه وأمرنى بالقيام بأمره فقمت بما أمرني به ثم أمرتنى بذلك فانتهيت الى أمرك . ثم قال له لما كلمه في أمر الخلع يا أمير المؤمنين انك ان حملت الناس على نكث الايمان هانت عليهم ايمانهم وان تركتهم على بيعة أخيك ثم بايعت لجعفر من بعده كان ذلك أوكد لبيعته فقال صدقت ونصحت ولي في هذا تدبير . ومما قاله له في هذا يا أمير المؤمنين ارأيت ان كان الامر اسأل الله ألا نبلغه وان يقدمنا قبله أتظن ان الناس يسلمون الخلافة لجعفر وهو لم يبلغ الحلم ويرضون به لصلاتهم وحجهم وغزوهم — قال والله ما اظن ذلك — قال يا امير المؤمنين افتأمن ان يسمو اليها اهلك وجلتهم مثل فلان وفلان ويطمع فيها غيرهم فتخرج من ولد ابيك — فقال له نبهتني يايحى — قال وكان يقول — ما كلمت احدا من الخلفاء كان اعقل من موسى — وقال له لو ان هذا الامر لم يعقد لاخيك اما كان ينبغي ان تعقده له فكيف بان تحله عنه وقد عقده المهدي له

ولكن أرى ان تقر هـذا الامر ياأمير المؤمنين على حاله فاذا بلغ جعفر و بلغ الله به أتيته بالرشيد فخلع نفسه وكان أول من يبايعه ويعطيه صفقة يده فقبل الهادي قوله . ولكن يظهر ان الذي كان يحرك الهادي الى خلع الرشيد مما لا تمكن مقاومته فاشتد غضبه منه وضيق عليه فقال يحيى لهارون استأذن في الخروج الى الصيد فاذا خرجت فاستبعد ودافع الايام ففعل ذلك هارون وخرج الى قصر مقاتل فأقام به أربعين ليلة حتى أنكر الهادي أمره وغمه احتباسه وجعل يكتب اليه ويصرفه فتعلل عليه حتى تفاقم الامر وأظهر شتمه وبسط مواليه وقواده السنتهم فيه وكان الذى ينوب عن يحيى والرشيد بالباب الفضل بن يحيى فكان يكتب الى أبيه بكل ما يحدث

ولما لم ير الهادي يحيى بن خالد يرجع عما كان عليه لهارون بما بذل له من اكرام ولا اقطاع ولاصلة بعث اليه يتهدده بالقتل ان لم يكف عنه ولم تزل الحال على ذلك من الخوف والخطر حتي اعتل موسى علته التي مات فيها فقام يحيى بأمر الرشيد خير قيام ودبره أحسن تدبير فقلده الرشيد وزارته وزارة تفويض حيث قال له قلدتك أمر الرعية وأخرجته من عنقي اليك فاحكم فى ذلك بما ترى من الصواب واستعمل من رأيت واعزل من رأيت وأمض الامور على ما ترى ودفع اليه خاتمه وفي ذلك يقول ابراهيم الموصلي

ألم تر ان الشمس كانت سقيمة ... فلما ولى هارون أشرق نورها

بيمن أمين الله هارون ذي الندى ... فهارون واليها ويحيى وزيرها

وكانت الخيزران هي الناظرة في الأمور وكان يحيى يعرض عليها ويصدر عن رأيها

كان يحيى بما أوتيه من كريم الخلق وسماحة النفس وجودة الكتابة غرة فى دولة الرشيد وكان قبلة الآمال ومنتجع الرواد . وقد ضم اليه الرشيد في سنة ١٧١ خاتم الخلافة فاجتمعت له الوزارتان

وكان ليحى أربعة من الاولاد كلهم سادة نجب وهم الفضل وجعفر ومحمد وموسى بنو يحيى

فاما الفضل فهو أكبر الاخوة ولد أواخر سنة ١٤٨ قبل ولادة الرشيد بايام وقد أرضعت كلا منهما أم الآخر ولما شب كان لابيه يحى كما كان يحى لابيه خالد ولما ولى أبوه وزارة الرشيد كان الفضل ينوب عنه فى جلائل أعماله ولما ولد محمد الامين جعله الرشيد فى حجر الفضل حتى يقوم بتربيته فكان له أبا

وفى سنة ١٧٦ كان خروج يحى بن عبد الله بن الحسن ببلاد الديلم فأهم أمره الرشيد واختار له أوثق الناس عنده وهو الفضل بن يحي فولاه كور الجبال والرى وجرجان وطبرستان وقومس ودنباوند والرويان ولم يزل يحتال فى أمر يحى حتى استنزله من معقله بامان من غير أن يريق في ذلك نقطة دم الا حسن السياسة وقد عرف الرشيد ذلك للفضل فبلغ الغاية فى اكرامه ومدحه شعراء العصر بسبب ذلك فقال مروان بن أبي حفصة

ظفرت فلا شلت يد برمكية ... رتقت بها الفتق الذى بين هاشم
على حين أعيا الراتقين التئامه ... فكفوا وقالوا ليس بالمتلائم
فاصبحت قد فازت يداك بخطة ... من المجد باق ذكرها فى المواسم
ومازال قدح الملك يخرج فائزا ... لكم كلما ضمت قداح المساهم

وقال أبو ثمامة الخطيب

للفضل يوم الطالقان وقبله ... يوم أناخ به على خاقان
مامثل يوميه اللذين تواليا ... فى غزوتين توالتا يومان
سد الثغور ورد الفة هاشم ... بعد الشتات فشملها متدان
عصمت حكومته جماعة هاشم ... من أن يجرد بينهما سيفان
تلك الحكومة لاالتى عن لبسها ... عظم النبا وتفرق الحكمان

وفى سنة ١٧٨ ولاه الرشيد خراسان وثغورها فاحسن السيرة بها و بني بها الرباطات والمساجد . غزا ما وراء النهر فخرج اليه ملك اشروسنة وكان ممتنعا . ويقال انه اتخذ بخراسان جندا من العجم سماهم العباسية وجعل ولاءهم له وان عدتهم

بلغت ٥٠٠٠٠٠ رجل وانه قدم منهم بغداد عشرون الف رجل فسموا ببغداد الكرنبية وخلف الباقى منهم بخراسان على أسمائهم ودفاترهم وفي ذلك يقول مروان ابن أبي حفصة

ما الفضل الا شهاب لا أفول له عند الحروب اذا ما تأفل الشهب
حام على ملك قوم غرّ سهمهم من الوراثة فى أيديهم سبب
أمست يدلبني ساقى الحجيج بها كتائب مالها في غيرهم أرب
كتائب لبني العباس قد عرفت ما الف الفضل منها العجم والعرب
أثبت خمس مئين فى عدادهم من الالوف التى أحصت لك الكتب
يقارعون عن القوم الذين هم أولى باحمد فى الفرقان ان نسبوا
ان الجواد ابن يحيي الفضل لا ورق يبقى على جود كفيه ولا ذهب
ما مر يوم له من شد مئزره الا تمول أقوام بما يهب
كم غاية فى الندى والبأس أحرزها للطالبين مداها دونه تعب
يعطى اللهاحين لا يعطى الجواد ولا ينبو اذا سلت الهندية القضب
ولا الرضا والرضا لله غايته الى سوى الحق يدعوه ولا الغضب
قد فاض عرفك حتى مايعادله غيث مغيث ولا بحر له حدب

ولما قدم من خراسان خرج الرشيد الى بستان أبى جعفر يستقبله وتلقاه بنوهاشم والناس من القواد والكتاب والاشراف فوصلهم وأحسن جوائزهم وكان رجوعه بعد أن حسن أحوال خراسان وأذل العاصين باطرافها وذلك سنة ١٧٩

كان الفضل في جميع الاعمال التى أسندت اليه كفأ نزيها وكان من أكثر البرامكة كرما وكان أكرم من أخيه جعفر . وكان الناس يسمونه في بدء أعماله بالوزير الصغير واستمر محمود السيرة مرفوع الرأس كافى المهمات حتى كانت النكبة الآتي ذكرها

وأما جعفر فهو ثانى أولاد يحى وكان من علو القدر ونفاذ الامر وبعد الهمة وعظم المحل وجلالة المنزلة عند الرشيد بحالة انفراد بها ولم يشارك فيها وكان سمح الاخلاق

طلق الوجه ظاهر البشر وأما جوده وسخاؤه وبذله وعطاؤه فكان أشهر من أن يذكر وكان من ذوي الفصاحة والمشهورين باللسن والبلاغة وكان أبوه قد ضمه الى أبي يوسف يعقوب القاضي حتى علمه وفقهه وكان الرشيد يأنس به أكثر من أنسه باخيه الفضل لسهولة أخلاق جعفر وشراسة اخلاق الفضل وقال الرشيد يوما ليحيي ما بال الناس يسمون الفضل الوزير الصغير ولا يسمون جعفرا بذلك فقال يحيي لان الفضل يخلفني قال فضم الى جعفر أعمالا كاعمال الفضل فقال يحى ان خدمتك ومنادمتك يشغلانه عن ذلك فجعل اليه أمر دار الرشيد فسمي بالوزير الصغير وقال له يوما قد أحببت ان أنقل ديوان الخاتم من الفضل الى جعفر وقد استحييت من مكاتبته في هذا المعنى فاكتب أنت اليه فكتب يحيي الى الفضل قد أمر أمير المؤمنين أعلى الله أمره ان تحول الخاتم من يمينك الى شمالك فاجابه الفضل قد سمعت ما أمر به امير المؤمنين في أخي وما انتقلت عني نعمة صارت اليه ولا غربت عني رتبة طلعت عليه فقال جعفر لله در أخي ما أكيس نفسه وأظهر دلائل الفضل عليه وأقوي منة العقل عنده وأوسع في البلاغة ذرعه

وفي سنة ١٧٦ ولاه الرشيد مصر زيادة على ماله من الاعمال في دار السلام فولاها من قبله عمر بن مهران

وفي سنة ١٨٠ هاجت العصبية بالشام بين أهلها وتفاقم أمرها فاغتم الرشيد لذلك فعقد لجعفر بن يحيي على الشام وقال له اما ان تخرج انت او أخرج انا فقال له جعفر بل اقيك بنفسي فشخص في جملة القواد والكراع والسلاح فاصلح بين الناس وقتل زواقيلهم والمتلصصة منهم ولم يدع بها رمحا ولا فرسا فعادوا الى الامن والطمأنينة وأطفأ تلك النائرة وقد مدحه شعراء العصر بسبب ذلك فقال منصور النمري

لقد أوقدت بالشام نيران فتنة　　فهذا أوان الشام تخمد نارها
اذا جاش موج البحر من آل برمك　　عليها خبت شهبانها وشرارها
رماها أمير المؤمنين بجعفر　　وفيه تلافى صدعها وانجبارها

رماها بميمون النقيبة ماجد — تراضى به قحطانها ونزارها
تدلت عليهم صخرة برمكية — دموغ لهام الناكثين انحدارها
غدوت تزجى غاية فى رؤسها — نجوم الثريا والمنايا ثمارها
اذا خفقت راياتها وتجرست — بها الريح هال السامعين انبهارها
فقولوا لاهل الشام لا يسلبنكم — حجاكم طويلات المنى وقصارها
فان أمير المؤمنين بنفسه — أتاكم والا نفسه فخيارها
هو الملك المأمول للبر والتقى — وصولاته لا يستطاع خطارها
وزير أمير المؤمنين وسيفه — وصعدته والحرب تدمى شفارها
ومن تطو أسرار الخليفة دونه — فعندك مأواها وأنت قرارها
وفيت فلم تغدر لقوم بذمة — ولم تدن من حال ينالك عارها
طبيب باحياء الامور اذا التوت — من الدهر أعناق فأنت جبارها
اذا ما ابن يحيى جعفر قصدت له — ملمات خطب لم ترعه كبارها
لقد نشأت بالشام منك غمامة — يؤمل جدواها ويخشى دمارها
فطوبى لاهل الشام ياويل أمها — أتاها حياها أو أتاها بوارها
فان سالموا كانت غمامة نائل — وغيث والا فالدماء قطارها
أبوك أبو الاملاك يحيى بن خالد — أخو الجود والنعمى الكبار صغارها
كأين ترى في البرمكيين من ندى — ومن سابقات مايشق غبارها
غدا من نجوم السعد من حل رحله — اليك وعزت عصبة أنت جارها
عذيرى من الاقدار هل عزماتها — مخلفتى عن جعفر واقتسارها
فعين الاسى مطروقة لفراقه — ونفسى اليه ما ينام ادكارها

ولما شخص جعفر من هذه المهمة ازداد الرشيد له اكراما وخطب جعفر أمامه خطبة جميلة استشفع فيها لاهل الشام واستعطف قلب الرشيد عليهم

وفي هذه السنة ولاه الرشيد خراسان ثم عزله منها بعد عشرين ليلة وولاه

الحرس وكان يخلفه في هذا العمل هرثمة بن أعين وهو من كبار قواد الدولة

وفى سنة ١٨٢ بايع الرشيد لابنه عبد الله المأمون بولاية العهد بعد أخيه محمد الامين وضمه الى جعفر بن يحى ليكون المدبر لامره كما كان الامين مع الفضل بن يحيي وقد جعل الرشيد الامين والى المغرب كله والمأمون والى المشرق كله وكانت الولاة التى ترسل الى الاقاليم من قبل ولى العهد

وأما موسى بن يحى فكان أشجع القوم وأشدهم بأسا لم ينل من الشهرة ماناله أخواه الفضل وجعفر الا انه كان في تلك الدولة عاملا سريا وقائدا باسلا ولاه الرشيد الشام سنة ١٧٦ لما هاجت بها الفتن والعصيان قبل الحادثة التى ذهب فيها أخوه جعفر وضم اليه من القواد والاجناد ومشايخ الكتاب جماعة فلما ورد الشام أقام بها حتى أصلح بين أهلها وسكنت الفتنة واستقام أمرها فانتهى الخبر الى الرشيد بمدينة السلام ورد الرشيد الحكم فيهم الى يحيي بن خالد فعفا عنهم وعما كان بينهم وأقدمهم بغداد فقيل فى موسى بن يحيى

قد هاجت الشام هيجا يشيب رأس وليده
فصب موسى عليها بخيله وجنوده
فدانت الشام لما أتى بسنخ وحيده
هو الجواد الذى بـ ـذ كل جود بجوده
اعداه جود أبيه يحيى وجود جدوده
فجاء موسى بن يحيى بطارف وتليده
ونال موسى ذرى المجـ ـد وهو حشو مهوده
خصصته بمديحي منثوره وقصيده
من البرامك عود له فأكرم بعوده
حووا على الشعر طرا خفيفه ومديده

وقد إتهمه على بن عيسى بن ماهان أمير خراسان من قبل الرشيد بأنه هو

السبب في اضطراب خراسان عليه وأعلمه طاعة أهلها لموسى ومحبتهم اياه وانه يكاتبهم ويعمل على الانسلال اليهم والوثوب به معهم فوقر ذلك في نفس الرشيد عليه وأوحشه منه فلما قدح على بن عيسى فيه أسرع ذلك فى الرشيد وعمل فيه القليل منه ثم ركب موسى دين واختفى من غرمائه فتوهم الرشيد أنه صار الى خراسان كما قيل له فلما صار الى الحيرة في حجه سنة ١٨٧ وافاه موسى من بغداد فحبسه الرشيد بالكوفة عند العباس بن عيسى بن موسى فركبت أم الفضل بن يحيى في أمره ولم يكن الرشيد يردها في شيء فقال يضمنه أبوه فقد رفع الى فيه فضمنه يحيى ودفعه اليه ثم رضي عنه الرشيد وخلع عليه

وأما محمد بن يحيى فكان سريا بعيد الهمة ولم يكن له من الشهرة ما لاخوته .

كانت هذه الاسرة فى عهد الرشيد غرة فى جبين دولته جمعوا من الصفات المحمودة ما استحقوا به ثناء معاصريهم من الكتاب والشعراء والقصاد وقد كانوا فرسان البلاغة وملوك الكلام كما كانوا مبرزين في حلبة الجود والسخاء تهزهم الأريحية عند سماع المدح فيجودون بما ضن به الكرام حتى أنسوا الناس ذكر الاولين

خدمت هذه الاسرة الدولة العباسية من أول نشأتها حيث كان خالد بن برمك من كبار دعاتها وقوادها الى هذه السنة سنة ١٨٧ التى نسطر فيها أخبار نكبتها على يدي الرشيد

نكبة البرامكة

أولع المؤرخون بذكر نكبة البرامكة وأجهدوا قرائحهم في تعرف أسباب ايقاع الرشيد بهم . لم يكن هذا العمل بدعا في الدولة العباسية فان للمنصور والمهدى سلفا فى ذلك فقد أوقع المنصور بوزيره ابي ايوب المورياني قتله هو واقاربه واستصفى أموالهم لخيانة مالية اطلع عليها منهم وأوقع المهدى بوزيره ابى عبيد الله معاوية بن يسار ويعقوب بن داود لوشاية كانت بهما مع نزاهة الاول وحسن سيرته ومع ما كان للمهدى من الولوع بالثاني حتى كتب للجمهور انه اتخذه اخا في الله . كل هذا قد سبق به الرشيد

يرى المؤرخ ان هـذا طبيعة الملك الاستبدادى يحب الملك فيه أن يكون ذ السلطان الذي لا يشارك والحول الذي لا يقاوم واليد الطولى التى لا تضارعها يد وكبار الرجال الذين يعينونهم ويقومون بتأييد سلطانهم كثير منهم لا يقف عند حد فى الانتفاع بتلك السابقة لهم فلا يزالون يرتفعون حتى تتنبه اليهم أفكار الخلفاء بما يلقيه اليهم الحاسدون والواشون من تعظيم سلطانهم على سلطانه واشتداد وطأتهم وعلو أيديهم فتدخل الغيرة في قلوب أولئك الخلفاء والغيرة بدء الشعور بعيوب أولئك الرجال فلا تزال معايبهم تتجسم وهفواتهم الصغيرة تعظم وحينئذ يرى هذا السلطان المستبد أن لا مناص من الايقاع بمن كان سيفه الذي لا ينبو في الخطوب اشفاقا من هذا السيف ان ينقلب عليه فيقتنص منه ملكه الذي دونه كل شيء وليس هذا خاصا بالرشيد والبرامكة بل كل مستبد هذا شأنه مع وزرائه وأعوانه الا قليلا من الوزراء الذين يعلمون طباع الملك فيقفون عند حـد لايهيج الغيرة والحسد فى قلوب الناس وقلب السلطان وهؤلاء أندر من الكبريت الاحمر لانهم يتغلبون على مافي طبع الانسان من عدم الوقوف عند حد فى العظمة والتكاثر فى الاموال على أن أبا عبيد الله وزير المهدى مع نزاهته و بعده عما يوجب غيرة سلطانه جاءه اعداؤه من قبـل ابنه فقالوا للمهدي انه زنديق فقتله المهدي فكان ذلك سببا للوحشة بين المهدي ووزيره

كان يحيى بن خالد هو القائم بامر الرشيد أيام المهدي وكان الرشيد يدعوه بأبي وكانت أم الفضل بن يحيى ظئرا للرشيد وأرضعت الخيزران أم الرشيد الفضل ابن يحيى فكان يحي هو الذى يكفله و يقوم بتربيته من لدن ولد الى أن شب . وهو الذي كانت له اليد الطولى فى اخفاق المساعي التى بذلت لخلع الرشيد من ولاية العهد أيام الهادي فلما تولى الرشيد قلده وزارته وزارة تفويض ثم ضم اليه وزارة الخاتم بعد وفاة الفضل بن سليمان الطوسى فاجتمعت له الوزارتان . وأعانه في العمل أبناؤه الا ان الشهرة ونباهة الذكر كانت للفضل وجعفر مع ما كان لهم جميعا من الكفاية

حتى روى القاضي يحيى بن أكثم قال سمعت المأمون يقول لم يكن كيحيى بن خالد وولده أحد فى الكفاية والبلاغة والجودُ والشجاعة قال القاضي فقلت ياأمير المؤمنين أما الكفاية والبلاغة والسماحة فنعرفها فيهم ففيمن الشجاعة فقال موسى بن يحيى وقد رأيت أن أوليه ثغر السند

ولم يكونوا فى الاتصال بالرشيد على درجة واحدة فكان يحيى صاحب المقام الارفع وهو المدبر أمر المملكة وحاله في سنه وجلالة قدره تبعده عما يدعو اليه الشباب من المنادمة وكان الفضل في الاخلاق مثله فلم يكن يخف على قلب الرشيد لتشبهه بأبيه حتى كان الرشيد قد عتب عليه وثقل مكانه عليه لتركه الشراب معه فكان الفضل يقول لوعلمت أن الماء ينقص من مروءني ماشربته وكان مشغوفا بالسماع . أما جعفر فكان أخف الجميع على قلب الرشيد فكان لذلك يدخل فى منادمته حتى كان أبوه ينهاه ويأمره بترك الانس به فيترك أمر أبيه ويدخل معه فيما يدعوه اليه ويقال انه كتب اليه حين أعيته الحيلة فيه . انى انما أهملتك ليعثر الزمان بك عثرة تعرف بها أمرك وان كنت لأخشى أن تكون التى لا شوي لهـا . وقد كان يحيى قال للرشيد ياأمير المؤمنين أنا والله أكره مداخلة جعفر معك ولست آمن أن ترجع العاقبة فى ذلك على منك فلو أعفيته واقتصرت به على ما يتولاه من جسيم أعمالك كان ذلك واقعا بموافقتي وأمن لك على . قال الرشيد ياأبت ليس بك هذا ولكنك انما تريد أن تقدم عليه الفضل . ومن أجل ذلك كان سلطان جعفر أيام الرشيد عظيما جدا حتى كان يقضى أعظم الامور فلا يرد له الرشيد قضاء

رآهم الناس بعدهذاالعز المتين والشرف الباذخ منكوبين على يد الرشيد ابن يحيى وأخى الفضل وحبيب جعفر . فجعفر مقتول بالعمر من ناحية الأنبار فى آخر ليلة من محرم سنة ١٨٧ بعد اوبة الرشيد من حجه وكتابته عهدي ولديه الامين والمأمون — ثم جسمه مصلوب ببغداد على ثلاثة جسور ثم أحرق . ويحيى بن خالد وأبناؤه الباقون محبوسون . ورأوا مصادرة لكل ما يملكون من عقار ومنقول ورقيق — ورأوا

كتبا أرسلت الى جميع العمال في نواحي البلدان والاعمال بقبض أموالهم وأخذ وكلائهم. وأمرا بالنداء فى جميع البرامكة أن لا امان لمن آواهم الا محمد بن خالد بن برمك وولده وأهله وحشمه فان الرشيد استثناهم لما ظهر له من نصيحة محمد له وعرف براءته مما دخل فيه غيره من البرامكة . رأوا ذلك كله فعرتهم الدهشة وظنوا الظنون وسادت عليهم الخيالات والاوهام ناسبين ذلك لحادث فجائي حدث فغير قلب الرشيد هـذا التغيير وأداه الى هـذا العمل شأن الناس فى الاعصار كافة اذا عصفت بهم عاصفة من حادث شديد الوقع

نسب ذلك بعضهم الى مجرد الملل والغيرة . سئل سعيد بن سالم عن جناية البرامكة الموجبة لغضب الرشيد عليهم فقال والله ما كان منهم ما يوجب بعض عمل الرشيد بهم ولكن طالت أيامهم وكل طويل مملول والله لقد استطال الناس الذين هم خـير الناس أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه وما رأوا مثلها عدلا وامنا وسعة أموال وفتوح وأيام عثمان رضي الله عنه حتى قتلوهما. ورأى الرشيد مع ذلك أنس النعمة بهم وكثرة حمد الناس لهم ورميهم بآمالهم دونه والملوك تتنفس بأقل من ذلك فتعنت عليهم وتجني وطلب مساويهم ووقع منهم بعض الادلال خاصة الفضل وجعفر دون يحيى فانه كان احكم خـبرة واكثر ممارسة للامور ولاذ من اعدائهم بالرشيد كالفضل بن الربيع وغيره فستروا المحاسن وأظهروا القبائح حتى كان ما كان

ونسب ذلك بعضهم الى حادثة يحيى بن عبد الله بن الحسن الذي روينا حديث ذهابه الى بلاد الديلم واستنزال الفضل بن يحيي اياه بأمان الرشيد — ذكر أبو محمد اليزيدي وكان فيما قيل من أعلم الناس بأخبار القوم قال من قال ان الرشيد قتل جعفر ابن يحيى بغير سبب يحيى بن عبد الله بن حسن فلا تصدقه وذلك ان الرشيد دفع يحيى الى جعفر فحبسه ثم دعا به ليلة من الليالى فسأله عن شيء من أمره فأجابه الى ان قال اتق الله فى أمري ولا تتعرض ان يكون خصمك غدا محمدا صلى الله عليه وسلم فوالله ما أحدثت حدثا ولا آويت محدثا فرق عليه وقل اذهب حيث شئت من

بلاد الله . قال وكيف اذهب ولا آمن ان أوخذ بعد قليل فأرد اليك أو الى غيرك فوجه معه من أداه الى مأمنه وبلغ الخبر الفضل بن الربيع من عين كانت له عليه من خاصة خدمه فعلا الأمر فوجده حقا وانكشف عنده فدخل على الرشيد فأخبره فأراه انه لا يعبأ بخبره وقال وما أنت وهذا لا أم لك فلعل ذلك عن أمرى فانكسر الفضل وجاء جعفر فدعا بالغداء فأكلا وجعل يلقمه ويحادثه الى ان كان آخر ما دار بينهما ان قال ما فعل يحى بن عبد الله قال بحاله يا أمير المؤمنين في الحبس الضيق والاكبال — قال بحياتي — فأحجم جعفر وكان من أدق الخلق ذهنا وأصحهم فكرا فهجس في نفسه انه قد علم بشيء من أمره فقال لا وحياتك ياسيدي ولكن أطلقته وعلمت انه لا حياة به ولا مكروه عنده قال نعما فعلت ماعدوت ما كان فى نفسى فلما خرج أتبعه بصره حتى كاد يتوارى عن وجهه ثم قال قتلنى الله بسيف الهدي على عمل الضلالة ان لم أقتلك فكان من امره ما كان

ونسب ذلك بعضهم الى حديث العباسة بنت المهدي التى رواها الطبري عن زاهر بن حرب وتناقلها المؤرخون وزادوا عليها ونقصوا منها وهي حكاية مشهورة

ونحن نريد ان نبين ان نكبة البرامكة ليست حادثة فجائية بل هى حادثة تقدمتها أسباب طويلة انتج بعضها بعضا

كان من موالي العباسيين الفضل بن الربيع وقد قدمنا ذكر ابيه الربيع بن يونس في حياة المنصور والمهدى ولم يكن للفضل في اول خلافة الرشيد شيء من نباهة الذكر لان الخيزران ام الرشيد كانت تمنعه ان يوليه شيئاً ففي اليوم الذي توفيت فيه سنة ١٧٤ دعا به هارون فقال له وحق المهدى اني لأهم لك بالليل بالشيء من التولية وغيرها فتمنعني امى فأطيع امرها فخذ الخاتم من جعفر وكان بيده نيابة عن والده فقال الفضل بن الربيع لاسماعيل بن صبيح الكاتب انا اجل ابا الفضل عن ذلك بأن اكتب اليه وآخذه ولكن أرى ان يبعث به . وهـذه مجاملة سببها ان الفضل يريد منافسة القوم وهم الذين بيدهم كل شيء فأحب ان يتخذ عندهم يدا حتى لا يتخوفونه .

وولى الفضل بن الربيع الخاتم مع نفقات العامة والخاصة وولايات أخرى

في سنة ١٧٦ حصلت حادثة يحيى بن عبد الله فاستنزله الفضل من معقله بأمان الرشيد فحضر الى بغداد وأكرمه الرشيد لكن الزمان لم يطل على هذا الاكرام فان السعاة رفعوا عن يحيي ما يريب وكان الرشيد يرتاب بأقل شيء فرفع اليه ان يحيى لا يزال يدعو الى نفسه وانما ينتظر الفرص وكان أكثر الناس سعاية في ذلك بكار ابن عبد الله الزبيرى وكان شديد البغض لآل أبي طالب ويبلغ عنهم هارون ويسيء بأخبارهم فكان من وراء تلك السعايات ان حبسه الرشيد وضيق عليه وحاول ان يقتله ولم يكن يمنعه الا خيفة ان يقول الناس فيه شيئاً لما كتبه من كتاب الامان الذي استنزل به يحيى فأراد ان يأخذ من العلماء قولا فى ان ذلك الامان لاغ فأحضر أبا البختري القاضي ومحمد بن الحسن الفقيه صاحب أبي يوسف فأما محمد بن الحسن فانه قال له ما تصنع بالامان لو كان محاربا ثم ولى كان آمنا . وليس هذا الجواب موافقا لغرض الرشيد ولذلك احتمل هذه الكامة على محمد — وأما أبو البختري فقال ان الامان منتقض وأقبل يعد وجوه نقضه ولذلك قال له الرشيد أنت قاضى القضاة وأنت أعلم بذلك فخرق الامان

ويظهر ان الفضل بن الربيع كان يحرك هؤلاء السعاة للسعي بيحيى بن عبد الله عند الرشيد لان في قتله اذلالا لمن كان السبب في استنزاله وكان الربيع يحاول أن ينال مركز البرامكة أو يساميهم لما كان يرى من وفرة أموالهم وقوة سلطانهم والذى أوضح لنا أن الفضل بن الربيع هو الذى كان يحرك السعاة بيحيى أن الرشيد لما كان يحاج يحيى نظر يحيى الى الفضل بن الربيع وقال له — هذا والله من آفاتك

كان من المفهوم بعد ذلك ان يجتهد البرامكة في تخليص يحى ففعل جعفر فعلته التى قدمنا ذكرها والرشيد وان كان يحتمل لجعفر كثيرا من الادلال لا يحتمل له هذا لانه متعلق بملكه — ومن الغريب ماورد فى هذه الحادثة من ان الفضل بن الربيع علم بما فعله جعفر من عين كانت له عليه من خاصة خدمه وهذا يبين كيف

كان الفضل بن الربيع يترقب أحوال جعفر حتى اختار من خاص خدمه جاسوسا يعلم أخباره ويلقى بها اليه

كانت هـذه الحادثة سبباً للوشاية بالبرامكة فى أخص صفات الوزراء وهي الاخلاص لملوكهم وذلك طعن منفذ . وقر فى نفس الرشيد شئ من ذلك وان البرامكة يؤثرون مصلحة العلويين على مصلحته وهذه التهمة أشد من تهمة الزندقة عند المهدي وهي التهمة التى استعملها الربيع بن يونس والد الفضل ضد أبي عبيد الله وزير المهدي حتى جعله يقتل ابنه بتلك التهمة

كان من الظاهر بعد ذلك أن تتجسم عيوبهم وتظهر للرشيد مثالبهم وأثرتهم وينفس عليهم ما صار اليهم من عظم الاموال وجلائل المدح وظهرت على الرشيد آثار النفرة منهم واسترابه بهم وظن كل منهم فى الآخر الظنون روى بختيشوع الطبيب عن أبيه جبريل قال اني اقاعد في مجلس الرشيد اذ طلع يحيى بن خالد وكان فيما مضى يدخل بلا اذن فلما دخل وصار بالقرب من الرشيد وسلم رد عليه ردا ضعيفا فعلم يحيى ان أمرهم قد تغير ثم أقبل الرشيد على جبريل فقال ياجبريل يدخل عليك وأنت فى منزلك أحد بلا اذنك فقلت لا ولا يطمع في ذلك قال فما بالنا يدخل علينا بلا اذن فقام يحيى فقال يا أمير المؤمنين قدمنى الله قبلك والله ما ابتدأت ذلك الساعة وما هو الا شئ كان خصني به أمير المؤمنين ورفع به ذكرى حتى ان كنت لأدخل عليه وهو فى فراشه مجردا حينا وحينا في بعض ازاره وما علمت ان أمير المؤمنين كره ما كان يحب واذ قد علمت فاني أكون عنده فى الطبقة الثانية من أهل الاذن أو الثالثة ان أمرني سيدى بذلك قال فاستحيا الرشيد وكان من أرق الخلفاء وجها وعيناه في الارض ما يرفع اليه طرفه ثم قال — ما أردت ماتكره ولكن الناس يقولون . قال جبريل فظننت انه لم يسنح له جواب يرتضيه فاجاب بهذا القول ثم أمسك عنه وخرج يحيى . وحدث محمد بن الفضل مولى سليمان بن أبي جعفر قال دخل يحى بن خالد على الرشيد فقام الغلمان اليه فقال الرشيد لمسرور الخادم مر الغلمان ألايقوموا ليحيى

اذا دخل الدار قال فدخل فلم يقم اليه أحد فاربد لونه قال وكان الغلمان والحجاب اذا رأوه أعرضوا عنه قال فكان ربمـا استسقى الشربة من الماء أو غيره فلا يسقونه وبالحري ان سقوه أن يكون ذلك بعد ان يدعو بها مرارا .

وحدث يعقوب بن اسحاق عن ابراهيم بن المهدى قال أتيت جعفر بن يحي في داره التى ابتناها فقال أما تعجب من منصور بن زياد قال قلت له فماذا قال سألته هل ترى في داري عيبا قال نعم ليس فيها لبنة ولا صنوبرة قال ابراهيم فقلت له الذي يعيبها عندي انك أنفقت عليها نحوا من عشرين الف الف درهم وهو شيء لا آمنه عليك غدا بين يدي أمير المؤمنين — قال هو يعلم انه قد وصلني بأ كثر من ذلك وضعف ذلك سوى ما عرضني له قال قلت ان العدو انمـا يأتيه في هذا من جهة أن يقول له ياأمير المؤمنين اذا انفق على دار عشرين الف الف درهم فاين نفقاته وأين صلاته وأين النوائب التى تنوبه وما ظنك ياأمير المؤمنين بمـا وراء ذلك وهذه جملة سريعة الى القلب والوقف على الحاصل منها صعب — قال ان سمع منى قلت ان لامير المؤمنين نعما على قوم قد كفروها بالستر أو باظهار القليـل من كثيرها وأنا رجل نظرت الى نعمته عندي فوضعتها في رأس جبل ثم قلت للناس تعالوا فانظروا . وحدث زيد بن على عن ابراهيم بن المهدى ان جعفر بن يحي قال له يوما (وكان جعفر صاحبه عند الرشيد وهو الذى قربه منه) اني قد استربت بأمر هذا الرجل (يعني الرشيد) وقد ظننت ان ذلك لسابق سبق لى منه فاردت أن أعتبر ذلك بغـيري فكنت أنت فارمق ذلك فى يومك هـذا وأعلمني ما ترى منه قال ابراهيم ففعلت ذلك فى يومى . فلمـا نهض الرشيد من مجلسه كنت أول أصحابه نهض عنه حتى صرت الى شجر في طريقى فدخلتها ومن معي وأمرتهم باطفاء الشمع وأقبل الندماء يمرون بي واحدا بعد واحـد فأراهم ولا يرونى حتى اذا لم يبق منهم أحد اذا أنا بجعفر قد طلع فلما جاوز الشجر قال اخرج ياحبيبي قال فخرجت فقال ماعندك فقلت حتى تعلمنى كيف علمت انى ههنا قال عرفت عنايتك بما أعنى به وانك لم تكن لتنصرف أو تعلمنى ما رأيت منه

وعلمت انك تكره ان ترى واقفا في مثل هذا الوقت وليس في طريقك موضع أستتر من هذا الموضع فقضيت بأنك فيه ثم قال فهات ما عندك قلت رأيت الرجل يهزل اذا جددت ويجد اذا هزلت قال كذا هو عندي فانصرف ياحبيبي

من كل هذا يتبين ان النفور والريبة وقعت في قلب كل من الطرفين للآخر وتبع ذلك معاملات من الرشيد لم يكن يبعثه عليها الا ماركز في نفسه وأثبته عنده وشاة السوء وأعداء البرامكة . وكان الرشيد يتحين الفرصة للايقاع بهم ولا سيما جعفرا لما كان منه من تخليص يحيى بن عبد الله وهذا دليل عدم الاخلاص للرشيد والبيت العباسي . وقد قام الفضل بن الربيع بما انتدب اليه خير قيام وشايعه فى ذلك كثيرون وكانت زوجة الرشيد زبيدة منحرفة عن جعفر لقيامه فى أمر المأمون فانه هو الذي قام في ولايته العهد وجعله مناظرا لابنها الامين وكانوا يتخوفون من جعفر أن يكون سببا فى الايقاع بين الاخوين اذا حانت منية الرشيد لذلك كانت زبيدة توغر قلب الرشيد على جعفر كلما حانت الفرصة

في سنة ١٨٦ حج الرشيد ولما انصرف من حجه أتى الانبار ومعه يحيى والفضل وجعفر ومحمد بن خالد ودعا موسى بن يحيي فرضي عنه بعد غضبه عليه وفى غاية المحرم أمر فيهم أمره فقتل جعفرا وحبس يحيي وابناه وصادر أموالهم كلها وقد حبس يحيي مع الفضل ومحمد في دير القائم وجعل عليهم حفظة ولم يفرق بينهم وبين عدة من خدمهم ولا ما يحتاجون اليه وصير معهم زبيدة بنت منير أم الفضل وعدة من خدمهم وجواريهم ولم تزل حالهم سهلة الى أن سخط الرشيد على عبد الملك بن صالح فعمهم بالتثقيف بسخطه وجدد له ولهم التهمة عند الرشيد فضيق عليهم

حادثة عبد الملك بن صالح

هو عبد الملك بن صالح بن علي بن عبد الله بن عباس وهو في درجة السفاح والمنصور نسبا رفع الى الرشيد أنه يطلب الخلافة ويطمع فيها وان البرامكة كانوا له عونا والذي سعى به ابنه عبد الرحمن وخادمه قمامة فأحضر الى الرشيد فلما دخل

عليه قال « أكفرا بالنعمة وجحودا لجليل المنة والتكرمة » فقال يا أمير المؤمنين « لقد بؤت اذا بالندم وتعرضت لاستحلال النقم وما ذاك الا بغي حاسد نافسني فيك مودة القرابة وتقديم الولاية انك يا أمير المؤمنين خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمته وأمينه على عترته لك عليها فرض الطاعة وأداء النصيحة ولها عليك العدل في حكمها والتثبت فى حادثها والغفران لذنوبها » فقال له الرشيد «أتضع لي من لسانك وترفع لى من جنانك هذا كاتبك قمامة يخبر بغلك وفساد نيتك فاسمع كلامه » فقال عبد الملك « أعطاك ما ليس في عقده ولعله لا يقدر ان يعضهنى ولا يبهتني بما لم يعرفه منى » واحضر قمامة فقال له الرشيد تقدم غير هائب ولا خائف قال أقول انه عازم على الغدربك والخلاف عليك — فقال عبد الملك أهو كذلك ياقمامة قال نعم لقد أردت ختل أمير المؤمنين — فقال عبد الملك كيف لا يكذب على من خلفي وهو يبهتني في وجهي — فقال له الرشيد وهذا ابنك عبد الرحمن يخبرني بعتوك وفساد نيتك ولو أردت أن أحتج عليك بحجة لم أجد أعدل من هذين لك فبم تدفعهما عنك فقال عبد الملك هو مأمور أوعاق مجبور فان كان مأمورا فمعذور وان كان عاقا ففاجر كفور أخبر الله عزوجل بعداوته وحذر منه بقوله « انمن أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم » قال فنهض الرشيد وهويقول اما امرك فقد وضح ولكنى لا اعجل حتى اعلم الذي يرضى الله فيك فانه الحكم بيني وبينك — فقال عبدالملك رضيت بالله حكما وبأمير المؤمنين حاكما فاني اعلم انه يؤثر كتاب الله على هواه وامر الله على رضاه

فلما كان بعد ذلك جلس مجلسا آخر فسلم عبد الملك لما دخل فلم يرد عليه الرشيد فقال عبد الملك ليس هذا يوما احتج فيه ولا أجاذب منازعا فقال الرشيد لمه — قال لان أوله جرى على غير السنة فأنا أخاف آخره قال وما ذاك قال لم ترد على السلام نصف نصفة العوام فقال الرشيد السلام عليكم اقتداء بالسنة وايثارا للعدل واستعمالا للتحية ثم التفت نحو سليمان بن أبي جعفر وقال

أريد خيانته ويريد قتلي - أما والله لكأني أنظر الى شؤبوبها قد همع وعارضها قد لمع وكاني بالوعيد قد أورى نارًا تستطع فأقلع عن براجم بلا معاصم ورؤس بلا غلاصم فمهلا مهلا بي والله سهل لكم الوعر وصفا لكم القدر وألقت اليكم الامور أثناء أزمتها فنذار لكم نذار قبل حلول داهية خبوط باليد لبوط بالرجل . فقال عبد الملك . اتق الله يا أمير المؤمنين فيما ولاك وفي رعيتك التى استرعاك ولا تجعل الكفر مكان الشكر ولا العقاب موضع الثواب فقد نخلت لك النصيحة ومحضت لك الطاعة وشددت أواخى ملكك بأثقل من ركني يلملم وتركت عدوك مشتغلا فالله الله في ذي رحمك ان تقطعه بعد ان بلاته بظن أفصح الكتاب لى بعضهه أو ببغى باغ ينهش اللحم ويلغ في الدم فقد والله سهلت لك الوعور وذللت لك الامور وجمعت على طاعتك القلوب في الصدور فكم من ليل تمام فيك كابدته ومقام ضيق لك قمته كما قال أخو بنى جعفر بن كلاب

ومقام ضيق فرجته   ببنان ولسان وجدل
لو يقوم الفيل أو فياله   زل عن مثل مقامي وزحل

فقال له الرشيد أما والله لو لا الابقاء على بنى هاشم لضربت عنقك ثم أمر بحبسه فحبس عند الفضل بن الربيع وبعث الى يحيى بن خالد وهو فى السجن ان عبد الملك بن صالح أراد الخروج على ومنازعتى في الملك وقد علمت ذلك فاعلمنى ما عندك فيه فانك ان صدقتنى أعدتك الى حالك فقال والله يا أمير المؤمنين مااطلعت من عبد الملك على شيء من هذا ولو اطلعت عليه لكنت صاحبه دونك لان ملكك كان ملكى وسلطانك كان سلطاني والخير والشر كان فيه على ولى فكيف يجوز لعبد الملك أن يطمع في ذلك مني وهل كنت اذا فعلت ذلك به يفعل بى أكثر من فعلك أعيذك بالله أن تظن بى هذا الظن ولكن كان رجلا محتملا يسرني أن يكون في أهلك مثله فوليته لما أحمدت من مذهبه وملت اليه لادبه واحتماله — فلما أتاه الرسول بهذا أعاد عليه فقال ان أنت لم تقر عليه قتلت ابنك الفضل - فقال له أنت

مسلط علينا فافعل ما شئت على انه ان كان من هذا الامر شيء فالذنب فيه لى فبم يدخل الفضل في ذلك فقال الرسول للفضل قم فانه لا بد لى من انفاذ أمر أمير المؤمنين فيك فلم يشك انه قاتله فودع أباه وقال له ألست راضيا عني قال بلى فرضى الله عنك ففرق بينهما ثلاثة أيام فلما لم يجد عندهما من ذلك شيئا جمعهما كما كانا وكان يأتيهم من أغلظ رسائل لما كان أعداؤهم يقرفونهم به عنده

سقنا هذا لندل على ان التهم التى وجهت الى البرامكة كافة ولا سيما جعفرا سياسية محضة وفي القليل منها ما يكفي عند الرشيد لتغيير نعمتهم والغضب عليهم واذا أضيف الى ذلك غيرة السلطان ممن يساميه فى سلطانه ويشاركه في نفوذ أمره كان ذلك أشد لغضبه ولا حاجة بعد ذلك لحيرة الجمهور حتى تخترع له تلك الحكاية التى يظهر عليها أثر التوليد والاختراع لمخالفتها لاخلاق الرشيد وللتقاليد التى سار عليها بنو العباس فقد كان ممــا عده المنصور على أبي مسلم من ذنوبه وهو من هو فى الدولة وتشييد بنيانها انه كتب اليه يخطب أمينة بنت على بن عبد الله بن عباس ولم يتنازل بنو العباس عن تلك التقاليد في أوقات ضعفهم وتسلط آل سلجوق عليهم فكيف يظن بمثل الرشيد أن يقدم على زواج سري كهذا سببه خسيس هذا بعيد جدا

فيما تتبعناه من أحوال الرشيد كفاية فقد كان وصل من خوفه على ملكه وعلى نفسه الى درجة الوساوس حتى جعله ذلك اذنا يسمع لكل واش ويصدق كل حسود ففقد بذلك زهرة دولته وغرة جبينها بل زهرة الدولة العباسية كلها فقد وزراء ان كتبوا أجادوا وان قادوا الجيوش سدوا الثغور وان ولوا عملا أصلحوا وهكذا الخليفة ذو السلطان المطلق لا يأمنه خدمه بل تراهم حذرين وجلين فما هى الا وشاية تطرق أذنه حتى تراه قد أخذ بخلاقيمهم فأوردهم شر مورد لا يبالى بما سبق لهم من جليل الخدم ولا يؤثر فيه ما يرى لهم من الفضل بل ينسى ذلك كله ثم يتقدم عنده الوشاة وان لم يكن لهم في ميدان الصالحين أثر فقد بقى للرشيد الفضل بن الربيع وهو السبب الوحيد فيما وقع من الشقاق والعداوة بين الامين والمأمون كما سيجيء لان الرجل مفسد

معتاد على اختلاق الاخبار ويرى ذلك يحسن فى آذان الخلفاء فلم يكن يصطبر عن ذلك فأفسد الدولة وأوقع بأس الامة بينها وانا نعوذ بالله من الخذلان ومن وزراء السوء وبطانة السوء فهم آفة الامم وسوس عظامها

تولى وزارة الرشيد بعد البرامكة الفضل بن الربيع فلم يسد المكان الذى سدوا

العلاقات الخارجية

كانت دول هذا العصر الكبيرة دولة الروم الشرقية بالقسطنطينية ودولة شارلكان الذى كان يميل الى تجديد دولة الرومان الغربية ودولة الامويين بالاندلس وحدثت في عهده دولة الادارسة بالمغرب الاقصى كما سبق

مع الروم

من أعمال الرشيد انه عزل الثغور كلها عن الجزيرة وقنسرين وجعلها حيزا واحدا وسميت العواصم وجعل قاعدتها منبجا وأسكنها عبد الملك بن صالح سنة ١٧٣ وسميت العواصم لان المسلمين كانوا يعتصمون بهـا فتعصمهم وتمنعهم من العدو اذا انصرفوا من غزوهم وخرجوا من الثغر وكان من هذه العواصم دُلوك ورعبان وقورس وانطاكية وتيزين وما بين ذلك من الحصون ومن تلك المدن الشهيرة طرسوس وقد عمرت في زمن الرشيد على يد أبى سليم فرج الخادم التركى ونزلها الناس . وكان يغزو الصائفة عبد الرحمن بن عبد الملك بن صالح ووصل سنة ١٧٥ الى اقريطية . وفي سنة ١٨١ غزا الرشيد الصائفة بنفسه فافتتح عنوة حصن الصفصاف وغزا عبد الملك بن صالح فبلغ أنقرة

ولم يزل عبد الملك يرى الثغور وحربها وهو قائم بذلك خير قيام حتى عزاه الرشيد وحبسه بعد نكبة البرامكة سنة ١٨٧ فولى بعده القاسم بن الرشيد وسكن منبجا فغزا الروم وأناخ على حصن قرة وحاصرها ووجه العباس بن جعفر بن محمد ابن الاشعث فأناخ على حصن سنان حتى جهدوا فبعثت الروم تبذل ٣٢٠ رجلا

من أسارى المسلمين على ان يرحل عنهم فأجابهم الى ذلك ورحل عن حصنى قرة وسنان

كان يملك الروم فى ذلك الوقت رينى وكانت في أوائل أمرها تنوب عن ابنها قسطنطين السادس منذ سنة ٧٨٠ ثم استبدت بالملك سنة ٧٩٠ فاتفقت مع الرشيد على الصلح والمهادنة مقابل جزية تقوم بدفعها له وذلك لما رأته من الحاح المسلمين عليها بالحرب وعدم قدرتها على الدفاع لوقوعها بين المسلمين من جهة وبين شارلمان من جهة أخرى وكانتا الدولتين تناوشها العداوة لان شارلمان كان يريد توسيع سلطانه واعادة دولة الرومان الى بهجتها التى كانت لها فى القدم . وفي سنة ٨٠٢ نهضت عليها عصابة رومية فخلعتها عن الملك وملكت مكانها نقفور فعقد معاهدة مع شارلمان عينت فيها تخوم المملكتين ثم كتب الى الرشيد من نقفور ملك الروم الى هارون ملك العرب . أما بعد فان الملكة التي كانت قبلى أقامتك مقام الرخ وأقامت نفسها مكان البيدق فحملت اليك من أموالها ما كنت حقيقا بحمل أمثاله اليهـا لكن ذلك ضعف النساء وحمقهن فاذا قرأت كتابي فاردد ما حصل قبلك من أموالها وافتد نفسك بما يقع به المصادرة لك والا فالسيف بيننا و بينك — فلما قرأ الرشيد الكتاب استفزه الغضب حتى لم يمكن أحدا أن ينظر اليه دون ان يخاطبه وتفرق جلساؤه خوفا من زيادة قول أو فعل يكون منهم واستعجم الرأى على الوزير من ان يشير عليه أو يستبد برأيه دونه فدعا بدواة وكتب على ظهر الكتاب (بسم الله الرحمن الرحيم من هارون أمير المؤمنين الى نقفور كلب الروم قد قرأت كتابك والجواب ماتراه دون ان تسمعه والسلام) ثم شخص من يومه وسار حتى أناخ بباب هرقلة ففتح وغنم واصطفي وافاد وخرب وحرق واصطلم فطلب نقفور الموادعة على خراج يؤديه كل سنة فأجابه الى ذلك فلمـا رجع من غزوته وصار بالرقة نقض نقفور العهد وخان الميثاق وكان البرد شديدا فيئس نقفور من رجعته اليه وجاء الخبر بارتداده عما أخذ عليه فما تهيأ لاحد اخبار الرشيد بذلك اشفاقا عليه وعلى أنفسهم من الكرة فى مثل تلك الايام فاحتيل بشاعر يكنى أبا محمد عبد الله بن يوسف فقال

نقض الذى أعطيته نقفور | وعليه دائرة البوار تدور
أبشر أمير المؤمنين فانه | فتح أتاك به الاله كبير
فلقد تباشرت الرعية ان أتى | بالنقض عنه وافد وبشير
ورجت يمينك ان تعجل غزوة | تشفى النفوس مكانها مذكور
أعطاك جزيته وطأطأ خده | حذر الصوارم والردى محذور
فأجرته من وقعها وكأنها | با كفنا شعل الضرام تطير
وصرفت بالطول العساكر قافلا | عنه وجارك آمن مسرور
نقفور انك حين تغدر أن نأى | عنك الامام لجاهل مغرور
أظننت حين غدرت انك مفلت | هبلتك أمك ما ظننت غرور
القاك حينك في زواخر بحره | فطمت عليك من الامام بحور
ان الامام على اقتسارك قادر | قربت ديارك أم نأت بك دور
ليس الامام وان غفلنا غافل | عما يسوس بحزمه ويدير
ملك تجرد للجهاد بنفسه | فعدوه أبدا به مقهور
يامن يريد رضا الاله بسعيه | والله لا يخفى عليه ضمير
لا نصح ينفع من يغش امامه | والنصح من نصحائه مشكور
نصح الامام على الانام فريضة | ولاهلها كفارة وطهور

فلما فرغ الشاعر من انشاده قال أوقد فعل نقفور ذلك وعلم ان الوزراء قد احتالوا له فى ذلك فكر راجعا فى أشد محنة وأغلظ كافة حتى أناخ بفنائه فلم يبرح حتى رضى وبلغ ما أراد فقال أبو العتاهية

الا نادت هرقلة بالخراب | من الملك الموفق بالصواب
غدا هارون يرعد بالمنايا | ويرقب بالمذكرة القضاب
ورايات يحل النصر فيها | تمر كأنها قطع السحاب
أمير المؤمنين ظفرت فاسلم | وابشر بالغنيمة والاياب

ولم تقف الحروب بين الطرفين بعد ذلك . وفي سنة ١٨٩ حصل فداء بين المسلمين والروم فلم يبق بارض الروم مسلم الا فودى به وهـذا أول فداء كان بين المسلمين والروم فقال مروان بن أبي حفصة يمدح الرشيد

وفكت بك الاسرى التى شيدت لها محابس ما فيها حميم يزورها
على حين أعيا المسلمين فكاكها وقالوا سجون المشركين قبورها

وفي سنة ١٩٠ غزا الرشيد الصائفة بنفسه ففتح هرقلة وبث الجيوش والسرايا بارض الروم وكان دخلها في ١٣٥ ألف مرتزق سوى الاتباع وسوى المطوعة وسوى من لا ديوان له . وكان فتح الرشيد هرقلة في شوال فأضر بها وسبى أهلها بعد مقام ثلاثين يوما عليها وولى حميد بن معيوف سواحل الشام الى مصر فبلغ حميد قبرص فانتصر على أهلها

ثم سار الرشيد الى الطوانة فعسكر بها ثم رحل عنها وخلف عليها عقبة بن جعفر وأمره بابتناء منزل هنالك وبعث نقفور الى الرشيد بالخراج والجزية عن رأسه وولى عهده وبطارقته وسائر أهل بلده خمسين ألف دينار منها عن رأسه أربعة دنانير وعن رأس ابنه استيراق دينارين وكتب مع بطريقين من عظماء بطارقته في جارية من سبي هرقلة كتابا نسخته - لعبد الله هارون أمير المؤمنين من نقفور ملك الروم سلام عليك أما بعد أيها الملك ان لى اليك حاجة لا تضرك فى دينك ولا دنياك هنية يسيرة أن تهب لابني جارية من بنات أهل هرقلة كنت قد خطبتها على ابنى فان رأيت ان تسعفنى بحاجتى فعلت والسلام عليك ورحمة الله وبركاته - واستهداه أيضا طيبا وسرادقا من سرادقاته فأمر الرشيد بطلب الجارية فأحضرت وزينت وأجلست على سرير في مضربه الذي كان نازلا فيه وسلمت الجارية والمضرب بما فيه من الآنية والمتاع الى رسول نقفور وبعث اليه بما سأل من العطر وبعث اليه التمور والاخبصة والزبيب والترياق فسلم ذلك كله رسول الرشيد فأعطاه نقفور وقر دراهم اسلامية على برذون كميت كان مبلغه خمسين الف درهم ومئة ثوب ديباج ومئتى ثوب

بزيون واثنى عشر بازيا وأربعة أكاب من كلاب الصيد وثلاثة براذين – وكان نقفور اشترط ألا يخرب الرشيد حصن ذي الكلاع ولاصملة ولا سنان واشترط الرشيد عليه الا يعمر هرقلة وعلي أن يحمل ثلاث مئة الف دينار

وفى سنة ١٩١ غزا الصائفة هرثمة بن أعين أحد كبار القواد وضم اليه ثلاثين الفا من أهل خراسان ومعه مسرور الخادم واليه النفقات وجميع الامور ماخلا الرياسة ومضى الرشيد الى درب الحدث فرتب هنالك عبد الله بن مالك ورتب سعيد بن سلم بن قتيبة بمرعش فأغارت الروم عليها وأصابوا من المسلمين وانصرفوا وسعيد مقيم بها . وبعث محمد بن يزيد بن مزيد الى طرسوس – فأقام الرشيد بدرب الحدث ثلاثة أيام من شهر رمضان ثم انصرف الى الرقة

وعلى الجملة فان قوة المسلمين كانت في عهد الرشيد ظاهرة ظهورا بينا على الروم لما كان يقوم به الرشيد بنفسه من الغزو المتوالى ومعه عظماء القواد وكبار رجال الدولة من عرب وموال وخراسانية

العلاقة مع أوربا

كان فى عهد الرشيد شارلمان بن بابن وكان ملكا على فرنسا واستولي على لمبارديا وقاد طوائف السكسون التى كانت فى جرمانيا الى الدين العيسوي بعد أن كانت وثنية واستولى على ألمانيا وايتاليا وكان يرغب أن يكون له اسم كبير في الديار الشرقية لتكون درجته فوق درجة نقفور ملك القسطنطينية وكان يرغب أن يكون حاميا للعيسويين في البلاد الاسلامية وخصوصا زائرى القدس فارسل الى بغداد سفراء يستجلبون رضا هرون الرشيد وكان لشارلكان غرض من مصافاة الرشيد فوق ماتقدم وهو أضعاف الدولة الاموية بالاندلس ففاز سفير شارلمان برضا الرشيد فسر بذلك لانه عده فوزا على نقفور ولهذا لما قدم سفير الرشيد على شارلمان قابله بمزيد الاكرام واستفاد شارلمان من ذلك التودد فائدتين الاولى تمكنه من حرب الدولة الاموية بالاندلس وتداخله فى مساعدة الخارجين عليها والثانية نيله رضا الرشيد .

وقد أراد أيضا أن يغتنم غنيمة علمية فان أوربا في ذلك الوقت كانت مهد جهالة لانه بانقراض الرومانيين وغلبة الامم المتبربرة على أوربا انطفأ مصباح العلم أما الحال فى البلاد الاسلامية فكانت على العكس من ذلك علما وعملا سواء فى ذلك بغداد وقرطبة فسعى شارلمان في اصلاح قوانين دولته مقلدا هارون الرشيد وذهب الى أوربا أطباء تعلموا في البلاد الاسلامية وكانوا من اليهود فانتخب منهم شارلمان رجلا يقال له اسحاق وأرسله الى الرشيد مصحوبا ببعض الهدايا وبعد أربع سنين عاد اسحاق مع ثلاثة من رجال الرشيد ومعهم هدايا وهى ساعة وراغنون وفيل وبعض أقمشة نفيسة فلما نظرها رجال شارلمان ظنوها من الامور السحرية واوقعتهم فى حيرة حتى هموا بكسر الساعة فمنعهم الامبراطور وفى ذلك التاريخ اتفقوا على أمور تتعلق بحماية المسيحيين الذين يتوجهون لزيارة القدس

أما علاقة بغداد بقرطبة فكانت شر علاقة اذ أن الرشيد كان ينظر الى بنى أمية نظر الخارجين على دولته فكان يود محوهم ولكن القوم كانوا أكبر من ذلك وأقوى فقاوموا شارلمان مقاومة عظيمة ولم يتمكن أن يفعل بهم شرا

حضارة بغداد في عهد الرشيد

وصلت بغداد في عهد الرشيد الى قمة مجدها ومنتهى فخارها

أما من حيث العمارة فقد فاقت كل حاضرة عرفت لعهدها بنيت فيها القصور الفخمة التى أنفق على بناء بعضها مئات الالوف من الدنانير وتأنق مهندسوها في احكام قواعدها وتنظيم أمكنتها وتشييد بنيانها وصارت قصور الجانب الشرقى بالرصافة تناوح قصور الجانب الغربى كان فى الشرق قصور البرامكة وما انشؤه هناك من الاسواق والجوامع والحمامات وبالجانب الغربى كانت قصور الخلافة التى كانت تبهر الناظرين اتساعا وجمالا وامتدت الابنية امتدادا عظيما حتى صارت بغداد كأنها مدن متلاصقة تبلغ الاربعين على جانبى دجلة واستبحر العمران فيها لما جاءها من البناء وصار سكانها نحو الفي الف نسمة حتى ازدحمت بساكنيها وكانت متاجر

البلدان القاصية تصلها برا وبحرا تجيئها من خراسان وما وراءها ومن الهند والصين ومن الشام والجزيرة والطرق اذ ذاك آمنة والسبل مطمئنة وكان الرشيد هو ووزراؤه حريصين على ذلك كل الحرص

وأما من حيث ثروة الدولة فقد كان يرد على الخليفة ببغداد ما يبقى من خراج الاقاليم الاسلامية بعد أن تقضى جميع حاجها وقد قدر بعض المؤرخين ذلك بنحو أربع مئة ألف ألف درهم يدخل كله بيت مال الخليفة يصرف منه فى مرتبات الوزراء والمساعدين له والباقى يتصرف فيه حسبما يرى وهو شيء جسيم وكان الرشيد أسمح خلفاء بني العباس بالمال يعطى منه عطاء من لا يخشى فقرا للقصاد والشعراء والكتاب والمنتجعين وقد جرى على سننه كبار وزرائه وشيوخ دولته ورؤساء قواده حتى امتلأت الاسفار بذكر عطاياهم التى قد يتردد الانسان فى صحتها وتلك الثروة العظيمة تتداولها الايدى فتروج التجارة وتقضى الحاجات وتكثر المدنية وعلى تلك السنة زادت ثروة الناس بتلك المدينة العظمى واشتد بهم الترف حتى يقال ان جعفر بن يحي بنى قصرا أنفق على بنائه عشرين الف الف درهم وتغالى الناس فى حاجاتهم وتأنقوا في معيشتهم حتى صارت بغداد تبهر أعين زوارها لما يرونه من بعد الشبه بين ماعندهم وما يرون من روائها وبذخ أهلها وانغماسهم فى الملاذ واعطائهم أنفسهم ماتصبو اليه من اللهو والخلاعة شأن كل أمة سالت عليها سيول الثروة

وأما العلم فان بغداد صارت قبلة لطلاب العلم من جميع الامصار الاسلامية يرحلون اليها ليتمموا مابدؤا فيه من العلوم والفنون فهي المدرسة العليا لطلاب العلوم الدينية والعربية على اختلافها فقد كان فيها كبار المحدثين والقراء والفقهاء وحفاظ اللغة وآداب العرب والنحويين وكلهم قائمون بالدرس والافادة لتلاميذهم في المساجد الجامعة التى كانت تعتبر مدارس عليا لتلقى هذه العلوم وقلما كان يتم لانسان وصف عالم أو فقيه أو محدث أو كاتب الا اذا رحل الى بغداد وأخذ عن علمائها

وجميع هؤلاء العلماء كانوا يعيشون عيشا رغدا مما كان يفيضه عليهم الرشيد والبرامكة ومن دونهم من الخير الواسع والبر العميم

ولم تكن بغداد بالمقصرة في علوم الدنيا كالطب والحكمة وغيرهما من سائر الصناعات فقد حشد اليها الاطباء والمهندسون وسائر الصناع من الاقاليم المختلفة فاستفادوا من العلوم من سبقهم من الامم فى المدنية كالفرس وأهل الهند وأهل الروم والصابئة وغيرهم وزادوا على تلك العلوم بما منحوا من المواهب العقلية وسنرجيء الكلام على النهضة العلمية في بغداد الى زمن المأمون

أخلاق الرشيد

كان الرشيد خليفة دينا محافظا على التكاليف الشرعية أتم محافظة فاما صلاته فكان يصلى في كل يوم مائة ركعة الى أن فارق الدنيا الا ان تعرض له علة . وكان له سمير فكه هو ابن أبى مريم المدنى كان الرشيد لايصبر عنه ولا يمل محادثته سمعه مرة يقرأ في صلاته (ومالى لا أعبد الذي فطرني واليه ترجعون) فقال ابن أبي مريم لا أدرى والله فما تملك الرشيد أن ضحك في صلاته ثم التفت اليه وهو كالمغضب فقال ياابن أبى مريم في الصلاة أيضاً ثم قال اياك والقرآن والدين ولك ماشئت بعدهما

وأما صدقته فقد كان كل يوم يتصدق من صلب ماله بالف درهم سوى العطايا التي كانت تهطل علي الناس منه ولم ير خليفة قبله كان أعطى منه للمال ثم المأمون بعده

وأما حجه فانه كان لا يتخلف عنه الا اذا كان مشغولا بالغزو فهو فى كل عام بين غاز وحاج وقد أقام للناس حجهم تسع مرات فى سني حكمه وهي السنوات ٧٠ و ٧٣ و ٧٤ و٧٥ و ٧٧ و ٨٠ و ٨١ و ٨٦ و ٨٨ بعد المائة وكان اذا حج حج معه مئة من الفقهاء وأبنائهم واذا لم يحج أحج عنه ثلثمائة رجل بالنفقة السابغة والكسوة الباهرة

وكان يسمع وعظ الواعظين وهو عند ذلك رقيق القلب سريع الدمعة . دخل عليه ابن السماك الواعظ فقال له الرشيد عظنى فقال يا أمير المؤمنين اتق الله وحده لا شريك له واعلم انك غدا بين يدى الله ربك ثم مصروف الى احدى منزلتين لا ثالث لهما جنة أو نار فبكي هارون حتى اخضلت لحيته فاقبل الفضل بن الربيع على ابن السماك فقال سبحان الله وهل يتخالج أحدا شك في أن أمير المؤمنين مصروف

الى الجنة ان شاء الله لقيامه بحق الله وعدله فى عباده وفضله — فلم يحفل بذلك ابن السماك من قوله ولم يلتفت اليه وأقبل على الرشيد فقال يا أمير المؤمنين ان هذا (يعنى الفضل بن الربيع) ليس والله معك ولا عندك في ذلك اليوم فاتق الله وانظر لنفسك — فبكي هارون حتى أشفق عليه الحاضرون وأفحم الفضل بن الربيع فلم ينطق بحرف — ودخل عليه مرة أخرى فبينا هو عنده اذ استسقى ماء فأتى بقلة من ماء فلما أهوى بها الى فيه ليشربها قال له ابن السماك على رسلك يا أمير المؤمنين بقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم لو منعت هذه الشربة بكم كنت تشتريها — قال بنصف ملكي — قال اشرب هنأك الله — فلما شربها قال له اسألك بقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم لو منعت خروجها من بدنك بماذا كنت تشتريها قال بجميع ملكي قال ابن السماك ان ملكا قيمته شربة ماء لجدير ألا ينافس فيه فبكي هارون — ولا يزال الملوك بخير ما سمعوا الوعظ وتأثروا به ولا تزال الامة بخير ما كان فيها من يعظ الملوك ولا يخشى سطوتهم

وأما جهاد الرشيد فانه كان لا يترك الخروج مع جنده بل كان غالبا في مقدمتهم حتى لا يعتاد الراحة ولا يقعده الترف عن القيام بهذا الواجب حتى كان من ضمن مآثره انه كان يغزو سنة ويحج أخرى قال مروان بن أبي حفصة

وسدت بهارون الثغور وأحكمت ... به من أمور المسلمين المرائر
وما انفك معقودا بنصر لواؤه ... له عسكر عنه تشظى العساكر
وكل ملوك الروم أعطاه جزية ... على الرغم قسرا عن يد وهو صاغر

وكان لهارون قلنسوة مكتوب عليها غاز حاج فكان يلبسها فقال أبو المعالى الكلابى

فمن يطلب لقاءك أو يرده ... فبالحرمين أو أقصى الثغور
ففي أرض العدو على طمِرٍّ ... وفي أرض الترفه فوق كور
وما حاز الثغور سواك خلق ... من المتخلفين على الامور

لذلك كانت الخلافة لعهده في أعلى درجات مهابتها واحترامها في الداخل والخارج

كان الرشيد يقتفى آثار المنصور ويعمل بها الا في بذل المال وكان لا يضيع عنده احسان محسن ولا يؤخر ذلك فى أول ما يجب ثوابه . وكان يحب الشعر والشعراء ويميل الى أهل الادب والفقه ويكره المراء في الدين ويقول هو شيء لا نتيجة له وبالحرى لا يكون فيه ثواب وكان يحب المديح ولاسيما من شاعر فصيح ويشتريه بالثمن الغالى. وعطاياه للشعراء والادباء تكاد تخرج عما يعقل

والخلال التى كانت واضحة في أعماله الشجاعة وشدة الغضب ومعاقبة المسيء بلا شفقة ولا رحمة فكان يقود الجيوش بنفسه الى المواضع المخوفة حتى استقامت له البلاد وهابه كل خارج وثائر وكان اذا بلغه عن أحد من رعيته ما يريبه اشتد غضبه و زاد انفعاله حتى لا يكاد أحد يقدر أن يكلمه واذا وقع عدوه في يده لم يتأخر عن أشد عقوبة له وقلما كان يعفو وبهذا فضله ابنه المأمون كما سيجيء في تاريخه

واشتهر ان الرشيد كان يشرب النبيذ الذى برخص أهل العراق في شربه وكان يسمع الغناء ويثيب عليه أعظم ثواب ولذلك اشتهر فى زمنه أعظم الموسيقيين والمغنين ببغداد ممن لم يأت بعدهم مثلهم كما يرى ذلك من اطلع على الكتاب الموسوم بالاغاني لابى الفرج الاصبهاني

ولامراء أن الرشيد يعد من كبار الخلفاء ونوابغهم لولا كثرة وسواسه بالكائدين له فان ذلك أكثر الجاسوسية في عهده وصار المتقربون يتقربون اليه بما يتلقفونه من أخبار السوء حتى فقد أعظم وزرائه وأحسنهم أثرا وأعلاهم كعبا واستبقى الفضل بن الربيع لان أخباره ما كانت تنقطع عنه يوما

وفاة الرشيد

خرج الرشيد من بغداد في خامس شعبان سنة ١٩٢ قاصدا خراسان عند ما بلغه استفحال أمر رافع بن الليث بما وراء النهر واستخلف ابنه محمدا الامين بمدينة السلام وخرج معه ابنه عبد الله المأمون ولم يزل الرشيد فى مسيره حتى وافى مدينه طوس

فى صفر سنة ١٩٣ وهناك اشتدت به علته ولحق بربه ليلة السبت لثلاث خلون من جمادى الآخرة سنة ١٩٣ وصلى عليه ابنه صالح لان كان المأمون قد سبقه الى مرو حاضرة خراسان ودفن الرشيد بهذه المدينة

وكان للرشيد اثنا عشر ولدا ذكرا وأربع بنات فذكور أولاده محمد الامين من زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر وعلي من زوجته أمة العزيز أم ولد موسى الهادى – وعبد الله المأمون والقاسم المؤتمن ومحمد المعتصم وصالح ومحمد أبو عيسى ومحمد أبو يعقوب ومحمد أبو العباس ومحمد أبو سليمان ومحمد أبو على ومحمد أبو أحمد وهم لامهات أولاد شتى

وتزوج الرشيد بست زوجات مات عن أربع منهن وهن زبيدة وأم محمد بنت صالح المسكين والعباسة بنت سليمان بن المنصور والجرشية بنت عبد الله العثمانية

الخراج

أثر جليل من عهد الرشيد

بين يدينا أثر من أجل الآثار التاريخية الاقتصادية للدولة الاسلامية في النصف الثاني من القرن الثاني وهو كتاب الخراج للفقيه أبي يوسف يعقوب بن ابراهيم الانصارى صاحب الامام أبى حنيفة النعمان بن ثابت (١١٣ – ١٨٢)

كان خليفة المسلمين فى هذا التاريخ خامس بني العباس هارون الرشيد بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور وكان قاضي قضاته أبا يوسف وكان الرشيد خليفة يحب أن يسود العدل بين أمته كما كان أبوه المهدى من قبله ويحب من جهة أخرى أن تنتظم جباية الخراج وغيره من موارد بيت مال المسلمين وأن يكون ذلك على النمط المشروع الذى سنه رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدون المهديون من بعده حتى لا يقع حيف على الرعية فيثقل الجور كاهلهم ويخرب عمرانهم وحتى يكون

بيت المـال قائما بما يجب عليه من مصالح الامة وحفظ ثغورها وتأمين طرقها فكتب الى قاضيه الاكبر رسالة ضمنها أسئلة وطلب منه أن يجيب عنها فقام أبو يوسف بمـا طلب منه خير قيام وكتب جوابه عن تلك الاسئلة في رسالة عظيمة الشان وسمت بكتاب الخراج وهي التى جعلناها موضع محاضرتنا هذه الليلة

لم يكن أبو يوسف في رسالته ذلك الفقيه الجاف الذى هو في خيال الكثير منا يكتب جوابه مبتورا منقولا من مسطر سبق به أو ذلك المفتي الضعيف ينظر الى غرض المستفتى فيجتهد أن تكون فتواه طبق رغبته بل كان ذلك العالم الناصح الذى سبر حال الامة فعرف ما يصلحها وأدرك سر الدين الذي أوحى الله به الى رسوله صلى الله عليه وسلم لاصلاح حال الامة فجال فى ميدانه جولة الفارس العالم بثنيات الطريق وأحاط علما بتاريخ المسائل التى يفتى فيها . فبينا تراه واعظا لا يخاف فى الله لومة لائم يصوغ من كلمات النصح أشدها وقعا وأقواها تأثيرا يوجهها الى امامه مع رعاية الادب واللياقة اذا هومؤرخ يسرد تاريخ الامور المالية وغيرها مما يتكلم فيه وكيف وضعها السلف الصالح وكيف كان غرضهم من ذلك وبينا أنت تستخرج منه لطائف التاريخ اذا بك تراه يستنبط الاحكام من تلك الوقائع مستنا بسنة أسـلافه الطيبين الطاهرين ثم تراه قد سبر ما يفعله ولاة الخراج والجبايات وحواشيهم من المظالم التى يرهقون بها الرعية ويضرون بها العمارة فينبه الامام الى مخازيهم ويرفع صوته طالبا اجراء العدالة فيهم ويشير على امامه بما يجب عليه من رعاية تنفيذ الحق و يبين له كيف يفعل في ذلك ليكون ناجيا بين يدى الله سبحانه وتعالى الذي جعله كفيلا لحقوق الرعية

هذا هو الكتاب الجليل الذى يعطى من قرأه صورة هى غاية الجمال والكمال لذلك الفقيه المقدم

وغرضنا التعريف بمـا انتظمه هذا الكتاب حتى يكون عندنا صورة من الجباية ونظامها فى هذا العصر واذا كان عندنا كلمة نقولها لايضاح شيء ممـا قد يحتاج الى الايضاح نبهنا عليها

انتظمت هذه الرسالة ثلاثة أمور

الاول بيان موارد الدولة على اختلافها حسبما جاءت به الشريعة ومصارف تلك الاموال

الثانى بيان الطريقة المثلى لجباية تلك الاموال

الثالث بيان بعض الواجبات التى يلزم بيت المال القيام بها مما أغفل بعض الولاة القيام به

ونحن نتكلم فى ذلك متبعين هذا الترتيب وقد نخالف طريقة ترتيب الكتاب لان القصد تقريبه الى النفوس من أسهل الطرق

موارد بيت المال

يتبين من كتاب الخراج ان موارد بيت المال تنقسم بحسب ما يجب أن تصرف فيه الى ثلاثة أقسام:

الاول – خمس الغنائم

الثاني – الخراج

الثالث الصدقات

الغنائم

الغنيمة كل ما أصاب المسلمون من عساكر أهل الشرك وما أجلبوا به من المتاع والسلاح والكراع. وجعل منها أبو يوسف ما أصيب من المعادن من قليل أو كثير. والركاز وهو الذهب والفضة الذى خلقه الله فى الارض يوم خلقت – والكنوز العادية التى تصاب فى غير ملك أحد وما أخرج من البحر من الحلى والعنبر كل ذلك حكمه واحد وهو ان للامام خمسه. أما أربعة أخماسه الباقية فتكون حقا للغانمين فيما أصيب مع المحاربين وتكون حقا للواجد فيما عداها

ويقسم الامام أربعة الاخماس على الغانمين سواء في ذلك أهل الديوان والمتطوعون

يضرب للفارس منهم ثلاثة أسهم سهمان له وسهمان لفرسه وللراجل سهم وخالف فى ذلك شيخه أبا خنيفة رحمه الله حيث قال للفارس سهمان وللراجل سهم وقال للرشيد فخذ بأى القولين رأيت واعمل بما ترى أنه أفضل وأخير للمسلمين فان ذلك موسع عليك ان شاء الله ولست أرى أن تقسم للرجل أكثر من فرسين

مصرف الخمس

بين الله فى كتابه مصرف الخمس في الآية من سورة الانفال حيث يقول « واعلموا أنما غنمتم من شيء فان لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ان كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير » قال أبو يوسف فكان ذلك الخمس يقسم في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم لله وللرسول سهم ولذى القربى سهم ولليتامى والمساكين وابن السبيل ثلاثة أسهم ثم قسمه أبو بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم على ثلاثة أسهم وسقط سهم الرسول وسهم ذوي القربى وروى عن ابن عباس أنه قل عرض علينا عمر بن الخطاب أن نزوج من الخمس أيمنا ونقضى عن غارمنا فابينا الا أن يسلمه لنا وأبى علينا . ومع ان ذلك كان رأى علي بن أبي طالب رضى الله عنه فانه قسم الخمس كما قسمه سلفه

وذكر أبو يوسف أن الصحابة اتفقوا أن يجعلوا هذين السهمين سهم الرسول وسهم ذوي القربى في الكراع والسلاح . وروى عن عمر بن عبد العزيز أنه بعث بسهم الرسول وسهم ذوي القربي الى بنى هاشم . قال وكان أبو حنيفة وأكثر فقهائنا يرون أن يقسمه الخليفة على ما قسمه أبو بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم . وأقول رأى الشافعى محمد بن ادريس المطلبى رحمه الله ان سهم الرسول يصرف فى مصالح المسلمين وسهم ذوى القربى يصرف لمن ينتسب الى هاشم والمطلب ابنى عبد مناف دون بنى أخويهم عبد شمس ونوفل ويسوى في العطاء بين الاغنياء والفقراء لان سبب الاستحقاق القرابة ويشترك فيه الرجال والنساء بالتسوية بين الذكر والانثى كما قال المزني وأبو ثور من أصحاب الشافعي وللذكر مثل حظ الانثيين كما قال غيرهما —

و يقول الشافعي قال أحمد الا أنه قال ان ردوه صرف فى السلاح والكراع لفعل أبي بكر وعمر وعثمان

الخراج

المورد الثاني من موارد الخلافة الخراج وهو كلمة تجمع ثلاثة أشياء

(١) وظيفة الارض الخراجية

(٢) جزية أهل الذمة

(٣) ما يأخذه العاشر ممن يمر عليه من تجار أهل الذمة والمستأمنين من أهل الحرب

وظيفة الارض الخراجية

لما غلب المسلمون على سواد العراق وعلى بلاد الجزيرة والشام في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه طلب اليه بعض ذوى الرأى من الصحابة أن يقسم الارض على الغانمين كما قسم ما أصابوه من سلاح ومتاع وأكثروا عليه في ذلك فابى عليهم مستندا الى كتاب الله تعالى الذى جعل هذا الفيء حقا للمسلمين كافة الموجودين منهم والآتين بعدهم ذكر ذلك في سورة الحشر حيث قال — « للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون » « والذين تبوؤا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا و يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » « والذين جاؤا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رؤف رحيم »

فجعل هذا الفيء حقا للمهاجرين والانصار ولمن جاء بعدهم ومن أجل ذلك لم يرض عمر بقسمة الارض بين الغانمين لانه لو قسمها بينهم لم يبق لمن يأتي بعدهم شيء

بل ترك الارضين والانهار بعمالها ليكون ذلك فى أعطيات الجنود وغير ذلك ومن هنا رأى أبو يوسف رحمه الله ان هـذه الارضين المفتوحة عنوة يخير فيها الامام فان شاء قسمها بين الغانمين الذين افتتحوها وان لم ير قسمها ورأى الصلاح في اقرارها في يد أهلها كما فعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه في السواد فله ذلك وهي أرض خراج وليس له أن يأخذها بعد ذلك منهم وهى ملك لهم يتوارثونها ويتبايعونها ويضع عليهم الخراج ولا يكلفون من ذلك مالا يطيقون

واذا يكون حـد أرض الخراج — كل أرض من أرض الاعاجم ظهر عليها المسلمون عنوة فلم يقسمها الامام وأبقاها بايدى أهلها أوصالحهم عليها وصيرهم ذمة

ويخرج من ذلك أنواع من الاراضى لايوضع عليها الخراج وانما تكون أرضا عشرية وهى

(١) كل أرض للعرب غير بنى تغلب

(٢) كل أرض من أرض الاعاجم أسلم عليها أهلها طوعا

(٣) كل أرض من أرض الاعاجم ظهر عليها المسلمون عنوة فقسمها الامام بين الغانمين . وسنبين حكم كل نوع بعد الكلام على أرض الخراج

ما فعله عمر فى أرض الخراج

لما اتضح لعمر رأيه في الارض المغنومة أرسل من قبله من يمسح أرض السواد فبلغت ٣٦،٠٠٠،٠٠٠ جريب فوظف عليها الخراج مقادير معينة من الدراهم والاطعمة حسبما رأى المندوبان اللذان أرسلهما لذلك وهذه الوظيفة تختلف من درهمين الى عشرة دراهم على الجريب فاقلها وظيفة جريب الشعير عليه درهمان وأكثرها وظيفة جريب الكرم والنخل عليه عشرة دراهم في رواية وثمانية في أخرى وبين ذلك جريب الخضر عليه ثلاثة دراهم وجريب الحنطة أربعة دراهم او درهم وقفيز وجريب الرطبة والسمسم والقطن خمسة دراهم وجريب القصب ستة دراهم وقال ان جباية السواد بلغت قبل وفاة عمر بعام ١٠٠،٠٠٠،٠٠٠ درهم

أقول واذا كانت المساحة كما قدمنا والجباية ما ذكرنا يكون متوسط جباية الجريب ٢٫٧٥ درهم وهذا بالضرورة غير قفزان القمح التى كانت تؤخذ على أجربة الحنطة لان هذا المتوسط بدونها لا يصلح الا اذا كان معظم الارض يزرع شعيرا وهو بعيد . وقال ابن خرداذبه ان عمر جبا العراق ١٢٨٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم فيكون متوسط جباية الجريب ٣٫٥٥ درهم وهو أقرب من المفهوم ولابد أنه لم يعتبر فى ذلك أجربة القمح والجريب اسم لستين ذراعا في ستين بذراع الملك وهي ٥٧٫٧٧ م وبالتكسير تكون مساحة الجريب ١٢٠٠ م فكل ثلاثة أجربة ونصف فدان مصرى . ولا بد أن ننبه هنا على ما رأيناه في كتاب صاحب السعادة المفضال يعقوب ارتين باشا الموسوم بالاحكام المرعية فى الاراضى المصرية فانه روى عن قدامة ان الجريب اسم لستين ذراعا في ستين بذراع الملك وظن ان ذراع الملك هي الذراع السوداء فوقع في الخطأ الحسابي الذي أنتج له ان كل أربعة أجربة و $\frac{٤}{٥}$ جريب تعادل فدانا مصريا مع أن هناك اختلافا بين الذراعين كما ذكره الماوردى فى كتابه الاحكام السلطانية حيث قال ان ذراع الملك تزيد على الذراع السوداء بخمس أصابع وثلثى أصبع فتكون ذراعا وثمنا وعشرا أى ذراعا و $\frac{٩}{٤٠}$ وحقق العلامة المرحوم على مبارك باشا أن النسبة بين الذراعين هي $\frac{٥}{٤}$ فتكون ذراع الملك ذراعا وربعا بالسوداء وقد نتج له هذا من تقدير المتقدمين لضلع قاعدة الهرم الاكبر بار بعمئة ذراع بذراع التجار و ٥٠٠ بالذراع السوداء وبقسمة أمتار قاعدة الهرم على ٤٠٠ و ٥٠٠ يخرج هذان الرقمان ٥٧٫٧٧ س وهو طول ذراع الملك و ٤٦٫٢ س وهو طول الذراع السوداء

واذا كان كل ٣٫٦٥ جريب فدانا تكون ضريبة الفدان المزروعة قمحا ١٤ درهما هذا هو الخراج الموظف الذى رآه عمر

لم ير أبو يوسف رحمه الله ما قرره عمر رضى الله عنه فى أمر الخراج حيث جعله وظيفة محدودة أمرا لازما لمن يأتي بعده بل يجوز للخلفاء اذا رأوا مصلحة جمهور الزارعين في المقاسمة أن يعدلوا اليها وقد ناظر أبو يوسف أهل العلم بالخراج فى هذا

الامر فرأى ان تحديد الخراج بكيل مسمى أو دراهم مسماة فيه ضرر على بيت المـال وعلى أهل الخراج . أما وظيفة الطعام فان كان رخصا فاحشا لم يكتف السلطان بالذى وظف عليهم ولم يطب نفسا بالحط عنهم ولم يقو بذلك الجنود ولم تشحن به الثغور - وان كان غلاء فاحشا لا يطيب السلطان نفسا بترك ما يستفضل أهـل الخراج من ذلك والرخص والغلاء بيد الله لا يقومان على أمر واحد وكذلك وظيفة الدراهم . ثم قال . واما ما يدخل على اهل الخراج فيما بينهم فهو التظالم وغلبة القوى على الضعيف ثم قال - ولم أجد شيئا أوفر على بيت المـال ولا أعفى لاهل الخراج من التظالم فيما بينهم وحمل بعضهم على بعض ولا أعفي لهم من عذاب ولاتهم وعمالهم من مقاسمة عادلة خفيفة فيها للسلطان رضا ولاهل الخراج من التظالم فيما بينهم وحمل بعضهم على بعض راحة وفضل . وقد رأي ان يقاسم من عمل الحنطة والشعير من اهل السواد جميعا على خمسين للسيح منه واما الدوالى فعلى خمس ونصف واما النخل والرطاب والكرم والبساتين فعلى الثلث واما غلال الصيف فعلى الربع ولا يؤخذ بالخرص فى شيء من ذلك ولا يحزر عليهم شى منه يباع من التجار ثم تكون المقاسمات في أثمان ذلك أو يقوم ذلك قيمة عادلة لا يكون فيها حمل على اهل الخراج ولا يكون على السلطان ضرر ثم يؤخـذ منهم ما يلزمهم من ذلك اى ذلك كان أخف على اهل الخراج فعل ذلك بهم وان كان البيع وقسمة الثمن بينهم وبين السلطان اخف فعل ذلك بهم . ومن راى ابي يوسف اعفاء مادون خمسة اوسق من الخراج وهي ٣٠٠ صاع او ١٦٠٠ رطل وخالف في ذلك شيخه ابا حنيفة رحمه الله

وقد اشار ابو يوسف بان يكون حصاد الطعام ودياسه من الوسط ولا يحبس الطعام بعد الحصاد الا بقدر ما يمكن الدياس فاذا أمكن الدياس رفع الى البيادر ولا يترك بعد امكانه للدياس يوما واحدا اثلا تذهب به الا كرة والمارة والطير والدواب فيضر ذلك بالخراج واذا رفع الى البيادر وصير أكداسا اخذ في دياسه ولا يحبس الطعام اذا صار فى البيادر الشهر والشهرين والثلاثة لايداس فان فى حبسه في البيادر

ضررا على السلطان وعلى أهل الخراج وبذلك تتأخر العمارة والحرث ولا يخرص عليهم مافى البيادر ولا يحزر عليهم حزرا ثم يؤخذون بنقائص الحزر فان هذا هلاك لاهل الخراج وخراب للبلاد واذا ديس الطعام وذرى قاسمهم

ثم قال ولا يؤخذ أهل الخراج برزق عامل ولا أجر مدى ولا احتفان ولا نزلة ولا حمولة طعام السلطان ولا يؤخذ منهم ثمن صحف ولا قراطيس ولا أجور الفيوج ولا أجور الكيالين ولا مؤنة لاحد عليهم في شيء من ذلك ولا قسمة ولا نائبة سوى الذى وصفنا من المقاسمة ولا يؤخذون بثمن الاتبان ويقاسمون الاتبان على مقاسمة الحنطة والشعير كيلا أو تباع فيقسم ثمنها على ما وصفت من القطيعة فى المقاسمة ولا يؤخذ منهم ما قد يسمونه رواجا لدراهم يؤدونها فى الخراج فانه بلغنى ان الرجل منهم يأتى بالدراهم ليؤديها فى الخراج فيقتطع منها طائفة ويقال هذا رواجها وصرفها ولا يضرب رجل في دراهم خراج ولا يقام على رجله فانه بلغنى انهم يقيمون أهل الخراج في الشمس ويضربونهم الضرب الشديد ويعلقون عليهم الجرار ويقيدونهم بما يمنعهم من الصلاة وهذا عظيم عند الله وشنيع فى الاسلام

من أجل ذلك نرى أبا يوسف رحمه الله دقق كثيرا في أمر من يولى جباية الخراج فاشار على امامه أن يكون والى ذلك فقيها عالما مشاورا لاهل الرأى عفيفا لا يطلع الناس منه على عورة ولا يخاف في الله لومة لائم ما حفظ من حق وأدى من أمانة احتسب به الجنة وما عمل به من غير ذلك خاف عقوبة الله فيما بعد الموت تجوز شهادته ان شهد ولا يخاف منه جور في حكم ان حكم ، ثم قال : اني قد أراهم لا يحتاطون فيمن يولون الخراج اذا لزم الرجل منهم باب أحدهم أياما ولاه رقاب المسلمين وجباية خراجهم ولعله لا يكون عرفه بسلامة ناحية ولا عفاف ولا باستقامة طريقة ولا بغير ذلك ثم قال : وتقدم الى من وليت أن لا يكون عسوفا لاهل عمله ولا محتقرا لهم ولا مستخفا بهم لكن يلبس لهم جلبابا من اللين يشوبه بطرف من الشدة والاستقصاء من غير أن يظلموا ويحملوا مالا يجب عليهم واللين للمسلم والغلظة على الفاجر والعدل على أهل

الذمة وانصاف المظلوم والشدة على الظالم والعفو عن الناس · ثم قال : واني لارجو ان أمرت بذلك وعلم الله من قلبك ايثارك ذلك على غيره ثم بدل منه مبدل أو خالف منه مخالف أن يأخذه الله دونك وأن يكتب لك أجرك وما نويت ان شاء الله . ولتصير مع الوالى الذى وليته قوما من الجند من أهل الدوان فى أعناقهم بيعة على النصح لك فان من نصحك أن لا تظلم رعيتك وتأمر باجراء أرزاقهم عليهم من ديوانهم شهرا بشهر ولاتجري عليهم من الخراج درهما فيما سواه

ثم تكلم بعد ذلك فيما بلغه أنه يحصل من الولاة وحواشيهم من ظلم الناس وعسفهم وأخذهم فوق مالهم ونبه عليه وطلب منه أن يحسم ذلك كله سدا لضرر أهل الخراج ونقص الفيء

ورأى مع هذا كله ان يبعث الامام قوما من أهل الصلاح والعفاف ممن يوثق بدينه وأمانته يسألون عن سيرة العمال وما عملوا به في الخراج وكيف جبوه على ما امروا به وعلى ماوظف على أهل الخراج واستقر فاذا ثبت ذلك عندك وصح أخذوا بما استفضلوا من ذلك أشد الاخذ حتى يؤدوه بعد العقوبة الموجعة والنكال حتى لا يتعدوا ما أمروا به وما عهد اليهم فيه فان كل ما عمل به والى الخراج من الظلم والعسف فانما يحمل على انه قد امر بغيره وان احللت بواحد منهم العقوبة الموجعة انتهى غيره واتقى وخاف وان لم تفعل هذا بهم تعدوا على اهل الخراج واجترؤا على ظلمهم وتعسفهم واخذهم بما لا يجب عليهم واذا صح عندك من العامل والوالى تعد بظلم وعسف وخيانة لك فى رعيتك واحتجان شيء من الفيء او خبث طعمته او سوء سيرته فحرام عليك استعماله والاستعانة به وان تقلده شيئا من امور رعيتك او تشركه في شيء من امرك

تقبيل الارض

كان النظام المتبع في جباية الخراج التقبل وهو جعل شخص من الاشخاص قبيلا اى كفيلا بتحصيل الخراج واخده لنفسه مقابل قدر معلوم يدفعه وكان الناس

يتزايدون فيما يتقبلون به الارض فيستفيد السلطان تعجيل المـال و يستفيد المتقبل الفضل بين مادفعه وما حصله وقد كره أبو يوسف هذا النظام فقال للرشيد ورأيت ألا تقبل شيئا من السواد ولا غير السواد من البلاد فان المتقبل اذا كان في قبالته فضل عن الخراج عسف أهل الخراج وحمل عليهم مالا يجب عليهم وظلمهم وأخذهم بما يجحف بهم ليسلم ممـا يدخل فيه وفي ذلك وأمثاله خراب البلاد وهلاك الرعية والمتقبل لا يبالى بهلاكهم بصلاح أمره في قبالته ولعله يستفضل بعد ما يتقبل به فضلا كثيرا وليس يمكنه ذلك الا بشدة منه على الرعية وضرب لهم شديد واقامته لهم فى الشمس وتعليق الحجارة في الاعناق وعذاب عظيم ينال أهل الخراج مما ليس يجب عليهم من الفساد الذي نهى الله عنه انمـا أمر الله عز وجل أن يؤخذ منهم العفو وليس يحل أن يكلفوا فوق طاقتهم . وانمـا أكره القبالة لانى لا آمن أن يحمل هذا المتقبل على أهل الخراج ما ليس يجب عليهم فيعاملهم بما وصفت لك فيضر ذلك بهم فيخربوا ما عمروا ويدعوه فينكسر الخراج وليس يبقى على الفساد شىء وان يقع مع الصلاح شىء ان الله قد نهى عن الفساد فى الارض فقال — لا تفسدوا فى الارض بعد اصلاحها — وقال — واذا تولى سعي فى الارض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد — وانمـا هلك من هلك من الامم بحبسهم الحق حتى يشتري منهم واظهارهم الظلم حتى يفتدى منهم والحمل على أهل الخراج ماليس بواجب عليهم من الظلم الظاهر الذي لا يحل ولا يسع — واختار أبو يوسف التقبل اذا طلبه أهل القرية أو المصر وقالوا هو أخف علينا بشرط أن يوظف على المتقبل رقيب أمين رزقه من بيت المـال حتى يمنعه من ظلم ان أراده والاعذار الى المتقبل والوالى برفع الظلم عن الرعية والوعيد له ان حملهم مالا طاقة لهم به أو بما ليس بواجب عليهم فان فعل فقوا له بما أوعد به ليكون ذلك زاجرا له وناهيا لغيره ان شاء الله

القطائع

القطائع جمع قطيعة وهي ما يمنحه الامام من الارض لبعض الممتازين بفعالهم من الرعية

قال أبو يوسف رحمه الله ان عمر رضى الله عنه بعد أن فتح العراق اصطفى من أرضه كل ما كان لكسرى ومرازبته وأهل بيته مما لم يكن في يد أحد أو لرجل قتل في الحرب أولحق بارض الحرب وكانت مساحة ما اصطفاه من هذه الارض ٤٫٠٠٠٫٩٠٠ جريب فكان عمر يقطع هذه لمن أقطع قال أبو يوسف وذلك بمنزلة المـال الذى لم يكن لاحد ولا في يد وارث فللامام العادل أن يجيز منه ويعطي من كان له غناء في الاسلام ويضع ذلك موضعه ولايحابي به فكذلك هذه الارض – ثم قال – فاما من أخذ من واحد وأقطع آخر فهذا بمنزلة المال غصبه واحد من واحد وأعطى واحدا

والامام مخير في هذه الارض بين أن يجعلها عشرية أو خراجية ان كانت تسقى من أنهار الخراج – قال أبو يوسف وكل من أقطعه الولاة المهديون أرضا من أرض السواد وأرض العرب والجبال من الاصناف التي ذكرنا ان الامام يقطع منها فلا يحل لمن يأتي بعدهم من الخلفاء أن يرد ذلك ولا يخرجه من يدى من هو فى يده وارثا أو مشتريا – فاما ما أخذ الولاة من يد واحد ارضا وأقطعها آخر فهذا بمنزلة الغاصب غصب واحدا وأعطى آخر فلا يحل للامام ولا يسعه ان يقطع أحدا من الناس حق مسلم ولا معاهد ولا يخرج من يده من ذلك شيئا الا بحق يجب له عليـه فيأخذه بذلك الذي وجب له عليه فيقطعه من أحب من الناس فذلك جائز له والارض عندى بمنزله المـال فللامام ان يجيز من بيت المال من كان له غناء في الاسلام ومن يقوى على العدو و يعمل في ذلك بالذى يرى انه خير للمسلمين واصلح لامرهم وكذلك الارضون يقطع منها الامام من احب من الاصناف التى سميت ولا ارى ان يترك ارضا لا ملك لاحد فيها ولا عمـارة حتى يقطعها الامام فان ذلك أعمر للبلاد وا كثر للخراج – فهذا حد الاقطاع عندى على ما اخبرتك – ومن رأى ابى يوسف ان ارض الاقطاع تجعل عشرية لمـا يلزم صاحب الاقطاع من المؤنة في حفر الانهار وبناء البيوت وعمل الارض

ومن اجل ذلك يكون وارده لبيت مال الصدقات الآتى ذكره

موات الارض

قال أبو يوسف لو ان بلادا فتحت عنوة أو صلحا وفي بعض قراها أرض كثيرة لايرى عليها أثر زراعة ولا بناء ولاحد ليست مرافق لقرية من القرى فهي موات فمن أحياها فهي له وللامام ان يقطع ذلك من أحب وله أن يؤاجره ويعمل بما فيه الصلاح وقد خالف شيخه أبا حنيفة رحمه الله في احياء الموات فان الامام يقول لا يملك المحي ما أحيا الا باذن الامام قال أبو يوسف وانما قال ذلك أبو حنيفة كيلا يتنازع الناس

واذا كانت الارض الموات في أرض العشر أدى عنها العشر وان كانت فى أرض الخراج أدى عنها الخراج وان احتفر لها بئرا أواستنبط لها قناة كانت أرض عشر أما ان ساق اليها ماء الخراج فهى أرض خراج

قال أبو يوسف وأيما قوم من أرض الحرب بادوا وبقيت أرضهم معطلة ولا يعرف لاحد عليها يد ولا دعوى فأخذها رجل وأحياها وأدى عنها العشر أو الخراج فهي له وليس للامام أن يخرجها من يده

وجعل من الارض الموات ما ينكشف من الجزر في دجلة والفرات اذا كان لرجل جزيرة أو أرض تلاصقها فحصنها من الماء وزرع فيها فهى له بشرط ألا يضر ذلك بأحد ولا بسير السفن وكذلك ما عولج من البطائح بضرب المسنيات عليها وقطع ما فيها من القصب وكذلك ما عولج من الآجام - كل ذلك مشروط بالا يكون للارض مالك أو ذو يد أو مرتفق فان المحافظة على حقوق ارتفاق الجمهور مما أكد فيه أبو يوسف حتى منع من انشاء الغروب في دجلة اذا كان ذلك بموضع يضر بسير السفن التى تمر في دجلة ومن فعل من ذلك شيئا فعطبت به سفينة فهو ضامن قال أبو يوسف ولا يترك الامام شيئا من ذلك الا أمر به فهدم ونحى فان فى هذا ضررا عظيما فالفرات ودجلة انما هما بمنزلة طريق المسلمين ليس لاحد أن يحدث فيه شيئا فمن أحدث فيه شيئاً فعطب بذلك عاطب ضمن وقد أرى ان يوكل بذلك رجلا ثقة أمينا حتى يتتبع ذلك ولا يدع من هذه الغروب شيئا فى دجلة والفرات فى موضع

يضر بالسفن ولا يتخوف عليها منه الا نحاه وتوعد أهله على اعادة شيء منه.فان فى ذلك أجرا عظيما . وتكلم طويلا في المياه على اختلاف أنواعها وحقوق الجمهور فيها

المورد الثانى من موارد الخراج جزية أهل الذمة

وضع المسلمون بعد غلبتهم على غير البلاد العربية الجزية على الرؤوس وهـذه الجزية يقابلها من المسلمين الحماية ودفع العدو عنهم . وذلك انهم لم يكونوا يدخلون مع المسلمين فى حروبهم وقد رأيت من السنن العمرية ان من استعين به من غير الملة لا يدفع جزية - روى الطبري في حوادث سنة ٢٢ من الهجرة ان عبدالرحمن بن ربيعة أحد قواد عمر لما توجه من أذربيجان لفتح الباب أتاه ملكه شهر براز فقال له اني بازاء عدو كلب وأمم مختلفة لا ينسبون الى أحساب وليس ينبغي لذي الحسب والعقل ان يعين امثال هؤلاء ولا يستعين بهم على ذوى الاحساب والاصول وذو الحسب قريب ذى الحسب حيث كان ولست من القَبَج فى شيء ولا من الارمن وانكم قد غلبتم على بلادى وامتى فانا اليوم منكم ويدَي مع ايديكم وصَغوي معكم وبارك الله لنا ولكم وجزيتنا اليكم النصر لكم والقيام بما تحبون فلا تذلونا بالجزية فتوهنونا لعدوكم- فقال عبد الرحمن فوقى رجل فسر اليه فجوزه فسار الى سراقة بن عمرو فلقيه بمثل ذلك فقال سراقة قد قبلت ذلك فيمن كان معك على هذا ما دام عليه ولا بد من الجزاء ممن يقيم ولا ينهض فقبل ذلك وصار سنة فيمن كان يحارب العدو من المشركين وفيمن لم يكن عنده الجزاء الا ان يستنفروا فتوضع عنهم جزية تلك السنة . وكتب سراقة الى عمر بن الخطاب بذلك فاجازه وحسنه وكتب لهم سراقة بذلك كتابا

فهذا مما يستأنس به على فكرة المسلمين اذ ذاك في امر الجزية قال ابو يوسف ان الجزية واجبة على جميع اهل الذمة ما خلا نصارى تغلب واهل نجران خاصة والذي يجب عليه الجزية منهم الرجال دون النساء والصبيان ولا تؤخذ من مسكين ولا من أعمى لا حرفة له ولا عمل ولا من مقعد لا مال له ولا من راهب ولا من شيخ كبير لا يستطيع العمل ولا مال له - وليس فى مواشي اهل الذمة من الابل والبقر والغنم زكاة

وقد قدر أبو يوسف الجزية ثلاث فئات ٤٨ درهما على الموسرين و ٢٤ على المتوسطين و ١٢ على العمال

ثم قال أبو يوسف وينبغي يا أمير المؤمنين أيدك الله أن تتقدم فى الرفق باهل ذمة نبيك وابن عمك محمد صلى الله عليه وسلم والتفقد لهم حتى لا يظلموا ولا يؤذوا ولا يكلفوا فوق طاقتهم ولا يؤخذ شيء من أموالهم الا بحق يجب عليهم

أما نصارى بنى تغلب فتؤخذ منهم صدقة المسلمين مضاعفة هكذا فعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه

وقد تكلم أبو يوسف على ما منح لاهل الذمة من الامتيازات في دينهم وكنائسهم وبيعهم فقال انه كان قد جرى الصلح بين المسلمين وأهل الذمة في أداء الجزية على ألا تهدم بيعهم ولا كنائسهم داخل المدينة ولا خارجها وعلى أن يحقنوا لهم دماءهم وعلى ان يقاتلوا من ناوأهم من عدوهم وعلى ان يخرجوا بالصلبان فى أعيادهم وعلى ان يذبوا عنهم فأدوا الجزية على هذا الشرط وجري الصلح بينهم على ألا يحدثوا بناء بيعة ولا كنيسة فافتتحت الشام كلها والحيرة الا أقلها على هذا فلهذا تركت البيع والكنائس ولم تهدم . ثم اقتص تاريخ ما أعطاه القواد لاهل الذمة فى الاقاليم المختلفة من هذه الشروط وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال من ظلم معاهدا أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه وكان فيما تكلم به عمر بن الخطاب رضى الله عنه عند وفاته أوصى الخليفة من بعدى بذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يوفى لهم بعهدهم وان يقاتل من ورائهم ولا يكلفوا فوق طاقتهم

المورد الثالث من موارد الخراج العشور

لم تكن العشور من الموارد التى ذكرها القرآن الكريم ولكنها حدثت في عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه وسبب ذلك ان أبا موسى الاشعرى كتب اليه ان تجارا من قبلنا من المسلمين يأتون أرض الحرب فيأخذون منهم العشر فكتب اليه عمر خذ أنت منهم كما يأخذون من تجار المسلمين وخذ من أهل الذمة نصف العشر ومن

المسلمين من كل أربعين درهما درهما وليس فيما دون المائتين شيء فاذا كانت مائتين ففيها خمسة دراهم وما زاد فبحسابه . وروى ان أهل منبج قوم من أهل الحرب وراء البحر كتبوا الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه دعنا ندخل أرضك تجارا وتعشرنا فشاور عمر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك فأشاروا عليه به فكانوا أول من عشر من أهل الحرب . وبعث زياد بن حدير الاسدى على عشور العراق والشام . فصار ذلك سنة فى المرور بأموال التجارة خاصة وما يرد منها من أهل الحرب وأهل الذمة سبيله سبيل الخراج . أما ما يرد من المسلمين فسبيله سبيل الصدقات ولذلك اذا قال المسلم قد أديت زكاة هذا المال الذي فى يدي صدق فى يمينه

قال أبو يوسف رأيت ان تولى العشور قوما من أهل الصلاح والدين وتأمرهم ألا يتعدوا على الناس فيما يعاملونهم به فلا يظلموهم ولا يأخذون منهم أكثر مما يجب عليهم وان يمتثلوا ما رسمناه لهم ثم تتفقد بعد أمرهم وما يعاملون به من يمر عليهم وهل يجاوزون ما قد أمروا به فان كانوا قد فعلوا ذلك عزلت وعاقبت وأخذتهم بما يصح عندك عليهم لمظلوم أو مأخوذ منه أكثر مما يجب عليه وان كانوا قد انتهوا الى ما أمروا به وتجنبوا ظلم المسلم والمعاهد أثبتهم على ذلك وأحسنت اليهم فانك متى أثبت على حسن السيرة والامانة وعاقبت على الظلم والتعدي بما تأمر به في الرعية يزيد المحسن فى احسانه ونصحه وارتدع الظالم عن معاودة الظلم والتعدي وأمرتهم ان يضيفوا الاموال بعضها الى بعض بالقيمة

مصاريف بيت مال الخراج

الخراج الذي يتكون مما ذكرنا من هذه الموارد الثلاث هو دعامة مالية الدولة ومصرفه المصالح العامة لانه حق للجمهور كله وهذه المصالح بحسب مايرى الامام وقد ذكر أبو يوسف بعضها لورودها فى أسئلة الخليفة وهي

أولا — أرزاق القضاة والولاة والعمال قال أبو يوسف فيجري على والى كل مدينة وقاضيها بقدر ما يحتمل وكل رجل تصيره في عمل المسلمين فأجر عليه من بيت

مالهم ولا تجر على الولاة والقضاة من مال الصدقة شيئا الا والى الصدقة فانه يجرى عليه منها فاما الزيادة فى أرزاق القضاة والعمال والولاة والنقصان مما يجرى عليهم فذلك اليك من رأيت ان تزيده منهم فى رزقه زدت ومن رأيت ان تحط من رزقه حططت ارجو ان يكون ذلك موسعا عليك وكل ما رأيت ان الله تعالى يصلح به أمر الرعية فافعله ولا تؤخره فاني أرجو لك بذلك أعظم الاجر وأفضل الثواب

وقد سأله الرشيد عن رأيه فيما يجرى على القاضي اذا صار اليه ميراث من مواريث الخلفاء وبنى هاشم من الذى يصير اليه ويوكل من قبله من يقوم بضياعهم ومالهم فاجاب سلبا وقال انما يعطي القاضى رزقه من بيت المال ليكون قيما للفقير والغنى والصغير والكبير ولا يأخذ من مال الشريف ولا الوضيع اذا صارت اليه مواريثه رزقا ولم تزل الخلفاء تجري للقضاة الارزاق من بيت مال المسلمين فاما من يوكل بالقيام بتلك المواريث في حفظها والقيام بها فيجري عليهم من الرزق بقدر ما يحتمل ماهم فيه فلا يجحف بمال الوارث فيذهب به ويأكله الوكلاء والامناء ويبقى الوارث هالكا وما أظن كثيرا من القضاة والله أعلم يبالى بما صنع وكيفما عمل ولا يبالى أكثر من معهم ان يفقروا اليتيم ويهلكوا الوارث الا من وفقه الله تعالى منهم

ثانيًا – اعطيات الجنود وهي مرتبات العسكر

لم يكن فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم مرتبات معينة للجنود الذين كانوا يتألفون من جميع أفراد المسلمين وانما كانوا يأخذون مالهم فى أربعة أخماس ما يغنمون وفيما يرد من خراج الاراضى التى أبقيت فى أيدى أهلها كارض خيبر ولما ولى أبو بكر رضى الله عنه أعطى الناس وسوى بينهم في العطاء قائلا هذا معاش فالاسوة فيه خير من الأثرة فلما ولى عمر رضى الله عنه رأى في ذلك غير رأي أبي بكر وقسم العطاء مفضلا الا سبق فالاسبق وهذا قوله بنصه : والله الذى لا اله الاهو ما أحد الا وله في هذا المال حق أعطيه أومنعه وما أحد أحق به من أحد الا عبد مملوك وما أنا فيه الا كأحدكم ولكنا على منازلنا من كتاب الله عز وجل وقسمنا من رسول الله صلى

الله عليه وسلم فالرجل وتلاده فى الاسلام والرجل وقدمه فى الاسلام والرجل وغناؤه فى الاسلام والرجل وحاجته في الاسلام . بناء على هذه القواعد فرض العطاء فكانت المرتبات كما يأتي :

١٢٠٠٠	درهم لازواج النبى صلى الله عليه وسلم ولعمه العباس
٥٠٠٠	لمن شهد بدرا من المهاجرين والانصار والحق بهم الحسن والحسين
٤٠٠٠	لمن كان اسلامه كاسلام أهل بدر ولم يشهدها وألحق بهم أسامة بن زيد
٣٠٠٠	لعبد الله بن عمر ولبعض أبناء المهاجرين والانصار كعمر بن أبى سلمة
٢٠٠٠	لابناء المهاجرين والانصار
٨٠٠	لاهل مكة
٤٠٠	و ٣٠٠ لسائر الناس
٦٠٠	و ٤٠٠ و ٣٠٠ و ٢٠٠ لنساء المهاجرين والانصار

وكان يفرض لامراء الجيوش والقرى في العطاء ما بين ٩٠٠٠ و ٨٠٠٠ و ٧٠٠٠ على قدر ما يصلحهم من الطعام وما يقومون به من الامور وكان للمنفوس اذا طرحته أمه ١٠ درهم فاذا ترعرع بلغ به ٢٠٠ فاذا بلغ زاده

وكان للعطاء ديوان تسجل فيه أسماء المرتزقين ويقبضون عطاءهم على رأس السنة حسبما هو وارد فيه والذي أوجد هذا الديوان هو عمر بن الخطاب رضى الله عنه

ولما كثر الناس عن الحاجة واضطرتهم المدنية الى ان يشتغل كثير من الامة بغير الجهاد من الصنائع اقتصر الديوان على ما تقوم به حاجة الامة من الجيش وكان بعض من ليس مرتزقا فى الديوان يدعوه حبه للجهاد ان يذهب مع الجيش فلا يمنع ويسمون هذا متطوعا وكانوا كثيرين يلازمون الثغور ويخرجون مع الجيوش

ثالثاً — كري الانهار واصلاح مجاريها

قال أبو يوسف رحمه الله واذا احتاج أهل السواد الى كرى أنهارهم العظام التى تأخذ من دجلة والفرات كريت لهم وكانت النفقة من بيت المال ومن أهل الخراج ولا يحمل ذلك كله على أهل الخراج

وأما الانهار التى يجرونها الى أرضهم ومزارعهم وكرومهم ورطابهم وبساتينهم ومباقلهم وما أشبه ذلك فكريها عليهم خاصة ليس على بيت المال من ذلك شيء .

فأما البثوق والمسنيات والبريدات التى تكون فى دجلة والفرات وغيرها من الانهار العظام فان النفقة على هذا كله من بيت المال لا يحمل على أهل الخراج من ذلك شيء لان مصلحة هذا على الامام خاصة لانه أمر عام لجميع المسلمين فالنفقة عليه من بيت المال لان عطب الارضين من هذا وشبهه وانما يدخل الضرر من ذلك على الخراج ولا يولى النفقة على ذلك الا رجل يخاف الله يعمل في ذلك بما يجب عليه لله قد عرفت أمانته وحمدت مذهبه ولا تول من يخونك ويعمل في ذلك بما لا يحل ولا يسعه يأخذ المال من بيت المال لنفسه ومن معه أو يضيع المواضع المخوفة ويهملها ولا يعمل عليها شيئا يحكمها به حتى تنفجر فتغرق ما للناس من الغلات وتخرب منازلهم وقراهم . ثم وجه من يتعرف ما يعمل به واليك فى هذه المواضع المخوفة منها وما يمسك من العمل عليها مما قد يحتاج الى العمل وما تفجر وما السبب في انفجاره ثم عامله حسبما يأتيك الخبر عنه من حمد لامره أو ذم وانكار وتأديب

رابعا — حفر الترع بعد التثبت من نفعها بواسطة من لهم بصيرة ومعرفة فاذا تبين الامام ذلك أمر بحفر تلك الترع وجعل النفقة من بيت المال ولا يحمل النفقة على أهل البلد فانهم ان يعمروا خير من أن يخربوا وأن يغروا خير من أن يذهب مالهم ويعجزوا .

خامسا — الاجراء على المسجونين

قال جوابا لسؤال للرشيد عنهم لابد لمن كان في مثل حالهم اذا لم يكن له شيء يأكل منه لا مال ولا وجه شيء يقيم به بدنه أن يجرى عليه من الصدقة أو من بيت المال من أى الوجهين فعلت فذلك موسع عليك وأحب الى أن تجرى من بيت المال على كل واحد منهم ما يقوته فانه لا يحل ولا يسع الا ذلك قال والاسير من أسرى المشركين لا بد أن يطعم ويحسن اليه حتى يحكم فيه فكيف برجل مسلم قد أخطأ

وأذنب يترك يموت جوعا وانما حمله علي ما صار اليه القضاء أو الجهل ولم تزل الخلفاء تجرى على أهل السجون ما يقوتهم في طعامهم وأدمهم وكسوتهم الشتاء والصيف وأول من فعل ذلك على بن أبى طالب كرم الله وجهه بالعراق ثم فعله معاوية بالشام ثم فعله الخلفاء من بعده

قال أبو يوسف فمر بالتقدير لهم ما يقوتهم فى طعامهم وأدمهم وصير ذلك دراهم تجرى عليهم فى كل شهر يدفع ذلك اليهم فانك ان أجريت عليهم الخبز ذهب به ولاة السجن والقوام والجلاوزة وول ذلك رجلا من أهل الخير والصلاح يثبت اسماء من فى السجن من تجري عليهم الصدقة وتكون الاسماء عنده ويدفع ذلك اليهم شهرا بشهر يقعد ويدعو باسم رجل رجل ويدفع ذلك اليه في يده فمن كان منهم أطلق وخلى سبيله رد ما يجري عليه ويكون للاجراء عشرة دراهم فى الشهر لكل واحد – وليس كل من في السجن يحتاج الى ان يجري عليه وكسوتهم في الشتاء قميص وكساء وفي الصيف قميص وازار ويجري على النساء مثل ذلك وكسوتهن في الشتاء قميص ومقنعة وكساء وفى الصيف قميص وازار ومقنعة وأغنهم عن الخروج فى السلاسل يتصدق عليهم الناس فان هذا عظيم ان يكون قوم من المسلمين قد أذنبوا واخطؤا وقضى الله عليهم ماهم فيه فحبسوا يخرجون فى السلاسل يتصدقون وماأظن اهل الشرك يفعلون هذا باسارى المسلمين الذين في ايديهم فكيف ينبغى أن يفعل هذا باهل الاسلام وانما صاروا الى الخروج في السلاسل يتصدقون لما هم فيه من جهد الجوع فربما اصابوا ما يأكلون وربما لم يصيبوا وان ابن آدم لم يعر من الذنوب فتفقد امرهم ومر بالاجراء عليهم مثل مافسرت لك ومن مات منهم ولم يكن له ولى ولا قرابة غسل وكفن من بيت المال وصلى عليه ودفن فانه بلغني واخبرني به الثقات انه ربما مات منهم الميت الغريب فمكث في السجن اليوم واليومين حتى يستأمر الوالى في دفنه وحتى يجمع اهل السجن من عندهم ما يتصدقون ويكترون من يحمله الى المقابر فيدفن بلا غسل ولا كفن ولا صلاة فما اعظم هذا فى الاسلام واهله

المورد الثالث من موارد بيت المال الصدقات وهي ما يؤخذ من المسلمين .

أولا من انعامهم وهي الابل والبقر والغنم على حساب معين في الفقه الاسلامي

ثانيا من نقودهم التي هي الذهب والفضة باعتبار ٥و٢ من كل مئة

ثالثا من أموال تجاراتهم ومنها ما يمرون به على العاشر يؤخذ منهم كذلك باعتبار ٥و٢ من كل مئة

رابعا ما يؤخذ من حاصلاتهم الزراعية وهي اعشار الارض يؤخذ مما سقى بدون مؤنة العشر ومما سقى بمؤنة نصف العشر

قال أبو يوسف رحمه الله ومر يا أمير المؤمنين باختيار رجل أمين ثقة عفيف ناصح مأمون عليك وعلى رعيتك فوله جمع الصدقات في البلدان ومره فليوجه فيها أقواما يرتضيهم ويسأل عن مذاهبهم وطرائقهم واماناتهم يجمعون اليه صدقات البلدان فاذا جمعت اليه أمرته فيها بما أمر الله جل ثناؤه به فأنفذه ولا تولها عمال الخراج فان مال الصدقة لا ينبغي أن يدخل في مال الخراج وقد بلغني ان عمال الخراج يبعثون رجالا من قبلهم في الصدقات فيظلمون ويعسفون ويأتون ما لا يحل ولا يسع وانما ينبغي أن يتخير للصدقة أهل العفاف والصلاح فاذا وليتها رجلا ووجه من قبله من يوثق بدينه وأمانته أجريت عليهم من الرزق بقدر ما ترى ولا تجر عليهم ما يستغرق أكثر الصدقة

مصارف الزكاة

الزكاة تصرف بالنص الى ثمانية أصناف من الناس قال الله تعالى « انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله »

قال أبو يوسف فالمؤلفة قلوبهم قد ذهبوا (وخالف الحنفية في ذلك أكثر الأئمة) والعاملون عليها يعطيهم الامام ما يكفيهم من غير سرف ولا تقتير وقسمت بقية الصدقات بينهم فللفقراء والمساكين سهم والغارمون وهم الذين لا يقدرون على

قضاء ديونهم سهم وفي أبناء السبيل المنقطع بهم سهم يحملون به ويعانون وفي الرقاب سهم وسهم في اصلاح طرق المسلمين ويقسم سهم الفقراء والمساكين من صدقة ما حول كل مدينة فى أهلها ولا يخرج منها فيتصدق به على أهـل مدينة أخرى وأما غيره فيصنع به الامام ما أحب من هذه الوجوه التى سمي الله تعالى في كتابه وان صيرها في صنف واحد ممن سمى الله تعالى أجزأه

٦ — الامين

هو محمد الامين بن هارون الرشيد وأمه زبيدة بنت جعفر بن المنصور فهو هاشمى أبا وأما ولم يتفق ذلك لغيره من الخلفاء الا لعلى بن أبي طالب رضى الله عنه ولابنه الحسن

ولد سنة ١٧٠ من الهجرة وولاه أبوه العهد سنة ١٧٥ وكان قائما مقام أبيه ببغداد حينما سافر الى خراسان ولما مات الرشيد بطوس بويع له فى عسكر الرشيد بالخلافة ووصل الخبر الى بغداد فبايعه الخاصة والعامة واستمر في الخلافة الى أن قتل في ٢٥ محرم سنة ١٩٨ (٥ سبتمبر سنة ٨١٣) فكانت مدته أربع سنوات الا أربعة أشهر تقريبا

الحال الداخلية لذلك العهد

كانت هذه المدة التى وليها الامين مملوءة بالمشاكل والاضطرابات بين الاخوين الأمين والمأمون وكادت الامة تذهب بينهما ضياعا وسبب ذلك مافعله الرشيد من ولاية العهد لأولاده الثلاثة أحدهم بعد الآخر وقسمته البلاد بينهم كما قدمنا ونحن نبين كيف ابتدأت المشاكل وكيف انتهت ونبين آثارها في الأمة

لما كان الرشيد بطوس جدد البيعة لابنه المأمون على القواد الذين معه وأشهد

من معه من القواد وسائر الناس ان جميع من معه من الجند مضمومون الى المأمون وان جميع مامعه من مال وسلاح وآلة وغير ذلك المأمون . ولما علم الامين وهو ببغداد مرض أبيه وانه لما به أرسل من يفيده الاخبار كل يوم وأرسل كتبا تسلم الى من أرسلت اليه بعد وفاة الرشيد . فلما توفى كان من تلك الكتب كتاب للمأمون يعزيه فيه عن أبيه ويأمره ان يأخذ البيعة على من قبله للامين بالخلافة والمأمون بولاية العهد وللقاسم المؤتمن بعده . ومنها كتاب لصالح بن الرشيد وقد كان أكبر ولد الرشيد الذين معه وهو الذى صلى عليه حين مات وقد أمره فيه بالاجتهاد والتشمير وأن يأخذ البيعة على من معه للامين ثم المأمون ثم المؤتمن على الشريطة التى اشترطها الرشيد وأمره بالمسير اليه مع جميع الجنود والذخائر والسلاح وقال له فى الكتاب واياك أن تنفذ رأيا أو تبرم أمرا الا برأى شيخك وبقية آبائك الفضل بن الربيع . وفيه . وان أمرت لاهل العسكر بعطاء أو ارزاق فليكن الفضل بن الربيع المتولى لاعطائهم على دواوين يتخذها لنفسه بمحضر من أصحاب الدواوين فان الفضل بن الربيع لم يزل مثل ذلك لمهمات الامور

لما قرأ الذين وردت عليهم كتب محمد الامين بطوس من القواد والجند وأولاد هارون تشاوروا فى اللحاق بمحمد فقال الفضل بن الربيع لا أدع ملكا حاضرا لآخر لا يدرى ما يكون من أمره وأمر الناس بالرحيل ففعلوا ذلك محبة منهم للحوق باهلهم ومنازلهم ببغداد وتركوا العهود التى كانت أخذت عليهم المأمون

انتهى خبر ذلك الي المأمون وهو بمرو فجمع من معه من قواد أبيه واستشارهم فاشاروا عليه ان يلحقهم فى ألفي فارس تجريدة فيردهم فدخل عليه الفضل بن سهل وهو عنده من أعظم الناس قدرا وأخصهم به فقال له ان فعلت ما أشاروا به عليك جعلت هؤلاء هدية الى محمد ولكن الرأي ان تكتب اليهم كتابا وتوجه اليهم رسولا فتذكرهم البيعة وتسألهم الوفاء وتحذرهم الحنث وما يلزمهم فى ذلك فى الدين والدنيا ففعل ذلك المأمون ووصل الكتاب والقوم بنيسابور قد رحلوا ثلاث مراحل فلم يفد هذا الجواب فائدة وتم الفضل بن الربيع على سيره

لما جاء المأمون خبر ذلك كان الفضل بن سهل حاضرا فازال عنه الانزعاج وأمله في الخلافة فجعل أمره اليه وأمره أن يقوم به بعد ان رفضه كبار القواد الذين معه . فكان من أول تدبيره ان يبعث الى من بالحضرة من الفقهاء فيدعوهم الى الحق والعمل به واحياء السنة وان يقعد على اللبود ويرد المظالم ليكون بذلك قريبا من نفوس الجمهور ففعل

ولم يبدأ المأمون أخاه بشيء يريبه بل تواترت كتبه اليه بالتعظيم والهدايا اليه من طرف خراسان من المتاع والآنية والمسك والدواب والسلاح

أما الامر في بغداد فقد كان يدل على شر مستطير فان الفضل بن الربيع بعد مقدمه العراق ناكثا للعهود التي كان الرشيد أخذها عليه للمأمون رأى ان الخلافة ان افضت الى المأمون يوما وهو حي لم يبق عليه فحث محمدا على خلعه وان يولى العهد من بعده ابنه موسى ولم يكن ذلك من رأى محمد ولا عزمه بل كان عزمه الوفاء لأخويه بما أخذ عليه الرشيد لهما من العهود فلم يزل به الفضل حتى أزاله عن رأيه فأول ما بدأ به ان كتب الي جميع العمال في الامصار كلها بالدعاء لابنه موسى بالامرة بعد الدعاء له وللمأمون والقاسم . فلما بلغ ذلك المأمون وبلغه ان الأمين عزل أخاه القاسم عما كان الرشيد ولاه من الاعمال وأقدمه بغداد علم انه يدبر في خلعه فقطع البريد عنه وأسقط اسمه من الطراز

كرر الامين تجربته فكتب الى العباس بن عبد الله بن مالك وهو عامل المأمون على الري وأمره ان يبعث اليه بغرائب غروس الري مريدا بذلك امتحانه فبعث اليه بما طلب فبلغ ذلك المأمون فعزل العباس عن ولايته

ثم بعث الأمين الى المأمون ثلاثة نفر أحدهم العباس بن موسى بن عيسى والغرض من هذا الوفد ان يطلبوا من المأمون رضاه بتقديم موسى بن الامين على نفسه في ولاية العهد فلما اطلع المأمون على مرادهم رد ذلك وأباه وعرض الفضل بن سهل على العباس بن موسى ان يكون عونا لهم ومنوه الاماني ان هو أجاب الى ذلك فرضى

وكان بعد ذلك يكتب اليهم بالاخبار ويشير عليهم بالرأى . عاد الوفد الى الامين وأخبروه بامتناع المأمون

لم يخفض ذلك من غلواء الفضل بن الربيع بل ما زال يلح على الامين حتى رضى ان يخلع المأمون ويبايع لابنه موسى بولاية العهد . ونهى الفضل عن ذكر المأمون والقاسم والدعاء لهما على شىء من المنابر ووجه الى مكة كتابا مع رسوله من حجبة البيت فى أخذ الكتابين اللذين كتبهما هارون وجعلهما بالكعبة فأحضرهما الى بغداد فمزقا

وكان الامين قبل ان يكاشف أخاه بذات نفسه أرسل اليه يسأله ان يتجافى له عن كور من كور خراسان سماها وان يوجه العمال اليها من قبل محمد وان يحتمل توجيه رجل من قبله يوليه البريد عليه ليكتب اليه بخبره فكتب اليه جواب ذلك

بلغنى كتاب أمير المؤمنين يسأل التجافي عن مواضع سماها مما أثبته الرشيد في العقد وجعل أمره الىّ وما أمر رآه أمير المؤمنين أحد يجاوز أكثره غير ان الذي جعل الى الطرف الذى أنابه لاظنين في النظر لعامته ولا جاهل بما أسند الى من أمره ولو لم يكن ذلك مثبتا بالعهود والمواثيق المأخوذة ثم كنت على الحال التى أنا عليها من اشراف عدو مخوف الشوكة وعامة لا تتألف عن هضمها وأجناد لا يستتبع طاعتها الا بالاموال وطرف من الافضال لكان في نظر أمير المؤمنين لعامته وما يحب من اطرافه ما يوجب عليه أن يقسم له كثيرا من عنايته وأن يستصلحه ببذل كثير من ماله فكيف بمسألة ما أوجبه الحق ووكدته مأخوذة العهد واني لاعلم أن أمير المؤمنين لوعلم من الحال ماعلمت لم يطلع ما كتب بمسألته الى ثم أنا على ثقة من القبول بعد البيان ان شاء الله

وكان المأمون قد وجه حارسة الى الحد فلا يجوز رسول من العراق حتى يوجهوه مع ثقات من الامناء ولايدعه يستعلم خبرا ولا يؤثر أثرا ولا يستتبع بالرغبة ولا بالرهبة أحدا ولا يبلغ أحدا قولا ولا كتابا — فحصر أهل خراسان من أن يستمالوا برغبة

أو ان تودع صدورهم رهبة ويحملوا على منول خلاف أو مفارقة — ثم وضع على مراصد الطرق ثقات من الحراس لا يجوز عليهم الا من لا يدخل الظنة في أمره ممن أتى بجواز في مخرجه الى دار مآبه أو تاجر معروف مأمون فى نفسه ودينه ومنع الاشتاتات من جواز السبل والقطع بالمتاجر والوغول في البلدان فى هيئة الطارئة والسابلة وفتشت الكتب . هكذا دبر الفضل بن سهل أمر صاحبه فلم يدع للفضل بن الربيع مجالا لرسله ورواده ان يبثوا شيئاً في عامة أهل خراسان ولما أتت رسل الامين بجواب كتب الأمين وجدوا جميع ما كانوا يؤملونه ممنوعا عنهم موصدا بابه دونهم . وكان كتاب الامين للمأمون

أما بعد فان أمير المؤمنين الرشيد وان كان أفردك بالطرف وضم ما ضم اليك من كور الجبل تأييدا لامرك وتحصينا لطرفك فان ذلك لا يوجب لك فضلة المال عن كفايتك وقد كان هذا الطرف وخراجه كافيا لحدثه ثم تتجاوز بعد الكفاية الى ما يفضل من رده وقد ضم لك الى الطرف كورا من أمهات كور الاموال لاحاجة لك فيها فالحق فيها ان تكون مردودة في اهلها ومواضع حقها فكتبت اليك اسألك رد تلك الكور الى ما كانت عليه من حالها ليكون فضول ردها مصروفا الى مواضعها وان تأذن لقائم بالخبر يكون بحضرتك يؤدى الينا علم مانعنى به من خبر طرفك فكتبت تلط دون ذلك بما ان تم أمرك عليه صيرنا الحق الى مطالبتك فاثن عن همك أثن عن مطالبتك ان شاء الله . فلما قرأ المأمون كتابه كتب اليه

أما بعد فقد بلغني كتاب أمير المؤمنين ولم يكتب فيما جهل فا كشف له عن وجهه — ولم يسأل مالا يوجبه حق فيلزمني الحجة بترك اجابة وانما يتجاوز المناظران منزلة النصفة ما ضاقت النصفة عن أهلها فمتى نجاوز متجاوزها وهو موجودة الوسع ولم يكن تجاوزها الا عن نقضها واحتمال ما في تركها فلا تبعثني ياابن أبى على مخالفتك وأنا مذعن بطاعتك ولا على قطيعتك وأنا على ايثار ما تحب من صلتك وارض بما حكم به الحق فى أمرك أكن بالمكان الذى أنزلنى به الحق فيما بينى وبينك والسلام

فلما وصل الكتاب الى الامين اشتد غيظه وعند ذلك أمر بعدم الدعاء له على المنابر وكتب اليه

أما بعد فقد بلغني كتابك غامطا لنعمة الله عليك فيما مكن لك من ظلها متعرضا لحراق نار لا قبل لك بها ولحظك عن الطاعة كان أودع وان كان قد تقدم منى متقدم فليس بخارج من مواضع نفعك اذ كان راجعا على العامة من رعيتك وأ كثر من ذلك ما يمكن لك من منزلة السلامة ويثبت لك من حال الهدنة فاعلمن رأيك أعمل عليه ان شاء الله .

لم يكن لهذه المكاتبات بين الاخوين نتيجة لانه كان لكل منهما سائق يسوقه فللامين الفضل بن الربيع الذى لم يكن يحب المأمون ولا ولايته وللمأمون الفضل بن سهل الذى كان يأمل الخلافة لصاحبه وأن تكون مرو حاضرة الخلافة العظمى وتعود لخراسان عظمتها

بلغ المأمون ما أقدم عليه أخوه من خلعه عن ولاية العهد وترك الدعاء له فكان أول ما فعله الفضل بن سهل من التدبير أن جمع الاجناد التى كان أعدها بجنبات الرى مع أجناد قد كان مكنها فيها وأجناد للقيام بأمرهم وأقامهم بالحد لا يتجاوزونه ولا يطلقون يدا بسوء في عامة ولا مجتاز ثم اختار لقيادة الجند طاهر بن الحسين الخزاعى مولاهم فسار طاهر مغذا لا يلوى على شيء حتى ورد الرى فنزلها ووكل بأطرافها ووضع مسالحه وبث عيونه وطلائعه

أما الفضل بن الربيع فانه اختار لجند العراق على بن عيسى بن ماهان وولاه الامين كور الجبل كلها نهاوند وهمذان وقم واصفهان وأعطى جنده من الارزاق شيئا كثيرا وأمدهم بالسلاح والعدة فشخص من بغداد فى منتصف جمادي الآخرة سنة ١٩٥ وكان معه زهاء اربعين الفا وحمل معه قيد فضة ليقيد به المأمون كما شاءت زبيدة أم الامين وقد خدم الامين اخاه بهذا التعيين خدمة عظيمة فان اهل خراسان لم ينسوا ماعاملهم به على بن عيسى من الفظائع مدة ولايته فى عهد الرشيد فكان تعيينه لحربهم

مما أثار فى قلوبهم الحمية لرد هذا العدو بعد ان ابدلهم الله خيرا منه عدلا ورفقا وحسن سياسة وهو عبد الله المأمون . ومما كان ينذر بالشر جند الامين عدم احتفال قائده بلقاء عدوه فانه لما بلغه ان طاهر بن الحسين مقيم بالرى كان يضحك ثم يقول وما طاهر فوالله ما هو الا شوكة من أغصانى أو شرارة من نارى وما مثل طاهر يتولى على الجيوش ويلقى الحروب ثم التفت الى أصحابه فقال والله ما بينكم و بين أن ينقصف انقصاف الشجر من الريح العاصف الا ان يبلغه عبورنا عقبة همذان فان السخال لا تقوى على النطاح والثعالب لا صبر لهـا على لقاء الاسد فان يقم طاهر بموضعه يكن أول معرض لظبات السيوف وأسنة الرماح . ولما صار في أول بلاد الري أتاه صاحب مقدمته وقال لو كنت ابقى الله الامير أذكيت العيون وبعثت الطلائع وارتدت موضعا تعسكر فيه وتتخذ خندقا لاصحابك يأمنون به كان ذلك أبلغ فى الرأي وآنس للجند — فقال لا ليس مثل طاهر يستعد له بالمكايد والتحفظ ان حال طاهر تؤول الى أحد أمرين اما ان يتحصن بالري فيبيته اهلها فيكفونا مؤنته أو يخليها ويدبر راجعا لو قربت خيولنا وعسكرنا منه — واتاه يحى بن على فقال اجمع متفرق العسكر واحذر على جنـدك البيات ولا تسرح الخيل الا ومعها كنف من القوم فان العساكر لا تساس بالتوانى والحروب لا تدبر بالاغترار والثقة ان تحترز ولا تقل المحارب لى طاهر فالشرارة الخفية ربمـا صارت ضراما والثلمة من السيل ربما اغتربها فتهون فصارت بحرا عظيما وقد قربت عساكرنا من طاهر فلو كان رأيه الهرب لم يتأخر الى يومه هذا . فقال له اسكت فان طاهرا ليس في هـذا الموضع الذي ترى وانما يتحفظ الرجال اذا لقيت أقرانها وتستعد اذا كان المناوي لها أكفاءها ونظراءها

وبينما كان هذا القائد يسير مدلا بنفسه وبمن معه مستخفا بعدوه كان طاهر يدبر أمره مع قواده ويسير سير من يريد مواقعة عدو أكثر منه عددا وعدة وقد استقر رأيه على ان يجعل مدينة الري وراء ظهره ويقاتل بعيدا عنها فعسكر على خمسة فراسخ منها وأقبل اليه على بن الحسين وقد عبأ جنده وهم في أكمل عدة وأحسن زي

فكتب طاهر كتائبه وكردس كراديسه وسوى صفوفه وجعل يمر بقائد قائد وجماعة جماعة يعظهم ويثبتهم ثم تلاحم الفريقان واقتتلوا قتالا شديدا فعلت ميمنة علي على ميسرة طاهر ففضتها فضا منكرا وميسرته على ميمنته فازالتها عن موضعها فقال طاهر اجعلوا بأسكم وجدكم على كراديس القلب فانكم لوقدفضضتم منهم راية واحدة رجعت أوائلها على أواخرها فصبر أصحابه صبرا صادقا ثم حملوا على أولى رايات فهزموهم وأكثروا فيهم القتل ورجعت الرايات بعضها على بعض ورأى أصحاب ميمنة طاهر وميسرته ما عمل أصحابه فرجعوا على من كان فى وجوههم فهزموهم وانتهت الهزيمة الى على ورماه رجل من أصحاب طاهر بسهم فقتله ووضعوا فيهم السيوف حتى حال الليل بينهم وبين الطلب وغنموا غنيمة كثيرة ونادى طاهر فى أصحاب علي من وضع سلاحه فهو آمن فطرحوا أسلحتهم ونزلوا عن دوابهم وعاد طاهر الى الري وكتب الى الفضل ابن سهل — أطال الله بقاءك وكبت أعداءك وجعل من يشنائك فداك كتبت اليك ورأس على بن عيسى في حجري وخاتمه في يدي والحمد لله رب العالمين — فلما وصل الكتاب الى الفضل نهض فسلم على المأمون بامير المؤمنين . — وأمد طاهرا بالرجال والقواد وسماه ذا اليمينين وصاحب حبل الدين

وصل هذا الخبر بغداد على غير ما ينتظر القوم فانتخب الامين جيشا ثانياً جعله تحت قيادة عبد الرحمن بن جبلة الانباري وعدة هذا الجيش عشرون الف رجل من الابناء وحمل معه الاموال وقواه بالسلاح والخيل وأجازه بجوائز وندب معه فرسان الابناء واهل البأس والنجدة والغناء منهم واوصى قائده بالتحفظ والاحتراس وترك ما عمل به على بن عيسى من الاغترار والتضجع فسار عبد الرحمن حتى نزل همذان فضبط طرقها وحصن سورها وأبوابها وسد ثلمها وحشر اليها الاسواق والصناع وجمع فيها الآلات والمير واستعد للقاء طاهر ومحاربته . ولما بلغ طاهرا خبره توجه اليه حتى أشرف على همذان فخرج اليه عبد الرحمن فيمن معه على تعبئة فاقتتل الفريقان قتالا شديدا الى أن انهزم عبد الرحمن ودخل همذان فلبث فيها حتى قوي أصحابه واندملت

جزاءهم ثم خرج ثانية الى اللقاء فلقيه طاهر وفعل به ما فعل في المرة الاولى فعاد الى همذان فحصره فيها طاهر حتى جهد من قلة المادة فطلب الامان له ولمن معه فأمنه طاهر

ولما تم لطاهر هذا النصر طرد عمال محمد من قزوين

كان ذلك سببا لارتباك الفضل بن الربيع وشعوره بزوال الدولة فدعا أسد بن يزيد بن مزيد وهو من قواد الدولة المعدودين وقل له أنت فارس العرب وابن فارسها فزع اليك الامين فى لقاء هذا الرجل وأطمعه فيما قبلك أمران — أما أحدهما فصدق طاعتك وفضل نصيحتك والثاني يمن نقيبتك وشدة بأسك وقد أمرنى بازاحة علتك وبسط يدك فيما أحببت غير أن الاقتصاد رأس النصيحة ومفتاح اليمن والبركة فانجز حوائجك وعجل المبادرة الى عدوك فانى ارجو ان يوليك الله شرف هذا الفتح ويلم بك شعث هذه الخلافة والدولة — فلم يمتنع اسد وانما طلب لجنده مطالب هي ان يؤمر لاصحابه برزق سنة ويخص من لا خاصة له منهم من اهل الغناء والبلاء وابدل من فيهم من الزمنى والضعفاء واحمل الف رجل ممن معى على الخيل ولا اسأل عن محاسبة ما افتتحت من المدن والكور — فقال له الفضل قد اشتططت ولا بد من مناظرة امير المؤمنين ثم ركبا اليه فدخل عليه الفضل اولا ثم دخل اسد فما كان بينهما الا كلمتان حتى غضب الامين وامر بحبس اسد — ثم قال هل في اهل بيتي هذا من يقوم مقامه فاني اكره ان استفسدهم مع سابقتهم وما تقدم من طاعتهم ونصيحتهم فقالوا نعم فيهم أحمد بن مزيد وهو أحسنهم طريقة وأصلحهم نية في الطاعة وله مع هذا بأس ونجدة وبصر بسياسة الجنود ولقاء الحروب فاستدعاه محمد وقال له انه قد كثر على تخليط ابن اخيك وتنكره وطال خلافه على حتى أوحشني ذلك منه وولد في قلبي التهمة له وصيرني بسوء المذهب وخبث الطاعة الى ان تناولته من الادب والحبس بما لم أحب ان اكون اتناوله به وقد وصفت لى بخير ونسبت الى جميل فاحببت ان ارفع قدرك واعلي منزلتك واقدمك على اهل بيتك وان اوليك جهاد هذه الفئة الباغية

الناكثة وأغرضك للاجر والثواب فى قتالهم ولقائهم فانظر كيف تكون وصحح نيتك وأعن أمير المؤمنين على اصطناعك وسره فى عدوه ينعم سرورك وتشريفك . ثم أمر الفضل ان يدفع اليه دفاتر أسد وان يضم اليه من شهد العسكر من رجال الجزيرة والاعراب — فخرج احمد فانتخب الرجال واعترض الدفاتر فبلغت عدة من معه عشرين الف رجل — ووجه الامين عبد الله بن حميد بن قحطبة فى عشرين الفا أخرى وأمرهما أن ينزلا حلوان ويدفعا طاهرا عنها وتقدم اليهما في اجتماع الكلمة والتواد والتحاب على الطاعة — فتوجها حتى نزلا قريبا من حلوان بخانقين

أما طاهر فانه اقام بموقعه وخندق عليه وعلى أصحابه ودس العيون والجواسيس الى عسكرى عدوه فكانوا يأتونهم بالاراجيف ولم يزل يحتال فى وقوع الخلاف بينهم حتى اختلفوا وانتقض امرهم وقاتل بعضهم بعضا فاخلوا خانقين ورجعوا عنها من غير ان يلقوا طاهرا فتقدم طاهر حتى نزل حلوان — ثم لم يلبث الا قليلا حتى ورد عليه هرثمة ابن اعين احد قواد المأمون ومعه كتاب من المأمون والفضل بن سهل يأمره فيه بتسليم ما حوى من الكور والمدن اليه ويتوجه الى الاهواز فسلم ذلك اليه وأقام هرثمة بحلوان فحصنها ووضع مسالحه ومراصده في طرقها وجبالها وتوجه طاهر الى الاهواز ليكون الهجوم على بغداد من جهتين

كان من سوء حظ الامين ان عبد الملك بن صالح بن على الذى كان الرشيد قد حبسه خلصه الامين من سجنه فعد ذلك فضلا منه واراد مساعدته فطلب اليه ان يوليه الشام والجزيرة ليحضر اليه جندا من العرب قد ضرستهم الحروب وادبتهم الشدائد فولاه ذلك فلما وصل الى الرقة أنفذ كتبه الى رؤساء الاجناد بالشام ووجوه الجزيرة فلم يبق أحد ممن يرجى ويذكر بأسه وغناؤه الا وعده وبسط له في آماله وامنيته فقدموا عليه رئيسا بعد رئيس وجماعة بعد جماعة واتاه أهل الشام الزواقيل والاعراب من كل فج واجتمعوا عنده

حصلت مشكلة تافهة بين جندى خراساني وجندى من الزواقيل فتعصب لكل

جماعته تعصبا أذى الى التلاحم واستعد الابناء وأتوا الزواقيل وهم غارون فقتلوا منهم مقتلة عظيمة فتنادى الزواقيل وركبوا ونشبت الحرب بين الفريقين وكان عبد الملك بن صالح اذ ذاك مريضا فوجه اليهم رسولا يأمرهم بترك الحرب فرموا رسوله بالحجارة . ولما أخبر بكثرة من قتل من العرب قال واذلاه تستضام العرب فى دلرها ومحلها و بلادها - فكان ذلك بمثابة محضأ حرك الى الشر من لم يركب من الابناء وقام بأمرهم الحسين بن على بن عيسى بن ماهان - فلما رأى ذلك أهل الشام أجمعوا أمرهم على الرحيل الى بلا هم فرحلوا قائلين الموت الفلسطينى خير من العيش الجزرى وأقام الحسين بمن معه من الابناء

انتهت هذه الفكرة بالفشل ولم يقف شرها عند هذا الحد فان الحسين بن علي نادى في عسكره بالرحيل قاصدا بغداد فلما وصلها حض الابناء الذين معه علي خلع الأمين فاجابوه . فتوجه بهم حيث يقيم الامين ونادوا بخلعه في ١١ رجب سنة ١٩٦ وأخذوا البيعة للمأمون فى ثاني عشره وغدا فى الثالث عشر الى الامين في قصره وأخرجه منه محبوسا

خاف كبار الابناء تقدم على بن عيسى فقام محمد بن أبي خالد وقال أيها الناس ما أدري بأي سبب يتأمر على بن الحسين علينا ما هو بأكبرنا سنا ولا اكرمنا حسبا ولا اعظمنا منزلة واني أولكم نقض عهده فمن كان على رأيي فليعتزل معى وقام اسد الحربى ودعا من معه من الحربية الى القيام بامر محمد وفكه فتأثر الابناء من هذه الاقوال وثاروا على الحسين بن على فاسروه ودخل اسد الحربى الى الامين ففك قيوده وأقعده في مجلس الخلافة وأتى الأمين بالحسين بن على فلامه على ما كان منه مع احسانه اليه والى ابيه واخيرا عفا عنه ولكن ذلك لم يفد فانه بعد العفو حاول الهرب من بغداد فادرك وقتل

هذه حال الاضطراب في جند الامين أما جند المأمون فكان على العكس من من ذلك كان هادئا منتظما لا تزيده الايام الا قوة - انقسم الى قوتين قوة مع هرثمة

ابن أعين تريد بغداد من جادة المشرق وقوة مع طاهر بن الحسين تريد بغداد من جادة الاهواز والبصرة

ذهب طاهر الى فارس فاستولى عليها بعد ان أوقع بعاملها محمد بن يزيد المهلبى وقعة شديدة بسوق الاهواز وقتل محمد بن يزيد وكان ترتيب جند طاهر فى مسيره وحربه حائزا الغاية من النظام والاحتراس فضلا عما حازه من الاسم الكبير الذى يفت في الاعضاد

أقام بفارس مدة أنفذ فيها العمال الى الكور وولى على اليمامة والبحرين وعمان مما يلى الاهواز ومما يلى عمل البصرة ثم سار متوجها الى واسط فجعلت المسالح والعمال تتقوض مسلحة مسلحة وعاملا عاملا كلما قرب منهم طاهر تركوا أعمالهم وهربوا عنها حتى قرب من واسط فهرب عنها عاملها قائلا انه طاهر ولا عار في الهرب منه . دخل طاهر واسطا ومنها وجه قائدا الى الكوفة وعليها العباس بن موسى الهادى فبادر الى خلع الامين ومبايعة المأمون وأرسل بذلك الى طاهر فتم له ما بين واسط الى الكوفة وأنفذ كتب التولية الى العمال وكذلك بايع للمأمون أمير البصرة وهو المنصور ابن المهدي وكان ذلك كله فى رجب سنة ١٩٦

ثم سار طاهر الى المدائن فاستولى عليها من غير قتال

في تلك الاثناء حصل فى الحجاز مازاد المأمون قوة والامين خذلانا ذلك ان داود بن عيسى بن موسى كان عاملا للامين على مكة والمدينة فلما بلغه مافعل الامين من خلع المأمون وأخذه الكتابين اللذين كانا بجوف الكعبة وتمزيقهما جمع حجبة الكعبة والقرشيين والفقهاء ومن كان شهد علي ما في الكتابين من الشهود وكان داود أحدهم فذكرهم بما كان الرشيد أخذ عليهم من العهود ان يكونوا مع المظلوم من ولديه على الظالم وأخبرهم ان محمدا كان الذى قد بدأ بالظلم فخلع أخويه وبايع لابنه الصغير لذلك رأيت خلعه وان أبايع للمأمون فأجابه الى ذلك أهل مكة وفى ٢٧ رجب سنة ١٩٦ نادى داود في البيت الحرام بخلع الامين وبيعة المأمون ثم كتب الى ابنه سليمان

وهو خليفة على المدينة يأمره ان يفعل بها فعل أهل مكة ففعل . ولما تم ذلك سار داود بنفسه الى مرو وأعلم المأمون بما تم في الحجاز فسر المأمون جد السرور وتيمن ببركة مكة والمدينة وكتب الى أهل الحجاز كتبا يعدهم فيها الخير ويبسط أملهم وأقر داود على ولاية الحجاز فعاد مغذا ليدرك الحج ومر وهو عائد على طاهر بن الحسين فوجه معه يزيد بن جرير القسري واليا على اليمن وكان يزيد هذا داعية أهل اليمن الى بيعة المأمون فأجابوه

اجتمعت جيوش طاهر وهرثمة حول بغداد وحوصرت من ثلاث جهات فنزل هرثمة نهر بين وأعد المجانيق والعرادات وأنزل عبيد الله بن الوضاح الشماسية ونزل طاهر البستان بباب الانبار ونزل المسيب بن زهير قصر رقة كلواذى . وقد نصب المسيب المجانيق والعرادات واحتفر الخنادق وجعل يخرج فى الايام عند اشتغال الجند بحرب طاهر فيرمي بالعرادات من أقبل ومن أدبر ويعشر أموال التجارة ويجبى السفن وبلغ من الناس كل مبلغ

أحس محمد بالضيق ومنعت عنه الاموال فامر ببيع كل ما فى الخزائن من الامتعة وضرب آنية الذهب والفضة دنانير ودراهم وحملها لاصحابه فى نفقاته

وقدقاست هذه المدينة العظمى ودرة تاج الخلافة العباسية من هذا الحصار مالم يكن يخطر لاحد على بال من الهدم والتحريق وسفك الدماء والجوع الشديد حتى درست محاسنها وكادت تمحى معالمها ونطقت ألسن شعرائها بوصف ماعليه الناس من الاحزان والمحن التي لا تحتمل وأحسنهم في ذلك عمرو بن عبد الملك العتري الوراق فما قاله

من ذا أصابك يابغداد بالعين ... ألم تكوني زمانا قرة العين
ألم يكن فيك قوم كان مسكنهم ... وكان قربهم زينا من الزين
صاح الغراب بهم بالبين فافترقوا ... ماذا لقيت بهم من لوعة البين
أستودع الله قوما ما ذكرتهم ... الا تحدر ماء العين من عيني

كانوا ففرقهم دهر وصدعهم ... والدهر يصدع ما بين الفريقين

وقال بعض فتيان بغداد

بكيت دما على بغداد لما ... فقدت غضارة العيش الأنيق
تبدلنا هموما من سرور ... ومن سعة تبدلنا بضيق
أصابتها من الحساد عين ... فأفنت أهلها بالمنجنيق
فقوم أحرقوا بالنار قسرا ... ونائحة تنوح على غريق
وصائحة تنادى واصباحا ... وباكية لفقدان الشفيق
وحوراء المدامع ذات دل ... مضمخة المجاسد بالخلوق
تفر من الحريق الى انتهاب ... ووالدها يفر الى الحريق
وسالبة الغزالة مقلتيها ... مضاحكها كلالأة البروق
حيارى كالهدايا مفكرات ... عليهن القلائد في الحلوق
ينادين الشفيق ولا شفيق ... وقد فقد الشفيق من الشقيق
وقوم أخرجوا من ظل دنيا ... متاعهم يباع بكل سوق
ومغترب قريب الدار ملقى ... بلا رأس بقارعة الطريق
توسط من قتالهم جميعا ... فما يدرون من أى الفريق
فلا ولد يقيم على أبيه ... وقد هرب الصديق بلا صديق
ومهما أنس من شيء تولى ... فانى ذاكر دار الرقيق

وكان الأمين قد استعان فى حروبه بالعيارين والشطار والمسجونين من أهل بغداد فكان الشر الذى أصاب المدينة منهم أكثر مما أصابها من العدو المهاجم — وللخزيمى قصيدة طويلة تبلغ ١٣٥ بيتا يصف فيها ما أصاب بغداد ويذكر أسباب تلك النكبات التى حلت استوفاها الطبرى في الجزء العاشر من تاريخه صحيفة ١٧٦ وما بعدها من طبع مصر يقول فيها

يا بؤس بغداد دار مملكة ... دارت على أهلها دوائرها

أمهلها الله ثم عاقبها لما أحاطت بها كبائرها
بالخسف والقذف والحريق وبالحرب التي أصبحت تساورها

ثم قال : رق بها الدين واستخف بذي الفضل وعز النساك فاجرها
وخطم العبد أنف سيده بالرغم واستعبدت مخادرها
وصار رب الجيران فاسقهم وابتز أمر الدروب زاعرها

وقال العتري :

الناس في الهدم وفي الانتقال قد عرض الناس بقيل وقال
يا أيها السائل عن شأنهم عينك تكفيك مكان السؤال
قد كان للرحمن تكبيرهم فاليوم تكبيرهم للقتال
اطرح بعينيك الى جمعهم وانتظر الروح وعد الليال
لم يبق في بغداد الا امرؤ حالفه الفقر كثير العيال
لا أم تحمى عن حماها ولا خال له يحمى ولا غير خال
ليس له مال سوى مطرد مطرده فى كفه رأس مال
هان على الله فأجرى على كفيه للشقوة قتل الرجال
ان صارذا الامر الى واحد صار الى القتل على كل حال
ما بالنا نقتل من أجلهم سبحانك اللهم ياذا الجلال

استمرت هذه الشدائد على بغداد وما فيها حتى استنفد الامين كل وسائل الدفاع وأيقن بالعطب ان هو استمر على الممانعة فاستشار من بقي من قواده فاشار عليه بعضهم ان يطلب لنفسه الامان من هرثمة بن أعين ويسلم له فرضى وكتب الي هرثمة بذلك فاجابه اليه ولما علم طاهر بذلك أبى الا ان يكون خروجه اليه اذا شاء ولما لم يكن الامين ميالا الى الخروج الى طاهر اتفق القواد ان يخرج ببدنه الى هرثمة وان يدفع الى طاهر الخاتم والقضيب والبردة ثم علم طاهر انهم يمكرون به فاستعد للامر وكمن حول القصر كمناء بالسلاح فلما خرج الامين كانت حراقة هرثمة تنتظره فركبها ولم تسر بهم الا

قليلا حتى خرج أصحاب طاهر فرموا الحراقة بالسهام والحجارة فانكفأت الحراقة وغرق هرثمة ومحمد الامين فاما هرثمة فادركه أصحابه واما محمد فسبح فى الماء حتى أدركه أصحاب طاهر فاسروه فامرهم طاهر بقتله فقتل ليلة الأحد لخمس بقين من المحرم سنة ١٩٨ وفى الصباح كتب طاهر الى المأمون يخبره بما تم وبالاسباب التى جعلته يأمر بقتل الامين .

ثم دخل طاهر المدينة فأمن أهلها وهدأ الناس وكان دخوله اليها يوم الجمعة فصلى بالناس وخطبهم خطبة بليغة حضهم فيها على الطاعة ولزوم الجماعة ورغبهم في التمسك بحبل الطاعة وانصرف الى معسكره

بذلك انتهى الفصل الاول من هـذه الحادثة الشنيعة التى فرقت بين الامة وأحدثت هذه الثورة الهائلة

أما سببها وتبعتها فعائدان الى هارون الرشيد أولا ثم الى الفضل بن الربيع ثانيا — أما الرشيد فانه غلط فى فعله غلطات الاولى انه ولى عهده أولا محمدا الامين والمأمون أسن منه ولم يكن ما يزيد الامين الا أنه ابن زبيدة وليس هذا من الاسباب المرجحة فى نظر العقلاء وانمـا هو مرجح في نظر الضعفاء الذين يتأثرون بالهوى — الثانية انه لمـا أحس بهذه الغلطة أراد مداواتها ففعل ما زيدها شرا بتولية المأمون العهد بعد الامين ولم يقتصر على مجرد تولية العهد بل أعطاه من الامتيازات ما يجعله مستقلا تمـام الاستقلال بأمر خراسان والرى عن أخيه الامين ومن المعلوم انه كلما كثرت الامتيازات كثرت المشاكل وأسـباب الفساد والامين والمأمون وان كانا أخوين يتنافسان فالاول يميل أن يتمتع بسلطان الخلافة التام والثاني يميل أن يتمتع بامتيازاته تماما ولكل منهما جيش يتصرف فيه كما يرغب فلم يكن يظن أن يبقى لهذين الاخوين صفاء متى حانت وفاة الرشيد وقد أدرك المفكرون ذلك في حياته — الثالثة انه لم يقتصر عليهما في ولاية العهد فأضاف اليهما أخا ثالثا وأعطاه من الامتيازات فى الجزيرة وأرمينية ما أعطى المأمون فى خراسان فجرأ ذلك الامين على نقض العهد لانه نظر فرأى نفسه مقصوص الجناحين منزوعا منه السلطان في أعظم بقاع الاسـلام وأ كثرها

أعوانا وجندا - الرابعة انه اغتر بالفضل بن الربيع الذي جرأه على افساد ملكه بقتل البرامكة والحرمان من مقدرتهم وكفاءتهم ولم يتبين له خبث نية الرجل واستمر على الاستعانة به حتى عاد سيرته الاولى في عهد الامين فانه هو الذي اجتهد في اغرائه بأخيه لانه ظن ان المأمون اذا تولى أخذه بتبعة نكثه لعهده مع الرشيد وسيره بالجنود التي كانت مع الرشيد الى بغداد مع ان الرشيد عهد بها الى المأمون فما زال يحتال في الافساد حتى أوقع هذه الاضطرابات . ولما اشتد الامر على الامين لم يفده فائدة بل اختفى وكان كالشيطان اذ قال للانسان اكفر فلما كفر قال اني بريء منك اني أخاف الله رب العالمين

يضاف الى ذلك كله ما في طباع الخلفاء من ميلهم الى ان يكون بعدهم في الخلافة أبناؤهم فهم يحتالون بكل ما في وسعهم الى اخراج اخوتهم أو بني أعمامهم من العهد ان كان ولم نر خليفة له ابن فلم يسع له ذلك السعي ولم نجد عهدا أو عقدا منع من ذلك حتى كان هذا مجرئا للخلفاء على عدم الاعتناء بالعهود المكتوبة وصاروا يفتحون لها من أبواب الحيل ما يبيح لهم عدم التمسك بها والرشيد نفسه يعلم ذلك بما وقع له من أخيه الهادي وقد كاد يظفر به ويخرجه من ولاية العهد لولا ان المنية غلبت مع ان الرشيد لم يكن له شيء من الامتياز أعطاه اياه المهدي أبوه نسأل الله السلامة من عدم الاعتبار والاتعاظ فهما المهلكة العامة .

صفات الامين

امتدت ألسنة الكتاب والشعراء بعد خلع الامين وقتله الى القدح فيه وتعديد مثالبه التي أودت به وهذه سنة قديمة ان الناس مع من يساعده القدر فهم أبدا مع القاهر على المقهور لان للقوة سلطانا على النفوس لا يغالب وهذا نموذج مما قيل في هجاء الامين

لم نبكيك لماذا للطرب   يا أبا موسى وترويج اللعب
ولترك الخمس في أوقاتها   حرصا منك على ماء العنب

وشنيف أنا لا أبكى له ‏ وعلى كوثر لاأخشى العطب
لم تكن تعرف ما حد الرضا ‏ لا ولا تعرف ماحد الغضب
لم تكن تصلح للملك ولم ‏ تعطك الطاعة بالملك العرب
أيها الباكي عليه لا بكت ‏ عين من أبكاك الا للعجب
لم نبكيك لما عرضتنا ‏ للمجانيق وطورا للساب
ولقوم صيرونا أعبدا ‏ لهم يبدو على الرأس الذنب
فى عذاب وحصار مجهد ‏ سدد الطرق فلا وجه طلب
زعموا انك حي حاشر ‏ كل من قدقال هذا قد كذب
ليت من قد قاله في وحدة ‏ من جميع ذاهب حيث ذهب
أوجب الله علينا قتله ‏ فاذا ما أوجب الامر وجب
كان والله علينا فتنة ‏ غضب الله عليه وكتب

ومع هذا فقد رثاه كثير من الشعراء ومدحوه وسنترك هذا وهذا ونفحص صفاته من أعماله

أول ما عرف من عمل الامين ارادته الغدر باخيه والرمى بعهد الرشيد وراء ظهره فقد أخذ العهدين من البيت الحرام ومزقهما تمزيقا غير ناظر الى ما وراء ذلك من العواقب الوخيمة في نظر الجمهور اذ ليس أعظم فى نظر المسلم من انهاك حرمة البيت المقدس ولا انهاك أعظم من افساد أمر دبر فيه وجعل البيت الحرام حارسا عليه على ان الغدر فى ذاته بقطع النظر عن ذلك كله قبيح وضار بحياة الامة الادبية فلا غرابة ان رأينا جمهور الامة في صف أخيه

ولما دخل هذا المدخل الوعر المسلك لم يسر فيه بشيء من الحزم ولا بعد النظر بل كان أول قائد ولاه حرب أهل خراسان اعدى عدوهم من جربوه فوجدوه ظالما عاتيا يستحل أموالهم ويضرب أبشارهم وهو على بن عيسى بن ماهان أمير خراسان في عهد الرشيد فكان ذلك مما زاد أهل خراسان جدا في محاربته والضربة الاولى

مما يدخل الوهن والخذلان على المضروب ويزيد فى حماسة الغالب وتفاؤله بالمستقبل

ومع هذا الغلط كان الامين مشتغلا عن تدبير أمره بما كان فيه من اللهو والعبث شتان بين تدبيره وتدبير أخيه فبينا كان هو على هذه الطريق كان أخوه المأمون يعمر ويجمع الى مجلسه العلماء والفقهاء ويجلس معهم كما يجلسون ويتكلم معهم فى الفقه والادب والحديث حتى أشربت قلوبهم محبته ولا يخفى ما لهذا من التأثير فى قلوب الجمهور .

يقال ان محمدا لما تولى وجه الى جميع البلدان في طلب الملهين وضمهم اليه واجرى لهم الارزاق ونافس في ابتياع فره الدواب وأخذ الوحوش والسباع والطير وغير ذلك واحتجب عن اخوته وأهل بيتة وقواده واستخف بهم وقسم ما في بيوت الاموال وما بحضرته من الجوهر فى خصيانه وجلسائه ومحدثيه وحمل اليه ما كان في الرقة من الجوهر والخزائن والسلاح وأمر ببناء مجالس لمتنزهاته ومواضع خلوته ولهوه ولعبه بقصر الخلد والخيزرانية و بستان موسى وقصر عبدويه وقصر المعلى ورقة كلواذى وباب الانبار ونبارى والهوب وأمر بعمل خمس حراقات في دجلة على خلقة الاسد والفيل والعقاب والحية والفرس وأنفق في عملها مالا عظيما فقال أبو نواس يمدحه

سخر الله للامين مطايا لم تسخر لصاحب المحراب
فاذا ما ركابه سرن برا سار في الماء راكبا ليث غاب
أسدا باسطا ذراعيه يهوى أهرت الشدق كالح الانياب
لا يعانيه باللجام ولا السو ط ولا غمز رجله فى الركاب
عجب الناس اذ رأوك على صو رة ليث تمر مر السحاب
سبحوا اذ رأوك سرت عليه كيف لو أبصروك فوق العقاب
ذات زور ومنسر وجنا حين تشق العباب بعد العباب
تسبق الطير فى السماء اذاما اســـتعجلوها بجيئة وذهاب
بارك الله للامين وأبقا ه وأبقى له رداء الشباب

ملك تقصر المدائح عنه هاشمى موفق للصواب

وجميع ماوقفنا عليه من أخبار الامين وسيره انه كان يميل جدا الى اللهو والغناء والشرب حتى أقعده ذلك عن حسن التدبير لاموره هـذا مع أنه ممتاز على بنى العباس قاطبة بانه هاشمى الابوين ولكن ليس بحسن الانساب تعلو الرجال وانما علوها بحسن الفعال

٧ – المأمون

هو عبد الله المأمون بن هارون الرشيد بن محمد المهدى . وأمه أم ولد اسمها مراجل

ولد سنة ١٧٠ في اليوم الذى ولى فيه أبوه الخلافة . وولاه أبوه العهد وسنه ١٣ سنة بعد أخيه الامين وضمه الى جعفر بن يحيي وولاه خراسان ومايتصل بها الى همذان ومنحه بمقتضى الشروط التى عقدها استقلالا يكاد يكون تاما . ولما توفى أبوه لم يف له أخوه بعهده بل أراد أن يقدم عليه في ولاية العهد ابنه موسى فأبى ذلك المأمون وكان من وراء ذلك الحروب الفظيعة التي قصصنا خبرها وهي التى انتهت بقتل الامين فى ٢٥ محرم سنة ١٩٨ (٥ سبتمبر سنة ٨١٣)

بويع المأمون بالخلافة العامة في ذلك التاريخ واستمر خليفة الى أن توفى غازيا بطرسوس في ١٩ رجب سنة ٢١٨ (١٠ أغسطس سنة ٨٣٣) فكانت خلافته عشرين سنة وخمسة أشهر وثلاثة أيام . أقام منها ببلاد خراسان من تاريخ ولايته الى منتصف صفر سنة ٢٠٤ وهو تاريخ قدومه بغداد وأقام الباقى ببغداد حاضرة الخلافة العباسية

وكان يعاصره في بلاد الاندلس الحكم بن هشام ثالث أمراء بنى أمية (١٨٠ – ٢٠٦) ثم ابنه عبد الرحمن الثاني (٢٠٦ – ٢٣٨)

ويعاصره في بلاد المغرب الاقصى ادريس بن ادريس بن عبد الله سنة (١٨٨ – ٢١٣) ثم ابنه محمد بن ادريس (٢١٣ – ٢٢١)

ويعاصره في أفريقية من بنى الاغلب عبد الله بن ابراهيم بن الاغلب (١٩٦ – ٢٠١) ثم ابنه زيادة الله بن ابراهيم فاتح صقلية (٢٠١ – ٢٢٣)

ويعاصره في فرنسا شارلمان صديق أبيه وقد توفى سنة ٨١٤ ثم لويز الاول الملقب باللين

ويعاصره في القسطنطينية ليون الارمنى (٨١٣ – ٨٢٠) ثم ميخائيل الثاني الملقب بالتمتام ثاني مرة (٨٢٠ – ٨٢٩) ثم ابنه توفيل (٨٢٩ – ٨٤٢)

الاحوال في المدة الاولى

لما تم الامر للمأمون بالعراق على يد القائدين العظيمين طاهر بن الحسين وهرثمة ابن أعين كان الذى يدبر الامر بمرو الفضل بن سهل الذى يرى لنفسه الفضل الاكبر في تأسيس دولة المأمون فاراد أن يستفيد من هذه الدولة فيستأثر بنفوذ الكلمة فيها وليس يتم له ذلك والعراق بين يدى طاهر وهرثمة فاصدر أمرين على لسان المأمون أولهما بتولية الحسن بن سهل جميع ما افتتحه طاهر من كور الجبال وفارس والاهواز والبصرة والكوفة والحجاز واليمن . وكتب الى طاهر ان يسلمه جميع ما بيده من الاعمال وأن يشخص الى الرقة لمحاربة نصر بن شبث وولاه الموصل والجزيرة والشام والمغرب فلم يسع طاهرا الا أن يسمع ويطيع فسلم ذلك كله

والامر الثاني الى هرثمة يأمره بالشخوص الى خراسان فشخص – و بذلك خلا العراق من أسديه وأهل العراق من قديم عبيد القوة ولا سيما انهم خارجون من ثورة وهيجان فكان من اللازم ان تظل تلك الايدي المرهوبة حتى يستكين الناس ويخضعوا

ولم يبق المأمون بعد ذلك بخراسان . هل كان الفضل بن سهل يريد أن يحول الخلافة الاسلامية الى مرو فيجعلها حاضرة البلاد الاسلامية . أو رأى ان نفوذه

يضعف اذا حل الخليفة بغداد وبها الالسنة التي لا تمل الوشايات فخشي من ذلك على مركزه . سواء أكان السبب في تخلفه هـذا أو ذاك فقد نتج عن هذا التدبير مضار شديدة واضطرابات كادت ترجع ملك المأمون أثرا بعد عين

شاع بالعراق بعد خروج طاهر وولاية الحسن بن سهل ان الفضل بن سهل قد غلب على المأمون وأنزله قصرا حجبه فيه عن أهـل بيته ووجوه قواده وانه يبرم الامور على هواه فغضب لذلك من كان بالعراق من بني هاشم ووجوه الناس وأنفوا من غلبة الفضل على المأمون واستخفوا بالحسن بن سهل وهاجت الفتن في الامصار

وأول فتنة كانت خروج محمد بن ابراهيم بن اسمعيل بن ابراهيم بن الحسن ابن الحسن بن على خرج بالكوفة وقام بأمره رجل كبير من رجال هرثمة بن أعين وهو أبو السرايا السري بن منصور الشيباني فاستولى على الكوفة من يد نائب عاملها سليمان بن أبى جعفر المنصور فارسل اليه الحسن بن سهل جيشا يقوده زهير بن المسيب فى عشرة آلاف فهزمه أبو السرايا واستباح عسكره وأخذ ما كان معه من مال وسلاح ودواب وفى غد ذلك اليوم مات محمد بن ابراهيم فجأة وذلك يوم الخميس أول رجب سنة ١٩٩ فولى أبو السرايا بدله غلاما أمرد حدثا وهو محمد بن محمد بن زيد ابن على بن الحسين بن على وكان أبو السرايا هو الذى ينفذ الامور ويولى من رأى ويعزل من شاء واليه الامور كلها

أرسل الحسن جيشا ثانيا بقيادة عبدوس بن محمد بن أبي خالد المروروذى فتوجه اليه أبو السرايا وأوقع به وقعة في ١٧ رجب سنة ١٩٩ فقتله وأسر أخاه هارون واستباح عسكره وكانوا نحو أربعة آلاف رجل فلم يفلت منهم أحد

انتشر بعد ذلك الطالبيون فى البلاد وضرب أبو السرايا الدراهم بالكوفة ونقش عليها (ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص)

أفاق الحسن بن سهل من غفلته لما وجد قواده لا يغنون عنه شيئا وكلما وجه أحدهم لحرب أبى السرايا عاد مهزوما فوجه فكرته الى هرثمة بن أعين مفضلا اياه

على طاهر بن الحسين وكان هرثمة قد توجه الى خراسان مغاضبا للحسن بن سهل وكان قد وصل حلوان فبعث اليه يسأله الانصراف الى بغداد لحرب أبي السرايا فأبى فاعاد عليه الرسالة متلطفا فاجاب وانصرف الى بغداد فقدمها فى شعبان سنة ١٩٩ وهيأ للخروج الى الكوفة وتهيأ معه جند اختاره فمر على المدائن واستولى عليها من يد عمال أبي السرايا ثم التقى الفريقان عند قصر ابن هبيرة فقتل من أصحاب أبي السرايا مقتلة عظيمة . ثم ألح عليه هرثمة بالحرب حتى لم يعد قادرا على حماية الكوفة التى هي قاعدة أعماله فهرب عنها هو ومن معه من الطالبيين وسار الى القادسية في محرم سنة ٢٠٠ ودخل هرثمة الكوفة وآمن أهلها ولم يعرض لاحد منهم ثم بارحها مساء ذلك اليوم

ترك أبو السرايا مكانه بالقادسية وسار حتى أتى السوس من بلاد فارس فلقيه هناك الحسن بن على الباذغيسى المعروف بالمأمونى فقاتله وهزمه واستباح عسكره وجرح أبو السرايا جراحا شديدة فهرب مريدا منزله برأس العين من الجزيرة فعثر به في الطريق هو ومن معه وجيء بهم الى الحسن بن سهل وكان مقيما بالنهروان فضرب عنقه وصلب جسده ببغداد . وكان بين خروجه بالكوفة ومقتله عشرة أشهر

ثم أخـذت البصرة من يد عاملها لابي السرايا وهو زيد بن موسى بن جعفر وكان يقال زيد النار لكثرة ما أحرق من دور البصرة وكان اذا أتى برجل من المسودة كانت عقوبته عنده أن يحرق بالنار فاخذ أسيرا وأمن

وكان للطالبيين في تلك الفتن أسوأ أثر بمكة والمدينة فان أبا السرايا كان قدولى مكة حسين بن حسن بن على بن الحسين بن على وكان بها داود بن عيسى بن موسي العباسى واليا فلم يرض القتال في الحرم وخرج عن مكة فدخلها الحسين قبل مغرب يوم عرفة ولما تفرق الحاج من مكة جلس خلف المقام على نمرقة مثنية فأمر بثياب الكعبة التى عليها فجردت حتى لم يبق عليها من كسوتها شيئا ثم كساها ثوبين من خز رقيق كان أبو السرايا وجه بهما معه مكتوب عليهما (أمر به الاصفر بن أبي الاصفر أبو السرايا داعية آل محمد لكسوة بيت الله الحرام وأن يطرح عنه كسوة الظلمة من

ولد العباس ليطهر من كسوتهم وكتب سنة ١٩٩) ثم قسم الكسوة التي كانت على الكعبة بين أصحابه وعمد الى ما في خزانة الكعبة من مال فأخـذه ولم يسمع بوديعة عند أحد لبني العباس وأتباعهم الاهجم عليه في داره فان وجد من ذلك شيئاً أخذه وعاقب الرجل وان لم يجد عنده شيئا حبسه وعذبه حتى يفتدى نفسه بقدر طوله ويقر عند الشهود ان ذلك للمسودة من بني العباس وأتباعهم حتى عم ذلك خلقا كثيرا وكان لهم دار اسمها دار العذاب يعذب فيها الناس حتى هرب منهم خلق كثير من أهل النعم فتتبعوهم بهدم دورهم وجعلوا يحكون الذهب الرقيق الذى فى رؤس أساطين المسجد فيخرج من الاسطوانة بعد التعب الشديد قدر مثقال ذهب أو نحوه حتى عم ذلك أكثر أساطين المسجد الحرام وقلعوا الحديد الذى على شبابيك زمزم وخشب الساج فبيع بالثمن الخسيس

وما زالوا على تلك الحال حتى بلغهم قتل أبي السرايا وان من بالكوفة والعراق من الطالبيين قد طردوا فاجتمعوا الى محمد بن جعفر الصادق وكان شيخا وادعا محببا فى الناس مفارقا لما عليه أكثر أهل بيته من قبح السيرة وكان يروي العلم عن أبيه وطلبوا اليه ان يبرز شخصه ليبايعوه بالخلافة فاجاب بعد تردد وحشر اليه الناس فبايعوه طوعا وكرها وسموه أمير المؤمنين فأقام على ذلك أشهرا وليس له من الامر الا اسمه وابنه علي وحسين بن حسن أسوأ ما كانوا سيرة وأقبح ما كانوا فعلا حتى تعدوا الاموال الى الاعراض

أراد الله ان يفرج عن أهل مكة ماهم فيه فقدم عليهم اسحق بن موسى بن عيسى مقبلا من اليمن فقاتل العلويين أياما ثم بارح مكة فلقيه البعث الذى أرسله هرثمة لتخليص مكة فعاد معهم وكان رئيس البعث ورقاء بن جميل فقاتلوا العلويين حتى هزموهم وطلب محمد بن جعفر الامان له ولمن معه حتى يخرجوا من مكة ويذهبوا حيث شاؤا فأجيبوا وامهلوا ثلاثة أيام فلما انتهت دخلت الجنود العباسية مكة وذهب كل فريق من العلويين الى ناحية

أما في اليمن فكان قد خرج فيها ابراهيم بن موسى بن جعفر وكان واليها اسحاق ابن موسى بن عيسى فلما سمع باقبال ابراهيم ترك له صنعاء وانصرف مقلدا عمه داود ابن عيسى في مكة فاستولى ابراهيم على اليمن وكان يقال له الجزار لكثرة من قتل باليمن من الناس . وفي موسم سنة ٢٠٠ وجه بعض ولد عقيل بن أبي طالب من اليمن فى جند كثيف ليحج بالناس وكان الذى ولى امرة الحج من العباسيين أبا اسحاق بن الرشيد ومعه كثير من القواد فلما وصل العقيلي الى بستان ابن عامر بلغه أمر من بمكة فتوقف بالبستان فمرت به قافلة من الحاج والتجار وفيها كسوة الكعبة وطيبها فأخذ أموال التجار وكسوة الكعبة وطيبها وقدم الحاج مكة عراة مسلبين . بلغ أبا اسحاق أمر العقيلي فأرسل اليه أحد قواده فلقيه بالبستان فأسر أكثر من معه وهرب من هرب منهم يسعى على قدميه ورد الى الحاج ما كان أخذ منهم وعاد بكسوة الكعبة ثم عاقب كلا من هؤلاء الاسرى بعشرة أسواط وخلاهم فذهبوا يستطعمون الناس فى الطريق حتى هلك أكثرهم جوعا

انتهت هذه الفتن العلوية التي عادت بالضرر على البلاد والعباد والفضل في انهاء أمرها لهرثمة بن أعين القائد المحنك . ولما فرغ هرثمة من أداء تلك المهمة أراد ان يتوجه الى المأمون بمرو ليطلعه على حقيقة الحال وما ينكره الناس عليه من استبداد الفضل بن سهل على أمره ولم يكن ذلك مما يروق فى عين الفضل فأفهم المأمون أن هرثمة قد أفسد البلاد وانه هو الذى دس الى أبى السرايا حتى صنع ما صنع ولو شاء الا يفعل ذلك أبو السرايا ما فعل لانه كان من ضمن جنوده . وكان المأمون قد كتب لهرثمة كتبا من الطريق ليرجع ويلي الشام والحجاز فابى هرثمة ان يرجع حتى يرى أمير المؤمنين ويبين له حقيقة الحال فكان ذلك مما زاد المأمون وحشة منه . ولما بلغ هرثمة مرو خشى ان يكتم المأمون خبر قدومه فضرب الطبول كى يسمعها المأمون فلما سمعها سأل فقالوا هرثمة جاء يبرق ويرعد وظن هرثمة ان قوله المقبول فأدخل على المأمون وقد أشرب قلبه منه ما أشرب فلم يسمع منه كلمة وأمر به فوجئ عنقه

وديس بطنه وسحب بين يديه وقد تقدم الفضل الى الاعوان بالتغليظ عليه والتشديد فمكث فى حبسه أياما ثم دسوا اليه فقتلوه وقالوا انه مات . هكذا ذهب هذا القائد العظيم من غير جناية ضحية خبث البطانة

ولما بلغ أهل بغداد ماصنع بهرثمة هاج الجند الحربية بها وثاروا على الحسن بن سهل فأخرجوا ولاته من بغداد واستخفوا بأمر المأمون ولم يكن عند الحسن ما يقدر به على عمل لضعفه وسوء رأيه . ثم عمد أهل بغداد الى منصور بن المهدى وطلبوا اليه ان يبايعوه بالخلافة ويخلعوا المأمون فأبى ذلك عليهم فطلبوا اليه أن يكون عليهم أميرا وان يدعو للمأمون وقالوا لانرضى بالمجوسى ابن المجوسى الحسن بن سهل ونطرده حتى يرجع الى خراسان فقبل وتولى أمر بغداد الا انها على كل حال كانت خالية من جيش قوى يأخذ على أيدي المفسدين من أهلها فنتج عن ذلك الفساد الشديد فان فساق الحربية والشطار الذين كانوا بها وبالكرخ آذوا الناس أذى شديدا وأظهروا الفسق وقطع الطريق وأخذ الغلمان والنساء علانية من الطريق وكانوا يسألون الرجل ان يقرضهم أو يصلهم فلا يقدر على الامتناع وكانوا يجتمعون فيأتون القرى فيكاثرون أهلها ويأخذون ماقدروا عليه من متاع ومال وغير ذلك لاسلطان يمنعهم لان السلطان كان يعتز بهم وكانوا بطانته فلا يقدر ان يمنعهم من فسق يرتكبونه وكانوا يجبون المارة في الطرق والسفن وعلى الظهر ويخفرون البساتين ويقطعون الطرق علانية ولا أحد يعدو عليهم . رأى الناس شدة هذا البلاء وضعف السلطان عن حمايتهم فقام صلحاء كل ربض وكل درب فمشى بعضهم الى بعض وقالوا انما فى الدرب الفاسق والفاسقان الى العشرة وقد غلبوكم وأنتم أكثر منهم فلو اجتمعتم حتى يكون أمركم واحدا لقمعتم هؤلاء الفساق . فقام رجل من ناحية طريق الانبار اسمه خالد الدريوش فدعا جيرانه وأهل محلته الى ان يعاونوه على الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فأجابوه الى ذلك وشد على من يليه من الفساق والشطار فمنعهم مما كانوا يصنعون فامتنعوا عليه فقاتلهم وهزمهم وأخذ بعضهم فضربهم وحبسهم ورفعهم الى السلطان وكان لا يرى من حقه

الاعتداء على السلطان . ثم قام من بعده آخر اسمه سهل بن سلامة الانصاري فدعا الناس الى الامر بالمعروف والنهى عن المنكر وعلق مصحفا فى عنقه ثم بدأ بأهل جيرانه ومحلته فأمرهم ونهاهم فقبلوا منه ثم دعا الناس جميعا الى ذلك الشريف منهم والوضيع بني هاشم ومن دونهم وجعل له ديوانا يثبت فيه من أتاه منهم فبايعه على ذلك خلق كثير ثم طاف بغداد أسواقها وأرباضها ودروبها وطرقها ومنع كل من يخفر ويجبى المارة وقال لا خفارة في الاسلام - والخفارة ان يأتي الرجل بعض أصحاب البساتين فيقول بستانك فى خفري ادفع عنه من أراده بسوء ولى في عنقك كل شهر كذا وكذا درهما فيعطيه ذلك شاء أم أبى

لم يكن سهل والدريوش على وفاق لان مقصد الدريوش كان معاونة السلطان في القبض على أيدى المفسدين ولا يعيب عليه شيئا ولا يقاتله ولا يأمره بشيء ولا ينهاه أما سهل فيظهر انه كان ذا اطماع قال انى أقاتل من خالف الكتاب والسنة سلطانا كان أو سوقة فقد جعل نفسه بذلك فوق الجميع وكثرت أتباعه حتى خافه الولاة وخافه منصور بن المهدى الذي أقامه العراقيون أميرا

ونحن نرى ان عمل هذين الرجلين وتكوين هـذه الجمعية من أحسن ما يفكر فيه العقلاء في مثل ظروفهم لان ذلك منع من وجود الفتنة الاهلية التى تقارن هذه المفاسد عادة

كل ذلك كان والمأمون فى مرو لا يصل اليه شيء من أخبار حاضرة الخلافة وقد حجبه الفضل بن سهل فلا يوصل اليه الا ما يشتهى

ومما كان في تلك الآونة أن المأمون اختار لولاية عهده على الرضا بن موسى بن جعفر الصادق وهو الثامن من أئمة الشيعة الامامية الاثنى عشرية وسماه الرضا من آل محمد وأمر جنده بطرح السواد شعار العباسيين ولبس ثياب الخضرة الذى اختاره شعارا للدولة الجديدة وكتب بذلك الى الآفاق ويغلب على الظن أن هذا من عمل الفضل بن سهل لان الفرس يعجبهم أن يكون امام المسلمين علويا وطالما قاتلوا فى

سبيل رجوع السلطان الى بني علي وهذه فرصة يأخذون فيها الخلافة من غير حرب ولا قتال وساعد على ذلك ما كان يراه المأمون نفسه من تفضيل علي على غيره من الخلفاء الراشدين وانه كان أحق بالخلافة منهم ولا نرى ذلك جاء المأمون الا من البيئة التي تربى فيها فانه كان فى أول أمره فى حجر جعفر البرمكي ثم انتقل الى الفضل ابن سهل وكلهم ممن يتشيع فاختمرت عنده هذه الفكرة على غير ما كان عليه آباؤه

بلغ ذلك أهل بغداد فاختلفوا فقال بعضهم نبايع ونلبس الخضرة وقال بعضهم لانبايع ولا نلبس الخضرة ولا نخرج هذا الامر من ولد العباس وانما هذا دسيس من الفضل بن سهل فمكثوا على ذلك أياما وغضب ولد العباس من ذلك واجتمع بعضهم الى بعض وتكلموا فيه وقالوا نولى بعضنا ونخلع المأمون واتفقوا أخيرا على مبايعة ابراهيم بن المهدى عم المأمون بالخلافة وخلعوا المأمون وكان ذلك في أول المحرم سنة ٢٠٢ فتغلب ابراهيم مع أهل بغداد على الكوفة والسواد كله وعسكر بالمدائن وولى الجانب الشرقى من بغداد العباس بن الهادى والجانب الغربى اسحاق بن الهادى . وتغلب على سهل بن سلامة المتطوع بعد أن تركه من معه

بلغت هذه الاخوال المأمون ويقال ان الذي أبلغه اياها علي الرضا ولى عهده فانه أخبره بما فيه الناس من الفتنة والقتال منذ قتل أخوه وبما كان الفضل بن سهل يستر عنه من الاخبار وان أهل بيته قد نقموا عليه أشياء فبايعوا لابراهيم بن المهدى بالخلافة — فقال له المأمون انما بايعوه ليكون أميرا لهم يقوم بأمرهم على ما أخبره به الفضل - فاعلمه ان الفضل قد كذبه وغشه وان الحرب قائمة بين ابراهيم بن المهدى والحسن بن سهل وان الناس ينقمون عليه مكانه ومكان أخيه ومكانى ومكان بيعتك لى من بعدك وسمي له عدة من القواد يشهدون بما قل فأحضرهم المأمون وسألهم فاخبروه بالخبر على وجهه بعد أن أعطاهم أمانا من الفضل بن سهل وأخبروه بما اموه عليه الفضل فى أمر هرثمة وان هرثمة انما جاء ناصحا ليبين له ما يعمل وانه ان لم يتدارك الامر خرجت الخلافة منه ومن أهل بيته وان الفضل دس الى هرثمة من

قتله وان طاهر بن الحسين قد أبلى في طاعته ما أبلى حتى اذا وطأ الامر أخرج من ذلك كله وصير في زاوية من الارض بالرقة قد حظرت عليه الاموال حتى ضعف أمره فشغب عليه جنده وانه لوكان على خلافتك ببغداد لضبط الملك ولم يجترأ عليه بمثل ما اجترىء به على الحسن بن سهل وان الدنيا قد تفتقت من أقطارها وسألوا المأمون الخروج الى بغداد فان بنى هاشم والموالى والقواد والجنود لورأوك سكنوا وفاؤا بالطاعة لك

لما تحقق ذلك المأمون أمر بالرحيل الى بغداد . ولم يسلم هؤلاء القواد من شر الفضل بل عاقبهم بالحبس والطرد فراح على الرضا الى المأمون وأعلمه بما كان من ضمانه لهم فاعلمه انه يدارى ماهو فيه .

ارتحل المأمون من مرو حتى أتى سرخس وهناك شد قوم على الفضل بن سهل وهو فى الحمام فضربوه بسيوفهم حتى مات وذلك في ٢ شعبان سنة ٢٠٢ فأخذ ضاربوه وهم أربعة من خدم المأمون فلما جيء بهم اليه قالوا أنت أمرتنا بقتله فأمر بهم فضربت أعناقهم . وسوابق الفعلة تؤكد أن صدورها كان بتدبير المأمون لانه أحس بثقل يد الفضل عليه وبما كان من غشه له وانه مادام معه لا يرى من أهل بغداد طاعة فاحتال بهؤلاء الخدم ثم قتلهم وبعث برؤسهم الى الحسن بن سهل وعزاه وأخبره انه صيره مكانه

رحل المأمون من سرخس يوم عيد الفطر وقد كان هذا الرحيل سببا لاختلاف القواد ببغداد على ابراهيم بن المهدى لان السبب الذى من أجله خلعوا المأمون قد زال فاضطرب أمر ابراهيم ببغداد

لما صار المأمون بطوس حدثت حادثة أخرى وهى وفاة على الرضا ويتهمون المأمون بانه سمه وليس عندنا من البراهين ما يؤكد هذه التهمة لانه بقدر ما يقربها ارادة المأمون التقرب الى أهل بغداد والعباسيين بالتخلص منه يبعدها ما كان مغروسا في نفس المأمون من محبة آل أبي طالب وأنه صاهر عليا وأن عليا هو الذى

أظهر له حقيقة ما كان يدور بالعراق من الفتن ولا يبعد عندي أنه من فعل بعض البطانة المأمونية ليخففوا عن المأمون اضطراب العباسيين ويخلصوا مما يعتقدونه شرا وهو خروج الخلافة من آل العباس . وهناك كتب المأمون الى بني العباس والموالى وأهل بغداد يعلمهم موت على بن موسى

رحل المأمون من طوس الى الرى وهناك تحبب الى أهلها باسقاط الفي الف درهم من خراجها . وكان كلما قرب من بغداد زاد الاضطراب على ابراهيم بن المهدي وقام القواد فى وجهه حتى كتبوا الى قائد من قواد الحسن بن سهل يطلبون اليه الحضور ليسلموا اليه بغداد فلم يلبث ان حضر وسلم له جند بغداد المدينة وأعلن خلع ابراهيم ابن المهدى والدعوة للمأمون فاختفى ابراهيم ليلة الاربعاء ١٧ ذى الحجة سنة ٢٠٣ فكانت أيامه كلها ببغداد سنة واحدة وأحد عشر شهرا واثنى عشر يوما

ما زال المأمون ينتقل من منزلة الى منزلة حتى وصل النهروان وهناك خرج اليه أهل بيته والقواد ووجوه الناس فسلموا عليه ووافاه طاهر بن الحسين من الرقة لانه أمره بذلك . وفى يوم السبت لاربع عشرة بقيت من صفر سنة ٢٠٤ دخل مدينة بغداد ولباسه ولباس أهله الخضرة أقبيتهم وقلانسهم وأعلامهم فلبس ذلك أهل بغداد و بنو هاشم أجمعون . ومكثوا على ذلك ثمانية أيام فتكلم فى ذلك بنو هاشم وولد العباس خاصة وقالوا له يا أمير المؤمنين تركت لباس آبائك وأهل بيتك ودولتك ولبست الخضرة وكتب اليه فى ذلك قواد أهل خراسان وسأله طاهر بن الحسين ان يرجع الى لبس السواد فلما رأى المأمون طاعة الناس له فى لبس الخضرة وكراهتهم لها قعدلهم وعليه ثياب خضر فلما اجتمعوا عنده دعا بسواد فلبسه ودعا بخلعة سواد فالبسها طاهرا ثم دعا بعدة من قواده فالبسهم أقبية وقلانس سودا فلما خرجوا من عنده وعليهم السواد طرح سائر القواد والجند لبس الخضرة ولبسوا السواد

ابتدأ من ذلك الوقت ملك المأمون الحقيقى

المأمون ببغداد

أشرقت شمس أبي العباس عبد الله المأمون ببغداد حاضرة آبائه ومن ذلك الوقت ابتدأ ملكه الحقيق وتجلت مزاياه العالية وأخلاقه التي لم يشابهه فيها أحد من أهل بيته وساس الامة سياسة لين لا يشوبه ضعف وقوة لا يشوبها عنف وأخذت بغداد تستعيد نضرتها التى كانت لها في عهد أبيه وعظمت بها الحركة العلمية لما كان من ميل المأمون الشديد الى تقوية تلك الحركة وسنبين ذلك في فصل خاص ان شاء الله بعد أن ننتهي من بيان الحالة الداخلية

الوزارة في عهد المأمون

أول وزراء المأمون الفضل بن سهل وهو فارسى الاصل أسلم على يد المأمون سنة ١٩٠ ويقال ان أباه سهلا أسلم على يد المهدى والذى اختار الفضل للمأمون هو الرشيد باشارة جعفر بن يحيى . فكان مدبر أمره وهو ولى عهد ولما فعل الامين مافعل دبر الفضل أمر ارسال الجنود وتدبير ما يلزمهم فارسل طاهر بن الحسين لمحاربة على بن عيسى بن ماهان . ولما انتصر طاهر لقب الفضل ذا الرياستين وجعل له علما على سنان ذى شعبتين وكتب على سيفه من جانب رياسة الحرب ومن الجانب الآخر رياسة التدبير وولاه المأمون في هذه السنة وهي سنة ١٩٦ على المشرق كله وجعل عمالته ثلاثة آلاف الف درهم (نحو ستين الف جنيه)

ولما تم للمأمون النصر بتدبيره استولى عليه حتى ضايقه ولما كان من أمر أهل بغداد ما كان دبر المأمون عليه بسرخس من قتله وكان الفضل يتشيع حتى حمل المأمون على بيعة على الرضا بولاية العهد من بعده فجنى بذلك على نفسه وعلى على الرضا من بعده . وكان الفضل بن سهل مولعا بالنظر فى النجوم ويقال ان له اصابات كثيرة فى أمور أنبأ عنها قبل موقعها . وجميع مادبره في أمر المأمون مع أخيه يدل على فكر سديد ورأى محكم وكان مع ذلك جيد الكتابة حسن القول سخى اليد وقد مدحه كثير من شعراء عصره

استوزر المأمون بعد وفاة الفضل بن سهل أحمد بن أبي خالد وأصله شامى مولى لبني عامر بن لؤى وكان أبوه كاتبا لعبيد الله كاتب المهدى أحضره المأمون بعد وفاة الفضل بن سهل وقال له اني كنت عزمت ألا استوزر أحدا بعد ذى الرياستين وقد رأيت أن استوزرك فقال يا أمير المؤمنين — اجعل بيني و بين الغاية منزلة يتأملها صديقى فيرجوها لى ولا يقول عدوى قد بلغ الغاية وليس الا الانحطاط — فاستحسن المأمون كلامه واستوزره .

وكان أحمد هذا من خيار الوزراء يحب أن تخلص قلوب الرعية لامامه فكان دائم المشورة بما يسر أنفسهم ويسل دفين الاحقاد من صدورهم ومن طريف ماحصل منه مع المأمون ان المأمون ذكر يوما عمرو بن مسعدة فاستبطأه وقال يظن أنى لا أعرف أخباره وما يحبب اليه وما يعامل به الناس وكان أحمد حاضرا هذا المجلس فذهب الى عمرو وأخبره الخبر - فراح عمرو الى المأمون فلما دخل عليه وضع سيفه بين يديه وقال يا أمير المؤمنين أنا عائذ بالله من سخطك ثم عائذ بك من سخطك ياأمير المؤمنين أنا أقل من أن يشكونى أمير المؤمنين الى أحد أو يسر لى ضغنا يبعثه بعض الكلام على اظهاره مايظهر منه - فقال له وما ذاك فاخبره عمرو بما بلغه ولم يسم له المخبر فقال له المأمون لم يكن الامر كما بلغك وانما كانت جملة من تفصيل كنت على أن أخبرك به وانما اخرج منى هذا الكلام معنى تجاريناه وليس لك عندى الا ما تحب فليفرخ روعك وليحسن ظنك - وظهر في وجهه الحياء والخجل . فلما غدا أحمد على المامون قال له أما لمجلسى حرمة - فقال يا أمير المؤمنين وهل الحرمة الا لما فصل عن مجلسك فأخبره المأمون الخبر وان بعض من حضر من بني هاشم هو الذى أفشى ما قاله المأمون فقال احمد انا يا امير المؤمنين اخبرت عمرا لا احد من بنى هاشم والذى حملنى على ذلك الشكر لك والنصح والمحبة لان تتم نعمتك على اوليائك وخدمك انا اعلم ان امير المؤمنين يحب ان يصلح له الاعداء والبعداء فكيف الاولياء والقرباء لا سيما مثل عمرو في دنوه من الخدمة وموقعه من العمل ومكانه من رأى

أمير المؤمنين أطال الله بقاءه فيه سمعت أمير المؤمنين أنكر منه شيئا فخبرته به ليصلحه ويقوم من نفسه أودها لسيده ومولاه ويتلافى ما فرط منه ولا يفسده مثله ولا يبطل العناء فيه وانما كان يكون ما فعلت عيبا لو أشعت سرا فيه قدح في السلطان أو نقض تدبير قد استتب فاما مثل هذا فما حسبته ان يكون ذنبا علي - فنظر اليه المأمون مليا وقال كيف قلت فاعاد عليه ما قال ثم قال أعد فاعاد الثالثة فقال له المأمون أحسنت لما أخبرتنى به أحب الى من الف الف والف الف والف الف وعقد خنصره وبنصره والوسطى وقال اما الف الف فلنفيك عنى سوء الظن وأطلق وسطاه واما الف الف فلصدقك اياى عن نفسك وأطلق البنصر واما الف الف فلحسن جوابك واطلق الخنصر

ومن عيوب أحمد بن أبى خالد انه كان شرها يتقرب اليه الناس بالمآكل لينالوا ماعنده من المصالح وكان المأمون يعرف ذلك منه فاجرى عليه كل يوم لمائدته الف درهم لئلا يشره الى طعام احد من بطانته وكان مع هذا يشره الى طعام الناس وتمتد عينه الى هدية تأتيه وكان مع هذا أسى اللقاء عابس الوجه يهر في وجوه الخاص والعام غير ان فعله كان أحسن من لقائه وكان من عرف أخلاقه وصبر على مداراته نفعه وا كسبه

ومن الغريب ان يتفق لشخص الشراهة الى طعام الناس وكثرة العطايا التي كان يمنحها من خاص ماله وقد روى عنه أبو الفضل أحمد بن طاهر بن طيفور في أخبار بغد د انه كان يقول يهدى الى الطعام فو الله ما أدرى ما أصنع به يهديه الى صديق أستحي من رده عليه

توفى أحمد بن أبى خالد فى ذي القعدة سنة ٢١١ وصلى عليه المأمون ولما دلى فى حفرته ترحم عليه وقال أنت والله كما قال القائل

أخو الجدان جد الرجال وشمروا وذو باطل ان كان في القوم باطل

استوزر المأمون بعده أحمد بن يوسف . كان كاتبا من خيرة الكتاب

وأجودهم خطا حتى قال له المأمون يوما يا أحمد لوددت اني أخط مثل خطك وعلى صدقة الف الف درهم وكان يجيد الكتابة حتى كان المأمون اذ كان يتولى عمرو بن مسعدة ديوان الرسائل كان يكلف أحمد بن يوسف بكتابة الكتب التى يريد ان تشهر وتذكر وولاه المأمون ديوان السر وبريد خراسان وصدقات البصرة . ولما مات أحمد بن أبي خالد استوزره مكانه وكان من بطانة المأمون من يحسد أحمد بن يوسف على الدرجة التى وصل اليها من المأمون فكادوا له المكايد حتى أقصوه عن قلبه وقد أردت أن أبين لحضراتكم الطريقة الدنيئة التى اتبعوها مع هذا الوزير الذى لم يجدوا فيه عيبا من جهة عمله . كان المأمون يستدعي أحمد بن يوسف سحرا لقضاء الامور معه فقال أحد البطانة لخادم ممن يقوم على رأس المأمون اذا خص المأمون أحمد بن يوسف بكرامة أو لون من الالوان فاعلمني وضمن له من أجل ذلك مالا . دخل أحمد عند المأمون ذات يوم سحرا وليس عنده أحد وكان تحت المأمون مجمرة عليها بيضة عنبر كان أمر بوضعها حين دخل أحمد ولم تكن النار قد عملت فيها الا قليلا فاراد ان يكرم بها أحمد ويؤثره بها فامر بان تنقل تحته . فاخبر الخادم صاحبه بذلك وهو محمد بن الخليل بن هشام فلما دخل على المأمون سأله عما تقوله العامة وما تتحدث به فكان مما أخبره به ان قال انصرفت يوما فمررت بمشرعة وأنا فى الزلال (قارب) فسمعت سقاء يقول لآخر معه مارأيت كما يخبر ندماء هذا الرجل عنه فقال ومن تعني — قال له أمير المؤمنين — قال وما ذاك — قال انصرف من عنده أحمد بن يوسف فسمعته يقول لغلامه ما رأيت أحدا قط أبخل ولا أعجب من المامون دخلت عليه اليوم وهو يتبخر فلم تتسع نفسه أن يدعو لى بقطعة بخور حتى أخرج القتار الذى كان تحته فبخرني به — فعرف المامون الحديث وقال في نفسه والله ما حضر هذا اليوم أحد فاتوهم فيه ضربا من الضروب — وجفا أحمد بن يوسف وأزاله عن مرتبته .

استوزر المامون بعده القاضى يحيي بن أكثم التميمى كان من جلة العلماء الفقهاء الذين لهم قدم ثابتة في الحديث والفقه والاصول تولى قضاء البصرة وسنه

عشرون سنة ثم اتصل بالمأمون وصله به ثمامة بن اشرس العالم المتكلم الذي كان المأمون يثق به كثيراً فلما احتاج المأمون الى من يوليه الوزارة عرضها على ثمامة فامتنع منها ووصف له يحيي فاستوزره وولاه مع ذلك قاضي القضاة فكان اليه تدبير المملكة والقضاء وقلما اجتمعا في شخص . وكان يحيي على مذهب العامة فكان اذا أراد المأمون شيئا يخالف ماهم عليه احتال فيما يرجعه عنه . أراد المأمون ان يعلن يوما حل المتعة وهو شيء نهى عنه عمر بن الخطاب فدخل عليه يحيي وهو متغير فسأله المأمون عن سبب تغيره فقال غم يا أمير المؤمنين لما حدث في الاسلام وهو النداء بتحليل الزنا قال الزنا — قال نعم المتعة زنا — قال من أين قال من كتاب الله وحديث رسول الله قال الله تعالى (والذين هم لفروجهم حافظون الا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون) يا أمير المؤمنين زوجة المتعة ملك يمين قال لا قال فهي الزوجة التي عند الله ترث وتورث وتلحق الولد ولها شرائطها قال لا قال فقد صار من يتجاوز هذين من العادين — وهذا الزهري يا أمير المؤمنين روى عن عبد الله والحسن بن محمد بن الحنفية عن أبيهما عن على بن أبي طالب قال أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم ان أنادي بالنهي عن المتعة وتحريمها بعد أن كان قد أمر بها — فسال المامون عن حديث الزهري أهو محفوظ فعلم أنه رواه مالك فقال المامون أستغفر الله وأمر فنودي بتحريم المتعة . وكان يحيي مع فقهه من أدهى الناس وأخبرهم بالامور فيصحا جوابه على قدر سؤال سائله . لقيه مرة رجل فقال أصلح الله القاضي كم آكل قال فوق الجوع ودون الشبع — قال فكم أضحك قال حتى يسفر وجهك ولا يعلو صوتك — قال فكم أبكي قال لا تمل من البكاء من خشية الله تعالى ـ قال فكم أخفي عملي قال ما استطعت ـ قال فكم أظهر منه قال مقدار ما يقتدي بك البر الخير ويؤمن عليك قول الناس

وكان يحيي من المحدثين الذين روي عنهم الحديث وقد اتهم بهنات لم يثبتها الناقدون من أهل عصره قال طلحة بن محمد بن جعفر في حقه يحيي بن أكثم أحد

أعلام الدنيا قد اشتهر أمره وعرف خبره ولم يستتر عن الكبير والصغير من الناس فضله وعلمه ورياسته وسياسته لامره وأمر أهل زمانه من الخلفاء والملوك واسع العلم بالفقه كثير الادب حسن المعارضة قائم بكل معضلة وغلب على المامون حتى لم يتقدمه أحد من الناس جميعا عنده . وكان المامون ممن برع فى العلوم فعرف من حال يحيى بن أكثم وما هو عليه من العلم والعقل ما أخذ بمجامع قلبه حتى قلده قضاء القضاة وتدبير أهل مملكته فكانت الوزراء لاتعمل فى تدبير الملك شيئا الا بعد مطالعة يحيى بن أكثم

وذكر الخطيب فى تاريخه انه ذكر لاحمد بن حنبل رضى الله عنه ما يرميه الناس به فقال سبحان الله من يقول هذا وأنكر ذلك انكارا شديدا ذكر ذلك ابن خلكان فى تاريخه وقال الطيفوري في تاريخ بغداد قال أحمد بن أبى طاهر كان المامون يحضر يحيى بن أكثم وهو يشرب فلا يسقيه و يقول لو أراد يحيى ان يشرب ماتركته وربما وضعت الصحفة قدام المامون فيها مطبوخ (نبيذ) ويحيى يأكل معه فيقول له المامون فيها مطبوخ اني لا أترك قاضيّ يشرب النبيذ

ولم يذكر ابن طباطبا في كتابه الفخرى يحيى بن أكثم في عداد وزراء المامون والظاهر من عبارة طلحة بن محمد التى اوردناها انه كان بمنزلة مستشار للخليفة فيما يجرى على ايدى الوزراء من الاعمال

ولم يكن ختام أمره مع المامون خيرا فقد كان من ضمن وصية المامون لاخيه المعتصم . ولا تتخذن بعدى وزيرا تلقى اليه شيئا فقد علمت ما نكبني به يحيى بن أكثم في معاملة الناس وخبث سيرته حتى أبان الله ذلك منه في صحة منى فصرت الى مفارقته قاليا له غير راض بما صنع في أموال الله وصدقاته لا جزاه الله عن الاسلام خير

ولولا هذه العبارة في وصية المامون لم يكن وصل الى علمنا شيء مما كان بين المامون ويحيي بن اكثم في خاتمة الاتصال بينهما ثم رأيت في مروج الذهب ان المامون سخط عليه سنة ٢١٥ وذلك بمصر وبعث به الى العراق مغضوبا عليه

وقد طالت حياة يحيي بن اكثم حتى توفى في عهد جعفر المتوكل

ومن وزراء المأمون أبوعباد ثابت بن يحيي بن يسار الرازى وهو الذى يقول فيه دعبل

أولى الامور بضيعةوفساد أمر يدبره أبو عباد

فقد كان مع كتابته وحذقه بالحساب أهوج محمقا . وقد قيل للمأمون ان دعبلا هجاك فقال من أقدم على هجاء أبي عباد كيف لا يهجونى . وكان شديد الحدة سريع الغضب ربما اغتاظ من بعض من يكون بين يديه فرماه بدواته أو شتمه فأفحش

ومن وزرائه أبو عبد الله محمد بن نزداد بن سويد وهوآخر وزرائه وأصل بيته من خراسان كانوا مجوسا ثم أسلموا واتصلوا بالخلفاء وسويد أول من أسلم منهم وخرج بنوه كتابا ولا سيما محمدا فانه تأدب وبرع في كل شئ فاستوزره المأمون ومات وهو وزيره

ولم يكن للوزراء في عهد المأمون كبير نفوذ بالامور ولا استبداد بمصالح الدولة بل كانوا ينهون هـذه المصالح مع المأمون نفسه ويظهر ان الحوادث السابقة في عهد الرشيد ومن قبله بل وفي أول عهد المأمون جعلت الخليفة ينظر أمور دولته بنفسه لئلا يستفحل أمر وزرائه فيكون من ذلك ما يخشاه من مثل ما حصل للفضل بن سهل ولجعفر بن يحيي البرمكي وأهل بيته ولمن قبلهم من أمثالهم

الاحوال الداخلية

العلويون وآثارهم في الدولة

قدمنا ما كان من المأمون من اختياره لولاية عهده على الرضا بن موسى الكاظم وهو الثامن من أئمة الشيعة الامامية الاثنى عشرية واتخاذه الشعار الاخضر بدل الاسود وما ترتب على ذلك من الاضطراب في بغداد وقيام أبي السرايا والعلويين الذين قاموا من أجل قيامه فى الامصار الكبرى ثم ما كان من وفاة على الرضا بطوس وانتهاء فتنة أبي السرايا وسقوط جميع العلويين الذين خرجوا فى ذلك الوقت بالبصرة والحجاز واليمن — ونزع المأمون للشعار الاخضر بعد حلوله ببغداد وعودته الى شعار أهل بيته وهو السواد . وكان

المأمون قد صاهر عليا فزوجه ابنته ثم زوج محمد بن علي المعروف بالجواد وهو الامام التاسع من أئمة الشيعة ابنته الاخرى ولم يكن من محمد هذا مايريب المأمون وكان المأمون يعامل الطالبيين معاملة تناسب اعتقاده فى فضل أبيهم الى أن خرج في سنة ٢٠٧ باليمن من آل أبي طالب عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن عمر بن على بن أبي طالب فوجه اليه المأمون دينار بن عبد الله فى جيش كثيف وكتب معه بامانه فحضر دينار بن عبد الله الموسم وحج ولما فرغ من حجه سار الى اليمن حتى أتى عبد الرحمن فبعث اليه بامانه من المأمون فقبل ذلك ودخل ووضع يده فى يد دينار فخرج به الى المأمون فمنع المأمون عند ذلك الطالبيين من الدخول عليه وأمر بأخذهم بلبس السواد

ومع ذلك فقد جاء في وصيته لاخيه المعتصم وهو يجود بنفسه (وهؤلاء بنو عمك أمير المؤمنين على بن أبي طالب رضى الله تعالى عنه فأحسن صحبتهم وتجاوز عن مسيئهم واقبل من محسنهم وصلاتهم فلا تغفلها في كل سنة عند محلها فان حقوقهم تجب من وجوه شتى)

و بسبب اختلال الامن في البلاد اليمنية و رسوخ التشيع فيها أراد المامون أن يختار لولاية تهامتها من ياخذ على أيدى المفسدين فيها فاشار عليه الحسن بن سهل برجل من ولد زياد بن أبى سفيان وهو محمد بن ابراهيم الزيادي فولاه اياها سنة ٢٠٣ فتوجه فحج ثم ذهب الى اليمن ففتح تهامة واختط مدينة زبيد سنة ٢٠٤ وهى التى صارت حاضرة تهامة . وقد عظم أمر الزيادى بعد ذلك باليمن وصار كملك مستقل الا أنه كان يخطب لبني العباس ويحمل اليهم الخراج والهدايا وطال ملكه الى سنة ٢٤٥ ثم صار الملك فى أبنائه ثم في مواليهم وموالى مواليهم الى سنة ٥٥٣ وتعرف هذه الدولة بالدولة الزيادية وهى أول الدول استقلالا باليمن

وحال هذه الدولة يشبه حال دولة الاغالبة فى أفريقية فان الرشيد ولاها ابراهيم ابن الاغلب التميمى ليكون حاجزا بين الخلافة العباسية و بين الادارسة الذين بالمغرب الاقصى وكانت توليته اياها سنة ١٨٤ فعظم أمره وصار كملك مستقل الا أنه يخطب

للرشيد واستمر الملك فى أعقابه الى سنة ٢٩٦ وكان الامير فى عهد المأمون عبد الله ابن ابراهيم بن الاغلب (١٩٦ — ٢٠١) ثم زيادة الله بن ابراهيم بن الاغلب الذى استمر ملكه الى سنة ٢٢٣ وهو الذى فتح جزيرة صقلية من أيدى الروم

فهاتان الدولتان من أول الدول المتغلبة على أطراف بنى العباس وأصل تكوينهم الخوف من الطالبيين وامتداد نفوذهم وذلك بعد أن اقتطع من الخلافة المغرب الاقصى للادارسة والاندلس لبني أمية

ابراهيم بن المهدي

قدمنا ما كان من بيعة أهل بغداد لابراهيم بن المهدى اذ كان المأمون بمرو فلما شخص المأمون الى بغداد وعلم بقدومه القواد الذى كانوا مع ابراهيم تركوه فلما رأى ذلك اختفى وظل مختفيا ببغداد يتنقل من دار الى دار الى سنة ٢١٠ وفي تلك السنة أخذ أخذه حارس أسود وهو متنقب مع امرأتين فى زى امرأة فأعلم المأمون بخبره فامر بالاحتفاظ به ثم دخل به عليه فقال له هيه يا ابراهيم فقال — يا أمير المؤمنين ولى الثأر محكم في القصاص والعفو أقرب للتقوى ومن تناوله الاغترار بما مد له من أسباب الشقاء أمكن عادية الدهر من نفسه وقد جعلك الله فوق كل ذى ذنب كما جعل كل ذى ذنب دونك فان تعاقب فبحقك وان تعف فبفضلك — قال بل أعفو يا ابراهيم فقال ابراهيم يمدحه

يا خير من ذملت يمانية به ... بعد الرسول لآيس أو طامع
وأبرّ من عبد الاله على التقى ... عينا وأقوله بحق صادع
عسل الفوارع ما أطعت فان تهج ... فالصاب يمزج بالسمام الناقع
متيقظا حذرا وما يخشى العدا ... نبهان من وسنات ليل الهاجع
ملئت قلوب الناس منك مخافة ... وتبيت تكلؤهم بقلب خاشع
بأبي وأمى فدية وبنيهما ... من كل معضلة وريب واقع
ما ألين الكنف الذى بوأتنى ... وطنا وأمرع رتعه للراتع

للصالحات أخا جعلت وللتقى وأبا رؤفا للفقير القانع
نفسي فداؤك اذ تضل معاذري وألوذ منك بفضل حلم واسع
أملا لفضلك والفواضل شيمة رفعت بناءك بالمحل اليافع
فبذلت أفضل ما يضيق ببذله وسع النفوس من الفعال البارع
وعفوت عمن لم يكن عن مثله عفو ولم يشفع اليك بشافع
الا العلو عن العقوبة بعد ما ظفرت يداك بمستكين خاضع
فرحمت أطفالا كأفراخ القطا وعويل عانسة كقوس النازع
وعطفت آصرة علي كما وعى بعد انهياض الوثي غظم الظالع
الله يعلم ما أقول فانها جهد الألية من حنيف راكع
ما ان عصيتك والغواة تقودني أسبابها الا بنية طائع
حتى اذا علقت حبائل شقوتي بردي الى حفر المهالك هائع
لم أدر ان لمثل جرمي غافرا فوقفت انظر أي حتف صارعي
رد الحياة على بعد ذهابها ورع الامام القادر المتواضع
أحياك من ولاك أطول مدة ورمى عدوك في الوتين بقاطع
كم من يد لك لم تحدثني بها نفسي اذا آلت الي مطامعي
أسديتها عفوا الى هنيئة فشكرت مصطنعا لأكرم صانع
الا يسيرا عند ما أوليتني وهو الكثير لدي غير الضائع
ان أنت جدت بها على تكن لها أهلا وان تمنع فأعدل مانع
ان الذي قسم الخلافة حازها في صلب آدم للامام السابع
جمع القلوب عليك جامع أمرها وحوى رداءك كل خير جامع

فذكر أن المأمون حين أنشده ابراهيم هذه القصيدة قال أقول ما قال يوسف لاخوته — لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين

ومن الغريب أن المأمون قد اطلع قبيل ذلك على مؤامرة يقصد بها خلع المأمون

واعادة ابراهيم بن المهدى للخلافة ورئيس هذا الامر ابراهيم بن محمد بن عبدالوهاب ابن ابراهيم الامام المعروف بابن عائشة

وكان اطلاع المأمون على ذلك فى يوم السبت ٥ صفر سنة ٢١٠ والظفر بابراهيم ابن المهدى ليلة الاحد ١٣ ربيع الآخر سنة ٢١٠ — وقد انتقم المأمون من ابن عائشة انتقاما شديدا فقد أمر أن يقام ثلاثة أيام فى الشمس على باب دار المأمون ثم ضربه بالسياط ثم أمر بحبسه في المطبق وفعل قريبا من ذلك بمن كانوا معه وقد كتبوا للمأمون أسماء من دخل معهم في هذا الامر من القواد والجند وسائر الناس فلم يعرض المأمون لاحد ممن كتبوا به ولم يأمن ان يكونوا قد قذفوا أقواما برآء . ثم أمر المأمون بعد ذلك بابن عائشة فقتل وصلب وهو أول مصلوب في الاسلام من بني العباس وقتل معه ثلاثة من رؤس المتآمرين وكان قتلهم فى ١٤ جمادى الآخرة من تلك السنة

نصر بن شبث

كان نصر بن شبث من بني عقيل يسكن يكسوم شمالى حلب وكان عربيا شريفا شهما له في محمد الامين هوى فلما قتل الامين غضب ولا سيما لما رأى العنصر العربي قد انحط شأنه وصار معظم القواد والامراء من غيرهم فاظهرهم الخروج على السلطان وكان ذلك في أواخر سنة ١٩٨ وتغلب على ماجاوره من البلاد وملك سميساط واجتمع عليه خلق كثير من الاعراب وأهل الطمع وقويت نفسه وعبر الفرات الى الجانب الشرقى وحدثته نفسه بالتغلب عليه فلما رأى الناس ذلك منه كثرت جموعه وزادت على ما كانت

لما انتصر طاهر بن الحسين على الامين وملك العراق ولى الحسن بن سهل على كل ما افتتحه وأمر ان يسلم ذلك اليه وان يسير الى الرقة لمحاربة نصر وولاه المأمون الموصل والجزيرة والشام والمغرب فسار طاهر الى وجهه وأرسل الى نصر يدعوه الى الطاعة وترك الخلاف فلم يجب فتقدم اليه طاهر ولقيه بنواحى يكسوم فاقتتلا هناك

قتالا عظيما أبلى فيه نصر بلاء حسنا فكان النصر له وعاد طاهر الى الرقة شبه المنهزم وكان قصارى أمره حفظ تلك النواحي . والظاهر انه لم يكن جادا في حرب نصر لانه رأى نفسه قد جرد مما افتتحه من العراق وغيره ولم يتمتع بشيء مما جناه

كان ذلك مما قوى أمر نصر حتى كثر جمعه وحصر حرّان بالجزيرة وأتاه نفر من شيعة الطالبيين فقالوا له قد وترت بني العباس وقتلت رجالهم فلو بايعت لخليفة كان أقوى لامرك — فقال من أى الناس — فقالوا نبايع لبعض آل علي بن أبي طالب . فقال أبايع بعض أولاد السوداوات فيقول انه خلقني ورزقني . قالوا فنبايع لبعض بني أمية . قال أولئك قوم قد أدبر أمرهم والمدبر لا يقبل أبدا ولو سلم عليّ رجل مدبر لاعداني ادباره وانما هواي في بني العباس وانما حاربتهم محاماة عن العرب لانهم يقدمون عليهم العجم . ولما شخص المأمون الى بغداد أمر طاهرا أن يلقاه بها فترك الرقة واستخلف على الجيش ابنه عبد الله وأمره ان يقاتل نصرا فلما قدم طاهر ولاه المأمون خراسان وولى ابنه عبد الله من الرقة الى مصر وأمره بالجد فى محاربة نصر وحينذاك كتب طاهر الى ابنه عبد الله ذلك الكتاب المشهور الذى جمع فيه كل ما يحتاج اليه الامراء من الآداب والسياسة والحث على مكارم الاخلاق ومحاسن الشيم مما لا يستغنى عنه أحد من ملك وسوقة وهذا الكتاب قد تنازعه الناس وكتبوه وشاع أمره وبلغ المأمون خبره به فدعا فقرئ عليه فقال ما أبقى أبو الطيب (يعنى طاهرا) شيئا من أمر الدنيا والدين والتدبير والرأي والسياسة وحفظ السلطان وطاعة الخلفاء وتقويم الخلافة الا وقد أحكم وأوصى به وأمر فكتب به الى جميع العمال والنواحي

ذهب عبد الله الى وجهه في محاربة نصر فجد فى أمره وحصره وضيق عليه حتى مال الى طلب الامان وفى ذلك الوقت ندب المأمون جعفر بن محمد العامري ليؤدي الى نصر رسالة فذهب اليه وهو بكفرعزون بسروج فأبلغه رسالة المأمون التى يطلب فيها منه ترك الحرب والجنوح الى السلم فأذعن وشرط شروطا منها الا يطأ بساطه فأبى المامون وأبلغه مطالب نصر فقال لا أجيبه والله الى هذا أبدا ولو أفضيت الى بيع

قميصى حتى يطأ بساطى . فعاد الرسول الى نصر فاخبره فصاح بالخيل صيحة فجالت ثم قال ويلى عليه هو لم يقو على أربعمائة ضفدع تحت جناحه (يعنى الزط) يقوى على حلبة العرب . ولكنه مع جد عبد الله بن طاهر فى حربه أجاب الى التسليم وطلب الامان فكتب له المأمون كتاب أمان فخرج الى عبد الله بن طاهر وحينذاك هدم يكسوم وخربها ووجه بنصر الى المأمون فدخل بغداد في صفر سنة ٢١٠ وأنزل مدينة أبي جعفر ووكل به من يحفظه

وكان مقام عبد الله بن طاهر على حربه خمس سنين

الزط

الزط معرب (جت) قال عنهم ابن خلدون هم قوم من أخلاط الناس غلبوا على طريق البصرة وعاثوا فيها وأفسدوا البلاد اه وهم المعروفون بالنور أصلهم من هنود آسيا كانوا يسكنون شواطىء الخليج الفارسى تجمعوا واستولوا على طريق البصرة أيام الفتنة التى كانت بين الامين والمأمون ولما استقر المأمون ببغداد بعث عيسى بن يزيد الجلودى لحربهم سنة ٢٠٥ ويظهر انهم كانوا اذا أحرجتهم الجنود تفرقوا فى تلك الفيافي فقد ذكر الطبرى في حوادث سنة ٢٠٦ أن المأمون ولى داود بن ماسجور محاربة الزط وأعمال البصرة وكور دجلة واليمامة والبحرين ولم يذكر هو ولا متبعوه نتيجة فعله ولا فعل من قبله والظاهر أنهما لم يؤثرا أثرا فاصلا بدليل ماورد في عبارة نصر بن شبث (انه لم يقو على أربعمائة ضفدع تحت جناحه) وقد استمر أمرهم كذلك الى سنة ٢١٩ فى عهد المعتصم حيث وجه اليهم عجيف بن عنبسة أحد قواده وكانوا قد عاثوا في طريق البصرة فقطعوا فيه الطريق واحتملوا الغلات من البيادر بكسكر وما يليها من البصرة وأخافوا السبيل فاهتم عجيف بحربهم ليضربهم ضربة قاضية فعسكر بقرب واسط وسد الانهار التى كان الزط يدخلون منها ويخرجون فحصرهم من كل وجه ولما أخذ عليهم طرقهم حاربهم وأسر منهم ٥٠٠ رجل وقتل منهم في المعركة ٣٠٠ رجل فضرب أعناق الاسرى وبعث برؤس جميعهم الى المعتصم . ثم أقام

بازائهم ١٥ يوما ظفر منهم فيها بخلق كثير وكان رئيس الزط رجلا يقال له محمد بن عثمان وكان صاحب أمزه والقائم بالحرب سملق . ومكث عجيف يقاتلهم فيما قيل تسعة أشهر ولم يزل يلح عليهم حتى طلبوا منه الامان فآمنهم فخرجوا اليه في ذي الحجة سنة ٢١٩ على انهم آمنون على دمائهم وأموالهم وكانت عدتهم فيما ذكر ٢٧ ألفا المقاتلة منهم ١٢ ألفا وأحصاهم عجيف ٢٧ ألف انسان بين رجل وامرأة وصبي ثم جعلهم في السفن وأقبل بهم حتى نزل الزعفرانية وأقام بها يوما وعبأهم فى زواريقهم على هيئتهم في الحرب معهم البوقات حتى دخل بهم بغداد يوم عاشوراء سنة ٢٢٠ فمروا على المعتصم على تعبئتهم ثم عبر بهم الى الجانب الشرقى فدفعوا الى بشر بن السميدع فذهب بهم الى خانقين ثم نقلوا الى الثغر الى عين زربة - وقد ذكر ابن الاثير في حوادث سنة ٢٤١ في عهد المتوكل ان الروم أغارت على عين زربة فأخذت من كان بها أسيرا من الزط مع نسائهم وذراريهم وذويهم

بابك الخرّمى

بين اذربيجان واران فى شمال بلاد الفرس كورة تدعى البذ يمر بها نهر الرس العظيم . بهذه الكورة خرج بابك التى امتدت فتنته زمنا طويلا في عهد المأمون والمعتصم وكان خروجه سنة ٢٠١ فى عهد المأمون ومنتهاه سنة ٢٢١ في عهد المعتصم . ولا بد لنا من شرح أحوال هذا الرجل وفتنه وما كانوا عليه من الاعتقاد وما أثروه فى دولة المأمون والمعتصم

تمتاز البلاد الفارسية بكثرة المذاهب والاعتقادات الدينية سواء في ذلك ما كان قبل البعثة المحمدية وما بعدها ومن تلك الطوائف فرقة تسمى الحرمية بالحاء والراء المهملتين كما جرى عليه ابن النديم فى فهرسه وهم صنفان الحرمية الاولون ويسمون المحمرة وصاحبهم مزدك القديم أمرهم بتناول اللذات والانعكاف على بلوغ الشهوات والاكل والشرب والمواساة والاختلاط وترك الاستبداد بعضهم على بعض ولهم مشركة فى الحرم والاهل لا يمتنع الواحد منهم من حرمة الآخر ولا يمنعه ومع هذه الحال فيرون

أفعال الخير وترك القتل وادخال الآلام على النفوس ولهم مذهب في الضيافات ليس هو لاحد من الامم اذا أضافوا الانسان لم يمنعوه من شيء يلتمسه كائنا ما كان وعلى هـذا المذهب مزدك الاخير الذى ظهر أيام قباذ بن فيروز وقتله أنوشروان وقتل أصحابه . الصنف الثانى الحرمية البابكية ينسبون الى صاحبهم بابك الحرمى وكان يقول لمن استغواه انه اله وأحدث في مذاهب الحرمية القتل والغصب والحروب والمثلة ولم تكن الحرمية تفعل ذلك . هكذا ذكر ابن النديم ومنه يظهر وجه تسميتهم بالحرمية. أما سائر المؤرخين فيقولون هم الخرمية بالخاء المعجمة المضمومة والراء المفتوحة المشددة قال أبو سعيد عبد الكريم بن محمد السمعانى المروزى في كتاب الانساب «الخرمي» نسبة الى طائفة من الباطنية يقال لهم الخرمدينية يدينون بما يريدون ويشتهون وانما لقبوا بذلك لاباحتهم المحرمات من الخمر وسائر اللذات ونكاح ذوات المحارم وفعل ما يتلذذون به فلما شابهوا في هذه الاباحه المزدكية من المجوس الذين خرجوا فى أيام قباذ وأباحوا النساء كلهن وأباحوا سائر المحرمات الى أن قتلهم أنوشروان بن قباذ قيل لهم بهذه المشابهة خرمدينية كما قيل للمزدكية . وقال صاحب القاموس خرمة قرية بفارس منها بابك الخرمى – ثم قال وتخرم دان بدين الخرمية لاصحاب التناسخ والاباحة

ومن ذلك يظهر ان ما جاء فى فهرس ابن النديم تحريف

نشأ بابك بن بهرام بقرية تدعى بلال أباد من رستاق ميمند ثم اتصل بجاويدان ابن سهرك ملك جبال البذ ورئيس من بها من الخرمية وكان جاويدان يرى منه فهما وشهامة وخبثا فقربه اليه . ولما أدركته منيته اجتهدت امرأته في ان يكون بابك مكانه في الملك فجمعت الخرمية وقالت لهم ان جاويدان قال لى انى أموت فى ليلتى هذه وان روحى تخرج من جسدي وتدخل بدن هذا الغلام خادمى وقد رأيت أن أملكه على أصحابي فاذا مت فاعلميهم ذلك وأن لا دين لمن خالفنى فيه واختار لنفسه خلاف اختيارى فقبلوا ذلك منها وتزوجت بابك

أخذ بابك ومن معه في العيث والفساد واخافة السبل وأول ماعرف ذلك من

أمره كان سنة ٢٠١ والمأمون بمرو لم يبرحها الى بغداد فلما شخص المأمون الى بغداد عين أحـد قواده يحيى بن معاذ لحرب بابك فكانت بينهما وقعة لم ينتصف فيها احدهما من الآخر. فاختار المامون قائدا آخر هو عيسى بن محمد بن أبي خالد فولاه أرمينية واذربيجان ومحاربة بابك فنكب . ثم وجه اليـه صدقة بن على المعروف بزريق وندب للقيام بأمره أحمد بن الجنيد الاسكافى فاسره بابك . ثم وجه اليـه محمد بن حميد الطوسى فقتله بابك سـنة ٢١٤ بهشتادسر وفض عسكره وقتل جمعا كثيرا ممن كان معه . هكذا كان كلمـا أرسل لحرب بابك قائد لم يصنع شيئا لمكان بابك الحصين وقوته الكبيرة وشـدة تأثيره فى قلوب الجمهور الذى كانوا معه . وقد ذكر في حوادث سنة ٢١٨ دخول جماعة كثيرة من أهل الجبال من همذان وأصبهان وما سبذان ومهرجان قذق فى دين الخرمية وتجمعوا فعسكروا فى عمل همذان وذلك أول ولاية المعتصم فوجه اليهم الجنود وكان آخر عسكر وجه اليهم وجهه المعتصم مع اسحاق بن ابراهيم بن مصعب وعقد له على الجبال فشخص اليهم وفض جموعهم وقتل فى عمل همذان ستين الفا منهم وهرب سائرهم الى بلاد الروم فقبلهم ملك الروم أحسن قبول وفرض لهم وزوجهم وصيرهم مقاتلة يستعين بهم فى أهم أموره

وكان من وصية المأمون لاخيه المعتصم حين أدركته المنية (والخرمية فأغزهم ذا حزامة وصرامة وجلد وا كنفه بالاموال والسلاح والجنود من الفرسان والرجالة فان طالت مدتهم فتجرد لهم بمن معك من أنصارك وأوليائك واعمل في ذلك عمل مقدم النية فيه راجيا ثواب الله عليـه) لذلك بذل المعتصم جهده في كسر شوكة بابك لئلا يمتد سر بدعته فى البلاد الفارسية فاختار لحربه قائدا تركيا من كبار قواده وهوحيدر بن كاوس الاشروسني المعروف بالافشين (الافشين لقب لملوك اشروسنة) وذلك سنة ٢٢٠ وقبـل أن يخرج لوجهه وجه أبا سعيد محمد بن يوسف الى مدينة أردبيل وأمره أن يبنى الحصون التى خربها بابك فيما بين زنجان وأردبيل ويجعل فيها الرجال مسالح لحفظ الطريق لمن يجلب الميرة الى أردبيل ففعل أبو سعيد ما أمر به

وأوقع بسرية أرسلها بابك للاغارة عليه وهذه أول مرة انهزم فيها لبابك جند . ثم نظم البريد بينه وبين الجيش فجعل من سامرا الى عقبة حلوان خيلا مضمرة على رأس كل فرسخ فرس معه مجر مرتب فكان يركض بالخيل ركضا حتى يؤديه من واحد الى واحد يدا بيد ومن حلوان الى أذربيجان رتب فيه دواب المرج فكان يركض بها يوما أو يومين ثم تبدل ويصير غيرها ويحمل عليها غلمان من أصحاب المرج كل دابة على رأس فرسخ وجعل لهم ديادبة على رؤس الجبال بالليل والنهار وأمروا أن ينعروا اذا جاءهم الخبر فاذا سمع الذي يليه النعير تهيأ فلا يبلغ اليه صاحبه الذى نعر حتى يقف له على الطريق فيأخذ الخريطة منه فكانت الخريطة تصل من عسكر الافشين الى سامرا فى أربعة أيام وأقل

توجه الافشين حتى أتي برزند فعسكر بها ورم الحصون فيما بين برزند وأردبيل وأنزل قوادا من قواده ببعض الحصون هناك لحراسة القوافل والسابلة وأطلق الافشين عيونه وجواسيسه لتعرف الاخبار عن بابك وأول وقعة كانت بينه وبين عسكر بابك بارشق أحد حصون الافشين حيث خرج بابك ليقنص مالا أرسله المعتصم مع أحد قواده فبلغ خبره الافشين فخرج اليه سرا والتقيا على مقربة من الحصن فأتى جند الافشين على جميع رجالة بابك وأفلت هو فى نفر يسير ودخل موقان ومنها توجه الى البذو وعاد الافشين الى عسكره ببرزند

استمرت الحروب بين الافشين وبابك مدة طويلة وكانوا لا يتحاربون الا اذا انصرم الشتاء لمكان الثلوج الشديدة التى كانت تكسو رؤس الجبال وتمنع المشاة من التقدم الى ان كان الربيع سنة ٢٢١ فسار الافشين من مكانه يريد مهاجمة البذ وأخذه عنوة فسار محترسا وقد رتب أموره أدق ترتيب لما هو قادم عليه فاستعرت لظى الحرب بين الفريقين واستبسلا كلاهما وانتهى الامر باقتحام المسلمين البذ واستيلائهم عليه . وقد أراد بابك الهرب وشرع فيه فافسد عليه الافشين تدبيره وسد عليه المسالك وأوقف عليها جندا من جيشه وأخيرا قبض عليه وعلى أخيه عبد الله وعاد بهما الافشين

الى سامرا كما أمره المعتصم ومعهما ١٧ رجلا من أهل بيته ومن البنات والكنات ٢٣ امرأة وكان يوم دخولهم سامرا يوما مشهودا ثم قتل بابك وصلب بسامرا وفعل مثل ذلك بأخيه عبد الله ببغداد

وكان جميع من قتل بابك فى عشرين سنة ٢٥٥٥٠٠ انسان وغلب كثيرا من القواد الذين ذكرناهم وكان عنده من الاسرى الذين استنقذهم الافشين ٧٦٠٠

الخراج فى عهد المأمون

يمتاز عهد المأمون بوجود أثر تاريخي يدل على مقدار الجباية الخراجية من جميع الاقاليم التى دخلت تحت حكم الدولة العباسية وهو الثَّبت الذى نقله العلامة ابن خلدون فى مقدمة تاريخه نقله عن كتاب جراب الدولة ولما فى ذلك الثبت من الفائدة أحببنا ان ننقله عنه وها هو ذا

الاقاليم	الجباية من الدراهم والدنانير	الجباية من العروض
السواد	٢٧ ٨٠٠ ٠٠٠ درهم	٢٠٠ حلة نجرانية ٢٤٠ رطلا من طين الختم
كسكر	١١ ٦٠٠ ٠٠٠ «	
كوردجلة	٢٠ ٨٠٠ ٠٠٠	
حلوان	٤ ٨ ٠ ٠٠٠	
الاهواز	٢٥ ٠٠٠ ٠٠٠	٣٠ ٠٠٠ رطل سكر
فارس	٢٧ ٠٠٠ ٠٠٠	٣٠ ٠٠٠ قرورة ماء ورد ٢٠ ٠٠٠ رطل زيت اسود
كرمان	٤ ٢٠٠ ٠٠٠	٥٠٠ ثوب متاع يمني ٢٠ ٠٠٠ رطل تمر
مكران	٤٠٠ ٠٠٠	
السند وما يليه	١٢ ٥٠٠ ٠٠٠	١٥٠ رطل عود هندي
	١٣٣ ١٠٠ ٠٠٠	

ما قبله	١٣٣ ١٠٠ ٠٠٠	
سجستان	٤ ٠٠٠ ٠٠٠	٢٠٠ ثوب معين ٢٠ رطل من الفانيذ
خراسان	٢٨ ٠٠٠ ٠٠٠	٢ ٠٠٠ نقرة فضة ٤ ٠٠٠ برذون ١ ٠٠٠ رأس رقيق ٢٠ ٠٠٠ ثوب متاع ٣٠ ٠٠٠ رطل اهاليج
جرجان	١٢ ٠٠٠ ٠٠٠	١ ٠٠٠ شقة ابريسم
قومس	١ ٥٠٠ ٠٠٠	١ ٠٠٠ نقرة فضة
طبرستان والرويان	٦ ٣٠٠ ٠٠٠	٦٠٠ قطعة فرش طبرى ٢٠٠ كساء ٥٠٠ ثوب
ودنباوند		٣٠٠ منديل ٣٠٠ جام
الري	١٢ ٠٠٠ ٠٠٠	٢٠ ٠٠٠ رطل عسل
همذان	١١ ٣٠٠ ٠٠٠	١ ٠٠٠ رطل رب الرمانين ١٢ ٠٠٠ رطل عسل
ماها البصرة والكوفة	١٠ ٧٠٠ ٠٠٠	
ماسبذان والريان	٤ ٠٠٠ ٠٠٠	
شهرزور	٦ ٧٠٠ ٠٠٠	
الموصل وما اليها	٢٤ ٠٠٠ ٠٠٠	٢٠ ٠٠٠ رطل عسل
أذربيجان	٤ ٠٠٠ ٠٠٠	
الجزيرة وماإليها من عمل الفرات	٣٤ ٠٠٠ ٠٠٠	١ ٠٠٠ رأس رقيق ١٢ ٠٠٠ رق عسل ١٠ بزاه ٢٠ كساء
أرمينية	١٣ ٠٠٠ ٠٠٠	٢٠ قسط محفور ٥٣٠ رطل رقم ١٠ ٠٠٠ رطل من المسايح السور ماهى ١٠ ٠٠٠ رطل سونج ٢٠٠ بغل ٣٠ مهرا
برقة	١ ٠٠٠ ٠٠٠	١٢٠ بساط
	١٧٢ ٥٠٠ ٠٠٠ درهم	

ماقبله	٠٠٠ ٦٠٠ ٣٠٥ درهم	
أفريقية	٠٠٠ ٠٠٠ ١٣	
	٠٠٠ ٦٠٠ ٣١٨ »	
قنسرين	٠٠٠ ٤٠٠ دينار	
دمشق	٠٠٠ ٤٢٠ »	
الاردن	٠٠٠ ٩٧ »	
فلسطين	٠٠٠ ٣١٠ »	٠٠٠ ٣٠٠ رطل زيت
مصر	٠٠٠ ٩٢٠ ١ »	
اليمن	٠٠٠ ٣٧٠ »	
الحجاز	٠٠٠ ٣٠٠ »	
	٠٠٠ ٨١٧ ٣	

فمجموع الخراج من الدراهم ٠٠٠ ٦٠٠ ٣١٨ درهم و ٠٠٠ ٣٨١٧ دينارا ومن العروض ما ذكر أمام كل اقليم واذا قوم بلغ شيئا كثيرا . كان هذا كله يرد الى بغداد حاضرة الخلافة ويتصرف فيه الخليفة فيدفع منه أرزاق وزرائه وعماله وحاشيته ويصرف منه في الحوادث التى تعرض للدولة من تجهيز الجيوش والباقى بعد ذلك كثير يهب منه ما شـاء لمن شاء وذلك مقدار وافر يد ورمعظمه في الحاضرة الكبرى فيزيدها سعة ورخاء وترفا . ومن نموذج ما كان يصرف على أيدى الخلفاء ماروواه الطيفورى في أخبار بغداد أنه ورد على المأمون وهو بالشام ٠٠٠ ٠٠٠ ٣٠ درهم حمله اليه المعتصم من خراج ما يتولاه فخرج المأمون وأصحابه ينظرون الى ذلك المال فقال ليحيى بن أكثم يا أبا محمد ينصرف أصحابنا هؤلاء الذين تراهم الساعة الى منازلهم خائبين وننصرف نحن بهذه الاموال قد ملكناها دونهم انا اذا اللئام ثم دعا محمد بن يزداد (وزيره) فقال وقع لآل فلان بألف ألف ولآل فلان بمثلها فما زال كذلك حتى فرق ٠٠٠ ٠٠٠ ٢٤ ورجله فى الركاب ثم قال ادفع الباقى الى المعلى يعطى جندنا — قال راوي الخبر فجئت حتى قمت نصب عينيه فلم أرد طرفي عنها لا يلحظنى الا يرانى بتلك الحـال فقال يا أبا محمد وقع لهذا بخمسين ألف درهم من

الستة الآلاف الالف لا يختلس ناظري قال فلم يأت ليلتان حتى أخذت المال . وهذا عطاء كثير ولكن الوارد أكثر

الجيش

ظهور الدولة العباسية على أيدي أهل خراسان والموالى جعل لهؤلاء شأنا عظيما في الدولة ومقاما لا ينقص عن مقام العرب فى اعتزاز الدولة بهم فكانت القواد العظام من أهل خراسان ومن العرب . وقيام دولة المأمون بأهل خراسان زاد مالهم في تلك الدولة و بقدر ما زادهم نقص من شأن العرب حتى لم يعد من العرب قائد معروف كما كان فى عهد المنصور والمهدي والرشيد وصار معظم المرتزقين من الجند انما هم من أهل خراسان والابناء وصار معظم الاعتماد عليهم وظهرت أسماء قواد من عناصر أخري من أتراك ما وراء النهر . روى الطيفوري انه تعرض رجل للمأمون بالشام مرارا فقال يا أمير المؤمنين انظر لعرب الشام كما نظرت الى عجم خراسان قال أكثرت على ياأخا الشام والله ما أنزلت قيسا عن ظهور الخيل الا وأنا أرى انه لم يبق في بيت مالى درهم واحد وأما اليمن فوالله ما أحببتها ولا أحبتنى قط وأما قضاعة فسادتها تنتظر السفيانى وخروجه فتكون من أشياعه . واما ربيعة فساخطة على الله مذ بعث الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم من مضر ولم يخرج اثنان الا خرج أحدهما شاريا . أعزب فعل الله بك . وهذا تصريح عظيم من المأمون وهو يدل على ان تلك القوة العربية التى كان العالم الاسلامى يحس بوجودها وتخشى الخلفاء سطوتها وانحرافها قد اتضعت فاجترأ خليفة المسلمين ان يجهر بمثل هذا القول على ملا من الناس ولما كان جيش الدولة هو الذى يدل على حقيقة أمرها كان من الواضح ان الدولة ليس لها من العربية الا اللغة أما العصبية العربية للعنصر العربي فقد أشرفت على الامحاء

القواد العظام في عهد المأمون

أكبر من اشتهر فى عهد المأمون بقيادة الجيوش ويمن النقيبة و بعد الصيت

طاهر بن الحسين بن مصعب بن رزيق بن ماهان . كان جده رزيق مولى طلحة بن عبيد الله المعروف بطلحة الطلحات الخزاعى والى سجستان من قبل مسلم بن زياد ابن أبيه والى خراسان ولا ندري أ كان مولى اسلام أم مولى عتاقة ويغلب على الظن انه مولى اسلام أسلم على يده فانتسب الى قبيلته ولذلك كان يقال له الخزاعى وكانوا بقرية تدعى بوشنج من أعمال مرو وبها ولد طاهر بن الحسين سنة ١٥٩ وكان جده مصعب بن رزيق واليا عليها وعلى هراة وكان قبل ذلك كاتبا لسليمان بن كثير الخزاعى داعية بنى العباس

نشأ طاهر ببوشنج شهما شجاعا أديبا وأول ما أحيا ذكره الخالد أعماله العظيمة التي قام بها فى قود الكتائب الخراسانية لحرب الامين والجيوش العراقية فظفر ظفرا عظيما كما قدمنا وقاد الخلافة للمأمون مذللة فاشتهر ذكره وطار صيته الا ان الفضل ابن سهل نفس عليه ان ينفرد بتلك الشهرة فحمل المأمون على تنحيته عن العراق وارساله الى الجزيرة لحرب نصر بن شبث . ولما شخص المأمون الى بغداد ومات الفضل فى الطريق أمر المأمون طاهرا ان يلقاه ببغداد فعرف له تلك السابقة وأحله المنزلة التى تليق به وولاه الجزيرة والشرط وجانبي بغداد ومعاون السواد

كان الذى يتولى خراسان فى ذلك الوقت غسان بن عباد فبلغ المأمون ان عبد الرحمن المطوّعى جمع جمعا بنيسابور ليقاتل بهم الحرورية بغير أمر والى خراسان فتخوفوا ان يكون ذلك لاصل عمل عليه وان يكون بدء نار يستطير شرارها اذا لم تتدارك برجل قوى الشكيمة ناهض العزم يتولى أمر خراسان ولم يكن بالحضرة من يماثل طاهرا فاختاره المأمون لذلك وولاه من حلوان الى أقصى عمل المشرق فتوجه الى ولايته وساسها أحسن سياسة وأعظم شهادة له ما ذكره الطيفورى عن يحى بن أكثم عن المأمون انه كان يقول ما حابى طاهر في جميع ما كان فيه أحدا ولا مالأ أحدا ولا داهن ولا وهن ولا وني ولا قصر في شيء وفعل في جميع ما ركن اليه ووثق به فيه أكثر مما ظن به وأمله وانه لا يعرف أحدا من نصحاء الخلفاء وكفاتهم فيمن

سلف عصره ومن بقى فى أيام دولته علي مثل طريقته ومناصحته وغنائه واجزائه قال ثم كان يحلف على صدق ما يقول فى ذلك مجتهدا مؤكدا لليمين على نفسه

وكان لطاهر استقلال بحكم خراسان يؤدى الخراج عن عمله وعليه والى بريد يكتب الى المأمون باخباره قالوا كان طاهر يتمنى ان يخطب على منبر مرو فوليها سنة ٢٠٥ وخطب بهم فى سنة سبع لم يصل بهم الا ذلك اليوم فانه صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ولم يدع للمأمون فكتب والى البريد الى المأمون بذلك وفي تلك الليلة أصابته حمى وحرارة فوجد ميتا على فراشه فكتب صاحب البريد بوفاته ولا نحسب ماظن بطاهر من انه اراد خلع المأمون حقا فانه لم يكن هناك داع الى ذلك مطلقا

وقد استمر ملك البيت الطاهرى بخراسان من سنة ٢٠٥ الي سنة ٢٥٩ حيث سقطت على يد يعقوب بن الليث الصفار وهى أول الدول استقلالا بالمشرق وأحسنها علاقة بدولة الخلافة ببغداد والسبب في دوام هذا التحسن ان آل طاهر كان لهم مع خراسان ولاية الشرطة ببغداد ومن اجل ذلك كان الاتصال دائما بين مرو وبغداد

عبد الله بن طاهر . ولد عبد الله سنة ١٨٢ في خلافة الرشيد ونشأ نشأة مجيدة وكان عمره حين سطع نجم والده في حوادث المأمون نحو ١٦ سنة فتربى في كنف المأمون فخرج شهما نبيلا أديبا وكان المأمون يحبه حبا جما ولاه حرب نصر بن شبث بعد انصراف أبيه عن ذلك الوجه فقام بما أمر به خير قيام ورد نصرا الى الطاعة بعد ان حصره وضيق عليه وكان مع قيامه بذلك خليفة لابيه طاهر في الشرط واعمال بغداد فاستخلف على ذلك عمه اسحاق بن ابراهيم بن مصعب

ولما فرغ من أمر نصر أمره المأمون ان يسير الى مصر لاضطراب كان فيها من فتنة عبيد الله بن السري أمير مصر وفتنة جالية الاندلسيين بالاسكندرية فذهب اليها واستنزل عبيد الله بن السري من معاقله بعد ان أذله وأجلى الاندلسيين عما غلبوا عليه قال يونس بن عبد الاعلى أحد علماء الحديث من اهل مصر . قدم علينا من قبل المشرق فتى حدث — يعنى عبد الله بن طاهر — والدنيا عندنا مفتونة

قد غلب على كل ناحية من بلادنا غالب والناس منهم في بلاء فاصلح الدنيا وأمن البرئ وأخاف السقيم واستوثقت له الرعية بالطاعة . وكتب اليه أحمد بن يوسف وزير المأمون اذ ذاك يهنئه بذلك الفتح — بلغنى أعز الله الامير ما فتح الله عليك وخروج ابن السرى اليك فالحمد الله الناصر لدينه المعز لدولة خليفته على عباده المذل لمن عند عنه وعن حقه ورغب عن طاعته ونسأل الله أن يظاهر له النعم ويفتح له بلدان الشرك والحمد لله على ماوليك به منذ ظعنت لوجهه فانا ومن قبلنا نتذاكر سيرتك في حربك وسلمك ونكثر التعجب لما وفقت له من الشدة واللبان في مواضعهما ولا نعلم سائس جند ورعية عدل بينهم عدلك ولا عفا بعد المقدرة عمن آسفه وأضغنه عفوك واقلما رأينا ابن شرف لم يلق بيده متكلا على ما قدمت له أبوته ومن أوتى حظا وكفاية وسلطانا وولاية لم يخلد الى ماعفا له حتى يخل بمساماة ماأمامه ثم لا نعلم سائسا استحق النجح لحسن السيرة وكف معرة الاتباع استحقاقك وما يستجمز أحد ممن قبلنا أن يقدم عليك احدا بهوى عند الحاقة والنازلة المتصلة فليهنك منة الله ومزيده ويسوغك الله هذه النعمة التى حواها لك بالمحافظة على ما به تمت لك من التمسك بحبل امامك ومولاك ومولى جميع المسلمين وملاك وايانا بالعيش ببقائه وأنت تعلم انك لم تزل عندنا وعند من قبلنا مكرما مقدما معظما وقد زادك الله فى اعين الخاصة والعامة جلالة وبجالة فاصبحوا يرجونك لانفسهم ويعدونك لاحداثهم ونوائبهم وأرجو ان يوفقك الله لمحابه كما وفق لك صنعه ونوفيقه فقد أحسنت جوار النعمة فلم تطغك ولم تزدد الا تذللا وتواضعا فالحمد لله على ما انالك وابلاك واودع فيك والسلام .

وكتب له المأمون كتابا وكتب في أسفله

أخي أنت ومولاى ومن أشكر نعماه
فما احببت من امر فاني الدهر أهواه
وما تكره من شئ فاني است ارضاه
لك الله على ذاك لك الله لك الله

ولما عاد الى مصر سنة ٢١٢ ولاه المأمون الجبال وارمينية واذربيجان لمحاربة بابك وصادف انه مات بعد خروجه طلحة بن طاهر بن الحسين فولاه المأمون مكانه واستمر واليا بها حتى مات سنة ٢٣٠ في عهد الواثق

العلم في عهد المأمون

كان عهد المأمون من أرقى عهود العلم في العصر العباسى وذلك لامرين الاول — ان المأمون نفسه قد اشتغل بالعلم وأمعن فيه حينما كان بمرو فقد جالس كثيرا من العلماء واخذ عنهم جملة صالحة من العلوم الدينية كالحديث والتفسير والفقه واللغة العربية فكان لذلك محبا للعلم ولازدياد نشره — الثاني — ما كان من الامة نفسها اذ ذاك حيث وجد فيها شوق الى العلم والبحث وكثر العلماء فى كل مصر من أمصار المسلمين كما سنبينه فتوافق رأى الامام واستعداد الامة فكان من وراء ذلك ماتقصه من تقدم حركة العلم ورفعة بغداد

العلوم التى نريد بيان حالها نوعان علوم دينية وعلوم عقلية

أما العلوم الدينية فمنها ما يرجع لاصل الدين وهو علم الكلام او التوحيد ومنها ما يرجع الى احكام الاعمال وهي الفقه واصوله وادلة تلك الاحكام من القرآن والحديث

ظهر فى ذلك الوقت جمهور من فطاحل العلماء ورؤساء المتكلمين توغلوا فى البحث فى أصول الدين والعقائد وحكموا في البحث عقولهم فأنتج لهم ذلك اعتقادات تخالف ماعليه عامة المسلمين وجمهور علمائهم المعروفين بأهل الحديث وهم الذين يستمدون آراءهم من النصوص السمعية كتاب او سنة او اثر من آثار السلف وكان اول ما نشأ ذلك الخلاف في مدينة البصرة وامتد منها الى بغداد . وجد بالبصرة واصل ابن عطاء الغزال ثم عمرو بن عبيد الذى كان المنصور يحبه ويفضله على جميع معاصريه من العلماء حتى قال فيه

كلكم يمشي رويد   كلكم طالب صيد   غير عمرو بن عبيد

ولما مات رثاه ولم يسمع بخليفة رثى من دونه سواه

ثم أبو الهذيل محمد بن الهذيل العلاف وابراهيم بن سيار النظام وبشر بن غياث المريسي وعمرو بن بحر الجاحظ وثمامة بن أشرس وغيرهم من رؤس الاعتزال وأصحاب الآراء والاقوال وكانوا يتكلمون في كثير من مسائل أصول الدين وأهم هذه المسائل التي خالفوا فيها الجمهور وأهل الحديث (١) مسألة القدر وأفعال العباد فكانوا يقولون ان أفعال العباد مخلوقة لهم لا لله ومن أجل ذلك يستحقون عليها الثواب والعقاب وان المقصود بالقضاء والقدر ما يمنحه الله لعباده من التوفيق والخذلان ويقابل ذلك رأى العامة ان افعال العباد مخلوقة لله ليس للعباد منها الا جريانها على أيديهم وهذا ما أطلقوا عليه اكتساب العباد (٢) صفات الله تعالى فقد نزه المعتزلة الله عن ثبوت صفات قائمة بذاته من القدرة والارادة والسمع والبصر والحياة والكلام وقالوا ان الله قادر بذاته والذى أداهم الى ذلك الخوف من تعدد القدماء ويقابل ذلك قول العامة ان الله قدير بقدرة وهي صفة قائمة بالذات ليست عين الذات ولا غيرها . وتفرع عن ذلك قولهم في القرآن أهو قديم لانه صفة لله جل ذكره كما تقوله العامة أم هو حادث مخلوق لله كسائر المخلوقات لانه ليس بصفة لله بل يخلق الله هذه الحروف والاصوات في جسم محدث يسمعه النبي منه وهذا عندهم هو الوحى .

وهاتان المسئلتان أهم ما كان يدور فيه النزاع بين المعتزلة وفقهاء العامة

وكما كان الاختلاف قد ظهر في أصول الدين التى تشابه ما ذكرنا كان قد ظهر في الفقه الذى هو احكام افعال العباد فكان من أئمة الفقهاء أهل حديث واهل رأى كما بيناه فى تاريخ التشريع ووجد من كل من الفريقين علماء أجلاء وفقهاء عظام اعترف لهم الناس بالتقدم ونحوا نحوهم في التشريع واقتدوا بهم منهم من سبق عصر المأمون كابي حنيفة وأصحابه ومالك وأصحابه ومنهم من كان في أول عصره كالشافعى محمد بن ادريس الذى توفى في السنة التى دخل فيها المأمون بغداد . والفرق بين هؤلاء فى اختلافهم وبين أولئك ان المستنبطين من الفقهاء كانوا لا ينكر بعضهم على بعض نتائج استنباطهم بل كانوا يرون ان كل مجتهد مكلف ان يعمل بنتيجة اجتهاده وليس له

ان يقلد غيره فقد سوغ بعضهم لبعض الاجتهاد أما المختلفون في أصول الدين فكانوا على غير ذلك كل فرقة ترى النقص فى الاخرى وربما تلعنها فاهل الحديث يقولون عن المعتزلة انهم مبتدعة فارقوا ما عليه سلف الامة وما تدل عليه الاخبار والآثار وأولئك يقولون عن اهل الحديث انهم عامة يتخذون ما يظهرون به حلية لينفقوا امام العامة وربما نالوا منهم أكثر من ذلك

وكان هناك اختلافات أخرى ظهر القول فيها وهى مسألة الخلافة ومن يستحقها بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان الجمهور يرى ان الخلفاء الراشدين مرتبون في الاستحقاق ترتيبهم في تولى الخلافة ومن ورائهم أصناف الشيعة يرون ان عليا هو أولى الناس بالخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يستحقها من بعده أولاده وهم مختلفون في الحكم على من سبق عليا من الخلفاء فمنهم الغالى ومنهم الهين القول يرى انهم أخذوا ما ليس لهم ولكن ولوا فعدلوا فلا محل لانتقاصهم ووجد بسبب ذلك شيعتان مختلفتان الامامية والزيدية ثم تشعبت الطرق بكل من الفرقتين فوجد من كل منهما مذاهب وآراء

ولم يكن قبل المأمون لاصحاب المذاهب المخالفة لما عليه العامة حرية البحث واظهار الآراء بل كانوا يخشون بأس العامة ولم تكن لهم قوة من الخلفاء يرتكزون عليها لان الخلفاء كانوا كذلك يراعون العامة لان القوة فيها فلما جاء المأمون رأى ان يجمع اليه العلماء من المتكلمين والفقهاء واهل الحديث ويجعل لهم مجالس للمناظرة ويظهر انه كان يرمى الى ان يتفق هؤلاء العلماء على رأي فيما يلقى عليهم من المسائل ليحمل الجمهور على ذلك الرأي وتتفق كلمة الامة ولاسيما فيما يتعلق بمباحث أصول الدين ومبحث الامامة

قال الطيفورى فى تاريخ بغداد قال التغلبى سمعت يحيي بن أكثم يقول أمرني المأمون عند دخوله بغداد ان اجمع له وجوه الفقهاء وأهل العلم من أهل بغداد فاخترت له من اعلامهم اربعين رجلا واحضرتهم وجلس لهم المأمون فسأل عن مسائل وافاض

في فنون الحديث والعلم فلما انقضى ذلك المجلس الذي جعلناه للنظر في أمر الدين قال المأمون يا أبا محمد كره هـذا المجلس الذي جعلناه للنظر طوائف من الناس بتعديل أهوائهم وتزكية آرائهم فطائفة عابوا علينا ما نقول في تفضيل علي بن أبي طالب رضي الله عنه وظنوا انه لا يجوز تفضيل علي الا بانتقاص غيره من السلف والله ما أستحل أو قال ما أستجيز ان انتقص الحجاج فكيف السلف الطيب . وان الرجل ليأتيني بالقطعة من العود أو بالخشبة أو بالشيء الذي لعل قيمته لا تكون الا درهما أو نحوه فيقول ان هذا كان للنبي صلى الله عليه وسلم أو قد وضع يده عليه أو شرب فيه أو مسه وما هو عندي بثقة ولا دليل على صدق الرجل الا أني بفرط النية والمحبة أقبل ذلك فأشتريه بالف دينار وأقل وأكثر ثم أضعه على وجهي وعيني وأتبرك بالنظر اليه وبمسه فاستشفي به عند المرض يصيبني أو يصيب من أهتم به كصيانتي نفسي وانما هو عود لم يفعل هو شيئا ولا فضيلة له يستوجب بها المحبة الا ما ذكر من مس رسول الله صلى الله عليه وسلم له فكيف لا أرعى حق أصحابه وحرمة من قد صحبه وبذل ماله ودمه دونه وصبر معه أيام الشدة وأوقات العسرة وعادى العشائر والعمائر والاقارب وفارق الاهل والاولاد واغترب عن داره ليعز الله دينه ويظهر دعوته ياسبحان الله والله لو لم يكن هـذا في الدين معروفا لكان في الاخلاق جميلا وان من المشركين لمن يرعى في دينه من الحرمة ماهو أقل من هـذا معاذ الله مما فطن به الجاهلون . ثم لم ترض هذه الطائفة بالعيب لمن خالفها حتى نسبته الى البدعة في تفضيله رجلا على أخيه ونظيره ومن يقاربه في الفضل وقد قال الله جل من قائل — ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض — ثم وسع لنا في جهل الفضل من المفضول فما فرض علينا ذلك ولا ندبنا اليه اذ شهدنا لجماعتهم بالنبوة فمن دون النبيين من ذلك بعد اذ شهد لهم بالعدالة والتفضل أمر لو جهله جاهل رجونا ان لا يكون اجترح اثما — وهم لم يقولوا بدعة فيمن قال بقول واحد من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وشك الآخر واحتج في كسره وابطاله في الاحكام في الفروج والدماء والاموال التي النظر فيها أوجب من

النظر في التفضيل فيغلط في مثل هذا أحد يعرف شيئا أوله روية أو حسن نظر أو يدفعه من له عقل بل معاند يريد الالطاط أو متبع لهواه ذاب عن رياسة اعتقدها وطائفة قد اتخذ كل رجل منهم مجلسا اعتقد به رياسة لعله يدعو فئة لضرب من البدعة ثم لعل كل رجل منهم يعادى من خالفه في الامر الذى قد عقد به رياسة بدعة ويشيط بدمه وهو قد خالفه من أمر الدين بما هو أعظم من ذلك الا ان ذلك أمر لا رياسة له فسالمه عليه وأمسك عنه عند ذكر مخالفته اياه فيه فاذا خولف في نحلته ولعلها مما وسع الله في جهله أو قد اختلف السلف في مثله فلم يعاد بعضهم بعضا ولم يروا فى ذلك اثمــا فامله يكفر مخالفه أو يبدعه أو يرميه بالامور التى حرمها الله عليه من المشركين دون المسلمين بغيا عليهم وهم المترقبون الفتن والراسخون فيها لينتهبوا أموال الناس و يستحلوها بالغلبة وقد حال العدل بينهم و بين ما يريدون يزأرون على الفتنة زئير الاسد على فرائسها — واني لارجو ان يكون مجلسنا هذا بتوفيق الله وتأييده ومعونته على اتمامه سببا لاجتماع هذه الطوائف على ما هو أرضى واصلح للدين اما شاك فيتبين و يتثبت فينقاد طوعا واما معاند فيرد بالعدل كرها .

وروى أيضا عن بشر المريسى قال حضرت عبد الله المأمون انا وثمامة ومحمد بن أبى العباس وعلى بن الهيثم فتناظروا في التشيع فنصر محمد بن أبى العباس الامامة ونصر على بن الهيثم الزيدية وجرى الكلام بينهما الى ان قال محمد لعلى يانبطى ما أنت والكلام . فقال المأمون وكان متكئا فجلس الشتم عى والبذاءة لؤم انا قد أبحنا الكلام وظهرنا المقالات فمن قال بالحق حمدناه ومن جهل ذلك وقفناه ومن جهل الامرين حكمنا فيه بما يجب فجعلا بينكم أصلا فان الكلام فروع فاذا افترعتم شيئا رجعتم فى الاصول

فيستفاد من هذين الخبرين أمور جديرة بإمعان النظر

(١) ان المأمون ابـح الكلام وأظهر المقالات المدرجة فما نجدها أمة وما ظنك بخليفة عباسي تتناظر في مجلسه في الامامة فينصر أحدهما الامامية والثانى الزيدية

وهذان المذهبان كلاهما ان صحا يذهبان بما في أيدى آل العباس من الامامة ولم يمنعه ذلك من ترك حرية القول لهم

(٢) ان طوائف من الناس عابت ذلك على المأمون لانه علم عنه الموافقة على بعض آراء تخالف رأى العامة كما كان مذهبه فى تفضيل على بن أبى طالب رضى الله عنه على سائر الخلفاء واتهموه بسبب ذلك بما هو منه برىء وهو انتقاص غيره من الصحابة وقد دافع المأمون عن نفسه فى ذلك بما يغلب على الظن انه صادق فيه

(٣) ان المأمون كان يرى في علماء وقته انهم انما كانوا ينكرون ما ينكرون في الآراء التى كانت لهم سبب رياسة ولو كانت تافهة لا يترتب عليها في الدين أثر ويغفرون لمن خالفهم في الامور الجسيمة التي تترتب عليها الآثار العظيمة ما دامت لا ترتبط بشىء مما يعتقدون به رياسة عند العامة

(٤) ان المأمون كان يظن انه بمجلس المناظرة هذا يتوصل الى ازالة الخلاف بين العلماء فيما اختلفوا فيه فان الشاك يتبين أو يتثبت والمعاند يكره

وهذا الذى فعله المأمون أول تجربة وآخرها لانه لم يفكر أحد ممن قبله فى مثل هذا ولما انتهت تجربته بالفشل لم يعد أحد من الخلفاء الى مثله

كانت قوة فقهاء العامة محكمة العرى لان العامة كانت تجلهم وتحترم آراءهم كما ان الفقهاء كانوا يحوطون معتقدات الجمهور ويقفون ضد من يعلن مخالفتها. أدت المناقشات الكثيرة التى كانت بين يدى المأمون الى انه كان يرى بعض آراء المعتزلة لا كلها فانه لم يكن قدريا روى الطيفورى عن محمد بن اسحق بن ابراهيم اليزيدى انه سمع ثمامة يقول ان المأمون عامى لتركه القول بالقدر وانما الذى صار اليه من آرائهم القول بخلق القرآن وأظهر رأيه ذلك سنة ٢١٢ وكان يظن كما قدمنا انه متى أعلن رأيه للعلماء وفقهاء الامة يجيبوه الى اعلان رضاهم به فكانت النتيجة عكس ما ظن فانهم تكلموا فيه وقالوا انه مبتدع وغلا بعضهم في ذلك فقال بكفر من رأى خلق القرآن وبذلك تجسمت هذه المسألة التى لم تكن تستحق تجسيما اذ نظر اليها بشىء من

التدقيق ولم تكن هناك أشياء أخرى غير المسألة العلمية توسع مسافة الخلف بين المأمون ومن شايعه وبين فقهاء الجمهور

مرت سنوات أربع والخلف يتسع والكلام من الفريقين فى الآخر يزيد حتى كانت سنة ٢١٨ فرأى المأمون ان يستعين بسلطانه في رد الفقهاء الى رأيه حتى لا يكون معترفا بفشله فيما شرع فيه فكتب كتابا وهو غاز الى اسحاق بن ابراهيم عامله على بغداد (محافظها) بين فيه ان واجبه بصفته اماما للمسلمين أن يجتهد فى اقامة الدين ثم ذكر ما عليه الجمهور من حشو الرعية وسفلة العامة من الجهالة بالله حتى ساووا بينه وبين ما أنزل من القرآن فاطبقوا على أنه قديم مع النصوص الدالة على خلاف ذلك ثم قال — ثم هم الذين جادلوا بالباطل فدعوا الى قولهم ونسبوا أنفسهم الى السنة وفي كل فصل من كتاب الله قصص من تلاوته مبطل لقولهم ومكذب دعواهم يرد عليهم قولهم ونحلتهم ثم أظهروا مع ذلك أنهم أهل الحق والدين والجماعة وأن من سواهم أهل الباطل والكفر والفرقة فاستطالوا بذلك على الناس وغروا به الجهال حتى مال قوم من أهل السمت الكاذب والتخشع لغير الله والتقشف لغير الدين الى موافقتهم عليه ومواطأتهم على سيء آرائهم تزينا بذلك عندهم وتصنعا للرياسة والعدالة فيهم فتركوا الحق الى باطلهم واتخذوا دون الله وليجة الى ضلالتهم فقبلت بتزكيتهم لهم شهادتهم ونفذت أحكام الكتاب بهم على دغل دينهم ونغل أديمهم وفساد نياتهم ويقينهم وكان ذلك غايتهم التي اليها أجروا واياها طلبوا في متابعتهم والكذب على مولاهم — وبعد أن أعطاهم ما يستحقون على رأيه من مثل هذه القوارع قال لاسحق — فاجمع من بحضرتك من القضاة واقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين هذا فابدأ بامتحانهم فيما يقولون وتكشيفهم عما يعتقدون فى خلق الله القرآن واحداثه وأعلمهم أن أمير المؤمنين غير مستعين فى عمله ولا واثق فيما قلده الله واستحفظه من أمور رعيته بمن لا يوثق بدينه وخلوص توحيده ويقينه فاذا أقروا بذلك ووافقوا أمير المؤمنين فيه وكانوا على سبيل الهدى والنجاة فمرهم بنص من بحضرتهم من الشهود

على الناس ومسألتهم عن علمهم في القرآن وترك اثبات شهادة من لم يقر أنه مخلوق محدث ولم يره والامتناع من توقيعها عنده وا كتب الى أمير المؤمنين بما يأتيك عن قضاة أهل عملك في مسألتهم والامر لهم بمثل ذلك ثم أشرف عليهم وتفقد آثارهم حتى لاتنفذ أحكام الله الا بشهادة أهل البصائر في الدين والاخلاص للتوحيد وا كتب الى أمير المؤمنين بما يكون فى ذلك ان شاء الله وكتب فى شهر ربيع الاول سنة ٢١٨

وكتب الى اسحاق أن يشخص اليه سبعة نفر من كبار مشائخ الجمهور منهم محمد ابن سعد كاتب الواقدي ويحيى بن معين وأبو خيثمة زهير بن حرب وأحمد بن ابراهيم الدورقى فاشخصوا اليه فامتحنهم وسألهم عن خلق القرآن فأجابوا جميعا أن القرآن مخلوق فأشخصهم الى مدينة السلام وأحضرهم اسحاق بن ابراهيم داره فشهر أمرهم وقولهم بحضرة الفقهاء والمشائخ من أهل الحديث فأقروا بمثل ما أجابوا به المأمون فخلى سبيلهم .

وكتب المأمون الى اسحاق كتابا ثانيا زاد فيه على الكتاب الاول قال فيه في صفة من خالفوه — وليس يرى أمير المؤمنين لمن قال بهذه المقالة حظا في الدين ولا نصيبا من الايمان واليقين ولا يرى أن يحل أحدا منهم محل الثقة فى أمانة ولا عدالة ولا شهادة ولا صدق في قول ولا حكاية ولا تولية شيء من أمر الرعية

فجمع اسحاق نحو ثلاثين رجلا من هؤلاء العلماء وهذا نموذج من أجوبتهم لاسحاق

قال لبشر بن الوليد ما تقول فى القرآن -- فقال قد عرفت مقالتى لامير المؤمنين غير مرة — قال فقد تجدد من كتاب أمير المؤمنين ماقد ترى — قال — أقول القرآن كلام الله — قال لم أسألك عن هذا أمخلوق هو — قال الله خالق كل شيء — قال أما القرآن شيء — قال هو شيء — قال فمخلوق هو — قال ليس بخالق — قال ليس أسألك عن هذا أمخلوق هو — قال ما أحسن غير مقالتك وقد استعهدت أمير المؤمنين الا أتكلم فيه وليس عندى غير ما قلت لك .

وقال لعلى بن أبى مقاتل ما تقول يا على - قال قد سمعت كلامى لامير المؤمنين فى هذا غـير مرة وما عندى غير ما سمع - فقال له القرآن مخلوق - قال القرآن كلام الله - قال لم أسألك عن هـذا - قال هو كلام الله وان أمرنا أمير المؤمنين بشىء سمعنا وأطعنا

وقال لأبي حسان الزيادى القرآن مخلوق هو - قال القرآن كلام الله - والله خالق كل شيء وما دون الله مخلوق وأمير المؤمنين أمامنا و بسببه سمعنا عامة العلم وقد سمع مالم نسمع وعلم مالم نعلم وقد قلده الله أمرنا فصار يقيم حجنا وصلاتنا ونؤدى اليه زكاة أموالنا ونجاهد معه ونرى امامته امامة وان أمرنا ائتمرنا وان نهانا انتهينا وان دعانا أجبنا - قال القرآن مخلوق هو - فاعاد اليه حسان مقالته - قال ان هـذه مقالة أمير المؤمنين - قال قد تكون مقالة أمير المؤمنين ولا يأمر بها الناس ولا يدعوهم اليها وان أخبرتنى أن أمير المؤمنين أمرك أن أقول قلت ما أمرتني به فانك الثقة المأمون عليه فيما أبلغتني عنه من شيء فان أبلغتنى عنه بشىء صرت اليه - قال ما أمرني أن أبلغك شيئا - قال قد يكون قوله كاختلاف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الفرائض والمواريث ولم يحملوا الناس عليها

وكان اسحاق يكتب مقالة كل قائل فلما أتم امتحانهم جميعا أرسل الى المأمون نتيجة الامتحان . ولـما رأى المأمون هذه المحاولة منهم غاظه ذلك وكتب في شأنهم كتابا ثالثا قرع فيه أولئك العلماء أشد التقريع وذكر كل واحد منهم بما يعلمه فيه من النكوب عن الجادة في عمله أو خلقه كأنه يعرف دخائل كل منهم معرفة خبير فمن ذلك قوله

وأما الذيال بن الهيثم فأعلمه أنه كان في الطعام الذي كان يسرقه في الانبار وفيما يستولى عليه من أمر مدينة أمير المؤمنين أبي العباس ما يشغله وانه لو كان مقتفيا آثار سلفه وسالكا مناهجهم ومحتذيا سبيلهم لما خرج الى الشرك بعد ايمانه .

وأما الفضـل بن غانم فاعلمه انه لم يخف على أمير المؤمنين ما كان منه بمصر

وما اكتسب من الاموال في أقل من سنة وما شجر بينه وبين المطلب بن عبد الله في ذلك فانه من كان شأنه شأنه وكانت رغبته في الدينار والدرهم رغبته فليس بمستنكر أن يبيع ايمانه طمعا فيهما وايثارا لعاجل نفعهما وانه مع ذلك القائل لعلى بن هشام ماقاله والمخالف له فيما خالفه فيه فما الذي حال به عن ذلك ونقله الى غيره

وأما الفضل بن الفرخان فاعلمه انه حاول بالقول الذى قاله فى القرآن أخذ الودائع التى أودعها اياه عبد الرحمن بن اسحاق وغيره تربصا بمن استودعه وطمعا في الاستكثار لما صار في يده ولا سبيل عليه عن تقادم عهده وتطاول الايام به فقل لعبد الرحمن ابن اسحاق لا جزاك الله خيرا عن تقويتك مثل هذا وايمانك اياه وهو معتقد للشرك منسلخ عن التوحيد

وأما محمد بن حاتم وابن نوح والمعروف بابي معمر فأعلمهم انهم مشاغيل بأكل الربا عن الوقوف على التوحيد وان أمير المؤمنين لو لم يستحل محاربتهم فى الله ومجاهدتهم الا لاربائهم وما نزل به كتاب الله في أمثالهم لاستحل ذلك فكيف بهم وقد جمعوا مع الارباء شركا وصاروا للنصارى مثلا

وأما سعدويه الواسطى فقل له قبح الله رجلا بلغ به التصنع للحديث والتزين به والحرص على طلب الرياسة فيه أن يتمنى وقت المحنة فيقول بالتقرب بها متى يمتحن فيجلس للحديث

وأما المعروف بسجادة وانكاره أن يكون سمع ممن كان يجالس من أهل الحديث وأهل الفقه القول بان القرآن مخلوق فاعلمه انه في شغله باعداد النوى وحكه لاصلاح سجادته وبالودائع التى دفعها اليه على بن يحيى وغيره ما أذهله عن التوحيد والهاه ثم سله عما كان يوسف بن أبى يوسف ومحمد بن الحسن يقولانه ان كان شاهدهما وجالسهما .

وقد ذكر مثل ذلك في غير هؤلاء وخلاصة ما يطلب فى هذا الكتاب انه ذكر له رجلين هما بشر بن الوليد وابراهيم بن المهدى أمره أن يستتيبهما فان تابا

أشهر أمرهما والا ضرب أعناقهما أما من عداهما فان لم يقولوا بخلق القرآن حملهم جميعا موثقين الى عسكر أمير المؤمنين . وقال في ختام هذا الكتاب - وقد أنفذ أمير المؤمنين كتابه هذا فى خريطة بندارية ولم ينتظر به اجتماع الكتب الخرائطية معجلا به تقربا الى الله عز وجل بما أصدر من الحكم ورجا ما اعتمد وادراك ما أمل من جزيل ثواب الله عليه فأنفذ لما أتاك من أمر أمير المؤمنين وعجل اجابة أمير المؤمنين بما يكون منك فى خريطة بندارية مفردة عن سائر الخرائط لتعرف أمير المؤمنين ما يعملونه ان شاء الله وكتب سنة ٢١٨

فاحضرهم اسحاق مرة ثانية وسألهم فاجابوا جميعا ان القرآن مخلوق ما عدا أربعة منهم فامر بهم فشدوا فى الحديد وفى اليوم الثانى أعاد عليهم المحنة فاجابه واحد من الاربعة فاطلقه وفى اليوم الثالث فعل كذلك فاجابه ثان وبقى اثنان صمما على عدم الاجابة وهما أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح فوجه بهما اسحاق الى طرسوس . وبعد ذلك ورد كتاب من المأمون على اسحاق يقول له فيه ان سليمان بن يعقوب صاحب الخبر كتب اليه ان بشر بن الوليد تأول الآية التى أنزلها الله تعالى في عمار بن ياسر - الا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان - وقد أخطأ التأويل انما عني الله عز وجل بهذه الآية من كان معتقد الايمان مظهر الشرك فاما من كان يعتقد الشرك مظهر الايمان فليست هذه له فاشخصهم جميعا الى طرسوس ليقيموا بها الى خروج أمير المؤمنين من بلاد الروم فأشخصهم جميعا ولما وافوا الرقة بلغتهم وفاة المأمون فأقامهم والى الرقة بها ثم أعيدوا الى مدينة السلام

هذه كانت النتيجة لما شرع فيه المأمون وهى نتيجة تضاد ما قصده من تأليف القوم وجمعهم على رأى واحد فيما اختلف فيه من المسائل وقد كبر الخلاف فى مسألة من أهون المسائل وأيسرها حلا ولكن المأمون قل ان أصغر المسائل متى كان أساسا لنحلة أوسببا لرياسة فان الخلاف يعظم بسببه أما أعضل الامور فان الخلاف الشديد لايجد اليه سبيلا اذا لم يكن أساسا لنحلة أو سببا لرياسة وهذا يكاد يكون صحيحا

ومع اعترافنا بان الخلاف لا محل له في هذه المسألة لا نري للمأمون حقا وهو سلطان الامة ان يصادرها فيما تعتقد على الشكل الذى سنه مما بيناه

وليعلم ان جميع الذين تهاونوا مع المأمون فى مسئلة القرآن أهمل المحدثون أمرهم وانزلوا رتبتهم وعدوا ذلك عيبا من عيوبهم وقد كاد امام المحدثين البخارى يصيبه أثر من آثار هذه النكبة فان فريقا من العلماء رأى أن يفصل بين لفظ القرآن ومعناه فكان يقول لفظى بالقرآن مخلوق وكان البخاري ممن يقول بذلك فاضطهده محمد بن يحيى الذهلى امام المحدثين بنيسابور حتى خرج البخارى عنها خوفا من العامة أن تبطش به وكذلك ترك مسلم بن الحجاج مجلس محمد بن يحيى من أجل ذلك فانه لما سمع محمدا يقول من قال لفظى بالقرآن مخلوق فلا يقربن مجلسنا أخذ كساءه وخرج . أما الذين وقفوا في المحنة وثبتوا على آرائهم ولم يتساهلوا فانهم استحقوا من العناية والتكريم مالا مزيد عليه والعلم المفرد فيهم هو الامام أحمد بن حنبل فان هذه الحادثة شرفته بين القوم شرفا عظيما

ولم يكتف المأمون بما كان منه في حياته بل أوصى الى أخيه المعتصم الذي استخلفه من بعده بأن يسير بسيرته فى القرآن فلم يجد المعتصم بدا من أن يتبع هذه الوصية مع انه لم يكن له في ميدان العلم كبير جولة ولكن وصية أخيه وبقاء رؤس الاعتزال بجانبه جعلاه يتشدد فى الامر فأحضر أحمد بن حنبل وعرض عليه ان يقول كما قال غيره من العلماء فصمم على انكار ان يكون القرآن مخلوقا ولم يثنه عن ذلك ما لقيه من الضرب والتعذيب فى مجاس المعتصم نفسه وكان أحمد يتردد بين ذلك وبين ضيق المحبوس وهو صابر محتسب

وقد اتبع الواثق سيرة أبيه وعمه في هذه المحنة وبسببها حصلت فتنة أحمد بن نصر ابن مالك بن الهيثم الخزاعى ومالك بن الهيثم كان أحد نقباء الدعوة العباسية وكان أحمد يغشاه أصحاب الحديث وكان يظهر المباينة لمن يقول القرآن مخلوق مع منزلة أبيه كانت من السلطان فى دولة بني العباس ويبسط لسانه فيمن يقول ذلك مع غلظة الواثق

كانت على من يقول ذلك وكان أحمد اذا تكلم عن الواثق يقول الا فعل هذا الكافر فحركه المطيفون به من أهل الحديث وحملوه على الحركة لانكار القول بخلق القرآن وقصدوه دون غيره لما كان لابيه وجده فى دولة بنى العباس من الاثر فرجوا استجابة العامة له والتفافهم عليه فيقال انه أجاب الى ذلك وسعى له في دعاء الناس رجلان ممن كان يغشاه فنجحا وألفا فرقتين احداهما بالجانب الشرقى والاخرى بالجانب الغربى من بغداد واتعدوا ليلة يضربون فيها طبولهم للاجتماع صبيحتها للوثوب بالسلطان فاتفق ان بعض المحافظين على الطبل انتبذ نبيذا فلما أخذ منه ضرب على الطبل قبل الموعد المضروب بليلة فانتبه لصوت الطبل محمد بن ابراهيم بن مصعب خليفة صاحب الشرطة فأرسل يسأل عن سببه و بعد التدقيق عرف سر المؤامرة فتتبع القوم من ليلتهم فأخذوا وصيروا الى الحبس وقبض أحمد بن نصر أيضا وحمل رؤس القوم الى الواثق بسامرا فجلس لهم الواثق مجلسا عاما لامتحانهم ولما حضروا اليه لم يناظر الواثق أحمد بن نصر فى الشغب ولا فيما رفع اليه من اردة الخروج عليه لكنه سأله ما تقول في القرآن قال هو كلام الله ولم يزد على ذلك و بعد أخذ ورد أفتى الحاضرون بقتله فقام الواثق اليه بنفسه وقتله وصلب جسمه بسامرا وحمل رأسه الى بغداد فنصب بها في الجانب الشرقى وجعل في أذنه رقعة فيها هذا رأس الكافر المشرك الضال وهو أحمد ابن نصر بن مالك ممن قتله الله على يدى عبد الله هارون الامام الواثق بالله أمير المؤمنين بعد أن أقام عليه الحجة في خلق القرآن ونفي التشبيه وعرض عليه التوبة ومكنه من الرجوع الى الحق فأبى الا المعاندة والتصريح والحمد لله الذى عجل به الى ناره وأليم عقابه وان أمير المؤمنين سأله عن ذلك فأقر بالتشبيه وتكلم بالكفر فاستحل أمير المؤمنين دمه ولعنه

وممن حمل الى الواثق في هذه المحنة من علماء مصر ابو يعقوب يوسف بن يحيي البويطى أكبر اصحاب الشافعى الامام رضى الله عنه نمى الى الواثق انه لا يقول بخلق القرآن فارسل الى والى مصر في امتحانه فامتحنه فلم يجب وكان الوالى حسن الرأي فيه

فقال له قل فيما بيني وبينك قال انه يقتدى بى مائة الف ولا يدرون المعنى . فلما امتنع أمر الواثق بحمله فحمل وسجن ببغداد حتى مات في سجنه سنة ٢٣١

واستمرت هذه المشكلة حتى ملها الواثق نفسه وتمنى لو يجد مخرجا وانتقلت المسألة من الجد الى الهزل . دخل عبادة المضحك على الواثق فقال يا أمير المؤمنين أعظم الله أجرك في القرآن قال ويلك القرآن يموت قال يا أمير المؤمنين كل مخلوق يموت بالله يا أمير المؤمنين من يصلى بالناس التراويح اذا مات القرآن . فضحك الواثق وقال قاتلك الله — أمسك .

وجئ الواثق بشيخ مقيد فسأله ابن أبي دؤاد عن قوله في القرآن فقال له الشيخ لم تنصفني المسألة أنا أسألك قبل الجواب . هذا الذى تقوله يا ابن أبى دؤاد من خلق القرآن شيء علمه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم أو جهلوه — فقال بل علموه قال فهل دعوا اليه الناس كما دعوتهم أنت أو سكتوا — قال بل سكتوا — قال فهلا وسعك ماوسعهم من السكوت — فسكت ابن أبى دؤاد وأعجب الواثق كلامه وأمر باطلاقه وقام وهو يقول هلا وسعك ما وسعهم يكرر هذه الكلمة

كانت تلك الحوادث مما أخمد نار المحنة ولذلك لما جاء المتوكل بعد الواثق أمر برفع المحنة وأن يترك الناس وشأنهم فيما يعتقدون وحسنا فعل وقد استحق المتوكل ثناء الجمهور العظيم بسبب ذلك وتجاوزوا له عما كان من هفواته .

ويمكن القول بان هذه المجالس التى تعقد للمناظرة رجاء الوصول الى الوفاق انما تقرر الخلاف وتؤكده لا تزيله متى اتصل بهذا الخلاف شيء من الرياسة في الدنيا وتاريخ المجامع والمجالس التى كان من شأنها البحث في الامور الدينية شاهد بذلك .

علوم الصناعات

كما كانت للمأمون جولة في العلوم الدينية كانت له جولة في العلوم الصناعية وقد كان أثره في هذه أظهر من أثره في تلك كما يتبين مما يأتي

كانت الامة العربية أمة أمية لا تتعلق بشيء من الصناعات ولا العلوم الا قليلا كما بيناه فى خلاصة تاريخها في الجزء الاول فلما جاءها الاسلام لم يكن لها مجال فى العلوم لانها كانت في دور التكوين وذلك محتاج الى استعمال ما عندها من القوة والفكر فى سبيل ذلك فانقضت مدة الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم فى الفتح وتأسيس المملكة وتمهيد طريق الدعوة الى الدين وكانت الحال على ذلك في صدر الدولة الاموية الا انه وجد من رجالهم في أوسط أدوارها من عنوا ببعض الصناعات التى كانت فيمن سبقهم من الامم واهتموا بترجمة كتب منها وأول من عرف اسمه في ذلك خالد بن يزيد بن معاوية الذى كان يسمى حكيم آل مروان وكان فاضلا في نفسه وله همة ومحبة للعلوم خطر بباله الصنعة « الكيميا » فامر باحضار جماعة من فلاسفة اليونانيين ممن كان ينزل مدينة مصر وقد تفصح بالعربية وأمرهم بنقل الكتب في الصنعة من اللسان اليوناني والقبطى الى العربي وهذا أول نقل كان في الاسلام من لغة الى لغة . ثم نقل الدوان وكان باللغة الفارسية الى العربية في أيام الحجاج نقله صالح بن عبد الرحمن مولى بنى تميم كما قدمنا ذلك في تاريخ بنى امية . ثم نقل ديوان الشام الى العربية في زمن هشام بن عبد الملك نقله ابو ثابت سليمان سعد مولى حسين .

وكانت الدولة الاموية اقرب الى من قبلها في السذاجة الصناعية فلم يكن لترجمة الكتب فيها كبير حظ ولا عظيم اثر . فلما جاءت الدولة العباسية كان اختلاطها بالفرس اكثر لان دولتهم بالخراسانيين والموالى قامت وهذا الاختلاط جعل نفوس العباسيين تصبو الى الاطلاع على شيء مما عند الفرس واليونان من آثار متقدميهم من العلماء والحكماء والفلاسفة وكان اول من عنى بترجمة شيء من هذه الكتب ابو جعفر المنصور ثاني خلفاء العباسيين وكان الذى قام بترجمة الكتب له طبيبه جورجس بن جبرائيل الذي كان طبيبا لبيمارستان جند يسابور ثم طلبه المنصور اليه سنة ١٤٨ ليعالجه فحظى عنده حظوة عظيمة وترجم له كتبا كثيرة من اليونانى الى العربي والبطريق قال في طبقات الاطباء ان المنصور امره بنقل اشياء من الكتب القديمة وله

نقل كثير جيد الا أنه دون نقل حنين بن اسحاق وقد وجدت بنقله كتب كثيرة فى الطب من كتب أبقراط وجالينوس وترجم له ابن المقفع كتاب كليلة ودمنة من الفهلوية وترجم كتاب السند هند وكتاب المجسطى لبطليموس وكتاب اقليدس في الهندسة وغير ذلك الا ان العناية لم تبذل كثيرا في الحصول على الكتب المفيدة حتى تترجم وتشتغل بها الامة .

فلما كان فى زمن هرون الرشيد وغلب على بعض المدائن الرومية الكبرى كأنقرة وعمورية عثر على كنز ثمين من كتب اليونان فأمر أن تترجم له فترجمت وبذلك كانت حركة الترجمة أقوى منها فى عهد المنصور وكان للبرامكة يد طولى في الترجمة وعون المترجمين عليها بما كانوا يدرونه عليهم من الارزاق

لما ولى المأمون كان قد تأثر فكره بما قرأ من هذه الكتب وأحس بنفعها فقوي حركة الترجمة ونشطها تنشيطا أساسه الاقتناع بالفائدة وساعده الجود والبذل في هذا السبيل . حكي ابن النديم في الفهرس أن المأمون رأى فى منامه كأن رجلا أبيض اللون مشربا حمرة واسع الجبهة مقرون الحاجب أجلح الرأس أشهل العينين حسن الشمائل جالس على سريره قال المأمون وكأني بين يديه قد ملئت له هيبة فقلت من أنت قال أنا ارسطاليس فسررت به وقلت أيها الحكيم أسألك قال سل قلت ما الحسن قال ماحسن في العقل قلت ثم ماذا قال ماحسن في الشرع قلت ثم ماذا قال ماحسن عند الجمهور قلت ثم ماذا قال ثم لا ثم — وفى رواية أخرى قلت زدني قال من نصحك في الذهب فليكن عندك كالذهب وعليك بالتوحيد — قالوا فكان هذا المنام من أوكد الاسباب فى اخراج الكتب — واذا صحت هذه الحكاية فهذه الرؤيا أثر لشغف المأمون بارسطاليس وتعاليمه .

كان بين المأمون وملك الروم مراسلات وقد استظهر عليه المأمون فكتب الى ملك الروم يسأله الاذن في انفاذ ما عنده من مختار العلوم القديمة المخزونة المدخرة ببلد الروم فأجاب الى ذلك بعد امتناع فاخرج المأمون لذلك جماعة منهم

الحجاج [١] بن مطر وابن [٢] البطريق وسلما صاحب بيت الحكمة وغيرهم فاخذوا مما وجدوا ما اختاروا فلما حملوه اليه أمرهم بنقله فنقل وقيل ان يوحنا بن ماسويه ممن نفذ الى بلاد الروم .

ولم تكن هذه العناية قاصرة على المأمون وحده بل كان لعهده جماعة ذوو يسار اعتنوا جد العناية بنقل هذه الكتب الى اللسان العربى ومن هؤلاء محمد وأحمد والحسن بنو شاكر المنجم بذلوا الرغائب وأنفذوا حنين بن اسحاق وغيره الى بلد الروم فجاؤهم بطرائف الكتب وغرائب المصنفات في الفلسفة والهندسة والموسيقى والارثماطيقى والطب . قال أبو سليمان المنطقى السجستاني ان بني المنجم كانوا يرزقون جماعة من النقلة منهم حنين بن اسحاق وحبيش بن الحسن وثابت بن قرة وغيرهم في الشهر نحو ٥٠٠ دينار للنقل والملازمة . وقال ابن النديم في موضع آخر هؤلاء القوم ممن تناهى فى طلب العلوم القديمة وبذل فيها الرغائب وأتعبوا فيها نفوسهم وأنفذوا الى بلد الروم من أخرجها اليهم فاحضروا النقلة من الاصقاع والاماكن بالبذل السنى فاظهروا عجائب الحكمة وكان الغالب عليهم الهندسة والحيل والحركات والموسيقى والنجوم وهو الاقل وتوفى محمد بن موسى سنة ٢٥٩ فى شهر ربيع الاول . ثم ذكر الكتب التى ألفوها . وقال ابن خلكان ومما اختصوا به فى ملة الاسلام وأخرجوه من القوة الى الفعل وان كان أرباب الارصاد المتقدمون على الاسلام قد فعلوه لكنه لم ينقل أن أحدا من أهل هذه الملة تصدى له وفعله الاهم وهو أن المأمون كان مغرى بعلوم الاوائل وتحقيقها ورأى فيها أن دور كرة الارض ٢٤٠٠٠ ميل كل ثلاثة أميال فرسخ فيكون المجموع ٨٠٠٠ فرسخ بحيث لو وضع طرف حبل على أى نقطة كانت من الارض وأدرنا الحبل على كرة الارض حتى انتهينا بالطرف

(١) قال في طبقات الاطباء الحجاج بن مطر نقل للمأمون ومن نقله كتاب اقليدس ثم أصلح نقله فيما بعد ثابت بن قرة الحرانى

(٢) قال في الطبقات يحيي بن البطريق كان في جملة الحسن بن سهل وكان لا يعرف العربية حق معرفتها ولا اليونانية وانما كان لطينيا يعرف لغة الروم اليوم وكتابتها وهى الحروف المتصلة لا اليونانية القديمة

الآخر الى ذلك الموضع من الارض والتقى طرفا الحبل فاذا مسحنا ذلك الحبل كان طوله ٢٤٠٠٠ ميل فاراد المأمون أن يقف على حقيقة ذلك فسأل بنى موسى المذكورين عنه فقالوا نعم هذا قطعى فقال أريد ان تعملوا الطريق الذى ذكره المتقدمون حتى نبصر هل يتحرر ذلك أم لا — فسألوا عن الاراضى المتساوية في أى البلاد هى فقيل لهم صحراء سنجار فى غاية الاستواء وكذلك وطآت الكوفة فاخذوا معهم جماعة ممن يثق المأمون الي أقوالهم ويركن الى معرفتهم بهذه الصناعة وخرجوا الى سنجار وجاؤا الى الصحراء المذكورة فوقفوا في موضع منها فاخذوا ارتفاع القطب الشمالى ببعض الآلات وضربوا في ذلك الموضع وتداور بطوافيه حبلا طويلا ثم مشوا الى الجهة الشمالية على استواء الارض من غير انحراف الى اليمين واليسار حسب الامكان فلما فرغ الحبل نصبوا في الارض وتدا آخر وربطوا فيه حبلا طويلا ومشوا الى جهة الشمال أيضا كفعلهم الاول ولم يزل ذلك دأبهم حتى انتهوا الى موضع أخذوا فيه ارتفاع القطب المذكور فوجدوه قد زاد على الارتفاع الاول درجة فمسحوا ذلك القدر الذى قدروه من الارض بالحبال فبلغ ٢/٣ ٦٦ ميلا فعلموا أن كل درجة من درج الفلك يقابلها من سطح الارض ٢/٣ ٦٦ ميلا ثم عادوا الى الموضع الذى ضربوا فيه الوتد الاول وشدوا فيه حبلا وتوجهوا الى جهة الجنوب ومشوا على الاستقامة وعملوا كما عملوا في جهة الشمال من نصب الاوتاد وشد الحبال حتى فرغت الحبال التى استعملوها فى جهة الشمال ثم أخذوا الارتفاع فوجدوا القطب الشمالى قد نقص عن ارتفاعه الاول درجة فصح حسابهم وحققوا ماقصدوا من ذلك — وهذا اذا وقف عليه من له يد فى علم الهيئة ظهر له حقيقة ذلك ومن المعلوم ان عدد درج الفلك ٣٦٠° لان الفلك مقسوم باثني عشر برجا كل برج ٣٠° فتكون الجملة ٣٦٠° فضربوا عدد درج الفلك فى ٢/٣ ٦٦ ميلا التى هى حصة كل درجة فكانت الجملة ٢٤٠٠٠ وهى ٨٠٠٠ فرسخ (الميل ٢/٣ ١٦٦٦ م والفرسخ ٥٠٠٠ م) وهذا محقق لاشك فيه فلما عاد بنو موسى الى المأمون وأخبروه بما صنعوا وكان موافقا لما رآه فى الكتب

القديمة من استخراج الاوائل طلب تحقيق ذلك فى موضع آخر فسيرهم الى أرض الكوفة وفعلوا كما فعلوا فى سنجار فتوافق الحسابان فعلم المأمون صحة ما حرره القدماء فى ذلك . وممن كان ينقل لهم حنين بن سحاق العبادى وكان فاضلا في صناعة الطب فصيحا باللغة اليونانية والسريانية والعربية والفارسية دار البلاد فى جمع الكتب القديمة ودخل بلد الروم وأكثر نقوله لبنى موسى ونقله في غاية الجودة وكانت وفاته سنة ٢٦٠

وكان هناك كثير غير بنى شاكر يحذون حذوهم في ذلك فكثرت الكتب المترجمة فى جميع العلوم الصناعية ولما نقلت الى العربية اشتغل بها الناس كثيرا علما وعملا ففسروا مغلقها وأصلحوا خللها ووجد منهم فلاسفة عظام ألفوا كتبا عظيمة فى هذه العلوم منهم من صميم العرب يعقوب بن اسحاق الكندى ينتهى نسبه الى الاشعث بن قيس بن معديكرب ثم الى كندة وكان عظيم المنزلة عند المأمون وعند المعتصم وله مصنفات جليلة ورسائل كثيرة جدا في جميع العلوم ونقل في طبقات الاطباء عن سليمان بن حسان أنه كان عالما بالطب والفلسفة وعلم الحساب والمنطق وتأليف اللحون والهندسة وطبائع الاعداد وعلم النجوم ولم يكن في الاسلام فيلسوف غيره احتذى فى تواليفه حذو ارسطوطاليس وله تواليف كثيرة فى فنون العلم وخدم الملوك فباشرهم بالادب وترجم من كتب الفلسفة الكثير وأوضح منها المشكل ولخص المستصعب وبسط العويص . وقال أبو معشر فى كتاب المذكرات لشاذان : حذاق التراجمة في الاسلام أربعة حنين بن اسحاق ويعقوب بن اسحاق الكندى وثابت بن قرة الحرانى وعمر بن الفرخان الطبرى وقد ذكر فهرس كتبه فى نحو خمس صفحات في علوم شتى

وانما ذكرنا هذا لندل على ان الامة كانت فى استعداد تام لتلقى هذه الكتب والتصرف فيها والبناء عليها والزيادة فيها فنفقت بسبب ذلك هذه العلوم واشتغل بها المتعلمون فى بغداد حاضرة الخلافة وفى غيرها من الحواضر ولم يقفهم

عن التقدم كلمات العلماء من أهل الحديث التى كانت توجه اليهم أحيانا خفية لمكان الخليفة منهم فقد كان هو المساعد الاكبر فى نفاق هذه العلوم

فالمأمون يعد فى الحقيقة حامل لواء هذه العلوم وسبب تلك الحركة الكبرى التى وجدت في الامة الاسلامية مع حفظ الفضل لمن سبقه فى ذلك كأبيه الرشيد وجده المنصور فانهما وضعا الاساس وهو حذا حذوهم الا أنه فاقهم فى الاهتمام والعزم

الاحوال الخارجية

لم يكن بين المسلمين والروم حروب في أول عهد المأمون الى سنة ٢١٥ وفيها شخص للمأمون بنفسه من مدينة السلام لغزو الروم في المحرم (مارس سنة ٨٣٠) واستخلف على المدينة اسحاق بن ابراهيم بن مصعب وسلك طريق الموصل حتى صار الى منبج ثم دابق ثم أنطاكية ثم المصيصة ومنها خرج الى طرسوس وهى الثغر الاسلامى ومن طرسوس دخل الى بلاد الروم فى منتصف جمادى الاولى (يوليه سنة ٨٣٠) ففتح حصن قرة عنوة وأمر بهدمه . ولما تم فتحه اشترى السبى بستة وخمسين الف دينار ثم خلى سبيلهم وأعطاهم دينارا دينارا — وكان قبل ذلك افتتح حصنا اسمه ماجدة فمن على أهله — ثم أرسل أشناس الى حصن سندس فاتاه برأسه — ووجه عجيفا وجعفر الخياط الى صاحب حصن سنان فسمع وأطاع

و بعد ذلك شخص الى الشام وهناك ورد الخبر عليه بان ملك الروم قتل قوما من أهل طرسوس والمصيصة عدتهم فيما يقال ٦٦٠٠ فاعاد الكرة على بلاد الروم فنزل على أنطيفو فخرج أهلها على صلح وصار الى هرقلة فخرج أهلها على صلح ووجه أخاه اسحاق فافتتح ثلاثين حصنا ووجه يحيي بن أكثم من طوانه فأغار وغنم ورجع الى العسكر — ثم خرج المأمون الى كيسوم ثم الى دمشق ومنها خرج الى مصر فى ١٦ الحجة سنة ٢١٦ ثم عاد منها الى دمشق سنة ٢١٧ فدخل أرض الروم ثالث مرة فاناخ على لؤلؤة مئة يوم ثم رحل عنها وخلف عليها عجيفا فاختدعه أهلها وأسروه فمكث أسيرا في أيديهم ثمانية أيام ثم أخرجوه وسار توفيل الى لؤلؤة فاحاط بعجيف

فصرف المأمون الجنود اليه فارتحل توفيل قبل موافاتهم وخرج أهل لؤلؤة الى عجيف بالامان

وكاتب ملك الروم المأمون في سفرته هذه وأجابه المأمون على كتابه وهذه نسخة كتابيهما

كتب ملك الروم الى المأمون : أما بعد فان اجتماع المختلفين على حظهما أولى بهما فى الرأي مما عاد بالضرر عليهما ولست حريا أن تدع لحظ يصل الى غيرك حظا تحوزه الى نفسك وفي علمك كاف عن اخبارك وقد كنت كتبت اليك داعيا الى المسالمة راغبا فى فضيلة المهادنة لنضع أوزار الحرب عنا ونكون كل واحد لكل واحد وليا وحزبا مع اتصال المرافق والفسح فى المتاجر وفك المستأسر وأمن الطرق والبيضة فان أبيت فلا أدبّ لك فى الخمر ولا أزخرف لك فى القول فاني لخائض اليك غمارها آخذ عليك أسدادها شان عليك خيلها ورجلها وان أفعل فبعد ان قدمت اليك المعذرة وأقمت بيني و بينك علم الحجة والسلام

رد المأمون — أما بعد فقد بلغني كتابك فيما سألت من الهدنة ودعوت اليه من الموادعة وخلطت فيه من الاين والشدة مما استعطفت به من فسح المتاجر واتصال المرافق وفك الاسارى ورفع القتل والقتال فلولا مارجعت اليه من أعمال التؤدة والاخذ بالحظ فى تقليب الفكرة وأن لا أعتقد الرأي فى مستقبله الا في اصلاح ما أوثره فى معتقبه لجعلت جواب كتابك خيلا تحمل من أهل البأس والنجدة والبصيرة ينازعونكم عن ثكلكم ويتقربون الى الله بدمائكم ويستقلون فى ذات الله مانالهم من ألم شوكتكم ثم أوصل لهم من الامداد وأبلغ لهم كافيا من العدة والعتاد هم أظما الى موارد المنايا منكم الى السلامة من مخوف معرتهم عليكم موعدهم احدى الحسنيين عاجل غلبة أو كريم منقلب غير أني رأيت أن أتقدم اليك بالموعظة التى يثبت الله بها عليك الحجة من الدعاء لك ولمن معك الى الوحدانية والشريعة الحنيفية فان أبيت ففدية توجب ذمة وتثبت نظرة وان تركت ذلك ففي يقين المعاينة لقوتنا

ما يغنى عن الابلاغ فى القول والاغراق فى الصفة والسلام على من اتبع الهدى

شخص المأمون الى الرقة سنة ٢١٨ وفى هذه السنة فى جمادى (يونيه سنة ٨٣٣) سير ابنه العباس الى أرض الروم وأمره بنزول الطوانة وبنائها فابتدأ البناء بناها ميلا فى ميل وجعل سورها على ثلاثة فراسخ وجعل لها أربعة أبواب وبنى على كل باب حصنا . ثم سار المأمون بعده الى بلاد الروم فدخلها من ناحية طرسوس وهناك كانت وفاته كما يأتي ·

أخلاق المأمون

أول ما ظهر من حلى المأمون ميله للعفو وكراهته للانتقام فانه عفا عن جميع من ساعدوا خصومه عليه ولم يهجهم بشيء حتى الفضل بن الربيع الذى أخذ قواده وسلاحه وجنوده وجميع ما أوصى به أبوه له فذهب به الى الامين وتركه بمرو مجردا عن كل ذلك ثم أفسد عليه أخاه وأغراه على خلعه وكان أشد عليه من كل شيء ومع هذا لم يؤاخذه بجرمه ولما دخل على المأمون وأعلنه المأمون بالعفو سأله الرضا فقال المأمون أجل العفو لا يكون الا عن رضا وسجد المأمون شكرا لله علي أن ألهمه نعمة العفو عنه وقال الحمد لله قديما ما كنت أسلم عليه فأفرح برده فسبحان الذى ألهمنى الصفح عنه فلذلك سجدت قال طاهر بن الحسين فعجبت لسعة حلمه . وقال زيد بن على بن الحسين جلس المأمون يوما للغداء وعلى رأسه سعيد الخطيب وهو يذكر مناقبه ويصف سيرته ومجلسه اذا انهملت عين المأمون فلما سئل عن سبب بكائه قال ما ذلك من حدث ولا لمكروه هممت به لاحد ولكنه جنس من أجناس الشكر لله لعظمته وذكر نعمته التى أتمها علىّ كما أتمها على أبوتي من قبلى أما ترون ذاك الذى فى صحن الدار (يعنى الفضل بن الربيع) كان فى أيام الرشيد وحاله حاله يرانى بوجه أعرف فيه البغضاء والشنآن وكان له عندى كالذى لى عنده ولكنى كنت أداريه خوفا من سعايته وحذرا من أكاذيبه فكنت اذا سلمت عليه فرد على أظل لذلك فرحا وبه مبتهجا وكان صفوه الى المخلوع فحمله على ان أغراه بى

ودعاه الى قتلى وحرك الآخر ما يحرك القرابة والرحم الماسة فقال أما القتل فلا أقتله ولكن أجعله بحيث اذا قال لم يطع واذ دعا لم يجب فكان أحسن حالاتي عنده أن وجه مع على بن عيسى قيد فضة بعد ماتنازعا فى الفضة والحديد ليقيدنى به وذهب عنه قول الله تعالى « ومن بغى عليه لينصرنه الله » فذاك موضعه من الدار بأخس مجالسها وأدنى مراتبها (وكان يجاس مع أصحاب الحرس) وهذا الخطيب على رأسي وكان بالامس يقف على هذا المنبر الذي بازائي مرة وعلى المنبر الغربى مرة فيزعم أني المأفون ولست بالمأمون ثم هو الساعة يقرظنى تقريظه المسيح ومحمدا عليهما السلام.

وكان له في العفو لذة لا يعادلهـا لذة حتى أنه لما ظفر بعمه ابراهيم عفا عنه مع عظيم جرمه وهذا خلق كاد ينساه التاريخ حتى حازه للمأمون الذى أحس من نفسه بقدرة السلطان فاذهب ذلك عنه الحفيظة ولم يؤثر عنه مايعيبه الا ما كان منه بمصر حيث أمر بقتل محاربين نزلوا علي حكمه مع ضياع قوتهم واقتناعه بعذرهم وهم أهل البشرود باسفل مصر كانوا ثاروا على عمالهم بسبب سوء سيرتهم فارسل اليهم الافشين فأوقع بهم حتى نزلوا على حكم أمير المؤمنين ولما ذهب اليهم المأمون حكم بقتل رجالهم وبيع نسائهم وأطفالهم وذلك في صفر سنة ٢١٧ وهى حادثة فى غاية الغرابة بالنسبة لمـا عرف من خلق المأمون الذي اشترى سبى الروم بماله وأطلقهم وأعطى كل واحد دينارا دينارا ومن على غيرهم من السبى

ومن مزايا المأمون أنه كان في جد له ميالا الى الاقناع فكان يناقش من خالفه حتى يبين له الحجة وله في ذلك مجالس مأثورة مشهورة وله فى الجدل حجج قوية ناصعة مع سعة الصدر والاحتمال لما يبدر ممن حضره في المناقشة وكان أصحابه ووزراؤه يدلونه على موضع الخطأ مما يريد أن يفعل. أراد مرة أن ينتقص معاوية بن أبي سفيان ويلعنه فقال له يحيي بن أكثم ان العامة لا تحتمل مثل هذا سيما أهل خراسان ولا تأمن ان يكون لهم نفرة وان كانت لم تدر ما عاقبتها والرأى أن تدع الناس على ماهم عليه ولا تظهر لهم انك تميل الى فرقة من الفرق فان ذلك أصلح في السياسة وأحري

فى التدبير . فاتبع المأمون نصيحته وطوى الكتاب الذى كان قد أنشىء فى هذا المعني فلم يقرأ على العامة ولكنه بقى في دفاترهم مسجلا

كان المأمون مع حلمه يعلم ما عليه رؤساء جنده ورجال دولته فلم يكن بالمغفل الذى ينخدع برياء الناس ونفاقهم وظهورهم بما ليس من خيمهم قال يوما وفي مجلسه جماعة هاتوا فى عسكرنا من يطلب ماعندنا بالرياء فقال كل واحد بما عنده اما أن يقول فى عدو يقدح فيه أو يقول بما يعلم انه يسر خليفته فلما قالوا ذلك قال ما أرى عند أحد منكم ما يبلغ ارادتي ثم أنشأ يحدث عن أهل عسكره أهل الرياء حتى لو كان قد أقام فى رحل كل واحد منهم حولا مازاد على معرفته فكان مما حفظ عنه اذ قال حين ذكر أهل الرياء وما يعاملون به الناس — تسبيح حميد الطوسى وصلاة قحطبة . وصوم النوشجاني . ووضوء بشر المريسى . وبناء مالك بن شاهى المساجد . وبكاء ابراهيم بن بريهة على المنبر . وجمع الحسن بن قريش اليتامى . وقصص منجا وصدقة على بن الجنيد . وحملان اسحاق بن ابراهيم فى السبيل . وصلاة ابن رجاء فى الضحى . وجمع على بن هشام القصاص — حتى جمع جماعة كثيرة فقال رجل من عظماء العسكر لآخر بعد أن خرجا من الدار هل رأيت أو سمعت بملك قط أعلم برعيته ولا أشد تنقيرا من هذا — فحدث ابراهيم بن المهدى بهذا الحديث رجلا من أصحاب الاخبار والعلم فقال له وما تصنع بهذا قد شهدت رسالته الى اسحاق ابن ابراهيم فى الفقهاء يخبر بمعايبهم رجلا رجلا حتى لهو بها أعلم منهم بما فى منازلهم

قعد مرة للمظالم فقدم اليه أصحاب الحاجات فقضى ما شاء من حاجاتهم وكان فيهم نصراني من أهل كسكر كان قد صاح بالمأمون غير مرة وقعد له فى طريقه فلما بصر به المأمون أثبته معرفة فامر سلما صاحب الحوائج أن يبطحه ويضربه عشرين درة وقال لسلم قل له تعود تصيح بي فقال له سلم ذلك وهو مبطوح فقال الرجل أعود وأعود وأعود حتى تنظر فى حاجتى فأبلغه سلم ذلك فقال هذا مظلوم موطن نفسه على القتل أو قضاء حاجته ثم قال لابي عباد اقض حاجة هذا كائنة ما كانت

الساعة . فلا أدرى مم يعجب الانسان أمن ملاحظة المأمون وعرفان الرجل لانه هو الذى صاح به مرة أو مرتين أم من تأميل الرجل فيه بعد أن أمر بضربه أم من رجوع المأمون عن خطئه فيما صنع وأمره بقضاء حاجة الرجل كائنة ما كانت

وكان مع هذه الاخلاق أديبا يعرف جيد الشعر ورديئه ويثيب على ما أعجبه منه ثوابا فوق كل أمل . حدث عمارة بن عقيل قال أنشدت المأمون قصيدة فيها مديح له فيها مئة بيت أو أكثر فما ابتدأت بصدر بيت الا بادرنى الى قافيته فقال عمارة والله يا أمير المؤمنين ماسمعها منى أحد قط فقال المأمون هكذا ينبغى ان يكون وقال عمارة قال لى عبد الله بن السمط علمت ان المأمون لا يبصر الشعر فقلت ومن ذا يكون أعلم منه فوالله انك لترانا ننشده أول البيت فيسبقنا الى آخره . قال اني أنشدته بيتا أجدت فيه فلم أره تحرك له — قلت وما الذى أنشدته فقال

أضحى امام الهدى المأمون مشتغلا بالدين والنـاس بالدنيا مشاغيل

فقلت ما صنعت شيئا وهل زدت على ان جعلته عجوزا في محرابها فى يدها سبحتها فمن القائم بامر الدنيا اذا تشاغل عنها وهو المطوق بها هلا قلت فيه كما قال جرير فى عبد العزيز بن الوليد

فلا هو في الدنيا مضيع نصيبه ولا عرض الدنيا عن الدين شاغله

ولعلمه بالشعر ومحبته له راجت في زمنه سوقه وكثر الشعراء والادباء كما كثر المغنون ونبغوا . وكان المأمون يسمع الغناء ويحب الجيد منه وكان يشرب النبيذ على رأى أهل العراق

أما كرمه فما سارت به الامثال فقد أربى على جميع خلفاء بنى العباس حتى على أبيه الذي كان يعطي عطاء من لا يخاف فقرا ولا يخشى اقلالا وحكايات المأمون في العطاء كثيرة فلا نطيل بذكرها الا أنا نذكر حادثة تدل على مقدار الترف في القوم وسعة اليد وكثرة البذل

بني المامون سنة ٢١٠ ببوران بنت الحسن بن سهل فى فم الصلح واحتفل أبوها

بامرها وعمل من الولائم والافراح ما لم يعهد مثله فى مصر من الامصار وانتهى أمره الى أن نثر على الهاشميين والقواد والكتاب والوجوه بنادق مسك فيها رقاع باسماء ضياع واسماء جوار وصفات دواب وغير ذلك فكانت البندقة اذا وقعت فى يد الرجل فتحها وقرأ مافيها ثم يمضى الى الوكيل المرصد لذلك فيدفعها اليه ويتسلم ما فيها ثم نثر بعد ذلك على سائر الناس الدنانير والدراهم ونوافج المسك وبيض العنبر وانفق على المامون وقواده وجميع أصحابه وسائر من كان معه من أجناده واتباعه حتى على الجمالين والمكارية والملاحين وكل من ضمه عسكره فلم يكن فى العسكر من يشترى شيئا لنفسه ولا لدوابه تسعة عشر يوما وكان مبلغ النفقة عليهم خمسين الف الف درهم (نحو مليون جنيه) وأمر المامون له عند انصرافه بعشرة آلاف الف درهم وأقطعه فم الصلح وأطلق له خراج فارس وكور الاهواز مدة سنة . وهذا سرف عظيم سهل أمره الوارد الكثير

وفاة المامون

بينما كان المامون ببلاد الروم فى آخر غزواته أصابته حمى وهو بالبُدَندون شمالى طرَسوس أصابته حمى لم تمهله كثيرا وفى ١٨ رجب سنة ٢١٨ أدركته منيته فحمل الى طرسوس ودفن بها وكانت سنه اذ توفى ٤٨ سنة

ولاية العهد

عهد المامون وهو مريض الى أخيه أبى اسحاق بن الرشيد ولم يخطىء خطأ من قبله بالعهد الى اثنين وأوصاه بوصية مأثورة تقدم منها اشياء ومما جاء فيها (واعمل في الخلافة اذا طوقكها الله عمل المريد لله الخائف من عقابه وعذابه ولا تغتر بالله ومهلته فكأن قد نزل بك الموت ولا تغفل أمر الرعية الرعية الرعية العوام العوام فان الملك بهم وبتعهدك المسلمين والمنفعة لهم الله الله فيهم وفي غيرهم من المسلمين ولا ينهين اليك أمر فيه صلاح للمسلمين ومنفعة لهم الا قدمته وآثرته على غيره من هواك وخذ

من أقويائهم لضعفائهم ولا تحمل عليهم في شيء وانصف بعضهم من بعض بالحق بينهم وقربهم وتأنهم وعجل الرحلة عنى والقدوم الى دار ملكك بالعراق . وانظر هؤلاء القوم الذين أنت بساحتهم فلا تغفل عنهم فى كل وقت)

---

٨ – المعتصم

هو أبو اسحاق محمد بن الرشيد بن المهدى بن المنصور وأمه أم ولد اسمها ماردة ولد سنة ١٧٩ فبينه وبين أخيه المأمون تسع سنوات وكان في عهد أخيه المأمون واليا على الشام ومصر وكان المأمون يميل اليه لشجاعته فولاه عهده وترك ابنه . وفي اليوم الذى توفى فيه المأمون ببلاد الروم بويع له بالخلافة ولقب بالمعتصم بالله فى ١٩ رجب سنة ٢١٨ (١٠ أغسطس سنة ٨٣٣) ولم يزل خليفة الى أن توفى بمدينة سامرا في ١٨ ربيع الاول سنة ٢٢٧ (٤ فبراير سنة ٨٤٢) فكانت خلافته ثماني سنين وثمانية أشهر وثمانية أيام

وكان يعاصره في الاندلس عبد الرحمن الثاني بن الحكم بن هشام رابع أمراء بنى أمية بالاندلس (٢٠٦ – ٢٣٨)

ويعاصره في المغرب الاقصى من الادارسة محمد بن ادريس بن ادريس (٢١٣ ـ ٢٢١) ثم على بن محمد (٢٢١ ـ ٢٣٤)

ويعاصره في أفريقية من الاغالبة زيادة الله بن ابراهيم بن الاغلب (٢٠١ ـ ٢٢٣) ثم الاغلب بن زيادة الله (٢٢٣ ـ ٢٢٦) ثم محمد بن الاغلب بن زيادة الله (٢٢٦ ـ ٢٤٢)

ويعاصره في اليمن محمد بن ابراهيم الزيادى الذى ولاه المأمون (٢٠٣ ـ ٢٤٥)

ويعاصره في خراسان الامير عبد الله بن طاهر الذى ولاه المأمون (٢١٣ ـ ٢٣٠)

ويعاصره فى مملكة الروم بالقسطنطينية نوفيل بن ميخائيل (٨٢٩ ـ ٨٤٢)
ويعاصره في فرنسا لويز الاول الملقب باللين (٨١٤ ـ ٨٤٠) ثم شارل الملقب بالاصلع (٨٤٠ ـ ٨٧٧)

الاحوال في عهد المعتصم

بعد أن تمت البيعة للمعتصم ببلاد الروم عاد بالعسكر قاصدا بغداد بعد ان أمر بهدم ما كان المأمون أمر ببنائه بطوانة وحمل ما كان بها من السلاح والآلة وغير ذلك مما قدر على حمله وأحرق مالم يقدر على حمله وأمر بصرف من كان المأمون أسكنه ذلك من الناس الى بلادهم . وكان دخول المعتصم بغداد يوم السبت مستهل رمضان سنة ٢١٨

وزراء المعتصم

الفضل بن مروان بن ما سرخس . كان رجلا نصرانيا من أهل البردان وكان متصلا برجل من العمال يكتب له وكان حسن الخط ثم صار مع كاتب كان للمعتصم قبل ان يستخلف وهذا الكاتب هو يحيي الجرمقاني فلما مات يحيي صير الفضل في موضعه ولم يزل كذلك حتى بلغ المعتصم الحال التى بلغها والفضل كاتبه . لما خرج المعتصم مع المأمون في غزوته الاخيرة كان الفضل ببغداد ينفذ أمور المعتصم ويكتب على لسانه بما أحب فلما بلغه موت المأمون قام بأمر بيعة المعتصم ببغداد وضبط الامور حتى قدم المعتصم بغداد خليفة فعرف له فضل اجتهاده ونشاطه فسلم اليه أمر الخلافة وخلع عليه ورد أموره كلها اليه فغلب عليه بطول خدمته وتربيته واستقل بالامور ولم يزل على ذلك سنتين فلما بدا للمعتصم استبداده بالامور ثقل عليه . كان يدخل على المعتصم فيقول له احمل الى كذا وكذا من المال فيقول ما عندي فيقول فاحتلها من وجه من الوجوه فيقول ومن أين أحتالها ومن يعطينى هذا القدر من المال وعند من أجده فكان ذلك يسوء المعتصم ويعرف فى وجهه . وكان للمعتصم رجل مضحك اسمه ابراهيم الهفتى كان يصحبه قبل الخلافة فيقول له فيما يداعبه والله

لا أفلحت أبدا فلما ولى المعتصم أمر للهفتى بمال وأمر الفضل أن يعطيه اياه فلم يفعل. فبينا الهفتى يوما عند المعتصم بعد ما بنيت له داره التى ببغداد واتخذ له فيها بستان قام المعتصم يمشى في البستان ينظر اليه والى مافيه من أنواع الرياحين والغروس ومعه الهفتى وكان رجلا مربوعا ذا كدنة والمعتصم رجلا معرقا خفيف اللحم فجعل المعتصم يسبق الهفتى فى المشى فاذا تقدم ولم يره التفت اليه فقال مالك لا تمشى يستعجله فى المشى فلما كثر ذلك من أمر المعتصم قال له الهفتى مداعبا كنت أرانى أماشى خليفة ولم أكن أراني أماشي فيجا والله لا أفلحت — فضحك المعتصم وقال ويلك وهل بقى من الفلاح شىء لم أدركه بعد الخلافة فقال الهفتى أتحسب انك أفلحت الآن انما لك من الخلافة الاسم والله ما يجاوز أمرك أذنك وانما الخليفة الفضل بن مروان الذى ينفذ أمره من ساعته فقال المعتصم أى أمر لى لا ينفذ فقال الهفتى أمرت لى بكذا وكذا منذ شهرين فما أعطيت مما أمرت به منذ ذاك حبة فاحتجنها المعتصم على الفضل مع ما سبق له معه فاول ما فعله ان جعل عليه زماما فى نفقات الخاصة وهو أحمد بن عمار الخراسانى وزماما في الخراج وجميع الاعمال وهو نصر بن منصور. ثم زاد الامر واستفحل فاشتد غضب المعتصم عليه وعلى أهل بيته وأمرهم برفع ما جري على أيديهم أى تقديم الحساب عما وصل اليهم من المال وعما صرفوه ولما فرغ الحساب أمر بحبس الفضل وان يحمل الى منزله ببغداد ثم نفى الى قرية فى طريق الموصل يقال لها السن وبقى كذلك حياة المعتصم قال الصولى في أخبار الوزراء ان المعتصم أخذ من بيته لما نكبه الف الف دينار وأخذ أثاثا وآنية بالف الف دينار

كان الفضل قليل المعرفة بالعلم جيد الكتابة ومن المأثور عنه لا تتعرض لعدوك وهو مقبل فان اقباله يعينه عليك ولا تتعرض له وهو مدبر فان ادباره يكفيك أمره. واستمرت حياه الفضل بن مروان الى سنة ٢٥٠

استوزر المعتصم بعد الفضل أحمد بن عمار الخراسانى الذى تقدم ذكره فلم يكن فيه كفاية كتابية. ورد على المعتصم كتاب من بعض العمال فقرأه الوزير عليه

وكان في الكتاب ذكر الكلأ فقال المعتصم ما الكلأ فقال لا أدرى . فقال المعتصم خليفة أمى ووزير عامى (وكان المعتصم ضعيف الكتابة) ثم قال ابصروا من بالباب من الكتاب فوجدوا محمد بن عبد الملك الزيات فادخلوه اليه فقاله ما الكلأ - فقال الكلأ العشب على الاطلاق فان كان رطبا فهو الخلا فاذا يبس فهو الحشيش وشرع في تقسيم أنواع النبات فعرف المعتصم فضله واستوزره

محمد بن عبد الملك بن أبان بن حمزة المعروف بابن الزيات . كان جده ابان رجلا قرويا من الدسكرة يجلب الزيت من موضعه الى بغداد فعرف محمد به . نشأ محمد ببغداد فتعلم وتأدب ونال من ذلك حظا وافرا حتى قيل ان ابا عثمان المازنى لما قدم بغداد في أيام المعتصم كان أصحابه وجلساؤه يخوضون بين يديه في علم النحو فاذا اختلفوا فيما يقع فيه الشك يقول لهم أبو عثمان ابعثوا الى هذا الفتى الكاتب (يعنى ابن الزيات) فاسألوه فاعرفوا جوابه فيفعلون ويصدر جوابه بالصواب الذى يرتضيه أبو عثمان ويوقعهم عليه . وكان محمد في أول أمره من الكتاب بالديوان فحصلت المسألة التي شرحناها في تاريخ أحمد بن عمار فاستوزره المعتصم فقام بأمر الوزارة خير قيام واستمر وزيرا الى وفاة المعتصم وخدم الخلفاء بعد ذلك كما يأتى

وكان محمد بن عبد الملك مع علمه وأدبه ومعرفته بخدمة الملوك شاعرا ظريفا عده دعبل بن على فى طبقات الشعراء وذكره أبو عبد الله هارون بن المنجم فى كتابه البارع ومن رقيق شعره قوله فى موت أم ابنه ولابنه ثماني سنوات

ألا من رأى الطفل المفارق أمه ... بعيد الكرى عيناه تنسكبان
رأى كل أم وابنها غير أمه ... يبيتان تحت الليل ينتجيان
وبات وحيدا فى الفراش تجيبه ... بلابل قلب دائم الخفقان
فهبنى أطقت الصبر عنها لانني ... جليد فمن للصبر بابن ثمان
ضعيف القوى لا يعرف الصبر جسمه ... ولا يأتسى بالناس فى الحدثان

وقد مدحه الوليد بن عبادة الشاعر المعروف بالبحتري بقصيدة مطلعها

بعض هذا العتاب والتفنيد ليس ذم الوفاء بالمحمود

يقول فيها واصفا ما منحه من البلاغة

لتفننت فى الكتابة حتى عطل الناس فن عبد الحميد

في نظام من البلاغة ماشـ ـك امرؤ انه نظام فريد

وبديع كأنه الزهر الضا حك في رونق الربيع الجديد

مشرق في جوانب السمع ما يخـ ـلقه عوده على المستعيد

ما أعيرت منه بطون القراطيـ ـس وما حملت ظهور البريد

مستميل سمع الطروب المعنى عن أغانى مخارق وعقيد

حجج تخرس الألد بألفا ظ فرادى كالجوهر المعقود

ومعان لو فصلتها القوافي هجنت شعر جرول ولبيد

حزن مستعمل الكلام اختيارا وتجنبن ظلمة التعقيد

وركبن اللفظ القريب فادركـ ـن به غاية المراد البعيد

كالعذارى غدون في الحلل البيـ ـض اذا رحن فى الخطوط السود

قد تلقيت كل يوم جديد يا أبا جعفر بمجد جديد

يئس الحاسدون منك وما مجـ ـدك مما يرجوه ظن الحسود

واذا استطرفت سيادة قوم بنت بالسودد الطريف التليد

وذو والفضل مجمعون على فضـ ـلك من بين سيد ومسود

عرف العالمون فضلك بالعلـ ـم وقال الجهال بالتقليد

والذى كان يعاب عليه شدته فى معاملة العمال الذين يصادرهم لخيانتهم فى الاعمال وكان اذا قال له أحد منهم أيها الوزير ارحمنى قال الرحمة خور فى الطبيعة

أحمد بن أبي دؤاد الايادى — كان من المعتصم كيحيي بن أكثم من المأمون ولذلك سقنا خبره فى عداد الوزراء

أصل بيته فيما يقال من احدى قرى قنسرين وكان أبوه يتجر الى الشام أما هو

فولد بالبصرة سنة ١٦٠ ونشأ بها فى طلب العلم وخاصة الفقه والكلام وصحب هياج ابن العلاء السلمي وكان من أصحاب واصل بن عطاء الغزال كبير المعتزلة ومقدمهم فمال أحمد من أجل ذلك الى الاعتزال وكان يحضر ببغداد مجلس القاضى يحيى بن أكثم فلما أمره المأمون ان يختار جماعة من الفقهاء يجالسونه ويبحثون معه كان أحمد فى هؤلاء المختارين فكان المأمون اذا شرع أحمد في الكلام ينظر اليه ويتفهم ما يقول ويستحسنه فأمره ان يحضر مجلسه دائما ولا يتأخر عنه وأحبه المأمون جدا وخف على قلبه حتى قال لاخيه المعتصم في وصيته (وأبو عبد الله أحمد بن أبي دؤاد لايفارقك واشركه فى المشورة فى كل أمرك فانه موضع لذلك منك) فولاه المعتصم قضاء القضاة واختص به حتى كان لا يفعل فعلا باطنا ولا ظاهرا الا برأيه فكان له في حياة المعتصم مركز لايدانيه فيه أحد حتى قال ازون بن اسمعيل مارأيت أحدا قط أطوع لاحد من المعتصم لابن أبي دؤاد وكان يسأل الشيء اليسير فيمتنع منه ثم يدخل ابن أبي دؤاد فيكلمه في أهله وفي الثغور وفي الحرمين وفي أقاصى أهل المشرق والمغرب فيجيبه الي كل ما يريد ولقد كلمه يوما في مقدار الف الف ليحفر بها نهرا في أقاصى خراسان فقال المعتصم وما على من هذا النهر فقال يا أمير المؤمنين ان الله تعالى يسألك عن النظر في امر أقصى رعيتك كما يسألك عن النظر في امر ادناها ولم يزل يرفق به حتى اطلقها

وقال الحسين بن الضحاك الشاعر لبعض المتكلمين ابن أبى داؤد عندنا لا يعرف اللغة وعندكم لا يحسن الكلام وعند الفقهاء لا يحسن الفقه وعند المعتصم يحسن هذا كله

كان ابن أبي دؤاد ممن يحبون الخير للناس وله شرف نفس وجمال خلق عربى حتى عرف بالمروءة وكان يحمل فى سبيلها مالا يحمله أحد قال أحمد بن عبد الرحمن الكلبى ابن أبى دؤاد روح كله من قرنه الى قدمه . ومن طريف نوادره في المروءة ان الافشين كان يحسد أبا دلف القاسم بن عيسى العجلى للعربية والشجاعة فاحتال عليه حتى شهد عليه بجناية وقتل فاخذه وأحضر السياف لقتله و بلغ الخبر ابن أبي دؤاد

فخاف اذا هو ذهب الى المعتصم وكلمه فى شأنه ان يكون الكلام بعد فوات الوقت فركب فورا مع من حضره من العدول ودخل على الافشين وقد جيء بابي دلف ليقتل فوقف وقال انى رسول أمير المؤمنين اليك وقد أمرك ألا تحدث فى القاسم بن عيسى حدثا حتى تسلمه الى ثم التفت الى العدول وقال اشهدوا انى أديت اليه الرسالة عن أمير المؤمنين والقاسم حى معافى فقالوا شهدنا وخرج فلم يقدر الافشين علي تنفيذ مراده وذهب ابن ابي دؤاد الى المعتصم من وقته فقال له يا امير المؤمنين قد أديت عنك رسالة لم تقلها ما اعتد بعمل خير خيرا منها واني لارجو لك الجنة بها ثم اخبره الخبر فصوب المعتصم رأيه ووجه من احضر القاسم فأطلقه ووصله وعنف الافشين على ما كان عزم عليه .

وكان وجود ابن ابي دؤاد مع المعتصم مما عدل مزاجه لانه شجاع شديد عجول فكان اذا اسرع اليه الغضب هدأ ابن ابي دؤاد من حدته وأراه وجه الاناة والعفو فلا يسعه الا أن يسير في سبيلهما وكان له عليه من الدالة وعلو المركز ما يستعين به على تنفيذ غرضه — غضب المعتصم مرة على خالد بن يزيد بن مزيد الشيبانى وأشخصه من ولايته لعجز لحقه في مال طلب منه فجلس المعتصم لعقوبته وكان خالد قد طرح نفسه على ابن ابى دؤاد فتكلم فيه فلم يجبه المعتصم فلما جلس المعتصم حضر أحمد وهو قاضى القضاة فجلس دون مجلسه المعتاد فقال له المعتصم يا ابا عبد الله جلست في غير مجلسك فقال ما ينبغى لي ان اجلس الا دون مجلسى هذا فقال له وكيف قال لان الناس يزعمون انه ليس موضعي موضع من يشفع في رجل فيشفع – فقال المعتصم ارجع الى مجلسك قال مشفعا او غير مشفع قال بل مشفعا فارتفع الى مجلسه ثم قال ان الناس مايعلمون رضاء اميرالمؤمنين ان لم يخلع عليه فأمر بالخلع عليه فقال يا اميرالمؤمنين قد استحق هو واصحابه رزق ستة اشهر لابد ان يقبضوها وان امرت لهم بها في هذا الوقت قامت مقام الصلة فقال قد امرت له بها فخرج خالد وعليه الخلع وبين يديه المال وان الناس ينتظرون الايقاع به فصاح به رجل الحمد لله على خلاصك ياسيد العرب فقال له

اسكت سيد العرب والله أحمد بن ابي دؤاد . وكان في ابن ابي دؤاد عصبية عربية ولعل هـذا أفاد العرب وحفظ لهم شيئا من مقامهم في عهد المعتصم الذي جعل القوة كلها لغلمان الاتراك الذين استكثر منهم ومن قوادهم .

وكان ابن ابي دؤاد مع ذلك شاعرا أديبا مجيدا فصيحا بليغا ذكره دعبل فى طبقات الشعراء ومن مأثور قوله ثلاثة ينبغي ان يبجلوا وتعرف اقدارهم العلماء وولاة العدل والاخوان فمن استخف بالعلماء أهلك دينه ومن استخف بالولاة اهلك دنياه ومن استخف بالاخوان اهلك مروءته ولابى تمـام فيه مدائح جليلة منها قصيدته التى مطلعها

سقى عهد الحمى سيل العهاد   وروض حاضر منه وباد

يقول فيها :

لقد أفنت مساوى كل دهر   محاسن أحمد بن أبي دؤاد
متى تحلل به تحلل جنابا   رضيعا للسوارى والغوادي
ترشح نعمة الايام فيـه   وتقسم منه ارزاق العباد
وما اشتبهت طريق المجد الا   هداك لقبلة المعروف هاد
وما سافرت في الآفاق الا   ومن جدواك راحلتى وزادى
مقيم الظن عندك والامانى   وان قلقت ركابى في البلاد
معاد البعث معروف ولكن   ندى كفيك فى الدنيا معادى

العلويون في عهد المعتصم

لاول عهده توفى محمد الجواد بن على الرضا تاسع ائمة الشيعة الامامية الاثنى عشرية وكانت وفاته سنة ٢٢٠ وسنه ٢٥ سنة وكانت تحته ام الفضل بنت المأمون فحملت الى قصر عمها المعتصم فتولى الامامية بعده ابنه أبو الحسن على الهـادى وكانت سنه حين مات ابوه سبع سنين

وخرج على المعتصم من الزيدية محمد بن القاسم بن على بن عمر بن على بن الحسين

بن علي . كان مقيما بالكوفة ثم خرج منها الى الطالقان من خراسان يدعو الى الرضا من آل محمد صلى الله عليه وسلم فاجتمع اليه بها ناس كثير فاهتم بأمره عبد الله بن طاهر أمير خراسان وبعث له البعوث فكان بين الفريقين وقعات بناحية الطالقان وجبالها فهزم هو وأصحابه فخرج هاربا يريد بعض كور خراسان كان أهله كاتبوه فلما وصل الى نسا دل عليه فأخذه عاملها واستوثق منه وبعث به الى عبد الله بن طاهر فأرسل به الى المعتصم فحبس بسامرا سنة ٢١٩ فأقام فيه حتى كانت ليلة الفطر واشتغل الناس بالعيد والتهنئة احتال للخروج بواسطة رجال من شيعته فهرب ولم يعرف له خبر وقد انقاد الى امامته كثيرون من الزيدية ومنهم خلق كثير يزعمون انه لم يمت وانه حي يرزق وانه يخرج فيملأ الارض عدلا كما ملئت جورا وانه مهدي هذه الامة وأكثر هؤلاء بناحية الكوفة وجبال طبرستان والديلم وكثير من كور خراسان وبقي ذلك الاعتقاد حتى سنة ٣٣٢ كما قال المسعودي فى مروج الذهب

الجيش

قدمنا ما كان في عهد المأمون من كثرة العناصر الغريبة عن الامة العربية في جيش الدولة العباسية وذلك أمر قضت به الاحوال لذلك العهد كما شرحنا ذلك فلما جاء المعتصم أربى على أسلافه فى ذلك فقد كان يغلب عليه من أخلاق الرجال الشجاعة والميل الى الشجعان . رأى ان من ببغداد من جنود الابناء لا يوثق بهم لكثرة اضطرابهم وقيامهم على الخلفاء ورأى ما للاتراك من شدة البأس والنجدة فأراد ان يكوّن منهم جيشا يستعز به على هؤلاء الابناء ورغم انوفهم فاستكثر من غلمان الاتراك وأحضر منهم عددا عظيما فوق ما كان منهم فى عهد أخيه المأمون وأسكنهم بغداد واستغنى عن جيوش العرب بمرة واسقطهم كافة من الدواوين بحيث لم يبق مرتزق لعهده الا من كان من الاتراك أو الابناء الا أنه اصطنع قوما من حوف مصر ومن جوف اليمن وحوف قيس وسماهم المغاربة وأتى بكثير من الفراغنة أهل فرغانة والاشر وسنية أهل أشروسنة فكثر جيشه وكان هؤلاء القوم عجما جفاة يركبون

الدواب فيتراكضون في طرق بغداد وشوارعها فيصدمون الرجل والمرأة والصبي فيأخذهم الابناء فينكسونهم عن دوابهم ويجرحون بعضهم فربما هلك من الجراح بعضهم فشكا الاتراك ذلك الى المعتصم وتأذت به العامة فرأى المعتصم أن بقاء هؤلاء الاتراك فى وسط بغداد وبجانب جنود الابناء خطر عليهم فكان ذلك سببا لتفكيره في اختطاط حاضرة جديدة له وهذا الجيش الجديد الذى أعجب به فاختطت سامرا

وكان المعتصم يلبس هذه الجنود أنواع الديباج والمناطق المذهبة والحلية المذهبة وأبانهم بالزى عن سائر جنوده واشتهر منهم قواد اصطنعهم المعتصم ورفع من أقدارهم وجعل بيدهم مستقبل الخلافة الاسلامية وسنذكر بعضهم .

(١) الافشين حيدر بن كاوس وهو تركى من أشروسنة « كورة من بلاد ما وراء النهر شرقيها فرغانة وغربيها سمرقند وشماليها الشاش وبعض فرغانة وجنوبيها بعض حدود كش والصغانيان وغيرهما ومدينتها التى يسكنها الولاة بنجكث »

كان حيدر في حاشية المعتصم فى حياة المأمون وأصله من أبناء ملوك أسروسنة لذين يلقب الواحد منهم بالافشين ولما رأى شجاعته وشهامته استعان به فيما ولى من الاعمال وكان المعتصم واليا على مصر والشام فأرسله نيابة عنه لازالة الاضطراب فى برقة ومصر فنجح فيهما . ولما استخلف المعتصم كان الافشين في مقدمة قواده فعين سنة ٢٢٠ لحرب بابك كما تقدم ذكره فظهرت على يديه عظائم الاعمال واحكام سير الجيوش حتى ظفر بخصمه مع مناعة موقعه . ولما أمره المعتصم بالعود الى سامرا كان يوجه اليه كل يوم من حين فصل من برزند الى ان وافى سامرا فرسا وخلعة . ولما حضر توجه وألبسه وشاحين بالجوهر ووصله بعشرين الف الف درهم منها عشرة آلاف الف صلة وعشرة آلاف الف يفرقها فى أهل عسكره وعقد له على السند . ولما غزا المعتصم عمورية كان قائدا لاحدى الفرق الثلاث التى دخلت بلاد الروم وهو الذى تولى حرب توفيل ملك الروم وهزم جنده . كل ذلك الاعظام والاجلال جعل

الافشين يمني نفسه بالملك والاستقلال في بلاده أشروسنة يوما ما وأول ماعرف ذلك منه أنه كان وهو يحارب بابك لا يأتيه هدية ولا مال الا وجه به الى أشروسنة فيجتاز ذلك بعبد الله بن طاهر أمير خراسان فيكتب الى المعتصم بخبره فيكتب المعتصم الى ابن طاهر يأمره بتعريف جميع ما يوجه الافشين من الهدايا الى أشروسنة فيفعل ذلك عبد الله . كان الافشين كلما تهيأ عنده مال حمله أوساط أصحابه بقدر طاقتهم فكان الرجل يحمل من الالف فما فوقه من الدنانير في وسطه فاخبر عبد الله بذلك . فبينا هو في يوم من الايام وقد نزلت رسل الافشين نيسابور معهم الهدايا وجه اليهم ابن طاهر وأخذهم ففتشهم فوجد في أوساطهم همايين فاخذها منهم وقال لهم من أين لكم هذا المال فقالوا هذه هدايا الافشين وأمواله فقال كذبتم لو أراد الافشين أخى ان يرسل بهذه الاموال لكتب الى يعلمنى به لابذرقه « أحرسه » لان هذا مال عظيم وأنتم لصوص فاخذ عبد الله المال وأعطاه جنده وكتب الى الافشين يذكر له ما قال القوم وقال أنا انكر ان تكون وجهت بهذا المال الى أشروسنة ولم تكتب الى تعلمنى لابذرقه فان كان هذا المال ليس لك فقد أعطيته الجند مكان المال الذي يوجهه الى أمير المؤمنين فى كل سنة وان كان المال لك كما زعم القوم فاذا جاء المال من قبل أمير المؤمنين رددته اليك وان يكن غير ذلك فامير المؤمنين أحق بهذا المال وانما دفعته الى الجند لانى أريد ان أوجههم الى بلاد الترك . فكتب اليه يعلمه أن ماله ومال أمير المؤمنين واحد ويسأله اطلاق القوم ففعل ذلك ابن طاهر

رأى الافشين أنه لا يتم له أمر مادام ابن طاهر بخراسان فانتظر الفرص ليحمل المعتصم على عزله وتوليته مكانه وحينئذ يتسع له المجال . كان ببلاد طبرستان دهقان من أبناء ملوكها اسمه مازيار بن قارن بن وندا هرمز وكان منافرا لآل طاهر لا يحمل اليهم الخراج ويحمله الى المعتصم فكان اذا وصل المال همذان يأمر المعتصم رجلا من قبله فيستوفيه ثم يسلمه الى صاحب عبد الله بن طاهر ليرده الى خراسان فكانت هذه الحال بينهما حتى زادت المنافرة وبلغت حدها الاقصى فاراد الافشين انتهاز هـذه

الفرصة فكتب الى مازيار يقويه على خلاف ابن طاهر ويخبره أن المعتصم وعده امارة خراسان وأراد الافشين بذلك ان يخالف مازيار فيولى المعتصم الافشين حربه ويكون له مع ذلك ولاية خراسان . دعا ذلك مازيار الى اظهار الخلاف وشق عصا الطاعة ومنع الخراج وتحصن بجبال طبرستان . بلغ ذلك عبد الله بن طاهر فوجه اليه عمه الحسن بن الحسين بن مصعب وضم اليه جيشا كثيفا يحفظ جرجان ووجه المعتصم من قبله محمد بن ابراهيم بن مصعب في جمع كثيف وضم اليه الحسن بن قارن الطبرى القائد ومن كان بالباب من الطبرية ووجه منصور بن الحسن صاحب دنباوند الى مدينة الرى ليدخل طبرستان من ناحية الرى — ولم ينتدب الافشين لشيء مما كان ظن وقد أحاطت هذه الجنود بطبرستان من كل جانب وهزمت جنود مازيار — فرأى أن يستأمن الى الحسن بن الحسين فاستأمن اليه هو وأخوه قوهيار فامر عبد الله بن طاهر بتسليم مازيار وأهل بيته الى محمد بن ابراهيم فحملهم الى المعتصم بسامرا

تحقق المعتصم من كل ما بلغه عن الافشين واطلع على الكتب التى كان أرسلها أخو الافشين الى مازيار وعلم الافشين ذلك فعزم على الهرب وصار يدبر التدابير الشنيعة للفتك بالمسلمين وقد وصل شيء من علم ذلك الى قائد من القواد الاشروسنية فاخبر به المعتصم فامر بحضور الافشين ولما حضر أخذ سواره وحبسه ثم أحضره في مجلس عام لتبكيته ومناظرته وكان الذى تولى ذلك الوزير محمد بن عبد الملك الزيات فثبت من التحقيق ان الرجل لا يزال على كفره وانه كان يكيد المكايد للوصول الى ملك بلاده وان أهل اشروسنة كانوا يخاطبونه باله الآلهة ثم ثبت انه كان يكاتب المازيار وشهد المازيار ان أخاه خاش كتب الى قوهيار أخى مازيار (انه لم يكن ينصر هذا الدين الابيض غيرى وغيرك وغير بابك فاما بابك فانه بحمقه قتل نفسه ولقد جهدت أن أصرف عنه الموت فابى حمقه الا ان دلاه فيما وقع فيه فان خالفت لم يكن للقوم ما يرمونك به غيرى ومعى الفرسان وأهل النجدة والبأس فان

وجهت اليك لم يبق أحد يحاربنا الا ثلاثة المغاربة والعرب والاتراك والعربى بمنزلة الكلب اطرح له كسرة ثم اضرب رأسه بالدبوس وهؤلاء الذباب (يعنى المغاربة) انما هم أكلة رأس وأولاد الشياطين (يعني الاتراك) فانما هى ساعة حتى تنفذ سهامهم ثم تجول الخيل عليهم جولة فتأتي على آخرهم ويعود الدين الى مالم يزل عليه (أيام العجم) — ولما تبين أمره قال القاضى أحمد بن أبى دؤاد قد وضح لكم أمره فعليك به يابغا فأعيد الى محبسه حتى مات وبعد موته أخرج وصلب على باب العامة حتى يراه الناس ثم أحرق مع خشبته

(٢) ايتاخ كان غلاما خزريا لسلام الابرش طباخا فاشتراه منه المعتصم سنة ١٩٩ وكان لايتاخ رجلة وبأس فرفعه المعتصم وولاه بعد الخلافة معونة سامرا مع اسحاق بن ابراهيم وكان من قبله رجل ومن قبل اسحاق رجل وكان من أراد المعتصم قتله فعند ايتاخ يقتل وبيده يحبس وولاه المعتصم قيادة احدى الفرق الثلاث التى دخلت بلاد الروم الى عمورية وقد استمر ايتاخ على منصبه وزعامته مدة الواثق وقتل لاول عهد المتوكل سنة ٢٣٥ . فنى سنة ١٩٩ اشترى بالمال وفى عهد الواثق كانت المملكة في يده فكان اليه الجيش والمغاربة والاتراك والبريد والحجابة ودار الخلافة — وما الذى بقى بعد هذا

(٣) أشناس غلام تركى اشتراه المعتصم ورقاه لما ظهر من شجاعته وكان في غزوة عمورية على مقدمة الجيش واستخلفه مرة على سامرا حينما خرج منها وزاده رفعة سنة ٢٢٥ بأن أجاسه على كرسى وتوجه ووشحه كما فعل بالافشين وزوج ابنته أترنجة للحسن بن الافشين وأحضر عرسه عامة أهل سامرا وكان يباشر بنفسه تفقد من حضر . وكانت تلك منزلته عند الواثق حتى انه فى سنة ٢٢٨ توجه وألبسه وشاحين بالجوهر ولم يزل في عظمته حتى توفي سنة ٢٣٠

وغير هؤلاء كان من القواد عجيف بن عنبسه ووصيف وبغا الكبير أبو موسى وغيرهم

كل هؤلاء قواد من الاتراك اختارهم المعتصم لشجاعتهم وسلمهم زمام ملك آبائه وأنزل العرب عما كان لهم من قيادة الجيوش وأسقط أسماءهم من الدواوين واعتز بهؤلاء المجلوبين فجعل بذلك بنيه تحت سلطان هؤلاء الغلف القلوب يتصرفون فيهم كما يشاؤون . ومع اعتزار المعتصم بهؤلاء القواد كان يحس بما وقع فيه من الخطأ باختيارهم ولا سيما انه ليس لاكثرهم نسب معروف فقد حدث اسحاق بن ابراهيم ان المعتصم قال له يااسحاق فى قلبى أمر أنا مفكر فيه منذ مدة طويلة وانما بسطتك فى هـذا الوقت لأفشيه لك — نظرت الى أخى المأمون وقد اصطنع أربعة أنجبوا واصطنعت أنا أربعة لم يفلح أحد منهم اصطنع المأمون طاهر بن الحسين فقد رأيت وسمعت وعبد الله بن طاهر فهو الرجل الذى لم ير مثله وأنت فانت والله الذي لا يعتاض منك السلطان أبدا وأخوك محمد بن ابراهيم وأين مثل محمد وأما أنا فاصطنعت الافشين فقد رأيت الى ما صار اليه أمره وأشناس ففشل أيه وايتاخ فلاشىء ووصيف فلا مغني فيه — فقال اسحاق جعلنى الله فداك أجيب على أمان من غضبك قال قل — قلت يا أمير المؤمنين أعزك الله نظر أخوك الى الاصول فاستعملها فانجبت فروعها واستعمل أمير المؤمنين فروعا لم تنجب اذ لا أصول لهـا — فقال يا اسحاق لمقاساة مامر بى فى طول هذه المدة أسهل على من هذا الجواب

المعتصم وحده يتحمل أكثر تبعة ماحل بالعباسيين من بعده من اضطراب أمرهم وضعف سلطانهم وما حل بالامة العربية من غلبة هذا العنصر الغريب على أمرها . لم يكن الرجل بعيد النظر في العواقب وانما كان شجاعا جسورا يحب الشجعان ويعتز بهم مهما كان شأنهم سواء كانت لهم أحساب يحترمونها أم ليست لهم أحساب وسواء كان يهمهم شأن الدولة وبقاؤها أم لا وهـذا خطأ عظيم يحط بقدر الدول وينزلها من عظمتها

ومن النتائج التى سببها غطرسه هؤلاء الجنود الغرباء وعدم احترامهم لحقوق الامة ثورة أبى حرب المبرقع اليمـانى بفلسطين . وذلك ان بعض الجند أراد النزول

في داره وهو غائب عنها وذلك أمر لم يكن معروفا في الدولة العربية قبل ذلك وكان في الدار اما زوجة أبي حرب واما أخته فمانعته من ذلك فضربها بسوط كان معه فاتقته بذراعها فأصاب السوط ذراعها فاثر فيها فلما رجع أبو حرب الى منزله شكت اليه ما فعل بها وأرته الاثر فاشتمل سيفه ومشى الى الجندى وهو غار فقتله ثم هرب والبس وجهه برقعا كيلا يعرف فصار الى جبل من جبال الاردن فطلبه السلطان فلم يعرف له خبر وكان يظهر بالنهار فيقعد على الجبل الذى أوى اليه متبرقعا فيراه الرائى فيأتيه فيذكره ويحرضه على الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ويذكر السلطان وما يأتي الى الناس ويعيبه فمازال ذلك دأبه حتى استجاب له قوم من حراثي أهل تلك الناحية وأهل القرى فلما كثرت غاشيته من هذه الطبقة من الناس دعا أهل البيوتات من تلك الناحية فاستجاب له منهم جماعة من رؤساء اليمانية منهم رجل يقال له ابن بيهس كان مطاعا فى أهل اليمن فاتصل خبره بالمعتصم فبعث اليه رجاء بن أيوب الحضارى فى زهاء الف رجل من الجند فلما صار اليه وجده في عالم من الناس زهاء مئة الف فتريث رجاء حتى كان أول عمارة الناس الارضين وحراثتهم وانصرف من كان معه من الحراثين الى الحراثة وأرباب الارضين الى أرضيهم وبقى أبو حرب في زهاء الف أو الفين فناجزه رجاء الحرب فظفر به رجاء واسره وجل من معه ثم صار به الى المعتصم اسيرا

الخراج

كما يمتاز عصر المأمون بالثبت الذى نقله العلامة ابن خلدون فى مقدمة تاريخه عن كتاب جراب الدولة يمتاز عصر المعتصم بالثبت الذى اورده قدامة بن جعفر في كتاب الخراج له عن مقدار الجباية في عهد المعتصم ونحن نورد خلاصته

الجهة	مقدار الجباية بالدراهم او الدنانير
سواد العراق	٦٥٠ ٤٥٧ ١١٤ درهم
الاهواز	٠٠٠ ٠٠٠ ٢٣
فارس	٠٠٠ ٠٠٠ ٢٤
كرمان	٠٠٠ ٠٠٠ ٦
مكران	٠٠٠ ٠٠٠ ١
اصبهان	٠٠٠ ٥٠٠ ١٠
سجستان	٠٠٠ ٠٠٠ ١
خراسان	٠٠٠ ٠٠٠ ٣٧
حلوان	٠٠٠ ٠٠٠ ٩
الماهين	٠٠٠ ٨٠٠ ٩
همذان	٠٠٠ ٧٠٠ ١
ماسبذان	٠٠٠ ٢٠٠ ١
مهرجان قذق	٠٠٠ ١٠٠ ١
الايغارين	٠٠٠ ١٠٠ ٣
قم وقاشان	٠٠٠ ٠٠٠ ٣
أذربيجان	٠٠٠ ٥٠٠ ٤
الرى ودنباوند	٠٠٠ ٠٨٠ ٢٠
قزوين وزنجان وابهر	٠٠٠ ٨٢٨ ١
قومس	٠٠٠ ١٥٠ ١
جرجان	٠٠٠ ٠٠٠ ٤
طبرستان	٧٠٠ ٢٨٠ ٤
	٣٥٠ ٥٩٦ ٢٧٣

ما قبله	٢٧٣ ٥٩٦ ٣٥٠
تكريت والطيرهان	٩٠٠ ٠٠٠
شهرزور والصامغان	٢ ٧٥٠ ٠٠٠
الموصل وما اليها	٦ ٣٠٠ ٠٠٠
قردى وباز بدى	٣ ٢٠٠ ٠٠٠
ديار ربيعة	٩ ٦٣٥ ٠٠٠
ارزن وميافارقين	٤ ٢٠٠ ٠٠٠
طرون	١٠٠ ٠٠٠
آمد	٢ ٠٠٠ ٠٠٠
ديار مصر	٦٠٠ ٠٠٠
اعمال طريق الفرات	٢ ٩٠٠ ٠٠٠
المجموع	٣١١ ٥٨١ ٣٥٠

قنسرين والعواصم	٣٦٠ ٠٠٠	دينار
جند حمص	٢١٨ ٠٠٠	»
« دمشق	١١٠ ٠٠٠	»
« الاردن	١٠٩ ٠٠٠	»
« فلسطين	٢٩٥ ٠٠٠	»
مصر والاسكندريه	٢ ٥٠٠ ٠٠٠	»
الحرمين	١٠٠ ٠٠٠	»
اليمن	٦٠٠ ٠٠٠	»
اليمامة والبحرين	٥١٠ ٠٠٠	»
عمان	٣٠٠ ٠٠٠	»
المجموع	٥ ١٠٢ ٠٠٠	دينار

وذلك قريب مما كان في حياة المأمون لان الاحوال لم تتغير تغيرا يذ كر

العلاقات الخارجية

قدمنا ان الذى كان يعاصر المعتصم من ملوك الروم توفيل بن ميخائيل وكان ينتهز الفرص الملائمة لينتقم من المسلمين الذين دوخوه وألزموه أن يدفع الفدية قهرا فحدث انه لما كان الافشين يحارب بابك وقد ضيق عليه أن كتب بابك الى ملك الروم يقول ان ملك العرب قد وجه عظم عساكره الى ولم يبق على بابه احد فان أردت الخروج اليه فليس فى وجهك أحد يمنعك وكان يطمع ان ملك الروم اذا تحرك ينكشف عنه بعض ما هو فيه فلم يلبث توفيل أن خرج فى مئة الف مقاتل حتى أتى زبطرة ومعه جمع من المحمرة الذين أجلاهم اسحاق بن ابراهيم عن الجبال كما ذكرنا ذلك فى حروب البابكية فلما دخل زبطرة قتل من فيها من الرجال وسبى النساء والذرية وأحرق المدينة ومضى من فوره الى ملطية فاغار على أهلها وعلى أهل حصون من حصون المسلمين وسبى من المسلمات فيما قيل أكثر من الف امرأة ومثل بمن صار في يده من المسلمين وسمل أعينهم وقطع آذانهم وآنافهم . بلغت تلك الاخبار المعتصم بسامرا فاشتد عليه وصاح فى قصره النفير ثم ركب دابته وسمط خلفه شكالا وسكة حديد وحقيبة فلم يستقم له الخروج الا بعد التعبئة ولكنه أرسل مقدمته لتكون مددا لاهل زبطرة فلما شارفتها وجدت ملك الروم قد رحل عنها فوقفوا قليلا حتى تراجع الناس الى قراهم واطمأنوا

فلما انتهى أمر بابك سأل المعتصم أى بلاد الروم أمنع وأحصن فقيل عموريه وهي مسقط رأس توفيل كما أن زبطرة مسقط رأس المعتصم ولم تكن غزيت قبل ذلك فتجهز المعتصم جهازا لم يتجهزه خليفة قبله من السلاح والمدد والآلة وحياض الادم والبغال والروايا والقرب وآلة الحديد والنفط وكانت التعبئة هكذا — على المقدمة أشناس ويتلوه محمد بن ابراهيم المصعبى وعلى الميمنة ايتاخ وعلى الميسرة جعفر ابن دينار بن عبد الله الخياط وأمر الافشين أن يمضى فيدخل بلاد الروم من درب

الحدث وسمى له يوما أمره أن يكون وصوله فيه الى أنقرة وقدر هذا اليوم بنفسه لاشناس الذي أمره أن يكون دخوله من درب طرسوس . ولما وصل اشناس الى مرج الاسقف ورد عليه كتاب من المعتصم يأمره بالتوقف لانه بلغه عن ملك الروم انه على نهر اللامس و يريد العبور ليكبس اشناس وجندة فاقام بالمرج ثلاثة أيام ثم علم بواسطة الجواسيس ان ملك الروم ارتحل عن نهر اللامس يريد مقابلة الافشين فارسل يخبر ذلك الى المعتصم فبعث الادلاء مسرعين يخبرون الافشين بذلك وأمره ان يقف مكانه حذرا من مواقعة ملك الروم له قبل أن تجتمع الجيوش فلم تصل هذه الأدلاء الى الافشين فتم على مسيره حتى التقى بملك الروم فكانت بينهما موقعة هائلة كانت على الافشين أول النهار ثم أعاد الكرة فى الفرسان فغلب ملك الروم وهزمه هزيمة منكرة وتفرقت عنه الجنود . أما عسكر اشناس والمعتصم فانهما وردا أنقرة من غير أن يلقيا حربا لتفرق الجنود التى كان الملك قد جمعها لمحاربة المعتصم ثم ورد الافشين بعد مقدمهما بيوم أنقرة

وحينئذ قسم المعتصم الجيش ثلاثة أقسام قسم فيه أشناس في الميسرة وقسم فيه المعتصم وهو القلب وقسم فيه الافشين وهو الميسرة و بين كل قسم فرسخان فسارت هذه الاقسام على تعبئة وسارت هذه الاقسام حتى بلغت عمورية وبينها و بين أنقرة سبع مراحل كان أول من وردها أشناس فدار حولها دورة ثم نزل على ميلين منها وجاء بعده المعتصم فدار حولها دورة ثم جاء الافشين فكذلك . تحصن أهل عمورية وتحرزوا فحصرهم الجيش المعتصمى وكان لكل واحد من القواد أبراج على قدر أصحابه قلة وكثرة ونصبت المجانيق فضربت بها الاسوار لاتلافها حتى سقط منها جانب في ناحية المعتصم بعد معاناة شديدة وأعمال جسام ثم حصل القتال في ناحية هذه الثلمة بعد أن ردمت الخنادق ولم يزل القتال مستمرا حتى اقتحم المسلمون عموريه عنوة وغنموا منها مغانم كثيرة . وانتقم المعتصم من الروم بما فعلوه فى زبطرة وملطية . و بعد انتهاء الواقعة عاد المعتصم الى طرسوس وكانت اناخته على عمورية في ٦ رمضان سنة ٢٢٣ وقفل عنها بعد ٥٥ يوما

ومن غريب الامور وأكبر الجرائم ان العباس بن المأمون اتفق مع بعض قواد المعتصم من الاتراك على ان يغتالوا المعتصم ويقيموه خليفة مقامه تآمروا على ذلك وهم في وجه العدو والعهد قريب باصطناع المعتصم لهم واغداق النعم عليهم فلم يتم لهم غرض واطلع المعتصم على سر مؤامرتهم فاخذ جميع أولئك القواد وقتلهم وحبس العباس حتى مات من شدة الاذى وكان الذي تولى كبر ذلك عجيف بن عنبسة

ولما ورد المعتصم سامرا كان دخوله اليها يوما مشهودا وامتدحه أبو تمام حبيب بن أوس بقصيدته المشهورة التى أولها

السيف أصدق أنباء من الكتب … فى حده الحد بين الجد واللعب

يقول فيها

فتح الفتوح تعالى أن يحيط به … نظم من الشعر أو نثر من الخطب
فتح تفتح أبواب السماء له … وتبرز الارض فى أثوابها القشب
يايوم وقعة عمورية انصرفت … عنك المني حفلا معسولة الحلب
أبقيت جد بنى الاسلام في صعد … والمشركين ودار الشرك فى صبب
أمٌّ لهم لورجوا أن تفتدى جعلوا … فداءها كل أم برة وأب
وبرزة الوجه قد أعيت رياضتها … كسرى وصدت صدوداعن أبي كرب
من عهد اسكندر أو قبل ذلك قد … شابت نواصى الليالى وهي لم تشب
بكر فما افترعتها كف حادثة … ولا ترقت اليها همة النوب
حتى اذا مخض الله السنين لها … مخض الحليبة كانت زبدة الحقب
أتتهم الكربة السوداء سادرة … منها وكان اسمها فراجة الكرب
جرى لها الفال نحسا يوم أنقرة … اذ غودرت وحشة الساحات والرحب
لما رأت أختها بالامس قد خربت … كان الخراب لها أعدى من الجرب
كم بين حيطانها من فارس بطل … قاني الذوائب من آنى دم سرب
بسنة السيف والخطى من دمه … لا سنة الدين والاسلام مختضب

لقـد تركت أمير المؤمنـين بها ... للنار يوما ذليل الصخر والخشب
غادرت فيها بهيم الليل وهو ضحى ... يقـله وسطها صبح من اللهب
حتى كأن جلابيب الضحى رغبت ... عن لونها أو كأن الشمس لم تغب
ضوء من النار والظلماء عا كفة ... وظلمة من دخان فى ضحى شحب
فالشمس طالعة من ذا وقد افلت ... والشمس واجبة في ذا ولم تجب
تصرح الدهر تصريح الغمام لها ... عن يوم هيجاء منها طاهر جنب

ويقول في ختامها

خليفة الله جازى الله سعيك عن ... جرثومة الدين والاسلام والحسب
بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها ... تنال الا على جسر من التعب
ان كان بين صروف الدهر من رحم ... موصولة أو ذمام غـير مقتضب
فبين أيامك اللاتي نصرت بهـا ... وبين أيام بدر أقـرب النسب
أبقت بني الاصفر المصعر كاسمهم ... صفر الوجوه وجلت أوجه العرب

صفات المعتصم

كانت أظهر صفات المعتصم الشجاعة والاقدام وشدة البأس وكان يحب العمارة ويقول ان فيها أمورا محمودة فأولهـا عمران الارض التى يحيا بها العالم وعليها يزكو الخراج وتكثر الاموال وتعيش البهائم وترخص الاسعار ويكثر الكسب ويتسع المعاش وكان يقول لوزيره محمد بن عبد الملك اذا وجدت موضعا متى أنفقت فيه عشرة دراهم جاءنى بعد سنة أحد عشر درهما فلا تؤامرني فيه . ولم يكن للمعتصم نفوذ في العلم كأخيه المأمون ولا كأبيه الرشيد وانما كان همه الجيش وتحسينه

ومن آثاره اختطاط مدينة سامرا وها نحن أولا نقص شيئا من أمرها .

لما ضاقت بغداد عن عسكر المعتصم من الاتراك قال لأحد كتابه انى أتخوف أن يصيح هؤلاء الحربية صيحة فيقتلوا غلمـاني فاذا ابتعت لى موضع سامرا كنت فوقهم فان رابنى رائب أتيتهم فى البر والبحر حتى آتي عليهم فقصد كاتبه موضع سامرا

وهو على دجلة فوق بغداد بثلاثين فرسخا (١٥٠ كيلو مترا) فابتاع ديرا كان هناك بخمسة آلاف درهم وابتاع بستانا كان في جانبه بمثل ذلك ولما تم أمر البيع خرج المعتصم في آخر سنة ٢٢٠ حتى نزل القاطول وهو نهر عند سامرا كان احتفره الرشيد وبنى عليه قصرا فنزل المعتصم هناك وبدأ بالبناء سنة ٢٢١ فبنى دارا له وأمر عسكره بمثل ذلك فعمر الناس حول قصره وبنى بها مسجدا جامعا فى طرف الاسواق وأنزل أشناس بمن ضم اليه من القواد كرخ سامرا وهو كرخ فيروز. وما زال البنيان يتسع حتى صارت مدينة من أعظم الحواضر الاسلامية وكادت تضارع بغداد وأعظم اتساع وحضارة لها كان فى عهد المتوكل بن المعتصم وسيذكر ذلك بعد

وفاة المعتصم

احتجم المعتصم فى أول يوم من المحرم سنة ٢٢٧ فأصيب بعقب ذلك بعلته التى قضت عليه يوم الخميس لثماني ليال مضت من شهر ربيع الاول من تلك السنة ورثاه محمد بن عبد الملك الزيات فقال

قد قلت اذ غيبوك واصطفقت عليك أيد بالتراب والطين
اذهب فنعم الحفيظ كنت على الد نيا ونعم الظهير للدين
لا جبر الله أمة فقدت مثلك الا بمثل هارون

ولاية العهد

ولى المعتصم عهده ابنه هرون ولم يجعل معه في الولاية غيره

٩ - الواثق

هو أبو جعفر هارون الواثق بالله بن المعتصم بن الرشيد وأمه أم ولد رومية اسمها قراطيس ولد سنة ١٨٦ بطريق مكة وبويع بالخلافه عقب وفاة والده في يوم الخميس ٨ ربيع الاول سنة ٢٢٧ (٥ يناير سنة ٨٤٢) ولم يزل خليفة الى أن توفى لست بقين من ذى الحجة سنة ٢٣٢ (١١ أغسطس سنة ٨٤٧) فكانت مدته خمس سنين وتسعة أشهر و ١٥ يوما وسنه ٣٦ سنة

ويعاصره من الملوك والامراء المستقلين من كان يعاصر أباه الا في مملكة الروم بالقسطنطينية فان توفيل مات فى السنة التي توفى فيها المعتصم وخلفه ابنه ميخائيل الثالث الملقب بالسكير وكان اذ ذاك صبيا فكانت أمه تدورة تقوم مقامه وفى خراسان حيث توفى عبد الله بن طاهر سنة ٢٣٠ وولى بعده ابنه طاهر بن عبد الله

وزراء الواثق

لم يستوزر الواثق غير محمد بن عبد الملك الزيات وزير أبيه وكان الوثق متغيرا عليه في حياة أبيه حتى حلف انه لينكبنه اذا صار خليفة لكنه لما استخلف غلب عقله على هواه لانه لم يجد بين رجاله من يقوم مقام محمد بن عبد الملك فكفر عن يمينه وصار هذا الوزير في عهده صاحب الامر والنهى أكثر مما كان في عهد أبيه

الجيش

كانت حال الجيش لعهد الواثق كما كانت في حياة أبيه الا أن قدم المماليك التى اصطنعهم المعتصم قد توطدت وسار رؤساء الاتراك أصحاب نفوذ عظيم ولا سما أشناس الذى توجه الواثق وألبسه وشاحين بالجوهر فى شهر رمضان سنة ٢٢٨ . وقد قام قواد الاتراك بأعظم الاعمال الحربية حتى في جزيرة العرب نفسها التى كانت حمى مايستطاع

أن تتعدى حدوده وهنا نسوق أسباب الاضطراب التى كان هناك وكيف أزيل

كان بنو سليم من قيس عيلان من أقوى القبائل العربية وأكثرها عدا وكانوا ينزلون بالقرب من المدينه بالحرة المعروفة بهم وهى حرة بنى سليم فاجترؤا بالتطاول على الناس حول المدينة بالشر وكانوا اذا وردوا سوقا من أسواق الحجاز أخذوا سعرها كيف شاؤا ثم ترقى بهم الامر الى أن أوقعوا بالجار بناس من كنانة وباهلة فأصابوهم وقتلوا بعضهم في جمادى الآخرة سنة ٢٣٠ وكان رئيسهم عزيزة بن قطاب السلمى فوجه اليهم أمير المدينة محمد بن صالح بن العباس حماد بن جرير الطبرى وكان الواثق أرسله مسلحة للمدينة في ٢٠٠ من الشاكرية لئلا يتطرقها الاعراب فتوجه اليهم حماد وقاتلهم بالرويثة على ثلاث مراحل من المدينة وكانت الهزيمة على جند حماد بعد أن قتل وحازت بنو سليم الكراع والسلاح والثياب وغلظ أمرهم فاستباحوا القري والمناهل فيما بينها وبين مكة والمدينة حتى لم يمكن أحدا ان يسلك تلك الطريق وتطرقوا من يليهم من قبائل العرب فوجه اليهم الواثق بغا الكبير في الشاكرية والاتراك والمغاربة فشخص الى حرة بنى سليم وعلى مقدمته طردوش التركي فلقى بنى سليم بقراهم وقتل منهم نحوا الخمسين وأسر مثلهم وانهزم سائرهم فدعاهم بغا الى الامان على حكم الواثق فاتوه واجتمعوا اليه فاحتبس منهم من وصف بالشر والفساد وهم زهاء الف رجل وخلى سبيل سائرهم ثم رحل بالاسرى الى المدينة في ذي القعدة سنة ٢٣٠ فحبسهم بها وشخص الى مكة حاجا . ولما انقضى الموسم انصرف الى ذات عرق ووجه الى بني هلال من عرض عليهم مثل الذى عرض على بنى سليم فاقبلوا فاخذ من مردتهم وعتاتهم نحوا من ٣٠٠ رجل وخلى سائرهم ثم انصرف الى المدينة وجمل المحبوسين من بنى هلال مع اخوانهم من سليم وجمعهم جميعا فى داريزيد بن معاوية فى الاغلال والاقياد وعدتهم نحو ١٣٠٠ رجل وسار هو الى بنى مرة . أما المحبوسون فنقبوا السجن ليخرجوا فعلم بهم أهل المدينة فجاؤهم واجتمعوا عليهم ومنعوهم الخروج فباتوا محصورين وفى الغد حاربهم أهل المدينة وكاثروهم فقتلوهم أجمعين وقتل سودان المدينة من لقوا من الاعراب في أزقة المدينة ممن دخل

يمتار أو يزور . كل ذلك تم وبغا غائب فلما قدم ووجدهم قتلوا شق ذلك عليه ووجد وجدا شديدا

أما مافعله ببنى مرة وفزارة الذين تغلبوا على فدك فانه لما قاربهم أرسل اليهم رجلا فزاريا يعرض عليهم الامان ويأتيه بأخبارهم فلما قدم عليهم الفزارى حذرهم سطوته وزين لهم الهرب فهربوا ودخلوا البرية وخلوا فدكا ولم يستأمن اليه الا القليل وهرب الباقون الى موضع من البلقاء من عمل دمشق . ثم صار اليه جماعة من بطون غطفان وفزارة وأشجع فلما صاروا اليه استحلفهم الأيمان المؤكدة ألا يتخلفوا عنه متى دعاهم فحلفوا ثم شخص الى ضرية لطلب بنى كلاب ووجه اليهم رسله فاجتمع اليه منهم نحو ٣٠٠٠ رجل فاحتبس من أهل الفساد نحوا من ١٣٠٠ رجل ثم قدم بهم المدينة في رمضان سنة ٢٣١ فحبسهم بها ثم شخص الى مكة حاجا ورجع الى المدينة بعد حجه فارسل الى من كان استحلف من ثعلبة وأشجع وفزارة فلم يجيبوه وتفرقوا فى البلاد فوجه فى طلبهم فلم يلحق منهم كثير أحد

وفي سنة ٢٣٢ أمره الواثق أن يذهب الى غزوة بني نمير لما كان من عيثهم وفسادهم في الارض فمضى نحو اليمامة يريدهم فلقى منهم جماعة بموضع يقال له الشريف فحاربوه فقتل منهم نيفا وخمسين رجلا وأسر نحوا من ٤٠ ثم سار الى قرية لبني تميم من عمل اليمامة تدعى مرأة فتابع الى سكانها رسله يعرض عليهم الامان ودعاهم الى السمع والطاعة وهم يمتنعون عليه ويشتمون رسله ويتفلتون الى حربه فسار بغا اليهم من مرأة فى أول صفر سنة ٢٣٢ حتى دخل نخيله وأرسل اليهم أن ائتوني فاحتملت بنو ضبة من نمير فركبت جبالها ميامن جبل السود وهو جبل خلف اليمامه أكثر أهله باهلة فارسل اليهم سرية لم تدركهم ثم انه سار اليهم حتى التقى بهم بموضع يقال له روضة الابان وبطن السر فجعل يناشدهم ويدعوهم الى الرجوع والى طاعة أمير المؤمنين ويكلمهم بذلك محمد بن يوسف الجعفرى فجعلوا يقولون له يامحمد بن يوسف قد والله ولدناك فما رعيت حرمة الرحم ثم جئتنا بهؤلاء العبيد والعلوج تقاتلنا بهم

والله لنرينك العبر . ولما أصبح الصبح عليهم حملوا على بغا وجنده وكانوا قد جعلوا رجالهم أمامهم وفرسانهم وراءهم ونعمهم ومواشيهم من ورائهم وحملوا فهزموا بغا وجيشه وكاد يهلك لولا حصول أمر لم يكن مقصودا وذلك انه كان قد وجه من أصحابه نحو ٢٠٠ نفس لتغير على خيل لهم علم وجودها بمكان من بلادهم فبينا جيش بغا على شرف الانكسار اذ خرجت هذه الجماعة منصرفة من الموضع الذى وجهت اليه في ظهور بنى نمير فنفخوا في صفاراتهم ولما سمع العرب نفخ الصفارات ظنوا أن قد جاءهم كمين من خلفهم فولوا هاربين وأسلم فرسانهم رجالتهم بعد أن كانوا على غاية المحاماة عنهم فلم يفلت من رجالتهم كثير أحد قتلوا عن آخرهم أما الفرسان فطاروا هربا على ظهور الخيل . وأقام بغا بموضع الواقعة حتى جمعت له الرؤس واستراح هو وأصحابه ثلاثة أيام ثم أرسل الهاربون يطلبون الامان فأعطاهم اياه فصاروا اليه فقيدهم وحبسهم وأشخصهم معه وقد حاولوا أن يفروا وهم عائدون فضربهم بغا بالسياط ثم سار بهم حتى أتى البصرة في ذى القعدة سنة ٢٣٢ وأرسل الى صالح بن العباس أن يسير بمن قبله بالمدينة من بنى كلاب وفزارة ومرة وثعلبة وغيرهم فوافاه صالح ببغداد وساروا جميعا الى سامرا وكانت عدة الاسرى جميعا نحو ٢٢٠٠ رجل

نكبة الكتاب في عهد الواثق

سأل الواثق سماره ذات ليلة عن السبب الذى من أجله نكب الرشيد البرامكة فقال له أحدهم ان سبب ذلك ما علمه بعد التفتيش من ان البرامكة استهلكوا الاموال وتعللوا فى انفاذ ما كان الرشيد يأمر به من العطايا لمن يوقع له بها ومنهم رجل يقال له أبو العود أمر له الرشيد بثلاثين الف درهم فمطلوه بها فدخل على الرشيد ليلة فتحدث عنده ولم يزل يحتال حتى وصل حديثه بقول عمر بن أبى ربيعة

وعدت هند وما كانت تعد ليت هندا أنجزتنا ما تعد
واستبدت مرة واحدة انما العاجز من لا يستبد

فقال الرشيد أجل الله وانما العاجز من لا يستبد حتى انقضى المجلس وبعد ذلك جد الرشيد

في أمرهم حتى وثب عليهم وأزال نعمتهم فقال الواثق صدق والله جدى انما العاجز من لا يستبد وأخذ فى ذكر الخيانة وما يستحق أهلها ولم يمض على ذلك أسبوع حتى أوقع بكتابه وعذبهم حتى أدوا المال الذى ظن انهم اختانوه مماعهداليهم حفظه وهذه أسماء الكتاب ومقدار ما أخذ من كل منهم

أحمد بن اسرائيل	٨ ٠٠٠	دينار
سليمان بن وهب كاتب ايتاخ	٤٠٠ ٠٠٠	«
الحسن بن وهب	١٤ ٠٠٠	«
أحمد بن الخصيب وكتابه	١ ٠٠٠ ٠٠٠	«
ابراهيم بن رباح وكتابه	١٠٠ ٠٠٠	«
نجاح	٦٠ ٠٠٠	«
أبو الوزير	١٤٠ ٠٠٠	«
	١ ٧٩٤ ٠٠٠	

وذلك سوى ما أخذ من العمال بسبب عمالاتهم

وكانت العمال تسرع اليهم الثروة لاتساع مجال الخيانة اذ لم يكن هناك دقة فى المحاسبات فاذا رأى الخليفة على العامل مظاهر الثروة في وقت قريب وتلك الثروة لا تقوم بها أرزاقه التى يتقاضاها حكم الخليفة قطعا انه خائن ولا يجد أمامه الا تلك المصادرة التى لا نظام لها

العلاقات الخارجية — الفداء بين المسلمين والروم

كانت الحروب دائمة الاتصال بين المسلمين والروم ولم تقدر احدى الدولتين أن تتغلب على الاخرى وكثيرا ما يكون فى يد احدي الدولتين أسرى من الاخرى ولما كان يهم كلتا الدولتين أن تخلص أسراها حذرا من الاسترقاق كانتا تتفقان على المفاداة كل أسير بمثله وأول فداء حصل كان فى عهد الرشيد على نهر اللامس قريبا

من طرسوس فودى فيه بثلاثة آلاف وسبعمائة أسير من المسلمين على يد القاسم بن الرشيد وحصل فداء مثله فى عهده أيضا فودي فيه بالفين وخمسين

وقد كان الفداء الثالث فى عهد الواثق سنة ٢٣١ أرسل ملك الروم الى الواثق رسلا يسألونه ان يفادى بمن في يده من أسارى المسلمين فاجاب وانتدب للفداء خاقان الخادم بعد ان أعد من أسرى الروم عددا كبيرا وقد تقابل الفريقان في يوم عاشوراء سنة ٢٣١ على نهر اللامس وكان عدد من فودى به من المسلمين ٤٦٠٠ منهم ٦٠٠ نساء وصبيان ومنهم من أهل الذمة نحو ٥٠٠ فوقع الفداء كل نفس عن نفس صغيرا أو كبيرا وقد عقد المسلمون جسرا على النهر وعقد الروم جسرا فكان المسلمون يرسلون الرومى على جسرهم ويرسل الروم المسلم على جسرهم وقد أعطى خاقان الروم ممن كان فضل فى يده ١٠٠ نفس ليكون له عليهم الفضل استظهارا

ومن غريب ماحصل في هذا الفداء ان أحمد بن أبي دؤاد القاضى أرسل مندوبا من قبله يمتحن الاسري حتى لا يفدى منهم من لا يقول بان القرآن مخلوق وهذا غلو قد وصل الى نهايته

صفات الواثق

كان الواثق كثير الاكل والشرب واسع المعروف متعطفا على أهل بيته متفقدا لرعيته وكان محبا للنظر مكرما لاهله مبغضا للتقليد وأهله محبا للاشراف على علوم الناس وآرائهم ممن تقدم وتأخر من الفلاسفة والمتطببين وكان له مجلس نظر عقده للنظر بين الفقهاء والمتكلمين فى أنواع العلوم من العقليات والسمعيات في جميع الفروع فكانت سيرته فى ذلك سيرة عمه المأمون ومن أجل ذلك أخذت مسألة خلق القرآن فى عهده شكلا حادا أكثر مما كانت فى عهد أبيه المعتصم لان المعتصم كان يتكلف ذلك لمكان وصية أخيه

وفاة الواثق

أصيب الواثق بعلة الاستسقاء وكانت سبب وفاته في ٦ ذى الحجة سنة ٢٣٢ وسنه ٣٦ سنة و بموته مضى على الدولة العباسية قرن كامل . ولم يعهد الواثق لاحـد من بعده بالخلافة فخلافة من بعده بدء شكل جديد لم تكن له سابقة فى الدولة العباسية وقد ختم هذا القرن بانتهاء الخلفاء العسكريين الذين كانوا يقودون الجيوش بانفسهم ويخوضون غمرات الموت ولا يستسلمون لداعي الترف المضنى

١٠ - المتوكل

هو جعفر المتوكل على الله بن المعتصم بن الرشيد وأمه أم ولد خوارزمية يقال لها شجاع . ولد فى شوال سنة ٢٠٦ بفم الصلح ولم يكن بالمرضى عنه في حياة أخيه حتى كان الواثق قد وكل به رجلين همـا عمر بن فرج الرُّخجي ومحمد بن العلاء الخادم فكانا يحفظانه ويكتبان باخباره في كل وقت وقد جر عليه ذلك انحراف الوزير محمد ابن عبد الملك الزيات فكان لا يلقاه لقاء حسنا وكانت صكاك رزقه لاتختم له الا بعناء حتي ان عمر بن فرج أخذ منه الصك مرة فرمى به في صحن المسجد الذى كان عمر يجلس فيه وكان الذى يصلح من شأنه عند الواثق أحمد بن أبى دؤاد

ولما توفى الواثق ولم يكن عهد الى أحد اجتمع كبراء الدولة أحمد بن أبى دؤاد القاضى ومحمد بن عبد الملك الوزير وعمر بن فرج واحمد بن خالد الكاتبان وايتاخ ووصيف من قواد الاتراك وتناظروا فيمن يولونه الخلافة فاشار محمد بن عبد الملك بمحمد بن الواثق وكاد الامر يتم له الا انهم لما جاؤا به والبسوه دراعة سوداء وقلنسوة رصافية قال لهم وصيف اما تتقون الله تولون مثل هذا الخلافة وهو لا تجوز معه الصلاة ثم اشار ابن ابي دؤاد بجعفر بن المعتصم فاتفق رأيهم عليه واحضروه فالبسه احمد بن

أبي دؤاد الطويلة وعممه وقبله بين عينيه وقال السلام عليك يا أمير المؤمنين وبايعه الحاضرون ولقب بالمتوكل على الله ثم بايعته العامة وتم ذلك كله في اليوم الذى توفى فيه الواثق وهو ٢٤ ذى الحجة سنة ٢٣٢ (١١ أغسطس سنة ٨٤٧) واستمر خليفة الى ان قتل ليـلة الخميس رابع شوال سنة ٢٤٧ (١١ ديسمبر سنة ٨٦١) فكانت مدته ١٤ سنة وتسعة أشهر وعشرة أيام وكانت سنه اذ قتل ٤١ سنة

وكان يعاصره في بلاد الاندلس عبد الرحمن بن الحكم (٢٠٦ – ٢٣٨) ثم ابنه محمد (٢٣٨ – ٢٧٣)

ويعاصره في بلاد المغرب من الادارسـة على بن محمـد بن ادريس الثاني (٢٢١ – ٢٣٤) ثم يحيى بن محمد (٢٣٤ –)

ويعاصره فى أفريقية من الاغالبة محمد بن الاغلب بن ابراهيم (٢٢٦ – ٢٤٢) ثم أحمد بن محمد بن الاغلب (٢٤٢ – ٢٤٩)

ويعاصره فى بلاد اليمن من الدولة الزيادية محمد بن عبدالله بن زياد (٢٠٤ – ٢٤٥) ثم ابراهيم بن محمد (٢٤٥ – ٢٨٩)

ويعاصره في خراسان من آل طاهر محمد بن طاهر بن عبدالله بن طاهر (٢٣ – ٢٤٨)

ويعاصره من ملوك الروم بالقسطنطينية ميخائيل الثالث الملقب بالسكير

ويعاصره فى فرنسا شارل الاصلع (٨٤٠ – ٨٧٧)

وزراء الدولة

كان الوزير الاول لاول عهد المتوكل هو محمد بن عبد الملك الزيات الذى كان وزيرا لاخيه ولابيه الا ان المتوكل كان منحرفا عنه لما كان يفعله معه في حياة أخيه من قبح المقابلة وعدم الرعاية وزاد على ذلك انه أشار بتولية محمد بن الواثق فكانت شهوة الانتقام متمكنة منه ففي سابع صفر سنة ٢٣٣ أمر فقبض عليه وصادر جميع ماله من عقار ومنقول وكذلك ضياع أهل بيته حيث كانت أما ماناله من المكروه في نفسه فهو أعظم من ان يسطر ولم يزل ذلك دأبهم معه حتى مات تحت العذاب .

الى هـذا الحد وصل ضعف الوازع الديني عند هؤلاء القوم — الرجل لم يكن على وفاق مع الخليفة قبل ان يتولى فاشد ما يكون من عقوبته ألا يستعان به في عمل — الرجل خان فيما عهد اليه من الامانات فاقصى عقوبته ان يصادر في أمواله – الرجل قتل نفسا بدون حق فاقصى عقوبته ان يقتل فلم هذا التعذيب الذى سطره المؤرخون أليس ذلك دليلا على ان شهوة الانتقام حالت بين القوم وبين دينهم الذى نهى أشد النهي عن التعذيب والمثلة أليس ذلك دليلا على ان صوت العلماء لا يظهر الا في الامور النظرية المحضة التى لا يترتب عليها عمل ولا أثر في الحياة أما ما تكون آثاره ظلم الناس. بأخذ أموالهم وازهاق نفوسهم فلا تكاد تسمع لهم ركزا أين هذا مما كان في عهد عمر بن الخطاب الذى كانت أمته تحاسبه على كل ما يصدر منه من جليل وحقير

وكان مبلغ ما قبض له مع قيمة موجوداته ٩٠٠٠٠ دينار وبين القبض عليها و وفاته أحد وأربعون يوما

ولم يمض على ذلك خمسة أشهر حتى أمر المتوكل بالقبض على عمر بن فرج الرخجى وهو الكاتب الذى رمى بصك المتوكل فى صحن المسجد أيام خلافة الواثق فقبض عليه وصودرت أملاكه وكان مقدار ما أخذ منه ومن أخيه محمد بن فرج ٢٧٤٠٠٠ دينار و ١٥٠٠٠ درهم سوى القصر والامتعة والضياع وقد حمل متاعه وفرشه على خمسين جملا كرت مرارا ثم صالحوه بعد ذلك على ان يدفع ١٠٠٠٠٠٠ درهم على ان ترد عليه ضياعه بالاهواز فقط فردت عليه واطلق من عقاله

استكتب المتوكل بعد ابن عبد الملك ابا الوزير احمد بن خالد الذى كان فى حياة الواثق زماما على عمر بن فرج الرخجى فى ديوان النفقات ولما استكتبه لم يسمه باسم الوزير واستمر كاتبا له زمنا قليلا فانه فى ذى الحجة من سنة ٢٣٣ غضب عليه وامر بمحاسبته فحمل نحوا من ٦٠٠٠ دينار وحمل بدور دراهم وحليا واخذ له من متاع مصر ٦٢ سفطا و ٣٢ غلاما وفرشا كثيرا وحبس بسببه جماعه من الكتاب واغرموا من المال قدرا كثيرا .

وبعد أبي الوزير استوزر محمد بن الفضل الجرجرائي منسوب الى جرجرايا (وهي بلد من أعمال النهروان الاسفل بين واسط وبغداد من الجانب الشرقي) وكان الجرجرائي من أهل الفضل والادب والشعر وقال صاحب الآداب السلطانية انه كان عالمــا بالغناء مشتهرا به واستمر على وزارته الى سنة ٢٣٦ وفيها صرفه عن العمل لانه قال قد ضجرت من الشيوخ وأريد حدثا استوزره فمن أجل ذلك صرفه

اختار بعده لوزارته عبيد الله بن يحيي بن خاقان وبقي وزيرا للمتوكل الى ان مات وكان حسن الخط وله معرفة بالحساب والاستيفاء وكانت فيه عيوب يسترها كرمه وحسن خلقه وعفته ومن أجل ذلك كان الجند يحبونه وقد حصل في وزارته حادثة تبين مقدار ما كان من الفساد عند العمال واحتجانهم الاموال لانفسهم ووقيعتهم بعضهم ببعض وكل ذلك سببه عدم الضبط في الادارة المالية . كان نجاح ابن سلمة على ديوان التوقيع والتتبع على العمال فكان لذلك مخشى الجانب نافذ الكلمة وكان الحسن بن مخلد علي ديوان الضياع وموسى بن عبد الملك على ديوان الخراج وكان بين نجاح و بين ابن خاقان الوزير وحشة ومضادة وكان ميل الحسن وموسى الى الوزير . احتاج المتوكل فى سنة ٢٤٥ الى المال لبناء القصور التى أراد تأسيسها بسامرا . فقال له نجاح أسمي لك قوما تدفعهم الى حتى أستخرج لك منهم من الاموال ما يكفيك لبناء مدينتك وسمى له نحوا من عشرين رجلا موسى بن عبد الملك وخليفته والحسن بن مخلد وخليفته وعبيد الله بن يحيي الوزير وأخواه وغيرهم من العمال فأعجب ذلك المتوكل وقال له بكر الى غدا — وناظر الوزير المتوكل فى ذلك فقال له يا أمير المؤمنين أراد ألا يدع كاتبا ولا قائدا ولا عاملا الا أوقع بهم فمن يقوم بالاعمال يا أمير المؤمنين وخرج من عنده فدعا موسى بن عبد الملك والحسن بن مخلد فقال لهما ان دخل نجاح الى أمير المؤمنين دفعكما اليه فقتلكما وأخذ ما تملكان من المال ولكن اكتبا الى أمير المؤمنين تتقبلان به فيها بألفي الف دينار ففعلا وأوصل الوزير رقعتهما الى المتوكل وأعانهما بالقول على القبول ثم أدخلهما على المتوكل

وحجب نجاحا فضمنا ذلك ودفع اليهما نجاحا فأخذاه وانتقما منه شر انتقام أما فى المال فأخذا من نجاح وابنه نحو ١٤٠٠٠٠ دينار سوى قيمة قصورهما وفرشهما ومستغلاتهما بسامرا و بغداد وسوى ضياع لهما كثيرة قبض ذلك كله وأخذ كثيرمن المال من وكلاء نجاح ومن يتصل به أما كاتبه اسحاق بن سعد الذى كان يتولى خاص أموره فقد أمر المتوكل أن يغرم ٥١٠٠٠ دينار ولم ذلك قال المتوكل انه أخذ منه أيام الواثق حينما كان يخلف عمر بن فرج خمسين دينارا حتى اطلق أرازقى فخذوا لكل دينار الفا وزيادة الف فضلا كما أخذ فضلا فحبس ونجم عليه ثلاثة أنجم ولم يطلق حتى أدى تعجيل ١٧٠٠٠ دينار وأخذ منه كفلاء بالباقى . وأما نفس نجاح فقد فاتت تحت الضرب والتعذيب

وبعد وفاة نجاح ضم ديوان التوقيع الى عبيد الله بن يحيي الوزير ثم توفى موسى ابن عبد الملك فضم ديوان الخراج الى الوزير أيضا

من أغرب ما فى هذا التاريخ أن يرتشى العامل من أخى الخليفة حتى يطلق له أرزاقه فما الظن بغيره من أصحاب الارزاق ماذا يدفعون حتى يوقع لهم على صكاكهم بقبض تلك الارزاق ولا يستغرب بعد ذلك ما كان يجتمع الى هؤلاء الكتاب من الاموال الوفيرة فى الزمن القليل والعمال يعرف بعضهم بعضا فيعلم الواحد منهم ما اقتنى الآخر من الاملاك والضياع وما احتجن من المال فاذا بلغ خليفته شيئا من ذلك هاج اطماعه فيعمد الى ما يماثل ما ذكرنا من عقوبة العامل ومصادرة امواله (وما ظالم الا سيبلى بظالم) وتلك امور تعم الفساد فى جسم الدولة

أحمد بن ابى دؤاد — هو الرجل الموثوق به في عهد المأمون وعظيم دولة المعتصم والواثق وقاضى القضاة في زمنهما والذى كان يعطف على المتوكل في عهد أخيه الواثق حتى استرضاه عنه بعد أن كان قد غضب عليه فلما ولى المتوكل حفظ له مقامه ورتبته وسابقته فكان قضى القضاة وعظيم الدولة . وفي سنة ٢٣٣ فلج فعجز عن العمل فكان ابنه أبو الوليد يقوم مقامه في القضاء وولاية المظالم الا أن الرجل لم تكن سيرته

سيرة أبيه فكانت النتيجة ان غضب المتوكل على أحمد بن أبي دؤاد وعلى ابنه فعزلهما عن المظالم والقضاء ورضى عن يحيى بن أكثم فأشخصه من بغداد الى سامرا وولاه قضاء القضاة والمظالم . وأمر بالتوكيل على ضياع أحمد بن أبي دؤاد لخمس بقين من صفر سنة ٢٣٧ وحبس يوم السبت لثلاث خلون من شهر ربيع الاول ابنه محمد فى ديوان الخراج وحبس اخوته عند عبيد الله بن السرى خليفة صاحب الشرطة وبعد ذلك بيومين حمل أبو الوليد ١٢٠٠٠٠ دينار وجواهر بقيمة ٢٠٠٠٠ دينار ثم صولح بعد ذلك على ١٦٠٠٠٠٠ درهم وأشهد عليهم جميعا ببيع كل ضيعة لهم وفى أواخر سنة ٢٣٩ مات محمد بن أحمد بن أبي دؤاد ببغداد وبعد وفاته بعشرين يوما توفى أبوه أحمد وهم على تلك الحال

العلويون

امتاز المتوكل عن سائر أهل بيته بكراهة على بن أبي طالب رضى الله عنه وأهل بيته وهذا ما يعرف في العقائد بالنصب وهو ضد التشيع وكان يقصد من يبلغه عنه أنه يتولى عليا وأهله بأخذ المال والدم وكان فيما يقال يبغض ممن تقدمه من الخلفاء المأمون والمعتصم والواثق لمحبة على وأهل بيته وكان ينادمه ويجالسه جماعة اشتهروا بالنصب وبغض على فكانوا يخوفونه من العلويين ويشيرون عليه بابعادهم والاعراض عنهم والاساءة اليهم ثم حسنوا له الوقيعة فى أسلافهم الذين يعتقد الناس علو منزلتهم فى الدين ومن آثار تلك الكراهة أنه أمر فى سنة ٢٣٧ بهدم قبر الحسين بن على بكربلاء وهدم ما حوله من المنازل والدور وان يحرث ويبذر ويسقى موضع قبره وان يمنع الناس من اتيانه فذكر أن عامل صاحب الشرطة نادى في الناحية من وجدناه عند قبره بعد ثلاثة بعثنا به الى المطبق فهرب الناس وامتنعوا من المصير اليه وحرث ذلك الموضع وزرع ما حواليه

وكان امام الامامية فى عهده أبو الحسن على الهادى بن محمد الجواد بن على الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن

الحسين بن علي بن أبي طالب سعى به الى المتوكل فاقدمه من المدينة الى سامرا التى كانت تعرف بالعسكر فلقب بالعسكرى وقد ظل مقيما بها نحو عشرين سنة ومات بها ولما جاء سامرا لم تنقطع السعايات عنه فقيل له ان في منزله سلاحا وكتبا وغيرها من شيعته فوجه اليه ليلا من هجم عليه منزله وهو غافل فوجد في بيت وحده عليه مدرعة من شعر ولا بساط في البيت الا الرمل والحصا وعلى رأسه ملحفة من صوف وهو يقرأ ويدعو فحمل الى المتوكل في جوف الليل فمثل بين يديه والمتوكل يشرب فأجلسه الى جنبه وعرض عليه الكأس فاستعفى فأعفاه ثم قال له أنشدني شعرا فأنشده

باتوا على قلل الاجبال تحرسهم   غلب الرجال فما أغنتهم القلل
واستنزلوا بعد عز عن معاقلهم   فأودعوا حفرا يابئسما نزلوا
ناداهم صارخ من بعد ما قبروا   أين الاسرة والتيجان والحلل
أين الوجوه التى كانت منعمة   من دونها تضرب الاستار والكلل
فأفصح القبر عنهم حين ساءلهم   تلك الوجوه عليها الدود يقتتل
قد طال ما أكلوا دهرا وماشربوا   فأصبحوا بعد طول الأكل قد أكلوا
وطالما عمروا دورا لتحصنهم   ففارقوا الدور والاهلين وانتقلوا
وطالما كنزوا الاموال وادخروا   فخلفوها على الاعداء وارتحلوا
أضحت منازلهم قفرا معطلة   وساكنوها الى الاجداث قد رحلوا

فبكي المتوكل حتى بلت دموعه لحيته ثم أمر برفع الشراب وأمر له بأربعة آلاف دينار يقضى بها دينه ورده الي منزله مكرما

وفى عهد المتوكل أتى بيحيي بن عمر بن يحيي بن زيد بن على بن الحسين من بعض النواحي وكان قد جمع جمعا فضربه عمر بن فرج ثماني عشرة مقرعة وحبس ببغداد في المطبق

الجيش

كان الجيش على العهد الذى كان عليه في مدة الواثق والمعتصم وكلما قدم

العهد زاد الاتراك نفوذا وقوة وقد أحس المتوكل بتوغل الاتراك فى الدولة واستبدادهم بأموال الخلافة وادارتها وجيشها فأحب أن يضعف شوكتهم ويقلل من نفوذهم فبدأ بايتاخ الذى كان له الجيش والمغاربة والاتراك والموالى والبريد والحجابة ودار الخلافة. أراد المتوكل الايقاع به ليتخلص من هذا السلطان الواسع فرأى أن ذلك لا يمكنه معه وهو في سامرا بين قومه وجنده فدس اليه من أشار عليه بالاستئذان فى الحج ففعل فأذن له المتوكل وصيره أمير كل بلد يدخله وخلع عليه وركب معه جميع القواد وخرج معه من الشاكرية والقواد والغلمان سوى غلمانه وحشمه بشر كثير فلما حج وانصرف الى العراق وجه اليه المتوكل بكسوة والطاف وأمر الرسول أن يلقاه بالكوفة أو ببعض الطريق وتقدم الى عامله على شرطة بغداد وهو اسحاق بن ابراهيم المصعبى بأمره فيه . فلما وصل بغداد قال له اسحاق بن ابراهيم ان أمير المؤمنين أراد أن تدخل بغداد وان يلقاك بنو هاشم ووجوه الناس وان تقعد لهم فى دار خزيمة بن خازم فتأمر لهم بجوائز . فلما صار ايتاخ بالقرب من دار خزيمة حجز عنه غلمانه ودخل الدار وحده فكان فيها سجنه ثم نقل الى منزل اسحاق فأدخل ناحية منه وقيد وأثقل بالحديد فى عنقه ورجليه ثم قدم بابنيه منصور ومظفر وبكاتبيه سليمان بن وهب وقدامة ابن زياد فحبسوا وكانت الشدة التى عومل بها ايتاخ سببا لوفاته فمات سنة ٢٣٥ وأما ابناه فبقيا في الحبس حياة المتوكل ثم أطلقهما المستعين بعده

ولكراهة المتوكل لهؤلاء الغلمان ورؤسائهم كره من أجلهم المدينة التى أنشئت لهم فعزم أن يغير حاضرة خلافته فاختار سنة ٢٤٣ أن يجعل دمشق حاضرته فشخص اليها ونقل دواوين الملك وأمر بالبناء بها فتحرك الاتراك في أرزاقهم وأرزاق عيالهم مريدين التشغيب عليه لانهم ظنوا أن المتوكل يريد ان يستعين بسلطان العرب عليهم حيث اختار بلاد الشام فأمر المتوكل لهم بما أرضاهم وبعد ان قام بدمشق أياما أظهر أنه استوبأ البلد لان الهواء بارد ندى والماء ثقيل والريح فيها تهب مع العصر فلا تزال تشتد حتى يمضى عامة الليل وغلت فيها الاسعار وحال الثلج بين السابلة

والميرة فبارحها عائدا الى سامرا ويظهر أن الاتراك هم الذين حملوه على العودة . وفي سنة ٢٤٥ أمر ببناء الماحوزة وسماها الجعفرى وأقطع القواد وأصحابه وجد في بنائها وأمر بنقض القصر المختار والبديع من قصور سامرا وحمل ساجهما الى الجعفري وأنفق عليها فيما قيل أكثر من الفى الف دينار وكان يسميها هو وأصحابه المتوكلية وكانت بالقرب من سامرا وبنى فيها قصرا سماه اؤلؤة لم ير مثله في علوه وأمر بحفر نهر يأخذ رأسه من موضع يقال له كرمى على رأس خمسة فراسخ فوق الماحوزة جعله شربا لما حوله من فوه النهر اليها وقدر للنهر من النفقة ٢٠٠٠٠٠ دينار لكنه مات قبل أن يتم فأهمل وهذه المدينة خربت بعد قتل المتوكل . لما انتقل الى مدينته الجديدة شاع انه عزم على الفتك بوصيف وبغا وغيرهما من قواد الاتراك ووجوههم ولكن لم يتأت له ذلك لانهم تغدوا به قبل ان يتعشى بهم كما نبينه فى خبر مقتله

وقد حصلت حوادث في اطراف الدولة في عهد المتوكل فاطفئت منها

أولا حادثة محمد بن البعيث بن حلبس من ولد عتيب بن عمرو بن هنب بن أفصى بن دعمى بن جديلة فى مدينة مرند وهي من مشاهير مدن اذربيجان استدارتها فرسخان وبينها وبين تبريز يومان كانت فى الاصل قرية صغيرة فنزلها حلبس ابو البعيث ثم حصنها البعيث ثم محمد ابنه وبنى بها محمد قصرا . وكان محمد بن البعيث محبوسا في حبس اسحاق بن ابراهيم فتكلم فيه بغا الشرابى واخذ منه الكفلاء واطلق فهرب الى مرند وهى موضعه من اذربيجان فرم ما كان وهى من سورها وأتاه من اراد الفتنة من كل ناحية من ربيعة وغيرهم فصار فى نحو من ٢٢٠٠ رجل وكان الوالى باذربيجان محمد بن حاتم بن هرثمة فقصر فى طلبه فولى المتوكل حمدويه ابن على بن الفضل السعدى اذربيجان ووجهه من سامرا على البريد فلما صار اليها جمع الجند والشاكرية ومن استجاب له فصار فى عشرة آلاف فزحف الى ابن البعيث فألجأه الى مدينة مرند ولما طالت مدته وجه اليه المتوكل زيرك التركي في عدد كبير من الاتراك فلم يغن شيئا فوجه اليه عمرو بن سيسل بن كال فكذلك فاختار له بغا

الشرابي في ٤٠٠٠ رجل ما بين تركى وشاكرى ومغربي وكان القواد الذين سبقوه قد زحفوا الى مدينة مرند وقطعوا ماحولهـا من الشجر شجر الغياض ونصبوا عليها عشرين منجنيقا وبنوا بحذاء المدينة ما يستكنون ونصب عليهم ابن البعيث من المجانيق مثل ذلك وما زالوا على ذلك حتى قرب منهم بغا الشرابي ومعه أمانات لوجوه أصحاب ابن البعيث ولابن البعيث ان ينزلوا وينزل على حكم أمير المؤمنين والا قاتلهم فان ظفر بهم لم يستبق منهم أحدا ومن نزل فله الامان وارسلت لهم هـذه الامانات مع عيسى ابن الشيخ الشيباني وكان عامة من مع ابن البعيث من ربيعة فنزل منهم قوم كثير من القلعة بالحبال ثم فتح باب القلعة جماعة ممن خانوا ابن البعيث فدخلت جنود المتوكل المدينة وقد أراد ابن البعيث ان يهرب فأدرك واخذت حرمه وأخذ نحو ٢٠٠ من رجاله فوافاهم بغا الشرابي وقد تم الامر فكتب الى المتوكل بالفتح . ثم عاد الى سامرا ومعه أسراه فأمر المتوكل بحبسهم جميعا ثم أتى بابن البعيث فأمر بضرب عنقه فطرح على نطع وجاء السيافون فلوحواله فقال المتوكل وغاظ عليه ما دعاك يا محمد الى ما صنعت قال — الشقوه وأنت الحبل الممدود بين الله وبين خلقه وان لى فيك لظنين اسبقهما الى قلبى أولا هما بك وهو العفو — ثم اندفع بلا فصل فقال

أبى الناس الا انك اليوم قاتلى امام الهدى والصفح بالناس أجمل

وهـل أنا الا جبـلة من خطية وعفوك من نور النبوة يجبـل

فانك خـير السابقين الى العلا ولا شـك ان خير الفعالين تفعل

فالتفت المتوكل الى على بن الجهم وقل ان معه لادبا وعفا عنه وكان ابن البعيث أديبا شجاعا يقال ان له اشعارا نظمها بالفارسية . وكان ابن البعيث لما هرب قال

كم قد قضيت أمورا كان أهملها غيرى وقد أخذ الافلاس بالكظم

لا تعـذليني فيما ليس ينفعنى اليك عنى جرى المقدار بالقـلم

سأتلف المال فى عسر وفى يسر ان الجواد الذي يعطى على العدم

ولم يمكث ابن البعيث بعد ذلك كثيرا فانه توفي بعد شهر ثم أطلق بنوه الثلاثة

وهم حلبس والبعيث وجعفر وصاروا في عداد الشاكرية مع عبيد الله بن يحيى بن خاقان واجريت عليهم الانزال

(٢) اضطراب أرمينية . كان لبغا الشرابي ولاية أرمينية واذربيجان وابنه فارس خليفته فولى عليها بالنيابة عنه أبا سعيد محمد بن يوسف المروزى وفى شوال سنة ٢٣٦ مات لجأة فولى بعده ابنه يوسف بن محمد ولى حربها وخراجها فشخص اليها فضبطها ووجه عماله في كل ناحية وبينا هو فى عمله خرج عليه رجل من بطارقة أرمينية وهو كبير البطارقة واسمه بقراط بن أشوط خرج يطلب الامارة لنفسه فاخذه يوسف ابن محمد فقيده وبعث به الى باب الخليفة فهاج ذلك من بطارقة أرمينية فاجمعوا أمرهم على الخروج على يوسف وكان يقيم بمدينة طرون فحصروه بها ولما خرج لقتالهم قاتلوه فقتلوه وقتلوا أصحابه فلما علم بذلك المتوكل بعث بغا الشرابى الى أرمينية مطالبا بدمه فشخص اليها من ناحية الجزيرة فبدأ بارزن وكان بها موسى بن زرارة الذى وافق البطارقة على الفتك بيوسف فحمله بغا الى باب الخليفة ثم سار حتى أناخ بجبل الخويثية وهم جمة أهل أرمينية وقتلة يوسف بن محمد فحاربهم وظفر بهم فقتل زهاء ثلاثين الفا وسبى منهم خلقا كثيرا ثم سار مخترقا بلاد أرمينية لارهاب عصاتها حتى بلغ دبيل فاقام بها شهرا ومنها سار الى تفليس

ففى يوم السبت ١٠ ربيع أول سنة ٢٣٨ وجه زيرك التركى فجاوز الكر وعليه تفليس في الجانب الغربى وصُغدبيل في الجانب الشرقى وكان معسكر بغا في الشرق وكان غرضهم من ذلك اخضاع اسحاق بن اسماعيل مولى بنى أمية الثائر بها فناوشوه القتال فخرج لقتالهم فبعث بغا بالنفاطين فضربوا المدينة بالنار فاقبل اسماعيل الى المدينة لينظر فاذا النار قد أخذت فى قصره ثم أتاه الاتراك والمغاربة فاخذوه أسيرا وأخذوا ابنه عمرا فاتوا بهما بغا فامر بضرب عنقه ويقال انه احترق في المدينة ٥٠٠٠٠ انسان وأسر من بقى حيا فيها وكان اسحاق قد حصنها وحفر خندقها وجعل فيها مقاتلة من الخويثية وغيرهم وأعطاهم بغا الامان على أن يضعوا أسلحتهم ويذهبوا حيث شاؤا

وكان اسحاق مصاهرا لملك السرير تزوج بنته . ولم يزل بغا يجوس خلال هـذه الديار حتى استنزل أكثر العصاة من معاقلهم وأخـذ معه كثيرا من بطارقة اذربيجان وأران

الدولة اليعفريه

فى آخر عهد المتوكل ابتدأت الدولة اليعفرية بصنعاء وكان جدهم عبد الرحيم ابن ابراهيم الحوالى نائبا عن جعفر بن سليمان بن على الهاشمى الذى كان واليا للمعتصم على نجد اليمن صنعاء وما اليها ولما توفي عبد الرحيم قام في الولاية مقامه ابنه يعفر بن عبد الرحيم وهو رأس الدولة ومبدأ استقلالهـا الا أنه كان يهاب آل زياد ويدفع لهم خراجا يحمل الى زبيد كأنه عامل لهم ونائب عنهم وكان ابتداء استقلال يعفر بن عبد الرحيم سنة ٢٤٧ واستمر ملك صنعاء في أعقابه الى سنة ٣٨٧ وهذه أسماء ملوكهم

(١) يعفر بن عبد الرحيم	٢٤٧ – ٢٥٩
(٢) محمد بن يعفر	٢٥٩ – ٢٧٩
(٣) عبد القادر بن أحمد بن يعفر	٢٧٩ – ٢٧٩
(٤) ابراهيم بن محمد	٢٧٩ – ٢٥٨
(٤) أسعد بن ابراهيم	٢٨٥ – ٢٨٨
فترة لائمة صنعاء والقرامطة	٢٨٨ – ٣٠٣
(٥) أسعد بن ابراهيم مرة ثانية	٣٠٣ – ٣٣٢
(٦) محمد بن ابراهيم	٣٣٢ – ٣٥٢
(٧) عبد الله بن قحطان	٣٥٢ – ٣٨٧

وقد اتبعنا في ثبت هذه الدولة ما جاء في تاريخ الدول الاسلامية لمؤلفه لين بول وفيه بعض مخالفة لمـا في تاريخ الدول الاسلامية للشيخ دحلان اه والحوالى نسبة الى عبد الله بن حوالة الازدي صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم

العلاقات الخارجية . كانت الحروب بين المسلمين وبين الروم لا تزال دائمة الاتصال برا وبحرا لا تنقطع الا لهدنة وقتية

ـ ففي سنة ٢٣٨ أغار الروم على مصر من جهة دمياط وكان أمير مصر قد أمر حاميتها أن يحضروا اليه بالفسطاط ليتجمل بهم فلما جاءها الروم بمراكبهم لم يجدوا بها حامية وكانوا فى نحو ٣٠٠ مركب فدخلوا البلد وعاثوا فيه وأحرقوا دوره والمسجد الجامع وسبوا كثيرا من نساء المسلمين وأهل الذمة وأخذوا ماوصلت اليه أيديهم من المغانم ثم عادوا الى بلادهم لم يكلم أحد منهم كلما. وكان المسلمون يفعلون مثل ذلك فى صوائفهم من جهة الدروب التى تلاصق المملكة الاسلامية من الجهة الشمالية وفي بحر الروم

وفى سنة ٢٤١ كان الفداء الرابع بين المسلمين والروم على نهر اللامس فى ١٢ شوال وكان القائم به شنيف خادم المتوكل وحضر معه جعفر بن عبد الواحد الهاشمى القاضى وعلى بن يحيى الارمني أميرالثغور الشامية وكانت عدة من نودى به من المسلمين في سبعة أيام ٢١٠٠ رجل وامرأة على رواية المقريزى فى الخطط وروى الطبرى ان عدة أسرى المسلمين كانت ٧٨٥ انسان ومن النساء ١٢٥ امرأة قال المقريزي وكان مع الروم من النصاري المأسورين من أرض الاسلام مئة رجل ونيف فعرضوا مكانهم عدة اعلاج

وفى سنة ٢٤٢ خرجت الروم من ناحية شميشاط بعد خروج على بن يحيى الارمنى من الصائفة حتى قاربوا آمد ثم خرجوا من الثغور الجزرية فانتهبوا عدة قرى واسروا عددا عظيما من الاهلين ثم انصرفوا راجعين الى بلادهم فخرج فى اثرهم قربياس وعمر بن عبد الله الاقطع وقوم من المتطوعة فلم يلحقوا منهم أحدا فكتب الى على بن يحيى أن يسير الى بلادهم شاتيا

وفي سنة ٢٤٤ وجه المتوكل بغا من دمشق لغزو الروم في شهر ربيع الآخر فغزا الصائفة فافتتح صملة

وفي سنة ٢٤٥ أغارت الروم على سميساط فقتلوا وسبوا نحوا من ٥٠٠ وغزا على بن يحيى الارمنى الصائفة

وفي سنة ٢٤٦ كان الفداء السادس بين المسلمين والروم فى صفر على يد على بن يحيي الارمني ففودى بالفين وثلثمائة وسبعة وستين نفسا

صفات المتوكل وأخلاقه

لم يكن المتوكل كمن قبله فى حب النظر والجدل بل كان ميالا الى التقليد فامر لاول ولايته بترك النظر والمباحثة والجدال والترك لما كان عليه الناس فى أيام المعتصم والواثق وأمر الناس بالتسليم والتقليد وأمر الشيوخ والمحدثين بالتحديث واظهار السنة لم يكن المتوكل ممن يوصف في عطائه بالبذل والجود ولا بتركه وامساكه بخلا . ولم يكن أحد ممن سلف من خلفاء بنى العباس ظهر في مجلسه اللعب والمضاحك والهزل فلما جاء المتوكل أحدث ذلك كله فاتبعه فيها أكثر خواصه ورعيته فلم يكن في وزرائه والمتقدمين من كتابه من يوصف بجود ولا افضال ولا يتعالى عن مجون أو طرب . دخل عليه أبو عبادة البحترى الشاعر المشهور فانشده قصيدة يمدحه بها قال فيها

عن أى ثغر تبتسم   وبأى طرف تحتكم
حسن يضيء بحسنه   والحسن أشبه بالكرم
قل للخليفة جعفر الـــمتوكل بن المعتصم
المرتضى ابن المجتبى   والمنعم ابن المنتقم
أما الرعية فهى من   أمان عدلك في حرم
يابانى المجد الذى   قد كان قوض فانهدم
أسلم لدين محمد   فاذا سلمت فقد سلم
نلنا الهدى بعد العمى   بك والغني بعد العدم

فلما انتهى مشى القهقرى للانصراف فوثب أبو العنبس فقال ياأمير المؤمنين تأمر برده فقد والله عارضته في قصيدته هذه فامر برده فاخذ ينشد أبياتا هزلية غثة لم نستحسن ايرادها فضحك المتوكل حتى استلقى على قفاه وفحص برجله اليسرى

وقال يدفع الى أبى العنبس عشرة آلاف درهم فقال الفتح بن خاقان ياسيدى البحترى الذي هجى وأسمع المكروه ينصرف خائبا فقال ويدفع الى البحتري عشرة آلاف درهم فوصل الجاد فى كرامة الهازل

وكان ينفر من استعمال أهل الذمة في الدواوين ويكره أن يظهروا فى الطرق بمظهر المسلمين ولذلك أصدر أمره في سنة ٢٣٥ أن يلبسوا زيا خاصا بهم وهو الطيالسة العسلية والزنانير وأن تكون لهم سروج خاصة بهم لركوبهم ونهى أن يستعان بهم في الدواوين وأعمال السلطان التى يجرى فيها أحكامهم على المسلمين ونهى أن يتعلم أولادهم فى كتاتيب المسلمين ولا يعلمهم مسلم وكتب منشورا الى عماله فى الآفاق بذلك كتبه ابراهيم بن العباس الصولى في شوال سنة ٢٣٥

قال المسعودى وكانت أيام المتوكل في حسنها ونضارتها ورفاهية العيش بها وحمد الخاص والعام لها ورضاهم عنها أيام سراء لاضراء كما قال بعضهم كانت خلافة المتوكل أحسن من أمن السبيل ورخص السعر وأمانى الحب وأيام الشباب

وتتعادل عند المحدثين سيئاته وحسناته فابطاله المناقشة فى القرآن وحدوثه ترفعه الى أعلى الدرجات وهدمه قبر الحسين يحطه الى أسفل الدركات فكأنه عندهم لا عليه ولا له . أما الحكم على زمنه بما كان من مصادرة الكتاب وعقوباتهم الشديدة فلم يكن محل عناية من أحد

ولاية العهد

تشبه المتوكل في كثير من أعماله بجده الرشيد ومن ذلك توليته العهد فقد عقد الولاية لاولاده الثلاثة وهم محمد المنتصر ومحمد المعتز وابراهيم المؤيد وذلك فى ٢٧ ذي الحجة سنة ٢٣٥ وقسم البلاد بينهم

فجعل لاكبرهم المنتصر أفريقية والمغرب كله من عريش مصر الى حيث بلغ سلطانه من المغرب وجند قنسرين والعواصم والثغور الشامية والجزرية وديار مضر وديار ربيعة والموصل وهيت وعانات والخابور وقرقيسيا وكوربا جَرْمَى وتكريت

وطساسيج السواد وكور دجلة والحرمين واليمن وعك وحضرموت واليمامة والبحرين والسند ومكران وقندابيل وفرج بيت الذهب وكور الاهواز والمستغلات بسامرا ومياه الكوفة ومياه البصرة وما سبذان ومهرجان قذق وشهرزور وواراباذ والصامغان وأصبهان وقم وقاشان وقزوين وأمور الجبل والضياع المنسوبة الى الجبال وصدقات العرب بالبصرة

وجعل لابنه المعتز كور خراسان وما يضاف اليها وطبرستان والري وأرمينية واذربيجان وكور فارس وضم اليه في سنة ٢٤٠ خزن بيوت الاموال في جميع الآفاق ودور الضرب وأمر بضرب اسمه على الدراهم

وجعل لابنه المؤيد جند دمشق وجند حمص وجند الاردن وجند فلسطين

وكتب بينهم كتابا يشبه الكتاب الذى كتبه الرشيد بين الامين والمأمون والقاسم . وقد جعل المتوكل لابنيه المعتز والمؤيد تمام الاستقلال في أعمالهما اذا آلت الخلافة للمنتصر بحيث لا يجوز أن يشرك فى شيء من أعمال أحدهما أحدا ولا يوجه عليه أمينا ولا كاتبا ولا بريدا ولا يضرب على يده في قليل ولا كثير وكذلك جعل على المعتز للمؤيد اذا آلت الخلافة للمعتز وكتب من هذا الكتاب أربع نسخ نسخة بخزانة أمير المؤمنين وعند كل من أولياء العهد نسخة وهذا نموذج مما قيل من الشعر في هذه البيعة وهو ينم على نفاق قائله لان القوم لم ينسوا بعد ما كان بين أولاد الرشيد . قال ابراهيم بن العباس الصولى

أضحت عرى الاسلام وهى منوطة ... بالنصر والاعزاز والتأييد
بخليفة من هاشم وثلاثة ... كنفوا الخلافة من ولاة عهود
قمر توالت حوله أقماره ... يكنفن مطلع سعده بسعود
كنفتهم الآباء وا كتنفت بهم ... فسموا با كرم أنفس وجدود

مقتل المتوكل

لم تكن قلوب كبار الاتراك مطمئنة الى المتوكل فقد وقع في أنفسهم أنه يريد تدبير المكايد لهم حتى يتخلص منهم واحدا بعد واحد فاخذتهم من ذلك وحشة وكان وزير المتوكل عبيد الله بن خاقان ونديمه الفتح بن خاقان منحرفين عن المنتصر ولى العهد مائلين الى المعتز فاوغرا قلب أبيه عليه حتى هم أن يعزله من ولاية العهد فاجتمع لذلك الخصمان قواد الاتراك وولى العهد . مال الاتراك الى المنتصر ليستعينوا به في تنفيذ غرضهم ومال اليهم ليحفظ لنفسه الخلافة عاجلا أو آجلا . ومما زاد فى اغراء المنتصر أن المتوكل اشتكي فامره أن يصلى بالناس يوم الجمعة فقال عبيد الله والفتح للمتوكل مر أبا عبد الله المعتز بالله بالصلاة لتشرفه بذلك في هـذا اليوم الشريف فقد اجتمع أهل بيته والناس جميعا فقد بلغ الله به فامره المتوكل بالصلاة فركب وصلى بالناس وأقام المنتصر في منزله وفي الجمعة التالية أراد المتوكل أن يصلى المنتصر بالناس فحسناله أن يركب هو لئلا يرجف الناس بعلته ففعل . كل ذلك زاد المنتصر حقدا وخوفا على الخلافة أن تفوته . ويقال ان المتوكل اتفق مع الفتح ابن خاقان على الفتك بالمنتصر وقتل وصيف و بغا وغيرهما من قواد الاتراك ولم يكن هذا السر ليستتر مع النبيذ والاستهتار بشربه فاتفق القوم على أن يفتكوا بالمتوكل

وقد تولى كبر ذلك بغا الصغير المعروف بالشرابي فانه أعد لذلك قوما في مقدمتهم باغر التركي الذى كان يقوم بحراسة المتوكل وأعد معه عشرة من الاجناد فدخلوا القصر وسيوفهم مسلولة والمتوكل قد أخذ منه الشراب فابتدره أحدهم بضربة وثنى عليه بأخرى أتت على نفسه وكان معه الفتح بن خاقان فقتل معه وكان قتله ليلة الاربعاء لاربع خلون من شوال سنة ٢٤٧ ويعجبني ما قاله بعض شعراء الوقت في تلك الحادثة

لاحزن الا أراه دون ما أجد … وهل كمن فقدت عيناى مفتقد

لا يبعدن هالك كانت منيته … كما هوي عن غطاء الزبية الاسد

لايدفع الناس ضيما بعد ليلتهم … اذ لا تمد الى الجانى عليك يد

لو ان سيفي وعقلي حاضران له ... أبليته الجهد اذ لم يبله أحد
هلا أتاه أعاديه مجاهرة ... والحرب تسعر والابطال تطرد
فخر فوق سرير الملك منجدلا ... لم يحمه ملكه لما انقضى الامد
وأصبح الناس فوضى يعجبون له ... ليثا صريعا تنزى حوله النقد
علتك أسياف من لا دونه أحد ... وليس فوقك الا الواحد الصمد
أضحى شهيد بني العباس موعظة ... لكل ذي عزة في رأسه صيد
خليفة لم ينل مانا له أحد ... ولم يضع مثله روح ولا جسد
كم في أديمك من فوهاء هادرة ... من الجوائف يغلى فوقها الزبد
اذا بكيت فان الدمع منهمل ... وان ونيت فان القول مطرد
قد كنت أسرف في مالي وتخلف لي ... فعلمتني الليالي كيف أقتصد
لما اعتقدتم أناسا لا حلوم لهم ... ضعتم وضيعتم من كان يعتقد
فلو جعلتم على الاحرار نعمتكم ... حمتكم السادة المذكورة الحشد
قوم هم الجذم والانساب تجمعهم ... والمجد والدين والارحام والبلد

وقال علي بن الجهم من قصيدة له

عبيد أمير المؤمنين قتلنه ... وأعظم آفات الملوك عبيدها
بني هاشم صبرا فكل مصيبة ... سيبلى على وجه الزمان جديدها

وهذه الحادثة أول ثمرة لغرس المعتصم فانه ملك الخلافة قوما لا حلوم لهم وليس لهم من الاخلاق ما يمنعهم مما فعلوا ولا من العصبية ما يجعل جانبهم مأمونا وأجل من ذلك أن يكون ولي العهد شريكا في دم أبيه وهذا أيضا أول حادث من نوعه ويعجبني ماقاله البحتري

أكان ولي العهد أضمر غدره ... فمن عجب أن ولي العهد غادره
فلا ملك الباقي تراث الذي مضى ... ولا حملت ذاك الدعاء منابره

١١ – المنتصر

هو محمد المنتصر بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد وأمه أم ولد رومية اسمها حبشية ولد سنة ٢٢٢ وعقد له أبوه ولاية العهد سنة ٢٣٥ وسنه ثلاث عشرة سنة . ولما قتل أبوه بايعه قواد الاتراك عقيب مقتله في ٤ شوال سنة ٢٤٧ (١١ ديسمبر سنة ٨٦١) واستمر خليفة الى أن توفي يوم الاحد لخمس خلون من شهر ربيع الآخر سنة ٢٤٨ (٧ يونية سنة ٨٦٢) فكانت مدته التى تعجلها بقتل أبيه ستة أشهر

استوزر المنتصر أحمد بن الخصيب وكان كاتبه قبل أن يستخلف وكان مقصرا في صناعته مطعونا عليه في عقله وكانت فيه مروءة وحدة وطيش فمن احتمله بلغ منه ما أراد وقد وصفه المسعودى بأنه كان قليل الخير كثير الشر وقد ندم المنتصر على مافعل من تقليده الوزارة ونفيه عبيد الله بن خاقان وزير أبيه بسبب ما شاع من حدة ابن الخصيب وطيشه وذلك أنه ركب ذات يوم فتظلم اليه متظلم بقصة فأخرج رجله من الركاب فزج بها فى صدر المتظلم فقتله فتحدث الناس بذلك فقال بعض شعراء ذلك الزمان

قل للخليفة يا ابن عم محمد ... أشكل وزيرك انه شكال
أشكله عن ركل الرجال وان ترد ... مالا فعند وزيرك الاموال

الجيش

بقتل المتوكل واستيلاء المنتصر الشاب زادت الاتراك قوة فى الدولة على قوتهم لان أيديهم امتدت الى حياة الخلفاء فقتلوا خليفة وساقوا الخلافة الى خليفة فأنشبوا أظفارهم بذلك فى جسم الدولة ولم يكن هناك من حيلة للتخلص منهم لما دب الى

قلوب الخلفاء من الهيبة لهم ورعاية جانبهم ومما يدل على ذلك أن الاتراك لم يكونوا يحبون أن تكون ولاية العهد للمعتز والمؤيد ابنى المتوكل فأشارا على المنتصر بخلعهما فأحضرا دار الخلافة وطلب منهما أن يكتبا طالبين أن يخلعا من ولاية العهد لضعفهما عن ذلك فرضى المؤيد وأبى المعتز فقال له المؤيد ياجاهل تراهم قد نالوا من أبيك وهو هو مانالوا ثم تمتنع عليهم اخلع ويلك ولا تراجعهم — ومازال به حتى أجاب وكتبا ما أملى عليهما في ذلك وهذا ما كتباه — بسم الله الرحمن الرحيم ان أمير المؤمنين المتوكل على الله رضى الله عنه قلدني هذا الامر وبايع لى وأنا صغير من غير ارادتى ومحبتى فلما فهمت أمرى علمت أنى لا أقوم بما قلدني ولا أصلح لخلافة المسلمين فمن كانت بيعتى في عنقه فهو من نقضها فى حل وقد حللتكم منها وأبرأتكم من أيمانكم ولا عهد لى في رقابكم ولا عقد وأنتم براء من ذلك — ثم دخلا على المنتصر فاعترفا بما فى الكتاب ثم أقبل عليهما والاتراك وقوف وقال لهما أترياني خلعتكما طمعا فى أن أعيش حتى يكبر ولدى وأبايع له والله ماطمعت في ذلك ساعة قط واذا لم يكن في ذلك طمع فوالله لان يليها بنو أبى أحب الى من أن يليها بنو عمي ولكن هؤلاء (وأومأ الى سائر الموالى ممن هو قائم وقاعد) ألحوا على في خلعكما فخفت ان لم أفعل أن يعترضكما بعضهم بحديدة فيأتي عليكما فما ترياني صانعا أقتله فوالله ما تفى دماؤهم كلهم بدم بعضكم فكانت اجابتهم الى ما سألوا أسهل على

فانظروا كيف كان عجز الخليفة عن أن يرد مشورة لهم تخالف ما عقده المتوكل وأكده بالايمان والمواثيق والعهود . وقد كتب المنتصر بذلك الى الآفاق وظهر فى كتابه براعة المنشئين فى ذلك الوقت وان لم تظهر فيه براعة الاخلاق الفاضلة وحفظ العهود والمواثيق وكان الكاتب له هو أحمد بن الخصيب

صفات المنتصر

لئن كان الغضب قد حمل المنتصر على تذليل السبيل لاهراق دم أبيه فانه كان لا يزال ذا نفس تحس فتتأثر فلم يزل يلاقى أهوال التوبيخ فى يقظته ومنامه حتى أسقم ذلك بدنه وأذل نفسه . دخل عليه عبد الله بن عمر البازيار ذات يوم وهو يبكي

و ينتحب فسأله عن سبب بكائه فقال كنت نائمـا فرأيت كأن المتوكل قد جاءني فقال له ويلك يامحمد قتلتني وظلمتني وغبنتني خلافتي والله لا تمتعت بعدي الا أياما يسيرة ثم مصيرك الى النار فانتبهت وما أملك عيني ولا جزعي . فهون عبد الله عليه الامر . وكان كثيرا ما يقول اذا سئل عن حاله ذهبت والله مني الدنيا والآخرة — فكان الرجل يكابد نيرانا تضطرم بين جنبيه جزاء فعلته وكان يهم ان يكفر سيئته فينتقم من قتلة أبيه أو انه أحس بأن الذين تمكنوا من قتل أبيه لا يبعد عليهم ان يكرروا التجربة فيه فكان يفكر في تفريق جمعهم وأثرت عنه كلمـات في ذلك ولكن قوتهم كانت أكبر من أن تتأثر بتفكير ذلك الخليفة الشاب

كان من خلق المنتصر سعة الاحتمال وكثرة المعروف والرغبة في الخير والسخاء والعفة وكان يأخذ نفسه بمكارم الاخلاق وحسن المعاشرة بما لم يسبقه خليفة الى مثله . ومما حببه الى الناس ازالته عن آل أبي طالب ما كان قد أوحشهم فتقدم بالكف عنهم وترك البحث عن أخبارهم وألا يمنع أحد زيارة قبر الحسين رضى الله عنه ولا قبر غـيره من آل أبي طالب وأطلق أوقاف الطالبيين وترك التعرض لشيعتهم ودفع الاذى عنهم ومما يؤثر من قوله (ان لذة العفو أعذب من لذة التشفي وأقبح أفعال المقتدر الانتقام) وقد أظهر الانصاف في الرعية فمـالت اليه قلوب الخاصة والعامة مع شدة هيبتها له

وفاة المنتصر

قال الطبري لم أزل أسمع الناس حين أفضت اليه الخلافة من لدن ولي الى ان مات يقولون انمـا مدة حياته ستة أشهر مدة شيرويه بن كسرى قاتل أبيه مستفيضا ذلك على السن العامة والخاصة وكذلك كان فقد أصابته العلة التي قضت عليه يوم الخميس لخمس بقين من شهر ربيع الاول سنة ٢٤٨ ومات مع العصر من يوم الاحد لخمس ليال خلون من شهر ربيع الآخر ويقال ان تلك العلة كانت الذبحة في حلقه وبعضهم يقول كانت ورما خبيثا في معدته ويقال أيضا انه سم سمه الطبيب في مبضع والله أعلم أي ذلك كان

١٢ - المستعين

هو أحمد بن محمد بن المعتصم بن الرشيد وأمه أم ولد صقلية اسمها مخارق ولد سنة ٢٢٠ وبويع بالخلافة في اليوم الذى توفى فيه المنتصر وهو خامس ربيع الآخر سنة ٢٤٨ (٧ يونيه سنة ٨٦٢) ولم يزل خليفة الى ان خلع يوم الجمعة ٤ محرم سنة ٢٥٢ (١٥ يناير سنة ٨٦٦) فكانت مدته ثلاث سنوات وثمانية أشهر و ٢٨ يوما

كيف انتخب

اجتمع الموالى وفيهم بغا الصغير و بغا الكبير وأتامش ومن معهم فاستحلفوا قواد الاتراك والمغاربة والاشروسنية على أن يرضوا بما رضى به من سمينا فأجمع رأى الثلاثة على ألا يولوا أحدا من أولاد المتوكل لئلا يغتالهم بدم أبيه كما أنهم لم يريدوا اخراجها عن أولاد المعتصم مولاهم فاقترح عليهم تولية أحمد بن المعتصم فقال لهم محمد ابن موسى بن شاكر المنجم أتولون رجلا عنده أنه أحق الناس بالخلافة قبل المتوكل وانكم دفعتموها عنه وانه أحق بالامر من المتوكل والمنتصر فبأى عين يرا كم وأى قدر يكون لكم عنده ولكن أطيعوا انسانا يعرف لكم ذلك . فكانت هذه الكلمات مما وافق هواهم جميعا الا بغا الكبير فانه قال لهم نجىء بمن نهابه ونفرقه فنبقى معه وان جئنا بمن يخافنا حسد بعضنا بعضا فقتلنا أنفسنا . ثم ذكروا أبا العباس أحمد بن محمد بن المعتصم وقالوا هو من ولد مولانا المعتصم ولم نخرجها عنهم ونصطنعه فيعرف ذلك لنا ولم يزالوا ببغا الكبير حتى وافقهم عليه فبايعوه جميعا . وهو أول خليفة من بنى العباس لم يكن أبوه خليفة بعد مؤسسى الدولة السفاح والمنصور وأول خليفة تولى

بعد ابن عمه

وفي عهده توفى من الاغالبة بأفريقية أحمد بن محمد بن الاغلب سنة ٢٤٩ وخلفه أخوه زيادة الله بن محمد الى سنة ٢٥٠ وخلفه ابن أخيه محمد بن أحمد بن محمد ابن الاغلب الى سنة ٢٦١

وفي عهده توفى من آل طاهر بخراسان طاهر بن عبد الله بن طاهر بن الحسين فولى مكانه محمد بن طاهر الى سنة ٢٥٩

الوزارة فى عهد المستعين

لم يكن للخليفة شيء من النفوذ فان الموالى هم الذين حولوا الخلافة عن المعتز بخلعهم اياه من ولاية العهد وهم الذين ساقوها الى المستعين بلا عهد ولا سابقة فكان من المعقول أن يكون بين أيديهم يفعلون به ما شاؤا حتى مثله بعض الشعراء بقوله

خليفة فى قفص بين وصيف وبغا
يقول ما قالا له كما تقول الببغا

فالوزير من قبلهم يولى فان وافق هواهم رضوا عنه وان خالفهم فى شيء أزالوه عن رتبته وأقاموا غيره

تركوا الوزارة في يد أحمد بن الخصيب الذى كان وزيرا للمنتصر ثم لم يلبثوا أن غضبوا عليه في جمادى الاولى من سنة ٢٤٨ فاستصفوا ماله ومال ولده ونفوه الى جزيرة أقريطش

واختير لوزارة المستعين أتامش أحد قواد الاتراك وكان الذى يقوم بأمر الكتابة كاتبه شجاع فكان أتامش بذلك صاحب السلطان التام فأطلقت يده في الاموال ومعه شاهك الخادم الذى جعله المستعين على داره وكراعه وخزائنه وخاص أموره وضم اليهما فى النفوذ والتصرف أم المستعين فانه لم يمنعها من شيء تريده وكان كاتبها سعيد بن سلمة النصراني فكانت الاموال التى ترد على السلطان من الآفاق يصير معظمها الى هؤلاء الثلاثة فعمد أتامش الى ما في بيوت الاموال من الاموال فاكتسحه وكان المستعين قد جعل ابنه العباس في حجر أتامش فكان مافضل من

لاموال عن هؤلاء الثلاثة يؤخذ للعباس فيصرف في نفقاته وأسبابه وصاحب ديوان ضياعه يومئذ كاتب اسمه دليل بن يعقوب النصرانى فاقتطع من ذلك أموالا جليلة لنفسه . نظرت الموالى الى هـذه الحال الاموال تستهلك وهم فى ضيقة وأتامش هو صاحب المستعين وصاحب أمره والمستولى عليه ينفذ أمور الخلافة ووصيف وبغا من ذلك كله بمعزل فأغريا الموالى به ولم نزالا يدبران الامر عليه حتى أحكما التدبير فتذمرت الاتراك والفراغنة على أتامش وخرج اليه منهم يوم الخميس ١٢ ربيع الآخر سنة ٢٤٩ أهل الدور والكرخ فعسكروا وزحفوا اليه وهو فى الجوسق مع المستعين وبلغه الخبر فأراد الهرب فلم يمكنه واستجار بالمستعين فلم يجره وفى يوم السبت دخلوا الجوسق فاستخرجوا أتامش من موضعه الذى توارى فيه فقتل وقتل كاتبه شجاع وانتهبت دار أتامش فأخذوا منها أموالا جليلة ومتاعا وفرشا وآلة

استوزر المستعين بعده أبا صالح عبد الله بن محمد بن يزداد وأبوه كان قبل ذلك وزيرا للمأمون فمكث في الوزارة نحو ثلاثة أشهر لم يرض فيها أحزاب الموالى لانه أراد أن يضبط حساب المملكة فلم يعجب ذلك بغا الصغير وحزبه فأظهروا له الغضب فهرب منهم الى بغداد في شعبان من سنة ٢٤٩

استكتب المستعين بعده محمد بن الفضل الجرجرائي وهو الذى كان وزير للمتوكل قبل ذلك ولم يسمه باسم وزير

العلويون فى عهد المستعين

كان الذى فى عهد المستعين من أئمة الامامية الاثني عشرة على الهـادى وهو العاشر من أئمتهم وكان مقيما بسامرا

أما الزيدية فقد خرج منهم

أولا يحيي بن عمر بن يحيي بن حسين بن زيد بن على بن الحسين خرج بالكوفة وكان قبل خروجه يتردد بين بغداد وسامرا يطالب كبار الدولة بما يصلح من شأنه فكان يرجع دائمـا بالفشل فاستثار جمعا كثيرا من الاعراب وانضم اليهم جمع من

الكوفة فعسكر بهم بضواحى الكوفة ولما علم بخبره محمد بن عبد الله بن طاهر وجه الجنود اليه فبادر يحيي الى الكوفة فاستولى عليها وعلى بيت مالها ثم خرج منها وصار يتردد فى السواد ثم عاد الى الكوفة ودعا الى الرضا من آل محمد وكثف أمره وبولاه العامة من أهل بغداد ولا يعلم أنهم تولوا من آهل بيته غيره . أقام بالكوفه يعد العدد و يطبع السيوف ويعرض الرجال ويجمع السلاح . كان الذى توجه لحربه فرع من فروع الأسرة المصعبية وهو الحسين بن ابراهيم بن مصعب فلما وصل بجنده الى ظاهر الكوفة أشار على يحيي جماعة من الزيدية لا علم لهم بالحرب بمعاجلة الحسين وألح عليه عوام أصحابه بمثل ذلك فخرج من وراء الخندق ليلة الاثنين ١٣ رجب سنة ٢٥٠ في جمع ليسوا بذى علم ولا تدبير ولا شجاعة فأسروا ليلتهم حتى صبحوا الحسين وهو وأصحابه مستريحون مستعدون فلم يكن بأسرع ان انهزم جند يحيي ووضع فيهم السيف وكان أكثر رجالة الكوفة عزلا فداستهم الخيل ولما انكشف العسكر عن يحيي تقطر به برذونه فقتل وأخذت رأسه الى محمد بن عبد الله بن طاهر فحمله الى المستعين بسامرا فنصب الرأس بباب العامة بسامرا واجتمع الناس لذلك وكثروا وتذمروا فرد الي بغداد لينصب بها فلم يمكن لما أبداه العامة من كراهة ذلك وقال أبو هاشم داود بن الهيثم الجعفرى فى ذلك

يابني طاهر كلوه وبيا ان لحم النبي غير مرى
ان وترا يكون طالبه الله لوتر نجاحه بالحرى

ومع هذا الميل من الناس الى العلويين لم يمكنهم الاستفادة من ذلك الميل لانهم لم يكن لهم تدبير منتظم ولا استعانة بذوي التدبير والحيل من رجال الحرب

ثانيا خرج الحسن بن زيد بن محمد بن اسمعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن ابن على . خرج بنواحى طبرستان وسبب خروجه أن المستعين أقطع محمد بن طاهر قطائع من صوافى السلطان بطبرستان وذلك بعد أن انتصر على يحيي بن عمر وكان من جملة تلك القطائع قطيعة قرب ثغرى طبرستان من نواحي الديلم وهما كلار وسالوس

وبحذاء تلك القطيعة أرض لاهل تلك الناحية فيها مرافق منها محتطبهم ومراعي مواشيهم ومسرح سارحتهم وليس لاحد عليها ملك . وجه محمد بن طاهر جابر بن هارون أخا كاتبه النصراني لحيازة ما أقطع من تلك الاراضي وكان عامل طبرستان اذ ذاك سليمان ابن عبد الله بن طاهر وقد غلب على أمره محمد بن أوس البلخي ومن ولده كان العمال على مدن طبرستان وهم أحداث سفهاء فاستأذي بهم وبسفههم من تحت أيديهم والرعية واستنكروا منهم ومن والدهم ومن سليمان بن عبد الله سفههم وسيرهم فيهم وزاد على ذلك أن محمد بن أوس وتر الديلم بدخوله الى ما قرب من بلادهم من حدود طبرستان على غرة وهم أهل سلم وموادعة لاهل طبرستان فسبى منهم ورجع

لما جاء رسول محمد بن طاهر وأراد استلام القطيعة أحب أن يحوز معها تلك الارض التي تتصل بها من الموات الذي يرتفق به أهل تلك الناحية .

كان هناك رجلان معروفان بالبأس والشجاعة وكانا معروفين قديما بضبط تلك الناحيه ممن رامها من الديلم وهما محمد وجعفر ابنا رستم فانكروا مافعله جابر ومنعاه وكان مطاعين فاستنهضا من أطاعهما فنهضوا معهم وهرب جابر خوفا على نفسه ولحق بسليمان بن عبد الله فأيقن الرجلان حينئذ بالشر وأرسلا جيرانهم من الديلم يطلبون منهم المساعدة والمظاهرة على سليمان بن عبد الله فأجابهم الديلم الى ذلك وتعاقدوا هم وأهل كلار وسالوس أن يعين بعضهم بعضا على حرب سليمان بن عبد الله ومحمد بن أوس وغيرهما ممن قصدهم بحرب ثم أرادوا أن يكون على رأسهم رجل يبايعونه فاتفقوا على الحسن بن زيد وكان مقيما بالرى فوجه اليه القوم من دعاه الى أمرهم فأجاب وتوجه اليهم فبايعوه وبايعه رؤساء الديلم ثم ناهضوا من في تلك النواحي من عمال ابن أوس فطردوهم عنها فلحقوا بمدينة سارية

ثم زحف الحسن ومن معه على مدينة آمل وهي حاضرة طبرستان وجاء محمد بن أوس يريد دفعه عنها فلم يقدر وفر هاربا — دخل الحسن مدينة آمل فكثف جيشه وغلظ أمره ومال اليه كل طالب نهب ومريد فتنة من الصعاليك والحوزية وغيرهم

ثم سار من آمل الى سارية وبها العامل سليمان بن عبد الله فغلبه عليها ولم يكن له هو ومحمد بن أوس الا النجاء منها بأنفسهما فهربا الى جرجان و بذلك تم للحسن ابن زيد الاستيلاء على بلاد طبرستان كلها فوجه خيلا الى الرى فاستولت عليها وطردت عنها عمال ابن طاهر

ورد الخبر بذلك الى المستعين ومدبر أمره وصيف التركى فوجه الى همذان قائدا في جمع من الجنود ليقيم بها ويمنع خيل الحسن ان تتجاوزها لان ما وراء همذان كان لمحمد بن طاهر و به عماله وعليه صلاحه

هكذا نجح الحسن بن زيد في تكوين هـذه الدولة التى تعرف بالدولة الزيدية بطبرستان واقتطع من ملك بني العباس أوآل طاهر طرفا عظيما تحميه جبال طبرستان والديلم واستمرت هذه الدولة نحو قرن كامل (٢٥٠ — ٣٥٥) تولى فيها

(١) الحسن بن زيد الداعى	٢٥٠ — ٢٧٠
(٢) محمد بن زيد القائم بالحق	٢٧٠ ـ ٢٧٩
الدولة السامانية	٢٧٩ — ٣٠١
(٣) الحسن الاطروش بن على بن الحسين بن على بن عمر بن زين العابدين	٣٠١ — ٣٠٤
(٤) الحسن بن القاسم بن علي بن عبد الرحمن ومعه أولاد الاطروش	٣٠٤ — ٣٥٥

ولم تكن هذه الدولة ذات نظام ملكي ولا مرتاحة من الاعداء فان بني سامان الآتى ذكرهم قتلوا محمد بن زيد واستولوا على طبرستان الى سنة ٣٠١ ثم ظهر الحسن الاطروش فاسترد طبرستان من آل سامان ولكنه قتل فى بعض حروبه مع السامانية فقام بعده الحسن بن القاسم ونازعه أولاد الاطروش ولم يزل النزاع والخلاف قائما بينهم حتى انتهى أمرهم سنة ٣٥٥ وانقضى الملك الزيدى من تلك الجبال

الجيش

كان ما ظنه بغا الكبير فى محله فانه قال للقوم (نجيء بمن نهابه ونفرقه فنبقى معه وان جئنا بمن يخافنا حسد بعضنا بعضا فقتلنا أنفسنا) وجد التحاسد بين هؤلاء القوم وليس للخليفة سلطان يقمع به من بغى منهم فكانت أولى جناياتهم قتل أوتامش لما رأوه قد استبد بأموال الدولة و بمصالحها . ثم اتفق وصيف و بغا على قتل باغر التركي الذى تولى قتل المتوكل لانهما خافاه على أنفسهما وكان باغر قد جمع اليه الجماعة الذين كانوا بايعوه على قتل المتوكل لجدد عليهم البيعة التى كان أخذها عليهم وقال لهم الزموا الدار حتى نقتل المستعين وبغا ووصيفا (وكان يسميان بالاميرين) ونجيء بعلى بن المعتصم أو بابن الواثق فنقعده خليفة حتى يكون الامر لنا كما هو لهذين اللذين قد استوليا على أمر الدنيا و بقينا نحن علي غير شيء فأجابوه الى ذلك وانتهى الامر الى المستعين فبعث الى وصيف و بغا فقال لهما ما طلبت اليكما أن تجعلاني خليفة وانما جعلتماني وأصحابكما ثم تريدان ان تقتلاني فحلفا له أنهما ما علما بذلك فاعلهما الخبر فاتفق الرأى على التدبير على باغر ففعلا وقتلاه فهاج أصحابه هيجانا شديدا ولم يكن من الاميرين الا حمل المستعين معهما والانحدار به الى بغداد يوم الاربعاء ٤ محرم سنة ٢٥١ ونزل المستعين بدار محمد بن عبد الله بن طاهر ولحقهم جماعة من قواد الاتراك فدخلوا الى المستعين فرموا بأنفسهم بين يديه وجعلوا مناطقهم فى أعناقهم تذللا وخضوعا وسألوه الصفح عنهم فقال لهم أنتم أهل بغى وفساد واستقلال للنعم ألم ترفعوا الى فى أولادكم فألحقتهم بكم وهم نحو من ألفي غلام وفي بناتكم فأمرت بتصييرهن في عداد المتزوجات وهن نحو من أربعة آلاف امرأة وفي المدركين والمولودين وكل هذا قد أجبتكم اليه وأدررت لكم الارزاق حتى سبكت لكم آنية الذهب والفضة وحرمت نفسى لذتها وشهوتها كل ذلك ارادة لصلاحكم ورضاكم وأنتم تزدادون بغيا وفسادا وتهددا وابعادا . فتضرعوا اليه حتى قال قد رضيت عنكم فقال له أحدهم بايكباك ان كنت رضيت عنا وصفحت فقم فاركب معنا الى سامرا فان الاتراك ينتظرونك . فأومأ محمد بن عبد الله

ابن طاهر الى محمد بن أبي عون فلكز في حلق بايكباك وقال له هكذا يقال لامير المؤمنين قم فاركب معنا فضحك المستعين من ذلك وقال هؤلاء قوم عجم ليس لهم معرفة بحدود الكلام

وقال لهم المستعين تصيرون الى سامرا فان أرزاقكم دارة عليكم وأنظر أنا في أمرى ههنا ومقامي . فانصرفوا آيسين منه غاضبين مما حصل لهم فأجمعوا أمرهم على اخراج المعتز والبيعة له وكان المعتز والمؤيد في حبس الجوسق في حجرة صغيرة مع كل واحد منهما غلام يخدمه فأخرجوا المعتز وبايعوه الخلافة ولاخيه المؤيد بولاية العهد

وبذلك صارت بغداد في جانب المستعين والقائم بأمره محمد بن عبد الله بن طاهر ومن لف لفه وسامرا في جانب المعتز . كان من أول مافعله ابن طاهر أن منع الميرة عن سامرا وقام بتحصين بغداد فأدير عليها السور وحفرت حولها الخنادق ورتبت الرجال على أبوابها وأسوارها وكتب المستعين الى عمال الخراج بكل بلدة وموضع أن يكون حملهم ما يحملون من الاموال الي بغداد ولا يحملون الى سامرا شيئا

دارت المكاتبات فكتب المستعين الى أتراك سامرا يأمرهم بنقض بيعة المعتز ومراجعة الوفاء ببيعتهم اياه ويذكرهم أياديه عندهم وينهاهم عن معصيته ونكث بيعته وكان كتابه بذلك الى سيما الشرابي . وكتب المعتز الى محمد بن عبد الله بن طاهر يدعوه الى الدخول فيما دخل فيه من بايعه بالخلافة وخلع المستعين ويذكره ما كان أبوه المتوكل أخذ له عليه بعد أخيه المنتصر من العهد وعقد الخلافة . فلم تفد هذه المكاتبات شيئا وهيأ المعتز جيشا لحرب المستعين جعل قيادته لاخيه أبي أحمد بن المتوكل وتدبيره الى كلباتكين التركى . خرج هذا الجيش من سامرا فوافى عكبرا في غاية المحرم من سنة ٢٥١ ووصل باب الشماسية ببغداد لسبع خلون من صفر . وقد حصل بين الفريقين مواقع هائلة حول أسوار بغداد وبعيدا عنها وانقطعت بذلك السابلة وخربت الضياع وذهبت الارزاق وكانت الحرب بين الفريقين في البر وفي النهر . وقد ظلت بغداد مرسحا للفتن والحروب سنة ٢٥١ كلها وفي آخرها كانت

ابن طاهر المعتز فى الصلح وأشيع بين عامة بغداد أن ابن طاهر مال الى خلع المستعين وأنه وجه قواده فبايعوا المعتز فلما سمعوا ذلك هاجوا وأظهروا الوقيعة فى ابن طاهر وشتموه أقبح الشتم وتجمعوا حول داره بريدون الايقاع به فكلم ابن طاهر المستعين وسأله أن يطلع اليهم ويسكنهم ويعلمهم ما عليه ابن طاهر فأشرف عليهم من أعلى الدار وعليه البردة والطويلة وابن طاهر بجانبه فحلف لهم بالله ما اتهمه وانه لفى عافية ما عليه من ابن طاهر بأس ووعدهم أن يخرج في غد يوم الجمعة ويصلى بهم فانصرفوا وجاؤا فى الغد يطلبون خروج المستعين اليهم فلم يخرج فازداد هياجهم وطلبوا خروج الخليفة من دار ابن طاهر فلم يجد من ذلك بدا وانتقل في أوائل ذى الحجة الى دار رزق الخادم وكان معه حين انتقاله ابن طاهر وبيده الحربة يسيربها والقواد خلفه وكان هذا الانتقال على غير ارادة المستعين

ويقال ان السبب في عدول ابن طاهر عن الاخلاص للمستعين ان عبيد الله ابن يحيى بن خاقان الذي كان وزيرا للمتوكل قال له أطال الله بقاءك ان هذا الذي تنصره وتجد فى أمره من أشد الناس نفاقا وأخبثهم دينا والله لقد أمر وصيفا وبغا بقتلك فاستعظما ذلك ولم يفعلاه وان كنت شاكا فيما وصفت من أمره فسل تخبره . وأن من ظاهر نفاقه أنه كان وهو بسامرا لا يجهر فى صلاته ببسم الله الرحمن الرحيم فلما صار الى ما قبلك جهر بها مراآة لك وتترك نصرة وليك وصهرك وتربيتك — ونحو ذلك من كلام كلمه به فقال محمد بن عبد الله أخزى الله هذا لا يصلح لدين ولا لدنيا

كان من وراء ذلك أن تخلى محمد عن نصرة المستعين وكانت نتيجة هذا التخلى أن تضعضع أمره وانحياز العامة له لم يفده فرأى من مصلحته أن يقبل خلع نفسه واشترط شروطا تضمن حياته وراحته

وفى يوم السبت ١٠ ذى الحجه سنة ٢٥١ ركب محمد بن عبد الله الى الرصافة وجمع القضاة والفقهاء وأدخلهم على المستعين فوجا فوجا وأشهدهم عليه أنه قد صير أمره الى محمد بن عبد الله فأرسل حينئذ محمد الى المعتز من جاء بخطه بقبول الشروط

التي طلبها المستعين وعادت الرسل فى ثالث المحرم سنة ٢٥٢ وفى رابعه دخل ابن طاهر على المستعين ومعه كتاب الشروط كتبه سعيد بن حميد فقال ابن طاهر يا أمير المؤمنين قد كتب سعيد الشروط وأكد غاية التأكيد فنقرأ الكتاب عليك فقال المستعين لا عليك لا عليك فما القوم بأعلم بالله منك وقد أكدت على نفسك قبلهم فكان ما قد علمت — فما رد عليه محمد شيئا

ولما بايع المستعين للمعتز ببغداد أخذ منه البردة والقضيب والخاتم ووجه ذلك الى المعتز وأشخص المستعين الى واسط . ويعجبنى هنا ما قاله أحد شعراء العصر

خلع الخليفة أحمد بن محمد　　وسيقتل التالى له أو يخلع
ويزول ملك بنى أبيه فلا يرى　　أحد بملك منهم يستمتع
ايها بنى العباس ان سبيلكم　　فى قتل أعبدكم طريق مهيع
رقعتم دنياكم فتمزقت　　بكم الحياة تمزقا لا يرقع

الاحوال الخارجية

كان الحال في الخارج أشد من ذلك وأنكى فان الاضطراب الحادث فى داخلية الدولة كان سببا فى تقاعد أولي الامر عن حماية الثغور والوقوف في وجه الروم الذين كانوا ينتظرون مثل هذه الفرصة وقد صادف ان قائدين عظيمين من قواد الثغور قتلا في حرب مع الروم أول عهد المستعين وهما عمر بن عبيد الله الاقطع وعلى بن يحيي الارمني وكان نابين من أنياب المسلمين شديدا بأسهما عظيما غناؤهما في الروم فاما أولهما فقد غزا ملطية فقابله ملك الروم فى جمع عظيم فاحاطوا به فقتل وقتل معه الفا رجل وجرأهم قتله على قصد الثغور الجزرية فقصدوها وكلبوا عليها وعلى حرب المسلمين فبلغ ذلك على بن يحيي وهو قافل من أرمينية الى ميافارقين فنفر اليهم فى جماعة قليلة فقتل مع نحو ٤٠٠ رجل

لما بلغ ذلك أهل بغداد شق على عامتهم وعظم مقتل الرجلين فى صدورهم مع مالحقهم من استفظاعهم من الاتراك قتل المتوكل واستيلاءهم على أمور المسلمين

وقتلهم من أرادوا قتله من الخلفاء واستخلافهم من أحبوا استخلافه من غير رجوع منهم الى ديانة ولا نظر لامور المسلمين فثاروا وربما كانوا ينجحون فيما اليه قصدوا من ثورتهم هذه لو وجدوا قائدا يدبر أمرهم ويبعدهم عن الفوضى ولكنهم لم يظفروا به

اجتمعت العامة ببغداد بالصراخ والنفير وانضمت اليهم الابناء الشاكرية وفتحوا أبواب السجون وأخرجوا من فيها ثم أخرج أهل اليسار من أهل بغداد وسامرا أموالا كثيرة من أموالهم فقووا من خف للنهوض الى الثغور لحرب الروم وأقبلت اليهم العامة من نواحي الجبل وفارس وغيرهما لهذا القصد كل ذلك والخليفة لاه بما هو فيه عن ثغور المسلمين فلم يوجه لها عسكرا ولم تجد حركة العامة شيئا

١٣ - المعتز

هو أبو عبد الله المعتز بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد وأمه أم ولد اسمها قبيحة ولد سنة ٢٣١ وكان أبوه المتوكل جعله ولى عهده بعد المنتصر فلم تتم له الولاية لان المنتصر أرغمه علي ان خلع نفسه ولما ولى المستعين بعد المنتصر حبسه هو وأخاه المؤيد حتى كانت الفتنة بين قواد المستعين فاخرج المعتز وبويع وتم له الامر بعد خلع المستعين في رابع محرم سنة ٢٥٢ (٢٥ يناير سنة ٨٦٦) ولم يزل واليا الى أن خلع لثلاث بقين من رجب سنة ٣٥٥ (١١ يوليه سنه ٨٦٩) فكانت مدة خلافته بعد خلع المستعين ثلاث سنوات وستة أشهر و ٢٣ يوما

وزراء المعتز

لم يكن للوزارة في هذا العهد كبير شأن لانحطاط أمر الخلافة نفسها وقد كان الوزراء كتاب أموال فمن أمكنه ان يقوم بحاج كبار الأتراك ومقدميهم بقي في منصبه والا عزل وفعلت به الافاعيل

أول وزراء المعتز أبو الفضل جعفر بن محمود الاسكافي . لم يكن له علم ولا أدب، ولكنه كان يستميل القلوب بالمواهب والعطايا وكانت وزارته على غير رغبة المعتز لانه كان يكرهه وكان الاتراك فيه فريقين فثارت بسبب ذلك فتنة فعزل من أجل ذلك

وتولى الوزارة بعده عيسى بن فرخانشاه ولم يمكث الا قليلا حتى عزل بسبب فتنة كالاولى فولي بعده أحمد بن اسرائيل الانباري وهو كاتب حاذق ذكي وكان المعتز يميل اليه لانه كان يتولى له أموره قبل ان يلي الخلافة فمكث وزيرا الى سنة ٢٥٥ ومما يدل على قدر ما صار اليه سلطان الخليفة ومبلغ الفساد في أحوال الدولة الكيفية التى عزل بها أحمد بن اسرائيل عن الوزارة هو والكتاب الذين معه

دخل صالح بن وصيف مقدم الاتراك على المعتز وقال له يا أمير المؤمنين ليس للاتراك عطاء ولا في بيت المال مال وقد ذهب ابن اسرائيل وأصحابه بأموال الدنيا فقال له أحمد بن اسرائيل ياعاصى ياابن العاصى ثم لم يزالا يتراجعان الكلام بحضرة الخليفة حتى سقط صالح مغشيا عليه من شدة الغيظ والحرد فرش على وجهه الماء وبلغ ذلك أصحابه وهم على الباب فصاحوا صيحة واحدة واخترطوا سيوفهم ودخلوا على المعتز مصلتين فلما رأى ذلك المعتز دخل وتركهم وأخذ صالح بن وصيف أحمد بن اسرائيل الوزير والحسن بن مخلد كاتب قبيحة أم المعتز وأبانوح عيسى بن ابراهيم فقيدهم وطالبهم بالمال فقال المعتز لصالح قبل أن يحملهم هب لى أحمد فانه كاتبي وقد رباني فلم يفعل ذلك صالح وبعثت اليه أم المعتز في ابن اسرائيل تقول له اما حملته الى المعتز واما ركبت اليك فيه . فلم يفد هذا ولا ذاك شيئا . وهذا دليل على انحطاط عظيم فى أمر الخلافة وزاد صالح الامر شنعة فبعث الى جعفر بن محمود الاسكافي الذى كره المعتز ان يعمل له وولاه الوزارة رغم أنفه

واسكاف الذي ينتمى اليها جعفر بن محمود قرية من نواحي النهروان بين بغداد وواسط من الجانب الشرقى وهي اسكاف العليا وهناك اسكاف السفلى بالنهروان أيضاً

العلويون في عهد المعتز

فى عهد المعتز مات على الهادي بن محمد الجواد بن على الرضا وهو الامام العاشر من أئمة الشيعة الامامية فتولى الشيعة بعده ابنه الحسن العسكرى وهو الحادي عشر من أئمتهم وانما لقب بالعسكري لاقامته بسامرا التى كانت تدعى اذ ذاك بالعسكر

أما الزيدية فكانوا قد وجدت لهم دولة ببلاد طبرستان على يد الحسن بن زيد كما تقدم وقد اتهم جماعة من الطالبيين في بغداد والكوفة بالدعوة للحسن بن زيد ووجدت مع بعضهم كتب من الحسن فأمر المعتز بحملهم اليه بسامرا فحملوا اليه ولم يعرض المعتز لهم بمكروه وانما توثق منهم

حال الجيش والاتراك

استخلف المعتز وأحوال الجند والاتراك على شر ما يكون فهم أصحاب السلطان والنفوذ وهم فيما بينهم مختلفون لانه لا يد فوق أيديهم تقف كلا منهم عند حده ولا حيلة للخليفة الا مراعاة جانبهم حينا واعمال الحيلة والدسائس حينا وهكذا يفعل كل من سلب سلطانه ولا قدرة له على استرداده

في أول خلافة المعتز كتب باسقاط اسم وصيف وبغا وهما أكبر قواد الاتراك لما كان من مساعدتهما المستعين وكان هذا الكتاب مرسلا الى محمد بن عبد الله بن طاهر أمير بغداد فبلغ ذلك وصيفا وبغا فجا آالى محمد وقالا بلغنا أيها الامير ما عزم عليه القوم من قتلنا والقوم قد غدروا وخالفوا ما فارقونا عليه والله لو أرادوا أن يقتلونا ماقدروا فحلف لهم محمد بالله أنه لم يعلم بشيء من ذلك فذهب الرجلان وتحرزا وتكلم لهما عند المعتز من أرضاه عنهما ثم اجتمع الاتراك عند المعتز وسألوه الامر باحضارهما وقالوا هما كبيرانا ورئيسانا فكتب اليهما بالرضا عنهما فذهبا من بغداد الى سامرا فذهب لزيارتهما في منزلهما وزير المعتز أحمد بن اسرائيل وردهما المعتز الى مراتبهما رغم أنفه بناء على الحاح الاتراك وردت اليهما ضياعهما

كان من عناصر الجيش للهمة المغاربة وهم ممن اصطنع المعتصم كما اصطنع الاتراك رأى المغاربة ما عليه الاتراك من النفوذ والعلو فساءهم ذلك فاجتمع بعضهم الى بعض مع محمد بن راشد ونصر بن سعيد منهم وجاءوا الى الاتراك وهم بالجوسق من سامرا فغلبوهم عليه وأخرجوهم منه وقالوا لهم في كل يوم تقتلون خليفة وتخلعون آخر وتقتلون وزيرا وكانوا قد وثبوا على عيسى بن فرخانشاه الذي كان وزيرا للمعتز قبل أحمد ابن اسرائيل فتناولوه بالضرب وأخذوا دوابه

ولما أخرجت المغاربة الاتراك من الجوسق وغلبوهم على بيت المال أخذوا خمسين دابة مما كان الاتراك يركبونها فاجتمع الاتراك ولموا شعثهم فتلاقوا هم والمغاربة وكان يعين المغاربة الغوغاء والشاكرية فضعفت الاتراك وانقادوا للمغاربة فأصلح جعفر ابن عبدالواحد بين الفريقين على ألا يحدثوا شيئاً ويكون فى كل موضع فيه رجل من قبل أحد الفريقين يكون فيه آخر من الفريق الآخر فمكثوا على ذلك مدة ثم احتال الاتراك على محمد بن راشد ونصر بن سعيد اللذين اجتمع عليهما المغاربة حتى ظفروا بهما فقتلوهما والذى تولى ذلك بايكباك أحد كبار قواد الاتراك ولم يفعل المعتز فى ذلك شيئاً وعاد النفوذ الى الاتراك

وفي سنة ٢٥٣ شغب الاتراك والفراغنة والاشروسنية وطلبوا أرزاقهم لاربعة أشهر فخرج اليهم بغا ووصيف وسيما الشرابي فكلمهم وصيف وقال لهم ما تريدون قالوا أرزاقنا فقال خذوا ترابا وهل عندنا مال وقال لهم بغا نذهب فنستأمر أمير المؤمنين ومضى هو وسيما وبقي وصيف في أيديهم فوثب عليه بعضهم فضربه بالسيف ضربتين ووجأه آخر بسكين ثم أجهزوا عليه ونصبوا رأسه على محراك تنور

ولما علم بذلك المعتز لم يكن له من العمل الا أن جعل ما كان الى وصيف من الامور الى بغا الشرابى . خاف بغا من ان يكون له من هؤلاء يوم كيوم وصيف فصار يحض المعتز على المسير الى بغداد والمعتز يأبى عليه ذلك لخوفه ان يجرى عليه ماجرى على سلفه . وكان بايكباك كبير الاتراك ومقدمهم بعد بغا منحرفا عن بغا وكانا

متهاجرين وكان المعتز مع بايكباك يريد التخلص من بغا فجمع بايكباك جموعة وساعده لمعتز حتى تمكن من بغا فقتله ونصب رأسه بسامرا ثم ببغداد ووثبت المغاربة على جثته فأحرقوها بالنار وتتبع عبيد الله بن عبد الله بن طاهر بنيه ببغداد وكانوا صاروا اليها هرابا فحبس من ولده وأصحابه نحو ٢٥ شخصا وصارت الكلمة العليا في الاتراك وفي الدولة لصالح بن وصيف وبايكباك

كانت بغداد بعيدة عن الاضطرابات لامرين الاول بعد هؤلاء الغلف القلوب عنها والثاني وجود محمد بن عبد الله بن طاهر بها وهو رجل ذو عزم وأيد زيادة على ماله في نفس القوم من الهيبة ومع ذلك كله فقد مسها طائف من شيطان الاضطراب في سنة ٢٥٢ وذلك أن المعتز كتب الى محمد بن طاهر يأمره أن يبيع غلال بعض الضياع التى منها أرزاق جند بغداد وكتب الى والى البريد ببغداد يأمره أن يقرأ كتابه على من بها من القواد ففعل ذلك دون أن يعلم الامير ابن طاهر فلما قرىء الكتاب على القواد جاؤا الى ابن طاهر فخبروه الخبر فأحضر والى البريد وقال له ما حملك على هذا بغير علمى وتهدده على ذلك ثم اجتمعت الجنود البغدادية الى باب ابن طاهر تطالب أرزاقها فأخبرهم أن كتاب الخليفة ورد عليه جواب كتاب له كان كتبه بمسألة أرزاق جند بغداد – ان كنت فرضت الفروض لنفسك فأعطهم أرزاقهم وان كنت فرضت لنا فلا حاجة لنا فيهم — أعطاهم ابن طاهر ما سكنهم به وقتا ثم اجتمعوا في ١١ رمضان سنة ٢٥٢ ومعهم الاعلام والطبول وضربوا المضارب والخيم على باب حرب والشماسية وغيرهما وبنوا بيوتا من بوارى القصب وهكذا استعدوا للشغب على ابن طاهر كما يشغب أتراك سامرا على المعتز فجمع ابن طاهر الجند القادمين معه من خراسان وأعطاهم لشهرين وأعطى جند بغداد القدماء الفارس منهم دينارين والراجل دينارا وشحن داره بالرجال

اجتمع أهل الشغب وعليهم رجل يقال له عبدان بن الموفق وهو رجل قد اعتاد هذه الثورات وهو الذى كان يحض أهل الشغب على الطلب بأرزاقهم وفاتهم وضمن

لهم أن يكون رأسا يدبرهم وأن يعينهم بماله حتى ينالوا ما يطلبون . عزموا بعد اجتماعهم أن يحضروا الى الجامع فيمنعوا الخطيب من الدعاء للمعتز فذهبوا الى الامام وحظروا عليه ذلك فتعلل بالمرض ولم يذهب الى الجامع

وجه اليهم ابن طاهر قواده فى جماعة من الفرسان فكانت بين الفريقين حروب ووقائع غلب فيها المشغبون قواد ابن طاهر ثم فسد نظام جماعة المشغبين ووشى بعضهم بسائرهم فقبض على رؤسهم وعوقبوا أشد العقوبات وصلب رئيسهم عبدان بن الموفق وبذلك انتهى هذا الاضطراب وعادت أحوال بغداد الى ما كانت من الامن

وفي ١٤ ذى القعدة سنة ٢٥٣ توفي الامير محمد بن عبد الله طاهر أمير بغداد واستخلف على امارته أخاه عبيد الله بن عبد الله بن طاهر وهذه نسخة وصيته :—

أما بعد فقد استخلفت عبيد الله بن عبد الله مولى أمير المؤمنين أخي الموثوق باقتفائه أثرى وأخذه بسد ما أنا بسبيله من سلطان أمير المؤمنين الى أن يأتيه من أمره مايعمل بحسبه فاعلم ذلك وأتمر فيما تتولاه بما يرد به كتب عبيد الله وأمره ان شاء الله وكتب يوم الخميس لثلاث عشرة خلت من ذى القعدة سنة ٢٥٣ وقد أقره المعتز على هذه الولاية وعاش عبيد الله الى سنة ٣٠٠ وهى سنة وفاته

خاتمة المستعين سلف المعتز

قدمنا ان المعتز كتب للمستعين شروطا عند خلعه منها تأمينه على حياته وقد أكدوا فى هذا الكتاب تأكيدا شديدا وارتضى ان يقيم بالبصرة فقيل له ان البصرة وبية فكيف اخترت ان تنزلها فقال المستعين هى أوبأ أو ترك الخلافة . فأشخص المستعين مع محمد بن مظفر بن سيسل وابن أبي حفصة الى واسط لا الى البصرة فى نحو ٤٠٠ من الفرسان وقبل ان تنتهى السنة بدا للمعتز فعزم على قتل المستعين ولم يبال بكتاب الامان فأرسل الى ابن طاهر يأمره ان يكتب الى عامل البصرة ان يسلم المستعين لمن ندبه المعتز لاستلامه وهو أحمد بن طولون التركى فأخرج المستعين من واسط لست بقين من شهر رمضان فوافى به القاطول لثلاث خلون من

شوال فتسلمه منه سعيد بن صالح وكان فى ذلك ختام حياة المستعين وكيفية قتله مبهمة مختلف فيها كثيرا وأتي المعتز فيما قيل برأسه وهو يلعب الشطرنج فقيل هـذا رأس المخلوع فقال ضعوه هنالك ثم فرغ من لعبه ودعا به فنظر اليه ثم أمر بدفنه وأجاز سعيد ابن صالح بخمسين الف درهم وولى معونة البصرة

وكما لم يأبه المعتز بكتابه أمان المستعين وقتله كذلك لم يأبه لعهد أخيه ابراهيم المؤيد ولا لسابقة أخيه أبي أحمد بن المتوكل وهو الذي قاد الجيش الى بغداد وحصرها حتى أسقط المستعين من عرش الخلافة فانه خلع الاول من ولاية العهد وحبسه ثم أماته وحبس الثانى وضيق عليه وسبب ذلك ان عامل أرمينية العلاء بن أحمد بعث الى ابراهيم المؤيد بخمسة آلاف دينار ليصلح بها أمره فبعث ابن فرخانشاه الوزير اليها فاخذها فاغري المؤيد الاتراك بابن فرخانشاه وخالفهم المغاربة وكانت فتنة فبعث المعتز الى أخويه المؤيد وأبى أحمد فحبسهما في الجوسق وقيد المؤيد وصيره فى حجرة ضيقة ثم خلعه عن ولاية العهد يوم الجمعة ٧ رجب سنة ٢٥٢

و بعد هذا الحبس والتضييق والخلع بلغ المعتز ان الاتراك يريدون اخراجه من سجنه فارسل الى موسى بن بغا فسأله فانكر وقال انما أرادوا أن يخرجوا أبا أحمد بن المتوكل لانسهم به كان فى الحرب التى كانت وأما المؤيد فلا . فاغرى ذلك المعتز باخيه فعمل على موته بدون أثر ظاهر وحول أبو أحمد الى الحجرة التى كان فيها المؤيد ثم نفاه سنة ٢٥٤ الى واسط ثم الى البصرة ثم رد الى بغداد وانزل الى الجانب الشرقى فى قصر دينار بن عبد الله

خلع المعتز

لما أخذ صالح بن وصيف الكتاب على الشكل الذى أوضحناه قبل في تاريخ الوزراء لم يجد عندهم من المال ما يسد مطامعه ومطامع الجنود الذين معه فذهبت الجنود الى المعتز وقالوا له اعطنا ارزاقنا حتى نقتل لك صالح بن وصيف فارسل المعتز الى أمه ذات الثروة الطائلة يسألها ان تعطيه مالا ليعطيهم فابت ان تعطيه شيئا

وأنكرت ان يكون عندها شيء ولما وجد الاتراك ان المعتز وأمه قد امتنعا ان يسمحا لهم بشيء وبيت المال خال اتحدت كلمة الاتراك والفراغنة والمغاربة على خلع المعتز فصاروا اليه لثلاث بقين من رجب فلم يرعه الاصياح القوم واذا صالح بن وصيف وبايكباك ومحمد بن بغا قد دخلوا عليه في السلاح فجلسوا على باب المنزل الذي ينزله المعتز ثم بعثوا اليه أخرج الينا فبعث اليهم اني أخذت الدواء أمس وقد أجفلني اثنتى عشرة مرة ولا أقدر على الكلام من الضعف فان كان أمرا لابد منه فليدخل الى بعضكم فليعلمني فدخل اليه القوم فجروا برجله الى باب الحجرة وتناولوه كما قيل ضربا بالدبابيس فخرج وقميصه مخرق فى مواضع وآثار الدم على منكبه فأقاموه فى الشمس في الدار في وقت شديد الحر فصار يرفع قدمه ساعة بعد ساعة من حرارة الموضع الذى قد أقيم فيه ثم بعثوا الى قاضى القضاة فحضر وأمر المعتز أن يمضى على كتاب خلع كتب له فامضى وشهد عليه الحاضرون . ويقال انه بعد الخلع دفع الى من يعذبه ومنع الطعام والشراب ثلاثة أيام فطلب حسوة من ماء البئر فمنعوه حتى مات وهكذا انتهت حياة هذا الخليفة البائس الذى سعى كثيرا للحصول على هذه الخلافة وركب فى سبيل الخلاص ممن توهمهم مزاحمين له مالا يجوز من خليفة ولا من سوقة فقتل المستعين وخلع أخاه ثم قتله ونفى أخاه الثانى كل ذلك لتهنأ له الخلافة فلم ينل ما أراد بسبب الفساد المستحكم في الدولة وقال بعض شعراء العصر فى ذلك

عين لا تبخلى بسفح الدموع — واندبي خير فاجع مفجوع
خانه الناصح الشفيق ونالتـــه أكف الردى بحتف سريع
بكر الترك ناقمين عليــه — خلعتــه أفديه من مخلوع
قتلوه ظلمـا وجورا فألفو — ه كريم الاخلاق غير جزوع
كان يغشى بحسنه بهجة البـد — ر فتلقاه مظهرا للخضوع
وترى الشمس تستكين فلا تشر — ق اما رأته وقت الطلوع
لم يهابوا جيشا ولا رهبوا السيـــف فلهفي على القتيل الخليع

أصبح الترك مالكى الامر والعا لم ما بين سامع ومطيع
وترى الله فيهم مالك الامـــــر سيجزيهـم بقتـل ذريع

وقال آخر من قصيدة

أصبحت مقلتى تسح الدموعا اذ رأت سـيد الانام خليعا
لهف نفسى عليه ما كان أملا ه واسراه تابعـا متبوعا
ألزموه ذنبا على غـير جرم فثوي فيهم قتيلا صريعا
وبنو عمـه وعم أبيـه أظهروا ذلة وأبدوا خضوعا
ما بهذا يصح ملك ولا يغـــزي عدو ولا يكون جميعا

وكان المعتز أول خليفة أظهر الركوب بحلية الذهب وكان من سلف قبله من خلفاء بني العباس وكذلك جماعة من بنى أمية يركبون بالحلية الخفيفة من الفضة والمناطق واتخاذ السيوف والسروج واللجم فلما ركب المعتز بحلية الذهب اتبعه الناس فى فعل ذلك

١٤ — المهتدى

هو محمد المهتدى بالله بن هرون الواثق بن المعتصم بن الرشيد وأمه أم ولد رومية يقال لها قرب ولد سنة ٢١٨ وبويع له بالخلافة بعد ان خلع المعتز نفسه لثلاث بقين من رجب سنة ٢٥٥ (١١ يوليه سنة ٨٦٩) ولم يزل خليفة الى أن خلع في ١٤ رجب سنة ٢٥٦ (١٧ يونيه سنة ٨٧٠) فكانت مدته ١١ شهرا وأياما

كيف انتخب

لما عزم الاتراك على خلع المعتز أرسلوا الى بغداد فاحضروا محمدا هذا وقد كان المعتز نفاه اليها واعتقله فيها فأتى به في يوم وليلة الى سامرا فتلقاه الموالى في الطريق

ودخل الى الجوسق فعرضوا عليه الخلافة فأبى ان يقبلها حتى يرى المعتز ويسمع كلامه فأتى بالمعتز وعليه قميص مدنس وعلى رأسه منديل فلما رآه محمد وثب اليه فعانقه وجلسا جميعا على السرير فقال له محمد يا أخي ماهذا الامر قال المعتز أمر لا أطيقه ولا أقوم به ولا أصلح له فأراد محمد ان يتوسط أمره ويصلح الحال بينه و بين الاتراك فقال المعتز لا حاجة لى فيها ولا يرضونى لها فقال محمد فانا في حل من بيعتك قال أنت في حل فلما جعله في حل من بيعته حول وجهه عنه فأقيم عن حضرته ورد الى محبسه وكان من أمره ما قدمنا

وزراء المهتدى

أبقى المهتدى محمود بن جعفر الاسكافى على وزارته مدة قليلة ثم عزله واستوزر من بعده سليمان بن وهب بن سعيد . وهو من بيت قديم في الكتابة منذ عهد معاوية ابن أبى سفيان وكان جده سعيد في خدمة آل برمك وكان أبوه وهب فى خدمة جعفر بن يحيى البرمكي ثم تحول الى ذى الرياستين الفضل بن سهل وهو القائل فيه عجبت لمن معه وهب كيف يهمه نفسه ثم استكتبه الحسن بن سهل بعده . أما سليمان فكتب للمأمون وعمره ١٤ سنة ثم لايتاخ ثم لاشناس وولى الوزارة للمهتدي وللمعتمد وكان أخوه الحسن بن وهب يكتب لمحمد بن عبد الملك الزيات ومن طريف المدح ما قاله أبو تمام في سليمان بن وهب

كل شعب كنتم به آل وهب ... فهو شعبى وشعب كل أديب

ان قلبى لكم لكالكبد الحر ... ى وقلبى لغيركم كالقلوب

وقال فيه البحترى

كأن آراءه والحزم يتبعها ... تريه كل خفى وهو اعلان

ما غاب عن عينه فالقلب يكلؤه ... وان تنم عينه فالقلب يقظان

وكان سليمان أحد كتاب الدنيا ورؤسائها فضلا وأدبا وكتابة فى الدرج والدستور وأحد عقلاء العالم وذوى الرأى منهم واستمر وزيرا للمهتدى الى أن خلع

حدث عبد الله الباقطانى وكان يتقلد ديوان المشرق قال دخلت مع أبي العباس ابن ثوابة الى المهتدى وكان سليمان بن وهب وزيره وكان يدخل اليه الوزير وأصحاب الدواوين والعمال والكتاب فيعملون بحضرته فيوقع اليهم في الاعمال فأمر سليمان أن يكتب عنه عشرة كتب مختلفة الى جماعة من العمال فأخذ سليمان بيد أبى العباس ابن ثوابة ثم قال له أنت اليوم أحد ذهنا منى فهلم نتعاون فدخلا بيتا ودخلت معهما وأخذ سليمان خمسة أنصاف وأبو العباس خمسة أنصاف أخر فكتبا الكتب التى أمر بها سليمان ما احتاج أحدهما الى نسخة وقد أكمل كل واحد منهما ما كتب به صاحبه فاستحسنه وقرظه ثم وضع سليمان الكتب بين يدى المهتدى فقال له وقد قرأها أحسنت ياسليمان ونعم الرجل أنت لولا المعجل والمؤجل وكان سليمان اذا ولى عاملا أخذ منه مالا معجلا وأجل له مالا الى أن يتسلم عمله فقال له يا أمير المؤمنين هذا قول لا يخلو من أن يكون حقا أو باطلا فان كان باطلا فليس مثلك من يقوله وان كان حقا وقد علمت أن الاصول محفوظة فما يضر من يساهمنى من عمالى على بعض ما يصل اليهم من بر من غير تحيف للرعية ولا نقص للاموال . فقال اذا كان هكذا فلا بأس . ثم قال له اكتب الى فلان العامل بقبض ضيعة فلان المصروف المعتقل في يده بباقى ما عليه من المصادرة فقال له أبو العباس بن ثوابة كلنا يا أمير المؤمنين خدمك وأولياؤك وكلنا حاطب فى حبلك وساع فيما أرضاك وأيد ملكك أفنمضى ما تأمر به على ما خيلت أم نقول بالحق قال بل قل بالحق يا أحمد فقال يا أمير المؤمنين الملك يقين والمصادرة شك أفترى أن أزيل اليقين بالشك قال لا قال فقد شهدت للرجل بالملك وصادرته عن شك فيما بينك وبينه وهل خانك أم لا فتجعل المصادرة صلحا فاذا قبضت ضيعته بها فقد أزلت اليقين بالشك فقال له صدقت ولكن كيف الوصول الى المال فقال له أنت لا بد لك من عمال على أعمالك وكلهم يرتزق ويرتفق فيحوز رفقه ورزقه الى منزله فاجعله أحد عمالك ليصرف هذين الوجهين الى ما عليه ويسعفه معاملوه فيتخلص بنفسه وضيعته ويعود اليك مالك فأمر سليمان به وهب أن يفعل ذلك

وقد سقنا هـذه الحكاية لنبين ما كان عليه العمال اذ ذاك من تحليل الارتفاق واقامة البرهان بين يدى الخليفة على جوازه وليس ارتفاق العامل الا رشوة وما هـذا المعجل والمؤجل الذى لا حظ المهتدى على وزيره أليس هو رشوة ومع ذلك نراه احتج له وأقنع خليفته بانه لا ضرر فيه وكذلك قول ابن ثوابة فهو حق شيب بباطل وباطل أشبه الحق

صفات المهتدى

كان المهتدى من صالح بني العباس يكره الظلم ويحب رفعه وبني قبة لهـا أربعة أبواب وسماها قبة المظالم وجلس فيها للعام والخاص للمظالم وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر وحرم الشراب ونهيٰ عن القيان وأظهر العدل وكان يحضر كل جمعة الى المسجد الجامع ويؤم بهم وكان فيه ديانة وتقشف حتى أن الجند تأسوا به الا أن الدولة كانت وصلت الى الدرجة التى لا يصلحها فيها مثل المهتدى فى صلاحه وكثرة عبادته

في بدء خلافته كان موسى بن بغا أميرا علي الرى وقائدا للجنود التى تتولى حرب الحسن بن زيد الطالبى فلما بلغه مافعل صالح بن وصيف بالمعتز و بيعة المهتدي ترك ذلك الثغر وأقبل مريدا سامرا فكتب الخليفة اليه كتبا كثيرة يطلب اليه بها البقاء بموضعه فلم يفعل ثم أرسل اليه فى ذلك رسلا من بنى هاشم فلم يطع وكان صالح بن وصيف يتخوف عودة موسى فكان يعظم انصرافه عن الثغر وينسبه الي المعصية والخلاف . قدم موسى سامرا حنقا على صالح فاختفى منه ودخلت جنود موسى على المهتدى وهو جالس للمظالم فأقاموه من مجلسه وحملوه الى معسكرهم فقال لموسى ما تريد ويحك اتق الله وخفه فانك تركب أمرا عظيما فرد عليه موسى خيرا ثم أخذوا عليه العهود والمواثيق ألا يمالئ صالحا عليهم ففعل فجددوا له البيعة في ١٢ محرم سنة ٢٥٦ ولثمان بقين من صفر قتل صالح بن وصيف بعد خطوب طويلة وكان أصحاب موسى قد اتهموا المهتدى باخفائه فأرادوا خلعه فانتشر الخبر في العامة فكتبوا رقاعا القوها في المسجد الجامع وفي الطرقات ونص هذه الرقاع (بسم الله الرحمن الرحيم

يامعشر المسلمين ادعوا الله لخليفتكم العدل الرضا المضاهي لعمر بن الخطاب أن ينصره على عدوه ويكفيه مؤنة ظالمه ويتم النعمة عليه وعلى هذه الامة ببقائه فان الموالي قد أخذوه بأن يخلع نفسه وهو يعذب منذ أيام والمدبر لذلك فلان وفلان رحم الله من أخلص النية ودعا وصلى على محمد صلى الله عليه وسلم) فلما بلغ ذلك الاتراك خافوا ثورة العامة فأرسلوا الى المهتدى يخبرونه أنهم يبذلون دماءهم دونه وشكوا مع ذلك سوء حالهم وتأخر أرزاقهم وماصار من الاقطاعات الى قوادهم التى قد أجحفت بالضياع والخراج وما صار لكبرائهم من المعاون والزيادات من الرسوم القديمة مع أرزاق النساء والدخلاء الذين قد استغرقوا كثيرا من أموال الخراج . وهذه الشكوى كانت في الحقيقة بدء انقلاب جديد لو وجدت خليفة قويا ينتفع بها لانها عبارة عن تغير الجند على قوادهم الذين أقطعوا ضياعا كثيرة لم يلتفتوا الى اصلاحها فخربت وأدى ذلك الى نقصان الخراج حتى لم يكن عند الخليفة مايسد به حاجة الجند

كتب اليهم المهتدى يذكر سروره من طاعتهم وأخبرهم أنه يعز عليه ماذكروا من حاجتهم ولكن ليس لديه ما يرفع عنهم هذه الحلة وأنه سينظر فى أمر الاقطاعات ويسير فيها على ما يحبون . فأعادوا عليه الكتاب مبينين ما يطلبون وهو

(١) أن ترد الامور الى أمير المؤمنين في الخاص والعام ولا يعترض عليه معترض

(٢) أن ترد رسومهم الى ما كانت عليه أيام المستعين وهو أن يكون على كل تسعة عريف منهم وعلى كل خمسين خليفة وعلى كل مائة قائد

(٣) ألا يدخل مولى فى قبالة ولا غيرها

(٤) أن يوضع لهم العطاء كل شهرين على مالم يزل

(٥) أن تبطل الاقطاعات وأن يكون أمير المؤمنين يزيد من شاء ويرفع من شاء

وذكروا انهم سيصيرون الى باب أمير المؤمنين حتى تقضى حوائجهم وانه ان بلغهم أن أحدا اعترض على أمير المؤمنين في شيء من الامور أخذوا رأسه وان سقط من رأس أمير المؤمنين شعرة قتلوا به موسى بن بغا وبايكباك ومفلحا وياجور وبكالبا وغيرهم

وهذه المطالب كلها في مصلحة الخلافة لذلك أجابهم اليها المهتدي موقعا بخطه اجابة الى كل ما سألوا — فوصلهم كتابه وفيه اعتذار عن رؤسائهم ومع كتابه رسل هؤلاء الرؤساء يعتذوون اليهم

فأعادوا الكتاب يقولون لا نرضى حتى يخرج الخليفة خمس توقيعات بطلباتهم ثم يصير أمير المؤمنين الجيش الى أحد اخوته أو غيرهم ليسفر بينهم وبينه بأمورهم ولا يكون رجلا من الموالى وأن يحاسب الرؤساء على ماعندهم من الاموال . وكتبوا الى القواد بمثل ما كتبوا به الى المهتدي وأخبروهم أنه ان شاكته شوكة أو أخذ منه شعرة أخذوا رؤسهم جميعا

فلما جاء كتابهم المهتدى كتب لهم بكل مايريدونه ودفع لهم التوقيعات الخمس التى طلبوها وكذلك كتب لهم موسى بن بغا . فلما وصلتهم الكتب والتوقيعات كان بينهم اختلاف وهرج كثير فطائفة يقولون نريد أن يعز الله أمير المؤمنين ويوفر علينا أرزاقنا فانا قد هلكنا بتأخيرها عنا — وطائفة يقولون لا نرضى حتى يولى علينا أمير المؤمنين أحد اخوته فيكون واحد بالكرخ وآخر بسامرا ولا نريد أحدا منا يكون علينا رأسا ولم يكتبوا للمهتدى جوابا شافيا — فأرسل اليهم المهتدى يسألهم عن سبب اجتماعهم بعد ان أجيبت طلباتهم فتفرقوا ثم عادوا الى الاجتماع

كانت كل هذه الاحوال فرصا لخلاص المهتدى من سيادة القواد الاتراك فلم يفعل بل كان ظاهره مع الرؤساء وباطنه مع الجنود ويظهر انه أراد استعمال الحيلة في الخلاص منهم فأنفذ جندا لمحاربة خارجي وفيه موسى بن بغا وبايكباك ومفلح فكتب المهتدى الي بايكباك يأمره أن يضم العسكر الذى مع موسى الى نفسه وان يكون هو أمير الجيش وان يقتل موسى ومفلحا — فلما وصل الكتاب بايكباك ذهب الى موسى وأراه اياه وقال له اني لست أفرح بهذا وانما هو تدبير علينا جميعا واذا فعل بك اليوم شيء فعل بى غدا مثله فما ترى قال أرى ان تصير الى سامرا وتظهر له أنك في طاعته فانه يطمئن اليك ثم تدبر فى قتله فقدم بايكباك فدخل على المهتدى فأظهر

المهتدى الغضب من مخالفته حيث لم يقتل موسى ومفلحا فاعتذر اليه بايكباك فاحتبسه المهتدي عنده وأخذ سلاحه ولما رأى الجند الذين معه غيبته عنهم جاشوا وأحاطوا بالجوسق فلما رأى المهتدى ذلك استشار صالح بن على بن يعقوب بن المنصور فأشار عليه أن يفعل ما فعله المنصور بأبى مسلم فأمر المهتدي بضرب عنق بايكباك فضرب عنقه والاتراك مطيفون بالجوسق بسلاحهم فلم يرعهم الا رأس بايكباك بين أيديهم أمر المهتدى برميها اليهم فلما رأوها اضطربوا واستعدوا للقتال فحاربتهم الفراغنة والمغاربة والاشروسنية وكثر بينهم القتل ثم انفصل الفريقان وذهب الاتراك فقووا أنفسهم وجاء منهم زهاء عشرة آلاف وخرج المهتدى وفي عنقه مصحف يدعو الناس الى نصرته فلما التحم القوم مال الاتراك الذين مع المهتدى الى اخوانهم وبقى في المغاربة والفراغنة ومن خف من العامة فحملت عليهم الاتراك حملة شديدة فمروا منهزمين معهم المهتدى والسيف في يده مشهور وهو يقول يامعشر الناس انصروا خليفتكم — حتى صار الى دار محمد بن يزداد وفيها أحمد بن جميل صاحب الشرطة فدخلها ووضع سلاحه فعلم الاتراك خبره فجاؤا اليه وقبضوا عليه وحملوه الى داره مهانا وذلك في ١٤ رجب سنة ٢٥٦ ثم خلعوه لما أبى أن يخلع نفسه ثم مات لاثنتى عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ٢٥٦

١٥ - المعتمد

هو أحمد المعتمد على الله بن المتوكل بن المعتصم وأمه أم ولد كوفية اسمها فتيان ولد سنة ٢٣١ وبويع له بالخلافة من غير عهد سابق يوم الثلاثاء لاربع عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ٢٥٦ (١٩ يونيه سنة ٨٧٠) ولم يزل خليفة حتى توفى ليلة الاثنين لاحدي عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ٢٧٩ (١٥ أكتوبر سنة ٨٩٢) فكانت مدته ٢٣ سنة وثلاثة أيام وكان يعاصره في الاندلس محمد بن عبد الرحمن المتوفى سنة ٢٧٣ ثم ابنه المنذر بن محمد (٢٧٣-٢٧٥) ثم عبد الله بن محمد (٢٧٥ - ٣٠٠)

وفي أفريقية وصقلية من الاغالبة محمد بن أحمد بن الاغلب المتوفي سنة ٢٦١ ثم أخوه ابراهيم المتوفي سنة ٢٨٩

وفي اليمن من آل زياد بزبيد ابراهيم بن محمد بن ابراهيم (٢٤٥ - ٢٨٩)

وفى اليمن من آل الحوالي بصنعاء محمد بن يعفر (٢٥٩ - ٢٧٩)

وفى خراسان من آل طاهر محمد بن طاهر بن عبد الله بن طاهر (٢٤٨ - ٢٥٩) وهو آخر الامراء الطاهرية بخراسان

ويعاصره فى طبرستان الحسن بن زيد (٢٥٠ - ٢٧٠) ثم أخوه محمد بن زيد (٢٧٠ - ٢٧٩)

ويعاصره في بلاد الروم بالقسطنطينية الملك بسيل الصقلبى (٨٦٧ - ٨٨٦) ثم لاون السادس الملقب بالفيلسوف (٨٨٦ - ٩١١)

ويعاصره في فرنسا شارل الملقب بالاصلع(٨٤٠-٨٧٧) ثم لويز الثانى الملقب بالتمتام الى سنة ٨٧٩ ثم لويز الثالث الى سنة ٨٨٢ ثم كارلومان الى سنة ٨٨٤ ثم شارل الملقب بالغليظ الى سنة ٨٨٧ وكان أمبراطور المانيا أيضا ثم أودون الذى توفى سنة ٨٩٨

الاحوال الداخلية

كانت نتيجة طلبات الاتراك أن يتولى أمر الجيش أحد اخوة أمير المؤمنين وألا يرأسهم أحد منهم لما كان بينهم من الخلاف والمنافسة ان ولى المعتمد أخاه أبا أحمد طلحة بن المتوكل أمر الجيش والولايات فولاه في صفر سنة ٢٥٧ الكوفة وطريق مكة والحرمين واليمن ثم ولاه فى رمضان من هذه السنة بغداد والسواد وكور دجلة والبصرة والاهواز وفارس . وفى ربيع الاول سنة ٢٥٨ عقد له على ديار مضر وقنسرين والعواصم فصار السلطان الفعلى لابي أحمد لا للخليفة وصارت كلمة أبى أحمد هى العليا على الاتراك وقوادهم فكان ذلك مما حسن الاحوال العامة بعض التحسين وان كانت ساءت أحوال المعتمد نفسه لانه لم يترك له شيء من التصرف حتى انه احتاج في بعض الاحيان الى ثلاثمائة دينار فلم يجدها فقال

ألیس من العجائب ان مثلى يرى ما قل ممتنعا عليه
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعا وما من ذاك شيء في يديه
اليه تحمل الاموال طرا ويمنع بعض ما يجبى اليه

كان أبو أحمد الموفق بن المتوكل رجلا صاحب عزيمة ثابتة ومحبة للغلب والسلطان وعلى يديه تمت الحوادث الجسام فى عهد المعتمد وسنقتصها بعد ان نذكر اجمال الوزارة لعهده

كان الذى يولى الوزراء هو أبو أحمد الموفق لان المعتمد لم يكن له الا الخطبة والسكة والاسم وما عدا ذلك فهو لاخيه

كان أول الوزراء عبيد الله بن يحيى بن خاقان وقد قدمنا ذكره اذ كان وزيرا للمتوكل ولما عرضت عليه الوزارة كرهها وتنصل منها ولكنهم أبوا الا اياه فرضى بعد ذلك الاباء وكان عبيد الله خبيرا بأحوال الرعايا والاعمال ضابطا للاموال ولم يزل وزيرا الى سنة ٢٦٣ حيث مات بسقوطه عن دابته في الميدان وصلى عليه أبو أحمد ابن المتوكل ومشي في جنازته

استوزر بعده الحسن بن مخلد وكان كاتبا لابى أحمد الموفق فاجتمعت له وزارة المعتمد وكتابة الموفق . وأصله من ديرقني وكان أحد كتاب الدنيا قالوا كان له دفتر صغير يعمله بيده فيه أصول أموال المملكة ومحمولاتها بتاريخها فلا ينام كل ليلة حتى يقرأه ويتحقق ما فيه بحيث لو سئل في الغد عن أى شىء كان منه أجاب من خاطره بغير توقف ولا مراجعة دستور . ولم يمكث في وزارة المعتمد كثيرا فان مدته لا تزيد على ١٦ يوما من ١١ ذى القعدة سنة ٢٦٣ الى ٢٧ منه وذلك لقدوم موسى بن بغا أحد كبار قواد الاتراك فانه لم يكن على وفاق معه فهرب الى بغداد عقب حضوره

ولي الوزارة بعده سليمان بن وهب وهو الذي كان وزيرا للمهتدى وقد قدمنا صفته وبيته وولى عبد الله بن سليمان كتابة أبى أحمد الموفق الي ما كان له قبل ذلك من كتابة موسى بن بغا

وفي سنة ٢٦٤ خرج سليمان بن وهب من بغداد الى سامرا حيث يقيم الخليفة فلما صار بها غضب عليه المعتمد وحبسه وقيده وانتهب داره ودارى ابنيه وهب وابراهيم وأعاد الى الوزارة الحسن بن مخلد لثلاث بقين من ذى القعدة فلما علم بذلك الموفق شخص من بغداد ومعه عبد الله بن سليمان فلما قرب من سامرا تحول المعتمد الى الجانب الغربي فعسكر به ونزل أبو أحمد ومن معه جزيرة المؤيد واختلفت الرسل بينهما . ولما كان بعد أيام خلون من ذى الحجة صار المعتمد الى حراقة في دجلة وصار اليه أخوه أبو أحمد فى زلال فخلع المعتمد عليه وعلى من معه من القواد وفي ثامن ذي الحجة عبر جند أبي أحمد الى جند المتوكل على وفاق وأطلق سليمان بن وهب ورجع المعتمد الى الجوسق وهرب الحسن بن مخلد وأحمد بن صالح بن شيرزاد وكتب فى قبض أموالهما وأموال أسبابهما

ولم يدم رضا أبي أحمد طويلا عن سليمان بن وهب فانه غضب عليه سنة ٢٦٥ وأمر بحبسه وحبس ابنه عبد الله فحبسا وعدة من أسبابهم فى دار أبي أحمد وانتهبت دور عدة من أسبابه ووكل بحفظ دارى سليمان وابنه عبد الله وأمر بقبض ضياعهما

وأموالهما وأموال أسبابهما وضياعهما خلا أحمد بن سليمان ثم صولح سليمان وابنه عبد الله على ٩٠٠٠٠٠ دينار وصيرا في موضع يصل اليهما من أحبا

وقد مات سليمان بن وهب فى حبس أبى أحمد سنة ٢٧٢

ولى الوزارة بعده للمعتمد أبو الصقر اسماعيل بن بلبل وهو عربي ينتسب الى شيبان ولكن نسبه كان مغموزا ومن مساورة الظنون للمتهم ان ابن الرومى الشاعر مدح أبا الصقر بقصيدة نونية مطلعها

أجنت لك الوصل أغصان وكثبان فيهن نوعان تفاح ورمان

يقول فيها :

قالوا أبو الصقر من شيبان قلت لهم كلا لعمرى ولكن منه شيبان
كم من أب قد علا بابن له شرفا كما علا برسول الله عدنان

فلما سمع أبو الصقر قوله قلت لهم كلا ظن ان ابن الرومى قد هجاه بذلك باطنا وانه عرض بانه دعى واشتبه على أبي الصقر الامر فاستحكم ظنه فاعرض عنه وتوصل ابن الرومى الى افهامه معني الشعر فلم يقبل فى ذلك قول قائل وقيل له ياسبحان الله فانظر الى البيت الثانى وحسن معناه فانه معنى مخترع ما مدح أحد بمثله قبلك فلم يصغ وجزم بان ابن الرومى هجاه فكان ذلك داعيا الى أن سل ابن الرومى عليه لسانه وهجاه فافحش في هجائه ومما هجاه به قوله

مهلا أبا الصقر فكم طائر خر صريعا بعد تحليق
زوجت نعمى لم تكن كفؤها فصانها الله بتطليق
لا قدست نعمى تسربلتها كم حجة فيها لزنديق

وكان أبو الصقر كريما مطعاما متجملا وبلغ في الوزارة مبلغا عظيما وجمع له السيف والقلم فنظر في أمر العساكر أيضا وسمى الوزير الشكور

وفي سنة ٢٧٨ قبض على أبى الصقر وأسبابه وانتهبت منازلهم وخلع بعد ذلك على عبيد الله بن سليمان بن وهب وولى الوزارة وكان من كبار الوزراء ومشايخ الكتاب وقد مر ذكر أبيه سليمان وبيته وبيت وهب

ومن خدموا فى كتابة الموفق أبو أحمد صاعد بن مخلد خلع عليه سنة ٢٦٥ واستعمله الموفق فى قود الجيوش مع الكتابة ومن أجل ذلك سمى ذا الوزارتين سنة ٢٧٠ وقبض عليه الموفق سنة ٢٧٢ وعلى ابنيه أبي عيسى وأبى صالح وعلى أخيه عبدون

وعلى الجملة فان أحوال الوزارة كانت لذلك العهد مضطربة جدا وقد استوزر بعض من سمينا من الوزراء أكثر من مرة

العلويون

فى عهد المعتمد على الله توفى أبو محمد الحسن العسكرى بن على الهادى بن محمد الجواد بن على الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن على وهو الحادى عشر من أئمة الشيعة الامامية الاثنى عشرية والذين في عمود نسبه الى على بن أبي طالب تسعة أئمة والعاشر هو الحسن بن على وكانت وفاة الحسن العسكرى سنة ٢٦٠ بسامرا ودفن بها بجانب أبيه على الهادى . ولما توفى اختلفت الشيعة بعده اختلافا كثيرا وجمهورهم على ان الامام بعده ابنه محمد العسكري وهو الثاني عشر من أئمتهم قالوا انه دخل سردابا فى دار أبيه بسامرا وأمه تنظر اليه فلم يخرج اليها وسيظهر فيملأ الدنيا عدلا كما ملئت جورا ويسمونه المنتظر والقائم والمهدي والشيعة ينتظرون خروجه من ذلك السرداب

ويقول غيرهم ان الحسن العسكرى لم يعقب وان سلسلة الائمة انقطعت بوفاته وبعضهم يتولى أخاه جعفر بن علي

لم يسكت الذين يريدون الانتفاع من التشيع وتأثر جمهور المسلمين به بل وجهوا وجوههم شطر فرع آخر من فروع جعفر الصادق فقد كان له سبعة من الاولاد منهم عبد الله الافطح ومحمد وموسى واسماعيل

فقال قوم ان الامامة بعد جعفر لابنه عبد الله الافطح لانه أسن أولاد الصادق وزعم بعضهم ان جعفرا نص على امامته بعده ومع ذلك فانه لم يعش بعد أبيه الا سبعين يوما ولم يعقب ولدا ذكرا

وقال قوم ان الامامة من بعده لابنه محمد ورووا عنه انه قال انّ صاحبكم اسمه اسم نبيكم.

وقال قوم منهم الاثنا عشرية الذين ذكرناهم ان الامامة من بعده لابنه موسى ورووا عنه انه قال سابعكم قائمكم واجتمع عليه جمهور الشيعة وساقوا الامامة فى أولاده كما بينا

ومنهم من قال ان الامام بعد جعفر ابنه اسماعيل نصا عليه من أبيه جعفر ثم اختلفوا فمن قائل انه عاش بعد أبيه ومن قائل انه مات في حياة أبيه وفائدة النص بقاء الامامة فى أولاده دون غيره وساقوا الامامة من بعده الى ابنه محمد ويقال لهؤلاء الشيعة الاسماعلية نسبة الى اسماعيل بن جعفر الصادق وهم امامية يتفقون مع الامامية الاثنى عشرية في المبدأ العام للتشيع الامامى وهو أنه لابد للناس من امام معصوم يبلغهم الشريعة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وان الشريعة لا تؤخذ بالرأى ويتفقون معهم على امامة الستة من على بن أبي طالب الى جعفر الصادق ومنه يبتدىء الاختلاف فالاثنا عشرية ذهبوا الى فرع موسى الكاظم والاسماعيلية ذهبوا الى فرع اسماعيل

ولما كان الامام هو حجة الله على خلقه وانه لابد من وجوده ليؤدى ما نيط به من تبليغ الشريعة وأحكامها ورأوا أنه لم يقم أحد من ولد اسماعيل بالظهور للناس قالوا ان الامام قد يكون مستورا مكتوما عن الناس خبره وحينئذ لا بد له من نائب يكون هو الحجة وهو القائم بالدعوة والتبليغ عنه وساقوا الامامة الى محمد بن اسماعيل ثم الى أولاده من بعده وظهرت الدعوة الى هذا المذهب عقب وفاة الحسن العسكري خاتمة أئمة الشيعة الاثنى عشرية وكان لهم تعاليم دينية يسترون كثيرا منها عن الناس ومن أجل ذلك قيل لهم الباطنية ويقدمون هـذه التعاليم برفق وتأن لمن يدعونه حتى يجيبهم الى بغيتهم وقد حاول قوم أن يربطوا نحلة هؤلاء القوم بالنحلة الديصانية وهي نحلة تنسب الى رجل يعرف بابن ديصان خرج بالبلاد الفارسية قبل ظهور الدين

الاسلامي بعد ظهور مرقيون بنحو ثلاثين سنة وكان ظهور مرقيون في السنة الاولى من ملك ططوس بن انطونيانوس الرومى وجاء بعد ابن ديصان ماني وهذه المذاهب الثلاثة متقاربة في أصولها فالمرقيونية يقولون بوجود أصلين قديمين هما النور والظلمة وقالوا ان ههنا كونا ثالثا هو الحياة وهو عيسى وزعمت طائفة ان عيسى رسول ذلك الكون الثالث وهو الصانع للاشياء بأمره وقدرته الا أنهم أجمعوا على ان العالم محدث وان الصنعة بينة فيه لا يشكون في ذلك وزعموا ان من جانب الزهومات والمسكر وصلى لله دهره وصام أبدا أفلت من حبائل الشيطان وقالوا بتنزيه الله عز وجل عن الشرور وان خلق جميع الاشياء كلها لا يخلو من ضرر والله متنزه عنه

أما الديصانية الذين جاؤا على أثرهم فتقول أيضاً بالاصلين النور والظلمة وتقول طائفة منهم ان النور خالط الظلمة باختيار منه ليصلحها فلما حصل فيها ورام الخروج منها امتنع ذلك عليه وقالت طائفة ان النور أراد أن يرفع الظلمة عنه لما أحس بخشونتها ونتنها فشابكها بغير اختياره وزعم ابن ديصان ان النور جنس واحد والظلمة جنس واحد وزعم بعض الديصانية ان الظلمة أصل النور وذكر أن النور حي حساس عالم وان الظلمة بضد ذلك عامية غير حساسة ولا عالمة فتكارها ولهم كتب كثيرة في مذهبهم

والمانية يقولون أيضا بالاصلين النور والظلمة وهما مبدأ العالم فالنور هو العظيم الاول ليس بالعدد وهو الاله وزعم أنه أزلى بصفاته ومعه شيئان اثنان أزليان أحدهما الجو والآخر الارض — والاصل الثانى الظلمة وله كلام طويل في بدء كون الانسان واشتبا كه مع ابليس وغلبة الثاني الاول ثم خلاص الثاني من هذه الشباك وفرض لمتبعيه فرائض أوجب عليهم اتباعها وسن لهم عبادات من الصلاة والصوم . وقد دان بتلك الشريعة كثيرون من أمة الفرس وكان لهم بعد ماني أئمة يدينون بطاعتهم قبل الاسلام وبعد ظهوره ولهم كتب دينية كتبها لهم مانى ومن بعده من الائمة . وقد نسب كثير من فلاسفة المسلمين الى اعتقاد مذهب ماني وكانوا يعرفون بالزنادقة وهم الذين تجرد لهم المهدى وابنه الهادي فقتل منهم عددا كبيرا قال ابن النديم

فى الفهرس قيل ان البرامكة بأسرها الا محمد بن خالد بن برمك كانت زنادقة وقيل في الفضل وأخيه الحسن بن سهل مثل ذلك وكان محمد بن عبيد الله كاتب المهدى زنديقا واعترف بذلك فقتله المهدي قرأت بخط بعض أهل المذهب ان المأمون كان منهم وكذب في ذلك وقيل كان محمد بن عبد الملك الزيات زنديقا . ومن رؤسائهم يزدان بخت وهو الذي أحضره المأمون من الرى بعد أن أمنه فقطعه المتكلمون فقال له المأمون أسلم يايزدان بخت فلولا ما أعطيناك اياه من الأمان لكان لنا ولك شأن فقال يزدان بخت نصيحتك ياأمير المؤمنين مسموعة وقولك مقبول ولكنك ممن لا يجبر الناس على ترك مذاهبهم فقال المأمون أجل

قال الذين يريدون تأكيد الصلة بين الديصانية والباطنية ان عبد الله بن ميمون القداح كان هو وأبوه ميمون ديصانيين وادعى عبد الله انه نبي مدة طويلة وكان يظهر الشعابيذ ويذكر ان الارض تطوي له فيمضى أين أحب في أقرب مدة وكان يخبر بالاحداث والكائنات في البلدان الشاسعة وكان له مرتبون في مواضع يرغبهم ويحسن اليهم ويعاونونه على نواميسه ومعهم طيور يطلقونها من المواضع المتفرقة الى الموضع الذي فيه بيته فيخبر من حضره بما يكون فيموه ذلك عليهم وكان انتقل فنزل عسكر مكرم فكبس بها فهرب منها فنقضت له داران في موضع يعرف بسباط أبى نوح فبنيت احداهما مسجدا والاخرى تمت على خرابها وصار الى البصرة فنزل على قوم من أولاد عقيل بن أبي طالب فكبس هناك فهرب الى سلمية ومن هنالك ابتدأت الدعوة ويزعم أصحاب هذا القول ان عبيد الله المهدى رأس الدولة الفاطمية العبيدية من نسل هذا الرجل وان عبيد الله هو سعيد بن الحسين بن عبد الله بن ميمون القداح وانه تسمى بعبيد الله لما ورد مصر

وهذا كلام كله يظهر عليه التوليد والاختراع كتب ارضاء لبنى العباس الذين غصوا بمكان الفاطميين ولم يجدوا لهم ما يحاربونهم به الا مثل هذه الاقاويل والحق ان النحلة سياسية يقصد منها الوصول الى هدم دولة بنى العباس الا أنها شيبت بشيء

من التعاليم لتكون مقدمة للدعوة وأساسا لها حتى لا يفجأ المدعو بالغرض السياسى لاول وهلة والتعاليم متى كانت سرية حامت حولها الظنون وجعلتها الشكوك في ظلمات حتى لا تتميز حقيقتها

نشأ عن هذا المذهب قوتان كبريان كلتاهما ضد الدولة العباسية احداهما منظمة معتدلة ومركزها قريه سلمية بقرب حمص وهى موئل الدولة الفاطمية العبيدية ومجمع أسرارها كما كانت قرية الحميمة منذ ١٦٠ سنة موئل الدولة العباسية ومجمع أسرارها الثانية قوة ذات فوضى وجور ونكوب عن حسن السياسة ومركزها كان لاول ظهورها بالعراق وهي القرامطة وهذه أولاهما في الظهور فانها ظهرت بوادر شرها فى عهد المعتمد على الله والثانية تأخرت عنها وسنتكلم الآن عن القرامطة .

ظهر فى أواخر دولة المعتمد رجل بسواد الكوفة قدم اليها من نواحى خوزستان وكان يظهر الزهد والتقشف ويسف الخوص ويأكل من كسبه ويكثر الصلاة فاقام على ذلك مدة واعلم الناس انه يدعو الى امام من أهل البيت وكان يزداد فى أعين الناس نبلا بما يظهره من الزهد ثم مرض وكان فى القرية رجل يلقبه أهلها بكرميتة لحمرة عينيه وهو بالنبطية أحمر العين فحمل هذا العليل الى منزله ووصى أهله بالاشراف عليه والعناية به ولم يزل مقيما عنده حتى برأ فكان كرمية يدعو الناس الى مذهبه حتى أجابه جمع كثير من الاكرة وكان يأخذ من كل من دخل في مذهبه دينارا يزعم أنه للامام واتخذ من أهل القرية نقباء اثنى عشر فاشتغل الزراع هناك عن أعمالهم بما رسم لهم من الصلوات الكثيرة التى أخبرهم انها مفروضة عليهم .

كان للهيصم في تلك النواحي ضياع فوقف على تقصير أكرته في العمارة فسأل عن ذلك فعلم بخبر الرجل فوجه فى طلبه فأخذ وجىء به اليه فحبسه واشتغل بشربه . رقت احدى جوارى الهيصم للرجل فأخذت مفتاح الحجرة التى حبس فيها من تحت رأس الهيصم وفتحت الباب وأخرجته ثم أعادت المفتاح الى مكانه فلما أصبح الهيصم فتح الباب ليقتل الرجل فلم يجده وشاعت تلك الحادثة فى الناس فافتتنوا به

وقالوا رفع ثم ظهر فى ناحية أخرى وأشيع بين الناس أنه لا يمكن أحدا أن يناله بسوء فعظم فى أعينهم . ومع ذلك فانه خاف على نفسه وخرج الى الشام وأطلق على نفسه اسم الرجل الذى آواه وهو كرميته ثم خفف فقيل قرمط

ثم فشا مذهب القرامطة فى سواد الكوفة والسلطان لاه عنهم لا يفكر في تغيير شيء مما هم عليه حتى كان منهم ما كان من الكوارث العظمى التى حلت بالامة الاسلامية وحتى أخيفت السبل وقطع طريق الحاج مما سنذكره فى مواضعه ان شاء الله

دعى آل على

لم يكف بني العباس ما أصاب دولتهم من آل على بن أبى طالب الذين نفسوا عليهم ملك الدنيا وخلافة النبوة فضعضعوا جوانب دولتهم وزعزعوا أركانها بل قام دعى في آل على لا يعرف له الطالبيون نسبا ولا رحما يدلى بدلوه في الدولة لينال منها حظا لنفسه ذلك هو علوى البصرة أو الخبيث صاحب الزنج الذى زعم أنه على بن محمد بن أحمد بن على بن عيسى بن زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب وأصله من عبد القيس من ربيعة ورد البحرين سنة ٢٤٩ فادعى انه عباسى ودعا الناس بهجر الى طاعته فاتبعه قوم وأباه آخرون فوجدت فتنة بين الفريقين فانتقل عنهم الى حى من تميم فأقام بينهم وقد عظم مقامه بين أهل البحرين حتى أحلوه من أنفسهم محل النبى وجبوا له الخراج هناك وقاتلوا أسباب السلطان ووتر منهم جماعة كثيرة فتنكروا له فتحول عنهم الى البادية ومعه جماعة من أهل البحرين منهم مولى لبنى حنظلة أسود يقال له سليمان بن جامع وهو قائد جيشه . نبت به البادية لسوء طاعة أهلها فشخص الى البصرة فنزل بها فى بنى ضبيعة فاتبعه بها جماعة منهم على بن أبان المعروف بالمهلبى وأخواه محمد والخليل وغيرهم وكان قدومه البصرة سنة ٢٥٤ وعاملها محمد بن رجاء الحضاري فعلم بهم فخرجوا من البلد خائفين وحبس ابن رجاء جماعة ممن اتهموا بالميل اليه منهم ابن الدعى

مضى الدعى مع من اتبعه حتى صار الى مدينة السلام فأقام بها حولا يستميل اليه الناس سرا حتى اذا عزل محمد بن رجاء عن البصرة شخص اليها فى رمضان سنة ٢٥٥ ونزلوا بقصر قريب منها يعرف بقصر اقرشى وهناك خطرت له فكرة غريبة وهى الاستعانة بالعبيد الذين كانوا يعملون بتلك النواحى في حمل السباخ وغيره لاهل البصرة وهم كثيرو العدد يهمهم أن ينالوا الحرية ويخرجوا مما هم فيه فكيف لو وعدوا مع الحرية بالسيادة على مالكى رقابهم فأخذ منهم غلاما اسمه ريحان بن صالح ووعده أن يكون قائدا وأمره أن يحتال للعبيد الذين يعرفهم حتى يجيبوه الي نحلته ويتركون ساداتهم وأعمالهم فاجتمع اليه كثير منهم فخطب فيهم فمناهم ووعدهم أن يقودهم ويرأسهم ويملكهم الاموال وحلف لهم الايمان الغلاظ ألا يغدر بهم ولا يخذلهم ولا يدع شيئا من الاحسان الا أتي به اليهم . حذر الناس على غلمانهم وكان هناك نحو ١٥٠٠٠ غلام

لم يزل الرجل يحتال لجمع هؤلاء الزنوج حتى كان يوم عيد الفطر من سنة ٢٥٥ وفيه صلى بأصحابه صلاة العيد وخطبهم خطبة ذكر فيها ما كانوا عليه من سوء الحال وان الله قد استنقذهم به من ذلك وانه يريد أن يرفع أقدارهم ويملكهم العبيد والاموال والمنازل ويبلغ بهم أعلى الامور ثم حلف لهم على ذلك . وشرع فقود قواده وقال لهم كل من أتي برجل فهو مضموم اليه . استمر يعيث في تلك الجهات وينهب الاموال ويستكثر من الرجال وقد أرسلت اليه جيوش من البصرة فهزمها ثم اتجه نحو البصرة فقابلته جنود كثيرة من أهل السلطان ومرتزقة الديوان فانتصر عليها وقتل منها مقتلة عظيمة وقوى أمره جدا بتلك الواقعة وحل الرعب في قلوب أهل البصرة وكتبوا الى السلطان بخبره والخليفة يومئذ المهتدى بالله . أقام الدعى بعد ذلك بالقرب من البصرة بسبخة هناك تعرف بسبخة أبى قرة ثم تحول منها الى الجانب الغربى من نهر أبى خصيب وهناك غنم مغانم كثيرة من المراكب الماخرة فى دجلة وكانت شيئا كثيرا

وفي رجب سنة ٢٥٦ أحرق مدينة الأبلة واستسلم له أهـل عبادان خوفا أن يصيبهم ما أصاب أهل الأبلة فأخذ من كان بها من العبيد وضمهم الى جنده وفرق فيهم السلاح ومن هناك سير عسكرا الى الاهواز فاستولى عليها وأسر ابراهيم بن المدبر عامل الخراج بها فزاد ذلك أهل البصرة رعبا . أرسل السلطان الى الدعى جنودا فكان نصيبها أبدا الفشل

وفي شوال سنة ٢٥٧ أوقع بأهل البصرة وقعة هائلة قتل فيها من أهل البصرة عدد عظيم وخربت أكثر مبانيها

وكان كل يوم يكتسب قوة جديدة بمـا يضاف اليه من العبيد وما يتاح له من النصر المتتابع حتى استفحل أمره وعظم شره وخيف على الدولة منه فلم ير مدبر الدولة وقائد جيوشها أبو أحمد الموفق الا أن يحشد اليه الجموع ويتولى هو قيادتها ليكتسب الجيش العباسى من ذلك قوة روح . فعبأ جندا كثير العدد تام العدة وجاءه كثير من المتطوعين انتدبوا أنفسهم لحرب هذا الدعى وقد كانت لابي أحمد معه وقائع هائلة وخطوب جسام استمرت أعواما وفي آخر الامر أنزل الله نصره على رجال الدولة وهزموا الزنوج وقتلوا هذا الدعى وكان ذلك فى أواخر سنة ٢٧٠ وأمر الموفق كاتبه أن يكتب الى أمصار الاسلام بالنداء فى أهل البصرة والأبلة وكوردجلة وأهل الاهواز وكورها وأهل واسط وما حولها مما دخله الزنج بقتل الدعى وأن يؤمروا بالرجوع الى أوطانهم ففعل ذلك فسارع الناس الى ما أمروا به وقدموا المدينة الموفقية التى اختطها الموفق هناك من جميع النواحى وأقام الموفق بعد ذلك بالموفقية ليزداد الناس بمقامه أمنا وايناسا

وكان خروج صاحب الزنج في يوم الاربعاء لاربع بقين من رمضان سنة ٢٥٥ وقتل يوم السبت لليلتين خلتا من صفر سنة ٢٧٠ فكانت أيامه من لدن أن خرج الى اليوم الذي قتل فيه ١٤ سنة وأربعة أشهر وستة أيام . وكان دخوله الاهواز لثلاث عشرة ليلة بقيت من رمضان سنة ٢٥٦ وكان دخوله البصرة وقتله أهلها واحراقها لثلاث عشرة ليلة بقيت من شوال سنة ٢٥٧

ولم يكن يدري الا الله ماذا تكون العاقبة لو انتصر هـذا الرجل بزنوجه علي آل العباس بأترا كهم كان الامر ينتقل من أيدي الاتراك الى أيدى الزنوج فتقع الامة في الشر العظيم والوباء الوبيل لان هؤلاء الزنوج ليس لهم أدب معروف بل لا يكادون يفقهون قولا فانتصار العباسيين عليه خلاص للامة من شر مستطير

الاضطراب فى المشرق

كان آل طاهر أمراء المشرق منذ عهد المأمون اليهم خراسان وما وراءها من بلاد ماوراء النهر وما اليها من بلاد الرى وطبرستان وجرجان وكرمان وكانوا كفاة لمـا عهد به اليهم موثوقا بهم فى ارتباطهم بحبل الخلافة العباسية الا ان حال بغداد وسامرا ونزوع الاتراك الى الاستيلاء على أمور الملك والاستبداد على الخلفاء جعل الطامعين فما بعد عن دار الخلافة أشره الى الاستبداد بما يمكن ان يحوزوه ويستولوا عليه والقوة الطاهرية لم تكن تحل المحل الارفع أمام معا كسيها الا بهيبة الخلافة وشدة بأس القوة المركزية التى يحسب حسابها كل عاص وكل طامع

وجد بالشرق ثلاث قوي تحيط بآل طاهر وتنازعها ما بيدها من هذا الملك الطويل العريض

الاولى القوة الزيدية بطبرستان وجرجان وقد شرحناها قبل

الثانية القوة الصفارية بسجستان أوجدها يعقوب بن الليث الصفار وأخوه عمرو. كان هذان الرجلان يشتغلان في حداثتهما بعمل الصفر وكانا يظهران الزهد فصحبا رجلا من أهالى سجستان وكان مشهورا بالتطوع في قتال الخوارج اسمه صالح بن النضر الكنانى فأحبهما وحظى بهما حتى جعل يعقوب مقام الخليفة عنه . ولـما توفى صالح ولى مكانه في رياسة المطوعة درهم بن الحسين فكان يعقوب مع درهم كما كان مع صالح وكان قائدا لعسكره . كان درهم غـير ضابط لاموره على عكس ما كان يعقوب فرأت المطوعة ذلك فعزلوا درهمـا وولوا يعقوب مكانه فحارب الخوارج والشراة فظفر بهم ظفرا عظيما وأطاعه أصحابه بمكره ودهائه طاعة لم يطيعوها أحـدا

قبله ثم اشتدت شوكته فغلب على سجستان وهراة وبوشنج وما اليها . ثم قاتل الترك الذين بتخوم سجستان وانتصر عليهم فرهبه الملوك الذين حوله منهم ملك الملتان وملك الرخج وملك الطبسين وملك ذابلستان وملك السند ومكران وغيرهم وأذعنوا له . وكان ملكه هراة وبوشنج سنة ٢٥٣ وأمير خراسان محمد بن طاهر بن عبد الله ابن طاهر

لم يكن يعقوب بن الليث يريد الاستقلال التام عن الخلافة العباسية بل كان يريد أن يكون أميرا بعهد من خليفة بغداد ليستعين بذلك على تأييد مركزه والحلول محل آل طاهر فراسل المعتز وبعث اليه بهدية سنية منها مسجد فضة مخلع يصلي فيه خمسة عشر انسانا وسأل ان يعطى بلاد فارس ويقرر عليه خمسة عشر ألف ألف درهم على أن يتولى اخراج على بن الحسين المتغلب على بلاد فارس . ثم شخص على أثر كتابه للمعتز الى كرمان فنزل بم وهى الحد الفاصل بين كرمان وسجستان ثم استولى على كرمان ثم دخل الى عمل فارس فخندق على بن الحسين على نفسه بشيراز وذلك في ١٨ ربيع الآخر سنة ٢٥٥ وأرسل الى يعقوب يعلمه انه ان كان يريد فارس فكتاب أمير المؤمنين يأمرني بتسليم العمل لانصرف فلم يلتفت يعقوب الى ذلك الطلب المقبول وآذنه بحرب فحصلت بينهما موقعة في جمادي الاولى سنة ٢٥٥ انهزم فيها جند شيراز وأسر على بن الحسين ودخل يعقوب شيراز ظافرا وصلى الجمعة بها ودعا خطيبه للمعتز بالله . ثم عاد بعد ذلك الى كرمان ثم الى سجستان

رفع ذلك من شأن يعقوب بن الليث فان كورا عظيما أذعنت لسلطانه وفى سنة ٢٥٩ فى عهد المعتمد قصد نيسابور فلما قرب منها ألقى بنو طاهر بأيديهم وقابلوه مطيعين لما رأوا انه لاقبل لهم بمقاومته وان قوة الخلافة ضعفت عن اعانتهم فلما دخلها حبس محمد بن طاهر وآل بيته وبهذا انتهت دولتهم وفض اللواء الذى كان المأمون قد عقده لطاهر بن الحسين اذ ولاه خراسان وبلاد المشرق

بعد هذا الانتصار الباهر أرسل يعقوب الى سامرا وفدا معهم كتاب يذكر فيه

ما تناهى اليه من حال أهـل خراسان وان الشراة المخالفين قد غلبوا عليها وضعف عنهم محمد بن طاهر وان أهل خراسان كاتبوه وسألوه القدوم عليهم وانه بسبب ذلك صار اليها فلما كان على عشرة فراسخ منها سار اليه أهلها فدفعوها اليه فدخلها

كان المدبر للدولة فى ذلك الوقت أبو أحمد الموفق فأجاب الرسل بان أمير المؤمنين لا يقار يعقوب على ما فعل وانه يأمره بالانصراف الى العمل الذى ولاه اياه وانه لم يكن له ان يفعل ما فعل بغير أمر أمير المؤمنين فليرجع الى عمله فانه ان فعل ذلك كان من الاولياء والا لم يكن له الا ما المخالفين . فلم يكن لهذه الرسالة أدنى تأثير في نفس يعقوب ولا فى مركزه القوى لان المسألة مسألة تنازع في الحياة ولا بقاء للحياة الا بالقوة

وفى سنة ٢٦٠ كانت بين قوة يعقوب وقوة الحسن بن زيد المتغلب على طبرستان وقائع انهزم فيها الحسن ودخل يعقوب سارية وآمل ظافرا وصار يتبع الحسن وهو منهزم حتى صار الى بعض جبال طبرستان فأدركته هنالك الامطار وتتابعت عليه نحو أربعين ليلة فلم يتخلص مما هو فيه الا بمشقة شديدة ولما رأى صعوبة السير الى الامام انصرف بجنده وقد فقد منه في هذه الواقعة نحو أربعين ألفا وتقرب بما فعل الى سامرا فبعث يخبر به وذكر انه نفى الحسن بن زيد من طبرستان وأسر سبعين من الطالبيين

لم تكن أعمال يعقوب مما يعجب السلطان لان رجال الدولة خافوا ما وراء ذلك من استقلاله أو غلبته على حاضرة الخلافة نفسها فأمر الموفق عبيد الله بن طاهر أن يجمع من كان ببغداد من حاج خراسان والرى وطبرستان وجرجان ويقرأ عليهم كتابا يعلمهم فيه ان السلطان لم يول يعقوب بن الليث خراسان ويأمرهم بالبراءة منه لانكار الخليفة دخوله خراسان وحبسه محمد بن طاهر . وهذا رجوع منهم الى القوة الروحية التى لخليفة المسلمين ولكنهم لم يروا لها تأثيرا بازاء القوة فعادوا الى الحيلة خوفا من ان ذلك يخرج يعقوب فيدعو لنفسه ويعلن استقلاله فأعلنوا أن أمير المؤمنين ولاه

خراسان وطبرستان وجرجان والري وفارس والشرطة بمدينة السلام وذلك اقامة له مقام آل طاهر

لما نال يعقوب ما طلب ازداد طمعا وجرأة فأرسل يقول انه لا يرضيه ما كتب به اليه دون أن يصير الى باب السلطان ويظهر انه كان يريد بذلك الاستيلاء الفعلى على بغداد وبلاد العراق فلما علم المعتمد ذلك رأى أو رأى مدبرو أمره انه لم يبق بد من قيام الخليفة بنفسه الى حر به ولا سيما بعد ان علم أن يعقوب قادم بجيوشه الى سامرا فرحل المعتمد عن سامرا الى بغداد ومنها اتجه نحو عسكر يعقوب الذى وصل الى واسط فتقابل الجيشان بين سيب بني كوما ودير العاقول وكانت هناك موقعة هائلة بين الطرفين كان الظفر فيها أولا لجند يعقوب ولكن أصابهم بعد ذلك شر من جراء ذلك فان كثيرا من الجند اليعقوبي كرهوا القتال اذ رأوا أنفسهم يحاربون الخليفة وجها لوجه فانفصلوا عن الجيش فانهزم جنده أما يعقوب فانه فارق موضعه على تعبئة ومضى . تخلص بسبب ذلك محمد بن طاهر من أسره فأحضره الخليفة وخلع عليه على مرتبته وقرىء على الناس كتاب يذ كر فيه مثالب يعقوب وانه لم يرضه ما تفضل السلطان به عليه حتى جاء مشاقا محاربا وكان هذا الكتاب مؤرخا بيوم ١١ رجب سنة ٢٦٢

رجع المعتمد الى سامرا وقدم محمد بن طاهر بغداد وقد رد اليه عمله فخلع عليه فى الرصافة . أما يعقوب فعاد من طريق فارس وضبطها وولى على كورها رجالا من قبله وكانت له بها وقائع مع رجال الدعى صاحب الزنج الذي لم يكن انتهى أمره بعد

وفى سنة ٢٥٦ توفى يعقوب بن الليث بالاهواز

كان هـذا الرجل عصاميا نشأ في صناعة الصفر ثم مازال يهم بالمعالى فتنقاد له . قاد الجنود لفتح البلدان وساس من تغلب عليهم سياسة سلطانية عالية حتى أمكنه أن يفعل ما فعل ولم يؤخذ عليـه في تدبيره الا هذه الفعلة الاخيرة وهي قدومه من بلدان قاصية لحرب الخليفة بسامرا وبغداد وهو فى جيوشه وعدده ومواليه فكانت

عاقبته الفشل ويظهر أن الرجل ما كان يظن انه يلقى حربا وكان يرى أن كتبه التي يظهر فيها الخضوع وانه لم يجيء الا لخدمة أمير المؤمنين والمثول بين يديه تجوز حيلتها على القائمين بأمر الدولة . وكانت مدته ١٨ سنة

بعد موت يعقوب بايع جنده أخاه عمرو بن الليث فكان خيرا من أخيه في التدبير واحكام السياسة حتى كان يقال ما أدرك في حسن السياسة للجنود والهداية الى قوانين المملكة منذ زمان طويل مثل عمرو بن الليث وكان يحضر بنفسه يوم أن تصرف الاعطيات للجنود حين يعرضون عدتهم الحربية فكان العارض يقعد والاموال بين يديه والجند باسرهم حاضرون وينادى المنادى أولا باسم عمرو بن الليث فتقدم دابته الى العارض بجميع آلة الفارس فيتفقدها ويأمر بوزن ٣٠٠ درهم باسم عمرو بن الليث فتحمل اليه في صرة فيأخذ الصرة فيقبلها ويقول الحمد لله الذى وفقني لطاعة أمير المؤمنين حتى استوجبت منه الرزق ثم يضعها فى خفه تكون لمن يخلع خفه . ويدعى بعد ذلك باصحاب الرسوم على مراتبهم فيتعرض لآلاتهم التامة ودوابهم الفُرّه ويطالبون بجميع ما يحتاج اليه الفارس والراجل من صغير آلة وكبيرها فمن أخل باحضار شيء حرموه رزقه . وفوق ذلك كان يرضى الخليفة وبطانته بما كان يرسله من الاموال والهدايا والتحف فجعله الخليفة واليا على ما كان يلي أخوه ووجهت اليه بذلك الخلع مع العهد والعقد

ولم يزل أمره على ذلك حتى تغير عليه الخليفة سنة ٢٧٢ لما كان يبدو له من طموحه الى ما طمح اليه أخوه فادخل عليه من كان ببغداد من حاج خراسان ولعنه بحضرتهم وأخبرهم انه قلد خراسان محمد بن طاهر وأمر بلعن عمرو بن الليث على المنابر ثم رضى عنه بعد ذلك لما استرضاه بالمال ولم يزل عمرو في حروب ووقائع لا قيمة لها حتى تعرض أخيرا لما كان بيد السامانيين من بلاد ما وراء النهر فولاه الخليفة اياها فكانت تلك الولاية خاتمة عزه كما سيجيء

السامانيون

تنسب الاسرة السمانية الى بهرام جور صاحب كسرى هرمز فهي أسرة عريقة المجد فى الامة الفارسية . كان في عهد المأمون من تلك الاسرة أولاد أسد بن سامان وكان المأمون يرعى حقوق الحرمة لذوى البيوتات فقربهم ورفع من أقدارهم وكانت بلاد ماوراء النهر مقسمة بينهم يلونها من جهة أمير خراسان فكان نوح بن أسد في سمرقند وأحمد بن أسد في فرغانة ويحيي بن أسد في الشاس وأسر وسنة والياس بن أسد في هراة — وكان أحمد بن أسد عفيف الطعمة مرضى السيرة لايأخذ رشوة ولا أحد من أصحابه . ولما توفى استخلف ابنه نصرا على أعماله بسمرقند وما وراءها فبقى عاملا بها الى آخر أيام الطاهرية . وكان اسماعيل بن أحمد يخدم أخاه نصرا فولاه بخارى سنة ٢٦١ وكان بين هذين الاخوين خطوب طويلة بسبب سعاة السوء حتى انه فى سنة ٢٧٥ تحارب نصر واسماعيل فقهر نصر وحمل الى أخيه اسماعيل فلما رآه ترجل له وقبل يديه ورده من موضعه الى سمرقند وتصرف هو على النيابة عنه ببخارى

واسماعيل هذا هو الذى على يده انتهى عزعمرو بن الليث وورث ما كان بيده من ملك خراسان وصارت له دولة عظيمة أورثها أهل بيته واستمرت دولتهم ١٧٠ سنة وستة أشهر ثم انتهت على أيدى آل سبكتكين من جهة والترك الخاقانية من جهة أخرى وهذه أسماء ملوكهم وتواريخهم

(١) نصر بن أحمد بن سامان	٢٦١ - ٢٧٩
(٢) اسمعيل بن أحمد	٢٧٩ - ٢٩٥
(٣) أحمد بن اسمعيل	٢٩٥ - ٣٠١
(٤) نصر بن أحمد	٣٠١ - ٣٣١
(٥) نوح بن نصر	٣٣١ - ٣٤٣
(٦) عبد الملك بن نوح	٣٤٣ - ٣٥٠
(٧) منصور بن نوح	٣٥٠ - ٣٦٦

(٨) نوح بن منصور	٣٦٦ ـ ٣٨٧
(٩) منصور بن نوح	٣٨٧ ـ ٣٨٩
(١٠) عبد الملك بن نوح	٣٨٩ ـ ٣٨٩

مما تقدم يفهم ان البلاد المشرقية تقلص عنها ظل الخلافة العباسية فعلا وان كان يدعى لهم ببعضها اسما

فكانت الدولة الصفارية بفارس وكرمان وسجستان وخراسان وكانت الدولة السامانية ببلاد ما وراء النهر وكان بطبرستان وجرجان الدولة الزيدية العلوية وهؤلاء يدعون لانفسهم بالخلافة ولا يدينون لبنى العباس بطاعة

أما بالمغرب فقد حدثت قوة جديدة اقتطعت من بنى العباس برقة ومصر وسوريا وهى دولة أحمد بن طولون

أحمد بن طولون

كان طولون مملوكا تركيا أهداه نوح بن أسد الساماني الى المأمون وهو بمرو سنة ٢٠٠ فكان من عداد الجنود التركية الكفاة وولد له أحمد ابنه بسامرا سنة ٢٢٠ فربي في حلبة أولئك الجنود وتفصح بالعربية وحفظ القرآن الكريم وكان ذا خلق قويم ولما بلغت سنه العشرين توفى أبوه طولون فكان بعده فى ضمن جنود بايكباك الذى تقدم ذكره

كانت ولاية مصر مضافة الى بايكباك وهو الذى يختار أميرها ففى سنة ٢٥٤ اختار لها أحمد بن طولون لما رأى من كفايته وشجاعته فعقد له عليها ودخلها أحمد لتسع بقين من رمضان وكان يتقلد القصبة وحدها وكان معه أحمد بن محمد الواسطى كاتب بايكباك

لما توفى المعتز سنة ٢٥٥ وتولى المهتدي وقتل بايكباك حل محله أماجور وكان صهرا لاحمد بن طولون فان أحمد كان زوج ابنته فكتب اليه أماجور تسلم من نفسك لنفسك وزاده الاعمال الخارجة عن قصبة مصر فعظمت لذلك منزلته واتسع ملكه

وكان يدعى على منابر مصر للخليفة أولا ثم لأماجور ثم لاحمد بن طولون حتى مات أماجور سنة ٢٥٨ فاستقل أحمد بمصر ودعى له بها وحده بعد الدعاء للخليفة وضبط ابن طولون بلاد مصر أحسن ضبط وخضد شوكة الثائرين الذين كانوا يثورون بها من وقت لآخر

وفى سنة ٢٦٢ حصل بينه وبين أبي أحمد الموفق تنافر أدي الى وحشة استحكمت حلقاتها فكتب أبو أحمد الى ابن طولون يهدده بالعزل فاجابه جوابا فيه بعض الغلظة فسير اليه الموفق جيشا يقوده موسى بن بغا فلما بلغ الرقة أقام بها عشرة أشهر ولم يمكنه المسير لقلة الاموال وطالبته الجنود بالعطايا فلم يكن معه ما يعطيهم فاختلقوا عليه وثاروا بوزيره فاضطر ابن بغا ان يعود الى العراق وكفى ابن طولون شره

وفى سنة ٢٦٣ ولى المعتمد أحمد بن طولون طرسوس ليقوم بحفظ ذلك الثغر عن الروم الذين كانوا قد تطرقوا البلاد لضعف قوة الخلافة

وفي سنة ٢٦٤ دخل فى حوزته بلاد الشام والثغور بعد وفاة أماجور الذى كانت تلك البلاد له فاتسع ملكه اتساعا عظيما حتى كانت حدود مملكته تنتهى الى نهر الفرات

وبذلك تم التغلب والانفراد عن بنى العباس من أقاصى الغرب الى نهر الفرات فضاقت مملكة بني العباس واقتصرت على العراق والجزيرة الفراتية على ما فيها من الثورات والاضطرابات وبلاد الري والاهواز

وكان الموفق فى ذلك الوقت مشغولا بحرب الدعى صاحب الزنج فكان في ذلك فرصة عظيمة لاحمد بن طولون أن يقوى أمر ملكه وكان يعلم ما بين المعتمد الخليفة وبين أخيه من الفتور فاراد أن ينتفع من ذلك وصادف أن أرسل المعتمد الى ابن طولون يشكوله مما هو فيه من استبداد الموفق عليه وانه ليس له من الخلافة الا الاسم فاشار عليه ابن طولون أن يلحق به بمصر ولو تم ذلك لانتقلت الخلافة العباسية الى القطائع مدينة أحمد بن طولون بمصر ولكن حال دونه عامل الموصل والجزيرة

الذى أرسل اليه الموفق أن يبذل جهده في منع المعتمد من المسير الى مصر فلما بارح المعتمد سامرا ووصل الى عمل الموصل منعه العامل من المسير فعاد ثانية الى سامرا وبسبب ذلك اتسعت مسافة الخلف بين الموفق وابن طولون حتى ان ابن طولون قطع خطبة الموفق وأسقط اسمه من الطراز فتقدم الموفق الى المعتمد بلعنه ففعل مكرها لان هواه كان مع ابن طولون

وفي سنة ٢٧٠ توفى أحمد بن طولون فخلفه فى مصر والشام والثغور الشامية ابنه خمارويه وقد استمر ملك مصر والشام في أعقاب ابن طولون الى سنة ٢٩٢ وقد ولى من هذا البيت خمسة أمراء وهم

(١) أحمد بن طولون	٢٥٤ ـ ٢٧٠
(٢) خمارويه بن أحمد	٢٧٠ ـ ٢٨٢
(٣) أبو العساكر جيش بن خمارويه	٢٨٢ ـ ٢٨٣
(٤) هارون بن خمارويه	٢٨٣ ـ ٢٩٢
(٥) شيبان بن أحمد بن طولون	٢٩٢ ـ ٢٩٢

الحوادث الخارجيه

ترتب على الاضطراب الذى قصصنا حديثه فى عهد المعتمد ان الحدود الرومية كانت محل اضطراب دائم يغير علىها الروم كل وقت فيجدون الدفاع عنها ضعيفا حتى انهم أخذوا سنة ٢٦٣ حصن لؤلؤة الذى كان شجى في حلوقهم وغلبوا كثيرا من الجيوش ولم تتحسن الاحوال قليلا الا بعد أن أخذ ابن طولون مدينة طرسوس وعهد اليه حماية الثغور الشامية فتولى الغزو بجنوده المصرية والشامية وقد أوقع بالروم وقعة هائلة سنة ٢٧٠

وكانت غارات الروم بعد ذلك على ديار ربيعة وثغورها الجزرية فكانت ترد السرايا من تلك الجهة فتغير على المسلمين وهم غارون فيأخذون منهم كثيرا من الاسرى ولولا جنود المتطوعين لكانت الحال أسوأ مما حصل

ولاية العهد

كان أبو أحمد الموفق ولى العهد بعد المعتمد وكانت اليه أمور الخلافة فعلا فلما توفي سنة ٢٧٨ جعل ولى العهد المفوض بن المعتمد ومن بعده أبو العباس بن أبي أحمد الموفق وكان أبو العباس صاحب الكلمة في الخلافة بعد أبيه فلم يلبث أن خلع المفوض من ولاية العهد وجعل نفسه مقدما

صفات المعتمد

لم يكن للمعتمد نفوذ فى ادارة البلاد ولا في شيء من سياسة المملكة لان الامر كله كان منوطا باخيه أبى أحمد وكان المعتمد مشغوفا بالطرب والغالب عليه المعاقرة ومحبة أنواع اللهو والملاهى لاهم له الا ذلك وله أحاديث فى الغناء والرقص والندامى وهيئة المجالس ومنازل التابع والمتبوع وكيفية مراتبهم وتعبية مجالس الندماء استبدل هذا بتعبية الجيوش وسوقها الى خوض الغمرات

وكانت وفاة المعتمد على أثر شراب شربه فاكثر منه ثم اتبعه بأكلة هاضته وأتت على حياته لاحدي عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ٢٧٩

١٦ — المعتضد

هو أبو العباس أحمد بن أبى أحمد الموفق طلحة بن المتوكل بن المعتصم وأمه أم ولد اسمها ضرار ولد سنة وكان عضدا لابيه الموفق فى حروبه وأعماله وولى العهد بعد وفاة أبيه وبعد خلع المفوض ابن المعتمد سنة ٢٧٩ وبويع له بالخلافة فى اليوم الذى توفى فيه المعتمد على الله لاحدي عشرة بقيت من رجب سنة ٢٧٩ (١٥ أكتوبر سنة ٨٩٢) ولم يزل خليفة حتى توفى لثمان بقين من ربيع الآخر

سنة ٢٨٩ (١٥ ابريل سنة ٩٠٢) فكانت مدته تسع سنوات وتسعة أشهر وثلاثة أيام

وكان يعاصره في الاندلس عبد الله بن محمد الذي توفى سنة ٣٠٠

وكانت دولة الادارسة على غاية من الاضطراب يؤذن بقرب الانتهاء

ويعاصره في أفريقية وصقلية من الاغالبة ابراهيم بن أحمد بن الاغلب الذى توفى سنة ٢٨٩

وفى مصر من آل طولون خمارويه بن أحمد المتوفى سنة ٢٨٢ ثم جيش بن خمارويه المتوفى سنة ٢٨٢ ثم هارون بن خمارويه المتوفى سنة ٢٩٢

وفى زبيد من آل زياد ابراهيم بن محمد بن عبد الله بن زياد المتوفي سنة ٢٨٩

وفى صنعاء من آل يعفر عبد القادر بن أحمد بن يعفر المتوفى سنة ٢٧٩ ثم ابراهيم ابن محمد بن يعفر المتوفى سنة ٢٨٥ ثم أسعد بن ابراهيم المخلوع سنة ٢٨٨ ثم دخلت صنعاء تحت سلطان الزيدية ثم القرامطة

وفى طبرستان وجرجان محمد بن زيد العلوى المقتول سنة ٢٨٧

وفى خراسان وسجستان عمر بن الليث الصفار الذى أسر سنة ٢٨٧

وفي بلاد الروم لاون السادس الملقب بالفيلسوف المتوفى سنة ٩١١ م

وفى فرنسا أودون أول ملك من الكاباسيان المتوفي سنة ٨٩٨ ثم شارل الثالث الملقب بالساذج المتوفى سنة ٩٢٣

وزراء الدولة

أول وزراء المعتضد عبيد الله بن سليمان بن وهب واستمر في وزارته حتى مات سنة ٢٨٨ فاستوزر بعده ابنه أبوالحسين القاسم بن عبيد الله ومات وهو وزيره

من المهم أن نذكر هنا ملخصا لما أورده الكاتب هلال بن المحسن الصابئ في كتابه الموسوم بتحفة الامراء فى أخبار الوزراء لتدل بذلك على مقدار مصروف الخليفة المعتضد

قال عن عبد الحميد الكاتب لما تولى أبو القاسم عبيد الله بن سليمان وزارة المعتضد بالله رحمة الله عليه والدنيا منغلقة بالخوارج والاطماع مستحكمة من جميع الجوانب والمواد قاصرة والاموال معدومة وقد استخرج اسمعيل بن بلبل خراج السواد لسنتين في سنة وليس في الخزائن موجود من مال ولا صياغة احتاج في كل يوم الى ما لا بد منه من النفقات الى سبعة آلاف دينار وتعذر عليه قيام وجهها وقال له يوما وهو في مجلسه من دار المعتضد بالله . يا أبا الفضل قد وردنا على دنيا خراب مستغلقة وبيوت مال فارغة وابتداء عقد لخليفة جديد الامر وبيننا وبين الافتتاح مدة ولا بد لى في كل يوم من سبعة آلاف دينار لنفقات الحضرة على غاية الاختصار والتجزئة فان كنت تعرف وجها تعينني به فأحب أن ترشدني اليه فحسن له اطلاق ابنى الفرات (أبي الحسن على وأبي العباس أحمد ابنى محمد بن موسى بن الفرات) وكانا محبوسين بعد أن صودرا فحسن الوزير للمعتضد اطلاقهما والاستعانة بهما ففعل وحينئذ أحضرا أحمد بن محمد الطائى وضمناه أعمال سقى الفرات ودجلة وجوخى وواسط وكسكر وطساسيج نهر بوق وغيرها على أن يحمل من ماله في كل يوم سبعة آلاف دينار وفي كل شهر ستة آلاف دينار وأخذا خطه بالتزام الضمان وتصحيح المال على ما تقرر من أوقاته واستقبلا به فى المياومة يومهما وفي المشاهرة غدهما

وهذا تفصيل وجوه خرج المياومة مما شرط فيه ماقرره المعتضد بالله

١٠٠٠	دينار أرزاق أصحاب التوبة من الرجال ومن برسمهم من البوابين ومن يجرى مجراهم
١٠٠٠	دينار أرزاق الغلمان الخاصة وفيهم الحاجب وخلفاء الحجاب
١٥٠٠	دينار أرزاق مماليك المعتضد المعروفين بالمماليك الحجرية
٦٠٠	أرزاق المماليك المختارين
٥٠٠	أرزاق الفرسان المميزين
٤٦٠٠	

٤٦٠٠	ماقبله
١١٠	أرزاق سبعة عشر صنفا من المرسومين بخدمة الدار
٥٠	المرتزقة برسم الشرطة بمدينة السلام والخلفاء عليهم ومن يجرى مجراهم
٣٠٠	أثمان أنزال الغلمان المماليك
٢٥٣ $\frac{1}{3}$	نفقات المطابخ الخاصة والعامة والمخابز ونزال الحرم ومخابز السودان
١٠٠	ثمن وظائف شراب الخاصة والعامة ونفقات خزائن الكسوة والخلع والطيب وحوائج الوضوء وما شابه ذلك
٤	أرزاق السقائين بالقرب
١٦٧	أرزاق الخاصة ومن يجرى مجراهم من الغلمان والمماليك
١٠٠	أرزاق الحرم من المستخدمين في شراب العامة وخزائن الكسوة الخ
١٠٠	أرزاق الحرم
٤٠٠	ثمن علوفة الكراع فى الاصطبلات الخمسة
٦٦ $\frac{2}{3}$	ما يصرف فى ثمن الكراع والابل وما يبتاع من الخيل
٣٠	أرزاق المطبخين
٣٠	أرزاق الفراشين ومن جرى مجراهم
٦ $\frac{2}{3}$	ثمن الشمع والزيت
٥	أرزاق أصحاب الركاب والجنائب والسروج
٤٤ $\frac{1}{3}$	أرزاق الجلساء وأكابر الملهين
٢٣ $\frac{1}{3}$	أرزاق المتطببين وتلامذتهم مع أثمان الادوية
٧٠	أرزاق أصحاب الصيد وثمن الطعم والعلاج للجوارح
٦١ $\frac{2}{3}$	أرزاق الملاحين
٤	ثمن نفط ومشاقة
٦٥٢٦ $\frac{1}{3}$	

٦٥٢٦ ١/٣	ما قبله
١٥	صدقة يومية
٣٣ ١/٣	جارى أولاد المتوكل
١٦ ٢/٣	جاري ولد الواثق والمهتدى والمستعين وسائر أولاد الخلفاء
١٦ ٢/٣	جارى ولد الناصر
٢٠	أرزاق مشائخ الهاشميين والخطباء بمدينة السلام
٣٣ ١/٣	جارى جمهور بني هاشم
٣٣ ١/٣	رزق الوزير وابنه
١٥٦ ٢/٣	أرزاق أكابر الكتاب وسائر من في الدواوين وثمن الصحف والقراطيس والكاغد
١٦ ٢/٣	رزق القاضى وخليفته وعشرة فقهاء
٣ ١/٣	خدام المسجدين الجامعين بمدينة السلام
٥٠	نفقات السجون
١٠	نفقات الجسرين وأرزاق الجسارين
١٥	نفقات البيمارستان الصاعدي وأرزاق أطبائه وأثمان الادوية
٦٩٤٦ ١/٣	

فهذه وجوه الصرف تبين أن جميع المصروفات التى كانت تصرف في الحضرة كل يوم حوالى سبعة آلاف دينار وفي الشهر ٢١٠ ٠٠٠ وفي السنة ٢ ٥٢٠ ٠٠٠ دينار وهو مقدار قليل اذا قيس بما كان يرد على حضرة الخلافة في عهد المأمون والمعتصم ولا غرابة فى ذلك فان كثيرا من الاقاليم استقل بادارته وأمواله المتغلبون وما بقى لبني العباس لم يعمره العدل والامن لكثرة الاضطرابات فى الجزيرة وبلاد العراق وفارس

اضطرابات الجزيرة

كانت العرب مع تغلب الاتراك على دولة بنى العباس لا يقرون بالخضوع لهم بل كانوا على مالم يزالوا عليه من الاستقلال بأمر أنفسهم في ديار ربيعة وفي ديار مضر ولا سيما بعد أن أسقط العباسيون أسماء العرب من ديوان المرتزقة فكانت لا تزال تخرج منهم خوارج يدعون الناس الى خلع طاعة العباسيين وأكثر هؤلاء العرب جمعا وخروجا بنو شيبان من ربيعة

ففى أول خلافة المعتضد صار الى بنى شيبان بالموضع الذى يجتمعون فيه من أرض الجزيرة فلما بلغهم قصده جمعوا اليهم أموالهم وأغار المعتضد على الاعراب عند السن فنهب أموالهم وقتل منهم مقتلة عظيمة وغرق منهم فى نهر الزاب مثل من قتل ثم سار الى الموصل فلقيته بنو شيبان يسألونه العفو وبذلوا له رهائن فأجابهم الى ما طلبوا وعاد الى بغداد

وفي سنة ٢٨١ سار يريد قلعة ماردين للاستيلاء عليها من يدى حمدان بن حمدون الذى تغلب عليها وهو جد الاسرة الحمدانية فلما بلغه مسير المعتضد اليه ترك في القلعة ابنه وسار عنها فلما وصلها المعتضد نازلها يومه وفي الغد ركب بنفسه حتى أتى باب القلعة وصاح بابن حمدان فأجابه فأمره بفتح باب القلعة ففتحه فقعد المعتضد في الباب وأمر بنقل ما فى القلعة وهدمها ثم وجه خلف حمدان من يطلبه أشد الطلب حتى ظفر به بعد عودته الى بغداد

وكان مما يهم المعتضد خارجى ظهر بالجزيرة اسمه هارون الشارى واستفحل جمعه واشتدت قوته حتى لم يحاربه جند من جنود السلطان الا هزمه فرأى المعتضد أن يضرب الحديد بالحديد فندب الحسين بن حمدان لحرب هارون فقال له الحسين ان أنا جئت به فلى ثلاث حاجات عند أمير المؤمنين احداها اطلاق أبي وحاجتان أذكرهما بعد مجيئي فأجابه المعتضد الى ذلك فمضى مع جند اختاره حتى لقيه فحاربه وهزمه ثم ما زال يتبعه حتى ظفر به فأخذه أسيرا وأحضره للمعتضد فخلع على الحسين

وطوقه وخلع على اخوته وأمر بفك أبيه والتوسعة عليه والاحسان اليه فكان هـذا بدء ظهور الأسرة الحمدانية

القرامطة

قد ذكرنا فيما مضى كيف ابتدأت نحلة القرامطة تشيع في سواد الكوفة ويدخل الناس فيها حتى كثر أتباع القرامطة

في قريب من الوقت الذى انتشر فيه هذا المذهب بسواد الكوفة ظهر بالبحرين رجل يقال له أبو سعيد الحسن الجنابي وجنابة من سواحل فارس يدخل اليها فى المرا كب في خليج من البحر الفارسى وبين المدينة والبحر ثلاثة أميال وقبالتها فى وسط البحر جزيرة خارك نشأ بها أبو سعيد هذا وكان دقاقا فنفي عن جنابة فخرج الى البحرين فأقام بها تاجرا وجعل يستميل العرب الى نحلته حتى استجاب له أهل البحرين وما والاها وقوى أمره فقتل ما حوله من أهل القرى وفعل كذلك بالقطيف وأظهر انه يريد البصرة التى كتب عليها الشقاء فانه لم يمض على ما لاقته من السوء على يد دعي العلويين أكثر من ١٥ سنة فكتب واليها الى المعتضد يخبره بالامر فأمره المعتضد أن يبنى على البصرة سورا ففعل وفي سنة ٢٨٧ أقبل الجنابى بجموعه يريد البصرة فأرسل اليـه المعتضد جيشا قائده العباس بن عمرو الغنوى فهزمه أبو سعيد وأسر العباس واحتوى ما فى العسكر وقتل الاسرى ثم سار الجنابي بعد الواقعة الى هجر وانصرف المنهزمون الى البصرة فلقيهم الاعراب فأفنوهم . أحدث ذلك بالبصرة قلقا واضطرابا حتى هم أهلها بالجلاء عنها ولكن واليها هدأ بالهم

أما أمرهم بسواد الكوفة فانه لما علم المعتضد أمر انتشار مذهبهم هناك وكثرة متبعيه أرسل اليهم جيشا يقوده شبل غلام أحمد بن محمد الطائي فظفر بهم وأخـذ رئيسا لهم يعرف بأبى الفوارس فقدم به على المعتضد فسأله المعتضد هل تزعمون أن روح الله تعالى وأرواح أنبيائه تحل فى أجسادكم فتعصمكم من الزلل وتوفقكم لصالح العمل فقال ياهذا ان حلت روح الله فينا فما يضرك وان حلت روح ابليس فما ينفعك

فلا تسأل عما لا يعنيك وسل عما يخصك . فقال ما تقول فيما يخصني قال أقول أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مات وأبوكم العباس حى فهل طلب بالخلافة أم هل بايعه أحد من الصحابة علي ذلك ثم مات أبو بكر فاستخلف عمر وهو يرى موضع العباس ولم يوص اليه ثم مات عمر وجعلها شورى في ستة أنفس ولم يوص اليه ولا أدخله فيهم فبماذا تستحقون أنتم الخلافة وقد اتفق الصحابة على دفع جدك عنهم – فأمر به المعتضد فقتل

كان تتابع الجيوش من المعتضد الى من بسواد الكوفة سببا لان داعية قرمط زكرويه بن مهرويه سعى في استغواء كلب بن وبرة بواسطة أولاده فأجابه بعض بطونهم وبايعوا سنة ٢٩١ ابن زكرويه المسمى يحيي المكنى بابى القاسم ولقبوه الشيخ وزعموا أنه محمد بن عبد الله بن محمد بن اسمعيل بن جعفر الصادق وزعم لهم ان له بالبلاد مئة الف تابع وسمي أتباعه الفاطميين فقصدهم شبل مولى المعتضد من ناحية الرصافة فاغتروه فقتلوه وأحرقوا مسجد الرصافة واعترضوا كل قرية اجتازوا بها حتى بلغوا بلاد الشام وكانت اذ ذاك فى حوزة خمارويه بن أحمد بن طولون وينوب عنه فيها طغج بن جف فقاتلهم مرارا فهزموه

هـذا ما كان منهم فى حياة المعتضد ظهروا بثلاثة مواضع بالبحرين والعراق والشام وبدؤا بخروجهم شعلة النار المحرقة التي آذت المسلمين ودوختهم وسلبتهم أمن الطريق الى بيت الله المقدس كما يأتى بيانه

وفي تلك الازمنة كان يشتغل دعاة الفاطميين باليمن وأفريقية فكانت الدعوة الاسماعيلية رتبت أن تكون في آن واحد بجميع الجهات الاسلامية حتى لا يكون لبنى العباس قبل بملافاة شرها وكذلك كان

أمر المشرق

اتسع سلطان عمرو بن الليث في أول عهد المعتضد ودخل نيسابور سنة ٢٨١ ولما خرج بجيشه منها خالفه رافع بن هرثمة وأعلن خضوعه لمحمد بن زيد العلوى

ودعاله على منبر نيسابور فعاد عمرو بن الليث وحاصره بنيسابور حتى احتلها ثانيا وكان رافع قد هرب الى طوس فارسل اليه عمرو جندا فلحقوه هناك وقاتلوه فانهزم الى خوارزم فتبعوه اليها وهناك قتلوه وأرسل عمرو الى المعتضد كتابا بذلك مع رأس رافع فأرسلت الى عمرو الخلع ولواء الولاية على الرى وهدايا من قبل المعتضد

لما اتسع لعمرو هذا السلطان أرسل الى الخليفة يطلب منه عهد الولاية على بلاد ما وراء النهر وعزل اسماعيل بن أحمد الساماني أميرها ففعل المعتضد ذلك وأرسل اليه عهد الولاية فأجابه عمرو على ذلك بارسال هدية فكان مبلغ المال الذى وجهه أربعة آلاف الف درهم وعشرين من الدواب بسروج ولجم محلاة و ١٥٠ دابة بجلال مشهرة وكسوة وطيب وبزاة

كانت هذه الولاية سببا لمصيبة عمرو بن الليث فانه خرج ليحوزها ولم يكن اسمعيل بالذى يسلمها اليه فكتب اليه انك قد وليت دنيا عريضة وانما فى يدي ماوراء النهر وانا فى ثغر فاقنع بما فى يدك واتركنى مقيما بهذا الثغر فابى اجابته الى ذلك فذكر لعمرو أمر نهر بلخ والشدة في عبوره فقال لو أشاء لسكرته ببدر الاموال وعبرته . ولما أيس اسمعيل من انصرافه عنه جمع من معه من الثناء والدهاقين وعبر النهر الى الجانب الغربي وجاء عمرو فنزل بلخا وأخذ اسمعيل عليه النواحى فصار كالمحاصر وندم على مافعل وطلب المحاجزة فأبي اسمعيل عليه ذلك فلم يكن بينهما كبير قتال حتى هزم عمرو فولى هاربا ومر بأجمة فى طريقه قيل له انها أقرب فقال لعامة من معه امضوا في الطريق الواضح ومضى في نفر يسير فدخل الاجمة فوحلت دابته فوقعت ولم يكن له فى نفسه حيلة ومضى من معه ولم يلووا عليه وجاء أصحاب اسمعيل فأخذوه أسيرا وخيره اسمعيل بين أن يقيم عنده وأن يرسل الى المعتضد فاختار أن يوجه الى المعتضد فحبس و بذلك انتهت أيام عزه وختم المعتضد حياته بالامر بقتل عمرو فقتل في أول خلافة المكتفى

لما علم محمد بن زيد بأمر عمرو ظن ذلك فرصة لاخذ خراسان لانه فهم ان

إسمعيل بن أحمد لا يبارح عمله بما وراء النهر فخرج من طبرستان مريدا الاستيلاء على خراسان فلما صار الى جرجان كتب اليه اسمعيل يسأله الرجوع الى طبرستان وترك جرجان له فأبى عليه ذلك ابن زيد فندب اسمعيل لحربه قائدا في جند فلاقيه على باب جرجان فانهزم عسكر ابن زيد وأصابته ضربات وأسر ابنه زيد ثم مات محمد بعقب هذه الواقعة بأيام فدفن على باب جرجان وحمل ابنه زيد الى اسمعيل بن أحمد . بذلك زالت على يد السامانيين دولة رجلين كبيرين عمرو بن الليث الصفار ومحمد بن زيد ولم يكن لاولادهما بعدهما كبير ذكر فى التاريخ

ولما تم ذلك كله على يد اسمعيل أرسل اليه المعتضد الخلع وبدنة وتاجا وسيفا من ذهب مركبا على جميع ذلك الجوهر وبهدايا وثلاثة آلاف الف دينار يفرقها في جيش من جيوش خراسان يوجهه الى حرب سجستان لمحاربة من فيها من أصحاب طاهر بن محمد بن عمرو بن الليث و بذلك صارت القوة فى المشرق للاسرة السامانية فبيدهم بلاد ما وراء النهر وخراسان الى الرى وسجستان ولهم فيها النفوذ والسلطان التام

أمر المغرب

كانت علاقة المعتضد بخمارويه بن أحمد بن طولون حسنة وكان خمارويه يتقرب اليه كثيرا فأهدى اليه لاول خلافته من العين عشرين حملا على بغال وعشرة من الخدم وصندوقين فيهما طراز وعشرين رجلا على عشرين نجيبا بسروج محلاة بحلية فضية كثيرة ومعهم حراب فضة وعليهم أقبية الديباج والمناطق المحلاة وسبع عشرة دابة بسروج ولجم منها خمسة بذهب والباقى بفضة و ٣٧ دابة بجلال مشهرة وخمسة أبغل بسروج ولجم وزرافة . ثم أراد أن يتقرب الى الخليفة بالمصاهرة فعرض أن يزوج ابنته قطر الندى من على بن المعتضد فقال المعتضد أنا أتزوجها فتزوجها واحتفل خمارويه بجهازها أتم احتفال ومن ضمن ذلك الجهاز دكة (سرير) أربع قطع من ذهب عليها قبة من ذهب مشبك فى كل عين من التشبيك قرط معلق فيه حبة جوهر لا يعرف لها قيمة ومئة هون من ذهب ومنها الف تكة ثمنها عشرة آلاف دينار

فانظروا كم يكون بعد هذا . ولما تم الجهاز أمر فبني لها على رأس كل مرحلة تنزل بها قصر فيما بين مصر و بغداد وأخرج معها أخاه شيبان بن أحمد بن طولون فى جماعة فكانوا يسيرون بها سير الطفل في المهد فاذا وافت المنزل وجدت قصرا قد فرش فيه جميع ما يحتاج اليه وعلقت فيه الستور وأعد فيه كل ما يصلح لمثلها في حال الاقامة فكانت فى سيرها من مصر الى بغداد على بعد الشقة كأنها في قصر أبيها تنتقل من مجلس الى مجلس حتى قدمت بغداد أول المحرم سـنة ٢٨٢ وكان المعتضد اذ ذاك غائبا بالموصل فادخلت للحرم حتى قدم فنقلت اليه في رابع ربيع الثانى ونودى فى جانبى بغداد ألا يعبر أحد في دجلة يوم الاحد وهو يوم الزفاف وغلقت أبواب الدروب التى تلى الشط ومد على الشوارع النافذة الى دجلة شراع ووكل بحافتى دجلة من يمنع الناس أن يظهروا فى دورهم على الشط فلما صليت العتمة وافت الشذا من دار المعتمد وفيها خدم معهم الشمع فوقفوا بازاء دار صاعد التى كانت فيها قطرالندى وكانت أعدت أربع حراقات شدت مع دار صاعد فلما جاءت الشذا أحدرت الحراقات وصارت الشذا بين أيديهم فنزلت اليها حتى وصلت الى دار المعتضد

كان خمارويه يلى مصر واليـه طرسوس والشام فكانت اليه المحافظة على ثغر طرسوس وجنوده تقوم بذلك خير قيام . لم يزل الحال على ذلك حتى قتل خمارويه سنة ٢٨٣ ولم يكن عند ولده جيش من المقدرة ما يسوس بها ملك أبيه فاتفق جمع من جنده على الفتك به ولكن عرف أمرهم فهربوا ووردوا بغداد فاكرم المعتضد وفادتهم وبعد ذلك ثار جماعة آخرون بجيش فقتلوه وولوا أخاه هارون وكانت هذه المنازعات الداخلية سببا لخروج طرسوس من أيدى بني طولون فقد قدم وفد من أهلها على المعتضد يطلبون أن يولى عليهم واليا من قبله ففعل

ثم اتفق المعتضد بعد ذلك مع هارون أن يتنازل هارون عن قنسرين والعواصم وتقصر ولايته على مصر والشام على أن يحمل الى بيت المـال ببغداد كل سنة ٤٥٠٠٠٠ دينار ووجهت الخلع والعقد الى هارون . ومن هـذا يتبين ان نفوذ

المعتضد في مصر والشام صار أقوى مما كان قبل لضعف أمر الطولونيين بالخلاف الذي وقع بينهم

صفات المعتضد

كان المعتضد قوى القلب جريئاً ولذلك كان للخلافة في عهده أكثر مما كان في عهد أبيه من الهيبة وان كان الامر في الحقيقة جل أن يصلح لان وراءهم عدوا لا ينام يريد افساد ملكهم بما أمكنه ولو أدى ذلك الى افساد البلاد كلها . وكان مع شجاعته قليل الرحمة سفا كا للدماء شديد الرغبة في التمثيل بمن يقتله

وله اصلاحات داخلية جليلة منها انه أمر برد الفاضل من سهام المواريث على ذوي الارحام وأمر بابطال ديوان المواريث وكان أصحاب التركات يلقون من ذلك عناء . ومنها اهتمامه بكرى دجيل وهو أحد روافد دجلة وقلع من فوهته صخرا كان يمنع الماء

ومن أهم اصلاحه ما يعرف بالتقويم المعتضدى وانا قائلون كلمة في شرحه

معلوم ان دين الاسلام يستعمل السنة الهلالية ويجعل أهلة الشهور علامة على عبادات افترضها منها صوم رمضان وحج البيت فى ذى الحجة فلم يكن هناك معتبر للسنة الشمسية التى تزيد على السنة الهلالية أحد عشر يوما وربعا الا قليلا . ولم يكن هناك مجال للتوفيق بين السنتين الشمسية والهلالية ولكن حصل ان المسلمين اضطروا فيما بعد لمراعاة السنة الشمسية لان جباية الخراج انما تكون عند ادراك الثمار والغلات وهذه وقتها واحد فكانوا يفتتحون الخراج فى يوم النيروز

وكانت الفرس تعتبر السنة الشمسية ٣٦٠ يوما كل شهر ثلاثون يوما كاملة وكانوا يضيفون اليها خمسة أيام بين آبان ماه وآذر ماه وهما الشهر الثامن والشهر التاسع من شهورهم ويجتمع لهم فى كل ١٢٠ سنة من ربع اليوم أيام شهر تام ومن خمس الساعة الذى يتبع ربع اليوم عندهم يوم واحد فالحقوا الشهر التام بها فى كل ١١٦ سنة وبناء على ذلك كانوا يؤخرون النيروز عن وقته شهرا كاملا كلما مضت هذه

العدة . فلما سقط ملكهم أغفلوا هذا الكبس واستمر فتح الخراج أيام النيروز ففى عهد المتوكل دخل بعض بساتينه فمر بزرع فرآه أخضر فقال لعلى بن يحيى المنجم ان الزرع أخضر بعد ما أدرك وقد استأمرني عبيد الله بن يحيى فى استفتاح الخراج فكيف كانت الفرس تستفتح الخراج فى النيروز والزرع لم يدرك بعد فقال له على ليس يجرى الامر اليوم على ما كان يجري عليه أيام الفرس ولا النيروز فى هذه الايام في وقته الذى كان في أيامها لانها كانت تكبس في كل ١٢٠ سنة شهرا وكان النيروز اذا تقدم شهرا وصار في خمس من حزيران كبست ذلك الشهر فصار فى خمس من ايار وأسقطت شهرا وردته الى خمس من حزيران فكان لا يتجاوز هذا فلما تقلد خالد القسرى العراق وحضر الوقت الذى تكبس فيه الفرس منعها من ذلك فلما امتنعوا من الكبس تقدم النيروز تقدما شديدا حتى صار يقع في نيسان والزرع أخضر فقال المتوكل فاعمل لهذا عملا ترد النيروز فيه الى وقته الذى كان يقع فيه أيام الفرس وعرف بذلك عبيد الله بن يحيى ليكون استفتاح الخراج فيه فكتبت بذلك كتب سنة ٢٤٣ ولكن أمرها لم يتم لقتل المتوكل . فلما ولى المعتضد وأخبر بخبر المتوكل اهتم بالامر وحسب المدة التى تقدمها تاريخ النيروز بسبب اهمال الكبس فوجد انه تأخر ستين يوما فاخر النيروز بقدره فكان فى ١١ حزيران فجعله كذلك دائما لا يتأخر عنه وجعله على حساب شهور الروم لتكبس شهوره كلما كبست الروم شهورها فصار لا يتقدم النيروز عن زمنه ولا يتأخر . قال البيرونى فى كتابه الا ثار الباقية وهذا وان دقق في تحصيله فلم يعد به النيروز الى ما كان عليه عند الكبس في دولة الفرس وذلك ان اهمال الفرس كبيسهم كان قبل هلاك يزدجرد بقريب من سبعين سنة لانهم كانوا كبسوا السنة فى زمان يزدجرد بن سابور بشهرين أحدهما لما لزم السنة من التأخر وهو الواجب ووضعوا اللواحق خلفه علامة له وكانت النوبة لابان ماه كما سنذ كر والشهر الآخر للمستأنف ليكون مفروغا منه الى مدة طويلة فاذا أسقط من السنين التى بين يزدجرد بن سابور وبين يزدجرد بن شهريار ١٢٠ سنة

بقى بالتقريب سبعون سنة لا بالتحقيق فان تواريخ الفرس مضطربة جدا ويكون حصة هذه السبعين سنة من الارباع قريبا من ١٧ يوما فكان يجب بالتحليل من القياس أن يؤخر ٧٧ يوما لا ٦٠ حتى يكون النوروز فى ٢٨ حزيران ولكن المتولى لذلك ظن أن طريقة الفرس فى الكبس كانت شبيهة بالتى يسلكها الروم فيه فحسب الايام من لدن زوال ملكهم والامر فيه على خلاف ذلك اه

أما مسألة اتفاق السنة الخراجية مع السنة الهلالية فانهم لما رأوا بالحساب أن كل ٣٢ سنة شمسية تساوي بالتقريب ٣٣ سنة هلالية كانوا يضيفون على السنة الخراجية كلما مرت ٣٢ سنة ففي سنة ٢٤١ الخراجية نسب الخراج الى سنة ٢٤٢ الهلالية وأسقطت سنة ٢٤١ لان الغلة انما أدركت سنة ٢٤٩ ولنضرب لذلك مثلا يفهم به ما كانوا يعملونه . كان أول المحرم سنة ٢٠٤ هو ٤ مايو سنة ٨٢٤ وأول المحرم سنة ٢٤٢ هو ١٠ مايو سنة ٨٥٦ ومن بين هذين ٣٣ سنة قمرية و ٣٢ سنة شمسية فتكون السنة بالحساب الخارجى سنة ٢٤١ فلكى تتحد مع السنة الهلالية يضيفون عليها واحدا حتى تكون سنة ٢٤٢ ويسقطون من الخراج سنة ٢٤١

وقد كتب المعتضد بذلك كتابا أمر فيه أن تكون جباية الخراج فى العراق والمشرق وما يتصل بهما ويجرى مجراهما على الطريق التي رسمها وانما قيد بالعراق والمشرق لان الحال فى مصر كانت على الكبس القبطى وفى الشام على الكبس الرومى وكلاهما لا يتغير به الزمان

والمعتضد هو الذى ترك سامرا واستبدل بها بغداد فضاعت أبهتها وخربت بعد ان كانت تضارع بغداد بل لم يكن فى الارض كلها أحسن منها ولا أجمل ولا أعظم ولا آنس ولا أوسع ملكا منها ولما استدبر أمرها جعلت تنقض وتحمل أنقاضها الى بغداد يعمر بها فقال ابن المعتز

قد أقفرت سر مرا وما لشىء دوام
فالنقض يحمل منها كأنها آجام

ماتت كما مات فيل تسل منـه العظام

وبها قبور ستة من الخلفاء وهم الواثق والمتوكل والمنتصر والمعتز والمهتدى والمعتمد وبها قبر امامين من أئمة الشيعة وهما على بن محمد والحسن بن على العسكريان وبها السرداب التى تزعم الشيعة انه يخرج منه المهدي المنتظر

وفاة المعتضد

توفى المعتضد لثمان بقين من ربيع الآخر سنة ٢٨٩ وكان ولى عهده ابنه المكتفى

---

١٧ - المكتفي

هو على المكتفى بن المعتضد بن أبى أحمد بن المتوكل وأمه أم ولد تركية اسمها جيجك ولد سنة ٢٣٦ و بويع بالخلافة بعد وفاة أبيه المعتضد بعهد منه وذلك في ٢٢ ربيع الآخر سنة ٢٨٩ (١٥ ابريل سنة ٩٢٠) ولم يزل خليفة الى أن توفى في ١٢ ذى القعدة سنة ٢٩٥ (١٣ أغسطس سنة ٨٠٩) فكانت مدته ست سنوات وستة أشهر و١٩ يوما

وتولى فى عهده على بلاد المغرب الاقصى من الادارسة يحيى بن ادريس بن عمر ابن ادريس بن ادريس بعد اختلافات طويلة كانت بين أفراد هذا البيت وكانت ولايته سنة ٢٩٢

وفى عهده تولى أفريقية من الاغالبة زيادة الله بن عبد الله بن ابراهيم بن أحمد ابن محمد بن الاغلب وهو آخر أمراء هذا البيت وكانت ولايته سنة ٢٩٠

وكان أمير مصر على عهده شيبان بن أحمد بن طولون وهو آخر الامراء من هذا البيت

وكان الامير على زبيد من آل زياد زياد بن ابراهيم بن محمد (٢٨٩ – ٢٩١) ثم أبو الجيش اسحاق بن ابراهيم

وكان الامير من آل سامان بالمشرق اسمعيل بن أحمد (٢٧٩ – ٢٩٥) ثم أحمد بن اسمعيل (٢٩٥ – ٣٠١)

ويعاصره في بلاد الروم لاون السادس الملقب بالفيلسوف وفي فرنسا شارل الثالث الملقب بالساذج

وزراء المكتفي

لما استخلف المكتفى أبقى فى الوزارة وزير أبيه القاسم بن عبيدالله بن سليمان بن وهب فدبر الامور على ما كانت في زمن المعتضد واستمر فى الوزارة عظيما مهيبا الى أن توفي سنة ٢٩١

فاستوزر المكتفى بعده العباس بن الحسن

الاحوال فى عهده

انتكست البلاد فى عهد المكتفي بعد ان كانت ابتدأت تنتعش في عهد أبى أحمد الموفق وعهد ابنه المعتضد فقد ابتدأت ولايته بظهور المنافسات بين ذوى النفوذ من الدولة فكان أحدهم يكيد للآخر شركيد حتى يورده المهالك من غير نظر في ذلك الى ما تقتضيه مصلحة الامة

ومما حصل مما يدل على ذلك أن بدرا غلام المعتضد كان يقود الجيش المحافظ في اقليم فارس وكان بينه وبين وزير المكتفى القاسم بن عبيد الله مباعدة فلم يكن من الوزير الا أن أرسل للقواد الذين مع بدر بفارس يأمرهم بالمسير اليه ومفارقة بدر ففعلوا ولما رأى ذلك بدر انصرف الى واسط فلما بلغ الخليفة انصرافه وكل بداره وقبض على جماعة من غلمانه وقواده فحبسوا وأمر بمحو اسمه من التراس والاعلام كلها وكان عليها (أبو النجم مولي المتعضد بالله) وذلك كله حصل باغراء الوزير وتخويفه الخليفة من غدر بدر

أراد الوزير بعد ذلك استعمال الحيلة في القبض على بدر فدعا بأبي عمر محمد بن يوسف القاضى وأمره بالمضى الى بدر ورفقائه وتطييب نفسه واعطائه الامان من أمير المؤمنين على نفسه وماله وولده فذهب اليه القاضى ودفع اليه الامان فاستقر الامر بينهما على أن بدرا يدخل بغداد سامعا مطيعا وأمر غلمانه أن ينزعوا سلاحهم وأن لا يحاربوا أحـدا وبينما هو يسير في الحراقة اذ وافاه محمد بن اسحاق بن كنداج في شذا فلما قاربه تحول الى الحراقة وطيب نفس بدر ثم ورد عليه في ذلك الحين أحد غلمان السلطان في طيار فأخذه من الحراقة حتى صار به الى جزيرة في الصافية فأخرجه اليها وقتله وتسلم السلطان ضياعه ومستغلاته ودوره وجميع ماله

وكان بهذا العمل الخزى للقاضى الذى توسط في أمر لم يكن قادرا على تنفيذه وقد كانت العامة تدرك ما في الاخلال بالعهود والمواثيق من المعرة حتى قال أحـد الشعراء يذم القاضى على فعلته

قل لقاضى مدينــة المنصور ... بم أحللت أخـذ رأس الامير

بعـد اعطائه المواثيق والعهـــد وعقد الايمـان فى منشور

أين أيمـانك التى شـهد اللـــه على أنهـا يمين فجور

أن كفيك لا تفارق كفيـــه الى أن ترى مليك السرير

يا قليل الحياء يا أ كذب الامـــة ياشاهـدا شـهادة زور

ليس هـذا فعل القضاة ولا يحـــسن أمثاله ولاة الجسور

أى أمر ركبت فى الجمعة الزهـــراء من شـهر خـير الشهور

قد مضى من قتلت فى رمضان ... صائمـا بعـد سجدة التعفير

يابني يوسف بن يعقوب أضحى ... أهـل بغداد منكم فى غرور

بدد الله شملكم وأراني ... ذلكم فى حياة هـذا الوزير

فأعـد الجواب للحكم العـا ... دل من بعـد منكر ونكير

أنتم كلكم فداء لابى حا ... زم المستقيم كل الامور

والذى هاج الناس من هـذا الامر أنهم لم يكونوا يتوقعون من القضاة الذين ينفذون فيهم شريعة الاسلام أن يكونو عونا على الغدر وعدم احترام الايمان .

كانت تلك الحال سببا لازدياد أمر القرامطة واضطرام نيرانهم في الشام والعراق والبحرين وطريق مكة

لما رأى داعيتهم زكرويه ان أهل السواد لا يغنون عن أنفسهم سعى لاستغواء أعراب الكوفة من أسد وطيء وتميم وغيرهم الى رأيه فلم يستجيبوا وكانت جماعة من كلب تخفر الطريق على البر بالسماوة بين الكوفة ودمشق على طريق تدمر وتحمل الرسل وأمتعة التجار على ابلها فارسل زكرويه أولاده اليهم فبايعوهم وخالطوهم وانتموا الى على بن أبى طالب فقبلوهم على ذلك ثم دعوهم الى رأى القرامطة فقبل ذلك منهم أحد أفخاذهم فبايعوا فى آخر سنة ٢٨٩ يحيى بن زكرويه ولقبوه الشيخ وزعم لهم ان بالسواد والمشرق مئة الف تابع ومخرق لهم حتى اعتقدوه وأطاعوه فقصدهم سبك الديلمى مولى المعتضد بناحية الرصافة غربي ديار مضر فاغتروه وقتلوه وحرقوا مسجد الرصافة واعترضوا كل قرية اجتازوا بها حتى أصعدوا الى أعمـال الشام التى كانت فى حوزة هارون بن خمارويه ويليها من قبله طغج بن جف فهزم القرمطى كل جيش وجهه اليه طغج حتى حصره فى مدينة دمشق فانفذ اليه المصريون بدرا الكبير غلام أحمد بن طولون فاجتمع مع طغج على حربه فواقعهم قريبا من دمشق وقتل في الواقعة يحيى القرمطى ثم دارت الدائرة على المصريين فانحازوا وولى القرامطة عليهم الحسين بن زكرويه أخا يحيى فاظهر شامة فى وجهه وزعم انها آية له فلقب ذا الشامة وظهر على المصريين وعلى جند حمص وغيرها من أرض الشام وتسمى بامرة المؤمنين على منابرها - كان ذلك كله فى سنتى ٢٨٩ و ٢٩٠

وكان يكثر القتل فى كل بلد دخلها الا من اتقت شره بصلحه والدخول في أمره وكان لايترك أحـدا حتى صبيان المكاتب ومن البلدان التى لم يبق بها أحدا سلمية

توالت كتب أهل الشام الى الخليفة ببغداد يشكون مما ألم بهم من ذى الشامة من القتل والسبى وتخريب البلاد فلم ير بدا من الخروج بنفسه الى الشام فتأهب وسار الى الشام وجعل طريقه على الموصل وقدم بين يديه أبا الاغر في عشرة آلاف فارس فنزل أبو الاغر قريبا من حلب فكبسهم القرمطى فقتل منهم خلقا كثيرا وسلم أبو الاغر فدخل حلب في ألف رجل فتبعه القرمطى الى حلب فحاربه أبو الاغر بمن بقى معه من أهل البلد فرجع عنهم

سار المكتفى حتى نزل الرقة وسير الجيوش اليه وجعل أمرها الى محمد بن سليمان الكاتب فسار محمد حتى صار بينه وبين حماه ١٢ ميلا فالتقوا بأصحاب القرمطى فالتحمت الحرب بين الفريقين واشتدت فهزم أصحاب القرمطي وقتلوا وأسر من رجالهم بشر كثير وتفرق الباقون فى البوادي وتبعهم أصحاب السلطان . ولما رأى القرمطى ما نزل بجنده حمل أخاله مالا وتقدم اليه أن يلحق بالبوادى الى ان يظهر في موضع فيسير اليه وركب هو في ثلاثة معه وسار يريد الكوفة عرضا فى البرية حتى انتهى الى موضع نفد معه زاده وعلفه فوجه بعض من كان معه الى موضع يعرف بالدالية من أعمال طريق الفرات فلما دخلها انكر زيه وسئل عن أمره فمجمج ثم أقر أن ذا الشامة معه فخرج متولى المسلحة بتلك الناحية وقبض عليه وعلى من معه فصاروا به الى المكتفي وفى ٢٦ محرم سنة ٢٩١ أدخل الرقة مشهرا ثم حمل الى بغداد وعقب ذلك أقبل محمد بن سليمان بجنده و بالاسرى الذين أخذهم من القرامطة وهم نيف وسبعون أسيرا فاعدموا كلهم ونظفت النواحى الشامية من هذه الفرقة المنكرة الا أن ذلك لم يكن مبيدا للمذهب القرمطى فان والد يحيي ذا الشامة لم يزل على قيد الحياة وهو زكرويه رأس الفتنة

لما بلغه مقتل ذى الشامة أنفذ رجلا كان معلما للقرآن باحدى القرى اسمه عبد الله بن سعيد فتسمى نصرا ايعمى أمره فدار على احياء كلب يدعوهم الى رأيه فساعده رجل اسمه مقدام واستغوى له طوائف من اعراب البادية فذهب بهم الى

جهات الشام فاغار على مدينتي بصرى وأذرعات فحارب أهلهما ثم أمنهم فلما استسلموا قتلهم وسبى ذراريهم واستصفى أموالهم ثم سار يؤم دمشق فغلب مقاتلتها ولكنه لم يطمع فى دمشق لدفاع أهلها عنها . ولما علم الخليفة بفعله أنفذ اليه الحسين بن حمدان فورد دمشق وقد دخل القرامطة طبرية فلما اتصل بهم خبره عطفوا نحو السماوة وتبعهم الحسين في برية السماوة وهم ينتقلون من ماء الى ماء فلما أوغلوا انقطع عنهم . أماهم فأسروا الي هيت فصبحوها وأهلها غارون فنهبوا نعمها وقتلوا من قدروا عليه من أهلها ثم رحل عنها الي البرية فأرسل اليهم الخليفة محمد بن اسحاق فى جيش وأمر الحسين بن حمدان أن يصمد نحوهم . ولما علم بنو كلب بتوجه هذه الجيوش اليهم عمدوا الى نصر فقتلوه وتقربوا برأسه الي السلطان وأظهروا الخضوع فعفا عنهم أما بقية القرامطة فانحازوا الى البادية

ولما بلغ زكرويه كل ذلك أرسل اليهم داعية بدل نصر اسمه القاسم بن احمد وواعدهم أن يوافوه بالكوفة ليغيروا عليها يوم النحر من سنة ٢٩٣ فامتثلوا أمره ووافوا باب الكوفة منصرف الناس من صلاة العيد وعددهم نحو ٨٠٠ رجل فاوقعوا بمن لحقوه من العوام وسلبوا جماعة وبادر الناس الى الكوفة فدخلوها وتنادوا السلاح فنهض العامل بمن عنده من الجند وصاف القرامطة فهزمهم ثم بعث يطلب نجدة من بغداد فأرسل من هناك جند لمحاربة القرامطة بجهة القادسية ولكن هذا الجند لم يحافظ علي خط رجعته فجاءته القرامطة من خلفه فانهزم أقبح هزيمة واحتوى القرامطة على ما فى معسكرهم فأخذوه وصارت لهم به قوة ثم أرسلوا الى زكرويه فاستخرجوه من مخباه فسار معهم وهو محتجب يدعونه السيد ولا يبرزونه والقاسم يتولى الامور دونه ويمضيها وجعلوا مقرأعمالهم الصحراء

ومن أخبث ما فعلوه في سنة ٢٩٤ أنهم أغاروا على قوافل الحج الآيبة من مكة الى المشرق خراسان والعراق فلم يتركوا من هؤلاء الحجاج من يخبر بخبر وأخذوا من الاموال شيئا عظيما وورد خبر ذلك الى بغداد فعظم الامر على الناس وعلى السلطان فاهتم الوزير بالامر وندب اليهم جيشا عظيما ذهب اليهم في جادة مكة

وقاتلهم فقتل منهم كثيرا وأسر زكرويه وخليفته وجماعة من خاصته واحتوى الجند على ما في معسكره وعاش زكرويه بعد الواقعة خمسة أيام ثم مات والذين هربوا من القرامطة لقيهم الحسين بن حمدان فأوقع بهم

ولنذكرهنا نص كتابين أحدهما من ذى الشامة الى عامل من عماله والثانى من عامل الى ذى الشامة ليتضح لنا كيف كان لسان هؤلاء القوم في دعاويهم التى بها يستحلون سفك دماء الناس والسعي فى الارض بالفساد

الكتاب الاول — من عبد الله أحمد بن عبد الله المهدى المنصور بالله الناصر لدين الله القائم بامر الله الحاكم بحكم الله الداعى الى كتاب الله الذاب عن حرم الله المختار من ولد رسول الله أمير المؤمنين وامام المسلمين ومذل المنافقين خليفة الله على العالمين وحاصد الظالمين وقاصم المعتدين ومبيد الملحدين وقاتل القاسطين ومهلك المفسدين وسراج المبصرين وضياء المستضيئين ومشتت المخالفين والقيم بسنة سيد المرسلين وولد خير الوصيين صلى الله عليه وسلم وعلى أهل بيته الطيبين كثيرا الى جعفر بن حميد الكردى سلام عليك فانى أحمد اليك الله الذى لا اله الا هو وأسأله أن يصلى على جدي محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم أما بعد فقد انتهى الينا ما حدث قبلك من أخبار أعداء الله الكفرة وما فعلوه بناحيتك وأظهروه من الظلم والعيث والفساد في الارض فأعظمنا ذلك ورأينا أن ننفذ الى ما هناك من جيوشنا من ينتقم الله به من أعدائه الظالمين الذين يسعون فى الارض فسادا وأنفذنا عطيرا داعيتنا وجماعة من المؤمنين الى مدينة حمص وأمددناهم بالعساكر ونحن في أثرهم وقد أوعزنا اليهم في المصير الى ناحيتك لطلب أعداء الله حيث كانوا ونحن نرجو أن يجرينا الله فيهم على أحسن عوائده عندنا فى أمثالهم فينبغي أن تشد قلبك وقلوب من معك من أوليائنا وتثق بالله وبنصره الذى لم يزل يعودناه فى كل من مرق عن الطاعة وانحرف عن الايمان وتبادر الينا بأخبار الناحية وما يتجدد فيها ولا تخف عنا شيئاً من أمرها ان شاء الله سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله على جدى محمد رسول الله وعلى أهل بيته وسلم كثيرا

الكتاب الثانى – بسم الله الرحمن الرحيم لعبد الله أحمد الامام المهدى المنصور بالله – ثم الصدر كله على مثال صدر نسخة كتابه الى عامله – ثم بعد ذلك من عامر ابن عيسى العنقائي سلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته أما بعد أطال الله بقاء أمير المؤمنين وأدام الله عزه وتأييده ونصره وسلامته وكرامته ونعمته وسعادته وأسبغ نعمه عليه وزاد في احسانه اليه وفضله لديه فقد كان وصل كتاب سيدى أمير المؤمنين أطال الله بقاءه يعلمنى فيه ما كان من نفوذ بعض الجيوش المنصورة مع قائد من قواده الى ناحيتنا لمجاهدة أعداء الله بني الفصيص والخائن ابن دحيم وطلبهم حيث كانوا والايقاع بهم وبأسبابهم وضياعهم ويأمرني أدام الله عزه عند نظرى فى كتابه بالنهوض في كل من قدرت عليه من أصحابي وعشائرى للقائهم ومكانفة الجيش ومعاضدتهم والمسير بسيرهم ولعمد كل ما يومون اليه ويأمرون به وفهمته ولم يصل الى هذا الكتاب أعز الله أمير المؤمنين حتى وافت الجيوش المنصورة فنالت طرفا من ناحية ابن دحيم وانصرفوا بالكتاب الوارد عليهم من مسرور بن أحمد الداعية ليلقوه بمدينة أفامية ثم ورد على كتاب مسرور بن أحمد فى درجة الكتاب الذى اقتصصت ما فيه فى صدر كتابى هذا يأمرنى فيه بجمع من تهيأ من أصحابى وعشيرتى والنهوض الى ما قبله ويحذرنى التخلف عنه وكان ورود كتابه على وقت صح عندنا نزول المارق سبك عبد مفلح مدينة عرقة في زهاء الف رجل ما بين فارس وراجل وقد شارف بلدنا وأطل على ناحيتنا وقد وجه أحمد بن الوليد عبد أمير المؤمنين أطال الله بقاءه الى جميع أصحابه ووجهت الى جميع أصحابي فجمعناهم الينا ووجهنا العيون الى ناحية عرقه لنعرف أخبار هذا الخائن وأين يريد فيكون قصدنا ذلك الوجه ونرجو أن يظفر الله به ويمكن منه بمنه وقدرته ولولا هذا الحادث ونزول هذا المارق فى هذه الناحية واشرافه على بلدنا لما تأخرت في جماعة أصحابي عن النهوض الى مدينة أفامية لتكون يدي مع أيدي القواد المقيمين لمجاهدة من بتلك الناحية حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين وأعلمت سيدى امير المؤمنين اطال

الله بقاءه السبب في تخلفي عن مسرور بن أحمد ليكون على علم منه ثم ان أمرني أدام الله عزه بالنفوذ الى أفامية كان نفوذي برأيه وامتثلت ما يأمرني به ان شاء الله أتم الله على أمير المؤمنين نعمه وأدام عزه وسلامته وهنأه كرامته وألبسه عفوه وعافيته والسلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد النبي وعلى أهل بيته الطاهرين الاخيار

هكذا ضعف سلطان هذه الطائفة بالعراق بعد قتل زكرويه وأولاده وقتل أكثر دعاتهم ولكن قد بقي ذنب الافعى وهو الجنابي بالبحرين ولم يكن له في عهد المكتفي كبير عمله وانما كانت مصائبه ورزاياه فى عهد المقتدر وسنبين ذلك فى حينه

خبر المشرق

انتظمت بلاد خراسان وما وراء النهر لاسماعيل بن أحمد الساماني وكان رجلا عاقلا مدبرا ذا عزيمة ثابتة ولم يزل أمره على ما هو عليه والمكتفي راض عنه حتى توفى سنة ٢٩٥ فولى بعده ابنه أحمد بن اسمعيل وعقد له المكتفى بيده لواء وأرسله اليه

خبر المغرب

وفي عهد المكتفى انقرضت دولتان احداهما دولة بني طولون بمصر على يدى العباسيين وآخر أمرائها شيبان بن أحمد بن طولون سنة ٢٩٢ والثانية دولة الاغالبة بافريقية انتهت علي أيدى أبي عبد الله الشيعى داعية الفاطميين بالمغرب

العلاقات مع الروم

كانت العلاقات في أول الامر حسنة مع ملك الروم حتى أنه تبودلت الهدايا بين الملكين

وفى سنة ٢٩٠ وردت رسل صاحب الروم يسألون المكتفى المقاداة بمن في

أيدى المسلمين من الاسرى ومعهم هدايا فأجيبوا الى طلبهم ولم يتم هـذا الفداء الا سـنة ٢٩٣ فكان جملة من فودى به من المسلمين نحو ١٢٠٠ وكان المتولى للفداء أمير الثغور رستم بن برد ولم تستمر العلاقات حسنة

ففى سنة ٢٩١ سار جيش اسلامى من طرسوس وصمد نحو انطاكية ففتحها بالسيف عنوة وهى من أهم مدن الروم وثغورهم البحرية وقد قتل فى فتحها نحو ٥٠٠٠ من الروم وأسر مثلهم واستنقذ من أسارى المسلمين مثل ذلك وأخذوا من الروم ستين مركبا فحملت فيها الغنائم من الاموال والمتاع والرقيق وقدر نصيب كل رجل ألف دينار وغزا من المسلمين أمير الثغور رستم مرتين وبلغ في غزاته الثانية سلندوا ففتحها وصار الى آلس فأسر من الروم عددا كبيرا وغزا ابن كيغلغ من طرسوس

وفى سنة ٢٩٤ استأمن الى السلطان بطريق اسمه اندرو نقس وكان على حرب أهل الثغور من قبل ملك الروم فأجيب طلبه وأخرج نحوا من مئتى نفس من المسلمين كانوا أسرى في حصنه وكان ملك الروم قد وجه من يقبض عليـه فأعطى المسلمين الذين كانوا أسرى في حصنه السلاح وأخرج معهم بعض بنيه فكبسوا البطريق الموجه اليه للقبض عليه ليلا وقتلوا ممن معه خلقا كثيرا وغنموا ما فى معسكرهم . وكان رستم قد خرج في أهـل الثغور في جمادى الاولى قاصدا اندرو نقس ليتخلصه فوافى رستم قونية بعقب الواقعة وعلم البطارقة بمسير المسلمين اليهم فانصرفوا ووجه اندرونقس ابنه الى رستم ووجه رستم كاتبه وجماعة من البحريين فباتوا فى الحصن فلما أصبحوا خرج اندرونقس وجميع من معه من أسرى المسلمين ومن صار اليهم منهم ومن وافقه على رأيه من النصارى وأخرج ماله ومتاعه الى معسكر المسلمين وضرب المسلمون قونية ثم قفلوا الى طرسوس هم واندرونقس وأسارى المسلمين ومن كان مع اندرونقس من النصارى وقد وصل هذا البطريق الى بغداد فأكرم

وحصل فى آخر عهد المكتفى مفاداة ثانية تمت سنة ٢٩٥ وكان عدة من فودى به من الرجال والنساء ثلاثة آلاف نفس

وفاة المكتفى

توفى المكتفى في ١٢ ذى القعدة سنة ٢٩٥

١٨ — المقتدر

هوجعفرالمقتدر بالله بن المعتضدبن أبي أحمدبن المتوكل وهوأخوالمكتفى وأمه أم ولداسمهاشغب ولدسنة ٢٨٢ وبويع بالخلافة بعد وفاة أخيه ولم يزل خليفة الى أن قتل في ٢٨ شوال سنة ٣٢٠ (١ نوفبر سنة ٩٣٢) فتكون مدته ٢٤ سنة و ١١ شهرا و ١٦ يوما

وكان يعاصره فى الاندلس عبد الله بن محمد الى سنة ٣٠٠ ثم أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر المتوفي سنة ٣٥٠ وهو أول من تسمى بأمير المؤمنين من بنى أمية بالاندلس

ويعاصره بأفريقية عبيد الله المهدى أول خلفاء الفاطميين بالمغرب (٢٩٧-٣٢٢)

ويعاصره في بلاد الروم لاون السادس ثم أخوه الاسكندر بن بسيل (٩١١-٩١٢) ثم قسطنطين السابع بن لاون السادس وكانت تدبره أمه زوا ثم رومانس الاول الارمنى الذى اغتصب الملك سنة ٩١٩ ولم يبق لقسطنطين الا الاسم وشارك رومانس فى الملك أبناؤه خريستوف واسطفانس وقسطنطين أحدهم بعد الآخر وتصرف به تصرف مالك ٢٥ سنة الى سنة ٩٤٤ فأغرى قسطنطين السابع ابنى رومانس وهما اسطفانس وقسطنطين الثامن بالمناصبة لابيهما فثارا به وثلا عرشه وحبساه فى دير حيث مات سنة ٩٤٨ وعاد قسطنطين السابع الى ملكه سنة ٩٤٥ مستبدا به الى سنة ٩٥٩ حيث مات مسموما على ما يقال

ويعاصره فى فرنسا شارل الثالث الملقب بالساذج ثم روبرت الاول (٩٢٢-٩٢٣) ثم راوول من أقارب الكاباسيان (٩٢٣ - ٩٦٢) .

ويعاصره فى خراسان وما وراء النهر أحمد بن اسماعيل بن أحمد الساماني

كيف انتخب

لما ثقل المكتفى كان فى منصب الوزارة العباس بن الحسن ففكر فيمن يتولى الخلافة بعده لانه لم يكن ولى أحدا العهد في صحته وكان من عادة الوزير أن يسابره اذا ركب واحد من هؤلاء الاربعة الذين يتولون الدواوين وهم أبو عبد الله محمد بن داود بن الجراح وأبو الحسن محمد بن عبد الله وأبو الحسن على بن محمد بن الفرات وأبو الحسن على بن عيسى فاستشار الوزير يوما محمد بن داود بن الجراح فى ذلك فأشار بعبد الله بن المعتز ووصفه بالعقل والادب والرأى واستشار بعده أبا الحسن بن الفرات فقال هذا شيء ما جرت به عادتى أن أشير فيه وانما أشاور فى العمال لا فى الخلفاء فغضب الوزير وقال هذه مقاطعة باردة وليس يخفي عليك الصحيح وألح عليه فقال ان كان رأى الوزير قد استقر على أحد بعينه فليفعل فعلم الوزير انه يعني ابن المعتز لاشتهار خبره فقال لا أقنع الا أن تمحضني النصيحة فقال ابن الفرات فليتق الله الوزير ولا ينصب الا من قد عرفه واطلع على جميع أحواله ولا ينصبه بخيلا فيضيق على الناس ويقطع أرزاقهم ولا طماعا فيشره في أموالهم فيصادرهم ويأخذ أموالهم وأملاكهم ولا قليل الدين فلا يخاف العقوبة والآثام ويرجو الثواب فيما يفعله ولا يولى من عرف نعمة هذا وبستان هذا وضيعة هذا وفرس هذا ومن قد لقى الناس ولقوه وعاملهم وعاملوه ويتخيل ويحسب حساب نعم الناس وعرف وجوه دخلهم وخرجهم فقال الوزير صدقت ونصحت فبمن تشير قال أصلح الموجودين جعفر بن المعتضد فقال ويحك هو صبى قال ابن الفرات الا أنه ابن المعتضد ولم نأت برجل كامل يباشر الامور بنفسه غير محتاج الينا . فمالت نفس الوزير الى مشورة ابن الفرات وانضاف الى ذلك وصية المكتفي فانه أوصى لما اشتد مرضه بتقليد أخيه

جعفر الخلافة فلما مات المكتفى اختار الوزير جعفرا للخلافة بالاتفاق مع صافي الحرمى ولقب المقتدر بالله وسنه اذ ذاك ثلاث عشرة سنة.

وكأن ذلك لم يرق للناس لصغر سن المقتدر فاجتمع القواد والقضاة والكتاب مع الوزير العباس بن الحسن واتفقوا على خلع المقتدر وتولية عبد الله بن المعتز فراسلهم في ذلك فأجابهم على أن لا يكون فيه سفك دم ولا حرب فأخبروه باجتماعهم عليه وانه ليس لهم منازع ولا محارب وكان رأس هذا التدبير الوزير ومحمد بن داود بن الجراح وأحمد بن يعقوب القاضى ومن القواد الحسين بن حمدان وبدر الاعجمى ووصيف ابن صوارتكين ثم ان الوزير أراد الانفصال عنهم لانه رأى حاله صالحا مع المقتدر وانه على ما يحب فقام عليه الآخرون فقتلوه قتله الحسين بن حمدان وبدر ووصيف في ٢٠ ربيع أول سنة ٢٩٦ وفى غده خلعوا المقتدر وبايعوا لابن المعتز وحضر البيعة الناس والقواد وأصحاب الدواوين سوى أبى الحسن بن الفرات وخواص المقتدر وكتبت الكتب بذلك الى العمال ووجه الى المقتدر يأمره بالانتقال من دار الخلافة فأجابه بالسمع والطاعة وسأل الامهال الى الليل . ولم يكن بقى مع المقتدر من القواد الا مؤنس الخادم ومؤنس الخازن وغريب الخال وحاشية الدار . فلما هم المقتدر بالانتقال قال بعضهم لبعض لا نسلم الخلافة من غير أن نبلى عذرا ونجتهد في دفع ما أصابنا فأجمع رأيهم على أن يصعدوا في المساء الى الدار التى فيها ابن المعتز ويقاتلوه وعاونهم المقتدر بالسلاح والزرديات وغير ذلك فركبوا في السميريات وأصعدوا في المساء فلما رآهم من عند ابن المعتز هالهم كثرتهم واضطربوا وهربوا على وجوههم من قبل أن يصلوا اليهم . وكان قد حصل قبل ذلك أن الحسين بن حمدان فارق بغداد بأهله وتركهم في هذا المأزق ولا يدري لم فعل ذلك

فلما رأى ابن المعتز هذه الحال ركب ومعه وزيره الذى اختاره أو اختير له وهو محمد بن داود وهربا وغلام له ينادي يامعشرا العامة ادعوا لخليفتكم السنى البربهارى (ينسبونه الى الحسين بن القاسم بن عبيد الله البربهاري مقدم الحنابلة

وأهـل السنة وللعامة فيه اعتقاد فأرادوا من تلك النسبة استمالتهم بهذا القول) سار ابن المعتز على هـذه الصفة نحو الصحراء ظنا منهم ان من بايع ابن المعتز من الجند يتبعونه فلم يلحقه منهم أحد ولمـا رأوا ذلك اختفى محمد بن داود فى بيته ونزل ابن المعتز عن دابته ومعه غلامه وانحدر الى دار أبى عبد الله بن الجصاص فاستجار به واستترأ كثر من بايع ابن المعتز ووقعت الفتنة والنهب والقتل ببغداد وثار العيارون والسفل ينهبون الدور لان صاحب الشرطة كان ممن بايع ابن المعتز فهرب أيضا

في ذلك الوقت خرج المقتدر بالعسكر وقبض على كل من كان لهم يد في بيعة ابن المعتز فقتلهم وأرسل الى ابن الفرات فاستوزره . ثم عثر على ابن المعتز فأخـذ وحبس الى الايل وعذب حتى مات وأخذ وزيره محمد بن داود فقتل ثم أرسل خلف الحسين بن حمدان فلم يدرك وأخيرا رضى عنه المقتدر فحضر الى بغداد مرضيا عنه

وانتهت بذلك هذه الفتنة التى بها ابتـدأ ضعف الخلافة وسـقوط هيبتها واشتد الانتكاس فى عهد المقتدر حتى لم يعد للخلافة أدنى سلطان ولا احترام فان المقتدر حين ولى كان شابا غرا لا يعرف من السياسة ولا من الشجاعة شيئاً وكانت له أم وقهرمانة صار لهما الحـكم فى كل ما يجرى من الشؤون واليهما يتقرب بالرشوة من يريد عملا أو وزارة والمقتدر لاه بما هو فيه من اللعب واللهو والسرف لا يفكر في صـلاح ولم يعد بيده شيء . ولنصور لـكم الحال تماما نبدأ بذكر الوزراء أيام دولته وكيف كانوا ينالون الوزارة وكيف كان يفعل بهم اذا قدمت رشوة ممن يريد أن يحل محلهم

كان أول وزرائه أبو الحسن على بن محمد بن موسى بن الفرات اسـتوزره يوم الاحد لعشر بقين من شهر ربيع الاول سنة ٢٩٦ فنظر فى الامور نظرجد واهتمام وأمر جماعة من القواد بطواف البلد ليلا والايقاع بأهل الدعارة ومن يرونه متعرضاً لنهب دار وأخذ مال وعلى يد ابن الفرات كانت عقوبات جميع من خرجوا مع ابن المعتز فصادر من صادر وقتل من قتل وكان ممن دخل فيهذة الفتنة أبو عمر محمد بن

يوسف القاضي فأخذ فيمن أخذ وحضر أبوه يوسف وهو شيخ كبير مجلس ابن الفرات وبكى بين يديه بكاء شديدا رق له منه وسأله حراسة نفس ولده أبي عمر والتصدق عليه به فقال الوزير الجناية عظيمة ولا يمكن تخليته الا بمال جليل يطمع الخليفة فيه من جهته فبذل يوسف أن يفقر نفسه وابنه طلباً لبقائه وتلطف ابن الفرات فيما قاله للمقتدر وقرر أمر أبي عمر على مائة ألف دينار فأدى منهـا تسعين ألفاً من جملتها ٤٥ ألفاً كانت عنده وديعة للعباس بن الحسن وأمره ابن الفرات بعد ذلك بملازمة داره وألا يخرج منها لئلا يجعل له حديث مجدد

مضى ابن الفرات في وزارته هذه ثلاث سنين وثمانية أشهر وأربعة عشر يوما اختلفت عليه الامور فيها وحدثت الحوادث وحضر عيد النحر من سنة ٢٩٨ فاحتيج فيه من النفقات الى ماجرت العادة به وكانت المواد قد قصرت والمؤن قد تضاعفت وطلب المقتدر أن يعطيه من بيت مال الخاصة ما يصرفه فى نفقات هذا العيد فمنعه من ذلك وألزمه القيام به من جهته فوجد بذلك أعداؤه الطريق الى الوقيعة فيه

فركب فى يوم الاربعاء لاربع خلون من ذي الحجة الى دار الخلافة وهو على غاية السكون والطمأنينة وجلس فى الموضع الذى كان يجلس فيه قبل الوصول الى السلطان فقبض عليه وعلى كاتبه ومضى القواد للقبض على أسبابه وكتابه فقبضوا عليهم وصار مؤنس الخادم الى دار الوزارة فوكل بها وأنفذ يلبق الى دار ابن الفرات فأحاط عليها وتسرع الجند والعوام الى دور أولاده وأهله فنهبوها وأخربوها وأخذوا ساجها وسقوفها وعظم الامر في النهب حتى ركب أبو القاسم فى الحال بعد العصر فى القواد والغلمان وطلب النهابة وعاقب قوما منهم فقامت الهيبة وسكنت الفتنة وأحضر الوزير الثاني

محمد بن عبيد الله بن خاقان

فقلد الوزارة وقبض ما كان لابن الفرات من الضياع والاقطاع والاملاك والعقار والاموال والعلات وصح له ما مقداره ألف ألف دينار عيناً وستمائة ألف دينار

سوى الاثاث والرحل والكراع والجمال

تولى ابن خاقان فبدأ وزارته بالمصادرات والمضايقات يريد بذلك سد حاجة الخليفة حتى لا يقع فيما وقع فيه سلفه وحول من بيت مال الخاصة الى بيت مال العامة ألف ألف دينار وستمائة ألف دينار على سبيل القرض ولم يؤد من عوض ذلك سوى أربعين ألف دينار وكان في ابن خاقان اهمال للامور واطراح للاعمال وتلون في الافعال فكانت الكتب ترد عليه وتصدر جواباتها عنه من غير أن يقف عليها أو يأمر بشيء فيها واذا أخرجت اليه جوامعها تركها أياما فلم يطالعها وربما وردت رسائل بحمول وكتب فيها سفاتج بمال فتبقى أياما لا تفض واذا قلد عامل أتبع بمن يعزله قبل وصوله الى عمله وأتبع الصارف بمن يصرفه فقيل انه اجتمع في خان بحلوان سبعة أنفس وقد قلد كل واحد منهم ماه الكوفة في عشرين يوما وبالموصل خمسة قد قلدوا قردى وبازبدى وانهم اجتمعوا وتشاكوا مادفعوا اليه وخرج عن أيديهم من نفقاتهم وما بذلوه عن تقليدهم على أن يناولوا من مال العمل ماقدموه وأنفقوه واستظهروا لنفوسهم به وخلوا العمل على آخر من ورد من الناحية

وكان اذا سئل حاجة دق صدره بيديه وقال نعم وكرامة حتى لقب دق صدره وبسط يده وأيدي أولاده وكتابه بالتوقيعات بالصلات والاطلاقات والاقطاعات والتسويغات وتخفيف الطسوق والمعاملات وأخذ المرافق على اضاعة الحقوق واسقاط الرسوم فسخفت الوزارة وأخلقت الهيبة وزادت الحال فى اخلال الاعمال ووقوف الاحوال وقصور المواد وتضاعف الاستحقاقات واشتداد المطالبات وشغب الجند شغبا بعد شغب وتسحبوا على السلطان تسحبا بعد تسحب وأخرج اليهم من بيت مال الخاصة شيئا بعد شيء . حتى اذا انحل النظام وبان الانتشار وتصور المقتدر الصورة فيما تطرق من الوهن على المملكة شاور مؤنسا الخادم فيمن يقلده الوزارة فاستقر الامر على وزارة

على بن عيسى

وكان بمكة بعيدا عما يجرى ببغداد خوفا على نفسه فأنفذ اليه فلما حضر قلد الوزارة في عاشر محرم سنة ٣٠١ فكانت مدة سلفه سنة واحدة وشهرا وخمسة أيام فسلم الى الوزير الجديد هو وولداه وأبو الهيثم بن ثوابة ولما نظر علي في الامور وجد في أيدي القواد والحاشية والرعية توقيعات كثيرة بخط ابن خاقان وخط ابنيه وكتابه فى فك واثبات وتقرير وايجاب ومظالم وتسويغات واقطاعات ومقاطعات مما مثله يأتى على ارتفاع المملكة وقد كان الخاقاني أذن لهذه الجماعة في التوقيع عنه بكل ماراوه وكانوا على فاقة وضغطة وخروج من نكبة وعطلة وغرضهم الارتفاق وأخذ مالاح تأمل على بن عيسى هذه التوقيعات فأسقطها وكان منها ماثبت فى الدواوين وما لم يثبت وعمل على اعلام المقتدر ما على الملك وبيت المال من الوهن والنقص بامضائها فقال له أحد خلصائه لا تفعل فان الخليفة على ما تعرفه من التدبر بآراء النساء والقبول من الحاشية وأكثر هذه التوقيعات لهم وللمتعلقين عليهم والملتجئين اليهم فاعدل الى أن تنظر ما قد أنشئ الكتاب به من ديوان الدار الى أصحاب الدار فتمضيه وما كان بخلاف ذلك أبطلته فانك تمضى القليل وتبطل الكثير وتأمن عداوة الناس ومتى استأذنت الخليفة لم تأمن ان يأمرك بامضائها كلها فتقع في الطويل العريض — فلم يقبل ومضى فطالع المقتدر بالصورة واستأمره في اسقاط التوقيعات وقد كان الحواشى سبقوا اليه بالشكوى فقال له ارجع الى الخاقاني وابنه فاعرفك انه بتوقيعهما أمضيته وما كان بتوقيع أصحابهما رددته — فأمر بجمع الرقاع وأنفذت الى الخاقانى وابنه فى السجن فأقر الخاقانى بصدور كلها عن اذنه فقامت قيامة على بن عيسى من ذلك الجواب واضطر الى امضاء الاكثر واسقاط من استضعف صاحبه واستلان جانبه ولم تكن له جهة تشفع له وعرف الحاشية ذلك وشكروا للخاقاني وتعصبوا له وقاموا بأمره كما سيجيء

كان على بن عيسى رجلا عاقلا متدينا متصونا متعففا عارفا بالاعمال حافظا للاموال كثير الوقار والجد بعيدا من التبذل والهزل على شح غالب في طباعه وتجهم

ظاهر في أخلاقه وعمد فى نظره الى تخفيف المؤن وحذف الكلف ونقص الخرج والمضايقة في الجارى والرزق ورد كثيرا مما وقع به الخاقاني من الاثبات والزيادات فأوحش خواص المقتدر وعاداهم فكثرت السعاية عليه والوقيعة فيه واستثقل أكثر الناس موضعه وضاقت صدورهم بنظره ووقع الشروع في افساد أمره ورد ابن الفرات .

عرف الوزير ما يجري من ذلك فبدأ بالاستعفاء وكان فيما كتب من رقاعه بذلك الى السيدة أم المقتدر

بسم الله الرحمن الرحيم أطال الله بقاء السيدة وأدام عزها وتأييدها وكلاءتها وحراستها وأسبغ نعمه عليها وزاد في احسانه اليها ومواهبه الجميلة وآلائه الجزيلة وأقسامه الهنيئة وفوائده السنية عندها وبلغها في سيدنا أمير المؤمنين أطال الله بقاءه وأدام له العز والتمكين والنصر والتأييد غاية محبتها وأفضل أمنيتها ووصل أيام سرورها بعافيته واغتباطها برؤيته ووقاها فيه وفي نفسها وفي الامراء استودعهم الله واستوهبه أيامهم كل سوء محظور ومخوف بمنه ورأفته . وصلت الرقعة أعز الله السيدة وعرفت ما تضمنت فأما الفتنة التى كانت ملتحمة مع أعظم الاعداء مضرة وأقربهم محلة وأشدهم على المطالبة جرأة فقد تكلفت الانفاق عليها وقمت بتدبيرها حتى بلغ الله أمير المؤمنين والسيدة في جميعها المحبة وانتظمت في صدور الاعداء شرقا وغربا الهيبة وما أنفقت مع ذلك من بيت مال الخاصة بعد الذى رددته اليه نصف عشر ما أنفقه محمد بن عبيد الله الخاقانى وابن الفرات قبله وأنا عامل بعون الله على رد ذلك عن آخره ومتى لم ينفق المعتضد بالله فى أسفاره على مائدة أعدائه من بيت مال الخاصة أضعاف هذه النفقة وقد أنفق المكتفى بالله وكان من النظر في القليل اليسير على ما عرف به من بيت مال الخاصة جملة بعد جملة مع قلة النفقات في أيام المعتضد بالله وما أقول قولا يدفع لان الدواوين تشهد به وحسبانات بيوت الاموال تدل عليه ومؤنس خازن بيت مال الخاصة منذ أيام المعتضد بالله والى هذه الغاية يعلمه وان سئل عنه صدق هذا مع رفقي بالرعية وعمارتى النواحى المختلة وازالتى عنها كل ظلم ومؤونة

حتى صارت أيام أمير المؤمنين أطال الله بقاءه منذ خدمته أيام الخير وفيها الآثار الموصوفة وامتلات قلوب الرعية هيبة بعد ان كانت تثب على الرؤساء وترمى بالحجارة على ما قيل لى عند اجتيازهم في دجلة . وأما الاستحقاقات المتأخرة فلست أعرفها وبباب أمير المؤمنين الكبير من الغلمان والحاشية والفرسان والرجالة وما أحسب صنفا من هـذه الاصناف يقدر ان يقول انه قبض فى وقت من الاوقات قبضا متصلا وليس يقول أحـد منهم انه دفع عن استحقاق ولا تأخر له شيء من رزقه ونزله وكذلك الفرسان والعساكر الخارجة مع مؤنس وغيره مستوفية وأكثر من بالحضرة فهذه سبيلهم . وقد حضروا منذ مدة بباب العامة وطالبوا فأدخلت طائفة منهم ونوظرت فلم تكن لهم حجة فى الاستحقاقات وانما التمسوا الزيادة والنظر والصلة وهذا خارج عن الواجب ولو منع بعضهم فلم يعط شيئاً لكان ذلك واجبا صالحا ومتى كان الجند يوفون حتى لا يكون لهم شيء متأخر ما كان هذا في زمن من الازمان وما تركت ان قلت لسيدنا أمير المؤمنين أعزه الله فى ذلك ما يجب ان أقوله وخاطبت أم موسى مرة بعد مرة فيه وأما ماقيل للسيدة أعزها الله فى استعفائي فلم أستعف نصا ولو حملت الرماد على رأسى لما تكرهت ذلك ولا تأبيته واني لالزم نفسى الصبر على كل نائبة في خدمة سيدنا أمير المؤمنين أيده الله وأرى ذلك ديانة ولكنى أعز الله السيدة أضجر كما يضجر الناس اذا خوطب بما لا يحب وأنا أبلغ جهدى في النصيحة وتأدية الامانة فان كان ذلك واقعا موقعه فهو الذى أقصد وان كان يظن بي غير ما أنا عليه فهى المصيبة وقد يحرم الانسان ثمرة اجتهاده ويقع ما يفعله على خلاف مذهبه واعتماده وما يسعنى وما يحل لى أن أؤخر الصدق في جميع الاحوال قاضيا بذلك حق الله عز وجل وحق سيدنا أمير المؤمنين أطال الله بقاءه وحق السيدة أعزها الله وأسأل الله أولا وآخرا أن يصلح لهما أمورها ظاهرا وباطنا صغيرها وكبيرها ويكفيهما المهم ويسهل الصلاح بهما وعلى أيديهما بمنه وقدرته وجوده وكرمه

وانما كتبنا هذا الكتاب بطوله ليتبين كيف كان تداخل النساء في سياسة

المملكة ان على بن عيسى كان أحسن وزراء المقتدر وقد كان ممـا فعله في وزارتا هذه ان أسقط المكس بمكة والتكملة بفارس وسوق بحر الاهواز وحصن مهدى ونهر السدرة وكان يعترض فى هذه المواضع على ما يجهز الى البحر ويرد منه وتؤخذ الضرائب المسرفة عنه وأزال جباية الجمهور بديار ربيعة وأشار على المقتدر بوقف المستغلات بدار السلام وغلتها نحو ثلاثة عشر ألف دينار والضياع الموروثة بالسواد الجارية في ديوان الخاصة وارتفاعها نيف وثمانون الف دينار على الحرمين والثغور فقبل رأيه ونصب على بن عيسى لهذه الوقوف ديوانا سماه ديوان البر . ولما كان بمكة وجد المـاء ضيقا على أهلها وعلى أصحاب السلطان يسخرون جمال الناس وحميرهم لنقله من جدة اليها فابتاع عددا كثيرا من الجمال والحمير ووقفها على حمل الماء وأقام لها العلوفة الراتبة ومنع من السخرة وحظرها وحفر بئرا عظيمة فخرجت عذبة شروبا وسماها الجراحية . وابتاع عينا غزيرة بألف دينار وفتحها ووسعها حتى كثر الماء بمكة ووصل الرفق به الى أهل الضعف والمسكنة

ومع كل ما أجراه من الاصلاح فان حكومة النساء لم تتركه هادىء البال قرب عيـد الاضحى واحتيج الى ماجرت العادة باطلاقه للحرم فجاءته أم موسى القهرمانة في آخر ذى القعدة مخاطبة في ذلك ومقررة للامر فيه وكان محتجبا فلم يأذن لها حاجبه واعتذر لها عذرا لطيفا وصرفها صرفا جميلا فغضبت وانصرفت وأعلم على ابن عيسى خبرها في حضورها وانصرافها فأنفذ اليها واستعذرها فلم تعذر وصارت الى المقتدر بالله والى السيدة وأغرتهما به وتكذبت عندهما عليه وأدي ذلك الى القبض عليه في يوم الاثنين ثامن ذى الحجة سنة ٣٠٤ فكانت مدة وزارته ثلاث سنين وعشرة أشهر و ٢٨ يوما

وفي يوم القبض عليـه أطلق الوزير ابن الفرات وأعيد من محبسه الى دست الوزارة ورد عليه المقتدر ما كان قبض عنه وعن أهله وكتابه وأسبابه من الضياع والاموال فارتجع ما كان حصل في أيدى الناس القواد وخواص الدولة من ذلك

وكان قد تعهد وهو فى السجن انه متى رد للوزارة أطلق للولد والحرم والخدم ومن بالحضرة من الفرسان برسم التفاريق مثل ما كان يطلقه في وزارته الاولى تماما وادرارا وأن يحمل الى المقتدر كل يوم الف دينار والى السيدة والامراء ٥٠٠ دينار فوفي بما تعهد به

كان حامد بن العباس قد تضمن واسطا وضياعها بمال يخرجه ضمنه اياها على بن عيسى فلما وزر ابن الفرات كان يعلم ان حامد بن العباس يربح منها ربحا كثيرا فلما انتهت مدة ضمانه أراد أن يخرجها عنه الى غيره وكان بواسط قسيم الجوهرى يشرف للسيدة أم المقتدر على ضياعها بواسط ويكثر هناك المقام ويحضر عند حامد فيبسطه فاتفقا على أن قسيما يسفر له في نيل الوزارة فذهب قسيم الى بغداد وخاطب نصرا الحاجب فى ذلك وأطمعه في حامد وملأ يده منه وعرفه سعة صدره وسخاء نفسه وضمن له منه تصحيح المال الكثير من ابن الفرات وأسبابه وراسل السيدة أيضاً ووافق هذا القول والسعى سوء رأى نصر الحاجب فى ابن الفرات وخوفه منه وكثرة الوقيعة فيه وقول الناس انه قد قلد ولده الدواوين وأقاربه الاعمال الى غير ذلك من الوشايات التى تروج فى حكومة النساء فاتفق الامر على اصعاد حامد وتوليته الوزارة فأرسل اليه فحضر وفى يوم حضوره قبض على ابن الفرات يوم الخميس لثلاث بقين من جمادى الاولى سنة ٣٠٦ وكانت مدة وزارته هذه الدفعة سنة وخمسة أشهر و ١٩ يوما

حامد بن العباس

لم يكن لحامد من الخصال ما يؤهله للوزارة فظهر ذلك لحاشية المقتدر فعابوه عنده ونسبوه الى الجهل بأمور الوزارة فأمر باطلاق على بن عيسى من محبسه وجعله يتولى الدواوين شبه النائب عن حامد فكان يراجعه فى الامور ويصدر عن رأيه ثم انه استبد بالامر دون حامد ولم يبق لحامد غير اسم الوزارة حتى قيل فيهما

هذا وزير بلا سواد　　وذا سواد بلا وزير

ثم ان حامدا أحضر ابن الفرات ليقابله على أعماله ووكل بمناظرته على بن أحمد

الماذرائى ليصحح عليه الاحوال فلم يقدر على اثبات الحجة عليه فانتدب له حامد وسبه ونال منه وقام اليه فلكمه وكان حامد سفيها فقال له ابن الفرات أنت على بساط السلطان وفى دار المملكة وليس هذا الموضع مما تعرفه من بيدر تقسمه أوغلة تستفضل فى كيلها ولا هو مثل أكار تشتمه ثم قال لشفيع اللؤلؤى قل لامير المؤمنين عني ان حامدا انما حمله على الدخول فى الوزارة وليس من أهلها أنني أوجبت عليه أكثر من الفى الف دينار من فضل ضمانه وألححت عليه في مطالبته بها فظن انها تندفع عنه بدخوله فى الوزارة وانه يضيف اليها غيرها فاستشاط حامد و بالغ فى شتمه فأنفذ المقتدر فأقام ابن الفرات من مجلسه ورده الى محبسه وقال على بن عيسى ونصر الحاجب لحامد قد جنيت علينا وعلى نفسك جناية عظيمة بما فعلت بابن الفرات وأيقظت منه شيطانا لا ينام

ولما رأى حامد انه لا عمل له مع على بن عيسى شرع في عمل له آخر فضمن أعمال الخراج والضياع الخاصة والعامة والمستحدثة والفراتية بسواد بغداد والكوفة وواسط والبصرة والاهواز وأصبهان واستأذن في الانحدار الى واسط ليدبر أمر ضمانه الاول فأذن له فانحدر واسم الوزارة عليه وعلى بن عيسى يدبر الامور وأظهر حامد زيادة ظاهرة فى الاموال فسر المقتدر و بسط يد حامد فى الاعمال حتى خافه على بن عيسى ثم ان السعر غلا ببغداد فثارت العامة والخاصة واستغاثوا وكسروا المنابر وكان حامد يخزن الغلال وكذلك غيره من القواد فأمر المقتدر باحضار حامد بن العباس فحضر فعاد الناس الى شغبهم فأنفذ حامد جندا لمنعهم فقاتلتهم العامة وأحرقوا الجسرين وأخرجوا المحبسين من السجون ونهبوا دار صاحب الشرطة ولم يتركوا له شيئاً فانفذ المقتدر جيشاً قاتل العامة حتى هربوا ودخلوا الجامع بباب الطاق فوكل بابواب الجامع وأخذ كل من فيه فحبسوا وضربوا بالمقارع وقطعت أيدي من عرف بالفساد فسكنت الفتنة وأمر المقتدر بفتح مخازن الغلة التى لحامد ولام المقتدر وغيرهما و بيع مافيهما فرخصت الاسعار وسكن الناس وأفهم على بن عيسى المقتدر

أن سبب غلاء الاسعار انما هو ضمان حامد لانه منع من بيع الغلال في البيادر وخزنها فامر المقتدر بفسخ الضمان عن حامد وصرف عماله عن السواد وأمر على بن عيسى أن يتولى ذلك فسكن الناس

ضج الاولاد والحرم والخدم والحشم الى المقتدر مستغيثين من تأخير أرزاقهم فان على ابن عيسى كان يؤخرها فاذا اجتمع عدة شهور أعطاهم بعضاً وأسقط بعضاً وحط من أرزاق العمال في كل سنة شهرين فزادت عداوة الناس له وضجر المقتدر من هذه الاستغاثات وكذلك ضجر حامد بن العباس من مقامه ببغداد وليس له من الامر شيء غير لبس السواد وأنف من اطراح على بن عيسى لجانبه فاستأذن حامد وسار الى واسط . وجرى بين حامد وبين مفلح الاسود كلام فقال حامد لقد هممت أن أشترى مائة خادم أسود وأسميهم مفلحا فحقدها عليه مفلح وكان خصيصا بالمقتدر فسعى ومعه المحسن بن الحسن بن الفرات للحسن بالوزارة وضمن أموالا جليلة وكتب على يده رقعة يقول ان تسلم الوزير وعلى بن عيسى وابن الحوارى وشفيعا اللؤلؤى ونصرا الحاجب وأم موسى القهرمانة والمادرائيين يستخرج منهم سبعة آلاف الف دينار وهذه رشوة عظيمة لا يستهان بها فاصاب ذلك السعى وقبض على على بن عيسى في ربيع الآخر سنة ٣١١ وأطلق ابن الفرات وعهدت اليه وزارته الثالثة وسمع حامد بالخبر واختفى ببغداد ثم لبس زى راهب وخرج من مكانه الذى اختفى فيه ومشى الى نصر الحاجب وسأله ان يوصل حاله الى الخليفة فدعا نصر مفلحا فلما حضر ورأى حامدا قال أهلا بمولانا الوزير أين مماليكك السودان الذين سميت كل واحد منهم مفلحا ولم يكن لحضوره نتيجة تفيده بل سلم الى ابن الفرات الوزير فاستلمه المحسن ابنه وكان وقحا سيء الادب ذا قسوة شديدة وكان الناس يسمونه الخبيث فعذب حامدا بأنواع العذاب وأخيرا أنفذه الى واسط ليبيع املاكه بها ثم دس من سمه في الطريق فمات وظهر في هذه الوزارة من المحسن شر عظيم لكثرة مانكب الناس وصادرهم وعذبهم بأنواع العذاب لاستخراج أموالهم حتى مات أكثرهم تحت العذاب من غير

شفقة ولا رحمة وفيهم كبار الدولة ورؤساؤها وكتاب دواوينها وصادف ذلك ان وقع الشر العظيم من القرامطة بالحجاج فتضاعفت المصائب على أهل بغداد رؤساؤهم تقتل وحجاجهم تنهب وتموت عطشا ولا مدافع ولامحام فكثر الارجاف على ابن الفرات وأخيرا صدر الامر بالقبض عليه في ثامن ربيع الاول سنة ٣١٢ بعد ان استقر في هذه الوزارة الاخيرة عشرة أشهر وثمانية عشر يوما فقبض عليه ثم قبض على ابنه المحسن . وتولى الوزارة

عبد الله بن محمد بن عبيد الله بن يحيى بن خاقان

بعد ان تكفل بمصادرة ابن الفرات بألفي الف دينار فكان ذلك سببا لتضييقه على ابن الفرات وولده ثم عذب المحسن بانواع العذاب ليجيب الى مصادرة يبذلها فلم يجبهم الى دينار واحد وقال لا أجمع لكم بين نفسي ومالي واشتد عليه العذاب بحيث امتنع عن الطعام والشراب فلما علم بذلك المقتدر أمر بحمله مع أبيه الى دار الخلافة ثم اتفق رجال الحاشية على قتلهما فذبحوهما كما تذبح الغنم وكان عمر ابن الفرات حين قتل ٧١ سنة وعمر ولده المحسن ٣٣ سنة وكان ابن الفرات يقول ان المقتدر يقتلني . عاد يوما وهو مفكر كثير الهم فقيل له في ذلك فقال كنت عند أمير المؤمنين فما خاطبته في شيء من الاشياء الا قال لي نعم فقلت له الشيء وضده ففي كل ذلك يقول نعم فقيل له هذا لحسن ظنه بك وثقته بما تقول فقال لا والله ولكنه أذن لكل قائل وما يؤمنني أن يقال له يقتل الوزير فيقول نعم والله انه قاتلي . وكان ابن الفرات كريما ذا رياسة وكفاية في عمله حسن السؤال والجواب ولم يكن له سيئة الا ولده المحسن

لم يكن الوزير الخاقاني بأحسن حظاً من غيره من الوزراء فقد وجد من يساوم عليه فرفع الى المقتدر رقعة من أبي العباس الخصيبي يذكر معايبه ومعايب ابنه عبد الوهاب وعجزهما وضياع الاموال وطمع العمال ثم ان الوزير مرض فوقفت الاحوال وطاب الجند أرزاقهم وشغبوا فأرسل اليه المقتدر في ذلك فلم يقدر على شيء فعزل في رمضان سنة ٣١٣ وولى الوزارة

أبو العباس الخصيبي

وكان هذا الوزير الجديد لا يصلح لعمل فانه كان شر وبا فكان يصبح سكران لا قصد فيه لعمل وسماع حديث وكان يترك الكتب الواردة للدواوين لا يطالعها الا بعد مدة ويهمل الاجوبة عنها فضاعت الاموال وماتت المصالح ثم انه لضجره وتبرمه بها وبغيرها من الاشغال وكل الامور لنوابه وأهمل الاطلاع عليهم فباعوا مصلحته بمصلحة نفوسهم ولما ظهر هذا الاختلال أشير على المقتدر بعزله وولاية على بن عيسى فقبض عليه في ذى القعدة سنة ٣١٤ بعد وزارة مدتها سنة وشهران وأخذ ابنه وأصحابه فحبسوا واستدعى على بن عيسى من مكة وكان بها مقيما ليدبر أمر الوزارة وأمر عبيد الله بن محمد الكلوذاني بالنيابة عن على بن عيسى الى أن يحضر فسار على ابن عيسى فحضر بغداد فى أول سنة ٣١٥ و به صلحت الاحوال نوعا وكان من أقوم الاسباب في ذلك أن الخصيبي كان قد اجتمع عنده رقاع المصادرين وكفالات من كفل منهم وضمانات العمال بما ضمنوا من المال بالسواد والاهواز وفارس والمغرب فنظر فيها على وأرسل فى طلب تلك الاموال فأقبلت اليه شيئاً بعد شيء فأدى الارزاق وأخرج العطاء وأسقط من الجند من لا يحمل السلاح ومن أولاد المرتزقة من هو فى المهد فان آباءهم أثبتوا أسماءهم ومن أرزاق المغنين والمساخرة والندماء وغيرهم وتولى الاعمال بنفسه ليلا ونهارا واستعمل العمال في الولايات واختار الكفاة ومع ما أظهره من الهمة وظهر على يده من الصلاح لم يكن ممن يعجب حاشية المقتدر لانه كان يرى ان الاصلاح لا يكون الا مع الاقتصاد فى النفقة ونفقة الخدم والحرم ولا سيما أم المقتدر كانت هائلة فلا بد من الاقتصاد فيها ولما علموا بذلك شرعوا يشون به فلما أحس علي بذلك استعفى من الوزارة واحتج بالشيخوخة وقلة النهضة فأمره المقتدر بالصبر وقال أنت عندى بمنزلة والدى المعتضد فألح في ذلك ومع ان الرجل كان يستقيل ليخرج من هذه المضايق بسلام أبي سوء الحال فى تلك الازمنة وتغلب النساء والحاشية ان ينيله هذه الراحة في خروجه فأمر المقتدر في منتصف ربيع الاول سنة ٣١٦ بالقبض عليه وعلى أخيه عبد الرحمن وولى الوزارة

أبو علي بن مقلة

وكما كانت لابي علي يد ماهرة فى الكتابة حتى ضرب بها المثل كانت ماهرة فى أخذ الرشاء على التولية والعزل وكان بينه وبين أكبر القواد مؤنس المظفر مودة فلذلك كان يثبت قدمه كلما قاربها الزال حتى حصلت الوحشة بين المقتدر ومؤنس فدعا ذلك الى عزل ابن مقلة في آخر جمادى الاولى سنة ٣١٨ وقبض عليه بعد سنتين وأربعة أشهر وثلاثة أيام واستوزر

سليمان بن الحسن

ولما لم يكن المقتدر ميالا لسليمان وانما رضيه تبعاً لرأى مؤنس أمر على بن عيسى بالاطلاع على الدواوين وان لا ينفرد عنه سليمان بشيء وصودر ابن مقلة بمائتى الف دينار

لم تطل هذه الوزارة كثيرا لان الاحوال ضاقت على سليمان وكثرت عليه المطالبات ووقفت وظائف السلطان واتصلت رقاع من يرشح نفسه للوزارة بالسعاية به والضمان بالقيام بالوظائف وأرزاق الجند وغير ذلك وكانت وزارته غير متمكنة لان على بن عيسى كان معه على الدواوين وسائر الامور وأفرد على بن عيسى بالنظر فى المظالم واستعمل على ديوان السواد غيره فانقطعت مواد الوزير فانه كان يقيم من قبله من يشترى توقيعات أرزاق جماعة لا يمكنهم مفارقة ما هم عليه من الخدم فكان يعطيهم نصف المبلغ وكذلك ادرارات الفقهاء وارباب البيوت فكانت أحواله رديئة وأدى ذلك الى القبض عليه لثلاث بقين من رجب سنة ٣١٩ بعد سنة وشهرين واستوزر

أبو القاسم الكلوذاني

ولم تكن وزارته أيضاً عن رغبة المقتدر بل عن رأي مؤنس وقد حصلت حوادث غريبة الشكل تبين لنا ما كان عليه المقتدر من الجهل والغباوة وذلك انه كان ببغداد انسان يعرف بالدانيالى وكان زراقا ذكيا محتالا وكان يعتق الكاغد ويكتب

فيه بخطه ما يشبه الخط العتيق ويذكر فيه اشارات ورموزا يودعها أسماء أقوام من أرباب الدولة فيحصل له بذلك رفق كثير. توصل الى الحسين بن القاسم حتى جعل اسمه فى كتاب ووضعه وعتقه وذكر فيه علامات وجهه وما فيه من الآثار ويقول انه يوزر للخليفة الثامن عشر من بنى العباس وتستقيم الامور على يديه ويقهر الاعادى وتتعمر الدنيا فى أيامه وجعل هذا كله في جملة كتاب فيهذكر حوادث وقعت وأشياء لم تقع بعد ونسب ذلك الى دانيال وعتق الكتاب وأخذه وقرأه على مفلح الاسود فاخذ الكتاب وأحضره للمقتدر فقال له أتعرف فى الكتاب من هو على هذه الصفة فقال ما أعرفه الا الحسين بن القاسم فقال المقتدر صدقت وان قلبى ليميل اليه فان جاءك رسول برقعة منه فاعرضها عليّ واكتم حاله ولا تطلع على أمره أحداً وذهب الدانيالى الى الحسين وعرفه الخبر فكتب رقعة الى مفلح فاوصلها الى المقتدر وفيها يطلب الوزارة وضمن انه يقوم بالنفقات من غير أن يطلب شيئاً من بيت المال الخاص فعزل الكلوذانى فى رمضان سنة ٣١٩ بعد شهرين وثلاثة أيام وتولاها

الحسين بن القاسم

ولما جاء لم يكن من أهل الوزارة ولا من ذوي التدبير فضاقت عليه الاحوال وكثرت الاخراجات فاستسلف جملة وافرة وأطلع المقتدر على اضطرابه فعزله في ربيع الآخر سنة ٣٣٠ بعد سبعة أشهر واستوزر

أبا الفتح الفضل بن جعفر وهو آخر وزرائه

تولى الوزارة في عهد المقتدر اثنا عشر وزيراً ومنهم من تقلد الوزارة مرتين وثلاثاً وكانت تنال بالرشوة ودخل في أمر تعيين الوزراء النساء والخدم والحاشية ولم يكن الصالح منهم يبقى في العمل كثيرا لان مدار طول المدة كان على رضا أم المقتدر وقهرمانته وخدم الدار وهؤلاء لا يرضون الا اذا حوبوا بالاموال الكثيرة التى بها تفسد المالية وتختل موازنتها فمتى حصل التقصير فى ذلك وقدم رجل آخر رشوة فسرعان ما يقبض على الاول ويصادر ويعين الثانى وهذه حال أخلقت ديباجة الدولة وأسقطت حرمتها حتى لم يكن لها فى نظر العامة ولا فى نظر متغلبى الاطراف حرمة

وليس ذلك كل ما أسقط أمر الدولة فى عهد المقتدر بل أضيف الى ذلك قوة القرامطة وما كان منهم من الاخلال بالامن فى العراق والحجاز

أمر القرامطة

كان رئيس القرامطة بالبحرين أبو سعيد الحسن بن بهرام الجنابى فقتل سنة ٣٠١ بعد ان استولى على هجر والاحساء والقطيف وسائر بلاد البحرين فولى بعده ابنه أبو طاهر سليمان الجنابى وكانت له غزوات متتابعة الى جهة البصرة يريد الاستيلاء عليها وأشد غزواته لهـا سنة ٣١١ فانه سار اليها في ألف وسبعمائة من القرامطة ودخلها وقتل حاميتها ووضع السيف فى أهلها وأقام بهـا سبعة عشر يوما يحمل منها ما يقدر عليه من المال والامتعة والنساء والصبيان ثم عاد الى بلده ومنها توجه الى طريق الحاج ليلقاهم عند رجوعهم الى مكة فأوقع بقافلة تقدمت معظم الحاج وكان فيها خلق كثير من أهل بغـداد وغيرهم فنهبهم واتصل الخبر بباقى الحاج وهم بفيد فأقاموا بها حتى فنى زادهم فارتحلوا مسرعين الى طريق الكوفة فأوقع بهم القرامطة وأخذوا جمال الحجاج جميعها وما أرادوا من الامتعة والاموال والنساء والصبيان ثم عاد الجنابى الى هجر وترك الحاج في مواضعهم فمات اكثرهم جوعاً وعطشـاً من حر الشمس فانقلبت بغداد من سوء تأثير هذا الخبر وكان وصوله فى الوقت الذي قتل فيه المحسن بن الفرات من قتل من المصادرين فازدوجت المصيبة وكان ابن الفرات يتهم بالتشيع فذكر بكل قبيح على ألسنتهم

اضطر المقتدر أن يكاتب أبا طاهر يطلب منه أن يطلق من عنده من أسرى الحاج فاطلقهم وطلب ولاية البصرة والاهواز فلم يجبه المقتدر فسار من هجر يريد الحاج وكان جعفر بن ورقاء الشيبانى متقلدا أعمال الكوفة وطريق مكة فلما سار الحاج من بغداد سار جعفر بين أيديهم خوفا من أبى طاهر ومعه الف رجل من بني شيبان وسار معهم أيضاً قواد السلطان ومعهم سـتة آلاف رجل فلقى أبو طاهر القرمطي جعفرا الشيبانى فقاتله جعفر فبينما هو يقاتله اذ طلع جمع من القرامطة عن يمينه فانهزم من بين

أيديهم فلقى القافلة الاولى فردها الى الكوفة ومعها عسكر الخليفة وتبعهم أبو طاهر الى باب الكوفة فقاتلهم فانهزم عسكر الخليفة ودخل أبو طاهر الكوفة وأقام ستة أيام بظاهرها يدخل البلد نهارا فيقيم في الجامع الى الليل ثم يخرج فيبيت في عسكره وحمل منها ما قدر علي حمله من الاموال والثياب وغير ذلك ثم عاد الى هجر وكان أهل بغداد قد خافوا ان يهجم القرامطة عليهم

وفى سنة ٣١٥ سار أبو طاهر نحو الكوفة فامر المقتدر يوسف بن أبى الساج أن يسير اليها لحمايتها من القرامطة وقد أعد له بالكوفة الانزال له ولعسكره فسبقه اليها أبو طاهر واستولى على كل هذه المؤن وكانت شيئا كثيرا ووصل يوسف بعد أبى طاهر بيوم واحد فلما وصل أرسل الى القرامطة يوم الجمعة يدعوهم الى طاعة المقتدر فان أبوا فموعدهم الحرب يوم الاحد فقالوا لا طاعة علينا الا لله والموعد بيننا للحرب بكرة غد فلما كان الغد رأى يوسف قلة القرامطة فاحتقرهم وقال ان هؤلاء الكلاب بعد ساعة في يدى وتقدم بأن يكتب كتاب الفتح والبشاره بالظفر قبل اللقاء تهاونا بهم ثم زحف الناس بعضهم الى بعض واستمر القتال الى غروب الشمس فلما رأى أبو طاهر ذلك باشر الحرب بنفسه ومعه جماعة يثق بهم وحمل بهم فطحن أصحاب يوسف ودقهم فانهزموا بين يديه وأسر يوسف وعدد كثير من أصحابه وورد الخبر بذلك الى بغداد فخاف الخاص والعام من القرامطة خوفا شديدا وعزموا على الهرب الى حلوان وهمذان وجاء المنهزمون من وقعة الكوفة الى بغداد ووصل الخبر بان القرامطة قد ساروا الى عين التمر فأنفذ من بغداد خمسمائة سميرية فيها المقاتلة لتمنعهم من عبور الفرات وسير جماعة من الجيش الى الانبار لحفظها ومنع القرامطة من العبور هنالك . ثم ان القرامطة قصدوا الانبار ولما وصلوها نزلوا غربي الفرات لان أهل الانبار كانوا قد قطعوا الجسر ثم أنفذ أبو طاهر أصحابه الى الحديثة فجاؤه بسفن عقدها وعبر عليها نحو ثلثمائة من أصحابه فقاتلوا عسكر الخليفة فهزموهم وقتلوا منهم جماعة واستولوا على مدينة الانبار وعقدوا الجسر وعبر عليه أبو طاهر ولكنه

خلف عظم جيشه في البر الغربى ولمـا ورد الخبر بعبور أبي طاهر الى الانبار خرج نصر الحاجب بجيش جرار فلحق بمؤنس المظفر فاجتمعا في نيف وأربعين ألف مقاتل وكان هذا الجيش مضطربا في مسيره قد تمكن الخوف من قلب أجناده وكان يمكنهم لو دبروا جيشهم تدبيرا حسنًا أن يأخذوا أبا طاهر الذى كان قد عبر وترك جنده ولكنهم تهاونوا حتى عاد الى جيشه ثم اقتطع مؤنس من الجيش نحو ستة آلاف أمرهم بالعبور ليغنموا معسكر القرامطة ويخلصوا يوسف بن أبي الساج ففشلوا وانهزموا أمام شجاعة القرامطة وكانت نتيجة ذلك أن أمر أبو طاهر بقتل يوسف وجميع الاسرى وكانت عدة القرامطة في هـذه الخرجة ٢٧٠٠ ولمـا علم المقتدر بعدة عسكره وعدة القرامطة قال لعن الله نيفًا وثمانين الفًا يعجزون عن ٢٧٠٠ . وجاء انسان الى على بن عيسى الوزير وأخبره ان فى جيرانه رجلا من شيراز على مذهب القرامطة يكاتب أبا طاهر بالاخبار فاحضره وسأله فاعترف وقال ما صحبت أبا طاهر الا لما صح عندى انه على الحق وأنت وصاحبك كفار تأخذون ما ليس لكم ولا بد لله من حجة فى أرضه وامامنا المهدى محمد بن فلان بن فلان بن محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق المقيم ببلاد المغرب ولسنا كالرافضة والاثني عشرية الذين يقولون بجهلهم ان لهم اماما ينتظرونه ويكذب بعضهم لبعض فيقول قد رأيته وسمعته وهو يقرأ ولا ينكرون بجهلهم وغباوتهم انه لايجوز أن يعطى من العمر مايظنونه . فقال له الوزير قد خالطت عسكرنا وعرفتهم فمن فيهم على مذهبك فقال وأنت بهذا العقل تدبر الوزارة كيف تطمع منى أن أسلم قوما مؤمنين الى قوم كافرين يقتلونهم لا أفعل ذلك فامر به فضرب ضربا شديدا ومنع الطعام والشراب فمات بعد ثلاثة أيام

أما أبو طاهر فانه سار من الانبار وعثى في أرض الجزيرة نهبًا وقتلا الا من اعتصم منه بالامان والفدية وجيوش السلطان لا تؤثر فيها أثرا وتخاف ان تقدم عليه فلما تم له ما أراد من الجزيرة عاد الى الكوفة ومنها دخل هو وأصحابه البرية بعد ان أخافوا السبل وأهلكوا العدد الجم

وكانت هذه الانتصارات سبباً في ظهور من كان بالسواد ممن يعتقد مذهب القرامطة ويكتم اعتقاده خوفا فأظهروا اعتقادهم واجتمع منهم بسواد الكوفة أكثر من عشرة آلاف رجل وولوا أمرهم رجلا يعرف بحريث بن مسعود واجتمعت طائفة أخرى بعين التمر ونواحيها فى جمع كثير وولوا أمرهم رجلا يعرف بعيسى بن موسى وكانوا يدعون الى المهدى وسار عيسي الى الكوفة ونزل بظاهرها وجبى الخراج وصرف عمال السلطان على السواد وسار حريث الى أعمال الموفق وبنى بها دارا سماها دار الهجرة واستولى على تلك الناحية فكان أصحابه ينهبون ويقتلون ويسبون. فارسل المقتدر الى حريث بن مسعود ومن معه هارون بن غريب والى عيسى ابن موسى ومن معه بالكوفة صافيا البصرى فأوقع كل منهما بمن أرسل اليه من القرامطة وأسر منهم خلق كثير وقتل أكثر ممن أسر وأخذت أعلامهم وكانت بيضاء كتب عليها ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين فأدخلت بغداد منكوسة واضمحل أمر من بالسواد منهم وكفي الله الناس شرهم وان كان كل ذلك مما يعجل بخراب القرى واتلاف المزارع

وفى سنة ٣١٧ فعل أبو طاهر ما هو أشنع وأدهى وذلك انه سار بجنده الى مكة فوافاها يوم التروية فلم يرع حرمة البيت الحرام بل نهب هو وأصحابه أموال الحجاج وقتلوهم حتى في المسجد الحرام وفي البيت نفسه وقلع الحجر الاسود وأنفذه الى هجر فخرج اليه أمير مكة فى جماعة من الاشراف فسألوه فى أموالهم فلم يشفعهم فقاتلوه فقتلهم أجمعين وقلع باب البيت وطرح القتلى فى بئر زمزم ودفن الباقين في المسجد الحرام حيث قتلوا بغير غسل ولا كفن ولا صلي على أحد منهم وأخذ كسوة البيت فقسمها بين أصحابه ونهب دور أهل مكة . ولم يحصل فى التاريخ أن انتهكت حرمة هذا البيت الى هذا الحد حتى ان المهدى عبيد الله العلوى لما علم ذلك كتب الى أبي طاهر ينكر عليه ذلك ويلومه ويلعنه ويقيم عليه القيامة ويقول قد حققت على شيعتنا ودعاة دولتنا اسم الكفر والالحاد بما فعلت وان لم نرد على أهل مكة وعلى الحجاج

وغيرهم ما أخذت منهم وترد الحجر الاسود الى مكانه وترد كسوة الكعبة فأنا بريء منك في الدنيا والآخره فلما وصله هذا الكتاب أعاد الحجر الاسود واستعاد ما أمكنه من أموال أهل مكة فرده وقال ان الناس اقتسموا كسوة الكعبة وأموال الحجاج ولا أقدر على منعهم

المتغلبون وما كان منهم

في عهد المقتدر اشتد سلطان المتغلبين بأطراف المملكة وهذا نتيجة طبيعية لما أصاب الدولة من الخلل

ففي الاندلس قام رجل الدولة الاموية عبد الرحمن الناصر وتسمى باسم أمير المؤمنين لانه لم يعد هناك ما يراعيه رجال الدولة الاموية من أمر الخلافة الاسلامية ببغداد لانحطاط شأنها ولعب الفساد بها وخيانة الوزراء فيها وكان عبد الرحمن قد مكنه عقله الواسع وفكره الثاقب من العلو وبعد الصيت حتى رهبته ملوك الافرنجة والروم وهادوه وأرسلوا اليه السفراء وكذلك فعل هو معهم

وفى أفريقية قامت الدولة العلوية ومحت في طريق غلبتها دولة الادارسة من المغرب الاقصى والاغالبة من أفريقية وجعلت مقرها مدينة المهدية التي أسسها عبيد الله المهدى بالقرب من القيروان وكانت همته بعد ذلك موجهة الى الاستيلاء على مصر فكان يناوشها بالجنود ولكنه لم يتهيأ له الاستيلاء عليها

وفي البحرين وما صاقبها اتسع سلطان القرامطة واستقلوا بملك تلك البلاد وكانت العراق دائما على خوف مستمر منهم وقطعوا طريق الحج حتى كان حجاج العراق قد اتخذوا لهم طريقاً آخر الى مكة على الموصل ثم الشام ثم مكة

وفي خراسان وما وراء النهر استقر ملك الدولة السامانية وكان الديلم يناوشونها من وقت لآخر كما سيأتي في تاريخهم

وفي الموصل ابتدأت دولة آل حمدان ولكن لم يتمكن سلطانهم في عهد المقتدر

أما ما فعله الروم بثغور المسلمين في هذا العهد فهو في غاية الشنعة ففى سنة ٣٠٣

أغاروا على الثغور الجزرية وقصدوا حصن منصور وسبوا من فيه وجرى على الناس أمر عظيم ولم يكن امام الروم من الجيوش من يصدهم لانهم كانوا مشغولين برتق الفتوق الداخلية التى كانت متوالية

وفى سنة ٣٠٥ وصل رسولان من ملك الروم الى المقتدر يطلبون المهادنة والفداء فأكرما اكراما كثيرا وأدخلا على الوزير وهو فى أكمل أبهة وقد صف الاجناد بالسلاح والزينة التامة فأديا الرسالة ثم انهما دخلا على المقتدر وقد جلس لهما واصطف الاجناد بالسلاح والزينة التامة وأديا الرسالة فأجابهما المقتدر الى ما طلب ملك الروم من الفداء وسير مؤنساً الخادم ليحضر الفداء وجعله أميرا على كل بلد يدخله يتصرف فيه على ما يريد الى أن يخرج منه وسير معه جمعاً من الجنود وأطلق لهم أرزاقا واسعة وأنفذمعه مائة وعشرين الف دينار لفداء أسارى المسلمين وسار مؤنس والرسل وكان الفداء على يديه

ولم يدم هذا الصفاء طويلا بل عادت الحروب والغارات من الطرفين وكانت سجالا وكلما كان يجتمع عند الطرفين أسرى يحصل الفداء كالعادة

وفى سنة ٣١٣ كتب ملك الروم الى أهل الثغور الاسلامية يأمرهم بحمل الخراج اليه فان فعلوا والا قصدهم فقتل الرجال وسبى الذرية وقال انني صح عندى ضعف ولا تكم فلم يفعلوا فسار اليهم وأخرب البلاد ودخل ملطية سنة ٣١٤ فاخربها وسبى منها ونهب وأقام فيها ستة عشر يوما ولما رأى أهل ملطية ما حل بقراهم من التخريب قصدوا بغداد مستغيثين فلم يغاثوا وعادوا بغير فائدة

وفي سنة ٣١٥ خرجت سرية من طرسوس الى بلاد الروم فوقع عليها العدو وأسروا من المسلمين أربعمائة رجل فقتلوا صبرا . وفيها سار الدمستق في جيش عظيم من الروم الى مدينة دبيل وهي قاعدة أرمينية وكان معه دبابات ومجانيق ومعه مزارق تزرق بالنار فلا يقوم بين يديها أحد من شدة النار فكان ذلك أشد شيء على المسلمين حتى أصيب الرامي بسهم من سهام المسلمين فخفت الشدة وكان الدمستق يجلس على

كرسى عال يشرف على البلد وعلى عسكره فامرهم بالقتال على ما يراه فصبر لهم المسلمون حتى وصلوا الى سور المدينة فنقبوا فيها نقوبا كثيرة ودخلوا المدينة فقاتلهم أهلها قتالا شديدا حتى أخرجوهم من المدينة وقتلوا منهم عشرة آلاف قتيل . وكانت هذه السنة سنة نجاح للمسلمين على الروم

وفى سنة ٣١٩ اشتدت وطأة المسلمين على الروم وغزوا بلادهم حتى بلغوا عمورية وأنقرة والفضل فى ذلك كله يرجع الى قائد عظيم من غلمان المقتدر اسمه ثمل وكان والى الثغور فامكنه بما أوقعه من الرعب في قلوب أعدائه أن يستعيد بعض الهيبة للدولة بعد ان كادت تذهب من صدور الروم بمرة

وعلى الجملة فكانت خلافة المقتدر فى جميع أيامها شر أيام على الدولة العباسية لانه حكم فيها النساء والخدم وبذر فى الاموال تبذيرا مفظعاً وكان يعزل الوزراء ويولى غيرهم بما يقدم من الرشاء له ولامه ولقهرمانته ولخدمه ولايأخذ الوزارة بالرشوة الا من هو عازم على الخيانة ليحصل على ما دفعه فكان جل هم الكثير منهم أن يسد حاجته أولا ثم حاجة من ولاه لا يسألون أجاءت تلك الاموال من ظلم أو عدل وهذا نهاية الفساد فى الدولة وهو المؤذن بخرابها واضمحلالها

قتل المقتدر

كان في دولة المقتدر قائدان هما فى أرفع الدرجات أولهما مؤنس المظفر وهو القائد العام للجيوش وعليه المعول في تسييرها ويليه في المرتبة محمد بن ياقوت وكان بينهما شيء من المنافسة

ففى سنة ٣١٩ قوى أمر محمد بن ياقوت وقلد مع الشرطة الحسبة وضم اليه رجال فقوى بهم فعظم ذلك على مؤنس وسأل المقتدر صرف محمد عن الحسبة وقال هذا شغل لا يجوز أن يتولاه غير القضاة والعدول فاجابه المقتدر وصرف محمدا عن الحجبة وصرف ابنه عن الشرطة وأبعدهما عن الحضرة فأخرجا الى المدائن حسبما طلبه مؤنس وولي بدلهما ابراهيم بن رائق وأخاه محمدا الحجبة والشرطة وهذا كان

بدء الوحشة بين المقتدر ومؤنس ومتى وجدت الوحشة ساءت الظنون وكان للوهم في النفوس أكبر الآثار

بلغ مؤنساً أن الوزير الحسين بن القاسم قد وافق جماعة من القواد في التدبير عليه فتنكر له مؤنس وطلب من المقتدر عزله ومصادرته فأجاب الى عزله ولم يصادره فلم يقنع مؤنس بذلك فبقي الحسين في الوزارة وكتب الى هرون بن غريب أحد القواد وهو بدير العاقول أن يحضر الى بغداد وكذلك كتب الى محمد بن ياقوت يستقدمه فزادت الوحشة عند مؤنس وصح عنده أن الحسين يسعى في التدبير عليه ثم صح عنده أنه قد جمع الرجال والغلمان الحجرية في دار الخليفة فأظهر الغضب وذهب نحو الموصل وأرسل غلاما له الى المقتدر برسالة فطلب الوزير منه أن يسلمها اليه فأبى فسبه الوزير وشتم صاحبه وأمر بضربه وصادره بثلثمائة ألف دينار وأخذ خطه بها وحبسه ونهب داره فلما بلغ مؤنساً الخبر سار نحو الموصل في أصحابه ومماليكه وتقدم الوزير بقبض أقطاع مؤنس وأملاكه وأملاك من معه فحصل من ذلك مال عظيم وزاد في محل الوزير عند المقتدر فلقبه عميد الدولة وضرب اسمه على الدينار والدرهم وتمكن من الوزارة وولى وعزل

أما مؤنس فانه استولى على الموصل من يد بني حمدان واستولى على أموالهم وديارهم وخرج اليه كثير من العساكر من بغداد والشام ومصر لاحسانه كان اليهم وعاد اليه ناصر الدولة بن حمدان فصار معه . فلما اجتمعت اليه العساكر انحدر الى بغداد في شوال سنة ٣٢٠ فلما بلغ خبره جند بغداد شغبوا وطلبوا أرزاقهم ففرق المقتدر فيهم مالا عظيما الا أنه لم يشبعهم وسير العساكر لمقابلة مؤنس في طريقه فلم يقدروا على رده فجاء حتى نزل بباب الشماسية فحل الخوف في قلب المقتدر وجنده وكان يريد ترك بغداد لمؤنس والرحيل الى واسط فرده عن ذلك محمد بن ياقوت وزين له اللقاء وقوي نفسه بأن القوم متى رأوه عادوا بأجمعهم اليه فرجع الى قوله وهو كاره ثم أشار عليه بحضور الحرب فخرج وهو كاره وبين يديه الفقهاء والقراء معهم المصاحف

مشهورة وعليه البردة والناس حوله فوقف على تل بعيد عن المعركة فأرسل قواد أصحابه اليه يسألونه التقدم مرة بعد أخري وهو لا يريم مكانه فلما ألحوا عليه تقدم من موضعه فانهزم أصحابه قبل وصوله اليهم فلقيه على بن بليق من أصحاب مؤنس فترجل وقبل الارض وقال له أين تمضى ارجع فلعن الله من أشار عليك بالحضور فأراد الرجوع فلقيه قوم من المغاربة والبربر فشهروا عليه سيوفهم وضربه أحدهم بسيفه على عاتقه فسقط الى الارض وذبحه بعضهم ثم رفعوا رأسه على خشبة وهم يكبرون ويلعنونه وأخذ جميع ما عليه حتى سراويله وتركوه مكشوفا الى أن مر به رجل من الاكرة فستره بحشيش ثم حفر له موضعه ودفن وكان عمره حين قتل ٣٨ سنة ثم تقدم مؤنس وأنفذ الى دار الخليفة من يمنعها من النهب

---

١٩ — القاهر

هو أبو منصور محمد بن المعتضد بن الموفق طلحة بن المتوكل وأمه أم ولد بربرية اسمها قتول بويع بالخلافة يوم أن قتل المقتدر في ٢٨ شوال سنة ٣٢٠ (١ نوفمبر سنة ٩٣٢) ولم يزل خليفة حتى خلع في ٥ جمادى الاولي سنة ٣٢٢ (٢٣ ابريل سنة ٩٣٤) فكانت مدته سنة وستة أشهر وستة أيام

ومعاصروه من الملوك والمتغلبين هم معاصرو المقتدر ما عدا أحمد بن اسماعيل الساماني

كيف انتخب

لما قتل المقتدر كان من رأى مؤنس اقامة ولده أبى العباس أحمد وقال انه تربيتى وهو صبى عاقل وفيه دين وكرم ووفاء بما يقول فاذا جلس للخلافة سمحت نفس جدته والدة المقتدر واخوته وغلمان أبيه ببذل المال ولم ينتطح فى قتل المقتدر

عنزان فاعترض عليه أبو يعقوب اسحاق بن اسمعيل النوبختي وقال بعد الكد والتعب استرحنا من خليفة له أم وخالة وخدم يدبرونه فنعود الى تلك الحال والله لا نرضى الا برجل كامل يدبر نفسه ويدبرنا وما زال بمؤنس حتى رده عن رأيه وذكر له محمد ابن المعتضد وهو أخو المكتفي فأجابه اليه علي كره منه فانه كان يقول انى عارف بشره وسوء نيته ولكنه لا حيلة . فبايعوه واستحلفه مؤنس لنفسه ولحاجبه بليق ولعلى ابن بليق وأخذوا خطه بذلك واستقرت له الخلافة وبايعه الناس واستوزر أباعلى بن مقلة واستحجب على بن بليق

الحال في عهد القاهر

كان القاهر كما قال مؤنس شريرا خبيث النية فانه في أول خلافته اشتغل بالبحث عمن استتر من أولاد المقتدر وحرمه واشتغل بمناظرة أم المقتدر وكانت مريضة قد ابتدأ بها داء الاستسقاء وقد زاد مرضها بقتل ابنها ولما سمعت انه بقى مكشوفا جزعت جزعا شديدا وامتنعت من الاكل والشرب حتى كادت تهلك فوعظها النساء حتى أكلت شيئا يسيرا من الخبز والملح . أحضرها القاهر عنده وهي على تلك الحال من المرض والجزع وسألها عن مالها فاعترفت له بما عندها من المصوغ والثياب ولم تعترف بشيء من المال والجوهر فضربها أشد ما يكون من الضرب وعلقها برجلها وضرب المواضع الغامضة من بدنها فحلفت انها لا تملك غير ما أطلعته عليه وقالت لو كان عندى مال لما أسلمت ولدى للقتل ولم تعترف بشيء ثم أخرجها على تلك الحال لتشهد على نفسها القضاة والعدول انها قد حلت أوقافها ووكلت في بيعها فامتنعت من ذلك وقالت قد وقفتها على أبواب البر والقرب بمكة والمدينة والثغور وعلى الضعفى والمساكين ولا أستحل حلها ولا بيعها وانما أوكل فى بيع أملاكى فلما علم القاهر بذلك أحضر القاضى والعدول وأشهدهم على نفسه أنه قد حل وقوفها جميعها ووكل فى بيعها فبيع ذلك جميعه مع غيره واشتراه الجند من أرزاقهم . ثم صادر جميع ولد المقتدر وحاشيته ولم نسمع في التاريخ ما يقارب فعل القاهر نذالة وجبنا وخسة وشراهة نفس

بعد قتل المقتدر هرب كبار معينيه وخاصة محمد بن ياقوت وابنا رائق وهارون ابن غريب ومفلح وعبد الواحد بن المقتدر فلما صاروا بواسط أرسل هارون بن غريب يطلب الامان لنفسه ويبذل مصادرة ثلثمائة الف دينار على أن تطلق له أملاكه فاجيب الى طلبه وتم رفقاؤه سائرين الى السوس وسوق الاهواز فاقاموا بالاهواز وطردوا عماله فجهز اليهم مؤنس جيشا أخرجهم منها ثم طلبوا اليه الامان فأمنهم وتوجهوا معه الى بغداد ومعهم محمد بن ياقوت فتقدم عند القاهر وعلت منزلته وصار يخلو به ويشاوره فغلظ ذلك على الوزير ومؤنس المظفر وبليق الحاجب وابنه لانهم ماحاربوا المقتدر الا من أجله وثبت عندهم ان محمد بن ياقوت يدبر عليهم فاستوحشوا من القاهر وضيقوا عليه وأمر مؤنس بتفتيش كل من يدخل الدار ونقل من كان محبوسا بدار الخلافة كوالدة المقتدر التى اشتد عليها المرض مما نالها من الضرب وعلم القاهر ان العتاب لا يفيد فاخذ في التدبير على القوم الذين أجلسوه هذا المجلس وكان اعتماد مؤنس على العساكر الساجية فافسد القاهر قلوبهم عليه وأغراهم بمؤنس وأغرى كاتب ابن مقلة به ووعده الوزارة محله فكان يكتب القاهر بجميع الاخبار

أما هؤلاء الخصوم فاتفقوا على خلع القاهر وتحالفوا على ذلك ولكنهم لم يبدوا شيئا من الحكمة أمام مكر القاهر ودهائه فرأي الوزير ان يظهروا ان أبا طاهر القرمطي ورد الكوفة وان على بن بليق صائر اليه ليمنعها منه فاذا دخل على القاهر يودعه قبض عليه فكتب ابن مقلة الى الخليفة بما اتفقوا على اخباره به ولكن لم يتم ذلك لان الخبر جاء القاهر سرا بما دبر عليه فاحتاط لنفسه وأنفذ الى الساجية فأحضرهم وفرقهم في دهاليز الدار مستخفين فلما جاء ابن بليق وطلب الاذن لم يؤذن له ورد ردا قبيحا من الساجية فخرج هاربا من الدار وعلم بليق بما جرى على ابنه فاحتد وقال لا بد من المضى الى دار الخليفة حتى أعلم سبب ما فعل بابنى فذهب هو وجميع القواد الذين بدار مؤنس فلما حضر أمر القاهر فقبض عليه وقبض كذلك على أحمد بن زيرك

صاحب الشرطة ثم أرسل الى مؤنس في داره من أحضره بالحيلة وكان قد استولى عليه الضعف والكبر فلما حضر الدار أمر بالقبض عليه واختفى الوزير ابن مقلة وأمر القاهر بالختم على دور مؤنس وبليق وابنه على وابن مقلة وأحمد بن زيرك والحسن بن هرون ونقل دوابهم ووكل بحرمهم وأمر باحراق دار ابن مقلة فأحرقت وظهر محمد بن ياقوت فولى الحجبة

ولما تمكن القاهر من هؤلاء الاعداء وضبطهم بداره أمر بقتلهم جميعاً فقتلوا ورأى الناس من شدة القاهر ما علموا معه أنهم لا يسلمون من يده وندم كل من أعانه من الجنود حيث لم ينفعهم الندم

ومن الغريب ان القاهر بعد أن تم له ما أراد أمر بالقبض على أكبر رجل ساعده وهو طريف السبكرى الذى كان من قواد مؤنس فخانه

بقى من أعداء المقتدر الوزير ابن مقلة فانه كان مستترا لم يظهر عليه وكذلك الحسن بن هرون فكانا يراسلان قواد الساجية والحجرية ويخوفانهم من شر القاهر ويذكران لهم غدره ونكثه مرة بعد مرة وكان ابن مقلة يجتمع بالقواد ليلا تارة في زى أعمى وتارة في زي مكد وتارة في زى امرأة ويغريهم به حتى ملأ صدورهم فاتفقوا على خلعه وزحموا الى الدار وهجموا عليها من سائر الابواب فلما سمع القاهر الاصوات والجلبة استيقظ مخمورا وطلب بابا يهرب منه فلم يجده فقبضوا عليه وحبسوه ثم سملوا عينيه وبذلك انتهت مدته وكانت جامعة للمعايب والقبائح ومن ذلك عدا ما تقدم ذكره أنه أمر بتحريم الخمر والغناء وسائر الانبذة وأما الجوارى والمغنيات فامر ببيعهن على أنهن سواذج لا يعرفن الغناء ثم وضع له كل من يشتري كل حاذقة في صنعة الغناء فاشترى منهن ما أراد بأرخص الأثمان وكان القاهر مشتهرا بالغناء والسماع فجعل ذلك طريقا الى تحصيل غرضه رخيصا نعوذ بالله من هذه الاخلاق التى لا يرضاها العامة من الناس

٢٠ – الراضى

هو أبو العباس أحمد بن المقتدر بن أبي أحمد الموفق طلحة بن المتوكل وأمه أم ولد اسمها ظلوم ولد سنة ٢٩٧ وبويع بالخلافة بعد خلع القاهر فى ٥ جمادى الاولى سنة ٣٢٢ (٢٣ ابريل سنة ٩٣٤) ولم يزل خليفة الى أن توفى في منتصف ربيع الاول سنة ٣٢٩ (٨ ديسمبر سنة ٩٤٠) فكانت مدته ست سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام

كيف انتخب

لما قبض القاهر سأل القواد الخدم عن المكان الذى فيه أبو العباس بن المقتدر فدلوهم عليه وكان هو ووالدته محبوسين فقصدوه وفتحوا عليه ودخلوا فسلموا عليه بالخلافة وأجلسوه على السرير يوم الاربعاء است خلون من جمادى الاولى ولقبوه الراضى وبايعه القواد

الحال فى عهده

كانت الحال تزيد ادبارا وانتكاسا واضطرابا في عهده فأصحاب السلطان في العراق يتنافسون ويقتتلون والذين يحيطون بهم من المتغلبين يجدون ويجتهدون . فدولة الاندلس زهت وعظمت بهمة الرجل العظيم أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر الذى أعلن في بلاده أنه أمير المؤمنين بعد ان لم يكن سلفه يتسمون بذلك وإنما كانوا يسمون بالائمة . والدولة العبيدية في المغرب والمهدية قد اشتدت وطأتها وهى آخذة في العلو وتحاول الاستيلاء على مصر . وبنو بويه ظهروا واستولوا على كثير من بلاد الجبال والاهواز . والروم انتهزوا هذه الفرص لاقتطاع البلاد الاسلامية وغزو الثغور وأهل

بغداد مع هذا كله مشغولون بأنفسهم ومتكالبون على ما في أيديهم من البلاد العراقية كما ترى

كانت الكلمة العليا في أول عهد الراضى لوزيره ابن مقلة وحاجبه محمد بن ياقوت فهما اللذان كان بأيديهما الحل والعقد فى البلاد في سنة ٣٢٣ نظر ابن مقلة فوجد محمد بن ياقوت قد تحكم فى البلاد بأسرها وانه هو لم يعد بيده شيء فسعى به الى الراضى وأدام السعاية فبلغ ما أراده ففي خامس جمادى الاولى ركب جميع القواد الى دار الخليفة حسب عادتهم وحضر الوزير ومحمد بن ياقوت ومعه كاتبه فأمر الخليفة بالقبض عليه وعلى أخيه المظفر بن ياقوت وحبسهما وقد مات محمد فى الحبس ثم أطلق المظفر بعد أن أخذ عليه ابن مقلة العهد انه يواليه ولا ينحرف عنه ولا يسعى له ولا لولده بمكروه . ظن ابن مقلة ان الوقت قد صفا له بحبس ابنى ياقوت وانه لم يعد له منافس في سلطانه ولكنه غفل عن المظفر الذى أطلقه من السجن بعد موت أخيه محمد فان المظفر كان يظن أن ابن مقلة سم أخاه فكان لذلك يتحين الفرصة للقبض عليه فاتفق مع الجنود الحجرية أن يقبضوا على ابن مقلة فقبضوا عليه وأرسلوا الى الراضى يعلمونه فاستحسن فعلهم وطلبوا من الخليفة أن يعين وزيرا فرد الاختيار اليهم فاختاروا للوزارة على بن عيسى وعرضوها عليه فامتنع وأشار بوزارة أخيه عبد الرحمن فاستوزره الراضى وسلم اليه ابن مقلة فصادره

رأى عبد الرحمن أنه لا يمكنه ادارة الحركة لازدياد الفساد فاستعفى فلم يقبل الراضى منه وقبض عليه وصادره على سبعين ألف دينار وصادر أخاه عليا على مائة الف

واستوزر بعده أبا جعفر الكرخى فرأى قلة الاموال وانقطاع المواد فازداد عجزا الى عجزه وضاق عليه الامر ومازالت الاضاقة تزيد وطمع من بين يديه من المعاملين فيما عنده من الاموال وقطع محمد بن رائق والى البصرة ما كان يحمل من البصرة و واسط الى بغداد وقطع البريدى والى الاهواز ما كان يحمل من الاهواز وأعمالها وكان ابن بويه قد تغلب على فارس فتحير أبو جعفر وكثرت المطالبات عليه ونقصت

هيبته واستتر بعد ثلاثة أشهر ونصف من وزارته فلما استتر استوزر الراضى أبا القاسم سليمان بن الحسن فكان في الوزارة كابى جعفر في وقوف الحال وقلة المال

ولما رأى الراضى ذلك اضطرته الحال لمراسلة محمد بن رائق وهو بواسط يعرض عليه الولاية ببغداد فحضر مسرعا فقلده الراضى لقب أمير الامراء وولاه الخراج والمعاون في جميع البلاد والدواوين وأمر بان يخاطب له على جميع المنابر وأنفذ اليه الخلع فانتقل السلطان ببغداد اليه ومن ذلك الوقت بطلت الدواوين وبطلت الوزارة فلم يكن الوزير ينظر في شيء من الامور وانما كان ابن رائق وكاتبه ينظران في الامور جميعها وكذلك كل من تولى امرة الامراء بعده وصارت الاموال تحمل الى خزائنهم فيتصرفون فيها كما يريدون ويطلقون للخليفة ما يريدون وبطلت بيوت الاموال وتغلب أصحاب الاطراف وزالت عنهم الطاعة ولم يبق للخليفة غير بغداد وأعمالها والحكم فيها جميعها لابن رائق ليس للخليفة حكم

كتب ابن رائق كتابا عن الراضى الى أبى الفتح جعفر بن الفرات يستدعيه ليجعله وزيرا وكان يتولي الخراج بمصر والشام وظن ابن رائق أنه اذا استوزره جبى له أموال الشام ومصر فقدم بغداد ونفذت له الخلع قبل وصوله فلقيته بهيت فلبسها ودخل بغداد وتولى وزارة الخليفة ووزارة ابن رائق جميعاً

فكر ابن رائق فيما بيد أبى عبد الله البريدي من بلاد الاهواز وأشار على الراضى بالانحدار معه الى واسط ليقرب من الاهواز ويراسل البريدى فان أجاب الى ما يطلب منه والاقرب قصده عليه فأجاب الراضى وانحدر معه الى واسط ثم تهيأ للمسير الى الاهواز ولما علم بذلك البريدى جدد ضمان الاهواز كل سنة بثلثمائة وستين الف دينار يحمل كل شهر قسطه فأجاب الراضى الى ذلك وعاد الى بغداد ولكن البريدى لم يحمل مما ضمن ولا دينارا وحدا

رأى ابن رائق استفحال قوة البريدى وعدم التمكن من قهره ففكر في أنه يستوزره فكتب اليه بذلك وطلب منه أن يرسل نائبا عنه فى الوزارة فأجاب وأرسل

أحمد بن علي الكوفي نائباً عنه فسارت أمور البريدي ببغداد على ما يروق وصمت البصرة التي كانت في يد ابن رائق الى أبي يوسف بن البريدي أخي أبي عبد الله فصار بيد البريديين الاهواز والبصرة وأرسل الى البصرة جنداً للاستيلاء عليها وكان ذلك سبباً لتجدد الوحشة بين ابن رائق والبريدي حيث رأى الاول أنه زاد البريدي سلطانا على سلطانه بما أخذ من البصرة ولم يمكنه أن يعمل معه شيئا ما ففكر في ارسال جند الى الاهواز لقتال البريدي فاختار رجلين لقيادة الجند أحدهما بدر الخرشني والثاني بجكم الديلمي فسار بجكم بالجند الى السوس واستولي عليه بمن معه من الاتراك والديالمة ثم أخذ تستر ولما رأى ذلك أبو عبد الله البريدي ركب هو واخوته ومن يلزمه السفن وأخذ معه ما بقي من الاموال و ٣٠٠ الف درهم فغرقت السفينة بهم فأخرجهم الغواصون وقد كادوا يغرقون فركبوا ووصلوا الي الابلة فأقام بها وكتب الى رائق يستعطفه فلم يجبه وكانت الرسل من أعيان أهل البصرة فلما رأوا ذلك منه ازدادوا جدا في مقاومته فصاروا كلما جهز اليهم جندا هزموه ولما رأى ذلك ابن رائق سار بنفسه الى واسط وكتب الى بجكم وهو في الاهواز مستول عليها يأمره باللحاق به فأتاه فيمن عنده من الجند فتقدموا وقاتلوا أهل البصرة فقاوموهم مقاومة عنيفة حتى ردوهم منهزمين . ورأى البريدي انه لابد له من معين على ابن رائق وبجكم فسار الى عماد الدولة ابن بويه وأطمعه في العراق والاستيلاء عليه فسير معه أخاه معز الدولة فاستولى على الاهواز بعد ان حارب بجكم وانتصر عليه فسار بجكم الى واسط لم يستمر الصفاء بين البريدي ومعز الدولة لان كلا طامع يريد أن يمكر بالثاني وكانت نتيجة المنافسة بينهما ان أنفذ بجكم جماعة من أصحابه فاستولوا على السوس وجند يسابور وبقيت الاهواز بيد البريدي ولم يبق بيد معز الدولة الا عسكر مكرم ثم عاد فاستولى على الاهواز وأجلى عنها البريدي الى البصرة

أما حال ابن رائق ببغداد فكانت حال ادبار لان بجكم منع عنه مال واسط ولم يرسل اليه شيئا وكان يميل الى أن يحل محل ابن رائق في امارة الامراء ببغداد وكان

يسعى له فيها ابن مقلة وقد كلم الخليفة بذلك فأجاب وأبلغ ابن مقلة ما استقر عليه الامر لبجكم فسار من واسط نحو بغداد في غرة ذي القعدة سنة ٣٢٦ ولم يزل حتى ورد بغداد فقاتلته الجنود الرائقية ولكنهم انهزموا عنه فدخل بجكم بغداد في ١٣ ذي القعدة ولقى الراضى من الغد وخلع عليه وجعله أمير الامراء فكتب الى جميع القواد الذين كانوا مع ابن رائق يطلب اليهم العودة اليه ومناهم فجاءه أكثرهم وسقط ابن رائق بعد امارة استمرت سنة واحدة وعشرة أشهر و ١٦ يوما واستتر عن العيون

-في أول سنة ٣٢٧ منع ناصر الدولة بن حمدان ما ضمنه من مال الموصل فسار اليه الراضى هو وبجكم فأقام الراضى بتكريت وسار بجكم لحرب ناصر الدولة فقهره. انتهز ابن رائق فرصة غيابهما عن بغداد فظهر واستولى عليها ولما بلغ الراضى وبجكم خبره انزعجا واضطرهما ذلك الى الاسراع بمصالحة ناصر الدولة ابن حمدان على أن يعجل ٥٠٠ ألف درهم وعادا يريدان بغداد فراسلهما ابن رائق يطلب الصلح فاتفقا معه على ذلك وقلد طريق الفرات وديار مضر حران والرها وما جاورهما وجند قنسرين والعواصم

أراد بجكم أن يستعيد بلاد الجبل والاهواز من يد ابن بويه فاتفق مع البريدى أن يسير الى الاهواز وأمده برجال وأن يسير بجكم الى بلاد الجبل ولكن علم بجكم ان البريدى يريد استعمال الحيلة معه ليلقيه في المهالك ويعود هو الى بغداد ليكون أمير الامراء فبدلا من أن يسير الى بلاد الجبل سار الي واسط فاستولى عليها وأجلى عنها البريدى

هكذا كانت مدة الراضى منازعات سياسية بين هؤلاء المتغلبين الذين كل منهم يود أن تكون له امارة الامراء ببغداد والاعداء ينتقصون كل يوم أطراف الخلافة ولم يعد لها شيء من الهيبة ولا نفوذ الكلمة

ومما زاد الامر ادبارا ظهور المنازعات الدينية ببغداد عاصمة الخلافة فقد ظهر بها الحنابلة وقويت شوكتهم وصاروا يكبسون دور القواد والعامة وان وجدوا نبيذا

أراقوه وان وجدوا مغنية ضربوها وكسروا آلة الغناء واعترضوا في البيع والشراء ومشي الرجال مع النساء والصبيان فاذا رأوا من يمشى مع امرأة أو صبى سألوه عن الذى معه من هو فان أخبرهم والا ضربوه وحملوه الى صاحب الشرطة وشهدوا عليه بالفاحشة فأرهجوا بغداد فركب بدر الخرشنى وهو صاحب الشرطة ونادي في جانبي بغداد في أصحاب أبي محمد البربهارى الحنابلة لا يجتمع منهم اثنان ولا يناظرون في مذهبهم ولا يصلى منهم امام الا اذا جهر ببسم الله الرحمن الرحيم في صلاة الصبح والعشاءين فلم يفد فيهم وزاد شرهم وفتنتهم واستظهروا بالعميان الذين كانوا يأوون الى المساجد وكانوا اذا مرَّ بهم شافعى المذهب أغروا به العميان فيضربونه بعصيهم حتى يكاد يموت فخرج توقيع الراضى بما يقرأ على الحنابلة ينكر عليهم فعلهم ويوبخهم باعتقاد التشبيه وغيره فمنه تارة انكم تزعمون ان صورة وجوهكم القبيحة السمجة على مثال رب العالمين وهيئتكم الرذلة على هيئته وتذكرون الكف والاصابع والرجلين والنعلين والشعر القطط والصعود الى السماء والنزول الى الدنيا تعالي الله عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيرا ثم طعنكم على خيار الائمة ونسبتكم شيعة آل محمد صلى الله عليه وسلم الى الكفر والضلال ثم استدعاؤكم المسلمين الى الدين بالبدع الظاهرة والمذاهب الفاجرة التى لا يشهد بها القرآن وانكاركم زيارة قبور الائمة وتشنيعكم على زوارها بالابتداع وأنتم مع ذلك تجتمعون على زيارة قبر رجل من العوام ليس بذى شرف ولا نسب ولا سبب من رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأمرون بزيارته وتدعون له معجزات الانبياء وكرامات الاولياء فلعن الله شيطانا زين لكم هذه المنكرات وما أغواه وأمير المؤمنين يقسم بالله قسما جهدا يلزمه الوفاء به لئن لم تنتهوا عن مذموم مذهبكم ومعوج طريقتكم ليوسعكم ضربا وتشريدا وقتلا وتبديدا وليستعملن السيف فى رقابكم والنار في منازلكم ومحالكم

وبذلك يتبين أن الشقاق والنزاع تجاوز الامراء الى عامة الناس وقلما وجدت المنازعات الدينية بين قوم الا ذلوا وفشلوا

أمر القرامطة

لم تزل القرامطة على حالهم في الافساد والعيث واعتراض الحجاج وفي سنة ٣٢٢ أرسل محمد بن ياقوت رسولا الى أبي طاهر يدعوه الى طاعة الخليفة ليقره على ما بيده من البلاد ويقلده بعد ذلك ما شاء من البلدان ويحسن اليه ويلتمس منه أن يكف عن الحاج جميعهم وأن يرد الحجر الاسود الى موضعه بمكة فأجاب أبو طاهر الى انه لا يعترض للحاج ولا يصيبهم بمكروه ولم يجب الى رد الحجر الاسود الى مكة وسأل أن تطلق له الميرة من البصرة ليخطب للخليفة بهجر. فسار الحاج الى مكة هذه السنة ولم يعترضهم القرمطي. ولكنه في سنة ٣٢٣ اعترضهم فخرج جماعة من العلويين بالكوفة الى أبي طاهر فسألوه أن يكف عن الحاج فكف عنهم وشرط عليهم أن يرجعوا الى بغداد فرجعوا ولم يحج هذه السنة من العراق أحد وسار أبو طاهر الى الكوفة فأقام بها عدة أيام ورحل عنها

وفي سنة ٣٢٦ أصابهم خلل وفساد في سياستهم وسببه ما كان من ابن سنبر وهو رجل كان من خواص أبي سعيد القرمطي والمطلعين على سره وكان له عدو من القرامطة يدعى أبا حفص فعمد ابن سنبر الى رجل من اصبهان وقال له اذا ملكتك أمر القرامطة أريد منك أن تقتل عدوي أبا حفص فأجابه الى ذلك وعاهده عليه وأطلعه على أسرار أبي سعيد وعلامات كان يذكر انها في صاحبهم الذي يدعون اليه فحضر عند أولاد أبي سعيد وذكر لهم ذلك فقال أبو طاهر هذا هو الذي ندعو اليه فأطاعوه ودانوا له حتى كان يأمر الرجل بقتل أخيه فيقتله وكان اذا كره رجلا يقول انه مريض يعني انه قد شك في دينه ويأمر بقتله وبلغ أبا طاهر أن الاصبهاني يريد قتله ليتفرد بالملك فقال لاخوته لقد أخطأنا في هذا الرجل وسأكشف حاله فقال له ان لنا مريضاً فانظر اليه ليبرأ فحضروا وأضجعوا والدته وغطوها بازار فلما رآها قال ان هذا المريض لا يبرأ فاقتلوه فقالوا له كذبت هذه والدتك ثم قتلوه بعد أن قتل منهم خلق كثير من عظمائهم وشجعانهم وكان هذا سبب تمسكهم بهجر وترك قصد البلاد والافساد فيها

وفى عهد الراضى ظهرت الدولة الاخشيدية بمصر على يد مؤسسها محمد الاخشيد ابن طغج وهو من موالى آل طولون وكان ملكه مصر سنة ٣٢٣ واستمر الملك فى عقبه الى سنة ٣٥٨ وهم الذين تسلم منهم الفاطميون مصر وهذا ثبت ملوكهم

(١) محمد الاخشيد بن طغج	٣٢٣—٣٣٤
(٢) أبو القاسم أنوجور بن الاخشيد	٣٣٤—٣٤٦
(٣) أبو الحسن على بن الاخشيد	٣٤٩—٣٥٥
(٤) أبو المسك كافور مولى الاخشيد	٣٥٥—٣٥٧
(٥) أبو الفوارس أحمد بن على بن الاخشيد	٣٥٧—٣٥٧

وفي عهد الراضى مات عبيد الله المهدي أول خلفاء الفاطميين بالمهدية وولى بعده ابنه أبو القاسم محمد وكان يحاول ملك مصر فلم يتمكن

ختم الراضى الخلفاء في أشياء منها انه آخر خليفة دون له شعر وآخر خليفة انفرد بتدبير الملك وآخر خليفة خطب على منبر يوم الجمعة وآخر خليفة جالس الندماء ووصل اليه العلماء وآخر خليفة كانت مراتبه وجوائزه وخدمه وحجابه تجرى على قواعد الخلفاء المتقدمين

وفى أيامه حدث اسم أمير الامراء في بغداد وصار الى أمير الامراء الحل والعقد والخليفة يأتمر بأمره وليس له من نفوذ الكلمة ولا سلطان الخلافة شئ

وكان الراضي أديباً له شعر مدون يحب محادثة الادباء والفضلاء والجلوس معهم وكان سمحاً سخياً

توفى الراضى فى منتصف ربيع الاول سنة ٣٢٩ (١٨ ديسمبر سنة ٩٤٠)

بن الاثير

٢١ – المتقى

هو ابراهيم المتقى لله بن المعتمد بن أبي أحمد الموفق طلحة بن المتوكل وأمه أم ولد اسمها خلوب بويع بالخلافة في ٢٠ ربيع الاول سنة ٣٢٩ (٢٤ دسمبر سنة ٩٤٠) ولم يزل خليفة حتى خلع في ٢٠ صفر سنة ٣٣٣ (١٢ أكتوبر سنة ٩٤٤) فكانت مدته ٤ سنوات و ١١ شهرا

كيف انتخب

لما مات الراضى كان بجكم بواسط فورد كتابه مع وزيره أبي عبد الله الكوفى يأمر فيه بأن يجتمع مع أبى القاسم سليمان بن الحسن وزير الراضى كل من تقلد الوزارة وأصحاب الدواوين والعلويون والقضاة والعباسيون ووجوه البلد ويشاورهم الكوفى فيمن ينصب للخلافة ممن يرتضى مذهبه وطريقته فجمعهم الكوفي واستشارهم فاتفقوا على ابراهيم بن المقتدر فبايعوه في التاريخ السابق ولقب نفسه المتقى لله وسير الخلع واللواء الى بجكم بواسط

الحال في عهده

كان بجكم أمير الامراء والتدبير كله الى وزيره أبى عبد الله الكوفى وليس للخليفة ولا لوزيره سليمان بن الحسن شيء لم يطل زمن بجكم في الامارة فان البريدى كان لا يزال يمنى نفسه بالاستيلاء على بغداد فانفذ من البصرة جيشاً الى المذار فانفذ اليه بجكم جيشا يقوده قائد من كبار قواده اسمه توزون فالتقى الجيشان واقتتلا وكان النصر أولا لجيش البريدى فارسل توزون الى بجكم يطلب اليه أن يلحق به فسار اليه وصادف ان عادت الكرة لتوزون فأرسل الى بجكم يخبره بالظفر فأراد

الرجوع الى واسط فأشار عليه بعض أصحابه أن يتصيد فسار حتى بلغ نهر جور وحينذاك اغتاله رجل من الاكراد الذين يسكنون هناك وكان قتله مفرجا عن البريدى ومفيدا للمتقى لانه استولى على داره وما فيها من الاموال فبلغ ما ناله ألف ألف ومائتى دينار. وكانت مدة امارة بجكم سنتين وثمانية أشهر

لما قتل بجكم انحدر الديلم الى البريدى فقوى بهم وعظمت شوكته فسار مريدا الاستيلاء على بغداد ولم يتمكن الخليفة من صده فدخلها في ١٢ رمضان سنة ٣٢٩ ولقيه الوزير والقضاة والكتاب وأعيان الناس فأنفذ اليه المتقى يهنئه بسلامته . ولم يتم له ما أراده من التأمير لان الاتراك والديالمة اختلفوا عليه ففارق بغداد بعد ان أقام بها ٢٤ يوما وحينئذ تقدم على الجند كورتكين الديلمى فسماه المتقى أمير الامراء وخلع عليه . وكانت مدته مضطربة لان عامة البغداديين تأذوا من الديلم فلم ينكر كورتكين على جنده ما فعلوه لذلك حصلت وقائع بين العامة والديلم ولما رأى المتقى أن كورتكين ليس عنده من المنعة ما يزيل به الاضطراب أرسل الى ابن رائق وهو بالشام يطلب اليه الرجوع الى بغداد ليكون أمير الامراء فعاد . أما كورتكين فانه خرج اليه وقابله بعكبرا فوقعت الحرب بينهما عدة أيام وفى ٢١ ذى الحجة سار ابن رائق بجيشه ليلا فأصبح ببغداد وقابل المتقى . أما كورتكين فانه لما أحس فى الصباح بمسير ابن رائق تبعه الى بغداد وكانت عليه الهزيمة حين لاقته جنود ابن رائق فاختفى وأخذ ابن رائق من استأمن اليه من الديلم فقتلهم وكانوا نحو ٤٠٠ وحينئذ خلع المتقى على ابن رائق وسماه أمير الامراء

تجددت أطماع البريدي لما علم بضعف الديلم والاتراك بسبب ما قتل منهم ابن رائق فأرسل جندا في الدجلة للاستيلاء على بغداد ولم ير مقاومة شديدة فاستولى عليها . وهرب المتقى وابنه وابن رائق الى الموصل أما أصحاب البريدي فانهم فعلوا ببغداد فعالا قبيحة قتلوا من وجدوه في دار الخليفة من الحاشية ونهبوها ونهبوا دور الحرم وكثر النهب فى بغداد ليلا ونهارا وكبسوا الدور وأخرجوا أهلها منها حتى عظم الامر

وغلت أسعار الحنطة والشعير وأصناف الحبوب وكان ذلك كله سبباً لوقوع الفتن والاضطراب وفى آخر شعبان زاد البلاء على الناس فكبسوا منازلهم ليلا ونهارا واستتر أكثر العمال لعظيم ما طولبوا به مما ليس فى السواد وعلى الجملة فان هذه الفترة ببغداد لم ير أهلها مثل ما حصل فيها من الشدة

طلب المتقى من ناصر الدولة ابن حمدان أن يعينه على البريديين فأرسل أخاه سيف الدولة لنصرته فلقيه هو وابن رائق بتكريت فرجع معهما الى الموصل وهناك جاء ناصر الدولة واغتال ابن رائق لانه يريد أن يحل محله في امرة الامراء وقد كان ذلك فان المتقى خلع عليه وسماه أمير الامراء فى أول شعبان سنة ٣٣٠ وخلع على أخيه أبى الحسن على ولقبه ذلك اليوم بسيف الدولة

بعد ذلك تجهز ناصر الدولة وسار الى بغداد معه المتقى ولما قاربها هرب عنها أبو الحسين بن البريدى وسار الى واسط بعد ان أقام ببغداد ثلاثة أشهر وعشرين يوما ودخل المتقى بغداد ومعه بنو حمدان في جيوش كثيرة

ثم خرج بنو حمدان يريدون واسط لاخذها من البريدى فأقام ناصر الدولة بالمدائن وسير أخاه سيف الدولة لقتال البريدى فالتقى به تحت المدائن بفرسخين وكانت مقاومة البريدى شديدة حتى انه هزم سيف الدولة ومن معه فعاد الى المدائن فقواهم ناصر الدولة بجنود أخرى فعادوا فقاتلوا أبا الحسين وهزموه ولكن سيف الدولة لم يتبعه الى واسط لما فى أصحابه من الوهن والجراح ولما اندملت جراحهم وقووا سار سيف الدولة الى واسط فأخذها وانحدر أبو الحسين الى البصرة وأقام سيف الدولة بواسط وكان يريد المسير الى البصرة فلم يمكنه لقلة المال عنده فكتب الى أخيه فلم يسعفه فحصل بين الاخوين وحشة ووقع سيف الدولة فى أخيه ناصر الدولة وكان القواد الذين معه من الاتراك قد قلت عندهم هيبته لقلة المال فثاروا به وكبسوه ليلا فهرب وترك معسكره ولما علم ناصر الدولة بالخبر سار عن بغداد الى الموصل وترك إمارة الامراء بعد أن أقام فيها ثلاثة عشر شهرا وخمسة أيام

اختار المتقى بعد رحيل ناصر الدولة لامارة الامراء أكبر قواد الديلم واسمه توزون ولم يكن عنده شيء من حسن السياسة فاستوحش منه المتقي وخافه على نفسه فرأى أن يسير الى الموصل مستعينا بالحمدانيين فبارح بغداد اليها ولما بلغ ذلك توزون تبعه حتى وصل تكريت وهناك التقى بسيف الدولة فقاتله وهزمه مرتين ثم استولى على الموصل فسار عنها بنو حمدان والمتقى معهم الى نصيبين . ثم ترددت الرسل بين توزون من جهة وبين الحمدانيين والمتقى من جهة على الصلح فتم على أن يضمن ناصر الدولة ما بيده من البلاد ثلاث سنين كل سنة بثلاثة آلاف ألف وستمائة ألف درهم وعاد توزون الى بغداد ولم يعد معه المتقى بل استمر فى الموصل . ثم أرسل الى توزون يطلب منه أن يعود الى بغداد فأظهر توزون الرغبة فى ذلك وحلف للمتقى أنه لا يغدر به فاغتر المتقى بتلك اليمين وسار الى بغداد فلقيه توزون تحت هيت ولما رآه قبل له الارض وقال ها أنا ذا قد وفيت بيمينى والطاعة لك ثم وكل به وبعد ذلك سمله وخلعه وبذلك انتهت خلافة المتقي

٢٢ — المستكفى

هو أبو القاسم عبد الله المستكفى بالله بن المكتفى بن المعتضد

لما قبض توزون على المتقى أحضر المستكفى اليه الى السندية وبايعه هو وعامة الناس

الدور الثانى

الخلافة العباسية تحت سلطان آل بويه

يبتدئ هـذا الدور من سنة ٣٣٤ الى سنة ٤٤٧ تولى الخلافة فيه خمسة خلفاء وهم المستكفي والمطيع والطائع والقادر والقائم

تاريخ هذا الدور يرتبط بتاريخ آل بويه الديلميين الذين كانوا أصحاب النفوذ الحقيقى والسلطان الفعلى في العراق لذلك أردنا أن نسوق فصلا نبين فيه أحوال الديلم وكيف تصرفت بهم الاحوال الى أن وصلوا الى ذروة العظمة باستيلائهم علي بغداد عاصمة الخلافة العباسية

بلاد الديلم أو بلاد جيلان واقعة فى الجنوب الغربي من شاطئ بحر الخزر سهلها للجيل وجبالها للديلم وقصبتها روزبار

كانت فى القديم احدى الايالات الفارسـية الا أن أهلها لم يكونوا من العنصر الفارسى بل عنصر ممتاز يطلق عليه اسم الديالمة أو الجيل . ولما أذن عمر بن الخطاب رضى الله عنه بالانسياح في بلاد العجم كانت بلاد الديلم مما فتحه المسلمون واستمر الديلم خاضعين للحكم الاسلامى مع بقائهم على وثنيتهم ولم يكن استيلاء المسلمين عليهم مما ينقص من شجاعتهم أو يفقدهم جنسيتهم . وكانت تجاورهم بلاد طبرستان وأكثر أهلها دانوا بالاسلام وكان بين الديالمة والطبريين سلم وموادعة

على هذا كان الحال في صدر الدولة العباسية فلا الديالمة تحدثهم أنفسهم بالخروج الى بلاد المسلمين ولا المسلمون يحدثون أنفسهم بالتوغل فى بلادهم حتى كانت حادثة اقطاع المستعين محمد بن طاهر تلك القطائع التى يقرب بعضها من ثغور طبرستان وأراد رسول ابن طاهر أن يستلمها ومعها الارض التى كانت مرافق لاهل تلك النواحى فامتنع من ذلك أهل طبرستان وأظهروا العصيان لمحمد بن طاهر ورأوا أن ذلك لا يتم

الا أن يكون على رأسهم رجل يدينون بطاعته فاتفقوا على الحسن بن زيد الذى قدمنا حديثه فى خلافة المستعين وكان مقيما بالرى فراسلوه فأقبل اليهم فبايعوه وطلبوا من الديلم أن يساعدوهم على عمال ابن طاهر فبذلوا لهم ما طلبوا من المساعدة لاساءة كانت من عمال ابن طاهر اليهم . استولت هذه القوة على مدن طبرستان ثم الرى وجرجان ولم يزل الحسن مدبر أمرهم حتى مات سنة ٢٧١ ثم ولى أخوه محمد بن زيد وكانت مدته مضطربة حتى قتل سنة ٢٨٧ وكان وجود الحسن بن زيد وأخيه فى تلك البلاد سبباً لمواصلة أهل الديلم وشيوع الدعوة الاسلامية بينهم

بعد ذلك دخل بلاد الديلم الحسن بن على الملقب بالاطروش وأقام بينهم ثلاث عشرة سنة يدعوهم الى الاسلام ويقتصر منهم على العشر ويدفع عنهم عدوهم فأسلم منهم خلق كثير واجتمعوا عليه وبنى فى بلادهم المساجد . وكان لآل سامان بازائهم ثغور مثل قزوين وسالوس وغيرهما وكان بمدينة سالوس حصن منيع فهدمه الحسن لما أسلم الديلم والجبل — ثم انه جعل يدعوهم الى الخروج معه الى طبرستان فلا يجيبونه لاحسان عبد الله بن محمد بن نوح الذى كان أميرا على تلك الجهات من قبل آل سامان فاتفق ان أحمد السامانى عزل عبد الله وولى بدله آخر اسمه سلام فلم يحسن سياسة أهلها فهاج عليه الديلم فقاتلهم وهزمهم واستقال من الولاية فأعاد أحمد السامانى عبد الله بن محمد بن نوح فصلحت البلاد — ولما مات جاءها وال غير رسومه وأساء السيرة وقطع عن رؤساء الديلم ما كان يهديه اليهم ابن نوح فانتهز الحسن بن على الفرصة وهيج الديلم عليه ودعاهم الى الخروج معه فأجابوه وخرجوا معه حتى التقوا بأمير طبرستان فهزموه واستولوا على طبرستان وكان أكبر معينيه ليلى بن النعمان وما كان ابن كالى الديلميان وكانا من عظماء الديلم وقوادهم استوليا على طبرستان وجرجان باسم الحسن بن على الاطروش . وممن عرف اسمه فى تلك الوقائع الحسن ابن القاسم الداعى العلوى وكان ختن الاطروش .

توفى الاطروش سنة ٣٠٤ وكان يلقب بالناصر لله وكان له من الاولاد الحسن

وأبو القاسم والحسين وكان الحسن مغاضبا له فلم يوله شيئا وولى ابنيه الآخرين فكانت طبرستان في أيديهما بمعونة الحسن بن القاسم الداعى

وفى سنة ٣٠٩ قتل ليلى بن النعمان أحد قواد الزيدية وكان يلى بلاد جرجان وكان أولاد الاطروش يكاتبونه المؤيد لدين الله المنتصر لآل رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلى بن النعمان وكان سبب قتله انه سار الى نيسابور بأمر الحسن بن القاسم يريد الاستيلاء عليها وكانت بيد السامانية فكان فى هذه الاغارة حتفه وانهزام جنوده ثم تقدمت جنود السامانية الى جرجان وبها أبو الحسين بن الناصر فانهزم عنها الى استراباذ ثم فارقها وقصد مدينة سارية وحمل باستراباذ ما كان ابن كالى وهو ثاني القواد المشهورين من الديلم بعد ليلى بن النعمان فاجتمع اليه الديلم وقدموه وأمروه عليهم وكان على يديه اعادة جرجان من الجنود السامانية فأقام بها

كان من أصحاب ما كان قائد ديلمى اسمه اسفار بن شيرويه وكان سيء الخلق والعشرة فأخرجه ما كان من عسكره فاتصل بأمير نيسابور للسامانية وهو بكر ابن محمد بن اليسع فأكرمه بكر وسيره الى جرجان ليأخذها من يد أبى الحسن بن كالى أخي ما كان وكان أخوه قد ولاه عليها وذهب الى طبرستان . وكان أبو الحسن قد اعتقل أبا على بن الاطروش عنده فتمكن أبو على من الخلاص من هذا الاعتقال واغتال أبا الحسن بن ما كان وأرسل الى جماعة القواد يخبرهم بقتله ففرحوا وبايعوا العلوي وألبسوه القلنسوة وكاتبوا اسفار بن شيرويه وعرفوه الحال واستقدموه اليهم فسار الى جرجان وضبطها وجاءه ما كان يحاربه فهزمه اسفار وصادف أن مات أبو على ابن الاطروش وصفت جرجان لاسفار وأسفار هذا هو ثالث قواد الديلم . ولما تمكنت قدمه بجرجان أرسل لمرداويج بن زيار الجيلى يستدعيه فحضر عنده وجعله أميرا الجيوش وأحسن اليه ثم قصدا طبرستان فاستوليا عليها فعلم بذلك الحسن بن القاسم الداعي وهو بالرى ومعه ما كان بن كالى فسار نحو طبرستان والتقى بأسفار عند سارية فانهزم الحسن وما كان ثم أدرك الحسن فقتل وبقتله صفت لاسفار طبرستان والرى وجرجان وقزوين

وزنجان وأبهر وقم والكرج ودعا لصاحب خراسان وهو السعيد بن نصر السياماني وأقام بسارية ثم استولى على قلعة الموت وهى قلعة على جبل شاهق فى حدود الديلم

عظمت جيوش أسفار وجل قدره فتجبر وعصى على الامير السعيد صاحب خراسان وأراد أن يجعل على رأسه تاجا وينصب بالرى سرير ذهب للسلطنة ويحارب خليفة بغداد المقتدر بالله فسير اليه المقتدر جيشا فحاربه أسفار وانتصر عليه ولما علم السعيد بذلك سار من بخارى حاضرة ملكه ليحارب أسفار ويأخذ بلاده فلما علم أسفار بوصول السعيد الى نيسابور أدرك انه لا يمكنه أن يقاومه فراسله في الصلح واتفقا على شروط منها حمل الاموال والخطبة باسمه في بلاده

وبينما هو في ذروة عزه قام عليه أكبر قواده مرداويج بن زيار وشق عصا طاعته اتحد مع سلار صاحب شميران وتحالفا وتعاقدا على التساعد على حرب اسفار. ومن حسن حظ مرداويج ان أكثر قواد أسفار كانوا ملوه لجبره وظلمه فسرعان ما أجابوا مرداويج حين أعلمهم بأمره وكانت نتيجة هذا الاتفاق أن قتل أسفار سنة ٣١٦

ملك البلاد مرداويج وأحبته الجنود لحسن سيرته واتسعت رقعة ملكه وعمل له سريرا من ذهب يجلس عليه وسريرا من فضة يجلس عليه أكابر قواده واذا جلس على السرير يقف عسكره صفوفا بالبعد عنه ولا يخاطبه أحد الا الحجاب الذين رتبهم لذلك وخافه الناس خوفا شديدا ودخلت في حوزته طبرستان وجرجان واجتهد ما كان بن كالى أن يدافعه عنهما واستعان بكل وسيلة فلم يقدر وأقبلت الديلم الى مرداويج من كل ناحية لبذله واحسانه الى جنده فعظمت جيوشه وكثرت عساكره فكثر الخرج عليه فلم يكفه مافى يده فذهب الى همذان واستولى عليها من يد جنود الخليفة وبذلك تم له الاستيلاء على بلاد الجبل كلها وبلغت عساكره الى نواحى حلوان وهى أول حدود العراق

ثم ملك بعد ذلك أصبهان والاهواز وأرسل الى المقتدر رسولا يقرر على نفسه مالا على هذه البلاد كلها فأجابه المقتدر الى ذلك وقوطع على مئتى الف درهم كل سنة

في سنة ٣٢٠ أرسل مرداويج الى أخيه وشمكير وهو ببلاد جيلان يستدعيه اليه لجاهه واعتز به . والمؤرخ أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني الخوارزمى يؤكد فى كتابه الموسوم بالآثار الباقية عن القرون الخالية الذى ألفه باسم شمس المعالى قابوس بن وشكمير ان هـذه الاسرة من أصل شريف الطرفين فأما أحد الاصلين فورد انشاه الذى لا تجهل سيادته في الجيل وأما الاصل الآخر فملوك الجبال الملقبون بأصفهبذية طبرستان والفرجوارجر شاهية وليس ينكر اعتزاء من كان منهم من أهل بيت الملك الى ما يجمعهم والاكاسرة في شعب واحد فان خاله هو الاصفهبذ رستم بن قارن بن شرويه بن رستم بن قارن بن شهريار بن شروين بن سرخاب بن شابور ابن كياس بن قباذ والد أنوشروان

ولمـا استقرت قدم مرداويج قدم عليه ثلاثة نفر من أعيان الديلم كانوا من قواد ما كان بن كالى وفارقوة لما ضاقت بهم الحال وهم على والحسن وأحمد أولاد بويه ساروا الى مرداويج ومعهم جماعة من قواد ما كان . وهؤلاء الثلاثة هم الذين أسسوا الاسرة البويهية التى امتلكت ناصية بلاد العراق وما يحيط بها من البلاد الاسلامية وهى التى تكون الدور الثاني من أدوار الخلافة العباسية ولما ارتفع شأنهم ظهر لهم ذلك النسب العالى فقد ذكر أبو اسحاق ابراهيم بن هلال الصابى فى كتابه الذي سماه بالتـاج ان بويه ينتهى نسبه الى بهرام جور الملك والبيروني السابق ذكره يرجح ان هـذا النسب انمـا ظهر لهم بعد ثبوت ملـكهم والا فتلك الامم ليست معروفة بحفظ الانساب ولا مذكورة بتخليد ذلك ولا بانها كانت تعرف ذلك منهم قبل انتقال الدولة اليهم مع انه فيما سبق يرجح صحة نسب أخوال وشمكير ويسوقها نسقاً حتى يصل بها الى قباذ ملك الفرس

لما ورد أبناء بويه على مرداويج خلع على علىّ والحسن وولى القواد الذين وصلوا معهما النواحى وولى على بن بويه بلاد الكرج وكتب لهم بذلك العهود فساروا الى الرى وبها وشمكير أخو مرداويج ومعه وزير مرداويج الحسين بن محمد الملقب بالعميد .

صادف أن كان مع على بن بويه بغلة شهباء من أحسن ما يكون فعرضها للبيع فبلغ ثمنها ٢٠٠ دينار فعرضت على العميد فاخذها ونقد ثمنها فلما حمل الى على أخذ منه عشرة دنانير ورد الباقى ومعه هدية جميلة فكان ذلك بدء الصلة بين العميد وآل بويه

ندم مرداويج بعد انفصال هؤلاء القواد على توليتهم فكتب الى أخيه وشمكير والي العميد يأمرهما بمنع أولئك القواد عن المسير الى أعمالهم وان كان بعضهم قد خرج يرد وكانت الكتب تصل الي العميد قبل وشمكير فيقرؤها ثم يعرضها على وشمكير فلما وقف العميد على هذا الكتاب أنفذ الى علي بن بويه يأمره بالمسير من ساعته الى عمله ويطوى المنازل فسار من ساعته ولما أصبح العميد عرض الكتاب على وشمكير فمنع سائر القواد من الخروج من الرى واستعاد التوقيعات التى كانت معهم وأراد أن ينفذ خلف على بن بويه من يرده فقال العميد انه لا يرجع طوعا وربما قاتل من يقصده ويخرج من طاعتنا فتركه . وصل على الى الكرج وأحسن الى الناس ولطف بعمال البلاد فكتبوا الى مرداويج يشكرونه ويصفون ضبطه للبلد وحسن سياسته . وافتتح قلاعا كانت للخرمية وظفر منها بذخائر كثيرة صرفها جميعها الى استمالة الرجال والصلات والهبات فشاع ذكره وقصده الناس وأحبوه . ولما كان مرداويج بالرى أطلق مالا لجماعة من قواده على الكرج فاستمالهم على بن بويه ووصلهم وأحسن اليهم حتى مالوا اليه وأحبوا طاعته وبلغ ذلك مرداويج فاستوحش وندم على انفاذ أولئك القواد فكتب اليهم والى على يستدعيهم اليه وتلطف بهم ودافعه على واشتغل باخذ العهود عليهم وخوفهم سطوة مرداويج فاجابوه جميعا فجبى على مال الكرج واستأمن اليه شيرزاد وهو من أعيان قواد الديلم فقويت نفسه وسار بمن معه الى أصبهان فاستولى عليها من يد المظفر بن ياقوت . بلغ ذلك الخليفة فاستعظمه وبلغ مرداويج فاقلقه وخاف على ما بيده من البلاد واغتم لذلك غما شديدا ولكن رأى أن يحتال فراسل عليا يعاتبه ويستميله ويطلب منه أن يظهر طاعته حتى يمده بالعساكر الكثيرة ليفتح بها البلاد ولا يكلفه سوى الخطبة له فى البلاد التى يستولى

عليها وجهز بعقب تلك الرسالة أخاه وشمكيرفي جيش كثيف ليكبس عليا وهو مطمئن الى الرسالة المتقدمة فعلم علي بذلك فرحل عن أصبهان بعد أن جباها شهرين وتوجه الى أرجان وبها أبو بكر بن ياقوت فانهزم عنها أبو بكر من غير قتال وقصد رامهرمز فاستولى علي على ارجان في ذي الحجة سنة ٣٩٠ فاستخرج منها أموالا قوي بها. جاءته وهو بها كتب من أبي طالب زيد بن علي النوبندجاني يستدعيه ويشير عليه بالمسير الى شيراز ويهون عليه أمر ياقوت وأصحابه ويعرفه بتهوره واشتغاله بجباية الاموال وكثرة مؤنته ومؤنة أصحابه وثقل وطأتهم على الناس مع فشلهم وجبنهم فتردد علي أولا ثم عزم على المسير فسار نحو النوبندجان في ربيع الآخر سنة ٣٢١ فلقي بها مقدمة ياقوت فهزمها ثم سار منها الى اصطخر خوفا أن يقع بين ياقوت ومرداويج لانه بلغه انهما تراسلا ليتفقا عليه فقابله في الطريق ياقوت بجيوشه فكان النصر لعلي وانهزم ياقوت هو ومن معه وكان أحمد بن بويه ممن ظهر أثره في ذلك اليوم وهو صبي لم تنبت لحيته وكان عمره ١٩ سنة . وبعد هذا الانتصار عامل على الاسرى أحسن معاملة وخيرهم بين المقام عنده واللحاق بياقوت فاختاروا المقام عنده فخلع عليهم وأحسن اليهم ثم سار حتى أتي شيراز قصبة فارس فاستولى عليها ونادى في الناس بالامان وبث العدل وأقام لهم شحنة تمنع ظلمهم واستولى على كثير من أموال ياقوت وودائعه فسهلت عليه أمر استرضاء الجنود والتودد اليهم فأحبوه وثبت ملكه ثم أرسل الى خليفة بغداد الراضي بالله والى وزيره ابن مقلة يعرفهما انه على الطاعة ويطلب أن يقاطع على ما بيده من البلاد وبذل الف الف درهم فاجيب الى ذلك وأنفذت اليه الخلع واللواء

لما بلغ مرداويج ما ناله ابن بويه قام لذلك وقعد وسار الى أصبهان للتدبير عليه وبها أخوه وشمكير فرأى أن ينفذ عسكرا الى الاهواز للاستيلاء عليها ويسد الطريق على ابن بويه اذا قصده فلا يبقي له طريق الى الخليفة ويقصده هو من ناحية أصبهان ويقصده عسكره من ناحية الاهواز فلا يثبت لهم . فسارت عساكر مرداويج حتى

بلغت ايذج فى رمضان ثم استولت على رامهرمز في شوال سنة ٣٢٢ ثم استولت على الاهواز وأجلت عنها ياقوتا. بلغ ابن بويه أن مرداويج استولي على الاهواز فكاتب نائبه يستميله ويطلب منه أن يتوسط بينه وبين مرداويج ففعل واستقر الامر بينهما على ان ابن بويه يخطب لمرداويج وأهدى له ابن بويه هدية جميلة وأنفذ له أخاه الحسن رهينة.

من حسن حظ ابن بويه ان مرداويج قتل بعد ذلك سنة ٣٢٣ تمردت عليه جنوده الاتراك لانه كان كثير الاساءة اليهم ويفضل عليهم الديالمة الذين هم من عنصره فاتفقوا على اغتياله ففعلوا وكان رؤساء المتألبين عليه من الاتراك بجكم وتوزون وهما اللذان ذكرنا انهما توليا أمرة الامراء بالعراق وياروق وابن بغرا ومحمد بن ينال الترجمان. ولما تم لهم ما أرادوا تفرق الجيش فاما الاتراك فافترقوا فرقتين فرقة منهم لحقت بابن بويه وفرقة سارت نحو الجبل مع بجكم. وأما الديلم فذهبوا الى وشمكير وهو بالرى وأطاعوه. وكان من نتيجة قتل مرداويج أن تخلص الحسن بن بويه الذى كان رهينة عنده وسار الى أخيه بفارس

سارت القوى الكبري ببلاد العجم ثلاثا قوة على بن بويه بفارس وقوة وشمكير ابن شيرويه بالرى وقوة السامانيـة بخراسان وما وراء النهر. أما ياقوت الذى كان بالاهواز فضعفت قوته جدا حتى لم تعد قادرة على حفظ ما معها فضـلا عن مصادمة غيرها أما القوة الحية النامية فهى قوة ابن بويه. سير أخاه الحسن الى بلاد الجبـل ومعه العساكر فاستولى على اصبهان وأزال عنها وعن عدة من بلاد الجبل نواب وشمكير وبقى هو ووشمكير يتنازعان هذه البلاد وهى اصـبهان وهمذان وقم وقاشان وكرج والري وكنكور وقزوين وغيرها حتى تم للحسن بن بويه الاستيلاء عليها بعد خطوب وحروب طويلة وانجلى عنها نواب وشمكير

خطر ببال على بن بويه أن يمد سلطانه الى الاهواز والعراق لما علمه من ضعف قوة الخليفة ببغداد وكان هو مشغولا بادارة اقليم فارس وأخوه الحسن مشغولا ببلاد

الجبل وأخوهما الاصغر احمد لا شغل له فسيره على الى الاهواز فاستولى عليها بعد حروب بينه و بين بجكم الرائقي وانهزم بجكم الى واسط

كان من أهم مقاصد ابن بويه المسير الى العراق بعد الاستيلاء على واسط فصار أحمد بن بويه يسير الى واسط ثم يعود عنها حتى كاتبه قواد بغداد يطلبون اليه المسير نحوهم للاستيلاء على بغداد فوصلها في ١١ جمادى الاولى سنة ٣٣٤ والخليفة بها هو المستكفي بالله فقابله واحتفى به وبايعه أحمد وحلف كل منهما لصاحبه هذا بالخلافة وذاك بالسلطنة وفي هذا اليوم شرف الخليفة بني بويه بالالقاب فلقب عليا صاحب بلاد فارس عماد الدولة وهو أكبرهم ولقب الحسن صاحب الرى والجبل ركن الدولة ولقب احمد صاحب العراق معز الدولة وأمر أن تضرب ألقابهم وكناهم على النقود

وهذا اليوم هو تاريخ الدور الثاني للخلافة العباسية وهو تاريخ سقوط السلطان الحقيقي من أيديهم وصيرورة الخليفة منهم رئيساً دينياً لا أمر له ولا نهي ولا وزير وانما له كاتب يدبر اقطاعاته واخراجاته لا غير وصارت الوزارة لمعز الدولة يستوزر لنفسه من شاء

وكان يخطر ببال معز الدولة أن يزيل اسم الخلافة أيضاً عن بني العباس ويوليها علويا لان القوم كانوا شيعة زيدية لان التعاليم الاسلامية وصلت اليهم على يد الحسن ابن زيد ثم على يد الحسن الاطروش وكلاهما زيدى فكانوا يعتقدون ان بنى العباس قد غصبوا الخلافة وأخذوها من مستحقيها ولكن بعض خواصه أشار عليه ألا يفعل وقال له انك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه ومتى أجلست بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته فلو أمرهم بقتلك لفعلوا فأعرض عما كان قد عزم عليه وأبقى اسم الخلافة لبني العباس وانفرد هو بالسلطان ولم يبق بيد الخليفة شئ البتة الا ما أقطعه معز الدولة مما يقوم بحاجته

كان السلطان في ذلك الوقت ببلاد الاندلس لبنى أمية والقائم بالامر منهم

عبد الرحمن الناصر وقد تلقب بأمير المؤمنين حينما وصلت خلافة بغداد الى ما وصلت اليه من الضعف أمام الاتراك والديالمة الذين سال سيلهم ببغداد

وبلاد افريقية للعبيديين الذين تأسست دولتهم على انقاض الاغالبة والادارسة والقائم بالامر منهم اسماعيل المنصور وهو ثاني خلفائهم وكان يلقب بأمير المؤمنين

وبمصر والشام للاخشيديين والامير منهم انوجور بن محمد الاخشيد وكانوا يخطبون باسم الخليفة العباسى

وبحلب والثغور لسيف الدولة على بن عبد الله بن حمدان الشيباني ويخطب باسم الخليفة العباسى

وبالجزيرة الفراتية لناصر الدولة الحسن بن عبد الله بن حمدان الشيباني ويخطب باسم الخليفة العباسى

وبالعراق للديلم والسلطان منهم معز الدولة أحمد بن بويه ويخطب على منابره باسم الخليفة العباسى ثم باسم معز الدولة من بعده

وبعمان والبحرين واليمامة وبادية البصرة للقرامطة ويخطبون باسم المهدى

وبفارس والاهواز لعلى بن بويه الملقب عماد الدولة ويخطب باسم الخليفة العباسى وكان يلقب بأمير الامراء لانه أكبر بني بويه

وبالجبل والري لحسن بن بويه الملقب ركن الدولة ويخطب باسم الخليفة العباسى

وجرجان وطبرستان يتنازعها وشمكير بن شيرويه وركن الدولة وآل سامان

وبخراسان وما وراء النهر لآل سامان ومقر ملكهم مدينة بخارى ويخطبون على منابرهم باسم الخليفة العباسى

هذه هى القوى الكبرى التى كانت لاسر ملوكية في الرقعة الاسلامية فقد تفرق هذا الملك الواسع تفرقا غريبا بعد أن كان متماسك الاعضاء يرجع كله الى حاضرة كبرى تجمع شتاته. ومما يستحق النظر أن العنصر العربي لم يبق له شئ من الملك الا ما كان لناصر الدولة وأخيه سيف الدولة فانهما من عنصر عربي ومع هذا فقد

كان النفوذ والسلطان فيما يليانه من البلاد لقواد من الاتراك ولم يكن لهما استقلال سياسى بل كان أمر بني بويه فوقهما وكانا يذكران اسم معز الدولة في الخطبة بعد ذكر الخليفة العباسى

لم يمكث المستكفى فى الخلافة بعد استيلاء معز الدولة الا أربعين يوما وخلع لان معز الدولة اتهمه بالتدبير عليه فصمم علي خلعه فنى الثانى والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٣٣٤ حضر عند الخليفة وحضر الناس ورسول صاحب خراسان ثم حضر اثنان من نقباء الديلم يصيحان فتناولا يد المستكفى فظن انهما يريدان تقبيلها فمدها اليهما فجذباه عن سريره وجعلا عمامته في حلقه ونهض معز الدولة واضطربت الناس ونهبت الاموال وساق الديلميان المستكفى ماشياً الى دار معز الدولة فاعتقل بها ونهبت دار الخلافة حتى لم يبق بها شئ وقبض على أبى أحمد الشيرازى كاتب المستكفى . وكانت مدة المستكفى سنة واحدة وأربعة أشهر

٢٣ ـ المطيع

هو الفضل المطيع لله بن المقتدر بن المعتضد فهو ابن عم المستكفى بويع بالخلافة ثاني عشر جمادى الآخرة سنة ٣٣٤ (٢٩ ينايرسنة ٩٤٦) ولم يزل خليفة الى أن خلع في منتصف ذى القعدة سنة ٣٦٣ (٧ اغسطس سنة ٩٧٤) فكانت مدته ٢٩ سنة وخمسة أشهر غير أيام ولم يكن له من الامر شيء والنفوذ في حياته للملوك من آل بويه وهم :

(أولا) معز الدولة

وهو أحمد بن بويه فاتح العراق وكان أصغر أخوته وكان سلطان معز الدولة بالعراق مبدأ خرابه بعد أن كان جنة الدنيا فانه لما استقرت قدمه فيه شغب الجند

عليه وأسمعوه المكروه فضمن لهم أرزاقهم في مدة ذكرها لهم فاضطر الى ضبط الناس وأخذ الاموال من غير وجوهها وأقطع قواده وأصحابه القرى جميعها التى للسلطان وأصحاب الاملاك فبطل لذلك أكثر الدواوين وزالت أيدي العمال وكانت البلاد قد خربت من الاختلاف والغلاء والنهب فأخذ القواد القرى وزادت عمارتها معهم وتوفر دخلها بسبب الجاه فلم يمكن معز الدولة العود عليهم بذلك وأما الاتباع فان الذى أخذوه زاد خرابا فردوه وطلبوا العوض عنه فعوضوا وترك الاجناد الاهتمام بمشارب القرى وتسوية طرقها فهلكت وبطل الكثير منها وأخذ غلمان المقطعين في الظلم وتحصيل العاجل فكان أحدهم اذا عجز الحاصل تممه بمصادراتها . ثم ان معز الدولة قد فوض حماية كل موضع الى بعض أكابر أصحابه فاتخذه مسكناً فاجتمع اليه الاخوة وصار القواد يدعون الخسارة فى الحاصل فلا يقدر وزير ولا غيره على تحقيق ذلك فان اعترضه معترض صاروا أعداء له فتركوا وما يريدون فازداد طمعهم ولم يقفوا عند غاية فتعذر على معز الدولة جمع ذخيرة تكون للنوائب والحوادث وأكثر من اعطاء غلمانه الاتراك والزيادة لهم فى الاقطاع فحسدهم الديلم وتولد من ذلك الوحشة والمنافرة ولم تمض سنة على بغداد حتى اشتد الغلاء بها فأكل الناس الميتة والسنانير والكلاب وأكل الناس خروب الشوك وكانوا يسلقون حبه ويأكلونه فلحق الناس أمراض وأورام فى أحشائهم وكثر فيهم الموت حتى عجز الناس عن دفن الموتى فكانت الكلاب تأكل لحومهم وانحدر كثير من أهل بغداد الى البصرة فمات أكثرهم في الطريق وبيعت الدور والعقارات بالخبز

فكان نظام الاقطاعات أول فساد بالعراق لانه أضعف همة الفلاحين الذين يقومون بزرع الارض واصلاحها وتنميتها

السبب الثاني من أسباب الفساد اختلافان . الاول اختلاف عنصرى بين الاجناد فانهم كانوا يتألفون من ديلم وأتراك وبين العنصرين غيرة ومنافسات فكان بينهما في أكثر الاحيان نزاع شديد يعود بالضرر على الناس حيث تقف حركة التجارة

لخوف الناس على ما بيدهم من المال وقد كادت هذه المنازعات تؤدى سنة ٣٣٥ الى خلع معز الدولة بيد الديلم أنفسهم فانهم لما رأوا تقدم الاتراك ثاروا به ومقدمهم قائد منهم اسمه روزبهان بن ونداد خورشيد وساعده على ذلك أخواه ولكن معز الدولة انتصر عليه بقوة الاتراك فاصطنعهم دون الديلم وأمر بتوبيخ الديلم والاستطالة عليهم ثم أطلق للاتراك اطلاقات زائدة على واسط والبصرة فساروا لقبضها مدلين بما صنعوا فأخربوا البلاد ونهبوا الاموال وصار ضررهم أكبر من نفعهم . وأما الاختلاف الثاني فهو اختلاف دينى تأججت ناره ببغداد نفسها وبما جاورها من بلاد العراق فقد كان أهل بغداد قبل الدولة البويهية على مذهب أهل السنة والجماعة يحترمون جميع الصحابة ويفضلون الشيخين أبا بكر وعمر على سائرهم ولا يقدحون في معاوية ولا غيره من سلف المسلمين فلما جاءت هذه الدولة وهى متشيعة غالية نما مذهب الشيعة ببغداد ووجد له من قوة الحكومة أنصارا فقد كتب على مساجد بغداد سنة ٣٥١ ما صورته (لعن الله معاوية بن أبي سفيان ولعن من غصب فاطمة رضى الله عنها فدكا ومن منع من أن يدفن الحسن عند قبر جده عليه السلام ومن نفى أبا ذر الغفارى ومن أخرج العباس من الشورى) والخليفة كان محكوما عليه لا يقدر على المنع وأما معز الدولة فبأمره كان ذلك . فلما كان الليل حكه بعض الناس فأراد معز الدولة اعادته فأشار عليه وزيره أبو محمد المهلبى بأن يكتب مكان ما محى لعن الله الظالمين لآل رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يذكر أحدا في اللعن الا معاوية ففعل ذلك

وفى سنة ٣٥٢ أمر معز الدولة عاشر المحرم أن يغلقوا دكاكينهم ويبطلوا الاسواق والبيع والشراء وأن يظهروا النياحة ويلبسوا قبابا عملوها بالمسوح وأن يخرج النساء منشورات الشعور مسودات الوجوه قد شققن ثيابهن يدرن في البلد بالنوائح ويلطمن وجوههن على الحسين بن على رضى الله عنهما ففعل الناس ذلك ولم يكن للسنية قدرة على المنع لكثرة الشيعة ولأن السلطان معهم

وفي ثامن عشر ذى الحجة أمر معز الدولة باظهار الزينـة في البلد وأشعلت النيران بمجلس الشرطة وأظهر الفرح وفتحت الاسواق بالليل كما يفعل ليالى الاعياد فعل ذلك احتفالا بعيد الغدير يعني غدير خُم وهو الموضع الذى يروى ان رسول الله صلي الله عليه وسلم قال فيه عن على من كنت مولاه فعلى مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه . وضربت الدبادب والبوقات وكان يوما مشهودا

وبهذا الانقسام صارت بغداد وبلاد فارس والرى ميدانا للاضطرابات المتكررة بين العامة والسلطان ضلعه مع أحد الفريقين والخليفة ضلعه مع الفريق الآخر وهو الاكثر عددا ومن المعلوم ان جميع العداوات يمكن تلافيهـا فيهون أمرها ما عدا ما منشؤه الدين منها وأعظمها شدة ما كان بين فرقتين من دين واحد فانها يشـتد توهجها اذا وجدت محضاً يحركها لغاياته ولا أشد من يد السلطان في تحريكها فاذا لعبت فيها أصبعه ماج الناس وهاجوا وأثر ذلك في الاحوال العامة أسوأ تأثير ولا يزول ذلك الا بعد أن ينغرس في نفوس الناس حرية الدين والعقيدة ولم يكن ثم سبيل الى ذلك لان احدى الفرقتين تحترم شخصاً والاخرى تلعنه فأنى تتفقان

ومع ما أدت اليه سياسة معز الدولة من هذا الفسـاد كانت هناك أمور أخرى تشغل باله فى شمالى بلاده وجنوبيها أما في الشمال فناصر الدولة بن حمدان بالموصل وكان الرجلان يتنازعان السلطان وكل يريد الاغارة على ما بيد الآخر

ففي السنة الاولى لولاية معز الدولة جاء ناصر الدولة واستولى على الجانب الشرقى من بغداد وكاد أمر معز الدولة يضمحل لولا أن استعمل الحيلة التى خدع بها ناصر الدولة وهزمه فجاء الديلم ونهبوا أموال الناس فكان مقدار ماغنموه من أموال الناس المعروفين دون غيرهم عشرة آلاف الف دينار وقتلوا كثيرا ممن اتهموه . واضطر ناصر الدولة أن يطلب من معز الدولة الصلح على مال يؤديه عمـا تحت يده من البلاد فقبل ذلك معز الدولة

وفى سنة ٣٣٧ سار معزالدولة الى الموصل مريدا الاستيلاء عليها فسار عنها

ناصر الدولة الى نصيبين فدخلها معز الدولة وظلم أهلها وعسفهم وأخذ أموال الرعايا فكرهه الناس وكان من غرضه أن يستولى على جميع ما بيد ناصر الدولة من البلاد ولكن بلغه من أخيه ركن الدولة أن جيوش السامانية خرجت تريد الاستيلاء على جرجان والرى وطلب منه المدد فاضطر الى مصالحة ناصر الدرلة فترددت بينهما الرسل واستقر الامر على أن يؤدى ناصر الدولة عن الموصل وديار الجزيرة كلها والشام فى كل سنة ثمانية آلاف الف درهم ويخطب فى بلاده لاولاد بويه الثلاثة واذ ذاك رجع معز الدولة الى بغداد

ولما قامت فتنة روزبهان الديلمى على معز الدولة أراد ناصر الدوله اعادة الكرة على بغداد فسير اليها أحد أولاده في جيش لكنه لم يتمكن مما أراد فلما انتصر معز الدولة على خصمه ولى وجهه شطر الموصل للانتقام من ناصر الدولة فراسله ناصر الدولة يطلب الصلح على مال ضمنه فقبل ولكن ناصر الدولة لم يف بما ضمن فسار اليه معزالدولة سنة ٣٤٧ فلما قارب الموصل سار عنها ناصر الدولة الى نصيبين فاستولى عليها معز الدولة ثم سار الى نصيبين ففارقها ناصر الدولة الى ميافارقين فاستولى عايها معز الدولة

ولما رأى ناصر الدولة ما صار اليه سار الي أخيه سيف الدولة بحلب فلقيه أخوه وبالغ في اكرامه وراسل معز الدولة في طلب الصلح فامتنع معز الدولة من تضمين ناصر الدولة لاخلافه مرة بعد أخرى فضمن سيف الدولة البلاد منه بألفي الف درهم وتسعمائة الف درهم وكان ذلك فى محرم سنة ٣٤٨

وانما أجاب معز الدولة الى الصلح لانه ضاقت عليه الاموال وتقاعد الناس عن حمل الخراج واحتجوا بأنهم لا يصلون الى غلاتهم وطلبوا الحماية من العرب أصحاب ناصر الدولة فاضطر بسبب ذلك الى الانحدار وأجاب الى الصلح وانحدر الى بغداد وعاد ناصر الدولة الى الموصل ومع كل هذا لم تهدأ الحروب بين هذين الطرفين فاشتغلا بها عن كل مصلحة وكان ذلك سبباً فيما يأتي ذكره من الضعف امام الروم

لم يكن هذا وحده الذى يشغل معز الدولة بل كان له فى الجنوب أيضاً مشاغل كبرى فقد كان بالبصرة أبو القاسم البريدى أميرا عليها باسم معز الدولة ولكن نفسه كانت تطمع للاستقلال بها وألا يرسل الى معز الدولة خراجا فكان معز الدولة يرسل اليه الجيوش والبريدى يرسل مثلها فيحصل القتال بين الطرفين

وفى سنة ٣٣٦ عزم معز الدولة أن يسير الى البريدى بنفسه فسار اليه سالكا البرية فأرسل اليه القرامطة ينكرون عليه مسيره الى البرية بغير اذنهم فلم يجبهم على كتابهم وقال من هؤلاء حتى يستأمروا ولما وصل الى الدرهمية استأمن اليه كثير من عسكر البريدى وهرب هو الى هجر والتجأ الى القرامطة وملك معز الدولة البصرة

وكانت نتيجة ما فعله مع القرامطة والاستهانة بهم أن جاؤا الى البصرة سنة ٣٤١ ومعهم أمير عمان من البحر ولكن البصرة قاومتهم بفضل الوزير المهلبى وزير معز الدولة

وفوق هذا فقد حدثت قوة جديدة زادت متاعبه ومشاغله وهي قوة عمران بن شاهين وكان في أول أمره جابياً فجبا جبايات ثم هرب الى البطيحة وهى أرض واسعة بين واسط والبصرة وكانت قديماً قرى متصلة وأرضاً عامرة فاتفق في أيام كسري ابرويز أن زادت دجلة زيادة مفرطة وزاد الفرات أيضاً بخلاف العادة فعجز عن سدها فتبطح الماء في تلك الديار والعمارات والمزارع فطرد أهلها عنها فلما نقص الماء وأراد العمارة أدركته المنية ولم يفعل من بعده شيئاً ثم جاء الاسلام فاشتغلوا بالحروب والجلاء ولم يكن للمسلمين اذ ذاك دراية بعمارة الارضين فلما القت الحرب أوزارها واستقرت الدولة الاسلامية فى قرارها استفحل أمر البطائح وفسدت مواضع البثوق وتغلب الماء على النواحي ودخلها العمال بالسفن فرأوا فيها مواضع عالية لم يصل الماء اليها فبنوا فيها قرى وسكنها قوم وزرعوها الارز . جاء عمران الى هذه البطائح خوفا من السلطان وأقام بين القصب والآجام متحصناً بها واقتصر على ما يصيد من السمك وطيور الماء ثم صار يقطع الطريق على من يسلك البطيحة واجتمع اليه جماعة من الصيادين وجماعة من اللصوص فقوى بهم وحمى جانبه من السلطان فلما خاف أن

يقبض استأمن الى أبي القاسم البريدي فقلده حماية الجامدة ونواحي البطائح وما زال يجمع الرجال الى أن كثر أصحابه وقوي واستمد بالسلاح واتخذ معاقل على التلول التي بالبطيحة وغلب على تلك النواحي فلما اشتد أمره سير معز الدولة جيشاً لمحاربته قائده وزيره أبو جعفر الصيمري فانتصر أبو جعفر انتصارا باهرا وكاد يأخذ عمران لولا أن شغل معز الدولة بوفاة أخيه الاكبر عماد الدولة فاضطر الى أن يأمر وزيره بقصد شيراز لاصلاحها ففارق البطيحة وكان ذلك منفساً عن عمران فزاد قوة وجرأة فانفذ اليه معز الدولة جيشاً ثانيا فكان نصيب هذا الجيش الفشل وغنم عمران ما كان فيه من السلاح فقوى وطمع أصحابه في السلطان فصاروا اذا اجتاز بهم أحد من أصحاب السلطان يطلبون منه البذرقة والخفارة فان أعطاهم والا ضربوه وكان الجند لا بد لهم من العبور عليهم الى ضياعهم ومعايشهم بالبصرة وغيرها ثم انقطع الطريق الى البصرة الاعلى الظهر فشكا الناس ذلك الى معز الدولة فكتب الى وزيره المهلبي بالمسير الى واسط وأمده بالجيوش فزحف الى البطيحة وضيق على عمران فانتهى الى المضايق التى لا يعرفها الا هو وأصحابه فهجم عليهم المهلبى وكان عمران قد جعل الكمناء في تلك المضايق فلما تقدم المهلبى خرج عليه وعلى أصحابه الكمناء ووضعوا فيهم السلاح فقتلوا وأغرقوا وأسروا والقى المهلبى نفسه في المـاء فنجا سباحة وأسر عمران القواد والاكابر فاضطر معز الدولة الى مصالحته واطلاق من عنده من أهل عمران واخوته فاطلق عمران من فى أسره من أصحاب معز الدولة وقلده معز الدولة البطائح فقوى واستفحل أمره وقد استمر ملك عمران بن شاهين بالبطيحة من سنة ٣٢٩ الى سنة ٣٦٩ أى أربعين سنة كان فيها شجا في حلق بنى بويه لا يقدرون منه على شيء وانتقل الملك منه الى أعقابه ومواليهم الي سنة ٤٠٨ وهذا ثبتهم

(١)	عمران بن شاهين	٣٢٩ – ٣٦٩
(٢)	الحسن بن عمران	٣٦٩ – ٣٧٢
(٣)	أبو الفرج بن عمران	٣٧٢ – ٣٧٣

(٤) أبو المعالى بن الحسن بن عمران ٣٧٣ – ٣٧٣

(٥) المظفر بن على وزير عمران وابنه الحسن بالتغلب ٣٧٣ – ٣٧٦

(٦) مهذب الدولة أبو الحسن على بن نصر ابن أخت المظفر ٣٧٦ – ٤٠٨

(٧) أبو الحسين بن مهذب الدولة ٤٠٨ – ٤٠٨

(٨) عبد الله بن نسى بالتغلب ٤٠٨ – ٤٠٨

ثم صارت البطيحة متغلبا لكثير من الاقوياء يتلقاها أحدهم عن الآخر بطريق التغلب والقوة الى انتهاء الدولة السلجوقية فعادت الى خلفاء بغداد

لم يكن عهد معز الدولة ببغداد الا شرا كله من جراء الاختلافات والحروب الداخلية والخراب وضعف هيبة السلطان . ولما أحس بقرب منيته وصى ولده بختيار بطاعة عمه ركن الدولة واستشارته في كل ما يفعل وبطاعة عضد الدولة ابن عمه لانه أكبر منه سناً وأقوم بالسياسة . ثم أدركته منيته في ١٣ ربيع الاخر سنة ٣٥٦

ومما حصل من حوادث أهل بيته فى عهده وفاة عمه عماد الدولة على بن بويه سنة ٣٣٨ باصطخر ولما لم يكن له ولد ذكر طلب من أخيه ركن الدولة أن يرسل اليه ابنه فنّا خسرو الملقب عضد الدولة فأجابه فولاه عهده ولما توفى قام عضد الدولة بأمر فارس من بعده وانتقلت امرة الامراء الى أخيه ركن الدولة الحسن

(ثانياً) عز الدولة بختيار

وهو ابن معز الدولة أحمد بن بويه ولى العراق بعد وفاة أبيه واستمر فى سلطانه الى أن خلعه ابن عمه عضد الدولة سنة ٣٦٧ فكانت مدته ١١ سنة قضى منها سبع سنين فى خلافة الفضل المطيع وكانت البلاد فى سلطانه أسوأ حالا منها فى سلطان أبيه فانه اشتغل باللهو واللعب وعشرة النساء والمغنين وشرع فى ايحاش كاتبى أبيه أبى الفضل العباس بن الحسين وأبى الفرج محمد بن العباس مع ان أباه أوصاه بتقريرهما لكفايتهما وأمانتهما وأوحش سبكتكين أكبر القواد فلم يحضر داره ونفى كبار الديلم شرها الى اقطاعاتهم وأموالهم وأموال المتصلين بهم فاتفق أصاغرهم عليه

وطلبوا الزيادات فاضطر الى مرضاتهم واقتدى بهم الاتراك فعملوا مثل ذلك ولم يتم له على سبكتكين ما أراد من اغتياله لاحتياطه واتفاق الاتراك معه وخرج الديلم الى الصحراء وطالبوا بختيار باعادة من سقط منهم فاحتاج أن يجيبهم الى ماطلبوا وفعل الاتراك أيضاً مثل فعلهم

وفي أول عهده قبض أولاد ناصر الدولة بن حمدان ملك الموصل على أبيهم واستقر في الامر منهم ابنه أبو تغلب وضمن البلاد من عز الدولة بألف الف ومئتى الف درهم كل سنة وكذلك مات سيف الدولة علىّ بن عبد الله بن حمدان صاحب حلب وقام مقامه ابنه أبو المعالى شريف . ومات كافور الاخشيدى صاحب مصر سنة ٣٥٦ وبموته اضطرب أمرها وتهيأت الفرصة للفاطميين . ومات وشمكير بن زيار وهو يحارب ركن الدولة على بلاد الرى يريد استردادها منه وقام بأمر ملكه بعده ابنه بيستون بن وشمكير سنة ٣٥٧ ومات أيضا نقفور الذي ملك الروم هدد الثغور الشامية والجزرية وأذاقها الوبال

حال الثغور الاسلامية في عهد المطيع

كانت الثغور الاسلامية لذلك العهد فى حوزة سيف الدولة على بن حمدان الذى كان متغلبا على حلب والعواصم وديار بكر فكان هو الذى يقوم بحمايتها ودفع العدو عنها . وكان قد ولى هذه الثغور مولاه نصرا فكانا يتنا وبان الغزو ولكن لم تكن بهما الكفاية لمقاومة عدو كانت الخلافة الكبرى تجتد له وتهتم أعظم الاهتمام بأمره

فى سنة ٣٣٧ سار سيف الدولة بنفسه الى بلاد الروم فلقوه فاقتتلوا فكانت عليه وأخذ الروم مرعش وأوقعوا بأهل طرسوس . وفي السنة التى تليها دخل غازيا فكان له النصر أولا ولكنه توغل في البلاد فلما أراد العودة أخذ عليه الروم المضايق فهلك من كان معه من الجند أسرا وقتلا واسترد الروم الغنائم والسبى وغنموا أثقال المسلمين وأموالهم ونجا سيف الدولة في عدد يسير

وفي سنة ٣٤١ ملك الروم مدينة سروج وسبوا أهلها وغنموا أموالهم وخربوا المساجد

وفي سنة ٣٤٣ غزا سيف الدولة البلاد الرومية وكان له بها نصر عظيم وقتل في تلك الواقعة قسطنطين بن الدمستق وقد عظم مقتله على أبيه فجمع عساكره من الروم والروس والبلغار وغيرهم وقصد الثغور فسار اليه سيف الدولة فالتقوا عند الحدث في شعبان فاشتد القتال وصبر الفريقان وكانت العاقبه للمسلمين فانهزم الروم وقتل منهم وممن معهم خلق عظيم وأسر صهر الدمستق وابن بنته وكثير من بطارقته والدمستق عند الروم الرئيس الاكبر للجيش والبطارقة قواده

وفي سنة ٣٤٥ سار سيف الدولة الى بلاد الروم في جيوشه حتى وصل الى خرشنة وفتح عدة حصون ثم رجع الى اذنة فأقام بها حتى جاءه رئيس طرسوس فخلع عليه وأعطاه شيئاً كثيرا ثم عاد الى حلب فلما سمع الروم بما فعل جمعوا جموعهم وساروا الى ميافارقين بديار ربيعة فأحرقوا سوادها ونهبوه وسبوا أهله ونهبوا أموالهم وعادوا ولم يكتفوا بذلك بل ساروا في البحر الى طرسوس فأوقعوا بأهلها وقتلوا منهم ١٨٠٠ رجل وأحرقوا القرى التى حولها . ثم غزوها مرة ثانية سنة ٣٤٨ وغزوا الرها أيضاً ففعلوا بها الافاعيل وعادوا سالمين لم يكلم أحد منهم كلما

وفى سنة ٣٤٩ سار سيف الدولة الى بلاد الروم فى جمع عظيم فأثر فيها آثارا شديدة وفتح عدة حصون وبلغ الى خرشنة ثم ان الروم أخذوا عليه المضايق فلما أراد الرجوع قال له من معه من أهل طرسوس ان الروم قد ملكوا الدرب خلف ظهرك فلا تقدر على العود منه والرأى أن ترجع معنا فلم يقبل منهم وكان معجبا برأيه يحب أن يستبد ولا يشاور أحدا لئلا يقال انه أصاب برأي غيره وعاد من الدرب الذى دخل منه فظهر الروم عليه واستردوا ما كان معه من الغنائم وأخذوا أثقاله ووضعوا السيف في أصحابه فأتوا عليهم قتلا وأسرا وتخلص هو في ٣٠٠ رجل بعد جهد وهذا من سوء رأى المستبدين

وفي سنة ٣٥٠ سار قفل عظيم من انطاكية الى طرسوس ومعهم صاحب انطاكية فخرج عليهم كمين للروم فأخذ من كان فيه من المسلمين وقتل كثيرا منهم وأفلت صاحب انطاكية وبه جراحات

وفي سنة ٣٥١ غزا الدمستق عين زربة وهى من أحصن مدن الثغور فاستولى عليها وقتل أهلها ولم يرحم شيخا ولا صبيا وأفلت قليل منهم هربوا على وجوههم فماتوا فى الطرقات وفتح حول عين زربة ٥٤ حصنا للمسلمين بعضها بالسيف وبعضها بالامان وقد حصل أن حصنا من هذه الحصون التى فتحت بالامان أمر أهله بالخروج منه فتعرض أحد الارمن لبعض حرم المسلمين فلحق المسلمين غيرة فجردوا سيوفهم فاغتاظ الدمستق من ذلك فأمر بقتل جميع المسلمين وكانوا ٤٠٠ رجل وقتل النساء والصبيان ولم يترك الا من يصلح أن يسترق ولما أدركه الصوم انصرف على أن يعود بعد العيد وخلف جيشه بقيسارية . وكان صاحب طرسوس قد خرج فى ٤٠٠٠ رجل فأوقع بهم الدمستق فقتل أكثرهم وكان صاحب طرسوس قد قطع خطبة سيف الدولة فلما رأوا ما أصابهم من الوهن أعاد أهل البلد خطبة سيف الدولة وراسلوه بذلك وراسل أهل بغراس الدمستق وبذلوا له مائة ألف درهم فأقرهم وترك معارضتهم

وفي هذه السنة استولى ملك الروم على مدينة حلب حاضرة ملك سيف الدولة فخرج عنها سيف الدولة منهزما بعد أن قتل أكثر أهل بيته وظفر الدمستق بأموال سيف الدولة وكنوزه وأسلحته وخرب داره التى كانت بظاهر حلب وسبى من حلب وحدها بضعة عشر ألف صبى وصبية وقتل أكثر من ذلك ولما لم يبق مع الروم ما يحملون عليه غنائمهم أمر الدمستق باحراق الباقى وأحرق المساجد وأقام بحلب تسعة أيام ثم أراد الانصراف عنها فانصرف عازما على العودة . وظهر بذلك غلبة الروم على المسلمين الا أن هؤلاء كانوا يغيرون أحيانا بقيادة سيف الدولة أو أحد غلمانه ولكنهم لا يؤثرون عظيم أثر

وفي سنة ٣٥٣ حصر الدمستق مدينة المصيصة ولكن أهلها أحسنوا الدفاع عنها فأحرق الروم رستاقها ورستاق اذنة وطرسوس لمساعدتهما أهل المصيصة . ثم ان انسانا وصل الى الشام من خراسان ومعه خمسة آلاف متطوع للجهاد فأخذهم سيف الدولة وسار بهم نحو بلاد الروم فوجدوا الروم قد عادوا فتفرق الغزاة

الخراسانية فى الثغور لشدة الغلاء وعاد أكثرهم الى بلادهم . وبعد تراجع الاسعار عاد ملك الروم الى طرسوس فحصرها وجرى بينه وبين أهلها حروب كثيرة وقاوم الطرسوسيون مقاومة يحمدون عليها فحصرهم الروم ثلاثة أشهر ولم يأتهم جند يردهم لا من قبل سيف الدولة ولا غيره حتى اشتد الغلاء على الروم وكثر بينهم الوباء فاضطروا الى الرحيل

وفى سنة ٣٥٤ ألح نقفور على المصيصة بالحرب حتى فتحها عنوة ووضع السيف فى أهلها فقتل منهم مقتلة عظيمة ثم رفع السيف عنها ونقل كل من بها الى بلاد الروم وكانوا نحوا من مائتى ألف انسان ثم سار الى طرسوس فحصرها فأذعن أهلها بالطاعة وطلبوا الامان فأجابهم اليه وفتحوا البلد فلقيهم بالجميل وأمرهم أن يحملوا من سلاحهم وأموالهم ما يطيقون ويتركوا الباقى ففعلوا ذلك وساروا برا وبحرا وسير معهم من يحميهم حتى بلغوا انطاكية وجعل الملك المسجد الجامع اصطبلا لدوابه وأحرق المنبر وعمر طرسوس وحصنها وجلب الميرة اليها حتى رخصت الاسعار وتراجع اليها كثير من أهلها ودخلوا في طاعة الملك وتنصر بعضهم . ومن غرائب العقول أن يجرى هذا كله بثغور الاسلام والخلاف والشقاق قد استحكم أمرهما بين ولاة المسلمين وأمرائهم

وفى سنة ٣٥٨ دخل ملك الروم الشام فلم يمنعه أحد فسار في البلاد الى طرابلس وأحرق بلدها وحصر قلعة عرقة فملكها ونهبها وسبى من فيها ثم قصد حمص وكان أهلها قد انتقلوا عنها وأخلوها فأحرقها ملك الروم ورجع الى بلدان الساحل فأتى عليها نهبا وتخريبا وملك ثمانية عشر منبرا فاما القرى فكثير لا يحصى وأقام فى بلاد الشام شهرين يقصد أى موضع شاء ويخرب ما شاء ولا يمنعه أحد الا أن بعض العرب كانوا يغيرون على أطراف الروم أحيانا وأتاه جماعة منهم وتنصروا وكادوا المسلمين من العرب وغيرهم فامتنعت العرب من قصدهم وصار للروم هيبة عظيمة فى قلوب المسلمين وقد عاد ملك الروم بعد ذلك ومعه من السبى مائة ألف رأس ولم يأخذوا الا الصبيان والصبايا والشبان فأما الكهول والشيوخ والعجائز فمنهم من قتله ومنهم من أطلقه

وكانت هذه الحوادث الجلى سبباً لازدياد الهياج ببلاد خراسان وتنادى الناس بالنفير العام لحماية الثغور الاسلامية فتطوع منهم عشرون الفا عليهم قائد منهم وكان فيهم أبو بكر محمد بن اسمعيل بن القفال الشاشي أحد أئمة الشافعية بما وراء النهر. ومما يحزن أن هذا الجيش المتطوع اضطر الى المرور ببلاد الجبل التي في حوزة ركن الدولة وهو ديلمي يكرهه أهل خراسان و يعتقدون أن الديلم هم سبب كل هذه البلايا فحصلت فتن بين المتطوعين والديلم وكانت نتيجتها أن حاربهم ركن الدولة وشتت شملهم

وفى سنة ٤٥٩ ملك الروم مدينة انطاكية وهي حاضرة الثغور وأضخمها وأخذوا منها سبيا يزيد على عشرين الف كلهم شباب صبيان وصبايا وأخرجوا المشايخ والعجائز والاطفال من البلد ليذهبوا حيث يشاؤن. ولما تم لهم ملك انطاكية غزوا حلب وبها قرعويه السيفي غلام سيف الدولة وكان أبو المعالى شريف بن سيف الدولة يحاربه فلما سمع بخبر الروم فارق حلب وقصد البرية ليبعد عن الروم أما هؤلاء فجاؤا وحصروا البلد فتحصن قرعويه بقلعتها واستولى الروم على البلد ثم صالحهم قرعويه على مال يؤديه لهم وأعطاهم رهائن على ذلك

وفى سنة ٣٦١ أغار ملك الروم على الرها ونواحيها وساروا فى الجزيرة حتى بلغوا نصيبين فغنموا وسبوا وأحرقوا وخربوا البلاد وفعلوا مثل ذلك بديار بكر ولم يكن من أبي تغلب بن حمدان في ذلك حركة ولا سعى في دفعه ولكنه حمل اليه مالا كفه به عن نفسه فسار جماعة من أهل تلك البلاد الى بغداد مستنصرين وقاموا فى الجوامع والمشاهد واستنفروا المسلمين وذكروا ما فعله الروم من النهب والقتل والاسر والسبى فاستعظم ذلك الناس وخوفهم أهل الجزيرة من انفتاح الطريق وطمع الروم وانه لا مانع منهم فاجتمع معهم أهل بغداد وقصدوا دار الخليفة وأرادوا الهجوم عليه فمنعوا من ذلك وغلقت الابواب وكان بختيار حينئذ يتصيد بنواحى الكوفة فخرج اليه وجوه أهل بغداد مستغيثين منكرين عليه اشتغاله بالصيد وقتال عمران بن شاهين

(صاحب البطيحة) وهو مسلم وترك جهاد الروم ومنعهم عن بلاد الاسلام حتى توغلوها فوعدهم التجهز للغزو وأرسل الحاجب سبكتكين يأمره بالتجهز وأن يستنفر العامة ففعل سبكتكين ذلك فاجتمع من العامة عدد كثير لا يحصون كثرة وكتب بختيار الى أبى تغلب بن حمدان صاحب الموصل يأمره باعداد الميرة والعلوفات ويعرفه عزمه على الغزو فأجابه باظهار السرور واعداد ما طلب منه ثم أنفذ بختيار الى المطيع لله يطلب منه مالا فقال المطيع ان الغزو والنفقة عليه وعلى غيره من مصالح المسلمين تلزمنى اذا كانت الدنيا فى يدى وتجبى الى الاموال وأما اذا كانت حالى هذه فلا يلزمنى شىء من ذلك وانما يلزم من البلاد في يده وليس لى الا الخطبة فان شئتم أن أعتزل فعلت . وترددت الرسائل بينهما حتى وصل الحال الى تهديد الخليفة فبذل المطيع ٤٠٠ الف درهم فاحتاج الى بيع ثيابه وانقاض داره وغير ذلك وشاع بين الناس من أهل العراق وخراسان وغيرهم أن الخليفة قد صودر فلما قبض بختيار المال صرفه فى مصالحه و بطل حديث الغزو

وفي سنة ٣٦٢ كانت واقعة بين الدمستق و بين هبة الله بن ناصر الدولة بن حمدان وكان الروم يريدون الاستيلاء على آمد فاستعد له أبو تغلب وأرسل أخاه هبة الله فواقع الدمستق في مضيق لا تجول فيه الخيل والروم على غير أهبة فانهزموا وأسر الدمستق ولم يزل محبوسا الى أن مرض سنة ٣٦٣ فبالغ أبو تغلب في علاجه وجمع الاطباء له فلم ينفعه ذلك ومات

هذه كانت الحال في خلافة المطيع استرد الروم فيها جميع الثغور الاسلامية الكبرى وصارت لهم الهيبة فى قلوب المسلمين من أهل الجزيرة والشام وبنو بويه وبنو حمدان يغزو بعضهم بعضا وهم عما نابهم من عدوهم مشتغلون

ومما حصل في عهد المطيع من الحوادث انتقال خلفاء الفاطميين الى مصر بعد استيلاء جوهر الصقلى عليها وذلك سنة ٣٦١ في عهد الخليفة المعز لدين الله معد الفاطمى

موت المطيع

لم يكن للمطيع عمل ولا تاريخ يذكر وقد فلج فأشار عليه سبكتكين مقدم الاتراك أن يعتزل فلم يجد من الامتثال بدا فخلع نفسه فى منتصف ذى القعدة سنة ٣٦٣

٢٤ – الطائع

هو أبو الفضل عبد الكريم الطائع لله بن المطيع بن المقتدر بن المعتضد ولد سنة ٣١٧ وبويع له بالخلافه بعد خلع أبيه المطيع (١٨ أغسطس سنة ٩٧٤) واستمر خليفة الى أن خلع فى ٢١ رجب سنة ٣٨١ (٣ أكتوبر سنة ٩٩١) فكانت مدته ١٧ سنة وثمانية أشهر وستة أيام

كانت خلافة الطائع والسلطان بالعراق لخمسة من بني بويه وهم

أولا — عز الدولة بختيار بن معز الدولة الى سنة ٣٦٧

ثانياً — عضد الدولة فناخسرو بن ركن الدولة الحسن بن بويه الى سنة ٣٧٢

ثالثاً — صمصام الدولة أبو كاليجار المرزبان بن عضد الدولة الى سنة ٣٧٦

رابعاً — شرف الدولة أبو الفوارس شيرزيل بن عضد الدولة الى سنة ٣٧٩

خامساً — بهاء الدولة أبو نصر فيروز بن عضد الدولة

ويعاصره فى بلاد الاندلس الحكم بن عبد الرحمن الناصر (٣٥٠ – ٣٦٦) وهشام بن الحكم (٣٦٦ – ٣٩٩) وهو الذى كان يحجبه المنصور بن أبى عامر

وبأفريقية وصقلية يوسف بن بلكين بن زيرى الصنهاجى نيابة عن الفاطميين الى سنة ٣٧٣ وخلفه ابنه المنصور بوسف الى سنة ٣٨٦

وبمصر والشام والحجاز المعز لدين الله معد الفاطمى الى سنة ٣٦٥ وخلفه ابنه العزيز بالله نزار الى ٣٨٦

وباليمن من آل زياد أبو الجيش اسحاق بن ابراهيم الى سنة ٣٧١ ثم عبد الله ابن اسحاق الى سنة ٤٩٠

وبصنعاء من آل يعفر عبد الله بن قحطان الى سنة ٣٨٧ وهو آخر أمراء هذه الدولة

وبحلب سعد الدولة أبو المعالى شريف بن سيف الدولة الى سنة ٣٨١

وبالموصل عدة الدولة أبو تغلب الغضنفر بن ناصر الدولة الي سنة ٣٦٩ ثم أبو طاهر ابراهيم وأبو عبد الله الحسين ابنا ناصر الدولة الى سنة ٣٨٠ وفيها انتهت الدولة الحمدانية بالموصل وقام على أثرها الدولة العقيلية وأولها أبو الذواد محمد بن المسيب بن رافع بن المقلد العقيلى أمير بني عقيل

وفى ديار بكر ابتدأت الدولة المروانية الكردية على انقاض دوله بني حمدان وأول هذه الدولة أبو على الحسين بن مروان الذى ابتدأ ملكه سنة ٣٨٠

وبخراسان وما وراء النهر الدولة السامانية وأميرها نوح بن منصور الساماني (٣٦٦ – ٣٨٧)

وبجرجان الدولة الزيارية والامير ظهير الدولة بيستون بن وشمكير الى سنة ٣٦٦ وخلفه شمس المعالى قابوس بن وشمكير الى سنة ٤٠٣

وقد ابتدأت فى أيام الطائع الدولة السبكتكينيه بمدينة غزنة وجدت على اطلال الدولة السامانية وصارت تنتقص أرضها الخراسانية التى غربى نهر جيحون وكانت دولة الاتراك الا يلكخانية تنتقص أملا كها فيما وراء النهر . وأما بلاد فارس والاهواز والرى والجبال والعراق فهي بيد بني بويه يتناوبونها كما سيأتي توضيحه

ويعاصر الطائع بفرنسا لونار الى سنة ٩٨٦ ثم لويز الخامس الملقب بالكسلان الى سنة ٩٨٧ ثم هو فى كابات أول الاسرة الكاباسيانية الى سنة ٩٩٦

وباستريا أول ملك من جماعة المارغراف وهو ليو بولد الاول كونت دوبابنبرج (٩٨٢ – ٩٩٤)

ولى الطائع وأمر بختيار مضطرب لان الاتراك وفي مقدمهم سبكتكين قد تباعد ما بينهم وبينه وكانت العامة من أهل السنة تنصر سبكتكين لكراهة ما كان عليه بنو بويه من التشيع الشديد الذى كان سببا لفتنة عظيمة ببغداد بين أهل السنة والشيعة سفكت فيها الدماء وأحرقت الكرخ التى كانت محلة الشيعة وظهر أهل

السنة عليهم فكتب بختيار الى عمه ركن الدولة بأصبهان والى ابن عمه عضد الدولة يسألهما أن يساعداه على الاتراك فجهز اليه ركن الدولة جندا مع وزيره ابن العميد وأما عضد الدولة فكان ميالا الى ملك العراق فتربص ببختيار الدوائر. كرر اليه بختيار الكتب يستغيث به ويستحثه فلما رأى عضد الدولة أن الامر قد بلغ ببختيار ما يرجوه سار نحو العراق ظاهره رحمة لبختيار وباطنه ارادة الاستيلاء على العراق فسار الى واسط ومنها الى بغداد فتغلب على عساكر الاتراك فى ١٤ جمادى الاولى سنة ٣٦٤ ودخل بغداد ظافرا. وكان يريد القبض على بختيار فوسوس الى جنده أن يثوروا عليه ويشغبوا ويطالبوه بالاموال ففعلوا ولم يكن مع بختيار ما يسكتهم به وأشار عليه عضد الدولة ألا يلتفت الى شكواهم ويغلظ فى معاملتهم ففعل ذلك فاستمر هذا الحال أياما وحينئذ استدعى بختيار هو واخوته اليه وقبض عليهم وجمع الناس وأعلمهم استعفاء بختيار عن الامارة وعجزه عنها ووعد الجنود بالاحسان اليهم وأظهر الخليفة سروره مما تم لانه كان منافيا لبختيار وقد قابله عضد الدولة بأن أظهر من رسوم الخلافة وتعظيمها ما كان قد نسي وترك وأمر بعمارة دار الخلافة والاكثار من الآلات وعمارة ما يتعلق بالخليفة وحماية أقطاعه

بلغ ذلك كله ركن الدولة فاستاء منه جدا كاتبه بذلك محمد بن بقية وزير بختيار الذى استاء أيضاً مما جرى ونافر عضد الدولة وجمع الجيوش لحربه فأرسل اليه ركن الدولة يقويه على ما هو بسبيله ويخبره انه سائر بنفسه الى العراق لاخراج عضد الدولة عنه فكان ذلك سبباً لاضطراب الامر على عضد الدولة ولم يقبل فى ذلك قول قائل لانه كان يحب أخاه معز الدولة والد بختيار حبا شديدا ولما وجد ذلك عضد الدولة لم يسعه الا اعادة بختيار الى ملكه والمسير الى فارس

لم يطل الامر الا بمقدار ما توفي ركن الدولة سنة ٤٦٦ فاستولى ابنه عضد الدولة على ملكه بعهد منه وما عتم أن تجهز الى بغداد وأرسل الى بختيار يطلب منه الطاعة وأن يسير عن العراق الى أى جهة شاء وضمن مساعدته بما يحتاج اليه من مال وسلاح

فأجاب بختيار الى ذلك وسلم الى عضد الدولة وزيره الامير محمد بن بقية ثم سار حتى دخل بغداد وخطب له بها ولم يكن قبل ذلك يخطب لاحد ببغداد وضرب على بابه ثلاث نوب ولم تجر بذلك عادة من تقدمه وأمر بأن يلقى ابن بقية بين قوائم الفيلة لتقتله ففعل به ذلك وصلب على رأس الجسر فى شوال سنة ٣٦٧ وهو الذى رثاه أبو الحسين الانباري بقصيدته المشهورة التى أولها

علو في الحياة وفى الممات لحق أنت احدى المعجزات

استقر ملك عضد الدولة بالعراق وما معها من ملك أبيه وعمه ثم سار نحو الموصل فملكها وأقام بها مطمئنا وأزال عنها الدولة الحمدانية وبث سراياه فى طلب أبى تغلب الحمدانى فهرب أبو تغلب على وجهه الى بلاد الروم وفتحت الجنود العضدية جميع ديار بكر وديار ربيعة ثم افتتح ديار مضر الى الرقة وجعل باقيها فى يد سعد الدولة بن سيف الدولة صاحب حلب وبذلك اتسعت أملاك عضد الدولة وصار له العراق والجزيرة والاهواز وفارس والجبال والرى ثم دخلت فى حوزته جرجان سنة ٣٧١ أخذها من صاحبها قابوس بن وشمكير

لم يقم في آل بويه من يماثل عضد الدولة جرأة واقداما وكان عاقلا فاضلا حسن السياسة كثير الاصابة شديد الهيبة بعيد الهمة ثاقب الرأي محبا للفضائل واهبا باذلا في موضع العطاء مانعا فى مواضع الحزم ناظرا في عواقب الامور وهو الذى بنى على مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم سورا الا أنه كان مع ذلك فخورا يميل الى اللهو واللعب ومن شعره

ليس شرب الكاس الا فى المطر وغناء من جوار في السحر
غانيات سالبات للنهى ناغمات في تضاعيف الوتر
مبرزات الكاس من مطلعها ساقيات الراح من فاق البشر
عضد للدولة وابن ركنها ملك الاملاك غلاب القدر

وهذا غلو كبير . ومن فضله انه كان لا يعول في أموره الا على الكفاة ولا يجعل للشفاعات طريقا الى معارضة من ليس من جنس الشافع ولا فيما يتعلق به حكى عنه

أن مقدم جيشه اسفار بن كردويه شفع في بعض أبناء العدول ليتقدم الى القاضى ليسمع تزكيته ويعدله فقال له ليس هذا من أشغالك انما الذي يتعلق بك الخطاب فى قائد ونقل مرتبة جندى وما يتعلق بهم وأما الشهادة وقبولها فهى الى القاضى وليس لنا ولا لك الكلام فيه ومتى عرف القضاة من انسان ما يجوز معه قبول شهادته فعلوا ذلك بغير شفاعة . وكان يخرج فى ابتداء كل سنة شيئاً كثيرا من الاموال للصدقة والبر في سائر بلاده ويأمر بتسليم ذلك الى القضاة و وجوه الناس ليصرفوه الى مستحقيه وكان يوصل الى العمال المتعطلين ما يقوم بهم ويحاسبهم اذا عملوا . أما اهتمامه بالعلم فكثير ويذكر ذلك فى تاريخ العلوم في الدول الاسلامية

ومما يعد من سيئاته انه أحدث في آخر أيامه رسوما جائرة في المساحة والضرائب على بيع الدواب وغيرها من الامتعة ومنع من عمل الثلج والقز وجعل ذلك متجرا خاصا وكان يتوصل الى أخذ المال بكل طريق . توفى عضد الدولة في شوال سنة ٣٧٢

اجتمع القواد بعد وفاته على بيعة ابنه أبي كاليجار المرزبان الملقب صمصام الدولة وكان اخوته و بنو أعمامه متفرقين في الولايات فأخوه شرف الدولة شيرزيل بفارس— وعمه مؤيد الدولة أبو منصور بويه بجرجان

مكث صمصام الدولة قائما بامر العراق والاضطراب لاحق به من جراء خلاف أخيه شرف الدولة عليه فانه أظهر مشاقته وقطع خطبته فسير اليه جيشا كانت عاقبته الهزيمة

وخرجت عن يده بلاد الموصل استولى عليها الاكراد وعليهم شجاع باذ بن دوستك وهو من الاكراد الحميدية وكان ابتداء أمره انه كان يغزو كثيرا بثغور ديار بكر وكان عظيم الخلقة وله شدة و بأس فلما ملك عضد الدولة حضر عنده ثم فاته لما تخوف منه وذهب الى ثغور ديار بكر وأقام بها الى أن استفحل أمره وقوى وملك ميافارقين وغيرها من ديار بكر بعد موت عضد الدولة ووصل بعض أصحابه الى نصيبين فاستولى عليها فجهز اليه صمصام الدولة العساكر فانهزمت وقوى أمر باذ

وغلب جيوش الديلم ثم سار الى الموصل فملكها وحدثته نفسه بالاستيلاء على بغداد وازالة الديلم عنها فخافه صمصام الدولة وأهمه أمره وأعد له جيشاً عظيما مستوفى العدة فلقوه بظاهر الموصل وهزموه هزيمة منكرة فخرج منها ثم انتهى الحال بالصلح بين الديلم وباذ على أن يكون لباذ ديار بكر والنصف من طور عبدين

كانت هذه الاضطرابات والمشاغل سببا لان شرف الدولة صاحب فارس تجهز يريد الاستيلاء على الاهواز والعراق فسار بجيشه سنة ٣٧٥ فاستولى على الاهواز من يد أخيه أبي الحسن الملقب بتاج الدولة ثم سار الى البصرة فملكها . بلغ خبره صمصام الدولة فراسله فى الصلح فاستقر الامر بينهما على أن يخطب لشرف الدولة بالعراق قبل صمصام الدولة ويكون هذا نائبا عنه فصلح الحال واستقام وخطب لشرف الدولة بالعراق وسيرت اليه الخلع من الطائع لله فلما وردته الرسل بذلك ليحلفوه عاد عن الصلح وعزم على قصد بغداد والاستيلاء عنها ونفذ تلك العزيمة فلما وصل واسط ملكها فاتسع الخرق على صمصام الدولة وشغب عليه الجند فوقع رأيه على اللحاق بأخيه والدخول في طاعته فسار اليه فقبض عليه شرف الدوله وسار الى بغداد فدخلها في رمضان سنة ٣٧٦ وانتهت مدة صمصام الدولة بالعراق ومقدارها ثلاث سنين وأحد عشر شهرا

ومن احداث هذا البيت فى عهده وفاة عمه مؤيد الدولة بويه بن ركن الدولة صاحب جرجان واستيلاء أخيه فخر الدولة علي بن ركن الدولة على بلاده باختيار القواد والوزير الكبير الصاحب بن عباد

ملك شرف الدولة شيرزيل بغداد بعد صمصام الدولة سنتين وثمانية أشهر وقد ابتدأ عهده باضطراب وفتن بين جنود الديلم والترك ببغداد أدى الى قتال بينهم وقد بذل شرف الدولة جهده حتى أزال من بينهم الخصام . ومن فضائل شرف لدولة انه منع الناس من السعايات ولم يقبلها فأمن الناس وسكنوا

وكانت وفاة شرف الدولة في جمادى الآخرة سنة ٣٧٩

تولى العراق بعده أخوه بهاء الدولة أبو نصر . ولاول تجددت الاضطرابات بين الترك والديلم وأدت الى قتال دام خمسة أيام وانضم بهاء الدولة الى الاتراك فاشتد الامر على الديلم ومع ما حصل من الصلح بين الفريقين فان الديلم قد ضعفت شوكتهم وتغلب الاتراك عليهم . وكانت بينه وبين آل بيته فتن كثيرة بسبب طمعهم فيما بيده من الملك ومحاولتهم سلبه منه ولكنهم أخفقوا

وفي سنة ٣٨١ قبض بهاء الدولة على الطائع لله وذلك ان الاموال قلت عنده فشغب عليه الجند فأطمعه وزيره في أموال الخليفة وحسن له القبض عليه فارسل الى الطائع وسأله الاذن في الحضور ليجدد العهد به فاذن له في ذلك وجلس له كما جرت العادة فدخل اليه بهاء الدولة ومعه عدد كثير فلما دخل قبل الارض وأجلس على كرسي فدخل بعض الديلم كانه يريد أن يقبل يد الخليفة فجذبه فانزله عن سريره والخليفة يقول انا لله وانا اليه راجعون ويستغيث فلا يلتفت اليه وأخذ مافي داره من الذخائر ومن قول الشريف محمد بن الحسين الرضي فى ذلك

من بعد ما كان رب الملك مبتسما   الى أدنوه في النجوى ويدنيني
أمسيت أرحم من أصبحت أغبطه   لقد تقارب بين العز والهون
ومنظر كان بالسراء يضحكنى   ياقرب ما عاد بالضراء يبكيني
هيهات أغتر بالسلطان ثانيـة   قد ضل ولاج أبواب السلاطين

ولما حمل الطائع الى دار بهاء الدولة أشهد عليه بالخلع

٢٥ - القادر

هو أبو العباس أحمد القادر بالله بن اسحاق بن المقتدر بن المعتضد وأمه أم ولد اسمها دمنة بويع بالخلافة ١٢ رمضان سنة ٣٨١ (٣ أكتوبر سنة ٩٧٤) واستمر خليفة الى أن توفى في غاية ذى الحجة سنة ٤٢٢ (١٨ دسمبر سنة ١٠٣١) فكانت مدته ٤١ سنة وثلاثة أشهر وعشرين يوما

كان أبو العباس لما مات أبوه اسحاق بن المقتدر جرى بينه وبين أخت له منازعة في ضيعة وطال الامر بينهما ثم ان الطائع مرض مرضا أشفى منه ثم ابل فسعت اليه بأخيها وقالت له انه شرع في طلب الخلافة عند مرضك فتغير رأيه فيه وأرسل فى القبض عليه فلما وصلت اليه رسل الطائع خرج عن داره واستتر ثم سار الى البطيحة فنزل على صاحبها مهذب الدولة أبى الحسن على بن نصر صاحب البطيحة فأكرم نزله ووسع عليه وحفظه وبالغ فى خدمته وكان ذلك في سنة ٣٧٩ فاقام عنده حتى قبض بهاء الدولة على الطائع فذكر من يصلح للخلافة فاجمع رأيه ورأى مستشاريه على أبي العباس فأرسل اليه بهاء الدولة خواص أصحابه ليحضروه الى بغداد ليتولى الخلافة وشغب الديلم ببغداد ومنعوا من الخطبة فقيل على المنبر (اللهم اصلح عبدك وخليفتك القادر بالله) ولم يذكروا اسمه . ولما وصلت الرسل الى القادر بالله انحدر معهم وقام مهذب الدولة بخدمته خير قيام وحمل اليه من المال وغيره ما يحمله كبار الملوك للخلفاء وشيعه فسار القادر بالله الى بغداد فلما دخل جيل انحدر بهاء الدولة وأعيان الناس لاستقباله وساروا فى خدمته فدخل دار الخلافة ثاني عشر رمضان وبايعه بهاء الدولة والناس وخطب له ثالث عشر رمضان

والقادر هو ثالث خليفة عباسى لم يكن أبوه خليفة

معاصرو القادر من الملوك

كان الخليفة بالاندلس هشام بن الحكم الملقب بالمؤيد الى سنة ٣٩٩ ثم خلفه محمد المهدى بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر الى سنة ٤٠٣ وقد ثار عليه سليمان المستعين بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر فأخذ منه قرطبة وكانت بينهما خطوب الى أن قتل المهدى وانتهت مدة المستعين سنة ٤٠٨ ثم كانت البلاد الاندلسية ميدانا للنزاع بين أعقاب الامويين والعلويين من ذرية ادريس بن عبد الله فكانت الحال هناك في اضطراب يشبه ما كان في الشرق أويزيد عليه

وكان الامير بأفريقية من آل زيرى النائبين عن الدولة الفاطمية المنصور بن يوسف بلكين الى سنة ٣٨٦ ثم ابنه باديس الى سنة ٤٠٦ ثم المعز بن باديس الى سنة ٤٥٣ وكان الخليفة بمصر والشام من الدولة الفاطمية العزيز بالله نزار الى سنة ٣٧٦ ثم ابنه الحاكم بأمر الله منصور الى سنة ٤١١ ثم ابنه الظاهر لاعزاز دين الله الى سنة ٤٢٧

وفي عهده ابتدأت الدولة النجاحية بزبيد علي اطلال الدولة الزيادية وكان ابتداؤها على يد المؤيد نجاح سنة ٤١٢ وهو مولى موالى آل زياد وأصله عبد حبشى سمت به همته الى أن تولى ملك تهامة اليمن وما اليها وقد استمر ملكها فيه وفي أعقابه الى سنة ٥٥٤ وهذا ثبتهم

(١) المؤيد نجاح	٤١٢ — ٤٥٢
فترة على الداعى الصليحي	٤٥٢ — ٤٧٣
(٢) سعيد الاحول بن نجاح	٤٧٣ — ٤٨٢
(٣) جياش بن نجاح	٤٨٢ — ٤٩٨
(٤) فاتك بن جياش	٤٩٨ — ٥٠٣
(٥) منصور بن فاتك	٥٠٣ — ٥١٧
(٦) فاتك بن منصور	٥١٧ — ٥٣١

(٧) فاتك بن محمد بن فاتك ٥٣١ - ٥٥٤

وانتقل الملك عنهم الى الدولة المهدية وسيأتي حديثها اذ ذاك

أما الجزيرة الفراتية وما اليها من حوض الفرات فكانت منقسمة الى ثلاث امارات وهي ديار ربيعة وحاضرتها الموصل وديار بكر وحاضرتها آمد وديار مضر وحاضرتها الرقة

ففي عهد القادر ظهرت الدولة العقيلية التي أسسها أبو الذواد محمد بن المسيب بن رافع بن مقلد العقيلي بالموصل ولم يكن له تمـام الاستقلال بل كان معه نائب من قبل بهاء الدولة الديلمي الا أن النفوذ الفعلي كان لابي الذواد ولم يزل كذلك حتى توفى سنة ٣٨٦ فخلفه أخوه حسام الدولة المسيب بن المقلد . وكان الاتفاق أن يتولى الموصل والكوفة والقصر والجامعين ولم يزل يليها الي أن قتل سنة ٣٩١ فخلفه ولده أبو المنيع معتمد الدولة قرداش بن المقلد ومن أهم حوادثه السياسية أنه خطب للحاكم بأمر الله العلوي صاحب مصر بأعماله كلها وهي الموصل والانبار والمدائن والكوفة وغيرها وكان ابتداء الخطبة بالموصل (الحمد لله الذى انجلت بنوره غمرات العصب وانهدت بقدرته أركان النصب واطلع بنوره شمس الحق من العرب) فأرسل القادر بالله القاضى أبا بكر بن الباقلانى شيخ الاشعرية ببغداد الى بهاء الدوله يعرفه ذلك فأكرم بهاء الدوله القاضى وكتب الى نائبه ببغداد يأمره أن يسـير لحرب قرواش فسار عميد الجيوش لحربه ولما علم بذلك أرسل يعتذر وأعاد خطبة القادر بالله

وقد استمرت هذه الدولة العربية بالموصل الى سنة ٤٨٩ وانتهت على يد لسلاجقة كما انتهت الدوله الديلمية وهذا ثبت ملوكها

(١) حسام الدولة المقلد بن المسيب ٣٨٦ - ٣٩١

(٢) معتمد الدولة قرداش بن المقلد ٣٩١ - ٤٤٢

(٣) زعيم الدولة أبو كامل بركة بن المقلد ٤٤٢ - ٤٤٣

(٤) علم الدولة أبو المعالى قرواش بن بدران بن المقلد ٤٤٣ - ٤٥٣

(٥) شرف الدولة أبو المكارم مسلم بن قرواش ٤٥٣ – ٤٧٨
(٦) ابراهيم بن قرواش ٤٧٨ – ٤٨٦
(٧) على بن مسلم بن قرواش ٤٨٦ – ٤٨٩

وفي ديار بكر ظهرت دولة الاكراد من آل مروان على يد مؤسسها أبي على الحسن بن مروان قام بالامر سنة ٣٨٠ بعد خاله باذ الذى قدمنا حديثه وضبط ديار بكر أحسن ضبط وأحسن الى أهلها وألان جانبه لهم ثم تزوج ست الناس بنت سيف الدولة ولم يزل مالكا الى أن قتل سنة ٣٨٧ فخلفه أخوه ممهد الدولة أبو منصور ابن مروان الى أن قتل سنة ٤٠٢ فتولى بعده أخوه أبو نصر نصر الدولة أحمد بن مروان وهو واسطة عقد آل مروان فان أيامه طالت وأحسن السيرة جدا وكان مقصودا من العلماء فى كافة الاقطار فكثروا ببلاده وممن قصده أبو عبد الله الكازرونى وعنه انتشر مذهب الشافعى رحمه الله بديار بكر وقصده الشعراء فاجذل مواهبهم وبقى كذلك الى سنة ٤٥٣ وكانت الثغور معه آمنة وسيرته في رعيته أحسن سيرة وولى بعده ابنه نظام الدولة نصر الى سنة ٤٧٢ ثم منصور بن نصر الى سنة ٤٨٩ وعلى يده انتهت دولتهم بملك آل سلجوق لها

أما ديار مضر فقد استولى عليها لاول عهد القادر بكجور الذى كان واليا على دمشق للعزيز بالله الفاطمى خليفة مصر وفي سنة ٣٧٨ عزله عنها فتوجه الى الرقة فاستولى عليها وعلى الرحبة وما يجاورها ثم راسل بهاء الدولة ملك العراق في الانضمام اليه وكاتب أيضاً باذ الكردى المتغلب على ديار بكر وكذلك راسل سعد الدولة بن سيف الدولة صاحب حلب بأن يعود الى طاعته ويعطى مدينة حمص كما كانت له فلم يجبه واحد منهم الى شيء فبقى بالرقة يراسل جماعة من مماليك سعد الدولة ويستميلهم فاجابوه وحينئذ أغرى العزيز بالله نزارا صاحب مصر على قصد حلب فاجابه وأرسل اليه العساكر تتصرف بأمره ولكنه لم ينجح لان سعد الدولة استعان عليه بوالي انطاكية الرومى وبالعرب الذين مع بكجور فكانت النتيجة فشل بكجور وقتله ثم

سار سعد الدولة الى الرقة فاستولى عليها من وزير بكجور وأخذ أولاد بكجور وأمواله ثم ان سعد الدولة هلك بعقب ذلك فأرسل أهل الرحبة الي بهاء الدولة يطلبون اليه أن ينفذ من يتسلم بلدهم فانفذ لهم أميرا تسلمها ولم يتمكن من الاستيلاء على الرقة . ولم تمكث الحال على ذلك كثيرا فان البلاد انتقلت الى حوزة العلويين أصحاب مصر وصار يخطب لهم بالرقة والرحبة الا أن سلطانهم كان اسميا والنفوذ الى رؤساء القبائل المضرية فكان فيها أولا أبو على بن ثمال الخفاجي ثم استولى عليها عيسى بن خلاط العقيلي ثم صار أمرها الى صالح بن مرداس الكلابي وكان محسنا للرعية ويدعو للعلويين

أما حلب فكان السلطان بها لاول عهد القادر بالله لسعد الدولة بن سيف الدولة بن حمدان وكان قد عصى عليه بكجور الذى تقدم ذكره وهو أحد مماليك أبيه وغزاه من الرقة بعساكر خليفة مصر العلوى ولكنه لم يفز وقتل كما قدمنا وتسبب عن ذلك ان سعد الدولة أراد أن يقصد دمشق ليأخذها من يد العزيز بالله فمات عقب خروجه سنة ٣٨٢ وعهد لابنه أبي الفضائل وأوصى به لؤلؤا أحد مماليك أبيه سيف الدولة فلما توفى سعد الدولة قام ابنه مقامه وأخذ له لؤلؤ العهد على الاجناد

كان خليفة مصر لا يزال يتطلع الى الاستيلاء على حلب فسير اليها جيشاً من دمشق عليه منجوتكين أحد أمرائه ولما كانت عساكره كثيرة ولا قبل للؤلؤ بمقاومتها استنجد بملك الروم بسيل فارسل الى نائبه بانطاكية يأمره أن ينجد أبا الفضائل فسار اليه بجلب حتى نزل علي الجسر الجديد بالعاصى . ولما سمع منجوتكين الخبر سار الى الروم ليلقاهم قبل اجتماعهم بأبي الفضائل وعبر اليهم العاصى وأوقع بهم وقعة شنيعة وسار الى انطاكية فنهب بلدها وقراها وأحرقها . وأنفذ أبو الفضائل الى بلد حلب فنقل ما فيه من الغلال وأحرق الباقى اضرارا بعساكر مصر . وعاد منجوتكين الي حلب فحصرها فأرسل لؤلؤ الى رؤساء المصريين يبذل لهم مالا ليردوا منجوتكين عنهم هذه السنة بعلة تعذر الاقوات ففعلوا ذلك وكان منجوتكين قد ضجر من الحرب فاجابهم وعاد الى دمشق ولكن ذلك لم يعجب العزيز بالله وكتب باعادة الكرة على

حلب وأرسل الاقوات من مصر الى طرابلس بحرا ومنها الى العسكر فنازل المصريون حلب وأقاموا عليها ثلاثة عشر شهرا فقلت الاقوات بحلب وعاد لؤلؤ الى مراسلة ملك الروم معتضدا به وقال له متى أخذت حلب أخذت انطاكية وعظم عليك الخطب فجاء ملك الروم منجدا له فلما علم منجوتكين بقرب وروده سار عن حلب فجاء ملك الروم فنزل عليها وخرج اليه أبو الفضائل ولؤلؤ . ثم سار بسيل الى الشام ففتح حمص وشيزر ونهبها وسار الى طرابلس فنازلها فامتنعت عليه وأقام عليها نيفا وأربعين ليلة ولما أيس عنها عاد الى بلاده . ولما علم العزيز بتلك الاخبار عظم الامر عليه ونادى في الناس بالنفير لغزو الروم فحال موته دون ذلك

لم يزل الامر لابى الفضائل حتى سنة ٤٠٢ حيث غزاه صالح بن مرداس الكلابي وكان السلطان الحقيقي فى حلب للؤلؤ وكان يخطب باسم الحاكم بامر الله العلوى بمقتضى اتفاق عقد بين الطرفين بعد الحوادث المتقدمة . غزاه صالح وبنو كلاب وغلبوه وأخذوه أسيرا ولكن صالحا أطلقه مقابل مائتي الف دينار ومائة ثوب واطلاق كل أسير عنده من بنى كلاب . ثم ان غلاما لابن لؤلؤ كان يتولى القامة غدر به وكاتب الحاكم بأمر الله وأظهر طاعته وأظهر العصيان لاستاذه فخرج ابن لؤلؤ من حلب الى صاحب انطاكية فأقام عنده وصارت حلب من البلاد التابعة لصاحب مصر يتناوبها نواب يرسلهم من قبله حتى صارت بيد انسان من الحمدانية يعرف بعزيز الملك قدمه الحاكم واصطنعه وولاه حلب ولما مات الحاكم وولى الظاهر عصى عليه فوضعت ست الملك أخت الحاكم فراشا له على قتله فقتله

وفى سنة ٤١٤ اتفق ثلاثة من أمراء العرب وهم حسان أمير طيئ وصالح بن مرداس أمير بنى كلاب وسنان بن عليان على أن يكون من حلب الى عانة لصالح بن مرداس ومن الرملة الى مصر لحسان ودمشق لسنان . فقصد صالح حلب فاستولى عليها من يد عامل المصريين وكان الحلبيون يحبون صالحا لاحسانه اليهم ولسوء سيرة أمراء العلويين معهم فملك من بعلبك الى عانة وأقام بحلب ست سنين وفي سنة ٤٢٠

جهز الظاهر صاحب مصر جيشا سيره الى الشام لقتال صالح وحسان وكان مقدم الجيش أنوشتكين البربرى والالتقاء عند طبرية فقتل فى الموقعة صالح وابنه ونجا ولده أبو كامل نصر بن صالح فجاء الى حلب وملكها وكان يلقب بشبل الدولة وقد استمرت الدولة المرداسية بحلب الي سنة ٤٧٢ وهذا ثبت ملوكها

(١) صالح بن مرداس	٤١٤ — ٤٢٠
(٢) شبل الدولة أبو كامل نصر	٤٢٠ — ٤٢٩
الفاطميون	٤٢٩ — ٤٣٤
معز الدولة أبو علوان طمل بن صالح	٤٣٤ — ٤٤٩
الفاطميون	٤٤٩ — ٤٥٢
رشيد الدولة محمود بن شبل الدولة	٤٥٢ — ٤٥٣
معز الدولة (ثانيا)	٤٥٣ — ٤٥٤
أبو ذؤابة عطية بن صالح	٤٥٤ — ٤٥٤
رشيد الدولة (ثانيا)	٤٥٤ — ٤٦٨
جلال الدولة نصر بن رشيد الدولة	٤٦٨ — ٤٦٨
أبو الفضل سابق بن رشيد الدولة	٤٦٨ — ٤٨٢

وهذا آخرهم وقد انتهى أمرهم على يد الدولة العقيلية التى تقدم ذكرها

في المشرق

كانت المملكة السامانية بما وراء النهر بخراسان تنهار قواعدها وتتزلزل جوانبها . كان أميرها نوح بن منصور وقد نشأ بالشرق دولة تركية صاحب الامر فيها شهاب الدين هارون بن سليمان بن أيلك خان المعروف ببغراخان وكانت دولته غضة جديدة امام دولة رثت بكثرة الاختلاف . ففى سنة ٣٨٣ غزا بغراخان نوحا فى بخارة بممالأة أبي الحسن سمجور أمير خراسان لنوح وكان القصد أن يملك الاول ما وراء النهر كله والثاني اقليم خراسان فسار بغراخان نحو بخارى واستولى على بلادها شيئا بعد

شيء . ثم نازل بخارى فاختفى نوح وملكها بغرا ونزلها وخرج منها نوح مستخفيا فعبر النهر الى آمد وأقام بها ولحق به أصحابه يريد اعادة الكرة على بخاري وصادف أن أصاب بغراخان مرض ثقيل اضطر بسببه للانتقال نحو بلاده وبينما هو سائر أدركه أجله ولما سمع نوح بذلك عاد الى دار ملكه وولى الترك بعد بغراخان ابنه ايلك خان - ثم مات بعقب ذلك نوح سنة ٣٨٧ وخلفه ابنه منصور وبايعه الامراء والقواد

ولما بلغ ايلك خان وفاة نوح سار الى سمرقند وسير الجنود لاخذ بخارى يقدمها فائق أحد القواد السامانية قبلا فاستولى عليها ولكنه اتفق مع منصور بن نوح أن يكون اسم الملك لمنصور والسلطان لفائق فاستمرت الحال على ذلك الى أن اتفق فائق وبكتوزون قائد الجنود السامانية على القبض على منصور فقبضا عليه وأقاما مقامه أخاه عبد الملك وهو صبي صغير وأعقب ذلك موت فائق وهو مدبر الامر فارتبك أمرهم وكان نجم الدولة السبكتكينية قد بزغ بخراسان فسار أيلك خان الى بخارى وأظهر لعبد الملك المودة والموالاة والحمية له فظنوه صادقا ولم يحترسوا منه وخرج اليه بكتوزون وبقية الامراء فلما اجتمعوا قبض عليهم وسار حتى دخل بخاري يوم الثلاثاء عاشر ذى الحجة سنة ٣٨٩ فلم يدر عبد الملك مايصنع فاختفى فنزل ايلك دار الامارة وبث الطلب والعيون على عبد الملك حتى ظفر به فأودعه باوزكند فمات بها وهو آخر ملوك الدولة السامانية وانقضت بموته دولتهم كأن لم تغن بالامس . وكانت هذه الدولة قد انتشرت ودخل في حوزتها من حدود حلوان الى بلاد الترك بما وراء النهر وكانت من الدول العلمية الكبرى ولم يزل أمرهم على سداد حتى ظهرت دولة الترك الايكلخانية فأخذت منهم ولايات ما وراء النهر وظهرت دولة ابن سبكتكين فأخذت منهم خراسان

الدولة السبكتكينية

من ضمن أعمال الدولة السامانية غزنة وهي مدينة عظيمة وولاية واسعة في طرف خراسان وهي الحد بين خراسان والهند ويلفظها الخاصة غزنين وكان صاحب جيشها اسحاق بن البتكين وكان من ضمن غلمانه سبكتكين وهو المقدم عنده وعليه

مدار أمره قدم بخارى أيام الامير منصور بن نوح مع أستاذه اسحاق فعرفه أرباب تلك الدولة بالعقل والعفة وجودة الرأى والصرامة وعاد معه الى غزنة فلم يلبث اسحاق أن توفى فاجتمع جنده على سبكتكين لما عرفوه من عقله ودينه ومروءته وكمال خلال الخير فيه فوليهم وأحسن السيرة فيهم وساس أمورهم سياسة حسنة وجعل نفسه كاحدهم في الحال والمال وكان يدخر من اقطاعه ما يعمل منه طعاما لهم في كل أسبوع مرتين وكان جنده يطيعونه طاعة تامة فغزا بهم ما جاوره من بلاد الهند حتى خافه ملوك تلك البلاد ثم استولي على مدينة بست وقصدار ولما رأى ملك الهند جيبال مادهاه وأن بلاده تملك من أطرافها حشد جموعه وسار حتى اتصل بولاية سبكتكين فخرج هذا اليه من غزنة وأوقع به وقعة شنيعة على حدود بلاده فأرسل ملك الهند الى سبكتكين يطلب صلحه فأجابه الى ذلك على مال يؤديه اليه و بلاد يسلمها وخمسين فيلا يحملها اليه واستقر الامر على ذلك ولما أبعد ملك الهند ورأى نفسه في مأمن خاس بعهده فسار سبكتكين نحوه حتى ورد لفان وهي من أحسن قلاعهم فافتتحها عنوة وهدم بيوت الاصنام وأقام فيها شعار الاسلام ولما علم بذلك جيبال حشد الجيوش مرة ثانية لحرب سبكتكين فكان نصيبه الفشل والهزيمة فقوى سبكتكين بهذا الانتصار وأطاعه من أجله الافغان والخلج

وفي سنة ٣٨٤ لما ثارت الفتن والقلاقل بالبلاد الخراسانية رأى الامير نوح بن منصور أن يكل أمرها الى سبكتكين ليكسر من جناح قواده الذين جاهروا بعصيانه فكتب اليه وهو بغزنة يطلعه على الاحوال ويأمره بالمسير اليه لينجده وولاه خراسان فأجاب الى ذلك سبكتكين وجمع العساكر وحشدها ولما بلغ قائدى نوح الخبر وهما فائق وأبو علي بن سيمجور راسلا فخر الدولة بن بويه يستنجدانه ويطلبان منه عسكرا فأجابهما الى ذلك وسير اليهما عسكرا كثيرا وكانت الواقعة بين هذين الجيشين بنواحي هراة فكان الظفر لسبكتكين ثم سار نحو نيسابور التى انهزم اليها أبو على وفائق فلما علما بالخبر سارا نحو جرجان واستولى نوح بن منصور بمعونة سبكتكين

وجيشه على خراسان فولاه محمود بن سبكتكين وسماه سيف الدولة ولقب أباه ناصر الدولة فأحسن السيرة وأقام محمود بنيسابور وعاد نوح الى بخارى وسبكتكين الى هراة

لما علم أبو على بمبارحة سبكتكين ونوح نيسابور طمع فى استردادها فقدم اليها ومعه فائق فخرج اليهما محمود وقاتلهما ولما كانت رجاله قليلة لم تمكنه المقاومة فانهزم عنهما قاصدا أباه فلما استقر هذا الخبر عند سبكتكين جمع الجند وأتى ممدا لابنه فتقابلت جنوده مع جنود أبى على بنواحى طوس فانهزم أبو على هزيمة منكرة ولم يرتفع له بعد ذلك ذكر وصفت خراسان لسبكتكين

وفى سنة ٣٨٧ توفى سبكتكين بين بلخ وغزنة ودفن بغزنة بعد ملك دام عشرين سنة وكان عادلا خيرا كثير الجهاد ذا مروءة تامة وحسن عهد ووفاء وعهد بالملك من بعده لابنه اسمعيل وكان أصغر من أخيه محمود فاستضعفه الجند وأرسل اليه محمود من نيسابور يقول له ان أباك انما عهد اليك لبعدى عنه وذكره ما يتعين من تقديم الكبير على الصغير ويطلب منه الوفاق وانفاذ ما يخصه من تركة أبيه فلم يفعل وكان ذلك داعياً الى أن محمودا قصده بغزنة واستولى عليها ولكنه عامل أخاه معاملة كريمة ولما تم له أمر غزنة واستقام له الملك عاد الي بلخ ومحمود هذا هو ثالث آل سبكتكين وواسط عقدهم لقبه الخليفة القادر بيمين الدولة . وكانت هناك بعض مناوشات بينه وبين قواد السامانية انتهت بالنصر والتمكين له في خراسان فأزال عنها اسم السامانية وخطب للقادر بالله سنة ٣٨٩ وجعل أخاه نصرا قائدا لجند نيسابور وسار هو الى بلخ فاتخذها دار ملك له واتفق أصحاب الاطراف على طاعته

كان عهد محمود عهد ارتفاع وقوة فوسع أملاكه فقد كانت في الاصل بلاد غزنة ثم انضم اليها بلاد الغور وهى جبال وولاية بين هراة وغزنة وأكبر مافيها قلعة يقال لها فيروزكوه . ثم أدخل جزأ عظيما من بلاد الهند تحت سلطانه حتى وصل الى قشمير فأسلم صاحبها على يده وأسلم كذلك كثير من ملوك الهند وقد عبر نهر الكنج فى فتوحاته . ومن الجهة الاخرى ضمت اليه خراسان والرى والجبال ودانت له ملوك

طبرستان وجرجان ولم يزل فى عزه وسلطانه الى أن أدركته الوفاة سنة ٤٢١ وعهد بالملك من بعده لابنه محمد وكان أصغر من مسعود ولقب بجلال الدولة الا أن ذلك لم يرق لاخيه مسعود فسار اليه وأخذ الملك منه وتوفى القادر بالله والملك في آل سبكتكين لمسعود بن محمود بن سبكتكين وقد استمرت الدولة في أعقاب هذا البيت الي سنة ٥٨٢ وهذا ثبت ملوكها

(١)	سبكتكين	٣٦٦ – ٣٨٧
(٢)	اسماعيل بن سبكتكين	٣٨٧ – ٣٨٨
(٣)	يمين الدولة محمود بن سبكتكين	٣٨٨ – ٤٢١
(٤)	جلال الدولة محمد بن محمود	٤٢١ – ٤٢١
(٥)	ناصر دين الله مسعود بن محمود	٤٢١ – ٤٣٢
(٦)	شهاب الدولة مودود بن مسعود	٤٣٢ – ٤٤٠
(٧)	مسعود بن مودود	٤٤٠ – ٤٤٠
(٨)	بهاء الدولة أبوالحسن علي بن مسعود بز محمود	٤٤٠ – ٤٤٠
(٩)	عز الدولة عبد الرشيد بن محمود	٤٤٠ – ٤٤٤
(١٠)	جمال الدولة فرخزاد بن مسعود بن محمود	٤٤٤ – ٤٥١
(١١)	ظهير الدولة ابراهيم بن عبد الرشيد	٤٥١ – ٤٩٢
(١٢)	علاء الدولة مسعود بن ابراهيم	٤٩٢ – ٥٠٨
(١٣)	كمال الدولة شيرزاد بن مسعود	٥٠٨ – ٥٠٩
(١٤)	سلطان الدولة ارسلان بن مسعود	٥٠٩ – ٥١٢
(١٥)	يمين الدولة بهرام شاه بن مسعود	٥١٢ – ٥٤٧
(١٦)	معز الدولة خسرو شاه بن بهرام شاه	٥٤٧ – ٥٥٥
(١٧)	تاج الدولة خسرو ملك بن خسرو شاه	٥٥٥ – ٥٨٢

وكان انقضاء هذه الدولة على يد الدولة الغورية

كان بجرجان من الدولة الزيادية شمس المعالى قابوس بن وشمكير الى سنة ٤٠٣ ثم فلك المعالى منوجهر بن بستون بن وشمكير الى سنة ٤٢٠ ثم أنو شروان بن قابوس الى سنة ٤٣٤ وهو الذي انتهى على يده ملك أهل بيته على يد الدولة الغزنوية

أما السلطان ببلاد العراق فكان لاربعة ملوك من آل بويه يتلو أحدهم الآخر

الاول بهاء الدولة أبو نصر عضد الدولة وهو الذى ولى القادر الخلافة وكان عهده عهد اضطراب بينه و بين أهل بيته فأضعف ذلك من سلطانه وآذن البيت كله بالانحلال وكانت وفاته سنة ٤٠٣ وكان في سلطانه العراق والاهواز وفارس وكرمان

الثانى سلطان الدولة أبو شجاع ابن بهاء الدولة ولم يكن عهده أحسن من عهد أبيه بل كان عهد ضعف واستكانة فان جنده ما كانوا يطيعونه وكثيرا ما شغبوا عليه يطلبون منه طلبات لا يقدر عليها وكان ذلك سبباً لقيام أخيه وهو

الثالث شرف الدولة أبو على بن بهاء الدولة قام على أخيه وانتزع منه ملك العراق فخطب له ببغداد فى آخر المحرم سنة ٤١٢ ونفى سلطان الدولة عن العراق فذهب الى بلاد فارس وضبطها ثم اصطلح الاخوان على أن يكون لشرف الدولة العراق ولسلطان الدولة فارس وكرمان الا أن مدة سلطان الدولة لم تطل فانه توفى سنة ٤١٥ بشيراز وخلفه ابنه أبو كاليجار وفي ربيع الاول سنة ٤١٦ توفى شرف الدولة وكان كثير الخير قليل الشر عادلا حسن السيرة

الرابع جلال الدولة أبو طاهر بن بهاء الدولة خطب له ببغداد بعد وفاة أخيه وكان اذ ذاك بالبصرة والياً عليها وطلب الى بغداد فلم يصعد اليها وانما بلغ واسطا وأقام بها ثم عاد الى البصرة فقطعت خطبته وخطب لابن أخيه أبي كاليجار بن سلطان الدولة الذى كان صاحب الاهواز وكان بها و راسله الجند في ذلك فوعدهم أن يجئ ولكنه تأخر لما كان بينه و بين عمه أبي الفوارس صاحب كرمان من الحرب فازدادت الفتن ببغداد لعدم السلطان وكثر شر الاتراك بها ولما رأى ذلك عقلاء القواد راسلوا جلال الدولة ليصعد اليهم فيملك أمرهم وخطبوا باسمه فى جمادى الاولى سنة ٤١٨

فما عتم أن صعد اليهم وملك أمرهم ولكن لم يكن عنده من المال ما يضمن راحتهم وراحته فكثر الشغب عليه من الجند وأتراك بغداد حتى كادوا يخلعونه وكان ينازعه أخوه أبو كاليجار . وانتهت مدة القادر بالله وهما على ذلك النزاع

لم يكن للخليفة القادر بالله شيء من السلطان كمن مضى في عهد سلاطين ابن بويه الا أنه ضعف البيت المالك أحياله شيئاً من الكلمة والنفوذ وكان فيه من خلال الخير ما يساعد على ذلك فقد كان حليما كريما خيرا يحب الخير وأهله ويأمر به وينهي عن الشر ويبغض أهله وكان حسن الاعتقاد صنف كتابا على مذهب أهل السنة والجماعة وكان يخرج من داره فى زي العامة ويزور قبور الصالحين واذا وصل اليه حال أمر فيه بالحق

وكان في زمنه أحداث عظام في جميع الاصقاع الاسلامية من قيام دول وابادة أخرى وكلها تهتف على منابرها باسمه وتتقلد الولايات منه الا ما كان من البلاد التى تحت يد الدولة العلوية المصرية فانها كانت تخطب باسم أئمتها ومع ذلك فان المعز ابن باديس صاحب المغرب والقيروان دعا باسم القادر على منابر بلاده

توفى القادر بالله في ذي الحجة سنة ٤٢٢ وعمره ست وثمانون سنة وعشرة أشهر وخلافته ٤١ سنة وثلاثة أشهر وعشرون يوما

٢٦ ــ القائم

هو أبو جعفر عبد الله القائم بأمر الله . ولى الخلافة بعد أبيه بعهد منه وكانت بيعته فى ذى الحجة سنة ٤٢٢ (نوفمبر سنة ١٠٣١) وبقى خليفة الى ١٣ شعبان سنة ٤٦٧ (٢ ابريل سنة ١٠٧٥) فكانت مدته ٤٤ سنة و ٢٥ يوما

كان سلطان العراق لاول عهده جلال الدولة بن بهاء الدولة ولم يكن أمره

في سلطانه على سداد لكثرة شغب الغلمان والاتراك عليه طالبين مرتباتهم التى لم يكن يقدر على أدائها فى أوقاتها لقلة الوارد عليه فلم تجىء سنة ٤٢٦ الا وقد انحل أمر الخلافة والسلطنة جميعا ببغداد حتى ان بعض الجند خرجوا الى قرية يحيى فلقيهم أكراد فاخذوا دوابهم فعادوا الى قراح الخليفة فنهبوا شيئا من ثمرته وقالوا للعمال فيه أنتم عرفتم حال الاكراد ولم تعلمونا فسمع الخليفة الحال فعظم عليه ولم يقدر جلال الدولة على أخذ أولئك الاكراد لعجزه ووهنه واجتهد في تسليم الجند الى نائب الخليفة فلم يمكنه ذلك فتقدم الخليفة الى القضاة بترك القضاء والامتناع عنه والى الشهود بترك الشهادة والى الفقهاء بترك الفتوى فلما رأى ذلك جلال الدولة سأل أولئك الاجناد ليجيبوه الى أن يحملهم الى دار الخلافة ففعلوا فلما وصلوا اليها أطلقوا وعظم أمر العيارين وصاروا يأخذون الاموال ليلا ونهارا ولا مانع لهم لان الجند يحملون على السلطان ونوابه والسلطان عاجز عن قهرهم وانتشر العرب فى البلاد فنهبوا النواحي وقطعوا الطريق وبلغوا أطراف بغداد حتى وصلوا الى جامع المنصور وأخذوا ثياب النساء فى المقابر

ولكثرة تشغيب الجند على جلال الدولة كان الخليفة يتداخل بين الفريقين متوسطا في أمر الصلح ومع ماظهر من ضعف جلال الدولة وسقوط هيبته سأل الخليفة القائم سنة ٤٣٢ أن يخاطب بملك الملوك فامتنع الخليفة من ذلك فاستعان عليه جلال الدولة بالفقهاء الذين يلجأ إليهم السلاطين فى مثل ذلك فافتى بالجواز القاضى أبو الطيب الطبرى والقاضى أبو عبد الله الصيرفي والقاضى ابن البيضاوى وأبو القاسم الكرخى وامتنع من الفتيا قاضى القضاة أبو الحسن الماوردى وجرى بينه وبين من أفتى بالجواز مراجعات فأجاب الخليفة طلب جلال الدولة وخطب له بملك الملوك وكان الماوردى من أخص الناس بجلال الدولة وكان يتردد الى دار المملكة كل يوم . فلما أفتى بهذه الفتيا انقطع ولزم بيته خائفا وأقام منقطعا من شهر رمضان الى يوم عيد النحر فاستدعاه جلال الدولة فحضر خائفا فادخله وحده وقال له قد علم كل أحد انك من أكثر

الفقهاء مالا وجاها وقربا منا وقد خالفتهم فيما خالف هواى ولم تفعل ذلك الا لعدم المحاباة واتباع الحق وقد بان لى موضعك من الدين ومكانك من العلم وجعلت جزاء ذلك اكرامك بأن أدخلتك وحدك وجعلت اذن الحاضرين اليك ليتحققوا عودى الى ما تحب فشكره ودعا له وأذن لكل من حضر بالخدمة والانصراف وهكذا يفعل بالانسان قول الحق حسبما يعتقد لا يخشى فى ذلك لومة لائم ولا غضب سلطان

قضى جلال الدولة حياته في منازعات بينه وبين جنوده وبينه وبين أبي كاليجار الى أن توفى سنة ٤٣٥ بعد ملك مدته ١٦ سنة و ١١ شهرا قال ابن الاثير ومن علم سيرته وضعفه واستيلاء الجند والنواب عليه ودوام ملكه الى هذه الغاية علم أن الله على كل شيء قدير يؤتي الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء وكان يزور الصالحين ويقرب منهم وزار مرة مشهدى على والحسين عليهما السلام وكان يمشى حافيا قبل أن يصل الى كل مشهد منهما نحو فرسخ يفعل ذلك تدينا

استقر في الملك بعده منازعه ابن أخيه أبو كاليجار المرزبان بن سلطان الدولة بن بهاء الدولة ولقبه الخليفة محيي الدين ولم تكن قدمه بأثبت من قدم أبيه ولا سلطانه أوفر بل كان النزاع كثيرا ما يستحكم بين الديلم عنصر السلطان وبين الاتراك قدماء العهد ببغداد وكانت وفاة أبي كاليجار سنة ٤٤٠

بويع بالسلطان بعده ابنه أبو نصر خسرو فيروز وطلب من الخليفة أن يلقبه بالملك الرحيم فلم يجب الى ذلك وقال لا يجوز أن يلقب بأخص صفات الله تعالى فأبى الا أن يكون ذلك لقبه فكان ما أراد واستقر ملكه بالعراق وخوزستان والبصرة وقد استمر سلطانا حتى ورد الى بغداد السلطان طغرلبك فازاله عن ملكه ونفاه الى قلعة السيرجان وبذلك انقضت مدة آل بويه التى لم يكن فيها شيء من الصلاح للبلاد بل زادتها فسادا وفرقة بما أظهرته من التشيع في بغداد مع ان أكثرية أهلها أهل سنة وجماعة فكان النزاع كثيرا مايقع بين الفرقتين وتحصل حوادث شديدة الوقع في بغداد لا يغيرها الخليفة لضعفه ولا السلطان لانه كان يعين طائفته ووجد الخلاف

بين أفراد البيت بعد وفاة الرجال الثلاثة الذين أسسوا هذا الملك العظيم وكان هذا الخلاف كثيرا ما يدعو الى وقوف بعضهم ازاء بعض متحار بين وعلى الجملة فان البلاد التي استولوا عليها لم تستفد من دولتهم شيئاً على طول مدتهم وضخامة دولتهم وأجمل هذه المدة عهد عضد الدولة فناخسرو ثالث ملوك هذه الدولة بالعراق

آل سلجوق

من عشائر الغز الكبرى عشيرة السلاجقة تنسب الى مقدمها سلجوق بن تقاق وكانت هذه العشيرة تقيم في بلاد تركستان تحت حكم ملك الترك المسمى بيغو وكان تقاق مقدم العشيرة الى قوله يرجعون وعن أمره يصدرون وولد له ابنه سلجوق بذلك الاقليم فلما كبر ظهرت عليه أمارات النجابة ومخايل التقدم فقربه ملك الترك وجعله قائد الجند (شباسى) وكانت امرأة الملك تخوفه من سلجوق لما ترى من طاعة الناس له فأغرته بقتله وبلغ سلجوق ذلك الخبر فجمع عشيرته وهاجر الى ديار الاسلام واعتنق الحنيفية فازداد بذلك عزا الى عزه وأقام بنواحي جُنْد (على طرف سيحون من حدود الترك) وصار يشن الغارة على بلاد الترك

في تلك الاوقات قام النزاع بين أحد ملوك السامانية وهرون بن ايلك خان وقد استولى هرون على بعض بلاده فرأى أن يضرب الحديد بالحديد فاستنجد سلجوق فأنجده بابنه ارسلان في جمع من أصحابه فقوى بهم الساماني واسترد من خصمه ما أخذه وهذه أول صلة بين عشيرة السلاجقة والسامانية

لم يزل سلجوق بجند حتى توفي وكان له ثلاثة من الاولاد وهم ارسلان وميكائيل وموسى

فأما ميكائيل فغزا غزوة في بلاد الترك فاستشهد وبقيت أولاده وهم بيغو وطغرلبك محمد وجغرى بك داود فأطاعتهم عشيرتهم

رحلوا بعـد ذلك من جند ونزلوا بالقرب من بخارى على عشرين فرسخا منها فجافهم أميرها فأساء جوارهم وأراد الايقاع بهم فالتجؤا الى بغراخان ملك تركستان وأقاموا فى بلاده ولمزيد حرصهم على أنفسهم اتفق طغرلبك وداود انهما لا يجتمعان عند بغراخان حذرا من مكر يمكره بهم وكان بغراخان يجتهد أن يجمع بينهما عنده فلم ينجح فقبض على طغرلبك وأسره فثار داود فى عشائره ليخلص أخاه فأنفذ اليه بغراخان عسكرا فانهزم ذلك العسكر وخلص طغرلبك من الاسر وانصرف الى جند

لمـا انقرضت دولة السامانية سنة ٣٨٩ وملك ايلك خان عظم محل ارسلان بن سلجوق بمـا وراء النهر وكان على تكين أحد قواد السامانية في حبس ارسلان خان فهرب ولحق ببخارى واستولى عليها واتفق مع ارسلان بن سلجوق فامتنعا واستفحل أمرهما وقصدهما ايلك فهزماه وبقيا ببخارى

لمـا عبر محمود بن سبكتكين النهر الى بخارى للاستيلاء على بلاد ما وراء النهر هرب على تكين من بخارى وأما ارسلان بن سلجوق وجماعته فانهم دخلوا المفازة والرمل فاحتموا من محمود فرأى من قوتهم ماهاله وأراد أن يستعمل معهم الحيلة فكاتب ارسلان واستماله ورغبه فورد عليه فلم يكن من محمود الا أن قبض عليه وسجنه في قلعة ونهب خركاهاته ثم أمر عشيرته فعبروا نهر جيحون وفرقهم في بلاد خراسان فلم يطمئنوا بها من جور العمال عليهم فسار منهم أهل ألفى خركاه فلحقوا بأصبهان ومنها الى اذربيجان ودخلوا مراغة سنة ٤٢٩ وأحرقوا جامعها وقتلوا من عوامها مقتلة عظيمة فعظم الامر على أهلها واشتد بهم البلاء

رأى ذلك أكراد أذربيجان وكانوا مختلفين فاتفقت كلمتهم على هؤلاء المفسدين فانتصفوا منهم ورأى الغز أنهم لا مقام لهم هناك فافترقوا فرقتين فطائفة سارت الى الرى ومقدمهم بوقا وطائفة أخرى سارت الى همذان ومقدمهم منصور وكوكتاش

أما الذين ذهبوا الى الرى فانهم استولوا عليها ونهبوها نهبا فاحشا وسبوا النساء وبقوا كذلك خمسة أيام حتى لجأ الحرم الى الجامع وتفرق الناس كل مذهب ومهرب وكان السعيد من نجا بنفسه وكادوا يستأصلون أهل الرى

وأما الذين ساروا الى همذان فانهم ملكوها أيضاً من يد بنى بويه سنة ٤٢٠ ولما دخلوها نهبوها نهبا منكرا لم يفعلوه بغيرها من البلدان غيظاً منهم وحنقاً عليهم حيث قاتلوهم أولا وأخذوا الحرم وضربت سراياهم الى أسد اباذ وقرى الدينور واستباحوا تلك البلاد

ولم يزالوا على هذا الافساد والتخريب حتى ظهرت السلاجقة وخرج ابراهيم ينال أخو طغرلبك الى الرى فلما علموا بمسيره جفلوا من بين يديه وفارقوا بلاد الجبل قاصدين أذربيجان فلم يمكنهم القيام بها لما فعلوا بها أولا ولان ابراهيم ينال وراءهم وكانوا يخافونه لانهم كانوا له ولاخيه طغرلبك رعية فساروا الى ديار بكر وأميرها سليمان بن نصر الدولة بن مروان فأخربوها ونهبوا أعمالها الى أن بذل لهم سليمان مالا ليفارقوا عمله . اذ ذاك صمموا على قصد الموصل وأميرها قرواش من الدولة العقيلية فانهزم عنهم لما حاربوه فدخلوا البلد ونهبوه و وصل قرواش الى مدينة السن وهناك راسل جلال الدولة سلطان بغداد يعرفه الحال و يطلب النجدة واستنجد أيضاً دبيس ابن مزيد ملك الحلة وغيره من أمراء العرب والاكراد

عمل الغز بأهل الموصل الاعمال الشنيعة من الفتك وهتك الحريم ونهب المال ولما اشتد الامر على أهل الموصل ثاروا بالغز وقتلوا منهم كثيرا فخرج الغزو عسكروا خارج المدينة حتى جمعوا قواهم ثم عادوا اليها متفقين فوضعوا السيف في أهلها وأسروا كثيرا ونهبوا الاموال وأقاموا على ذلك اثني عشر يوما يقتلون وينهبون

لما طال مقامهم بتلك البلاد كتب جلال الدولة ونصر الدولة بن مروان الى طغرلبك يشكوان ماحل بالبلاد من تلك الفئة

بقى قرواش بالسن حتى جاءته النجدات فسار الى الموصل و بلغ الخبر الغز فتهيئوا للحرب فاجتمعت القوتان على نهر العجاج وكان النصر أولا للغز ثم نصر الله العرب فانهزمت الغز شر هزيمة وأخذهم السيف وتفرقوا وكثر القتل فيهم وملك العرب حللهم وخركاهاتهم وكفى الله أهل الموصل شرهم وتبعهم قرواش الى نصيبين

ثم عاد غنهم فقصدوا ديار بكر وصاروا يعيثون فسادا ولكن قواهم وهنت وتضعضع أمرهم ويسمى التاريخ هـذه الطائفة بالغز العراقية وهى بقايا من كان مع ارسلان ابن سلجوق

أما من كان من أولاد ميكائيل بن سلجوق فانهم أقاموا بنواحى بخارى كما قدمنا نغص بمكانهم أمير بخارى على تكين فاعمل الحيلة فى الظفر بهم فأرسل الى يوسف بن موسى بن سلجوق ومناه الاحسان وفوض اليه التقدم على جميع الاتراك الذين فى ولايته ولقبه بالامير اينانج بيغو وأراد بذلك ان يستعين به وبعشيرته على ابني عمه طغرلبك وداود وان يفرق كلمتهم ويضرب بعضهم ببعض فلم تجز هذه الحيلة على يوسف فلم يكن من على تكين الا ان قبض عليه وقتله بيد أمير من أمرائه فعظم قتله على ابنى عمه فجمعا قومهما للاخذ بثاره وجمع على تكين جيوشه فكان النصر لطغرلبك وأخيه ثم احتشد على تكين مرة ثانية وأوقع بالسلاجقة وقعة كانت عليهم شـديدة ألجأتهم الى عبور النهر نحو خراسان فكتب اليهم خوارزمشاه هرون بن التونتاش ملك خوارزم يستدعيهم للاتفاق معه فساروا اليه وخيموا بظواهر خوارزم سنة ٤٢٦ واطمأنوا الى خوارزمشاه ولكن غدر بهم وكبسهم وهم غارون فقتل منهم جمعا فساروا عن خوارزم الى مفازة نسا ثم كتبوا الى الملك مسعود بن محمود بن سبكتكين يطلبون منه الامان ويضمنون ان يكونوا عونا له على من يعاديه فلم يفعل وسير اليهم جيوشه فلقيتهم عند نسا فأوقع السلاجقة بجيش مسعود ولما باءه ذلك ندم على رده طاعتهم وعلم ان هيبتهم تمكنت من قلوب عسكره فأرسل اليهم يتهددهم ويتوعدهم فكتب اليهم طغرلبك هذه الآية (قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شئ قدير) فلما ورد الكتاب على مسعود كتب اليهم ثانية يعدهم المواعيد الجميلة ويأمرهم ان يرحلوا الى آمل على شاطئ جيحون وينهاهم عن الشر والفساد واقطع داهستان لداود (وداهستان مدينة عند مازندران بناها عبد الله بن طاهر بين جرجان وخوارزم

آخرحدودطبرستان) واقطع نسا لطغرلبك واقطع فراوة لبيغو وفراوة بلدة ممايلي خوارزم بناها عبد الله بن طاهر . استخف السلاجقة برسل مسعود لعدم ثقتهم بالرسالة وصاروا يشنون الغارة على البلاد وعسكر مسعود قد هابهم ومسعود قد شغل عنهم بنفسه وأعرض عن خراسان والسلاجقة فاجتمع وزراؤه وقالوا له ان هؤلاء القوم اذا تركوا وشأنهم استولوا على خراسان سريعا ثم ساروا منها الى مدينة غزنة فايقظوه من رقدته فجهز لهم الجنود مع أكبر قواده وكان داود قد استولى على مرو وأحسن السيرة في أهلها وخطب له بها أول جمعة في رجب سنة ٤٢٨ واقب في الخطبة بملك الملوك . جاءت الجنود المسعودية فالتقت بجند داود عند باب مرو فلم يثبت العسكر المسعودى وانهزم أقبح هزيمة وسار أخزى سير الى هراة فتبعهم داود الى طوس وكانت هـذه الواقعة هي التي ملك السلاجقة بعدها خراسان ودخلوا قصبات البلاد فدخل طغرلبك نيسابور وخطب له بها في شعبان ولقب بالسلطان المعظم وفرقوا النواب في النواحي

علم ذلك مسعود فاضطر ان يسير بنفسه من غزنة في جيوش عظيمة حتى وصل بلخ ومنها سار في أول رمضان سنة ٤٢٩ واستعد له السلاجقة فلما التقى الفريقان كان التعب قد أخذ من عسكر مسعود فاجتاحهم السلاجقة واضطر مسعود ان ينهزم ومعه مائة فارس وغنم السلاجقة من هـذا العسكر مالا يدخل تحت الاحصاء فقسمه داود على عسكره وآثرهم على نفسه

بعد تلك الواقعة عاد طغرلبك الى نيسابور فملكها ثانية آخر سـنة ٤٣١ وسكن الناس وطمأنهم بعد ان كانوا في شدة من الفوضى ثم ملك داود بلخ وفي سنة ٤٣٣ ملك طغرلبك جرجان وطبرسـتان من يد أنوشروان بن منوجهر بن قابوس بن وشمكير . وفي سنة ٤٣٤ ملك خوارزم

لما تم له ذلك سار يريد الرى وبلاد الجبل وكان قد سبقه اليها أخوه لامه ابراهيم ينال واستولى على الرى فلما سمع بقدومه سار اليه وسلمه اياها وجميع ماملك من بلاد الجبل فأمر طغرلبك بعمارة الرى وكانت قد خربت ثم سار الى قزوين فملكها صلحا وملك أيضا همذان

وبذلك تم له ملك اصقاع كبيرة من البلاد الاسلامية وهى خوارزم وخراسان وبلاد الرى ووصلت طلائع جنوده الى البلاد العراقية . أهم ذلك الملك أبا كاليجار صاحب العراق ولم يجد من نفسه قدرة على صد ذلك السيل فأرسل الى طغرلبك فى الصلح فاجابه اليه واصطلحا وكتب طغرلبك الى أخيه ابراهيم ينال يأمره بالكف عما وراء ما بيده واستقر الحال على ان يتزوج طغرلبك بابنة أبي كاليجار ويتزوج الامير أبو منصور بن أبي كاليجار بابنة الملك داود أخى طغرلبك وتم هذا فى ربيع الاول سنة ٤٣٩ وفي سنة ٤٤١ خطب لطغرلبك بديار بكر خطب له بها نصر الدولة بن مروان صاحبها وفى سنة ٤٤٢ استولى على اصبهان ثم أطاعته اذربيجان وأرسل اليه من بها من الامراء يبذلون له الطاعة والخطبة فابقى بلادهم بايديهم وأخذ رهائنهم . ثم سار الى أرمينية وقصد ملازجرد وهى للروم فحصرها وأخرب ما حولها وأثر في بلاد الروم آثارا عظيمة وبلغ في غزوته هذه الى ارزن الروم (ارضروم) ولما هجم عليه الشتاء عاد الى أذربيجان ثم توجه الى الرى فاقام بها الى سنة ٤٤٧

فى هذا الوقت كانت الاحوال سيئة فى بغداد فان آل بويه قد تفرقت كلمتهم وزالت من القلوب هيبتهم فلم يكن يمكنهم أن يحفظوا بغداد لا من عدو طارىء ولا من عياريها واصوصها فأعدوا الجمهور لقبول ما يغير من هذه الحال . ومما زاد الحال فسادا ما كان من أمر أبي الحارث ارسلان المعروف بالبساسيرى وهو غلام تركى من مماليك بهاء الدولة فانه أراد أن يزيل الخلافة عن بني العباس وكاتب الخليفة المستنصر العلوى بمصر ليدخل فى طاعته ويخطب باسمه على منابر بغداد والخليفة العباسى عنده علم ذلك فكتب الى السلطان طغرلبك مستنجدا مستغيثا وكانت هذه أمنيته فأظهر انه يريد الحج واصلاح طريق مكة والمسير الى الشام ومصر وازالة المستنصر العلوى صاحبها وكاتب أصحابه بالدينور وقرميسين وحلوان وغيرها فأمرهم باعداد الاقوات والعلوفات فعظم الارجاف ببغداد وفت أعضاد الناس . ووصل طغرلبك الى حلوان وانتشر أصحابه فى طريق خراسان فأجفل الناس الى غربى بغداد وأرسل طغرلبك

الى الخليفة يبالغ فى اظهار العبودية والطاعة والى آلاتراك البغداديين يعدهم الجميل والإحسان فاتفق من ببغداد من الرؤساء والامراء على مكاتبة طغرلبك يبذلون له الطاعة والخطبة وفعلا تقدم الخليفة الى الخطباء بالخطبة لطغرلبك بجوامع بغداد فخطب له فى يوم الجمعة ٢٢ محرم ٤٤٧ ودخلها طغرلبك في الخامس والعشرين منه وقبض على آخر سلاطين بني بويه وهو الملك الرحيم وبذلك انقضت دولتهم ووجدت بالعراق وما وراءه هذه الدولة الجديدة الفتية وهى دولة السلاجقة

هذه العشيرة استولت على جل ما ملكه المسلمون وقد انقسمت الى خمس بيوت

الاول السلاجقة العظمى وهى التى كانت تملك خراسان والرى والجبال والعراق والجزيرة وفارس والاهواز

الثاني سلاجقة كرمان

الثالث سلاجقة العراق

الرابع سلاجقة سوريا

الخامس سلاجقة الروم

أما السلاجقة الكبرى فهى الدولة التى أسسها ركن الدين أبو طالب طغريل بك وحياتها ٩٣ سنة من سنة ٤٩٢ (١٠٣٩) م الى سنة ٥٢٢ (١١٢٧) م وهذا ثبتها

(١) ركن الدين أبو طالب طغريل بك من	٤٢٩ – ٤٥٥
(٢) عضد الدين أبو شجاع الب ارسلان	٤٥٥ – ٤٦٥
(٣) جلال الدين أبو الفتح ملكشاه	٤٦٥ – ٤٨٥
(٤) ناصر الدين محمود	٤٨٥ – ٤٨٧
(٥) ركن الدين أبو المظفر بركياروق	٤٨٧ – ٤٩٨
(٦) ركن الدين ملكشاه الثانى	٤٩٨ – ٤٩٨
(٧) غياث الدين أبو شجاع محمد	٤٩٨ – ٥١١
(٨) معز الدين أبو الحارث سنجر	٥١١ – ٥٢٢

وقد انقضت دولتهم على أيدى شاهات خوارزم .

وأما سلاجقة كرمان فكانوا من عشيرة قاورت بك بن داود بن ميكائيل بن سلجوق وهو أخو الب ارسلان ومدة ملكهم ١٥٠ سنة من ٤٣٢ (١٠٤١) م الى ٥٨٣ (١١٨٨) م وهذا ثبت ملوكها

(١) عماد الدين قرا ارسلان قاورت بك		٤٣٣ — ٤٥٦
(٢) كرمانشاه		٤٦٥ — ٤٦٧
(٣) حسين		٤٦٧ — ٤٦٧
(٤) ركن الدين سلطانشاه		٤٦٧ — ٤٧٧
(٥) تورانشاه		٤٧٧ — ٤٩٠
(٦) ارانشاه		٤٩٠ — ٤٩٤
(٧) ارسلانشاه		٤٩٤ — ٥٣٦
(٨) مغيث الدين محمد الاول		٥٣٦ — ٥٥١
محيي الدين طغريل شاه	بهرامشاه	٥٥١ — ٥٦٣
ارسلانشاه الثاني		
طرخان شاه		
محمد الثاني		٥٦٣ — ٥٦٣

وقد انقضت دولتهم على أيدى الغز التركمان

وأما سلاجقة العراق وكردستان فقد ابتدأت دولتهم سنة ٥١١ (١١١٧) أى من عهد وفاة غياث الدين أبي شجاع محمد سابع ملوك السلاجقة وانتهت سنة ٥٩٠ (١١٩٤) فبقيت ٧٩ سنة وانقرضت على أيدي شاهات خوارزم وهذا ثبت ملوكها

(١) مغيث الدين محمود	٥١١ — ٥٢٥
(٢) غياث الدين داود	٥٢٥ — ٥٢٦
(٣) طغريل الاول	٥٢٦ — ٥٢٧

(٤) غياث الدين مسعود ٥٢٧ — ٥٤٧

(٥) معين الدين ملكشاه ٥٤٧ — ٥٤٨

(٦) محمد ٥٤٨ — ٥٥٤

(٧) سليمانشاه ٥٥٤ — ٥٥٦

(٨) ارسلانشاه ٥٥٦ — ٥٧٣

(٩) طغريل الثاني ٤٧٣ — ٥٩٠

وأما سلاجقة سوريا فكانوا من بيت تتش بن الب ارسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق وقد ابتدأت دولتهم سنة ٤٨٧ (١٠٩٤) أى في أول عهد ركن الدين بركياروق خامس ملوك السلاجقة العظمى وانتهت سنة ٥١١ (١١١٧) فكانت حياتها ٢٤ سنة وانتهت على أيدي الدولتين النورية والارتقية وهذا ثبت ملوكها

(١) تتش بن الب ارسلان ٤٨٧ — ٤٨٨

(٢) رضوان بن تتش ٤٨٨ — ٤٨٨

(٣) تقاق بن تتش في دمشق ٤٨٨ — ٥٠٧

(٤) الب ارسلان أخرص بن رضوان ٥٠٧ — ٥٠٨

(٥) سلطانشاه بن رضوان ٥٠٨ — ٥١١

وأما سلاجقة الروم ملوك قونيه واقصرا فكانوا من بيت قطلمش بن اسرائيل ابن سلجوق وقد ابتدأت دولتهم سنة ٤٧٠ (١٠٧٧) فى عهد جلال الدين أبي الفتح ملكشاه ثالث ملوك السلاجقة العظمى وانتهت سنة ٧٠٠ (١٣٠٠) فمدة حياتها ٢٣٠ سنة فهي أطول دول السلاجقة حياة وقد انتهت دولتهم على أيدى الاتراك العثمانيين والمغول وهذا ثبت ملوكها

(١) سليمان بن قطلمش ٤٧٠ — ٤٨٥

(٢) قليج ارسلان داود بن سليمان ٤٧٥ — ٥٠٠

(٣)	ملكشاه بن قليج ارسلان	٥٠٠ — ٥١٠
(٤)	مسعود بن قليج ارسلان	٥١٠ — ٥٥١
(٥)	عز الدين قليج ارسلان بن ملكشاه	٥٥١ — ٥٨٤
(٦)	قطب الدين ملكشاه بن قليج ارسلان	٥٨٤ — ٥٨٨
(٧)	غياث الدين كيخسرو بن قليج ارسلان	٥٨٨ — ٥٩٧
(٨)	ركن الدين سليمان بن قليج ارسلان	٥٩٨ — ٦٠٠
(٩)	قليج ارسلان بن سليمان	٦٠٠ — ٦٠١
	غياث الدين كيخسرو بن قليج ارسلان ثانيا	٦٠١ — ٦٠٧
(١٠)	عز الدين كيقاوس بن ملكشاه	٦٠٧ — ٦١٦
(١١)	علاء الدين كيقباذ بن ملكشاه	٦١٦ — ٦٣٤
(١٢)	غياث الدين كيخسرو بن كيقباذ	٦٣٤ — ٦٤٣
(١٣)	عز الدين كيقاوس بن كيخسرو	٦٤٣ — ٦٥٥
(١٤)	ركن الدين قليج ارسلان بن كيخسرو	٦٥٥ — ٦٦٦
(١٥)	غياث الدين كيخسرو بن قليج ارسلان	٦٦٦ — ٦٨٢
(١٦)	غياث الدين مسعود بن كيقاوس	٦٨٣ — ٦٩١
(١٧)	علاء الدين كيقباذ	٦٩١ — ٧٠٠

والذي كان يرتبط تاريخه من هذه البيوت بتاريخ الدولة العباسية لدخول بغداد في حوزتهم السلاجقة العظمى وسلاجقة العراق الذين كان لهم السلطان علي العباسيين ٤٤٧ الى سنة ٥٩٠ أي ١٤٣ سنة

استخلف من آل العباس في عهد الدولة السلجوقية تسعة خلفاء وهم

٢٦ عبد الله القائم بأمر الله بن القادر بن المقتدر

٢٧ عبد الله المقتدى بالله بن محمد بن القائم

٢٨ أحمد المستظهر بن المقتدي

٢٩ الفضل المسترشد بن المستظهر

٣٠ المنصور الراشد بن المسترشد

٣١ محمد المقتفى بن المستظهر

٣٢ يوسف المستنجد بن المقتفى

٣٣ الحسن المستضئ بن المستنجد

٣٤ أحمد الناصر بن المستضئ

وأولهم القائم بأمر الله هو الذى فى عهده انتهى العصر البويهى وابتدأ ملك السلجوقى وآخرهم الناصر لدين الله هو الذى انتهى في عصره ملك السلاجقة

ملك السلطان طغرلبك بغداد وتقرب من الخليفة تقربا عظيما حتى أن الخليفة تزوج ارسلان جاتون واسمها خديجة بنت داود أخى طغرلبك وقبل الخليفة العقد بنفسه وذهبت والدة الخليفة وتسلمتها وأحضرتها الى دار الخلافة . ولم تقف المصاهرة بين البيتين عند هـذا الحد ان السلطان طغرلبك تطلع الى أن يتزوخ هو أيضا من البيت العباسى وهو أمر لم تجر به العادة فأرسل سنة ٤٥٣ يخطب بنت الخليفة فانزعج الخليفة من هذا الطلب وأرسل الى السلطان رسول أمر أن يستعفى من الاجابة فان أعفى والا تم الامر على أن يحمل السلطان ٣٠٠٠٠٠ دينار ويسلم واسط وأعمالهـا فلمـا وصل الرسول قال له عميد الملك الكندرى وزير طغرلبك لا يحسن أن يرد السلطان وقد سأل وتضرع ولا يجوز مطالبته أيضا بطلب الاموال والبلاد فهو يفعل أضعاف ما طلب منه ففوض الرسول الامر الى الوزير فبنى الوزير الامر على الاجابة وطالع السلطان فسر به وجمع الناس وعرفهم ان همته سمت به الى الاتصال بتلك الجهة النبوية وبلغ من ذلك مالم يبلغه سواه من الملوك وأمر الوزير أن يسير الى بغداد لاتمـام ذلك فلما ورد الوزير بغداد رأى من الخليفة امتناعا ولم يزل المحيطون بالخليفة يرفقون به حتى رد الامر الى عميد الملك فحضر الى دار الخلافة ومعه جمع من الامراء والحجاب والقضاة والشهود فتكلم وقال للخليفة أسأل مولانا أمير المؤمنين

التطول بذكر ماشرف به العبد المخلص شاهنشاه ركن الدين فيمارغب فيه ليعرفه الجماعة فأظهر الخليفة نفرة من ذلك وكاد الامر يفضى الى فساد ولما رأى الخليفة شدة الامر أذن فى العقد ووكل فيه عميد الملك فجرى العقد في شعبان سنة ٤٥٤ بظاهر تبريز وحمل السلطان أموالا كثيرة وجواهر نفيسة للخليفة ولولي العهد ولزوجته ولوالدتها وغيرهم وجعل بعقوبا وما كان بالعراق للخاتون زوجة السلطان التى توفيت للسيدة ابنة الخليفة ولما تم ذلك حضر السلطان الى بغداد فاراد الخليفة أن يستقبله فاستعفاه من ذلك وأرسل عميد الملك يطلب السيدة من دار الخلافة فنقلت الى دار المملكة في منتصف صفر سنة ٤٥٥ وجلست على سرير ملبس بالذهب ودخل السلطان اليها وقبل الارض وخدمها ولم تكشف الخمار عن وجهها ولا قامت له وحمل لها شيئا كثيرا من الجواهر وغيرها وبقى كذلك يحضر كل يوم يخدم وينصرف وخلع على كثير من الامراء وظهر عليه كثير من السرور

الحادث العظيم ببغداد

في السنة التى تلى حكم السلاجقة ببغداد وهى سنة ٤٤٨ كانت عند مدينة سنجار وقعة شديدة بين البساسيري ومعه نور الدولة دبيس بن مزيد الاسدي وبين قريش ابن بدران العقيلى ومعه قتلمش ابن عم السلطان طغرلبك انهزم فيها قريش وقتلمش فوصل خبر هذه الواقعة الى السلطان بعد أن أقام ببغداد ثلاثة عشر شهرا لم يقابل فيها الخليفة فسار عنها بجيوشه فقاتل العرب بالموصل والجزيرة وانتصر عليهم وانتهى الامر باستيلائه على جميع البلاد الموصلية والجزرية وسلمها الى أخيه لامه ابراهيم ينال ثم عاد الى بغداد فى أوائل سنة ٤٤٩ وقابل الخليفة لاول مرة وفوض اليه الخليفة أمر ادارة البلاد وقد بالغ طغرلبك في احترام مقام الخلافة العباسية وخلع عليه الخليفة سبع خلع وتوج وعمم اشارة الى جمعه بين ملك العرب والعجم وقلد سيفا محلى بالذهب وخاطبه الخليفة بملك المشرق والمغرب فقبل يد الخليفة دفعتين ووضعها على عينه تبركا فعل ما فعل من ذلك التعظيم والاجلال تدينا

في سنة ٤٥٠ ترك ابراهيم ينال بلاد الموصل وتوجه نحو بلاد الجبل ويقال ان المصريين كاتبوه وأطمعوه في الملك فأهم ذلك السلطان وسار وراءه الى همذان . في ذلك الوقت عاد البساسيرى بقوته وكان المصريون يساعدونه ويمدونه ولم يزل يجتاح البلاد حتى وصل الى بغداد فى ثامن ذى القعدة سنة ٤٥٠ واستولى عليها لانه ليس بها جند يحميها وخطب بجامع المنصور لمعد المستنصر العلوى صاحب مصر وأذن بحير العمل وكانت العامة قد مالت اليه أما الشيعة فلاتحاد المذهب وأما أهل السنة فلما فعل بهم الاتراك

أما الخليفة القائم فانه خرج من قصره فى ذمام رئيس العرب قريش بن بدران العقيلي استذم منه بذمام الله وذمام رسوله صلى الله عليه وسلم وذمام العربية فاعطاه ذلك ونزع قريش قلنسوته فاعطاها الخليفة ثم حمله الى معسكره وعليه السواد والبردة و بيده السيف وعلى رأسه اللواء وأنزله في خيمة ثم سلمه الى ابن عمه مهارش بن المجلى وهو رجل فيه دين وله مروءة فحمله في هودج وسار به الى حديثة عانة فتركه بها آمناً مطمئنا فيدمام العربية الذى يرى الخيانة عارا

أما البساسيرى فانه سار ببغداد سيرة مالك ورفعت على رأسه الالوية البيضاء التى أرسلت اليه من مصر ثم ملك بعد ذلك واسط والبصرة وهتف على منابر تلك البلاد باسم آل على

أما السلطان فانه استنجد باولاد أخيه ارسلان وياقوتى وقاورت بك فجاؤه بالعساكر يتلو بعضها بعضا فلقى بهم أخاه ابراهيم ينال بالقرب من الرى فتغلب عليه وأسره ثم أمر به فخنق بوتر قوسه في تاسع جمادى الآخرة سنة ٤٥١ ولما تم له ذلك عاد يطلب العراق وليس له هم الا اعادة القائم بامر الله الى خلافته ولما قارب بغداد أدرك البساسيرى انه لا قبل له بمقاومته فرحل عن بغداد وكان دخوله اليها سادس ذى القعدة سنة ٤٥٠ وخروجه منها سادس ذي القعدة سنة ٤٥١ وكان السلطان قد أرسل وهو بالطريق امام أهل السنة أبا بكر أحمد بن محمد المعروف بابن فورك

الى قريش بن بدران يشكره على ما فعله بالخليفة ويخبره انه أرسل ابن فورك للقيام بخدمة الخليفة واحضاره فارسل قريش الى ابن عمه مهارش يقول له أودعنا الخليفة عندك ثقة بأمانتك لينكف بلاء الغز عنا والآن فقد عادوا وهم عازمون على قصدك فارحل أنت وأهلك الى البرية فانهم اذا علموا ان الخليفة عندنا فى البرية لم يقصدوا العراق ونحكم عليهم بما نريد فابى ذلك مهارش وقال ان الخليفة قد استحلفنى بعهود ومواثيق لا مخلص منها وسار بالخليفة الى العراق وقد لقيهما ابن فورك بتل عكبرا فساروا معا حتى وصلوا الى النهروان فى ٢٤ ذي القعدة فخرج السلطان الى خدمة الخليفة فاجتمع به وقبل الارض بين يديه وهنأه بالسلامة وأظهر الفرح بسلامته واعتذر من تأخره بعصيان أخيه ابراهيم وانه قتله عقوبة لما جرى من الوهن على الدولة العباسية فقلده الخليفة بيده سيفا وقال لم يبق مع أمير المؤمنين من داره سواه وقد تبرك به أمير المؤمنين فكشف غشاء الخركاه حتى رآه الامراء فخدموا وانصرفوا ثم ساروا جميعا الى بغداد وكان دخول الخليفة لخمس بقين من ذي القعدة سنة ٤٥١

ثم أنفذ السلطان جيشا لملاحقة البساسيري الذي توجه سمت الشام وسار السلطان في أثرهم فقابلته الطلائع ببعض الطريق فوقف لهم فقاتلوه وقتلوه وحملوا رأسه الى بغداد وكان البساسيري هذا مملوكا تركيا من مماليك بهاء الدولة الديلمى تقلبت به الامور حتى بلغ هذا المقام المشهور وكنيته أبو الحرث وهو منسوب الى بسا مدينة بفارس كان سيده الاول منها

و بعد أن تم ما أراده عاد الى الري التى جعلت دار ملكه وكان له ببغداد محافظ يسمى الشحنة . وفي سنة ٤٥٥ عاد الى بغداد ليبنى بابنة الخليفة التى ذكرنا فيما مضى حديثها تم عاد الى الري وبها كانت وفاته في يوم الجمعة ٨ رمضان سنة ٤٥٥

ولما توفى أراد عميد الملك أن يقيم فى الملك بعده ابن أخيه سليمان بن داود ولكن لم يتهيأ له ما أراد وتم الامر للسلطان

(٢) عضد الدولة أبي شجاع الب ارسلان محمد بن داود بن ميكائيل بن سلجوق

وقد عارضه في الملك ابن عم أبيه قتلمش بن اسرائيل فقتل دون مراده . استعان الب ارسلان في ادارة ملكه بوزيره العظيم نظام الملك وسيأتي التعريف به وبما نال المملكة من الخير العميم على يديه

كان الب ارسلان بعيد الهمة ثاقب العزم ميمون النقيبة الى بره بالرعية وارادته خيرهم وكان اذا أمر ببناء أوعز بأن يكون أسمى بنيان ويقول آثارنا هذه تدل على علو همتنا ووفور نعمتنا . وكانت أظهر أعماله بالبلاد الرومية فقد أقبل لاول عهده سنة ٤٦٢ ملك الروم وأخنى على منبج واستباحها وسبي حاميتها فاساء ذلك الب ارسلان ولاسيما انه بلغه ان الروم عازمون على اعادة الكرة فاغذ السير الى أذربيجان لانه سمع ان ملك الروم أخذ على سمت خلاط ومعه من الجنود من لا يحصون كثرة ولما قارب خلاط أرسل اليها بعشرين الف فارس فوقف في أوجههم مقدم عسكر خلاط وانتصف منهم وذلك في رابع ذى القعدة سنة ٤٦٣ ثم تلاحق عسكر الروم ونزل على خلاط محاصرا ونزل على ملازكرد فسلمت حاميتها . حصل ذلك والعسكر السلطانى مجد في سيره ولم ينتظر السلطان تلاحق جنده بل قل أنا أحتسب عند الله نفسى بالشهادة وكان وصول السلطان في اليوم الذى سلمت فيه حامية ملازكرد وكان نزول عسكره في يوم الخميس ٦ ذى القعدة والروم بين خلاط وملازكرد فأرسل السلطان الى ملك الروم يقول له ان كنت ترغب فى الهدنة أتممنا ما تريد والا اعتزمنا وعلى الله اعتمدنا فظن ملك الروم ان صدور هذه الرسالة عن خور فقال للرسول سوف أجيب عن هذا بالرى فكان ذلك مما ألهب النفوس الاسلامية وزادها حمية وقال امام السلطان أبو نصر محمد بن عبد الملك البخارى الحنفى للسلطان انك تقاتل عن دين الله الذى وعد باظهاره فالقهم يوم الجمعة بعد الزوال والناس يدعون لك على المنابر . فلما أصبحوا يوم الجمعة وكادت الشمس تزول تهيأ السلطان وعبأ أصحابه تعبئة عسكرية تدل على فهم ثاقب لانه قسمهم أربع فرق كل فرقة أقامها فى نقطة لاتبرحها لتكون عند اللزوم وراء جند العدو ثم اشعل نار الحرب بهمته العالية واستجر الروم

اليه حتى صار الكمين من ورائهم وحينئذ أخذتهم الجنود السلجوقية من امامهم ومن خلفهم فما عتم الروم أن انهزموا بعد أن أخذ منهم الذعر والرعب وأسر ملكهم قالوا وكان مع الروم ثلاثة آلاف عجلة لحمل الاثقال ومعهم منجنيقات كثيرة منها منجنيق له ثمانية أسهم ويمد فيه الف ومائتا رجل ويحمله مائة عجلة يرمى حجرا وزنه بالرطل الكبير الخلاطى قنطار وكثر عدد الاسرى من الروم وكذلك الغنائم حتى سقطت قيم الدواب والكراع والسلاح والمتاع فبيعت ١٢ خوذة بسدس دينار وثلاثة أدراع بدينار

وعاد السلطان مؤيدا ظافرا بعد هذه الواقعة التى لم تقم للروم بعدها قائمة فى نواحى أرمينية

وكان عهد الب ارسلان كله عهد نمو وارتقاء في دولة السلاجقة لا للسيف وحده بل للعلم أيضا فان نظام الملك أسس فى عهده أول المدارس النظامية ببغداد وقد تم بناؤها سنة ٤٥٨ ودرس فيها شيخ الشافعية بالعراق بل وبغيرها وهو الشيخ أبو اسحاق الشيرازى ولما رأى ذلك شرف الملك أبو سعد محمد بن منصور مستوفي المملكة ببغداد بنى على ضريح أبي حنيفة رحمه الله بباب الطاق مشهدا ومدرسة لاصحابه وكتب على تلك القبة

ألم تر هذا العـلم كان مشتتا   فجمعه هـذا المغيب فى اللحد
كذلك كانت هذه الارض ميتة   فأنشرها فضل العميد أبى سعد

وفي سنة ٤٦٥ توجه الب ارسلان قاصدا بلاد الترك فعبر نهر جيحون ولكن المشيئة سابقته فسبقته حكى عنه أنه قال وهو يقرب من الموت ما كنت قط فى وجه قصدته ولا عدو أردته الا توكلت على الله وطلبت منه النصر وأما فى هذه النوبة فاني أشرفت من تل عال فرأيت عسكرى فقلت أين من له قدر بمصارعتى ومعارضتى واني أصل بهذا العسكر الى بلاد الصين فكان ما أراد الله وكانت وفاته ٦ ربيع الاول سنة ٤٦٥

ولأوائل حكمه .توفي الخليفة القائم بأمر الله ثالث عشر شعبان سنة ٤٦٧ فقام بالأمر بعده ولي عهده حفيده

٢٧ – المقتدى بأمر الله

أبو القاسم عبد الله بن الذخيرة أبي العباس محمد بن القائم ولم يكن للقائم من أعقابه ذكر سواه فان الذخيرة توفي أيام أبيه ولم يكن له غيره فأيقن الناس بانقراض نسله وانقراض الخلافة من البيت القادرى الى غيره ولم يشكوا في اختلال الاحوال بعد القائم لان من عدا البيت القادرى كانوا يخالطون العامة في البلد ويجرون مجرى السوقة فلو اضطر الناس الى خلافة أحدهم لم يكن له قبول ولا هيبة فقدر الله أن الذخيرة كانت له جارية أرمنية اسمها ارجوان وكان يلم بها فلما توفي ظهر انها حامل وولدت بعد موت سيدها بستة أشهر وذلك الولد هو عبد الله الذى ولاه جده العهد بعده لما بلغ الحلم وقد بويع بعد وفاة جده واستمر خليفة الى أن توفي فجأة في يوم السبت خامس محرم سنة ٤٨٧ (   ) فكانت خلافته ١٩ سنة وثمانية أشهر غير يومين وهو من خيرة بني العباس كان قوى النفس عظيم الهمة أصلح كثيرا من الاحوال الادبية ببغداد فأمر بنفي المغنيات والمفسدات منها وقلع المرادى والابراج التى للطيور ومنع من اللعب بها لاجل الاطلاع على حرم الناس ومنع الملاحين أن يحملوا الرجال والنساء مجتمعين ولذلك أصلح كثيرا من الماديات فعمرت في بغداد عدة محال في خلافته ومنع من اجراء ماء الحمامات الى دجلة وألزم أربابها بحفر آبار للمياه وأمر أن من يغسل السمك المالح يعبر الى النجمى فيغسله هناك وكانت أيامه كثيرة الخير واسعة الرزق وعظمت الخلافة أكثر مما كان من قبله وكان سلطان السلاجقة في عهده ملكشاه الذى ذكرنا قيامه بعد أبيه الب ارسلان

وكان ملكشاه سلطانا عادلا ذا فضل وانصاف شجاعا مقداما صائب الرأي والتدبير أيامه في دولة السلاجقة واسطة عقدها وكان ميمون النقيبة لم يتوجه الى اقليم الا فتحه ولما توجه الى الشام وانطاكية بلغ الى حد قسطنطينية وقرر الف دينار على ملوكها تحمل الى خزانته ووضع في النواحي التي فتحها من الروم خمسين منبرا اسلاميا ولم يزد زمن ذلك العمل على شهرين ثم عاد الى الري وقصد سمرقند فظفر بخاقانها وأسره فحمل غاشية السلطان على كتفه وسار في ركابه الى موضع سرير ملكه ثم من عليه وأعاده الى ملكه وتوجه في السنة الثانية الى أوزكند فأخضعها وخضع له جميع الملوك والرؤساء بالمشرق والمغرب وهذه السعادة كلها انما تيسرت بسعادة الوزير الكبير خواجه بزرك قوام الدين نظام الملك أبي علي الحسن بن علي بن اسحاق رضي أمير المؤمنين الطوسي وكان معدودا من العلماء الاجواد وكان محبا للعلم مجلسه دائما معمور بالقراء والفقهاء وأئمة المسلمين وأهل الخير والصلاح أمر ببناء المدارس المعروفة بالنظامية في سائر الامصار والبلاد وأجرى لها الجرايات العظيمة وسمع الحديث بالبلاد ببغداد وخراسان وغيرهما وكان يقول اني لست من أهل هذا الشأن ولكني أحب أن أجعل نفسي على قطار نقلة حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان اذا سمع المؤذن أمسك عن كل ما هو فيه وتجنبه فاذا فرغ لا يبدأ بشيء قبل الصلاة وأسقط في زمنه كثيرا من المكوس والضرائب وهو الذي أزال لعن الاشعرية من المنابر وكان سلفه عميد الملك الكندري قد حسن للسلطان طغرلبك التقدم بلعن الرافضة فأمره بذلك فأضاف اليهم الاشعرية ولعن الجميع فلهذا فارق كثير من الائمة بلادهم مثل امام الحرمين وأبي القاسم القشيري وغيرهما فلما ولي نظام الملك أزال ذلك جميعه وأعاد العلماء الى أوطانهم

ومن ظريف الاخبار أن نظام الملك كان اذا دخل عليه امام الحرمين وأبو القاسم القشيري يقوم لهما ويجلس في مسنده كما هو واذا دخل عليه أبو علي الفارمذي يقوم اليه ويجلسه في مكانه ويجلس هو بين يديه فقيل له في ذلك فقال ان هذين وأمثالهما

اذا دخلوا على يقولون لى أنت كذا وكذا يثنون بما ليس في فيزيدني كلامهم عجبا وتيها وهذا الشيخ يذكرلى عيوب نفسى وما أنا فيه من الظلم فتنكسر نفسى لذلك وأرجع عن كثير ممـا أنا فيه . وكان ينظر في الاوقاف والمصالح ويرتب عليها الامناء ويشدد في أمرها وعلى الجملة فكان غرة فى جبين آل سلجوق ومن حسناته حجة الاسلام الامام الغزالى فهو قرينه فى الطلب ازدانت بهما طوس واختالت على ماسواها من بلاد فارس وكان مؤيدا بقرينين مؤيدين لدولته وهما كمال الدولة أبو الرضى فضل الله بن محمد صاحب ديوان الانشاء والطغراء وشرف الملك أبو سعد محمد بن منصور ابن محمد صاحب ديوان الزمام والاستيفاء وكلاهما صاحب الرأى والتدبير والدهاء والجود . ومع ما ظهر منه من الكفاية ويمن النقيبة وسعادة الحركة لم يترك المفسدون أديم المودة بينه وبين سلطانه صحيحا بل مازالوا في سعاياتهم حتى نغل ذلك الاديم ومل السلطان طول مدة الوزير واستطالة مدته فأنفذ اليه أحد خاصته بزسالة واختار عينا يحصى على الوزير ما يفوه به وكان مضمون الرسالة انك استوليت على ملكي وقسمت ممـالكي على أولادك وأصهارك أتريد أن آمر برفع دواة الوزارة من بين يديك وأخلص الناس من استطالتك فكان جوابه عن تلك الرسالة – قولوا للسلطان ان دواتي مقترنة بتاجك فمتى رفعتها رفع ومتى سلبتها ساب – فاشتد من ذلك الجواب غيظ السلطان وكان بعد ذلك ان أحد الملاحدة اعتدى على نظام الملك فقتله وذلك سنة ٤٨٥

ومن غرائب المصادفات أن السلطان لم يعش بعده الا ٣٣ يوما وبموتهما انتهت سعادة البيت السلجوقى ووقعت بين رؤسائه الفتن وحكموا بينهم السيف

مات ملكشاه بعد أن اتسع ملكه اتساعا عظيما فخطب له من حدود الصين الى آخر الشام ومن أقاصى بلاد الاسلام فى الشمال الى آخر بلاد اليمن وحملت اليه ملوك الروم الجزية ولم يفته مطلب وانقضت أيامه على أمن عام وسكون شامل وعدل مطرد . أسقط المكوس والمؤن من جميع البلاد وعمر الطرق والقناطر والمرابط التى في المفاوز

وحفر الانهار الخراب وعمر الجامع ببغداد وعمل المصانع بطريق مكة وبنى البلد بأصبهان

كان للسلطان ملكشاه أربعة بنين وهم بركياروق ومحمد وسنجر ومحمود . وكان محمود طفلا وأمه تركان خاتون فطلبت من الخليفة المقتدى أن يعين ولدها للسلطنة فأجاب الى ذلك على شروط اشترطها الا أن جنود نظام الملك ساعدوا أخاه الاكبر بركياروق على أن يكون هو السلطان فتم ما أرادوا وأرسل تقليده الى الخليفة ليوقعه فمات الخليفة والتقليد بين يديه وكانت وفاته فى ١٥ محرم سنة ٤٨٧

وفاة المقتدى

في منتصف المحرم سنة ٤٨٧ توفى المقتدى بالله فجأة بعد أن قدم اليه تقليد السلطان بركياروق فقرأه وعلم ما فيه ولم يمضه

---

٢٨ — المستظهر بالله

بويع بالخلافة بعده ولده أبو العباس أحمد المستظهر بالله واستمر خليفة الى أن توفى فى ١٦ ربيع الآخر سنة ٥١٢ فكانت خلافته ٢٤ سنة وثلاثة أشهر و ١١ يوما وكانت سنه حين توفى ٤١ سنة وستة أشهر وستة أيام

حال الممالك الاسلامية فى عهده

كان بالاندلس والمغرب الاقصى دولة الملثمين والقائم بأمرهم يوسف بن تاشفين (٤٨٠ — ٥٠٠) ثم من بعده ابنه على الى سنة ٥٣٧

وبأفريقية من آل زيرى تميم بن المعز بن باديس الى سنة ٥٠١ ثم يحيى بن تميم الى سنة ٥٠٩ ثم على بن يحيى الى سنة ٥١٥

وبمصر من الفاطميين المستعلى أبو القاسم أحمد بن المستنصر معد الى سنة ٤٩٥ ثم الآمر بأحكام الله على المنصور بن المستعلى الى سنة ٥٢٤

وبزبيد من الدولة النجاحية الامير جيش بن نجاح الى سنة ٤٩٨ ثم فاتك بن جيش الى سنة ٥٠٣ ثم منصور بن فاتك الى سنة ٥١٧

وبصنعاء ومهره ظهر الامير حاتم بن غاشم الهمدانى من سنة ٤٩٢ الى سنة ٥٠٢ ثم عبد الله بن حاتم الى سنة ٥٠٤ ثم معن بن حاتم الى سنة ٥١٠ ثم هشام بن قبيط وحاتم بن حماص

وما عدا ذلك من البلدان الاسلامية فى آسيا فهو محكوم بدولة السلاجقة

كان للمستظهر بالله من خيار بني العباس لين الجانب كريم الاخلاق يحب الاصطناع ويفعل الخير ويسارع الى أعمال البر والمثوبات مشكور المساعى لابرد مكرمة تطلب منه وكان كثير الوثوق بمن يوليه غير مصغ الى سعاية ساع ولا ملتفت الى قوله ولم يعرف منه تلون وانحلال عزم بأقوال أصحاب الاغراض وكانت أيامه أيام سرور لرعيته وكان اذا بلغه ذلك فرح به وسره واذا تعرض سلطان أو نائب له الى أذى أحد بالغ في انكار ذلك والزجر عنه وكان حسن الخط جيد التوقيعات لا يقاربه فيها أحد وله شعر رقيق فمن ذلك قوله

أذاب حر الهوى فى القلب ما جمدا ... لما مددت الى رسم الوداع يدا
وكيف تسلك نهج الاصطبار وقد ... أرى طرائق فى مهوى الهوى قددا
قد أخلف الوعد بدر قد شغفت به ... من بعد ما قد وفى دهرى بما وعدا
ان كنت أنقض عهد الحب في خلدى ... من بعد هذا فلا عاينته أبدا

تولى ملك العراق في خلافة المستظهر بالله ملكان من آل سلجوق أولهما السلطان أبو المظفر بركياروق بن ملكشاه ولاول عهده استوزر عز الملك أبا عبد الله الحسين ابن نظام الملك ولم يكن فيه شىء من كفاية أبيه وكان أخوه عبد الرحيم اليه منصب الطغراء وتولى ديوان الاستيفاء الاستاذ على بن أبي على القمى وكانوا جميعا سواسية فى النكوب عن جادة الاعتدال وسياسة المملكة والسلطان مشغول عما يصلح ملكه باللعب وعشرة الصبيان والوزير منهمك فى شرابه وقد ذهب الجميع الى بغداد واختاروا

المقام فيها لاهين بمغانيها وغوانيها . كان ذلك مجرئا عم السلطان تتش بن الب ارسلان صاحب دمشق أن يقوم طالبا السلطنة لنفسه فقام بجنوده واستولى على بلاد الجزيرة والموصل وديار بكر واذربيجان ثم بدا له فعاد الى دمشق لما رأى كثيرا من أمرائه ميالين الى مساعدة بركياروق وانتظم الامر لبركياروق ولكن أمر ذلك لم يطل الا بمقدار ما أعد تتش للامر عدته فعاد سنة ٤٨٧ بجنوده التي أعدها واستولى على حلب والجزيرة وديار بكر وأذربيجار وهمذان ثم أرسل الى الخليفة ببغداد يطلب الخطبة له فأجيب طلبه بعد أن وصل اليهم الخبر بأن تتش هزم بركياروق في وقعة كانت بينهما ولم يزل الامر على ذلك حتى لم بركياروق شعثه وأصلح من أمر جنوده والتقى بعمه فى موضع قريب من الرى فكانت الهزيمة على جند تتش وأما هو فثبت حتى قتل وذلك سنة ٤٨٨ واستقام الامر لبركياروق بعد أن كاد يضمحل وكان نجاحه بآراء الوزير مؤيد الملك أبي بكر عبد الله بن نظام الملك الذي استوزره بعد أخيه عز الملك ولم يكن في أولاد نظام الملك أكفى منه وكان وحيدا فى بلاغة النظم والنثر ولما هنأ السلطان بالفتح قال له كل هذا ببركتك وعن نقيبتك الا أن مدة ذلك الوزير الايمن لم تطل فان أم السلطان كانت متداخلة تداخلا كثيرا في سياسة دولة ابنها فتغير قلبها على الوزير ولما رأى ذلك أخوه فخر الملك أبو الفتح المظفر أرسل وبذل أموالا جزيلة فى الوزارة فاجيب اليها وعزل أخوه واعتقل فاحتال حتى خلص من اعتقاله وتوجه الى محمد بن ملكشاه الذي كان ملكا على اران ومقره مدينة جنزة فقبله محمد واصطفاه واستشاره في مهماته ثم سلم اليه وزارته فلم يزل يقرب لمحمد قصد أخيه بركياروق والاستيلاء على ملكه حتى حرك منه ما كمن من هواه فسار من اران في شرذمة يسيرة حتى وصل دار الملك أصفهان فلم تستعص عليه فملكها واستمال اليه العساكر فمالوا اليه

كانت مطالبة محمد للسلطنة وقيامه في وجه أخيه بركياروق فاتحة شر مستطير على هذين الاخوين بل على البيت السلجوقى كله بل على الاسلام جميعاً فقد ظلت نيران الحرب بينهما مستعرة من سنة ٤٩٢ الى سنة ٤٩٧ خمس سنين ما أشد وقعها على

الرعية والجند حصلت فيها مواقع هائلة والحرب فيهـا سجال . الافرنج تحركوا من مرابضهم للاغارة على البلاد الاسلامية لتخليص البيت المقدس كمـا زعموا وملوك الاسلام وهم من بيت واحد وأبناء رجل واحد يتطاحنون ويتخاصمون

رأى الرجلان أن الحروب تطاولت بينهما وعم الفساد فصارت الاموال منهوبة والدماء مسفوكة والبلاد مخربة والقرى محرقة والسلطنة مطموعا فيهـا وأصبح الملوك مقهورين بعد أن كانوا قاهرين وكان الامراء الاكابر يؤثرون ذلك ويختارونه ليدوم تحكمهم وانبساطهم وادلالهم وكان السلطان بركياروق حينئذ بالري والخطبة له بها وبالجبل وطبرستان وخوزستان وفارس وديار بكر والجزيرة وبالحرمين الشريفين وكان السلطان محمد بأذربيجان والخطبة له فيها وببلاد أران وأرمينية وأصبهان والعراق كلهـا ما عدا تكريت وأما أعمـال البطائح فيخطب ببعضها لبركياروق وببعضها لمحمد وأما البصرة فكان يخطب فيها لهما جميعاً وأما خراسان فان السلطان سنجر بن ملكشاه كان يخطب له في جميعها وهى من حدود جرجان الى ما وراء النهر ولاخيه السلطان محمد — فلما رأى السلطان بركياروق المـال عنده معدوماً والطمع من العسكر زائدا أرسل القاضى أبا المظفر الجرجاني الحنفي وأبا الفرج احمد ابن عبد الغفار الهمذاني الى أخيه محمد فى تقرير قواعد الصلح فسارا اليه ورغباه في الصلح وفضيلته وذكرا له ما شمل البلاد من الخراب وطمع عدو الاسلام في أطراف الارض فأجاب الى ذلك واستقر الامر بينهما على أن بركياروق لا يعترض أخاه محمدا في الطبل وألا يذكر معه على سائر البلاد التى صارت له وألا يكاتب أحدهما الآخر بل تكون المكاتبة بين وزيريهما ولا يعارض أحد من العسكر في قصد أيهما شاء وأن يكون للسلطان محمد من النهر المعروف بأسبيذروذ الى باب الابواب وديار بكر والجزيرة والموصـل والشام ويكون له من بلاد العراق بلاد سيف الدولة صدقة وهى الحلة وما اليها وقد حلف كل منهما لصاحبه على الوفاء فتحسنت الاحوال وزال الخلف والشغب ولم تطل مدة بركياروق بعد هـذا الصلح فانه توفي في ثاني ربيع الآخر سنة ٤٩٨

بعد موت بركياروق خطب أمراؤه لابنه ملكشاه الا أن أمره لم يتم فان عمه محمدا ما عتم أن قدم الى بغداد بجيوشه الوافرة فلم يكن أمامه من يقدر على رده وقد حاول أكبر الامراء البروكياروقية أن يوقد نار الحرب ليقوم بما يجب عليه لمولاه ولكن الله حسن الصلح والاتفاق فتم ذلك وخطب لمحمد بالسلطنة بدون منازع ثم عاد الى دست ملكه بأصفهان

لم يكن السلطان محمد موفقاً لاختيار كبار مملكته وقد كانت الاعمال الكبرى في دولة آل سلجوق هي

(١) الوزارة (٢) استيفاء المملكة ويقال لصاحبها المستوفي (٣) الطغراء وهو رياسة الديوان ومن جملته ديوان الرسائل والانشاء (٤) الاشراف وعرض الجيش . قال بعض الكتاب في حق السلطان محمد وقد كثر تعجبي من السلطان يتأنق في تخير كلاب الصيد وفهوده وانما يقتنى منها ما يراه موافقاً لمقصوده فيسأل عن فروعه وأصوله وانقطاعه ووصوله فما باله لا يتخير لديوانه ومراتب سلطانه من الكفاة الافاضل والصدور الاماثل من عرفه ذاك وعرفه زاك وعرقه كريم ومجده قديم وطريقه في الكفاية مستقيم لقد كان هؤلاء أولى بالاختيار وأجدر بالاختبار فانهم أمناؤه على مملكته ووكلاؤه على دولته وسفراؤه في خدمته . ولعدم حسن الاختيار كثر الاضطراب والتغيير واستمر ملك محمد هذا الى سنة ٥١١ حيث توفي فى ٢٤ ذي الحجة وعمره اذ ذاك ٣٧ سنة وكان عادلا حسن السيرة شجاعا وقد أطلق في حياته المكوس والضرائب في جميع البلاد ولم يعرف منه فعل قبيح وعلم الامراء سيرته فلم يقدم أحد منهم على الظلم وكفوا عنه

فاختير للملك بعده ابنه السلطان مغيث الدنيا والدين أبوالقاسم محمود بن محمد بن ملكشاه يمين أمير المؤمنين وخطب له ببغداد فى ١٣ محرم سنة ٥١٢

ولم يقم الخليفة المستظهر بالله طويلا بعد وفاة محمد بن ملكشاه فانه توفي في ١٦ ربيع الآخر فلم يكن بين رحيلهما من هذا العالم الا أقل من أربعة أشهر

كان في حياة المستظهر بالله أحداث عظيمة في المملكة الاسلامية في الشرق والغرب فأما في الشرق فظهور الباطنية وعيثهم في البلاد حتى كادوا يميلون ميزانها وأما في الغرب فاغارة الفرنج على البلاد الاسلامية و بدء الحروب الصليبية ولا بد أن نشير الى كل من الحادثين بكلمة لنبين كيف كان ابتداؤهما فان استيفاء ما يتعلق بهما يرجع الى شرح حال الدولة الفاطمية المصرية لان الحادثين يتعلقان بها فالباطنية أنصارهم والافرنج أعداؤهم

الباطنية

لما نجح الفاطميون باقامة دولهم بالمغرب ثم بمصر واتسعت رقعة مملكتهم حتى وصلت الى نواحي الفرات دار في خلدهم أن يمدوا سلطانهم متجهين الى المشرق حتى يعم بقاع الارض ملكهم وكانت الطريقة التى جروا عليها من أول نشأتهم ان يرسلوا الدعاة الى الاقطار فيدعون الناس اليهم سرا ويزينون لهم ما يدعون اليه بضروب من الزينة التى مهروا في ابداعها وكان للدعوة بمصر درجة رفيعة الشأن عليها رجل كبير يعرف بداعى الدعاة ودرجته تلى قاضي القضاة وكان الدعاة يحصلون على أسرار الدعوة بمصر ثم يرحونها الى كل قطر متبعين نظاما مسنونا ومن البلاد التى اهم الفاطميون بها وأرسلوا دعاتهم اليها البلاد الفارسية وقد كان أول رواج هذه الدعوة في عهد ملكشاه وسبب هذا الرواج انه لم يكن للدولة أصحاب اخبار وكان الرسم في ايام الديلم ومن قبلهم من الملوك انهم لا يخلون البلاد من اصحاب الاخبار والبريد فلم تكن تخفى عنهم الاخبار فلما تولى السلطان ألب ارسلان فاوضه وزيره نظام الملك في هذا الامر فأجابه لا حاجة بنا الى صاحب خبر فان الدنيا لا تخلو كل بلد فيها من أصدقاء لنا وأعداء فاذا نقل الينا صاحب الخبر خبرا وكان له غرض اخرج الصديق في صورة العدو والعدو في صورة الصديق ومن اجل ذلك أسقط السلطان هذا الرسم

فصادف الباطنية بسبب ذلك نجاحاً واول ما عرف من امرهم انه اجتمع منهم ١٨ رجلا بمدينة ساوة وهى مدينة بين الرى وهمذان فصلوا صلاة العيد ففطن بهم الشحنة فأخذهم وحبسهم ثم سئل فيهم فأطلقهم فهـذا اول اجتماع كان لهم ثم انهم دعوا مؤذنا من أهل ساوة كان مقيما بأصبهان فلم يجبهم الى دعوتهم فخافوه أن ينم عليهم فقتـلوه فهو اول قتيل لهم واول دم أراقوه فبلغ خبره الى نظام الملك الوزير فأمر بأخذ من يتهم بقتله فوقعت التهمة على نجار اسمه طاهر فقتل ومثل به فهو اول قتيل منهم . ولما رأى الباطنية ذلك من نظام الملك امروا واحدا منهم فقتله وهى اول فتكة مشهورة كانت لهم وقالوا قتل نجارا فقتلناه به . واول موضع غلبوا عليه وتحصنوا به بلد عند قاين وهي بين نيسابور وأصبهان وكان متقدم هذا البلد على مذهبهم فاجتمعوا عنده وقووا به فاجتازت بهم قافلة عظيمة من كرمان الى قاين فخرج عليهم الباطنية فقتـلوا القفل أجمعين ولم ينج منهم غير رجل واحد تركماني فوصل الى قاين وأخبر بالخبر فتسارع أهلها الى جهادهم فلم يقدروا عليهم ثم قتـل نظام الملك ومات ملكشاه فعظم أمرهم واشتدت شوكتهم وقويت اطماعهم ولا سيما بأصبهان واستولوا على قلعة أصبهان وهى قلعة بناها السلطان ملكشاه

كان الداعية الاكبر للباطنية بتلك البلاد هو احمد بن عبد الملك بن عطاش فقدموه عليهم وألبسوه تاجا وجمعوا له الاموال ثم ظهر منهم الرئيس الثاني وهو الحسن ابن الصباح أخذ هذا المذهب عن عبد الملك بن عطاش ثم رحل الى مصر فلقى بها الخليفة المستنصر وتلقى بمصر اصول الدعوة الباطنية وكان شهماً ذكيا عالمـاً بالهندسة والحساب والنجوم ثم عاد بمرو لنصرة هذا المذهب بقلمه وسيفه فكان اول ما فعله أن استولى على قلعة الموت وتحصن بها وهى من نواحى قزوين فى موضع حصين ولم يكن نظام الملك اذذاك قد توفى فلما بلغه الخبر بعث الى تلك القلعة عسكرا فحصروا فيها ابن الصباح وأخذوا عليه الطرق ولمـا ضاق ذرعه بالحصر أرسل من قتل نظام الملك فلما قتل رجع العسكر عنها

ودخل فى حوزتهم ايضاً بعض قهستان وطبس وملكوا كذلك قلعة وسنمكوه بقرب أبهر وغير ذلك من القلاع التى جعلوها حصونا لهم ومعاقل . تمكنت اقدامهم بالبلاد الفارسية وصار يحسب لهم حساب وكان الواحد منهم يهجم على كثير وهو يعلم أنه يقتل فقتل بذلك من شاء غيلة وكان رؤساؤهم يستعملونهم فيما أرادوا ويمنونهم الاماني الجميلة التى يخضع لسلطانها أمثال هؤلاء الناس فيأتون بالعجب العجاب . وقد صارت الناس فيهم فرقتين فمنهم من جاهرهم بالعداوة والمقارعة ومنهم من عاهدهم على المسالمة والموادعة فمن عاداهم خاف من فتكهم ومن سالمهم نسبه النـاس الى الارتكاس فى عقيدتهم وكان الناس منهم على خطر عظيم من الجهتين ولما كانوا قد تجمعوا من كل صنف تطرقت الى جميع أصناف الناس التهم ودب الى البرآء السقم وتعين على السلطان أن يكاشفهم مدافعاً لئلا ينسبه العوام وأهل الدين الى الالحاد وفساد الاعتقاد وقد حصل ذلك للملك تيرانشاه بن تورانشاه بن قاورت بك فقـد اتهمته رعيته بالميل الى الباطنية والقول بدعوتهم فثاروا عليه وأخرجوه عن مدينة بردسير التى هى مدينة كرمان واتفقوا بعد خروجه على تولية ارسلانشاه بن كرمانشاه ابن قاورت بك . ومن المصيبة أنه ما كان سلطان يثق بخواصـه والناس فى كل جيل يميل بعضهم الى الانتقام من بعض لنيل هذه الدنيا ومظاهرها الكاذبة فلما رأوا جد السلطان فى ابادة القوم سعى بعض الناس ببعض وأحب وصمه بالالحاد لما بينهما من العداوة ولم يبق للناس في هذا المصاب رأي ولا تدبير

لما اشتد أمر الباطنية وقويت شوكتهم وكثر عددهم صار بينهم وبين أعدائهم ذحول واحن فلما قتلوا جماعة من الامراء الاكابر وكان أكثر من قتلوا ممن هو فى طاعة السلطان محمد أخي بركياروق مثل شحنة أصبهان وغيره نسب أعداء بركياروق ذلك اليه واتهموه بالميل اليهم فلما ظفر السلطان بركياروق وهزم أخاه محمدا انبسط جماعة منهم فى العسكر واستغووا كثيرا منهم وأدخلوهم فى مذهبهم وكادوا يظهرون بالكثرة والقوة وحصل بالعسكر منهم طائفة من وجوههم وزاد أمرهم فصاروا

يتهددون من لا يوافقهم بالقتل فصار يخافهم من يخالفهم حتى لم يجسر أحد من مخالفيهم لا أمير ولا متقدم علي الخروج من منزله حاسرا بل يلبس تحت ثيابه درعا واستأذن السلطان بركياروق خواصه في الدخول عليه بسلاحهم وعرفوه خوفهم من الباطنية وأشاروا على السلطان ان يفتك بهم قبل أن يعجز عن تلافي أمرهم وأعلموه ما يتهمه الناس به من الميل الى مذهبهم حتى ان عسكر أخيه السلطان محمد يشنعون بذلك وكانوا في المصاف يكبرون ويقولون ياباطنية فاجتمعت هذه البواعث كلها فأذن السلطان في قتلهم والفتك بهم وركب هووالعسكرمعه وطلبوهم وأخذوا جماعة منهم ولم يفلت منهم الا من لم يعرف وأخرج الجماعة المتهمون الى الميدان فقتلوا وقتل منهم جماعة براء لم يكونوا منهم سعي بهم أعداؤهم ومن الغريب انه قد اتهم بتلك التهمة الكيا الهراسي مدرس النظامية ورفيق الغزالى فى الطلب والتلمذة لامام الحرمين فأمر السلطان محمد فقبض عليه فارسل الخليفة المستظهر بالله من استخلصه وشهد له بصحة الاعتقاد وعلو الدرجة فى العلم فاطلق

وفي سنة ٤٩٤ جمع الامير بزغش وهو أكبر أمير مع السلطان سنجر جموعا كثيرة وقواهم بالمال والسلاح وسار الى بلد الاسماعيلية فنهبه وخربه وقتل فيهم فأكثر وحصر طبس وضيق عليها ورماها بالمنجنيق فخرب كثيرا من سورها وضعف من بها ولم يبق الا أخذها فأرسلوا اليه الرشا الكثيرة واستنزلوه عما كان يريد منهم فرحل عنهم وتركهم فأعادوا عمارة ما انهدم من سورها وملؤها ذخائر من سلاح وأقوات وغير ذلك ثم عاد اليهم سنة ٤٩٧ بجمع فيه كثير من المتطوعين فخرب طبس وما جاورها من القلاع والقرى وأكثر فيهم القتل والنهب والسبى وفعل بهم الافعال العظيمة ثم ان أصحاب سنجر أشاروا بأن يؤمنوا ويشرط عليهم انهم لا يبنون حصنا ولا يشترون سلاحا ولا يدعون أحدا الى عقائدهم فسخط كثير من الناس هذا الامان وهذا الصلح ونعوه على سنجر ثم توفى بزغش بعد عوده من هذه الغزاة

وكان تركهم بعد هذا التضييق عليهم داعيا الى اشتداد قوتهم وقوة شوكتهم

بعد ذلك ومن جملة أفعالهم الخبيثة أن قفل الحاج تجمع هـذه السنة مما وراء النهر وخراسان والهند وغيرها من البلاد فوصلوا الى جوار الرى فأتاهم الباطنية وقت السحر فوضعوا فيهم السيف وقتلوهم كيف شاؤا وغنموا أموالهم ودوابهم ولم يتركوا شيئاً

وفى سنة ٥٠٠ رأى السلطان محمد ما وصل اليه أحمد بن عبد الملك بن عطاش من القوة والهيبة فان أمره استفحل بالقلعة التى ملكها بجوار أصبهان وكان يرسل أصحابه لقطع الطريق وأخذ الاموال وقتل من قدروا على قتله فقتلوا خلقا كثيرا لا يمكن احصاؤهم وجعلوا له على القري السلطانية وأملاك الناس ضرائب يأخذونها ليكفوا عنها الاذى فتعذر بذلك انتفاع السلطان بقراه والناس بأملاكهم ونسى أمر الباطنية بالخلف الواقع بين السلطانين بركياروق وأخيه محمد فلما صفت السلطنة لمحمد لم يكن عنده أمر أهم من قصد الباطنية وحربهم والانتصاف للمسلمين من جورهم وعسفهم فرأى البداية بقلعة أصبهان التى بأيديهم لان الاذى بها أكثر وهى متسلطة على سرير ملكه فخرج اليهم بنفسه فحاصرهم وصعد جبلا يقابل القلعة من غربيها ونصب له التخت بأعلاه واجتمع له من اصبهان وسوادها لحربهم الامم العظيمة للذحول التى يطالبونهم بها وأحاطوا بجبل القلعة ودوره أربعة فراسخ ورتب الامراء لقتالهم فكان يقاتلهم كل يوم أمير فضاق الامر بهم واشتد الحصار عليهم وتعذرت عندهم الاقوات ولما اشتد الامر عليهم كتبوا فتوى فيها (ما يقول السادة الفقهاء أئمة الدين في قوم يؤمنون بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر وان ماجاء به محمد صلى الله عليه وسلم حق وصدق وانما يخالفون الامام هل يجوز للسلطان مهادنتهم وموادعتهم وان يقبل طاعتهم ويحرسهم من كل أذى) فأجاب أكثر الفقهاء بجواز ذلك وتوقف بعضهم فجمعوا للمناظرة ومعهم أبو الحسن على بن عبد الرحمن السمجاني وهو من شيوخ الشافعية فقال بمحضر من الناس يجب قتالهم ولا يجوز اقرارهم بمكانهم ولا ينفعهم التلفظ بالشهادتين فانهم يقال لهم أخبرونا عن امامكم اذا أباح لكم ما حظره الشرع أو حظر عليكم ما أباحه الشرع أتقبلون أمره فانهم يقولون نعم وحينئذ تباح

دماؤهم بالاجماع وطالت المناظرة في ذلك ثم ان الباطنية سألوا السلطان ان يرسل اليهم من يناظرهم وعينوا لذلك أشخاصا من العلماء منهم القاضى أبو العلا صاعدبن يحيى شيخ الحنفية بأصبهان وقاضيها وغيره فصعدوا اليهم وناظروهم وعادوا كما صعدوا وانما كان قصدهم التعلل والمطاولة فلج حينئذ السلطان في حصرهم فلما رأوا منه عين الجد أذعنوا الى تسليم القلعة على ان يعطوا عنها قلعة خالنجان وهى على سبعة فراسخ من أصبهان وقالوا انا نخاف على دمائنا وأموالنا من العامة فلا بد من مكان نحتمى فيه فأشير على السلطان باجابتهم الى ماطلبوا فسألوا ان يؤخرهم الى النوروز ليرحلوا الى خالنجان ويسلموا قلعتهم وشرطوا ألا يسمع فيهم قول متنصح وان قال أحد عنهم شيئاسلمه اليهم وان من أتاه منهم رده اليهم فأجابهم اليه وطلبوا ان يحمل اليهم من الاقامة ما يكفيهم يوما بيوم فأجيبوا . وكان قصدهم المطاولة انتظارا لفتق ينفتق أو حادث يتجدد ورتب لهم وزير السلطان ما يحمل اليهم كل يوم من الطعام والفاكهة وجميع ما يحتاجون اليه فجعلوا هم يرسلون ويبتاعون من الاطعمة ما يجمعونه ليمتنعوا في قلعتهم ثم انهم وضعوا من أصحابهم من يقتل أميرا كان يبالغ فى قتالهم فوثبوا عليه فجرحوه وسلم منهم وحينئذ أمر السلطان باخراب قلعة خالنجان وجدد الحصار عليهم فطلبوا أن ينزل بعضهم ويرسل السلطان معهم من يحميهم الى أن يصلوا لى قلعة الناظر بارجان وهى لهم وينزل بعضهم ويرسل معهم من يوصلهم الى طبس وأن يقيم باقيهم في ضرس من القلعة الى ان يصل اليهم من يخبرهم بوصول أصحابهم فينزلون حينئذ ويرسل معهم من يوصلهم الى ابن الصباح بقلعة الموت فأجيبوا الى ذلك فنزل منهم جماعة الى الناظر والى طبس وتسلم السلطان القلعة فأخربها ثم ان الذين ساروا الى قلعة الناظر وطبس وصل منهم من أخبر ابن عطاش بوصولهم فلم يسلم السن الذى بقى بيده وبان للسلطان منه الغدر فقرر الزحف عليه فزحف الناس كافة عليه وكان قد قل عنده من يمنع ويقاتل فظهر منهم صبر عظيم جدا وشجاعة زائدة وكان قد استأمن الى السلطان انسان من أعيانهم فدله على عورة لهم فأتى بهم الى جانب لذلك

السن لا يرام فقال اصعدوا من هنا فقيل انهم ضبطوا هذا المكان وشحنوه بالرجال فقال ان الذي ترون أسلحة وكزاغندات جعلوها كهيئة الرجال لقلتهم عندهم وكان جميع من بقي ثمانين رجلا فزحف الناس من هناك وملكوا الموضع وقتل أكثر الباطنية واختلط جماعة منهم مع من دخل فخرجوا معهم وأما ابن عطاش فاخذ أسيرا فترك أسبوعا ثم قتل هو وولده ومثل بهما وحملت رؤسهما الى بغداد وألقت زوجته نفسها من رأس القلعة فهلكت وكانت مدة البلوى بابن عطاش اثنتى عشرة سنة

وكما اهتم بأمر ابن عطاش وقلعته كذلك اهتم بأمر الحسن بن الصباح صاحب قلعة الموت وما معها فقد كان يعلم أن مصالح البلاد والعباد منوطة بمحو آثارهم واخراب ديارهم وملك حصونهم وقلاعهم فجعل قصدهم دأبه وكانت أيام ابن الصباح قد طالت وله منذ ملك قلعة الموت ما يقارب ستا وعشرين سنة وكان المجاورون له فى أقبح صورة من كثرة غزواته لهم وقتله وأسره رجالهم وسبى نسائهم فسير اليهم السلطان العساكر ولكنها لم تبلغ منه غرضا ولما أعضل داؤه ندب لقتاله الامير أنوشتكين شيركير صاحب آبه وساوة وغيرهما فملك منهم عدة قلاع وكان كلما ملك قلعة سير بمن فيها الى الموت ولما تهيأت له الجنود وأمده السلطان بعدة من أمرائه سار الى الموت فحصرها وكان أنوشتكين من بين أولئك الامراء صاحب القريحة والبصيرة في قتالهم مع جودة رأى وشجاعة فبنى عليها مساكن يسكنها هو ومن معه وعين لكل طائفة من الامراء أشهرا يقيمونها فكانوا يغيبون ويحضرون وهو ملازم الحصار وكان السلطان ينقل اليه الميرة والذخائر والرجال فضاق الامر على الباطنية وعدمت عندهم الاقوات وغيرها فلما اشتد عليهم الامر أنزلوا نساءهم وأبناءهم مستأمنين ويسألون أن يفرج لهم ولرجالهم عن الطريق ويؤمنوا فلم يجابوا الى ذلك وأعادهم الى القلعة قاصدا أن يموت الجميع جوعا وكان ابن الصباح يجرى على كل رجل منهم فى اليوم رغيفا وثلاث جوزات فلما بلغ بهم الامر الى الحد الذى لا مزيد عليه بلغهم موت السلطان محمد فقويت نفوسهم وطابت قلوبهم ووصل الخبر الى العسكر المحاصر لهم

بعدهم بيوم فعزموا على الرحيل فقال لهم شيركيران رحلنا عنهم وشاع الامر نزلوا الينا وأخذوا ما أعددنا من الاقوات والذخائر والرأى أن نقيم على قلعتهم حتى نفتحها وان لم يمكن المقام فلا بد من مقام ثلاثة أيام حتى ينفد منا ثقلنا وما أعددنا ونحرق ما نعجز عن حمله لئلا يأخذه العدو فلما سمعوا قوله أجابوه ولكنهم لما أمسوا رحلوا من غير مشاورة فتبعهم شيركير فغنم الباطنية ما تخلف عندهم

هذا حالهم وما أثاروه من الفتن والنكبات الى وفاة السلطان محمد بن ملكشاه وسنذكر بعد خاتمة أمرهم

خطر المغرب

كما كان اختلاف آل سلجوق وتفرق كلمتهم سبباً لنكبتهم بالباطنية كذلك كان سبباً لنكبتهم من المغرب بالحروب الصليبية وليس غرضنا الآن أن نشرح هذه الحروب شرحا وافياً فانها حوادث أجيال اذ قد استمر أمرها من سنة ٤٩٠ الى سنة ٦٩٠ أي قرنين كاملين اشترك فيها من الدول الاسلامية الدولة الفاطمية بمصر ودولة السلاجقة ودول الاتابكية التى تفرعت عن السلاجقة ودولة الايوبية ودولة المماليك البحرية بمصر ولما كنا الآن فى اقتصاص أحوال آل سلجوق نسوق من أخبار هذه الحروب ما ارتبط بتاريخهم

امتد سلطان السلاجقة على بلاد الروم (أرمينية والاناضول) وتأسست هناك دولة سلجوقية عظيمه الشأن بقونية وأقصرا وما اليهما وأخذوا بمخنق الروم ففقدوا كل حيلة في استرداد ما أخذ منهم لقوة الهاجمين وخافوا على ما بقى لهم من الاملاك في آسيا . وكان ملك السلاجقة الروميين فى أيام تلك الحوادث السلطان قليج ارسلان داود بن سليمان بن قتلمش (٤٨٥ — ٥٠٠)

وكذلك امتد على بلاد سوريا وتأسست لهم بها دولة حاضرتها دمشق وكان سلطانها في هذه الحوادث السلطان رضوان بن تتش بن ألب ارسلان وكان بينه وبين أخيه دقاق بن تتش حروب سببها المنافسة في الملك

وكان خليفة مصر الفاطمي هو المستعلي بالله أبو القاسم احمد بن المستنصر (٤٨٧ – ٤٩٥)

كان البيت المقدس مما ملكه تاج الدولة تتش بن ألب ارسلان مؤسس الدولة السلجوقيـة بسوريا فأقطعه للامير سقمان بن أرتق التركماني فاستمر في حوزته الى سنة ٤٨٩ وهي السنة التي سار فيهـا الصليبيون قاصدين فى الظاهر الاستيلاء عليه وتخليصه من أيدى هؤلاء المغتصبين

وقد اضطربت كلمة المؤرخين من العرب في السبب الذى حدا بأولئك المغيرين الى الخروج من بلادهم بهذه الشدة والكثرة فقال فريق منهم ان هذه الحملة كانت في الاصل موجهة الى شمال افريقية وكانت اذ ذاك تحت يد الدولة الزيرية والقائم بالامر فيها تميم بن المعز بن باديس (٤٥٣ – ٥٠١) وكان رجار الصقلي قد قام في عهده واستولى على صقلية وحارب تميما في عقر داره حروبا كانت بينهما سجالا ولمـا بلغ رجار ما عزم عليه الصليبيون لم يعجبه لانه قال اذا وصلوا الي أحتاج الى كلفة كثيرة ومراكب تحملهم الى افريقية وعساكر من عندي ايضا فان فتحوا البـلاد كانت لهم وصارت المؤنة لهم من صقلية وينقطع عني ما يصل من المال من ثمن الغلات كل سنة وان لم يفلحوا رجعوا الى بلادي وتأذيت بهم ويقول تميم غدرت بى ونقضت عهدي وتنقطع الوصلة والاسفار بيننا وبلاد افريقية باقية لنـا متى وجدنا قوة أخذناها . ومن أجل ذلك أشار على هؤلاء المتحمسين بقصد بيت المقدس لان الجهاد في تخليصه أعظم أثرا وأبقى فخرا

وقال فريق آخر ان أصحاب مصر من العلويين لمـا رأوا قوة الدولة السلجوقية وتمكنها واستيلاءها على بلاد الشام الى غزة ولم يبق بينهم وبين مصر ولاية أخرى تمنعهم وقد دخل بعضهم فعلا الى بلاد مصر لما رأوا ذلك خافوا وأرسلوا الى الفرنج يدعونهم الى الشام ليملكوه ويكون بينهم وبين المسلمين

وقال فريق من غيرهم ان ملك الروم هو الذي دعا الافرنج الى ذلك لما خاف

على دولته من السلاجقة فانهم كما أخافوا المصريين أخافوا الروم فكل من الفريقين خائف وجل

والذي عليه جمهور المؤرخين أن الغيرة الدينية التى أثارها في أوربا بطرس الراهب بمساعدة البابا أوربانس الثانى هي التى هاجت أنفس الافرنج لهذه الاغارة

وكل هذه الاسباب لا يبعده العقل ولا يبعد أن يكون بعضها قد ساعد بعضا والافرنج يميلون الى جعلها حربا دينية لا سياسية أثار غبارها ما كان من حمية الجاهلية في ذلك العصر

. زار بطرس الراهب البيت المقدس فعز عليه ما رآه من ملك المسلمين لهذا البيت الذى فيه آثار المسيح عليه السلام فعاد الى أوربا شاكيا باكيا مستغيثا متضرعا واستعان بسلطان البابا أوربانس الثاني الذى كان اذ ذاك صاحب الكلمة العليا في أوربا فأعانه وعقد المؤتمرات لبث الحمية الدينية في قلوب المسيحيين فنجح فى ذلك ولاسيما أنه أعطى امتيازات لها قيمة لمن يتطوع فى هذه الحرب فتألفت جيوش عظيمة سارت الى طلبتها في ١٥ أغسطس سنة ١٠٩٦ (٤٨٩) يقدمها بطرس الراهب وغيره الا أن هذه الحملة لم تنجح فى مسيرها لانها لم تكن ذات نظام عسكرى فعاثت في الارض فسادا فقاومها البلغاريون والهونغريون وأفنوا كثيرا منها والذين تخلصوا وجازوا البحر عند القسطنطينية الى آسيا أخذتهم سيوف السلطان قليج ارسلان عند قونية فلم ينجح منهم أحد وهذه هى الحملة الاولى من الحرب الصليبية الاولى

قام على أثرها حملة أخرى وهى الحملة الثانية يقدمها غودافرو دى بوليون دوق دى لورين السفلى ومعه عدد وافر من قواد فرنسا والنمسا وجيش آخر يقدمه هوكز أخو ملك فرنسا ومعه عدد من القواد وجيش ثالث يقدمه بوهيمند أمير تارنت الايطالى

سارت هذه الجيوش ومرت بالقسطنطينية بعد خطوب نالتهم من ملك الروم اليكسيوس ثم عبرت المجاز قاصدة مدينة قونية التى كانت من أعمال قليج ارسلان وعددهم عظيم جدا فلقيهم ذلك السلطان مدافعا عن ملكه فتغلب عليه الصليبيون

لكثرة عددهم ثم حصروا قونية نحو خمسين يوما وفى نهايته سلمت حامية هذه المدينة لكنها لم تسلم للصليبيين بل سلمت لقائد ملك الروم الذى أرسل مع الصليبيين لهذه الغاية وكان هذا العمل سببا لغيظ قوادهم أصاب هذا الجيش بعد ذلك نكبات شديدة جدا فى مسيره ففني كثير منه بالحرب والجوع والتعب والاوبئة والاختلاف الكثير بين القواد الذين كان لكل منهم مقصد في العلو والرفعة وقد انفصل عنهم وهم سائرون أحد القواد وهو بودوين وسار الى الجزيرة الفراتية فامتلك مدينة الرها وكانت للروم اذ ذاك

سار القوم الى أنطاكية وكان حاكمها أحد قواد السلجوقية باغيسيان فحصروها تسعة اشهر وظهر من شجاعة باغيسيان وجودة رأيه وحزمه واحتياطه ما لم يشاهد من غيره فهلك أكثر الفرنج وبعد هذا الحصر استولوا على المدينة بخيانة أحد المستحفظين للابراج الذي بذل له الافرنج مالا وأقطاعا وكان الافرنج قد كاتبوا صاحب حلب ودمشق اننا لا نقصد غير البلاد التى كانت للروم لا نطلب سواها وانما فعلوا ذلك معهم حتى لا يساعدوا صاحب أنطاكية وقد كان ما أرادوا . سار الافرنج بعد ذلك الى معرة النعمان فامتلكوها

كان البيت المقدس فى تلك الايام قد خرج من حوزة السلاجقة وامتلكه المصريون فانهم لمـا علموا بما أصاب الاتراك على أنطاكية أرسـلوا جيشاً يقدمه الافضل بن بدر الجمالي فاستولى عليه من يد الامير سقمان بن أرتق التركماني واستناب فيه رجلا يعرف بافتخار الدولة وهو الذى تلقى حملة الصليبيين الذين حضروا اليـه بعد أن حصروا عكا ولم يقدروا على فتحها . حصروا البيت المقدس نيفاً وأربعين ليلة وأخيرا استولوا عليه فى يوم الجمعة لسبع بقين من شعبان سنة ٤٩٢ ولم يكن منهم ما يحمد عليه المحارب الشجاع بل أساؤا معاملة أهليه وقتلوا منهم خلقا كثيرا وورد المستنفرون من الشام في رمضان الى بغداد صحبة القاضى أبي سعيد الهروي فأوردوا فى الديوان كلاما أبكى العيون وأوجع القلوب وقاموا بالجامع يوم الجمعة فاستغاثوا وبكوا

وأبكوا والسلطانان السلجوقيان بركياروق ومحمد اذ ذاك يتطاحنان يريد كل منهما الانفراد بالملك واقصاء أخيه عنه

ولما تم للافرنج ما طلبوا من الاستيلاء على البيت المقدس انتخبوا القائد غودافرو ليكون ملكا هناك ولكنه لم يرض أن يلقب بلقب ملك بل بمحامى قبر المسيح وأقام معه بعض الجنود ورحل سائرهم الى أوطانهم

وضع غودافرو قانونا لادارة مملكته الجديدة الا أن زمنه لم يطل فانه توفي في ١٨ يوليو سنة ١١٠٠ فأقيم مقامه بودوين ملك الرها وشقيق غودافرو وأعلم بذلك فقبله وأقام بدله في ملك الرها ابن عمه بودوين دى بورغ ملكا على الرها وسار هو الى حاضرة ملكه وهو المعروف في التواريخ العربية باسم بردويل . هكذا وجدت مملكة افرنجية فى وسط أملاك المسلمين لاول مرة ولم يتركها المسلمون براحة بال ولا هى تركتهم بل كانت الحروب متصلة بين الطرفين المصريون يناوشونهم من الجنوب والاتراك من الشرق . ولم تكن المملكة الافرنجية واحدة فى البلاد التى استولوا عليها بل كانت جملة ممالك مملكة القدس وانطاكية والرها وغير ذلك الا أن المملكة الكبرى كانت مملكة القدس . وسنتكلم في حوادثها عند ظهور الدولة الاتابكية والدولة الايوبية اللتين أججتا نار الحرب مع هؤلاء الافرنج

٢٩ — المسترشد بالله

هو أبو منصور الفضل المسترشد بالله بن المستظهر ولاه أبوه بالعهد فبويع بالخلافة فى اليوم الذى توفي فيه والده ١٦ ربيع الآخر سنة ٥١٢ (٧ أغسطس سنة ١١١٨) واستمر خليفة الى أن قتل في يوم الاحد ١٧ ذى القعدة سنة ٥٢٩ (٣٠ أغسطس سنة ١١٣٥)

كان سلطان العراق لاول عهده هو السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه وكان السلطان سنجر بن ملكشاه فى ذلك الوقت ملك خراسان وما اليها من بلاد وما وراء النهر الى غزنة وخوارزم وقد عظمت دولتــه وهو شيخ البيت السلجوقى وعظيمه . فلما توفى أخوه محمد وجلس ابن أخيه محمود وهو زوج ابنته لحقه لوفاة أخيه حزن أليم وجزع شديد وجلس للعزاء على الرماد وتقدم الى الخطباء بذكر السلطان محمد بمحاسن أعماله من قتــال الباطنية واطلاق المكوس وغير ذلك وكان يلقب ناصر الدين فلما توفى أخوه تلقب معز الدين وهو لقب أبيه ملكشاه وعزم على قصد الجبل والعراق وما بيدابن أخيهمحمود . ثم ان السلطان محمودا أرسل الى عمه سنجر وفدا معه الهدايا والتحف وطلب اليه أن ينزل له عن مازندران فغاظه هذا الطلب وقال ان ولد أخى صبى وقد تحكم عليه وزيره وحاجبه وصمم على المسير فسار وكذلك فعل السلطان محمود والتقيا عند الري بالقرب من ساوة وكان العسكر المحمودي قد استهان بالعسكر السنجري لكثرة الاولين وشجاعتهم وكثرة خيلهم ولمــا حصل اللقاء انهزمت ميمنة سنجر وميسرته وسارت جنودهما لا تلوي على شئ أما سنجر فكان واقفاً فى القلب وأمامه السلطان محمود وقد أشار بعض المقربين من سنجر عليــه أن ينهزم فقال إما النصر وإما القتل وأما الهزيمة فلا وهجم بفيلته على قلب محمود هجوما شديدا فتراجعت خيل محمود على أعقابها وكان بذلك هزيمة السلطان محمود ولما تم النصر لسنجر أرسل من رد المنهزمين من جنده ووصل الخبر الى بغداد فى عشرة أيام فأشير على الخليفة بالخطبة للسلطان سنجر ففعل . أما محمود فانه سار الى أصبهان ومعه وزيره وبعض أمرائه وأما سنجر فسار الى همذان وهناك راسل ابن أخيه فى الصلح وكانت والدة سنجر تشير عليه بذلك وتقول قد استوليت على غزنة وأعمالها وما وراء النهر وملكت ما لا حد عليــه وقررت الجميع على أصحابه فاجعل ولد أخيك كأحدهم فأجاب الى قولها وبعــد مطاولات تقرر الصلح وسار محمود الى عمه سنجر ونزل على جدته أم السلطان سنجر وأكرمه عمه وبالغ فى اكرامه وحمل له محمود هدية عظيمة فقبلهــا

ظاهرا وردها باطنا ولم يأخذ منه سوى خمسة أفراس عربية وكتب السلطان سنجر الى جميع أعماله أن يخطب لمحمود من بعده حيث جعله ولي عهده ورد عليه جميع ما أخذه منه سوى الري

ولم يكد السلطان محمود ينتهي من هذا النزاع بينه وبين عمه حتى قام ضده أخوه مسعود بن محمد وكان لمسعود حينئذ الموصل وأذربيجان وذلك سنة ٥١٤ وقد أجج الامراء نار هذا الخلاف لينالوا من وراء ذلك حظوظهم ولا يبالون بالمملكة الافرنجية التي صارت شوكة فى جنوبهم وكان وزير مسعود هو الاستاذ أبو اسمعيل الحسين بن على الاصفهاني وهو الذى حسن لمسعود أن يقوم مطالبا بالمملكة ولما بلغ ذلك محمودا كتب اليهم يخوفهم ان خالفوه ويعدهم الاحسان ان أقاموا على طاعته وموافقته فلم يصغوا الى قوله وأظهروا ما كانوا عليه وما يسرونه وخطبوا للملك مسعود بالسلطنة وضربوا له النوب الخمس ثم سار كل منهم الى لقاء صاحبه فالتقوا عند عقبة أسداباذ واقتتلوا من بكرة الى آخر النهار وأبلت الجنود المحمودية بلاء حسنا فانهزم عسكر محمود آخر النهار وأسر جماعة من مقدمى جنودهم ومنهم الوزير أبو اسمعيل الطغرائى فأمر السلطان بقتله وقال قد ثبت عندى فساد دينه واعتقاده وكان حسن الكتابة والشعر

ثم أرسل محمود وراء أخيه من لحقه وأتى به بعد أن بذل له الامان

فاستقبله استقبالا عظيما وفي له بما بذله وخالطه بنفسه في كل أفعاله فعد ذلك من مكارم محمود ولا عجب فقد علمه ذلك عمه سنجر

كان الخليفة المسترشد بالله في هذا العصر قد استرد شيئا من نشاط الخلفاء العباسيين وقاد الجيوش بنفسه لحرب المخالفين عليه وأهمهم دبيس بن صدقة ملك الحلة ولم يكن للخلفاء عهد بذلك منذ زمن طويل ولا شك ان الملوك السلجوقيين لا يقع ذلك عندهم موقع الاستحسان فانهم يتخوفون عاقبته ويرون منه خطرا على نفوذهم ومما يدل على ان ذلك منحه قوة لم تكن لسلفه أن شحنة بغداد برنقش الذكوى

حصل بينه وبين نواب الخليفة نفرة فتهدده الخليفة فخاف فسار عن بغداد الى السلطان محمود وشكا اليه وحذره جانب الخليفة وأعلمه انه قاد العساكر ولقى الحروب وقويت نفسه ومتى لم تعاجله بقصد العراق ودخول بغداد ازداد قوة وجمعا ومنعك عنه وحينئذ يتعذر عليك ما هو الآن بيده فاثر ذلك الكلام في نفس السلطان وتوجه نحو العراق فأرسل اليه الخليفة يعرفه ما البلاد وأهلها عليه من الضعف والوهن وان الغلاء قد اشتد بالناس لعدم الغلات والاقوات لهرب الاكرة ويطلب منه أن يؤخر حضوره حتى تصلح الاحوال وبذل له على ذلك مالا كثيرا فكان هذا مما زاد فى اغراء السلطان على قصد بغداد فسار اليها مجدا ولما بلغ الخليفة الخبر أظهر الغضب والنزوح عن بغداد واستعد لذلك ان جاء السلطان فأثر ذلك في أنفس العامة تأثيرا عظيما حتى أكثروا البكاء والضجيج ولما علم السلطان بذلك أرسل يستعطف الخليفة ويطلب اليه العودة الى داره فأبى الا أن يعود السلطان ولا يحضر الى بغداد فلم يلتفت السلطان الى قوله واستمر قاصدا بغداد أما الخليفة فاستعد لمقابلته بالقوة وكان معه كثير من العامة والجند يدافعون عنه تدينا وقد حصلت مناوشات بين الفريقين في أول سنة ٥٢١ وكان مع كل جمع عظيم ولما رأي المسترشد بالله ذلك جنح الى الصلح الذى طلبه السلطان محمود فتم ذلك وكان أعداء الخليفة يشيرون على السلطان باحراق بغداد فلم يفعل وقال لا تساوى الدنيا فعل مثل هذا وأقام ببغداد الى رابع شهر ربيع الآخر سنة ٥٢١ ثم فارقها بعد أن حمل اليه الخليفة الخلع والدواب الكثيرة

وفى سنة ٥٢٤ ملك السلطان محمود قلعة الموت من يد صاحبها الحسن بن الصباح

وفي سنة ٥٢٥ توفى السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه وكان حليما كريما عاقلا يسمع ما يكره ولا يعاقب عليه مع القدرة قليل الطمع في أموال الرعايا عفيفا عنها كافا لاصحابه عن التطرق الى شيء منها

لما توفى خطب لولده داود بالسلطنة في بلاد الجبل واذربيجان الا انه قام ضده ابن عمه السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه فكان الظفر لمسعود وخطب له بالسلطنة

على منابر بغداد الا أن هذا لم يرق لعميد البيت ورئيسه السلطان سنجر فاقبل من خراسان قاصدا دفع مسعود عن السلطنة وسار اليه مسعود فالتقيا بعولان عند الدينور وكانت النتيجة أن انهزم مسعود وفل جيشه وتحكم سنجر فيما بقي ثم أرسل وراء ابن أخيه من يرده فردوه اليه فلما حضر عنده قبله وأكرمه وعاتبه على عصيانه ومخالفته ولم يعده الى السلطنة بل رده الى كنجه وأجلس الملك طغرل ابن أخيه محمد مكانه وخطب له في جميع البلاد ثم عاد الي نيسابور فلما رأى ذلك مسعود خرج من مكمنه وتوجه الى بغداد ثانيا بما جمعه من الجيوش فدخلها فقابله الخليفة بالاكرام ووعده أن يرسل معه جيشا لمحاربة طغرل وقد وفى بما وعد فسارت الجنود المسعودية صوب طغرل حتى التقوا به عند همذان فكانت بينهما موقعة انهزم فيها طغرل واستقر الامر ثانية للسلطان (غياث الدنيا والدين أبي الفتح مسعود بن محمد بن ملكشاه

كان هذا الخلاف بين البيت السلجوقى مقويا للمسترشد فصار يعد نفسه صاحب الامر الذى يجب أن يطاع لا بالقوة المعنوية وحدها بل بقوة السيف أيضا فقد صار تحت أمره أجناد ورجال يلبون دعوته وينفذون كلمته وقد حصل بسبب ذلك نفرة بينه وبين السلطان مسعود أدت الى أن أمر الخليفة بقطع خطبة مسعود من منابر بغداد ولم يقف عند ذلك بل تجهز بجيشه يريد حرب مسعود بدار سلطنته ومعه الجنود الكثيرة الا أنها لم تكن ذات عصبية تصدق عند اللقاء فان العصبية الجنسية غلابة مهما كانت الاحوال ولذلك لما التقى الطرفان انحاز كثير من عسكر الخليفة الاتراك الى السلطان مسعود فانهزم جند الخليفة أما هو فبقى ثابتا حتى اسر ولما بلغ ذلك الخبر بغداد قامت قيامة اهلها وخرجوا من الاسواق يحثون التراب على رءوسهم ويبكون ويصيحون وخرج النساء حاسرات فى الاسواق يلطمن

أما الخليفة فقد جعله السلطان فى خيمة ووكل به من يحفظه وقام بما يجب من خدمته وترددت الرسل بينهما فى تقرير قواعد الصلح على مال يؤديه الخليفة وألا يعود الى جمع العساكر وألا يخرج من داره فأجيب الى ذلك ولم يبق الا ان يعود

الخليفة الى بغداد الا أنه صادف ان هجم على خيمة الخليفة جماعة من الباطنية فقتلوه ومثلوا به وكان ذلك في يوم الاحد ١٧ ذى القعدة على باب مدينة مراغة وكان المسترشد شهما شجاعا ،كثير الاقدام بعيد الهمة وكان فصيحا بليغا حسن الخط قال ابن الاثير ولقد رأيت خطه في غاية الجودة ورأيت أجوبته على الرقاع من أحسن ما يكتب وأفصحه ولقد حاول أن يعيد شيئاً من مجد أهل بيته فحالت الاقدار بينه وبين ما أراد

٣٠ـ الراشد بالله

بويع بالخلافة بعد المسترشد بالله ابنه أبو جعفر المنصور الراشد بالله وكان ولى العهدفلما مات أبوه جددت له البيعة فى ٢٧ من ذى القعدة وكتب السلطان الى شحنة بغداد بالبيعة له وحضر بيعته ٢١ رجلا من أولاد الخلفاء

لم يكن السلطان مسعود مع الراشد أسعد حظا من أبيه معه بل حاول الراشد أن يثأر لابيه ويخل سلطنة مسعود فاتفق مع داود بن السلطان محمود أخى مسعود ومع كثير من أمراء الاطراف على مقاومة مسعود وخلعه ولما سمع بذلك مسعود أقبل مسرعا صوب بغداد ولما وصلها حصرها لامتناع الخليفة ومن معه بها ولكن سرعان ما اختلفت كلمة الامراء الذين حالفوا الخليفة وتفرقوا تاركين بغداد حتى أ كبرهم شأنا عماد الدين زنكي صاحب الموصل ولما رأى الخليفة ذلك بارح بغداد في رفقة عماد الدين ولما رأى مسعود ذلك دخل بغداد ظافرا وأمر فجمع القضاة والشهود والفقهاء وعرضوا عليهم اليمين التى حلف الراشد بالله لمسعود وفيها بخط يده اني متى جندت أو خرجت أو لقيت أحدا من أصحاب السلطان بالسيف فقد خلعت نفسى من الامر . فافتوا بخروجه من الخلافة . وكانت خلافته ١١ شهرا و ١١ يوما

٣١ - المقتفى لامر الله

هو أبو عبد الله الحسين المقتفى لامر الله بن المستظهر اختاره السلطان مسعود للخلافة بعد أن كتب محضر بخلع ابن أخيه الراشد من الخلافة وكانت بيعته فى ثامن ذى الحجة سنة ٥٣٠ (٧ سبتمبر سنة ١١٣٦) واستمر في الخلافة الى أن توفى ثاني ربيع الاول سنة ٥٥٥ (١٢ مارس سنة ١١٦٠) فكانت خلافته ٢٤ سنة وثلاثة أشهر و١٦ يوما وكان عمره اذ توفى ٦٦ سنة

ولما بايع السلطان المقتفى صاهره فزوجه أخته فاطمة على صداق مائة الف دينار وبذلك أمن السلطان أن يكون الخليفة ضده . وقد حاول الخليفة المعزول أن يعيد لنفسه الخلافة فاتحد مع الملك داود ابن السلطان محمود ولكنه مع مابذل من المجهود العظيم لم ينجح فقد ائتمر به جماعة من الباطنية فسقوه الردي بنواحى أصفهان

استمر السلطان مسعود في سلطانه مع كثرة المخالفين والخارجين عليه من أهل بيته ومن أمرائه الى أن توفى سنة ٥٤٧ بهمذان وذلك على رأس مائة سنة من الخطبة ببغداد للسلطان طغرلبك وماتت مع مسعود سعادة البيت السلجوقى فلم تقم له بعده راية يعتمد بها ولا يلتفت اليها . وكان رحمه الله حسن الاخلاق كثير المزاح والتبسط مع الناس وكان كريما عفيفا عن أموال الرعية حسن السيرة فيهم من أصلح السلاطين سيرة وألينهم عريكة سهل الاخلاق وكان مسعود قد عهد بالسلطنة بعده لابن أخيه ملكشاه ابن السلطان محمود

أما الخليفة فانه لما بلغه وفاة مسعود طرد شحنة السلجوقية بها وأخذ داره ودور أصحاب السلطان ببغداد وأخذ كل مالهم فيها وكل من عنده وديعة لاحد منهم أحضرها بالديوان وجمع الرجال والعساكر وأكثر التجند وتقدم باراقة الخمور من

مسا كن أصحاب السلطان وأرسل جنوده فاستولت على سائر البلاد العراقية الحلة وواسط وغيرها وخرج بنفسه ليقوى جنده

أصبح ذلك الملك العظيم الذى أسسه طغريل بك واخوته ورفع بنيانه ملكشاه أصبح نهبا تقاسمته دول شتى تعرف بالدول الاتابكية وها نحن أولاء نقص حديثها

الاتابكية

من الدول التركية التى زاحمت دولة السلاجقة وسامتها الدول الاتابكية و بيوتها شتى لاتنتهى الى نسب واحد الا أنها يجمعها الاتصال بالبيت السلجوقى — واتابك كلمة تركية معناها مربي الملك فكان آل سلجوق اذا امتاز أحد قوادهم بهذا الامتياز أطلقوا عليه هذا اللقب واستحق به أعلى درجات التكريم والاحترام

قد وصل بعض هؤلاء الاتابكية الى درجة الملك في بعض الاقاليم الاسلامية وأورثوا أبناءهم ملكهم ويطلق على هؤلاء الاسر الاتابكية ومعهم دول ينتسبون أيضاً الى ولاء السلاجقة ولا يلقبون بهذا اللقب بل بلقب شاهات وسنسوق أخبارها بالاجمال حسب ترتيب ظهورها

١ - شاهات خوارزم

ينسبون الى محمد بن أنوشتكين وكان أبوه أنوشتكين مملوكا لامير من أمراء السلجوقيين اسمه بلكباك اشتراه من رجل من غرشستان فقيل له أنوشتكين غرشمه فكبر وعلا أمره وكان حسن الطريقة كامل الاوصاف وكان مقدما مرجوعا اليه وولد له ولد سماه محمد . وهو باني هذا البيت علمه أبوه وخرجه وأحسن تأديبه وتقدم بنفسه

بالعناية الالهية فولاه الامير حبشي قائد بن يلسوق خوارزم ولقبه خوارزمشاه فقصر أوقاته على معدلة ينشرها ومكرمة يفعلها وقرب أهل العلم والدين فازداد ذكره حسنا ومحله علوا . ولما ملك السلطان سنجر خراسان أقر محمد خوارزمشاه على خوارزم وأعمالها فظهرت كفايته وشهامته فعظم سنجر محله وقدره . ولم يزل على جلالة القدر والكفاية الى أن توفى سنة ٥٢١ فولى بعده ابنه اتسز فقربه السلطان سنجر وعظمه واعتضد به واستصحبه معه فى أسفاره وحروبه فظهرت منه الكفاية والشهامة فزاده تقدما وعلوا ورسخت أقدام هذا البيت في الملك وقد استمر الى سنة ٦٢٨ حيث زال على أيدى التتر الذين هاجموا البلاد الاسلامية بزعامة جنكيزخان كما سيأتي توضيحه وهذا ثبت ملوك الخوارزمشاهية

(١) أنوشتكين ٤٧٠ — ٤٩٠
(٢) قطب الدين محمد بن أنوشتكين — ٥٢١
(٣) أتسز بن محمد — ٥٥١
(٤) ارسلان بن أتسز — ٥٦٨
(٥) سلطان شاه محمود بن ارسلان — ٥٦٨
(٦) تكش بن ارسلان — ٥٩٦
(٧) علاء الدين محمد بن تكش — ٦١٧
(٨) جلال الدين منكبرتي بن محمد — ٦٢٨

وعلى يد هذه الدولة انقضت دولة السلاجقة بخراسان وما اليها من بلاد الري والجبل وما وراء النهر

٢ - الدولة الارتقية

تنسب هذه الدولة الى ارتق بن اكسب التركمانى وهو مملوك من مماليك السلطان ملكشاه السلجوقى وقائد من قواده

وأول من أسس هذا البيت معين الدولة سقمان بن ارتق استولى على حصن كيفا سنة ٤٩٥ من يد الامير موسى التركماني فى عهد السلطان بركياروق بن ملكشاه ثم ضم اليها ماردين

وفى سنة ٥٠٢ انقسمت هذه المملكة الصغيرة الى مملكتيه احداهما بالحصن والتانية بماردين فأما مملكة الحصن فاستمرت الى سنة ٦٢٠ وانتهت على أيدى الايوبيين — وأما مملكة ماردين فاستمرت الى سنة ٨١١ أى بعد ظهور آل عثمان بمائة واحدي عشرة سنة وانتهت على يد قره قيونلى وهذه أسماء ملوك الحصن

(١) معين الدين سقمان بن ارتق	٤٩٥ — ٤٩٨
(٢) ابراهيم بن سقمان	— ٥٠٢
(٣) ركن الدين داود بن سقمان	— ٥٤٣
(٤) قمر الدين قره ارسلان بن داود	— ٥٧٠
(٥) نور الدين محمد بن ارسلان	— ٥٨١
(٦) قطب الدين سقمان بن محمد	— ٥٩٧
(٧) ناصر الدين محمود بن محمد	— ٦١٩
(٨) ركن الدين مودود بن محمود	— ٦٢٠

وهذه أسماء ملوك ماردين

(١) نجم الدين غازي بن ارتق	٥٠٢ — ٥١٦

(٢) حسام الدين تيمورتاش بن غازي	٥٤٧ —
(٣) نجم الدين البي بن تيمورتاش	٥٧٢ —
(٤) قطب الدين غازي بن البي	٥٨٠ —
(٥) حسام الدين يولق بن ارسلان بن غازي	٥٩٧ —
(٦) ناصر الدين ارتق ارسلان بن غازي	٦٣٧ —
(٧) نجم الدين غازي بن ارتق ارسلان	٦٥٨ —
(٨) قره ارسلان بن غازي	٦٦١ —
(٩) شمس الدين داود بن قره ارسلان	٦٩٣ —
(١٠) نجم الدين غازي بن قره ارسلان	٧١٢ —
(١١) شمس الدين صالح بن غازي	٧٦٥ —
(١٢) المنصور أحمد بن صالح	٧٦٩ —
(١٣) الصالح محمود بن أحمد	٧٦٩ —
(١٤) المظفر داود بن صالح	٧٧٨ —
(١٥) الظاهر مجد الدين عيسي بن داود	٨٠٩ —
(١٦) صالح بن داود	٨٠٩ — ٨١١

وصالح هذا آخر ملك من موالى السلجوقيين

٣ — اتابكية دمشق

ابتدأت هذه الدولة سنة ٤٩٧ وأول ملوكها سيف الاسلام ظهير الدين طغتكين وأصله مملوك للملك تتش بن الب ارسلان أول سلاجقة سوريا ثم صار من قواده الذين يعتمد عليهم وكان اتابك ولده دقاق . وبعد قتل تتش استمر مع ولده دقاق

وكان سنده وظهيره فلما توفى دقاق سنة ٤٩٧ خطب اتابك لولد له صغير وجعل اسم المملكة فيه سنة واحدة ثم قطع خطبته وخطب لبكتاش بن تتش عم هذا الطفل وله من العمر ١٢ سنة وأشار عليه أن يقصد الرحبة فقصدها فملكها ولما عاد منها منعه طغتكين من دخوله دمشق وأعاد خطبة الطفل ولد دقاق . وقد حاول بكتاش أن يسترد ملكه واستعان على ذلك بملك الافرنج في القدس فلم ينجح واستمر ملك دمشق لطغتكين فأحسن الى الناس وبث فيهم العدل فسروا به سرورا كثيرا وقد استمر الملك في عقبه ٥٢ سنة وانتهى على يد آل زنكي سنة ٥٤٩ وهذا ثبت ملوكهم

(١) سيف الاسلام ظهير الدين طغتكين	٤٩٧ – ٥٢٢
(٢) تاج الملوك بورى	– ٥٢٦
(٣) شمس الملوك اسمعيل	– ٥٢٩
(٤) شهاب الدين محمود	– ٥٣٣
(٥) جمال الدين محمد	– ٥٣٤
(٦) مجير الدين أبق	– ٥٤٩

٤ – اتابكية الموصل

ابتدأت هذه الدولة سنة ٥٢١ وتنسب الى عماد الدين زنكى بن أق سنقر وكان أق سنقر مملوكا للسلطان ملكشاه بن الب ارسلان السلجوقى وكان معدودا من كبار القواد جعله ملكشاه من قواد أخيه تتش ولما ملك حلب استنابه فيها ثم التحق بالسلطان بركيا روق بعد وفاة ملك شاه وسار في خدمته . وكان تتش يمني نفسه بملك العراق فجهز الجيوش ليسطو عليها فأرسل بركيا روق اليه الجنود عليهم أق سنقر فالتقى الفريقان عند نهر سبعين قريبا من تل السلطان بينه وبين حلب ستة فراسخ واقتتلوا

فانهزم من مع أق سنقر وثبت هو فأسر ثم قتل صبرا وكان أحسن الامراء سياسة وحفظا لرعيته

وقد نشأ ابنه اتابك عماد الدين زنكى فى كهف الدولة السلجوقية واهتم به ملوكهم لما لابيه من الايادى البيضاء في حفظ بيتهم ولانه قتل فى الدفاع عنهم فنشأ نشأة عالية ذا همة مقداما وكانوا يستعينون به في مهماتهم فيكفيهم اياها وما زال ينبه ذكره وتقوى همته حتى ولاه السلطان محمود مدينة الموصل سنة ٥٢١ ليقوم بحفظها واصلاح شأنها وجعله اتابك ولده فروخ شاه المعروف بالخفاجي ليربيه

أظهر زنكى في ولايته كفاية وقوة وصلاحا وكان له في جهاد الصليبيين همة لاتزال تذكر له وهو رأس الاتابكية من بيت زنكى وقد انقسمت الى أربعة دول

الاولى اتابكية الموصل وهذا ثبت ملوكها

(١) اتابك عماد الدين زنكى	٥٢١ — ٥٤١
(٢) سيف الدين غازى بن زنكى	— ٥٤٤
(٣) قطب الدين مودود بن زنكى	— ٥٦٥
(٤) سيف الدين غازى بن مودود	— ٥٧٦
(٥) عز الدين مسعود بن مودود	— ٥٨٩
(٦) نور الدين ارسلا نشاه بن مسعود	— ٦٠٧
(٧) عز الدين مسعود بن ارسلا نشاه	— ٦١٥
(٨) نور الدين ارسلا نشاه بن مسعود	— ٦١٦
(٩) نصير الدين محمود بن مسعود	— ٦٣١
(١٠) بدر الدن لؤلؤ	— ٦٥٧
(١١) اسمعيل بن لؤلؤ	— ٦٦٠

وبدر الدين لؤلؤ ليس من هذا البيت بل هو مولاهم استقل بأمر الملك بعد سيده نصير الدين محمود وقد انتهت هذه الدولة على يد المغول

٥ – اتابكية سوريا

ابتدأت هذه الدولة سنة ٥٤١ وهي السنة التي قتل فيها عماد الدين زنكي فان مملكته انقسمت بين ولديه سيف الدين غازي الذي ملك الموصل ومحمود نور الدين الذي ملك حلب وانتهت سنة ٥٧٧ على أيدي الايوبيين ولم يكن منها الا ملكان أحدهما محمود نور الدين بن زنكي والثاني الصالح اسمعيل بن محمود

ومحمود نور الدين هذا هو أستاذ صلاح الدين يوسف بن أيوب والرجلان كلاهما له القدم الثابتة في جهاد الصليبيين

٦ – اتابكية سنجار

ابتدأت هذه الدولة سنة ٥٦٦ بعد وفاة قطب الدين مودود صاحب الموصل فان بلاده انقسمت بين ولديه سيف الدين غازي بن مودود الذي كان وليّ عهد أبيه وهو أصغر الاخوين وهذا ملك الموصل والثاني عماد الدين زنكي بن مودود وهذا ملك سنجار وما معها بواسطة عمه نور الدين محمود . وانتهت هذه الدولة سنة ٦١٧ على أيدي الايوبيين وهذا ثبت ملوكها

(١) عماد الدين زنكي بن مودود	٥٦٦–٥٩٤
(٢) قطب الدين محمد بن زنكي	–٦١٦
(٣) عماد الدين شاهنشاه	–٦١٦
(٤) عمر	–٦١٧

٧ ـ اتابكية الجزيرة

ابتدأت هذه الدولة سنة ٥٧٦ بعد وفاة سيف الدين غازي بن مودود صاحب الموصل فان بلاده انقسمت بين ولديه عز الدين مسعود وهو الاكبر وهذا ملك الموصل والثاني سنجر شاه بن مسعود وهذا ملك جزيرة ابن عمر وقد بقيت في يد أولاده الى سنة ٦٤٥ حيث أخذها الايوبيون والذين تولوها هم

(١)	معز الدين سنجر شاه	٥٧٦—٦٠٥
(٢)	معز الدين محمود بن سنجر شاه	—٦٤٨
(٣)	مسعود بن محمود	—٦٤٨

٨ ـ اتابكية اربل

ابتدأت هذه الدولة سنة ٥٣٩ أسسها زين الدين على كچك بن بكتكين وهو مملوك تركمانى لعماد الدين زنكي جعله اتابك ولده قطب الدين مودود وقدفتح بلادا كثيرة في بدء الدولة الزنكية كان بيده منها سنجار وحران وقلعة عقر الحميدية وقلاع الهكارية وتكريت وشهرزور وغيرها واستمر كذلك الى سنة ٥٦٣ وقبل أن يموت سلم جميع ما بيده الى قطب الدين مودود ولم يبق له سوى اربل فسار عن الموصل وأقام بها وفي هذه السنة توفي فولى بدله ابنه زين الدين أبوالمظفر يوسف وهوالصغير تعصب له مجاهد الدين قايماز وكان أخوه الاكبر مظفر الدين كوكبورى فحاول أن يكون بدل أبيه فلم يحصل على بغيته فسار الى الموصل وملكها يومئذ سيف الدين غازى بن مودود فأقطعه حران فأقام بها مدة ثم انتقل الى خدمة صلاح الدين يوسف

فحظى عنده وتمكن منه وزاد صلاح الدين في اقطاعه الرها وزوجه اخته وقد حضر معه كثيرا من مشاهده وأظهر نجدة وعزيمة فلما توفي أخوه يوسف سنة ٥٨٣ رده صلاح الدين الى ملكه باربل فاستقر فيه الى أن مات سنة ٦٣٠ وأوصى ببلاده قبل موته للخليفة العباسى فبقيت بأيدى العباسيين الى أن جاء المغول فأخذوها فيما أخذوا

٩ ــ اتابكية اذربيجان

ابتدأت هذه الدولة سنة ٥٣٦ ومؤسسها هو الامير ايلدكز وكان مملوكا للكمال السميرمى وزير السلطان محمود السلجوقى فلما قتل الكمال سار ايلدكز الى السلطان محمود . ولما ولى السلطان مسعود السلطنة ولاه ارانية فمضى اليها ولم يعد يحضر عند السلطان مسعود ولا غيره . ثم ملك أكثر اذر بيجان و بلاد الجبل وهمذان وغيرها وأصفهان والرى وما اليهما من البلاد وخطب بالسلطنة لارسلا نشاه بن طغرل وهو ربيبه وكان عسكره خمسين ألف فارس سوي الاتباع واتسع ملكه من باب تفليس الى مكران ولم يكن للسلطان ارسلان معه حكم انما كانت له جراية تصل اليه وكان ايلدكز عاقلا حسن السيرة يجلس بنفسه للرعية و يسمع شكواهم و ينصف بعضهم من بعض وهذا ثبت ملوك هذا البيت

(١) شمس الدين ايلدكز	٥٣١–٥٦٨
(٢) محمد البهلوان جهان بن ايلدكز	–٥٨١
(٣) قزيل ارسلان عثمان بن ايلدكز	–٥٨٧
(٤) أبو بكر بن محمد	–٦٠٧
(٥) مظفر الدين أزبك بن محمد	–٦٢٢

وقد انتهت دولتهم على أيدى شاهات خوارزم

١٠ – اتابكية فارس (الدولة السلغرية)

ابتدأت هذه الدولة بفارس سنة ٥٤٣ وتنسب الى سلغر أحد قواد التركمان في عهد السلاجقة وكانت نهايتها سنة ٦٨٦ على أيدى المغول وهذا ثبت ملوكها

(١)	سنغر بن مودود بن سلغر	٥٤٣–٥٥٧
(٢)	زنكي بن سنقر	–٥٩١
(٣)	دكلا بن زنكي	٥٨١–٥٩١
(٤)	سعد بن زنكي	–٦٢٣
(٥)	ابو بكر بن سعد	–٦٥٨
(٦)	محمد بن سعد	–٦٦٠
(٧)	محمد شاه بن محمد	٦٦٠
(٨)	سلجوقشاه بن سلغر بن سعد	–٦٦٠
(٩)	ابيش بن سعد بن أبي بكر	–٦٨٦

١١ – اتابكية لورستان (الهزارسبيه)

ابتدأت هذه الدولة سنة ٥٤٣ وهى من فروع الدولة السلغرية اتابكية فارس أسسها أبوطاهر أحد قوادهم وهذا ثبت ملوكهم

(١)	أبو طاهر بن محمد	٥٤٣ – ٦٠٠
(٢)	نصرة الدين هزارسب بن أبي طاهر	– ٦٥٠
(٣)	دكلا بن هزارسب	– ٦٥٧

(٤) شمس الدين الب ارغو بن هزارسب	– ٦٧٣
(٥) يوسف شاه الاول بن الب ارغو	– ٦٨٧
(٦) افراسياب الاول بن يوسف	– ٦٩٦
(٧) نصرة الدين أحمد بن الب ارغو	– ٧٣٣
(٨) ركن الدين يوسف شاه الثاني بن أحمد	– ٧٤٠
(٩) مظفر الدين افراسياب الثاني بن يوسف شاه	– ٧٥٦
(١٠) شمس الدين هو شانج بن افراسياب الثانى	– ٧٨٠
(١١) أحمد	– ٨١٥
(١٢) أبو سعيد	– ٨٢٠
(١٣) حسين	– ٨٢٧
(١٤) غياث الدين	...

وقد انتهت هذه الدولة على أيدي الدولة التيمورية

شاهات أرمينية

ابتدأت دولتهم سنة ٥٨٣ ومؤسسها هو الامير سقمان القطبي بمدينة خلاط وكان مملوكا لقطب الدين اسمعيل الساجوقى صاحب مدينة من اذربيجان ومن ثم قيل له القطبي نشأشهما كافيا وكانت خلاط لبني مروان وظلموا واشتهر عدل سقمان فاتفق أهل خلاط وكاتبوه فجاء وفتحوها له وسلموها اليه وهذه أسماء الملوك من هذا البيت

(١) سقمان القطبي	٤٩٣ – ٥٠٦
(٢) ظهير الدين ابراهيم شاه ارمن	– ٥٢١
(٣) أحمد	– ٥٢٢
(٤) ناصر الدين سقمان	– ٥٧٩

سيف الدين بكتيمور ٥٧٩ – ٥٨٩

كان مملوكا لهم وهو صاحب ميافارقين

بدر الدين أق سنقر ٥٨٩ – ٥٩٤

اسمه هزار ديناري وهو مملوك أق سنقر وزوج بنته

المنصور محمد بن بكتيمور ٥٩٤ – ٦٠٣

عز الدين بلبان ٦٠٤

وقد انتهت دولتهم على أيدي الايوبيين

الدولة الغورية

مما يضاف الى الدول التى حدثت في هذا العهد الدولة الغورية وهى دولة قامت على اطلال الدولة السبكتكينية . تنسب هذه الدولة الى مكان نشأتها وهو الغور وهو جبال وولاية بين هراة وغزنة وهى بلاد باردة واسعة موحشة وهى مع ذلك لاتنطوي على مدينة وأكبر ما فيها قلعة يقال لها فيروزكوه قام بهذه البلاد آل سام من سنة ٥٤٣ وملكوا ما كان يملكه آل سبكتكين من بلاد الغور وأفغان والهند ولم يزل ملكهم قائما الى سنة ٦١٢

وأول من قام من هـذا البيت قطب الدين محمد بن الحسين ملك بلاد الغور وصاهر بهرامشاه مسعود بن ابراهيم صاحب غزنة فعظم شأنه بهذه المصاهرة وعلت همته فعاجله بهرامشاه قبل أن يكون منه حدث عظيم فقتله فعظم قتله على الغورية وولوا بعده أخاه سيف الدين سوري بن الحسين فقوى أمره وتمكن في ملكه فجمع عسكرا كثيرا وسار الى غزنة طالبا بثأر أخيه فلما وصل غزنة ملكها وهرب عنها بهرامشاه الى الهند فجمع جموعا كثيرة وعاد الى غزنة وهوى أهلها معه فخرج سورى الى لقائه

فلما تصاف العسكران أسلم سوري جنوده فقهره بهرامشاه وصلبه واستعاد ملك غزنة سنة ٥٤٤ وكان سوري أحد الاجواد له الكرم الغزير والمروءة العظيمة

اختار الغورية بعده أخاه علاء الدين حسين بن الحسن ولقبه جهان سوز فأعاد الكرة على غزنة سنة ٥٥٠ وملكها وأخرج عنها بهرامشاه واستعمل عليها أخاه سيف الدين محمد وأجلسه على تخت المملكة وخطب لنفسه ولاخيه سيف الدين من بعده وتلقب علاء الدين بالسلطان المعظم وحمل الجتر على عادة السلاطين السلجوقية

ومات علاء الدين سنة ٥٥٦ فملك بعده غياث الدين محمد بن بهاء الدين سام ابن الحسن وكان عضده الاقوى أخوه شهاب الدين محمد وقد حسنت سيرتهما وقويت جموعهما فملكا بلاد الغور والافغان والهند وعلى يدهما انقرض ملك آل سبكتكين سنة ٥٨٢ بعد أن ملكوا ٢١٣ سنة تقريبا

ولما عظم ملك الغوريين وكثرت عساكرهم وأموالهم خطب لغياث الدين وتلقب بالقاب السلاطين وكان يدعى له على المنابر غياث الدين والدنيا معين الاسلام قسيم أمير المؤمنين

وامتد ملك غياث الدين وأخيه على معظم بلاد خراسان ومعظم بلاد الهند تيسر لهما فتح الكثير منها وتدوخ ملوكها وقد بلغا منهم مالم يبلغه أحد قبلهما من ملوك المسلمين وجعل مدينة دهلي كرسي الممالك التى فتحها من بلاد الهند وأقطعها مملوكه قطب الدين ايبك وقطب الدين هذا هو مؤسس بيت سلاطين دهلي الذين استمر ملكهم من سنة ٦٠٢ وهى السنة التى توفى فيها شهاب الدين الغورى الى سنة ٦٨٦ وهذا ثبت ملوك هذا البيت

(١) ايبك قطب الدين ٦٠٢ – ٦٠٧

(٢) ارمشاه – ٦٠٨

(٣) التمش شمس الدين – ٦٣٣

(٤) فيروز شاه الاول ركن الدين ا – ٦٣٤

(٥) رضيا	— ٦٣٨
(٦) بهرام شاه معز الدين	— ٦٣٩
(٧) مسعود شاه علاء الدين	— ٦٤٤
(٨) محمود شاه الاول نصر الدين	— ٦٦٤
(٩) بلبن غياث الدين	— ٦٨٦
(١٠) كيقباذ معز الدين	

وغياث الدين الغوري وأخوه شهاب الدين معدودان من ملوك الهند العظام والدولة الغورية هي ثاني مملكة هندية بعد الدولة السبكتكينية

وفي عهد المقتفي حصلت الحرب الصليبية الثانية وسببها ان الافرنج بالشام رأوا من محمود نور الدين ما هالهم فقد استولى على كثير من معاقلهم وحصونهم فقرروا طلب الاعانة والنجدة من البابا أوجانيوس الثالث وأرسلوا الذلك رسلاً أقامت عباراتهم الشديدة البابا وأقعدته وحركت من نفسه الغيرة وخشى أن يكون سلفه أسبق الى الفوز منه فأرسل دعاته الى فرنسا وملكها لويز السابع فأجاب الداعية وكان أعظم مؤثر فيهم ما أخبروا به من سقوط مملكة الرها بين يدى المسلمين وأرسلت الدعاة أيضاً الى المانيا وملكها كونراد الثالث فأجاب الداعية أيضاً وكان لهذين الملكين الزعامة على جيوش هذه الحرب الثانية

وقد وصل الى القسطنطينية أولا الملك كونراد الثالث بجيشه وكان ملكها عمانويل بن اليكسيوس الاول وكان يخاف من الصليبيين على مملكته فكاد لهم المكايد ثم تلاه لويس السابع بجيوشه

ذهب الالمان أولا مجتازين بلاد قونية بلاد السلاجقة فلقيهم هؤلاء بحرب شديدة كسرت حدتهم وقتلت أكثرهم وجعلت زعيمهم يرتد خائباً كسيرا حتى قابل الجيوش الفرنسية فسار معهم بفلول جيشه حتى وصلوا الى القدس بعد أن ذاقوا من العذاب ألواناً وذلك سنة ٥٤٢ وبعد أن زاروا المدينة المقدسة قرروا الذهاب

الى مدينة دمشق والاستيلاء عليها وكان صاحبها اذ ذاك آخر الدولة الاتابكية وهو مجير الدين أبق بن محمد بن بورى بن طغتكين والامر في دولته لمولاه معين الدين أنز. سار الملكان بجنودهما ومعهما جنود افرنج الشام حتى وصلا دمشق سنة ٥٤٣ وحاصروها فزحف اليهم أهل البلد مجدين فى ردهم وأبلوا بلاء حسناً . كان معين الدين قد أرسل يستنجد بسيف الدين غازى صاحب الموصل فأجاب الداعي وأقبل حتى أتى حلب واستصحب منها أخاه محمودا نور الدين وسارا حتى أتيا حمص ولما علم الصليبيون بذلك خافوا أن يقعوا بين نارين فرحلوا عن دمشق خائبين ورجعوا الى بلادهم من غير أن يحدثوا أثرا وفى سنة ٥٤٩ استولى محمود نور الدين على دمشق

هذه هي الدول التى ورثت ملك السلاجقة العظيم

نعود الآن الى بيان الحال بعد وفاة السلطان مسعود قلنا انه كان عهد الى ابن أخيه ملكشاه وخطب له فعلا ولكن أحد قواد أبيه المعروف بخاص بك أرسل الى الملك محمد بن محمود وهو بخوزستان يستدعية وكان قصده ان يحضر عنده فيقبضه ويخطب لنفسه بالسلطنة فسار الملك محمد اليه فلما وصل أجلسه على تخت السلطنة وخطب له بها وخدمه وبالغ في خدمته وحمل له هدايا عظيمة جليلة المقدار ثم انه دخل الى الملك محمد ثاني يوم وصوله فقتله محمد ولم ينتطح فى قتله عنزان واستقر محمد فى السلطنة وأرسل الى الخليفة يطلب أن يخطب له ببغداد والعراق فامتنع من اجابته الى ذلك فسار من همذان في عساكر كثيرة نحو العراق ووصل اليها في ذى الحجة سنة ٥٥١ وقد اهتم الخليفة ووزيره بأمر الدفاع عن بغداد وفرقا السلاح على الجند والعامة ونصبت المنجنيقات والعرادات وجرت بين الفريقين عدة حروب واشتد الحصار على أهل بغداد لانقطاع المواد عنهم وكان بعض الذين يساعدون السلطان محمدا لا يناصحونه لاجل الخليفة والمسلمين ففتروا وقصروا وبينماهم على تلك الحال ورد خبر الى السلطان محمد بان أخاه ملكشاه بن محمود ومعه ايلدكز صاحب بلاد اران والملك ارسلان بن طغرل قد دخلوا همذان واستولوا عليها وأخذوا أهل الامراء

الذين مع محمد وأموالهم فلما سمع ذلك محمد جد في القتال لعله يبلغ مناه فلم يقدر علي شيء ورحل عنها نحو همذان في أواخر ربيع الاول سنة ٥٥٢ ولما قارب همذان خرج منها خصومه خائبين خائفين

استقر محمد في دار ملكه باصفهان وصار العراق للخليفة لا يشركه فيه أحد وكانت وفاة السلطان محمد والخليفة المقتفى فى زمنين متقاربين فاما محمد فانه توفى بهمذان سنة ٥٥٤ وقد اختلفت قواده بعد موته اختلافا كثير فطائفة طلبوا أخاه ملكشاه وطائفة طلبوا عمه سليمان شاه بن محمد بن ملكشاه وهم الاكثر وطائفة طلبوا ارسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه وأخيرا تم الامر لارسلان بن طغرل بواسطة المقدم يلدكز وكان هذا السلطان ربيبه

أما الخليفة المقتفى لامر الله فانه توفى ثاني ربيع الاول سنة ٥٥٥ وهو أول من استبد بالعراق منفردا عن سلطان يكون معه من أول أيام الديلم الى الآن وأول خليفة تمكن من الخلافة وحكم عسكره وأصحابه من حين تحكم المماليك على الخلفاء من عهد المنتصر الى الآن الا أن يكون المعتضد وكان شجاعا مقداما مباشرا للحروب بنفسه وكان يبذل الاموال العظيمة لاصحاب الاخبار في البلاد حتى كان لا يفوته منها شيء وكان حليما كريما عادلا حسن السيرة من الرجال ذوى الرأي والعقل الكثير

---

٣٢ - المستنجد بالله

هو أبو المظفر يوسف المستنجد بالله بن المقتفي لامر الله وأمه أم ولد اسمها طاوس رومية ولد سنة ٥١٠ وبويع بالخلافة عقب وفاة والده واستمر خليفة الى أن مات في تاسع ربيع الآخر سنة ٥٦٦

فكانت خلافته ١١ سنة وشهرا وأسبوعا

والمستنجد معدود من خيرة الخلفاء العباسيين ومن مآثره انه لما ولى أزال المكوس والمظالم ولم يترك بالعراق منها شيئاً وكان شديدا على أهل العيث والفساد والسعاية بالناس قبض مرة على خبيث كان يسعى بالناس فاطال حبسه فشفع فيه بعض أصحابه المختصين بخدمته و بذل عنه عشرة آلاف دينار فقال الخليفة أنا أعطيك عشرة آلاف دينار وتحضرلي انسانا آخر مثله لا كف شره عن الناس ولم يطلقه ورد كثيرا من الاموال على أصحابها أيضاً

ومن أعماله انه حل المقاطعات وأعادها الى الخراج وهذا عمل حسن الا أن بعض العلويين بالعراق تضرروا به ومن أجل ذلك يعدون هذا العمل من عيوبه وهو صلاح للجمهور

وكان ملك السلاجقة لعهده ارسلان شاه بن محمد بن ملكشاه ولم يكن له شيء من السلطان في بلاد العراق نفسها بل استبد الخليفة بأمرها منذ عهد أبيه

٣٣ ـ المستضيء بالله

هو أبو محمد الحسن بن المستنجد بالله وأمه أم ولد أرمنية تدعى غضة بويع بالخلافة بعد وفاة أبيه وكان عادلا حسن السيرة في الرعية كثير البذل للاموال غير مبالغ فى أخذ ما جرت العادة بأخذه وكان الناس معه في امن عام واحسان شامل وطمأنينة وسكون لم يروا مثله وكان حليما قليل المعاقبة على الذنوب محبًا للعفو والصفح عن المذنبين فعاش حميدا ومات سعيدا . وكانت وفاته ثانى ذى القعدة سنة ٥٧٥

وفى عهده انقرضت الدولة الفاطمية بمصر وظهرت الدولة الايوبية بهمة مؤسسها المقدام صلاح الدين الايوبي يوسف بن أيوب الذى ظهر في كنف محمود نور الدين الشهيد وكان ذلك في محرم سنة ٥٦٧ حيث قطعت خطبة الخليفة العاضد لدين الله

واستيفاء ذلك فى تاريخ مصر والذى خطب له من العباسيين هو المستضيء بالله

وفي عهده توفى خوارزمشاه ايل ارسلان بن اتسز وملك بعده ابنه سلطانشاه بتدبير أمه ولما علم بذلك أخوه الاكبر علاء الدين تكش جمع العساكر وقصد خوارزم فاستولى عليها واستقل بالملك

وفى عهده توفى الرجل العظيم ذو القدم الثابتة في فعال الخير و في جهاد الافرنج وهو محمود نور الدين بن زنكى وكان قد اتسع ملكه جدا وخطب له بالحرمين وباليمن ومصر وسوريا وقد طبق ذكره الارض بحسن سيرته وعدله قال ابن الاثير في تاريخه وقد طالعت سير الملوك المتقدمين فلم أر فيها بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن من سيرته ولا أكثر تحريا منه للعدل وله أخبار حسان ألفت فيها الكتب خاصة

٣٤ ــ الناصر لدين الله

هو أبو العباس أحمد الناصر لدين الله بن المستضيء بن المستنجد وأمه أم ولد تركية اسمها زمرد

بويع بالخلافة بعد وفاة والده المستضيء فى ٢ ذي القعدة سنة ٥٧٥ (٣٠ مارس سنة ١١٨٠) ولم يزل خليفة الى أن توفي فى آخر ليلة من رمضان سنة ٦٢٢ (٦ اكتوبر سنة ١٢٢٥) فكانت خلافته ٤٦ سنة وعشرة اشهر و ٢٨ يوما وهو أطول خلفاء بني العباس مدة ولم يزد عليه من خلفاء الفاطميين الا المستنصر بالله معه فانه ولي ٦٠ سنة ولا من خلفاء بنى أمية بالاندلس الا عبد الرحمن الناصر فانه ولى ٥٠ سنة

حال الممالك الاسلامية لعهده

كان في الاندلس وشمال افريقية دولة الموحدين . وفي عهد الناصر ابتدأت

الدولة المرينية بمراكش أسسها عبد الحق المرينى سنة ٥٩١ وهومن أعقاب الموحدين

وكان بمصر واليمن والحرمين وسوريا الدولة الايوبية التى أسسها صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة ٥٦٤

وكان بالموصل وسنجار وجزيرة ابن عمر بقايا دول الاتابكية

وكان بقونية دولة سلاجقة الروم

وكان ببلاد الجبل والعراق من السلاجقة السلطان طغريل الثانى وهو آخر سلاجقة العراق

وكان بخوارزم وخراسان وما اليها الدولة الخوارزمشاهية والقائم بالامر منهم السلطان تكش بن ايل ارسلان الى سنة ٥٩٦ ثم علاء الدين محمد الى سنة ٦١٧ ثم جلال الدين منكبرتي الى سنة ٦٢٨ وهو آخرهم

وكان بالغور والافغان والهند الدولة الغورية

في عهد الناصر لدين الله انتهى ملك الساجوقيين بالعراق سنة ٥٩٠ بقتل طغريل ابن الب ارسلان على يد خوارزمشاه علاء الدين تكش الذي اتسع ملكه جدا فصار ملكه ممتدا من أقاصى بلاد ما وراء النهر شرقا الى بلاد الرى التى أخذها بعد القضاء على السلاجقة ولكن ملكه لم يكن بالري ثابتاً فان الخليفة الناصر قد طمع أن تكون البلاد له بعد رحيل خوارزمشاه عنها فأرسل اليها جندا مع وزيره فاستردها بعد أن حارب عسكر خوارزمشاه لكن ذلك لم يطل فان خوارزمشاه لما بلغه ذلك رجع فحارب عسكر الخليفة وأخذ البلاد منهم وفى سنة ٥٩٦ توفي وخلفه ابنه قطب الدين خوارزمشاه محمد وزاد ملكه اتساعا

كان هوى خوارزمشاه بعد اتساع ملكه أن يتشرف بذكر اسمه على منابر بغداد فيخطب له بدل السلاجقة فأبى الخليفة ذلك عليه فاشتدت العداوة بينهما حتى قطع خوارزمشاه خطبة الناصر من منابر بلاده فاستحكمت حلقات الفساد وهذا الذى جعل كثيرا من المؤرخين يعتقد أن خروج التتر انما كان باستدعاء الناصر لدين الله

وليس هذا ببعيد وكان قصده على ما يظهر أن يشتغل بهم خوارزمشاه فتخف عنه وطأته وقد اعتادوا ذلك من قبل

الحادث العظيم في البلاد الاسلامية

اغارة المغول والتتار

من أكبر الحوادث في التاريخ الاسلامى خروج طوائف المغول والتتر الى البلاد الاسلامية واستيلائهم على معظمها في آسيا وشرقى أوربا وأول فتح هذا الباب كان على يدى جنكيزخان المغولى وخوارزمشاه محمد بن تكش الخوارزمى

التتر شعب كبير من الأمة التركية ومنه تتفرع معظم بطونها وأفخاذها وهو مرادف للترك عند الافرنج حتى انهم يعدون قبائل الاتراك كافة تترا ومنهم العثمانيون والتركمان وقرمان وغيرهم وكانوا مشهورين عند قدماء اليونان باسم سيتيا أو اسكوتيا ومؤرخو الترك ونسابوهم يقولون ألنجه خان أحد ملوك الترك فى الازمنة القديمة ولد له ولدان توأمان هما تتار خان ومغل خان نحو ربيعة ومضر في الامة العربية

وقد استمر أولادهما على صفاء ووداد الى أن وقع النزاع بين الشعبين في عهد ايلخان ملك المغل وسونج خان ملك التتر وجرّ هذا النزاع الى حروب طويلة انتصر فيها التتار وقتل ايلخان ملك المغل وصارت السيادة من ذلك الوقت للتتر فاستعبدوا المغل مدة طويلة الى أن جمع المغل جموعهم واتحدوا فقاموا بحرب التتر وكسروا شوكتهم واستردوا ما ضاع من حريتهم فعادت السيادة من ذلك الوقت الى المغل وصار الملك متوارثا فيهم الى زمن يسوكى بهادرخان والد جنكيز

ولد جنكيزخان سنة ٥٤٩ وكان اسمه فى صغره تموجين . توفي أبوه وسنه ١٣ سنة ثم مات بعده مدبر دولته سوغه جمش فاستضعفت قبائل المغل تموجين فتفرقوا عنه وكان ذلك [illegible] الفتن وتمادى الحروب بينهم

ولما كان لتموجين من الهمة العالية والعزيمة الملوكية التى لا تساويها عزيمة اجتهد في أن يلم شعث قومه فنجح في ذلك نجاحا عظيما وعادت قبائل المغل الى الانضمام اليه وكثرت جموعه وعظم أمره فحارب جميع القبائل التركية وانتصر عليهم جميعاً بعد حروب شديدة ودخل تحت طاعته جميع زعمائهم فصارت له مملكة واسعة مسكونة بتلك الامم التى لا يعلم عددها الا الله . وعاصمة ملكه مدينة قراقروم

ولما لم يبق له معارض فكر فى ترقية هذا المجتمع العظيم بوضع قانون يكون لهم ديناً يسيرون على مقتضاه فوضع لهم اليساق او الياسه وهى كتابهم الذي اليه يرجعون في معاملاتهم وأحكامهم وكانت عندهم كالقرآن عند المسلمين لا يستجيزون أن يخلوا بشيء منها

ومما شرعه فيها أن من زني يقتل لا فرق بين محصن وغيره . ومن تعمد الكذب أو سحر أو تجسس على أحد أو دخل بين اثنين وهما يتخاصمان وأعان أحدهما على الآخر قتل . ومن بال في الماء أو على الرماد قتل . ومن أعطى بضاعة فخسر فيها فانه يقتل بعد الثالثة . ومن أطعم أسير قوم أو كساه بغير اذنهم قتل . ومن وجد عبدا هاربا أو أسيرا قد هرب ولم يرده على من كان في يده قتل . وان الحيوان تكتف قوائمه ويشق بطنه ويمرس قلبه الى أن يموت ثم يؤكل لحمه . وان من ذبح حيوانا كذبيحة المسلمين ذبح . ومن وقع حمله أو قوسه أو شيء من متاعه وهو يكر أو يفر فى حال القتال وكان وراءه واحد فانه ينزل ويناول صاحبه ما سقط منه فان لم ينزل ولم يناوله قتل . وشرط أن لا يكون على أحد من ولد عليّ بن أبى طالب مؤنة ولا كلفة . وأن لا يكون على أحد من الفقراء ولا القراء ولا الفقهاء ولا الاطباء ولا من عداهم من أرباب العلوم وأصحاب العبادة والزهد والمؤذنين ومغسلى الاموات كلفة ولا مؤنة . وشرط تعظيم جميع الملل من غير تعصب لملة على أخري وجعل ذلك كله قربة الى الله تعالى . وألزم قومه أن لا يأكل أحد من يد أحد حتى يأكل المناول منه أولا ولو أنه أمير ومن يناوله أسير . وألزمهم أن لا يتخصص أحد بأكل شيء

وغيره يراه بل يشركه معه في أكله . وألزمهم أن لا يتميز أحد بالشبع على أصحابه ولا يتخطى أحد نارا ولا مائدة ولا الطبق الذي يؤكل عليه . وان مرّ بقوم وهم يأكلون فله أن ينزل ويأكل معهم من غير اذنهم وليس لأحد منهم منعه . وألزمهم ألا يدخل أحد منهم يده في الماء ولكن يتناول الماء بشيء يغترفه به . ومنعهم من غسل ثيابهم بل يلبسونها حتى تبلى . ومنع أن يقال لشيء انه نجس وقال جميع الاشياء طاهرة ولم يفرق بين طاهر ونجس . وألزمهم أن لا يتعصبوا لشيء من المذاهب . ومنعهم من تفخيم الالفاظ ووضع الالقاب وانما يخاطب السلطان ومن دونه ويدعي باسمه فقط . وألزم القائم بعده بعرض العساكر وأسلحتها اذا أراد الخروج الى القتال وأنه يعرض كل ما سافر به عسكره وينظر حتى الابرة والخيط فمن وجده قصر في شيء مما يحتاج اليه عند عرضه اياه عاقبه وألزم نساء العسكر القيام بما على الرجال من السخر والكلف في مدة غيبتهم فى القتال وجعل على العساكر اذا قدمت من القتال كلفة يقومون بها للسلطان ويؤدونها اليه . وألزمهم عند رأس كل سنة بعرض بناتهم الابكار على السلطان ليختار منهن لنفسه وأولاده . ورتب لعساكره أمراء وجعلهم أمراء ألوف وأمراء مئين وأمراء عشرات . وشرع أن أكبر الامراء اذا أذنب وبعث اليه الملك أخس من عنده حتى يعاقبه فانه يلقى بنفسه بين يدي الرسول وهو ذليل خاضع حتى يمضي فيه ما أمر به الملك من العقوبة ولو كانت بذهاب نفسه . وألزمهم أن لا يتردد الامراء لغير الملك فمن تردد منهم لغير الملك قتل . ومن تغير عن موضعه الذى يرسم له بغير اذن قتل . وألزم السلطان باقامة البريد حتى يعرف أخبار مملكته بسرعة

﴿ تنبيه ﴾ كان من هذه الياسة نسخة بخزانة المدرسة المستنصرية ببغداد . روى المقريزى في خططه عن أحمد بن البرهان انه رآها ومنه نقلنا ما ذكرنا

خروج المغول الى البلاد الاسلامية

قد أكثر المؤرخون فى ذكر الاسباب التي دعت جنكيزخان وقومه للخروج الى

البلاد الاسلامية فقال بعضهم ان خوارزمشاه لما أظهر الخلاف على الناصر لدين الله وقطع خطبته من بلاده وأراد أن يذهب الى بغداد للاستيلاء عليها أرسل الناصر لدين الله الى جنكيزخان يحرضه على الخروج الى خوارزمشاه والتعرض لمملكته يريد بذلك أن تنكسر شوكة خوارزمشاه ويشتغل عنه بنفسه وقد سبق لخلفاء بنى العباس ان فعلوا ذلك مرارا فهم الذين راسلوا بنى بويه ليخلصوهم من استبداد الاتراك البغداديين وتحكمهم فيهم وهم الذين راسلوا طغريلبك شاه السلجوقى ليخلصهم من تحكم البساسيرى حينما أراد تحويل الدعوة الى المصريين الفاطميين وهم الذين راسلوا خوارزمشاه ليخلصهم من السلاجقة ولكن الفرق ان هؤلاء كلهم كانوا مسلمين وأما المغل فكانوا كفارا ولا نبدى هذا الفرق استبعادا للمكاتبة لان ذا الملك لا يبالى بما يفعل لتخليص ملكه ولم يكن الخليفة يبغى الا أن المغول يشغلون عنه خوارزمشاه فتكون العداوة بين الرجلين ضامنة لاستقلاله كما انه لم يكن يظن أن يكون من التتر ما كان لان بينهم وبين العراق أمكنة مترامية الاطراف وبينه وبينهم ذلك الاسد الهصور ولم يكن يظن به من الضعف ما يجعله يجفل أمام جنكيزخان كالحمامة تجفل من صقرها . وهـذا السبب وان كان مطمعا لجنكيزخان في البلاد الاسلامية ولكنه كان يتطلب سبباً آخر يبيح له فتح باب الحرب على خوارزمشاه فيقال انه فى سنة ٦١٢ أرسل رسلا الى خوارزمشاه وكانوا من كبار المسلمين الذين يقيمون ببلاده يطالب منه أن يعاهده لتردد التجارة من كل جانب الى الآخر وأرسل اليه هدايا عظيمة المقدار فلما وصلت الرسل الى خوارزمشاه أجاب الى ذلك فرجعوا الى جنكيزخان مسرورين من تمام ما أرسلوا له فاستبشر بذلك جنكيزخان ومكث الامر على سداد مدة والتجار والزوار يترددون آمنين مطمئنين

وفي سنة ٦١٥ سافر تجار من بلاد جنكيزخان حتى وصلوا الى بلدة أترار وهي بلدة بثغر خوارزمشاه بساحل نهر سيحون (سرداريا) وبها وال كان من قبله فلمـا ورد عليـه هؤلاء التجار وكانوا زهاء ٤٠٠ نفس ومعهم أموال جسيمة طمع ذلك

الوالى فى أخذ أموالهم فأرسل قاصدا الى خوارزمشاه يخبره أن جواسيس جنكيزخان قد قدموا في زى تجار فأمره بقتلهم واستصفاء أموالهم فسارع ذلك الوالى المشؤم الى ذلك وأرسل الى خوارزمشاه ما كان معهم من الاموال فأخذها وفرقها على تجار بخارى وسمرقند وأخذ منهم ثمنها . فلما بلغ علم ذلك الى جنكيزخان أخذه المقيم المقعد وأرسل الى خوارزمشاه يخبره بصورة الحال ويطالب منه غايرخان ذلك الوالى ليقتص منه فلم يكن من الاحمق خوارزمشاه الا أن قتل الرسول فلما بلغ ذلك جنكيزخان استشاط غضباً وصمم على قصده وحربه . وعلم خوارزمشاه انه قد استهدف بعمله لحرب تلك الامة العظيمة وزاد الطين بلة بان جمع عساكره وسار بادئًا بالعدوان حتى وصل تخوم تركستان وهجم على بلاد عدوه فلقى هناك جموعا قليلة متخلفة فى النساء والصبيان لان جنكيزخان كان غائبا بجنده فى داخل بلاده فلم يمكن خوارزمشاه أن ينتصر على هذا العدو القليل فعلم انه له يوما ضروساً اذا تحرك عليه جنكيز وهو لا بد فاعل فأمر خوارزمشاه سكان تلك المدن العظيمة التى على حدود بلاده أن يجلوا عنها خوفا عليهم من التتر وكانت من جنان الدنيا فأصبحت بذلك بلاقع وسهل بهذا العمل السبيل الى عدوه ثم عاد أما جنكيزخان فانه جمع عساكره الجرارة التى تفوت عد العادين وعبر نهر سيحون وليس امامه من يناوشه قتالا أو يشغله عن قصده وسار حتى أتى بخارى وكان بها عشرون ألفا من الجنود الخوارزمية فلم يكن عندهم طاقة بما دهمهم من ذلك البحر الزاخر فتركوا المدينة من غير حام فأرسل أهلها القاضى بدر الدين قاضيخان يطلب الامان للناس فأمنهم جنكيز ودخل هو وجنده البلد فى رابع ذى الحجة سنة ٦١٦ وأعلن أهله بان كل ماهو للسلطان عندكم من ذخيرة وغيرها أخرجوه الينا ثم طلب رؤساء البلد وقال لهم أريد منكم أمتعة التجار التى باعكم اياها خوارزمشاه فانها لي ومن أصحابي أخذت وهى عندكم فأحضر كل من كان عنده شىء منها ما عنده ثم أمرهم بالخروج من البلد فخرجوا منها مجردين من أموالهم وأعمل التتر النهب فى البلد وقتلوا من وجدوا فيه ثم أمر أصحابه أن يقتسموا الناس فاقتسموهم

وأصبحت بخارى تلك المدينة العظيمة خاوية على عروشها كأن لم تغن بالامس

ثم رحلوا نحو سمرقند وهي قصبة ما وراء النهر والمصر الجامع لعلمائه وأدبائه وثروته واستصحبوا معهم من سلم من أهل بخارى فساروا بهم مشاة على أقبح صورة ومن أعيا عن المشى قتل

ولما وصلوا سمرقند كان بها خمسون ألفاً من جند خوارزمشاه فخاموا عن اللقاء لما دخل قلبهم من الرعب والخور أما أهل البلد فخرج منهم ذوو الجلد والقوة فقاتلتهم العساكر الجنكيزية ظاهر البلد واحتالوا عليهم بان تقهقروا امامهم وأهل سمرقند يتبعونهم ويطمعون فيهم حتى أبعدوا عن معقلهم وكان المغول قد أعدوا لهم كميناً يأتيهم من خلفهم فلما جاوزوا الكمين خرج عليهم وحال بينهم وبين البلد ورجع عليهم الباقون من الامام فأخذهم السيف من كل جانب وقتل عظمهم ولما رأى ذلك الباقون بالبلد من الجند والعامة ضعفت نفوسهم وأيقنوا بالهلاك فقال الجند نحن من جنس هؤلاء ولا يقتلوننا لان الكل أتراك فطلبوا الامان فأمنوا وفتحت البلد فخرجوا الى التتر بأهلهم وأموالهم فطلبوا منهم أن ينزعوا أسلحتهم فنزعوها واذ ذاك وضعوا فيهم السيف وقتلوهم عن آخرهم وفى اليوم الرابع نادوا في البلد أن لا يتأخر بها أحد ومن تأخر قتلوه وهكذا فعل التتر بسمرقند ما فعلوه ببخارى وكان ذلك في المحرم سنة ٦١٧

ولما تم لجنكيز ملك سمرقند سير عشرين ألفا من أشداء جنوده وقال لهم اطلبوا خوارزمشاه أين كان ولو تعلق بالسماء حتى تدركوه وتأخذوه فساروا وعبروا جيحون وكان خوارزمشاه مقيما بغربيه يستعد وقد ملئ قلبه رعبا فلما علم بقدوم التتر عليه لم ير الا أن ينهزم عنهم قبل أن يحصل بينهم وبينه صدام وقتال ورحل لا يلوي على شيء وقصد مدينة نيسابور فلم يكد يستقر بها حتى أدركه جنود التتر فطار الى مازندران والتتر على أثره ولم يعرجوا على نيسابور فكان كلما رحل عن منزلة نزلوها فوصل الى مرسى من بحر طبرستان ونزل يريد قلعة له فى البحر فلما نزل هو وأصحابه في السفن

وصل التتر فأيسوا من اللحاق به فعادوا عنه وكان ذلك آخر العهد به

وهذه الفرقة من التترتسمي التترالمغربة لانهم ساروا الى غرب خراسان وتشبه هذه الفرقة فرقة السلاجقة العراقية التي قصدت البلاد الاسلامية بالتخريب والافساد قبل أن ينساح السلاجقة ويستولوا على البلاد . ولما أيس التتر من اللحاق به ساروا الى مازندران فملكوها فى أسرع وقت مع حصانتها وصعوبة الدخول اليها وامتناع قلاعها . ثم ساروا نحو الري وقد انضم اليهم كثير من عساكر المسلمين والكفار ومن المفسدين من يريد النهب والشر وهم كثيرون فوصلوا الى الرى على حين غفلة من أهلها فملكوها وفعلوا بها الافاعيل وكانوا ينهبون فى طريقهم كل قرية مروا عليها . ثم ساروا الى همذان فطلب صاحبها الامان فأمنوه هو ومن معه ثم وصلوا الى قزوين فدخلوها عنوة ويقال ان من قتل من أهلها يباغون أربعين ألفا . ثم ساروا الى أذربيجان فوصلوا الى تبريز وبها صاحب البلاد أوزبك بن البهلوان فلم يخرج اليهم ولا حدثته نفسه بقتالهم لاشتغاله بما هو بصدده من ادمان الشراب ليلا ونهارا لا يفيق وانما أرسل اليهم وصالحهم فساروا عنه الى ساحل البحر ليشتوا فيه فوصلوا الى موقان وتطرقوا فى طريقهم الى بلاد الكرج فحاربهم أهلها لكنهم انهزموا فأرسلوا الى أوزبك خان يطلبون منه أن يتفق معهم على دفع التتر وكذلك أرسلوا الى الملك الاشرف بن العادل الايوبي صاحب خلاط وديار الجزيرة يطلبون منه الانضمام اليهم وظنوا جميعا ان التتر لا يتحركون حتى ينحسر الشتاء فلم يفعلوا ذلك بل ساروا نحو الكرج وانضاف اليهم مملوك من مماليك أوزبك اسمه أقوش وجميع أهل تلك الجبال والصحراء من التركمان والاكراد وغيرهم فاجتمع اليه خلق كثير وراسل التتر فى الانضمام اليهم فأجابوا الى ذلك للجنسية فاجتمعوا جميعا حتى وصلوا تفليس فاجتمعت الكرج وخرجت بحدها وحديدها لكن ذلك لم يجدهم شيئا فانهزموا أقبح هزيمة وركبهم التتر من كل جانب فقتل منهم مالا يحصى وكانت الوقعة فى ذى القعدة سنة ٦١٧

ولما دخلت سنة ٦١٨ كروا راجعين الى مدينة مراغة فملكوها عنوة ووضعوا

السيف فى أهلها ونهبوا كل ما صلح لهم ومالا يصلح أحرقوه . ثم رحلوا عنها قاصدين ار بل لكنهم هابوا الهجوم عليها لخوفهم أن تجتمع بالجنود عليهم من العراق وغيرها فعادوا الى همذان وساروا الى بلاد اذربيجان ومنها ساروا الى دربندشروان فاستولوا على مدينة شماخى عنوة وخرجوا من الدربند الى البلاد الشمالية وهى دشت القفجاق وفيها أمم كثيرة تركية فأمعن التتر فيهم قتلا وسبياً والذي لقى حد هذه الحروب أمة القفجاق فكثر فيهم القتل والاسر فتفرقوا أيدي سبا في جميع الاقطار وكان هذا أول ورود المماليك القفجاقية على البلاد المصرية فاشترى منهم الصالح نجم الدين أيوب مماليكه البحرية ملوك مصر بعد الدولة الايوبية ومنهم المعز ايبك والمظفر قطز والمنصور قلاوون وغيرهم

ثم قصد التتر بعد ذلك بلاد الروس فاتفق هؤلاء مع فلول القفجاق أن يكونوا يدا واحدة ضد التتر ومع هذا فكان الظفر للتتر وانهزم عنهم الروس والقفجاق أقبح هزيمة ونهب التتر بلادهم ثم عادوا عنهم وقصدوا بلغار أواخر سنة ٦٢٠ فلما سمع أهل بلغار بقربهم منهم كمنوا لهم في عدة مواضع واستجروهم الي أن جاوزوا موضع الكمناء فخرجوا عليهم من وراء ظهورهم فقتل منهم كثير

هذه أخبار طائفة صغيرة من طوائف التتر وما فعلته

أما جنكيزخان فانه لما سير تلك الطائفة لطلب خوارزمشاه أقام بسمرقند وهناك سير جيشاً عليه أحد أولاده لملك خراسان فعبروا النهر وقصدوا مدينة بلخ فطلب أهلها الامان فأمنوهم وتسلموا البلد سنة ٦١٧ ولم يتعرضوا له بنهب ولا قتل بل جعلوا فيه شحنة ثم صاروا يستولون على تلك البلاد شيئاً بعد شيء دون صعوبة أومقاومة ولذلك لم يكونوا يتعرضون لاهلها بسوء ولا أذى سوي انهم كانوا يأخذون الرجال ليقاتلوا بهم من يمتنع عليهم ولم يمض الا القليل حتى دخل معظم البلاد الفارسية تحت حكم التتر

وأرسل جيشا آخر وجهته الشمال ليملك دشت القفجاق وكان الامر قد تهيأ لهم

بها لما فعله التتر المغربة من اضعاف القوى التى كانت بهاتيك البلاد على أنها لم تكن قوى مجتمعة يخشى بأسها بل كانوا طوائف شتى لا جامعة لهم فسهل على الجيش الجنكيزى أن يستولى على الدشت كله في أسرع مايمكن

فتم بذلك لجنكيز مملكة عظيمة واسعة مترامية الاطراف تبتدئ شرقا من بلاد الصين وتنتهى غربا الى بلاد العراق وبحر الخزر وبلاد الروس وجنوبا ببلاد الهند وشمالا بالبحر الشمالى كل ذلك تم له في مدة قصيرة

ولما أحس بقرب منيته قسم الممالك الجنكيزية الى أربعة أقسام بين أبنائه الاربعة وهم جوجى وجغطاى وتولى واوكداى

فجعل دشت قفجاق بأسرها و بلاد الداغستان وخوارزم و بلغار والروس ومايؤمل أخذه الي منتهى المعمورة وسواحل البحر الغربى لولده الاكبر جوجى

وجعل بلاد ايغور والتركستان وما وراء النهر بأسره لولده الثاني جغطاى

وجعل خراسان وما يؤمل أخذه من ديار بكر والعراقين الى منتهى حوافر خيولهم لولده الثالث تولى خان

وجعل بلاده الاصلية والخطا والصين الى منتهى المعمورة الشرقى لولده الرابع أوكداى وجعله ولى عهده من بعده ويصير قاءانا على الكل أو ملك الملوك وهو عندهم بمنزلة الخليفة عند المسلمين وأمر الباقين بمتابعته وكذا كل من يصير قاءانا من ذريته يجب على الباقين طاعته واتباعه ومن خالفه يجب علي الباقين حربه حتى يفئ الى يساق جنكيزخان

هكذا قدر الرجل لعظم همته أن يملك أولاده الدنيا بأسرها ولا يبقى فيها لغيرهم كلمة ولا سلطان ولولا ما حصل من الخلاف بعده لتم كل ما توقعه

وفي سنة ٦٢٤ أدركته منيته وكان الخليفة العباسى حين وفاته المنصور المستنصر بالله بن محمد الظاهر

وجد من آل جنكيزخان أربعة بيوت ورثت الملك وتممت الفتح حتى تهيأ لهـا أن تملك معظم بلاد المسلمين وجزءا كبيرا من أوربا

وبيت تولى هو الذي كان على يده سقوط الخلافة العباسية ببغداد وامتداد سلطان التتر على الجزيرة والشام وبلاد الروم وسنذكر ذلك فى حينه

حصلت هذه الحوادث الكبرى وخليفة بغداد لاه بما هو فيه من عسف الناس وظلمهم فقد كان قبيح السيرة في رعيته ظالمـا فخرب في أيامه العراق وتفرق أهله في البلاد وأخذ أملاكهم وأموالهم وكان كثيرا ما يفعل الاشياء ثم ينقضها وجعل جل همه فى رمى البندق والطيور المناسيب وسراويلات الفتوة فبطلت الفتوة في البلاد جميعها الا من يلبس منه سراويل يدعى اليه ولبس كثيرمن الملوك منه سراويلات الفتوة وكذلك منع الطيور المناسيب لغيره الا مايؤخذ من طيوره ومنع الرمى بالبندق الامن ينتمى اليه . هذه كانت مشاغله العجيبة والتتر يمعنون في بلاد المسلمين قتلا وأسرا وتخريبا ومع ذلك أثنى عليه ابن طباطبا فى تاريخه الموسوم بالفخرى ثناء جمـا ومن ضمن ما وصفه به انه كان يرى رأي الامامية والظاهر ان هذا هو الذي حببه الى المؤرخ المذكور

بقى الناصر فى أواخر أيامه ثلاث سنين عاطلا عن الحركة وقد ذهبت احدى عينيه والاخرى يبصر بها ابصارا ضعيفا وفي آخر الامر أصابه دوسنطاريا عشرين يوما وكانت بها منيته

٣٥ — الظاهر بامر الله

هو أبو نصر محمد الظاهر بأمر الله بن الناصر بويع بالخلافة عقب موت أبيه وكان ولى عهده واستمر خليفة الى ١٤ رجب سنة ٦٢٣ فكانت خلافته تسعة أشهر و ١٤ يوما

لمـا ولى أظهر من العدل والاحسان ما أعاد به سنة العمرين . قال ابن الاثير

فلو قيل انه لم يل الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز مثله لكان القائل صادقا فانه أعاد من الاموال المغصوبة في أيام أبيه وقبله شيئا كثيرا وأطلق المكوس في البلاد جميعها وأمر باعادة الخراج القديم فى جميع العراق وأن يسقط جميع ماجدده أبوه وكان كثيرا لا يحصى . ولما أمر بأخذ الخراج الاول من جميع البلاد حضر كثير من أهل العراق وذكروا أن الاملاك التى كان يؤخذ منها الخراج قديماً قد يبس أكثر أشجارها وخربت ومتى طولبوا بالخراج الاول لا يفى دخل الباقى بالخراج فأمر ألا يؤخذ الخراج الا من كل شجرة سليمة وأما الذاهب فلا يؤخذ منه شيء . ومن أعماله ان المخزن كان له صنجة الذهب تزيد على صنجة البلد نصف قيراط يقبضون بها المال ويعطون بالصنجة التى للبلد يتعامل بها الناس فسمع بذلك فخرج خطه الى الوزير وأوله ويل للمطففين الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم قد بلغنا كذا وكذا فتعاد صنجة المخزن الى الصنجة التى يتعامل بها المسلمون واليهود والنصارى — فكتب بعض النواب اليه يقول ان هذا مبلغ كبير وقد حسبناه فوجدناه في السنة الماضية ٣٥ ألف دينار . فأعاد الجواب ينكر على القائل ويقول لوأنه ٣٥٠ ألف دينار يطلق وكذلك أيضا فعل فى اطلاق زيادة الصنجة التى للديوان وهى فى كل دينار حبة — وتقدم الى القاضى ان كل من عرض عليه كتابا صحيحا بملك يعيده اليه من غير اذن ومنها ان العادة كانت في بغداد أن الحارس بكل درب يبكر ويكتب مطالعة الى الخليفة بما تجدد فى دربه من اجتماع بعض الاصدقاء ببعض على نزهة أوسماع أو غير ذلك ويكتب ما سوى ذلك من كبير وصغير فكان الناس من هـذا فى حجر عظيم فلما ولى الظاهر أتته المطالعات على العادة فأمر بقطعها وقال أى غرض لنا في معرفة أحوال الناس في بيوتهم فلا يكتب أحد لنا الا ما يتعلق بمصالح دولتنا فقيل له ان العامة تفسد بذلك ويعظم شرها فقال انا ندعو الله أن يصلحهم . ومنها انه لمـا ولى الخلافة وصل صاحب الديوان من واسط وكان قد سار اليها أيام الناصر لتحصيل

الاموال فأصعد ومعه ما يزيد على مائة ألف دينار وكتب مطالعة تتضمن ذكر مامعه ويستخرج الامر في حمله فأعاد الجواب بان يعاد الى أربابه فلا حاجة لنا اليه فأعيد عليهم . ومنها انه أخرج كل من كان في السجون وأمر باعادة ما أخذ منهم وأرسل الى القاضي عشرة آلاف دينار ليعطيها عن كل من هو محبوس في حبس الشرع وليس له مال

ولم يزل كل يوم يزداد من الخير والاحسان الى الرعية فجدد من العدل ما كان دارسا وأذكر من الاحسان ما كان منسيا . وقبل وفاته أخرج توقيعا الى الوزير بخطه على أرباب الدولة وقال الرسول أمير المؤمنين يقول ليس غرضنا أن يقال برز مرسوم أو نفذ مثال ثم لا يبين له أثر بل أنتم الى امام فعال أحوج منكم الى امام قوال . وقد قرئ التوقيع فاذا فى أوله بعد البسملة (اعلموا انه ليس امهالنا اهمالا ولا اغضاؤنا اغفالا ولكن لنبلوكم أيكم أحسن عملا وقد عفونا لكم ما سلف من اخراب البلاد وتشريد الرعايا وتقبيح الشريعة واظهار الباطل الجلى في صورة الحق الخفى حيلة ومكيدة وتسمية الاستئصال والاجتياح استيفاء واستدراكا لاغراض انتهزتم فرصها مختلسة من برائن ليث باسل وأنياب أسد مهيب تتفقون بألفاظ مختلفة على معنى وأنتم أمناؤه وثقاته فتميلون رأيه الى هواكم وتمزجون باطلكم بحقه فيطيعكم وأنتم له عاصون ويوافقكم وأنتم له مخالفون والآن قد بدل الله سبحانه بخوفكم أمنا وبفقركم غنى وبباطلكم حقا ورزقكم سلطانا يقيل العثرة ولا يؤاخذ الا من أصر ولا ينتقم الا ممن استمر يأمركم بالعدل وهو يريده منكم وينهاكم عن الجور وهو يكرهه لكم يخاف الله ويخوفكم مكره ويرجو الله تعالى ويرغبكم في طاعته فان سلكتم مسالك نواب خلفاء الله فى أرضه وأمنائه على خلقه والا هلكتم والسلام)

ولم تتمتع الامة بهذا الخليفة طويلا فانه لحق بربه قبل أن تمر سنة على خلافته

٣٦ - المستنصر بالله

هو أبو جعفر المنصور المستنصر بالله بن الظاهر

بويع بالخلافة يوم وفاة والده ١٤ رجب سنة ٦٢٣ (١١ يوليه سنة ١٢٢٦) واستمر في الخلافة الى أن توفى لعشر خلون من جمادي الآخرة سنة ٦٤٠ (٥ دسمبر سنة ١٢٤٢) فكانت خلافته ١٧ سنة الا شهرا

كان المستنصر شهما جوادا يبارى الريح كرما وجودا وله الآثار الجليلة في بغداد منها وهى أعظمها المدرسة المستنصرية على شط دجلة من الجانب الشرقى مما يلى دار الخلافة وبني غيرها من القناطر والخانات والربط ودور الضيافة وكان يقول أني أخاف ألا يثيبنى الله على ما أهبه وأعطيه لان الله تعالى يقول لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وأنا والله لا فرق عندى بين التراب والذهب

ولما ولى سلك في الخير والاحسان الى الناس سيرة أبيه وأمر فنودي ببغداد بافاضة العدل وان من كانت له حاجة أو مظلمة يطالع بها تقضى حاجته وتكشف مظلمته

وفى عهده توفى ملك المغول الكبير جنكيزخان سنة ٦٢٤ وحل محله في بلاد خراسان وما وراءها ابنه تولى خان فوسع مملكته الى الغرب وأرسل فرقة الى بلاد اذربيجان فملكتها وأجلت عنها جلال الدين منكبرتى وخافهم أهل اذربيجان خوفا شديدا ولم يكن امامهم من يرد غائلتهم بعد جلال الدين الذي لم يجد له نصيرا لانه وتر الملوك المجاورين له طرا .

قال ابن الاثير تعليقا على هذه الحال (فما نرى من ملوك الاسلام من له رغبة فى الجهاد ولا في نصرة الدين بل كل منهم مقبل على لهوه ولعبه وظلم رعيته وهذا أخوف عندي من العدو قال الله تعالى (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة)

وكان مقتل جلال الدين في منتصف شوال سنة ٦٢٨ قتل شريدا طريدا لم يفده هذا الملك العظيم الذي ورثه عن أبيه وبهلاكه تم للمغول ملك جميع البلاد الفارسية الى حدود العراق ولم يتهيأ للملوك أن يتفقوا ضد هذا العدو الشديد المراس بل كانوا فيما بينهم مختلفين يغير بعضهم على بعض وهم عن عدوهم لاهون غافلون . صار العراق ينتظر النكبة منهم من آن الى آن وخليفة بغداد مستسلم للحوادث مدل بمركزه الديني

٣٧ — المستعصم

هو أبو أحمد عبد الله المستعصم بالله بن المستنصر بن الظاهر بن الناصر بن المستضيء بن المستنجد بن المقتفى بن المستظهر بن المقتدى بن محمد الذخيرة بن القائم ابن القادر بن اسحاق بن المقتدر بن المعتضد بن طلحة بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد بن المهدي بن المنصور ففى آبائه سبعة عشر خليفة

بويع بالخلافة بعد وفاة أبيه المستنصر بالله فى عاشر جمادى الآخرة سنة ٦٤٠ (٦ دسمبر سنة ١٢٤٢) ولم يزل خليفة الى أن قتل بين يدي هولاكوخان في ٢٠ محرم سنة ٦٥٦ (٢٧ ينايرسنة ١٢٥٨) و بقتله انتهت الخلافة العباسية

قال ابن طباطبا كان المعتصم رجلا خيرا متدينا لين الجانب سهل العريكة عفيف اللسان والفرج حمل كتاب الله تعالى وكتب خطا مليحا وكان سهل الاخلاق وكان خفيف الوطأة الا أنه كان مستضعف الرأي ضعيف البطش قليل الخبرة بأمور المملكة مطموعا فيه غير مهيب في النفوس ولا مطلع على حقائق الامور وكان زمانه ينقضى أكثره بسماع الاغانى والتفرج على المساخرة وفي بعض الاوقات يجلس بخزانة الكتب جلوسا ليس فيه كبير فائدة وكان أصحابه مستولين عليه وكلهم جهال من أرذال العوام

الا وزيره مؤيد الدين محمد بن العلقمى فانه كان من أعيان الناس وعقلاء الرجال وكان مكفوف اليد مردود القول يترقب العزل والقبض صباح مساء

حال التتر

قلنا فيما تقدم ان جنكيزخان لما حانت منيته قسم ممالكه الى أقسام أربعة بين أولاده ومنهم تولى خان جعل له خراسان وما يؤمل أخذه من ديار بكر والعراقين الى منتهى حوافر خيولهم وقد استمر تولى فى مملكته الجديدة يتوسع فى الفتح ويمد بلاده الي الغرب ويستنزل ملوك فارس عن تخوتها حتى توفى سنة ٦٥٤ فى عهد المعتصم بالله وكانت حدود بلاده تنتهى عند بلاد العراق فخلفه فى الملك ابنه هولاكوخان حفيد جنكيزخان فأهمه التوسع في الفتح وأخذ بغداد وكان بها من يحب ذلك

قال المؤرخون ان أهل السنة والشيعة الذين يتألف منهم جمهور البغداديين كانوا في نزاع مستمر وقد أدى هذا النزاع بينهم الى حروب وشدائد رائدها الجهل والغفلة عن المصالح وكان وزير المستعصم من رجال الشيعة فكان يسوءه ما يلقاه أهل مذهبه من اضطهاد أهل السنة الذين هم الجمهور الا كبر وكان يزيد في مساءته ان أهل البيت العباسى كانوا يساعدون أهل السنة لانهم عماد بيتهم والشيعة يريدون خروج الامر منهم وقد حصل في أواخر عهد المستعصم ان أغار أهل السنة على الكرخ وهو محلة الشيعة فأهانوا أهله وأسرفوا في قتلهم ونهب دورهم وكان ذلك بأمر أبي بكر أحد أولاد الخليفة المستعصم فيقال ان الوزير كاتب هولاكو يحرضه على قصد بغداد ويطمعه فيها وجل رغبته ان تسقط الخلافة العباسية ولا يهمه بعد سقوط عدوه من تولى الملك بعده فكانت تلك المكاتبة مما ساعد هولاكو على تنفيذ رغبته . وأكثر المؤرخين يتهمون ابن العلقمي بهذه التهمة الشنيعة حتى نقل ابن الوردى فى تاريخه ما يؤكد هـذه التهمة وهو رسالة أرسلها ابن العلقمى الى وزير اربل منها انه قد نهب الكرخ المكرم وقد ديس البساط النبوى المعظم وقد نهبت العترة العلوية واستؤسرت العصابة الهاشمية وقد حسن التمثيل بقول شخص من غزية

أمور تضحك السفهاء منها ويبكى من عواقبها اللبيب

وقد عزموا على نهب الحلة والنيل بل سولت لهم أنفسهم أمرا فصبر جميل

أرى تحت الرماد وميض نار ويوشك أن يكون لها ضرام

فان لم يطفها عقلاء قوم يكون وقودها جثث وهام

فقلت من التعجب ليت شعري أأيقاظ أمية أم نيام

ومنها

وزير رضى من حكمه وانتقامه بطى رقاع حشوها النظم والنثر

كما تسجع الورقاء وهي حمامة وليس لها نهى يطاع ولا أمر

فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذله وهم صاغرون

ووديعة من سر آل محمد أودعتها ان كنت من أمنائها

فاذا رأيت الكوكبين تقارنا فى الجدي عند صباحها ومسائها

فهناك يؤخذ ثار آل محمد وطلابها بالترك من أعدائها

وكن لما أقول بالمرصاد وتأول أول النجم واحرص والله أعلم

وابن طباطبا العلوى يبعد هذه التهمة عن ابن العلقمى قال في تاريخه وقد نسبه الناس الى انه خامر وليس ذلك بصحيح ومن أقوى الادلة على عدم مخامرته سلامته فى هذه الدولة فان السلطان هولاكو لما فتح بغداد وقتل الخليفة سلم البلد الى الوزير وأحسن اليه وحكمه فلو كان قد خامر على الخليفة لما وقع الوثوق اليه اه والله أعلم بمقدار هذا البرهان في الانتاج

سارت جيوش هولاكو الجرارة قاصدة بغداد وفي منتصف محرم سنة ٦٥٦ نزل بنفسه على باب بغداد وأعد عدة الحصار ولم يكن عند الخليفة ما يدفع به ذلك السيل الجارف واكتفى باقفال الابواب فجد المغول في القتال حتى ملكوا الاسوار بعد حصار لم يزد على عشرة أيام وبملك الاسوار تم لهم ملك البلد

ولما رأى الخليفة ذلك استأذن ان يخرج الى هولاكو فأمره هولاكو أن ينزل

باب كلواذي أحد أبواب بغداد وشرعت جنوده في نهب تلك المدينة التى كانت حاضرة الاسلام كله ثم تقدم باحضار الخليفة فأحضره ومثل بين يديه وقدم لهولاكو جواهر نفيسة ولآلئ ودررامعباة فى أطباق ففرق هولاكو ذلك على أمرائه

وفي رابع عشر صفر سنة ٦٥٦ رحل عن بغداد واستصحب معه الخليفة وفي أول مرحلة قتله هو وابنه الاوسط مع ستة نفر من الخصيان وقتل ابنه الكبير ومعه جماعة من الخواص على باب كلواذي وبهذا القتل كسفت شمس الخلافة العباسية من بغداد بعد ان مكثت مشرقة ٥٢٤ سنة واشتفت قلوب العلويين من بنى عمهم بما حل بهم من هذا الخراب والدمار

أما بغداد دار الخلافة وعاصمة الملة فقد جرى عليها ماجرى علي سواها من أمهات المدن الاسلامية فقد قتل معظم أهلها وقليل منهم من نجا وقد استبقى المغول جماعة من الشيعة والنصارى وسكان بغداد بعد ان فنى أكثر أهلها قوم جاؤا مع هولاكو من أقطار شتى وصارت حاضرة دولة لا تدين بدين بعد ان كانت عاصمة المسلمين

حال الدولة الاسلامية عند سقوط الدوله العباسية

(١) كانت بغرناطة من البلاد الاندلسية دولة بنى نصر والقائم بالامر منها مؤسسها محمد الغالب بالله بن يوسف بن نصر (٦٢٩ – ٦٧١)

(٢) بشمال أفريقية دولة الموحدين والقائم بالامر منهم أبو حفص عمر المرتضى بن اسحاق بن أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن (٦٤٦ – ٦٦٥)

(٣) وبالجزائر الدولة الزيانية والقائم بالامر منهم يغمراسن بن زيان مؤسس الدولة (٦٣٣ – ٦٨١)

(٤) وبتونس الدولة الحفصية والقائم بالامر منهم أبو عبد الله محمد المستنصر بالله

ابن أبي زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبى حفص (٦٤٧ – ٦٧٥)

(٥) وبمراكش الدولة المرينية والقائم بالامر منهم أبو يوسف يعقوب بن عبدالحق (٦٥٦ – ٦٧٥)

(٦) وبمصر دولة المماليك البحرية والقائم بالأمر منهم المنصور نور الدين على بن المعز عز الدين ايبك (٦٥٥ – ٦٥٧)

(٧) وباليمن الدولة الرسولية والقائم بالامر منهم المظفر بن يوسف بن المنصور عمر بن علي بن رسول (٦٤٧ – ٦٧٤)

(٨) وبصنعاء من أئمة الزيدية المتوكل شمس الدين أحمد (٦٥٦ – ٦٨٠)

(٩) وبالروم من السلاجقة ركن الدين قليج ارسلان الرابع (٦٥٥ – ٦٦٦)

(١٠) وبماردين من الدولة الارتقية نجم الدين غازي السعيد (٦٣٧ – ٦٥٨)

(١١) وبفارس من الاتابكية السلغرية أبو بكر بن سعد بن زنكي بن مودود (٦٢٣ – ٦٥٨)

(١٢) وبلورستان من الاتابكية الهزارسبية دكلا بن هزارسب (٦٥٠ – ٦٥٧)

(١٣) وبكرمان من دولة قتلغ خان قتلغ خاتون (٦٥٥ – ٦٨١)

اجمال القول في الدولة العباسية

تولى العباسيون الخلافة الاسلامية سنة ١٣٢ حيث بويع لاولهم أبي العباس عبد الله السفاح بالكوفة واستمرت خلافتهم الى سنة ٦٥٦ حيث سقط عبد الله المستعصم قتيلا بين يدي هولاكوخان المغولى من اعقاب جنكيزخان موحد التتر الخارج بهم الى بلاد الاسلام . جاءت الرايات السود من المشرق فأقعدت بنى العباس على عرش بنى أمية وجاءت رايات التتر من المشرق فثلت عرشهم من بغداد زهرة المشرق وجنة الدنيا فمن الشرق أشرق كوكب سعدهم ومن الشرق ظهر نجم نحسهم . استمرت خلافتهم ٥٢٤ سنة استخلف فيها منهم ٣٧ خليفة فمتوسط ملك الخليفة منهم نحو ١٤ سنة وأكبر مدة قام فيها خليفة عباسى ٤٦ سنة وأقلها سنة فما دونها

مكثت الدولة العباسية ١٠٠ سنة لخلفائها الكلمة العليا والسيادة التامة على جميع العالم الاسلامى (ما عدا بلاد الاندلس) يقولون فيسمع لهم ويأمرون فيأتمر الناس ولا يجسر أحد على مخالفتهم والوقوف فى وجه جنودهم الا منافسيهم في القرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم بنو عمهم من آل أبى طالب و بعض الخوارج الذين كانت تخبو نارهم حينا وتلمع حينا ثم تجيء القوة العباسية الهائلة على ذلك بسرعة

وقام في هذا العصر الباهر من العباسيين ثمانية خلفاء وهم السفاح والمنصور والمهدي والرشيد والامين والمأمون والمعتصم والواثق متوسط خلافة الواحد منهم اثنتا عشرة سنة ونصف وينتهى هذا الدور بوفاة الواثق سنة ٢٣٢

ثم جاء بعد ذلك قرن آخر من ٢٣٢ الى ٣٣٤ أخذت الدولة فيه في النزول شيئاً فشيئاً وضعفت تلك المكانة التى كانت لهم فى أنفس الامم الاسلامية واجترأ الامراء بالاطراف على الاستقلال وصار أمر العباسيين يضمحل حتى لم يبق بيدهم الا العراق وفارس والاهواز وهذه مملوءة بالاضطراب والفتن وآل الامر الى أن يتولى بغداد مملوك تركي أو ديلمى يطلق عليه أمير الامراء له النفوذ التام والسلطان المطلق والولاية العامة وليس للخليفة من الامر شيء

قام في هذا العصر اثنا عشر خليفة. وهم المتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز والمهتدي والمعتمد والمعتضد والمكتفى والمقتدر والقاهر والمتقى والمستكفى الذي ملك بنو بويه في آخر عهده ومتوسط خلافة الواحد منهم ثمانى سنوات ونصف ولم يمت منهم موتا هادئا الا أربعة والباقون خرجوا من الخلافة بين قتيل ومخلوع وكان استيلاء بنى بويه على بغداد سنة ٣٣٤

جاء بعد ذلك دور ثالث من ٣٣٤ الى ٤٤٧ ليس للخليفة فيه الا اسم الخلافة والسلطان الفعلى لامة فارسية هى الامة الديلمية التى يمثلها سلطان من بنى بويه يقيم ببغداد فصار الخليفة كأنه موظف لهم يتناول منهم ما يقوم بأوده وليس له تصرف ولا نفوذ يؤمر فيأتمر ويفعل ما يراد منه لا مايريد وليس له على أنفس المالكين شيء من السلطان

الديني لمباينتهم له في العقيدة فقد كانوا شيعة غلاة يدينون بفضل علي وآل بيته على من عداهم وانما رضوا ببقاء الخليفة العباسي ليكون أمره عليهم هينا يبقونه متى رأوا في بقائه خيرا لهم ويعزلونه أو يقتلونه متى رأوا في ذلك مصلحتهم

وقد قام في هذا الدور المستكفي والمطيع والطائع والقادر والقائم ومتوسط مدة الخليفة منهم ٢٢ سنة ونصف والقائم هو حلقة الاتصال بين هذا الدور والذي يليه والثلاثة الاولون من خلفاء هذا الدور خلعهم بنو بويه

جاء بعد ذلك دور آخر من سنة ٤٤٧ الى سنة ٥٩٠ انتقل السلطان الفعلي فيه الى أمة تركية يمثلها سلطان من آل سلجوق يقيم ببلاد الجبل لا في بغداد وكان بنو العباس مع هذه الدولة أحسن حالا منهم مع بني بويه فان هؤلاء كانوا يحترمون الخلفاء تدينا وكانوا يبدون لهم من مظاهر التعظيم والاجلال ما يقضى به منصبهم الديني

وقد ولى فى هذا الدور المقتدي والمستظهر والمسترشد والراشد والمقتفي والمستنجد والمستضيء ومتوسط خلافة الواحد منهم نحو عشرين سنة ونصف ولم يكن الخلفاء فى هذه المدة على حال واحدة فانهم من عهد المسترشد شرعوا يستردون شيئا من نفوذهم الفعلي فى بغداد والعراق والذي ساعدهم على ذلك بعد آل سلجوق عنهم وتفرقهم ووقوع الحرب بينهم وقد تم استبدادهم بأمر العراق فى عهد المقتفي وانقضت دولة السلاجقة سنة ٤٩٠ على يد خوارزمشاه ونفوذهم فى العراق قد اضمحل تماما

مكث العباسيون بعد سقوط الدولة السلجوقية ٦٦ سنة لم يكونوا فيها تحت سلطان أحد بل كانوا مستقلين بملك العراق الى أن قام المغل والتتار بحركتهم التى ابتدأت بأقصى تركستان وعصف ريحهم على البلاد الاسلامية فاخمد أنفاس الدولة العباسية وأزالها من بغداد على يد هولاكو حفيد جنكيزخان سنة ٦٥٦

فالدولة العباسية أدوار

١٠٠ سنة عصر القوة والعمل من	١٣٢ – ٢٣٢
١٠٢ » عصر استبداد المماليك الاتراك من	٢٣٢ – ٣٣٤

١١٣ سنة عصر استبداد الملوك من آل بويه من ٣٣٤ – ٤٣٧

٩٤ « عصر استبداد الملوك من آل سلجوق من ٤٤٧ – ٥٣٠

١٢٦ « عصر استعادة العباسيين شيئا من نفوذهم
السياسى مع تغلب القواد من ٥٣٠ – ٦٥٦

ونريد أن نوضح هنا الاسباب الرئيسية التى أدت بهذه القوة الهائلة الى الضعف ثم التلاشى

١ – ضعف عصبية الدولة

اعتمدت الدعوة الاسلامية من أول نشأتها على العصبية العربية فهى التى كانت عمادا لتلك الدعوة وقد كان مما اهتم به صاحب الدعوة صلى الله عليه وسلم القضاء على العصبيات الجزئية العربية واحياء العصبية الكلية فقد ورد عنه كثير من الاحاديث التى تنهى عن دعوة الجاهلية وهى قولهم يا لفلان وبعض هـذه الاحاديث يخرج الداعى بدعوة الجاهلية عن الاسـلام كقوله عليه السلام ليس منا من دعا بدعوة الجاهلية وسبب ذلك ان هذه العصبيات الجزئيه تضعف من قوة المجموع الذي هو ناصر للدعوة ومؤيد لهـا وقاهر لمن وقف فى سبيلها وكانت نتيجة ذلك أن تآخى العدنانى والقحطاني والمضرى والربعى والقيسى والكنانى — بعد أن كانوا أوزاعا يكيد بعضهم لبعض وتتفانى قوتهم جميعا امام الامم التى تحيط بهم وبذلك تكونت الامة العربية . الدين كونها وهى نصرته حتى صار أحدهمـا مرادفا للآخر في نظر الامم التي غالبها العرب على أمرها

صارت الامة العربية على ذلك في صدر دولة الخلفاء الراشدين فصارعوا الفرس والروم وأجلوهم عن أعز أملاكهم واستولوا عليه تؤيدهم تلك الوحدة التى أنالهـا الدين قوة لا تقهر

وكانوا مع هـذه العصبية يرون لمن دخل فى دينهم من الامم الاخرى مالهم من الحقوق وعليهم ماعلى العرب من الواجبات الا أنهم لا يدلون اليهم بالمناصب الرئيسية كولاية الولايات وقيادة الجنود وهذا أمر طبيعى لاتمكن مقاومته

ولما حصلت الفرقة بين على ومعاوية لم تكن فرقة عناصر فقد كان مع كل من الرجلين رؤساء وأجناد من جميع القبائل العربية اليمانون هنا وهناك والنزاريون هنا وهناك وانما كانت فرقة أثارها الدين في صدور قوم والتنافس في الدنيا في صدور آخرين وقد أدى اختصاص كل من الخصمين العظيمين بمكان أن انجلت الحرب على خلاف وتباغض مركزيين بين الامة العربية فان عرب الشام أبغضت عرب العراق وعرب العراق أبغضت أهل الشام ونطق بذلك بعض شعرائهم وذلك ناتج من كراهة أهل العراق لمعاوية وكراهة أهل الشام لعلى وقد أضعف ذلك كثيرا من قوة العصبية العربية

انتقل الامر الى بنى أمية وتولاه منهم معاوية بن أبي سفيان شيخ بنى عبدمناف فدانت له الامة والقت بأيديها الا أن عرق العصبية الجزئية قد شرع ينبض بعد أن كاد الاسلام يقضى عليه وظهر على ألسنة الشعراء كلمات الفخر بما لقبائلهم من السابقة وحسن الاثر وقد اتضح ذلك وضوحا جليا بعد انتهاء البيت السفياني وعودة الانقسام أيام قام مروان بن الحكم منازعا قرنه العائذ بالبيت وهو عبدالله بن الزبير فقد قام بمساعدة مروان عرب اليمن من كلب وغسان والسكاسك وناوأته قيس من عدنان فكان النصر لمروان واليمانية وأسرفوا في قتل قيس فتأثرت بذلك أنفسها تأثرا تمكن منها حتى قال في ذلك شيخ قيس وزعيمها زفر بن الحارث الكلابي كلمته التى أولها

أريني سلاحى لا أبالك انني ... أرى الحرب لا تزداد الا تماديا

وفيها

فلا تحسبوني ان تغيبت غافلا ... ولا تفرحوا ان جئتكم بلقائيا

فقد ينبت المرعى على دمن الثرى ... وتبقى حزازات النفوس كما هي

وفيها

فلا صلح حتى تشحط الخيل بالقنا　　وتثأر من نسوان كلب نسائيا

اجتمع شيخان من شيوخ قيس وهما زفر بن الحارث وعمير بن الحباب السلمي بقرقيسيا وصارا يطلبان كلبا واليمانية بمن قتلوا من قيس ثم نزل عمير بنواحي الجزيرة مجاورا لتغلب ومعه عدد عظيم من قيس فأدى هذا الجوار الى نزاع بين قيس وتغلب تبعته حروب حتى كتب زفر الى عمير يقول له

ألا من مبلغ عني عميرا　　رسالة ناصح وعليه زاري

أتترك حي ذي يمن وكلبا　　وتجعل جدنا بك في نزار

كمعتمد على احدى يديه　　فخانته بوهن وانكسار

وقتل في بعض الايام عمير بن الحباب

وقد نطق شيطان التفريق على ألسنة الشعراء المتباينين فى الانساب والمتقاربين بما يهيج الحزازات الكامنة لا يبالون مايخرج من أفواههم ولا يدرون قيمة ما تؤثره كلماتهم فكل ما أصلحه العقلاء أفسده هؤلاء وقد كان الاخطل التغلبي من شعراء تغلب ذوى الصوت المسموع فلما صالح زفر بن الحارث عبد الملك بن مروان وجاء بقومه فبايعوا قال الاخطل من كلمة لهم

بني أمية قد ناضلت دونكم　　أبناء قوم هم آووا وهم نصروا

وقيس عيلان حتى أقبلوا رقصا　　فبايعوا لك قسرا بعد ما قهروا

ضجوا من الحرب اذ عضت غواربهم　　وقيس عيلان من أخلاقها الضجر

وقال مرة بمحضر عبد الملك وعنده الجحاف بن حكيم السلمي القيسي

ألا سائل الجحاف هل هو ثائر　　بقتلى أصيبت من سليم وعامر

أجحاف ان نصطك يوما فتصطدم　　عليك أو اذى البحور الزواخر

تكن مثل اقذاء الحباب الذي جرى　　به الماء أو جارى الرياح الصراصر

لقد حان كل الحين من رام شاعرا　　لدى السورة العليا على كل شاعر

يصول بعجر ليس يحصى عديده   ويسدر منه ساجيا كل ناظر

فأجابه الجحاف على البديهة

بلى سوف نبكيهم بكل مهند   وننعى عميرا بالرماح الشواجر

وسار الجحاف بعقب هذه الكلمة الى تغلب فاوقع بها وقعة شديدة وقد قال هذا الشيطان الخبيث فى تلك الموقعة بعد أن أثار غبارها

لقد أوقع الجحاف بالبشر وقعة   الى الله منها المشتكي والمعول

فسائل بني مروان ما بال ذمة   وحبل ضعيف لايزال يوصل

وقال الجحاف

أيامالك هل لمتني أو حضضتني   على القتل أم هل لامني كل لائم

ألم أفنكم قتلا وأجدع أنوفكم   بفتيان قيس والسيوف الصوارم

بكل فتى ينعي عميرا بسيفه   اذا اعتصمت أيمانهم بالقوائم

حيث هذه العصبيات الجزئية ولم تجد من الخلفاء من يقطع طريق نموها وكان الولاة بالامصار قد مسهم طائف من شيطان هذه الجاهلية فكان الوالى اليماني يحدب على قومه ويعطف عليهم وينصرهم ويوليهم النواحي وكذلك كان الربعي والقيسي والتميمي وكان يظهر ذلك واضحا فى الولايات البعيدة عن مركز الخلافة كخراسان ولا يخفى ان الدولة الاموية كانت ترتكز على العصبية العربية لانها دولة عربية محضة فحياة ذلك النوع من العصبية مضعف للأمة وللدولة التى ترتكز عليها . وكان من الامم التى ملكها العرب وذات لهم الامة الفارسية وهى أمة ذات تاريخ قديم يهمها أن تحيي ما اندرس من تاريخها . رأت نفسها مستضعفة عن مناوأة العرب والخروج من نير حكمها بحجة عنصرية لان كثيرا من الفرس كانوا قد دانوا بالاسلام فمن الصعب تكوين قوة منهم تضاد العرب أو الاسلام فاتجه فكر قادة الامة الى صدمة العرب باسم الاسلام وكان بنو العباس اذ ذاك قد وجدت عندهم فكرة السعي لاسترداد حقهم من بني أمية فرأوا من مصلحتهم الاعتماد على الفرس فى مساجلة بنى عمهم من

بنى أمية وانما لم يجعلوا عمدتهم على العرب لامرين الاول انه يصعب ان تروج بين جمهور العرب فكرة الخلاص من حكم بنى أمية لان العرب لم يمسوا باذى من جانب تلك الدولة بل كانت في الحقيقة دولتهم وبها عزهم والثاني ان شعب العرب قد انصدع باستعار نار العصبية الجزئية بين قبائلهم فكان اليمانيون في جانب والربعيون في جانب والمضريون في جانب . أما الفرس فمن السهل اثارة عواطفهم اما بحكم العصبية العنصرية واما بحكم الاسلام ورد الخلافة الى نصابها من آل بيت محمد صلى الله عليه وسلم وتأثير الاول فى الخاصة من أبناء الامة الفارسية وتأثير الثاني فى العامة .

قامت الدولة العباسية وليس لها عصبية عنصرية تشد ازرها وتحمى بيضتها وانما عصبيتها هؤلاء الموالى المصطنعون وعصبية الولاء أو الحلف قد تقوم مقام عصبية القرابة لولا ما يكدرها من ميل هؤلاء الموالى الى استرجاع ما كان لآبائهم من المجد الذى يتوارثون ذكره . وقد وجد من هؤلاء الموالى فى بدء الدولة جماعة لهم قدم ثابتة فى الفارسية وفى الاسلام جعلهم العباسيون فى مقدمة من يعتمدون عليه

لم يترك العباسيون فى مبدأ أمرهم عصبية العرب ولم يهملوا شأنها بل استعانوا بها لتكون لهم ملجأ اذا رأوا من الموالى نكوبا عن جادة نصرتهم وميلا الى الاستئثار بالسلطان دونهم فاصطنعوا كثيرا من رجال العرب وحماتهم من ربيعة واليمن ومضر الا أنهم لم يلتفتوا الى ازالة ما بين هذه القبائل من أسباب العداء والنفرة بل بالعكس وجد منهم ما يدل على الميل على اعماء هذه الحمية ليستعينوا بفريق على الآخر

لذلك كله يمكن أن نقول انه لم يكن للدولة العباسية في بدء حياتها عصبية قومية متحدة الاوصال وثيقة العرى وانما كان الاسلام هو الذي يجمع بين تلك القوى والدين وان كان جامعا قويا لكنه ان لم يكن مدعما بعصبية قومية متحدة يضعف عمله واعتبر هذا بما قدمناه لك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد كان مما اعتبره أساسا لقوته ومنبعا لحياته اماتة العصبية الجزئية وسد الباب دون ذكرها والتلفظ بها

كان بنو العباس يسندون أمر وزارتهم الى رجل يختارونه من الموالى ويجعلون

قيادة جنودهم الى موال والى عرب ولكنهم كانوا دائمـا تحت تأثير الظنون والريب التي تحوم حول عقولهم من استبداد الموالى بالسلطان فمتى شموا من وزير أو قائد من الموالى الخراسانيين رائحة من ذلك عاجلوه وانظر ما فعله المنصور بقائد العباسـية الا كبر أبي مسلم الخراساني وبوزيره الاول ولابى مسلم ماله من السابقة وحسن الاثر في احياء الدولة ولكن ذلك لم ينفعه امام ريب أبي جعفر وغـيرته على ملكه ان يشاركه فيه أحد ولا يمكن أن نبرئ أبا مسلم من قصد تحويل السلطان الى قومه وايس بنو العباس في نظره الا واسطة لذلك فهو اذا عز مراده مهم يتحول بدون ابطاء الى بنى عمهم من آل على . ولما قتل أبو مسلم قام بالثأر له قائد فارسى على دين قومه من الوثنية وهو سنباذ وجمع لذلك جموعا عظيمة وكاد يزلزل بلاد خراسان لولا ان غولب بالعصبية العربية فان أبا جعفر أعدله جهور بن مرار العجلى وهو من رجال ربيعة فكسر قوته ويقال انه قتل من قومه في الموقعة نحوا من ستين ألفا . وقام يطلب بثأره أيضا الراوندية في الهاشمية نفسها فموجلوا والذى كان الفارس المعلم في يومهم قائد عظيم أيضا من قواد ربيعة وهو معن بن زائدة الشيباني

والخلاصة ان الدولة العباسية ابتدأت على عصبية يتحد دينها وتختلف عناصرها ولبعض هـذه العناصر أغراض لا تتفق مع سيادة الدولة وعظم شأنها ونفوذ خلفائها وهـذه العناصر هى العنصر العربي وهو منشق قد كاد ينسى العصبية القومية الكلية وصرع بتأثير العصبية الجزئية والثانى عنصر الموالى وأهمهم أهل خراسان ولم يكن بين الفريقين التئام حقيقى لاختلاف الغرض الذي يرمى اليه كل منهما

واقتصار العباسيين على وزراء من العنصر الا خر وهو الموالى كان منتجا بطبيعته غلبة العنصر الذى هم منه ونيلهم حظا في الدولة لم يتمتع به مناظروهم من العرب فقد اشتهر من الموالى عدد عظيم في الصدر الاول تمتعوا بالنفوذ والسلطان ونالوا من الالقاب أعلاها سوى لقب الخلافة وانظر الى بيت خالد البرمكي وما وصل اليه يحيى ابن خالد وأولاده فقد توسع الناس حتى أطلقوا عليهم ألفاظ الملوك فى مخاطباتهم

وفى القصائد التى مدحوهم بها ووردت اليهم خزائن الارض وجبايات الاموال وتزاف اليهم الناس من كل صنف بغية القربى عندهم وأثر عنهم لدي الرشيد ميلهم وخاصة جعفرا منهم كلمات تدل على انهم يريدون التحول الى خراسان ونزع الخلافة من آل عباس وتحويلها الى آل على كما اتهم بذلك قبله أول وزير من الموالى وهو خالد بن سلمة الخلال ومع هذه التهمة السياسية كانت تتردد كلمات تدل على الغمز عليهم فى دينهم ونسبة الزندقة اليهم الى غيرذ لك مما يثير الظنون التى لا بد منها في دولة لا تعتمد على عصبية قومية

ولا مراء في انه كان لبعض هذه الاسرة غرض من حمل الرشيد على البيعةلولده المأمون بولاية العهد بعد البيعة لاخيه الامين وكان الداعي اليها هو جعفر بن يحيي ابن خالد البرمكي وكان الذى ظنه الرشيد وهجس في نفسه ان البراءكة سوف يحرشون بين الاخوين ليفرقوا بينهما حتى يحارب أحدهما الآخر وينتفعون هم بما ينتجه ذلك وهذا سبب من الاسباب الكثيرة التى منشؤها تمكن الريبة من مواليهم وحذرهم منهم ولذلك لم نر وزيرا عباسيا تمكن من حياة هادئة ذات ختام هادئ بل كانوا كلهم عرضة لهذه النكبات من ضياع الاموال واغتصاب النفوس ولا يمكن أن يكون سبب ذلك المال وحده بل ان المنازع السياسية وميل الموالى الى استرداد عزالآباء كان له دخل كثير

انتهت حياة الرشيد والمغالبة شديدة بين العنصرين الكبيرين اللذين هما دعامة الدولة يلجأ الخلفاء الى أحدهما كلما رابهم من الآخر شيء الا انه قلما نسب الى المصطفين من العرب فكرة خيانة للدولة أو ارادة تحويلها عن آل العباس أو استهانة بوعد أوغدر بمن ائتمنهم وانما كانت العيوب التى تسند الى بعضهم وتدفع الخلفاء الى عقوبتهم هى التقصير فيأعمالهم وعدم أخذ الحيطة لها

جاءت الوقائع بين الامين والمأمون فكان من نتيجتها ازدياد قوة العنصر الخراساني لان قوة المأمون ارتكزت عليه وظهر البيت الطاهرى وهو أول بيت

من الموالى منح خراسان على طريق الاستقلال . والذي كان يزيد فى قوة هذه العناصر ان المأمون وأخاه المعتصم كانا ميالان الى الاستكثار من شبان الاتراك الذين كانوا يفدون على بغداد بكثرة يقدمهم اليهم ملوك ماوراء النهر وآل طاهر ومن هؤلاء الشبان من كان يشترى بالمال ومنهم من كان ذا بيت عريق في قومه فقدم بغداد ليستزيد عزا بحلف هذه الدولة الكبيرة وولائها ولم تزل هذه الوفود تتوارد تواردا مطردا حتى كان زمن المعتصم وقد تألفت منهم جيوش ظن الخليفة انه يعتمد عليها في اقامة دولته ويستغنى عن العرب وعصبية العرب وعن أبناء خراسان أيضا أما العرب فلامر ما كان هو وأخوه قليلي الاعتماد عليهم ويظهر ان ذلك كان للاختلاف الشديد بين قبائلهم وأما الابناء أو الموالى الخراسانيون فقد كثرت منهم الدالة على الخلفاء وخرج كثير منهم عن طاعتهم لذلك خلقت فكرة اصطناع هؤلاء الموالى الاتراك ظنا من الخلفاء انهم ليس لهم آمال بريدون تحقيقها وان الخلفاء متى اصطفوهم أمكنهم الاعتماد عليهم والاستغناء عمن عداهم لشجاعتهم ووفرة أجسامهم وهذا خطأ غريب ربما كانت الدولة العباسية أول من وقع فيه وهو أن تعتمد دولة من عنصر على عنصر آخر في تأييد قوتها مع ان هذا العنصر يباينها فى الاخلاق وفى العادات ويذكر وطنه الذى ينتمى اليه ولا ينساه ان هؤلاء الاتراك الذين اصطنعوا لم ينسوا لغتهم ولا بلادهم فمن البديهى ان يكون صغوهم اليها وميلهم لها وقد كان فيهم من هو ذو بيت عريق فى قومه يميل الى أن يكون كما كانوا من العز والاستئثار بالنفوذ كما كان الافشين حيدر بن كاوس فقد كان أبوه ملكا لاشروسنة وكان هو معظما فى قومه حتى كانوا فيما يخاطبونه يدعونه باله الالهة

زرع المعتصم وأخوه هذا العنصر الجديد فى الدولة وما دريا انهما بعملهما هذا قد سلما عز الخلافة الى غلمان الاتراك يتصرفون فيها باشارة رؤسائهم الذين منحهم المعتصم حق قيادة الدولة ولو كان هؤلاء الرؤساء متحدى الاغراض يسعون لغاية واحدة لكانت المصيبة أعظم ولكن كانوا على غير ذلك حتى ان الافشين لما علم

عنه انه يعد العدة للرحيل الى المشرق حتى يستولى على خراسان وما وراءها من بلاد ما وراء النهر ويؤسس هنالك مملكة تركية عظيمة كان الذين وشوا به من الاتراك الذين لا يرون لهم ان يستأثر الافشين بهذا الملك العظيم .

كان في حياة هذا العنصر الجديد ضعف العنصر العربى ضعفا عظيما فتفرق قبائل وعصائب وعاد الكثير منها الى مواطنها في القفر والصحراء والذين بالمدن لم تبق لهم عصبيات يستندون فى حياتهم اليها وكذلك ضعف الموالى الخراسانيون لضعف ثقة الخلفاء بهم فاختل التوازن بين عناصر الدولة ووجد غلمان الاتراك أنفسهم منفردين بالملك مستأثرين به وليس امام الخلفاء الا هم فاستحكم نفوذهم وصاروا هم الآمرين حتى امتدت أيديهم الى حياة الخلفاء والى أموالهم والى كل شيء عندهم وخضع الخلفاء لهذه القوة التى لم يجدوا أمامهم ما يردها لا من العرب ولا من الابناء الذى كان أول الخلافة شر وأما هذا فهو نهاية الشرور

كان تغلب هذا العنصر ولعبه برقاب الخلفاء من بنى العباس ذا نتائج سيئة فانه أضعف صولة الخلفاء وقلل من قيمة أقوالهم وأوامرهم وأما فى الاطراف فقد رأى الولاة ان قد آن لهم ان يستقلوا بما تحت أيديهم لانهم ليسوا أقل من أتراك بغداد الذين استأثروا بالنفوذ في عاصمة الخلافة نفسها ولم يمض الاقليل من الوقت حتى صارت الدولة العباسية (في منتصف القرن الثالث) محاطة بدول مستقلة فى الادارة عن سلطان الخلفاء وتدفع عنها شر اعتراض الجمهور وغضب الخلفاء باعلان الدعوة لهم على المنابر وكتابة أسمائهم (أحيانا) على السكة وارسال شئ من المال والهدايا الى بغداد وقد حصل ذلك في المغرب والمشرق والجنوب والشمال في آن واحد ولا قبل للدولة بارسال الجنود لاعادة الحكم العباسى الفعلي الى تلك الولايات لان غلمان الاتراك قلما يهمهم ذلك ماداموا آخذين بخلاقيم الخلفاء في حاضرة الدولة فاضطر بنو العباس الى الرضا بما بذل لهم

صار المتغلبون يقتتلون وينزع بعضهم الولاية من بعض ولا عمل للخلفاء الا أن

يصدروا منشور الولاية للغالب الظافر وقد حاول بعض هؤلاء المتغلبين وهو يعقوب ابن الليث الصفار أن يستولي على قلب الخلافة ويزيل عنها المتغلبين عليها من الاتراك لولا ما ظهر من تشدد أبي طلحة الموفق الذى كان ولى العهد وصاحب السلطان فى عهد المعتمد على الله والذى أحيا فيه تلك القوة أن العنصر المستولى على الدولة وهو عنصر الاتراك نفس بعضه على بعض ما أتيح له من الغلب والسلطان والمال فضعف أمرهم وطلب كثير منهم أن يتولى قيادة الجيش أحد أفراد البيت المالك وكان الموفق أقرب اليهم فانتخب لقيادة الجيش فنجح في احياء شيء من قوة الخلافة الا أن الداء عضال لا يمكن حسمه وذلك الداء هو فقد الدولة للعصبية القومية التى يمكن الاعتماد عليها فكانت هذه القوة كالبرق الخلب لا يلبث أن يزول ويضمحل أمره . فان الضعف عاد بعد الموفق وابنه المعتضد الي أشد مما كان كنكسة المريض عسير برؤها شديد أثرها واستمرت الخلافة الاسمية لبني العباس والسلطان الحقيق لما بقى بأيديهم من البلاد للاتراك الى أن تحرك عنصر جديد من بلاد الديلم يقوده ثلاثة اخوة من بيت عريق في الشرف القومى وهم أولاد بويه فانتزعوا السلطان من الاتراك ببغداد وجعلوا ملك العراق لواحد منهم يتصرف فيه والخليفة يأتمر بأمره ولم يكن هؤلاء القوم يدينون بامامة بنى العباس ومع ذلك فقد أبقوا عليهم لامرين الاول مرضاة الجمهور البغدادى فقد كان معظمه يدين بامامتهم ويفضلهم على آل على والثانى ان الخليفة العباسي يسهل خلعه متى أحسوا به يحاول خلع النير عن عنقه لانه لامانع دينيا يمنعهم من ذلك أما الخليفة العلوى فانه يصعب عليهم أن ينالوا منه شيئاً وربما نال منهم بقوته الدينية هكذا لعبت السياسة بالعقيدة فأضاعت أثرها ومع ما ناله الديلم من هذا السلطان فانهم لم يهملوا العنصر التركي الذي كان كثيرا بحاضرة الخلافة بل اعتمدوا عليه حتى كان بعض الملوك من آل بويه يفضل الاتراك على الديلم .

وفى أوائل المئة الخامسة ظهر بالمشرق عنصر جديد دخل فى الاسلام حديثاً وفارق وطنه متجها الى بلاد المغرب وهو عنصر الغز من أتراك ما وراء سيحون على

رأسه بيت عظيم الفخار ممتاز عندهم بالشرف والمجد وهو البيت السلجوقي قاد هذا البيت جماعة الغز الى بلاد خراسان ولم تقدر الدولة التى كانت بأطراف المملكة الاسلامية على صده فلم يزل حتى امتلك بغداد وأزال عنها ملوك آل بويه وكان هذا العمل على رغبة الخلفاء من بني العباس لأنهم كانوا ميالين الي ازالة هذه الدولة الديلمية التى كانت غالية في تشيعها والادلاء بالامور الى دولة أخري تدين بامامتهم واحترامهم وقد استمر العراق تحت سلطان آل سلجوق حتى دب اليهم مادب الى من قبلهم من داء الخلف والانقسام فكان ذلك مشجعا بنى العباس الى اليقظة من هذا السبات الطويل وامتلاك أعنة الخيل والتصرف بما تحت يدهم من البلاد العراقية ولم يكن لهم ما يعتمدون عليه من العصبية الا بقايا مواليهم من المماليك فاعادوا فى العصر المتأخر ما كان عليه سلفهم في منتصف القرن الثالث

وقد استمر الحال على ذلك حتى خرج سيل المغول الجارف وأزال الدولة العباسية من المشرق كله

من ذلك يفهم أن أساس الاضطراب كان سائرا مع هذه الدولة من بدء نشأتها وهو فقد العصبية القومية التى يعتمد عليها الا أن توازن القوي في الاول حفظ للخلفاء نفوذهم فلما اختل هذا التوازن اختل معه هذا النفوذ والمقام الدينى هو الذى ظل حافظا لهذه الدولة من الفناء مع هذا الضعف المتوالى

٢ — منافسة العلويين

لا مراء في أن كون الخليفة من آل بيت النبوة أحب الى قلوب الجمهور من الامم الاسلامية وهم لهم أطوع لان المؤثر الدينى يكون مستحكما ولذلك صادفت الدعوة الى أهل البيت نجاحا عظيما فى صدر المائة الثانية من الهجرة

وكان أهل البيت الذين لا يعدوهم هذا الامر من بيتين اثنين كل منهما يسابق

الآخر فى القرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم فاما أحدهما فهو البيت العباسى الذى ينتمى الى العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاصبه الوحيد عند وفاته وأما الثانى فهو البيت العلوي الذي ينتمى الى على بن أبي طالب ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وزوج ابنته فاطمة

وقد حاول البيت الاول أن ينال الخلافة قبل العباسيين في عهد بنى أمية ففشل قام الحسين بن على مطالبابها فقتل دونها وقام حفيده زيدبن على بن الحسين فقتل دونها بالكوفة وقام علي أثره ابنه يحيي بن زيد فكانت نتيجته كابيه - ذلك مع ميل الجمهور العراقى لهم وعطفه عليهم

أما العباسيون فقد أحكموا أمرهم واستعانوا بأهل خراسان فى احياء بيتهم وكانت لدعوة اليهم مبهمة فى أول الامر لا يزيد الداعى فى دعوته على انه يدعو للرضا من آل محمد صلى الله عليه وسلم الا أن الدعاة والنقباء يعرفون صاحب الدعوة باسمه وشخصه وكانت النتيجة تمام النجاح وساعدهم ضعف عصبية خصومهم فرقوا عرش الخلافة وقضوا على بنى أمية

حرك ذلك من غيرة بنى عمهم منهم وحسدهم لهم ومن المعلوم ان جمهورا كبيرا كان يؤثر العلويين و يتولاهم دون العباسيين وكان بنو العباس على علم من ذلك يرون ان كل فتق جاءهم من غير ناحية العلويين فهو سهل الرتق والتلافى أما هؤلاء فهم الخصم الذي يخاف جانبه لانهم يشاركونهم فى السبب الذى قامت عليه خلافتهم وهو القرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم وربما كان لهم في نظر الجمهور الشيعى ما يفضلهم على العباسيين وهو ولادة فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا دعوا الى أنفسهم أحدثوا في العصبية التى قامت عليها الدولة انقساما ولا يدري حينئذ لمن تكون الغلبة

ولما كانت المدينة النبوية هى مقام أبناء على من بنى حسن وحسين راقبهم العباسيون سرا واذا كان موسم الحج جمعهم الخليفة وهو أبو العباس السفاح فأغدق

عليهم العطايا ومنحهم الهبات يزيد بذلك لفت أنظارهم عن الدرجة العليا وهى درجة الخلافة ويريهم ان خلافة بنى عمهم تحدب عليهم وتنسيهم أيام الشدائد التى مرت عليهم في عهد أسلافهم من بنى أمية الا أن ذلك المعروف الجميل لم يكن الا معززا لدواعى الغيرة والحسد وازدياد الشعور بضياع ذلك الحق الذي هم أولى به واذا كان غصب الاجنبى الحق مؤلما للنفس فرؤيته عند القريب أشد ايلاما ولا سيما اذا ظن من ضاع حقه انه يجد من الانصار من يساعدونه على نيله

كان أول صدع صدعت به الدولة العباسية خروج محمد بن عبد الله المعروف بالنفس الزكية بالمدينة وكان كثير من أهل خراسان ينتظر قيامه ولولا ماظهر من شجاعة أبى جعفر المنصور ومضاء عزيمته وأخذه بالاحتياط فى مصادره وموارده لزلزلت جوانب الخلافة العباسية ولكن تلك الصفات من المنصور قضت على محمد بن عبد الله وعلى أخيه ابراهيم الذي ثار بالبصرة

وكانت نتيجة ذلك أن اشتدت ريبة العباسيين من بني عمهم فضيقوا عليهم وشددوا المراقبة على المعروفين منهم وأرهفوا الحد في استطلاع أخبارهم فتباعد الامر واشتدت الجفوة ورأي بنو العباس أنفسهم مجبورين على نبذ فكرة التشيع التى أسسوا عليها دولتهم وصاروا يجنحون الى تقديم الشيخين أبي بكر وعمر على على بن أبي طالب بعد أن كان دعاتهم يقدمونه عليهما واشتد تطلع العلويين الى قلب الدولة العباسية ليخرجوا من حرج الضيق الذى نالهم . وصاروا كالطائر المحبوس فى قفصه يحاول التخلص منه على غير هدى كما فعل الحسين بن على الذي ثار بمكة فى مدة الهادى سنة ١٦٩ فحيل بينه وبين مراده وقتل بفخ بالقرب من مكة

أفلت من تلك الموقعة ادريس بن عبد الله وأخوه يحيي فاتجه الاول غربا مار بمصر ومخترقا شمال أفريقية حتى أتي المغرب الاقصى فحدب عليه من به من البرابرة وبايعوه بالخلافة وأسس هناك دولة الادارسة في طرف الدولة من الغرب واتجه الثاني نحو المشرق وذهب الى نواحي الديلم الا ان قربه من مركز الخلافة حتم عليه

الفشل . وقد أظهرت حوادث هذين الاخوين ان من موالى العباسيين وصنائعهم من هواه مع العلويين كواضح مولى بنى العباس الذي كان على بريد مصر فانه هو الذى سهل لادريس المرور من أرض مصر مع معرفته به وجعفر بن يحيى البرمكي الذي سهل ليحيى بن عبد الله طريق الافلات من يد الرشيد فكان ذلك مما دعا الرشيد الى ان يربى على من كان قبله في النفور من العلويين وكراهتهم والتشديد فى عقوبة من يتهم بالميل اليهم وشدة التضييق على من بقى بالمدينة منهم وجاء بموسى الكاظم ابن جعفر الصادق الى بغداد ليقيم تحت نظره

ظهر الجرح بجنب الدولة العباسية واجترأت أمة من الامم الاسلامية وهى أمة البربر بالمغرب الاقصى ان تخرج عن طاعتهم معتقدة انها نالت حظا أعلى من حظ سائر الامم الاسلامية لانها ظفرت برجل من آل البيت النبوى ومن أبناء ابنته واضطر الرشيد ان يزرع بافريقية دولة الأغالبة ومقرها القيروان كما يفعل من رأى حريقاً بجزء من داره يجتهد ان يفصل بين ما تناولته النار و بين سائر البيت وهذا مافعله الرشيد

جاء المأمون فرأى خطر العلويين محدقا بالدولة ماذا رأى . رأى كثيرا من أبناء الدعوة ورجال الدولة يميلون الى العلويين ويكرهون ما ينالهم من الشر فاراد ان يتقرب اليهم ببعض ما يرغبون فيكسر من حدتهم ويضعف من قوتهم فاختار منهم على الرضا الذى يتولاه أكثر شيعة آل على وولاه عهده ويظن انه فعل ذلك ارضاء للحسن بن سهل وزيره الاكبر ومدبر أمره وصاحب الفضل الاعظم فى سوق الخلافة اليه واخراجها عن أخيه الامين وكان الحسن يتشيع وينسب الى الزندقة أيضاً ولكنه رأى ان النتيجة لم تكن على ما يرغب فانه وان أرضى العلويين بهذا العهد قد أغضب العباسيين أصحاب الدعوة فثاروا ضده ببغداد وخلعوه واختاروا من بينهم عمه ابراهيم ابن المهدي فلم يكن امامه ما يربأ به هذا الصدع الا أن احتال فى التخلص من الحسن بن سهل بان وضع له قوما تناولوه باسيافهم ثم مات بعقب ذلك على الرضا فنسب قوم ذلك الى المأمون أيضا والقرائن تساعدهم ولكن ليس عندنا من الادلة ما يقوي هذه التهمة

عادت الامور بعد موت هـذين الى مجراها ورجع أهل بغداد الى المأمون وانحرفوا عن عمه . ظل المأمون بعد ذلك على ولاء العلويين والتشيع لعلى بن أبى طالب وأعلن ذلك في كلامه وفي كتبه حتى اذا رأى منهم الميل الى الخروج والثورة شرع يعاملهم بمثل ما كان يعاملهم به أبوه بعد ثورة اليمن قامر ألا يدخلوا عليه واضطر لان يجارى أباه في الاحتياط فاسس دولة باليمن تشبه دولة الاغالبـة بافريقية وهي الدولة الزيادية والغرض من الدولتين واحد

واتبعوا طريقة الحجر على أئمة الشيعة وأمرهم اياهم بالاقامة بمرأى منهم في بغداد أوفي سامرا بعد اختطاطها

ولم يكن الخلفاء معهم على سيرة واحـدة فقد كان المتوكل على الله بن المعتصم على غير ما كان عليه أبوه وعمه من الاحسان الى العلويين والتصريح بتفضيل على على غيره من شيوخ الصحابة وكان فى ذلك على سيرة جده الرشيد الا أنه زاد عليه فقد كان يصرح في مجالسه بانتقاص على بن أبى طالب ويبيح للمجان من جلسائه الهزؤ والسخرية به ويكره كل من عرف بالتشيع الى العلويين ويؤذيهم فى أنفسهم وأموالهم ويقدم الشعراء الذين يتطرفون فى قصائدهم فينتقصون آل على ويفيض عليهم الهبات الوافرة وهدم قبر الحسين بن علي ونهى الناس عن زيارته وشـدد فى ذلك تشديدا عظيما فكان الناس من ذلك فى هم وحزن حتى ان شاعره الكبير أبا عبادة البحتري لما مات وولى المنتصر وكان على غير طريقة أبيه مع العلويين مدحه بذلك فقال

رددت المظالم واسترجعت ... يداك الحقوق لمن قد قهر
وآل أبي طالب بعـد ما ... أزيع بسربهـم فابذعر
ونالت أدانيهـم جفـوة ... تكاد السماء لهـا تنفطر
وصلت شوابك أرحامهم ... وقد أوشك الحبل أن ينبتر
فقربت من حظهم ما نأى ... وصفيت من شربهم ما كدر
وأين بكم عنهم واللقـا ... ء لا عن تناء ولا عن عفر

قرابتكم بل أشقاؤكم واخوتكم دون هـذا البشر
ومن هم وأنتم يدا نصرة وحـدا حسـام قديم الاثر
يشاد بتقديمكم في الكتا ب وتتلى فضائلكم فى السور
وان عليا لاولى بكم وأزكى يدا عندكم من عمر
وكل له فضـله والحجو ل يوم التفاضل دون الغرر
بقيت امام الهدى للهدى تجـدد من نهجـه مادثر

مع ان البحتري له في المتوكل المدح الجليلة والمراثي المؤثرة

ثم آل على ثلمة أخرى في سياج الدولة من الجهة الشمالية الشرقية بتأسيس الحسن بن زيد دولته في الديلم ولم يفلح بنو العباس فى القضاء عليه فاشتد الخرق عليهم من الشرق والغرب وفتحت العيون التى كانت تغضى حياء وتخاف تدينا

رأى العلويون فى النصف الثانى من القرن الثالث ان ينظموا صفوفهم ويمهدوا لقلب الدولة العباسية بالدعوة لها فسنوا لذلك نظاما خاصا عرف بنظام الدعوة ساروا فى ذلك على أثر الدعوة العباسية الا انهم حلوها بشيء من المقدمات وبعثوا دعاتهم الى جميع الاقاليم الاسلامية غربا وشرقا ولما تهيأ لهم الامر أهبوا نار الثورة والاضطراب بشكل مريع على يد القرامطة فزلزلوا جوانب الدولة وحالوا بينها وبين عمل أي شيء يمكنها من القضاء عليهم وفعلوا فى الاسلام مالم يخطر ببال مسلم ان يقوم به مما قدمنا ذكره . ثم قام على أثرهم الفاطميون بأفريقية فاستولوا عليها وعلي الجزائر والمغرب الاقصى ثم مدوا سلطانهم على مصر وسوريا والحجاز واليمن وشواطئ الفرات وكادت نارهم تلفح وجه الدولة العباسية وقد حصل ان اتخذ أحد الثوار العراقيين هذه الدعوة ذريعة الى التمكن من الامر وخطب فعلا للعلويين على منابر بغداد نحوا من سنة

وكان العباسيون لما رأوا أنفسهم عاجزين عن دفع هذا العدو اللدود عنهم اشتغلوا بما لا يفيد من الطعن في نسب العلويين المصريين وكتبوا في بغداد محضرا وقع به العلماء والفقهاء وكبار بنى هاشم وقالوا فيه ان نسب العبيديين بمصر غير صحيح وانهم

أدعياء ملعونون مع انه نسب للشريف الرضى نقيب الطالبيين ببغداد قوله

مامقامى على الهوان وعندى مقول صارم وأنف حمى
واباء محلق بى عن الضيم كما راغ طائر وحشى
أي عذر له الى المجد ان ذل غلام في غمده المشرفي
البس الذل فى ديار الاعادي وبمصر الخليفة العلوي
من أبوه أبي ومولاه مولا ى اذا ضامنى البعيد القصى
لف عرقى بعرقه سيد النا س جميعاً محمد وعلي
ان ذلى بذلك الجو عز واوامى بذلك النقع ري
قد يذل العزيز مالم يشمر لانطلاق وقد يضام الابي
ان شرا على اسراع عزمى فى طلاب العلا وحظى بطى
أرتضى بالادى ولم يقف العز م قصورا ولم تعز المطي
كالذي يخبط الظلام وقد أقـ مر من خلفه النهار المضى

ولما اشتهرت عنه عتب الخليفة القادر بالله على والده فأنكرها ولم يثبتها فى ديوانه وهي مشهورة عنه ومن طراز شعره وعلى الجملة فان مثل هذه الاشياء لم تفدهم فائدة ما

ومما زاد الامر بلية ان بنى بويه الذين استولوا على بغداد فى منتصف القرن الرابع كانوا شيعة فأباحوا للشيعة الظهور فى بغداد بما يشتهون من العادات التي كانوا يفعلونها يوم عاشوراء فقد كانوا يجعلونه يوم حزن تخرج النساء فيه حاسرات نادبات لاطمات ينعين الحسين بن على رضى الله عنه وغير ذلك من العادات وصار الناس يتقربون الى السلطان بالتشيع

وفى أوائل القرن السادس ظهرت فئة الباطنية بفارس وبالشام فأرهقوا الناس وأفسدوا الدول وتمكنوا من اغتيال بعض خلفاء بنى العباس

استمر هذا النزاع السياسى بمصر حتى سقطت الدولة الفاطمية على يد صلاح الدين يوسف بن أيوب واستمر مع الباطنية بفارس والشام . واستمر مع أهل بغداد

حتى ليقال ان السبب في هيج التتار واغرائهم على أخذ بغداد هو حادثة اعتداء وقعت من أهل السنة على محلة الشيعة وهى الكرخ

من ذلك نرى ان النزاع بين العباسيين وآل على استمر من أول خليفة الى آخر خليفة وكان ذلك سبباً من اسباب ضعف الدولة بعد ماتقدم ذكره من خلل العصبية التى كانت عمدة العباسيين

ويمكن ان يعد هذا السبب من متممات السبب الاول

٣ — ضعف قيمة العهود

الوفاء بالعهد خلق عربى حافظ عليه العرب فى جاهليتهم وبذلوا دونه أموالهم وأبناءهم وأنفسهم عرف لهم ذلك من جاورهم من الامم كالفرس والروم وحوادثهم فى ذلك مأثورة قد حفظتها بطون الصحف ولسنا بصدد أن نقصها . لما جاء الاسلام أيد هذا الخلق وأمر به أمرا حتما لاهوادة فيه قال تعالى فى سورة الاسراء (وأوفوا بالعهد ان العهد كان مسئولا . وقال وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ان الله يعلم ما تفعلون) الى غير ذلك من الآيات القرآنية التي شددت فى وجوب الوفاء بالعهد واعتبارها أساسا تقوم عليه الامة الاسلامية وعلى ذلك سار الخلفاء الراشدون كما يعلم من استقراء تواريخهم وكذلك نحا بنوأمية هذا المنحى لان العنصر العربي كانت له المكانة فيها بل يصح أن يقال انها كانت دولة عربية محضة وقد اعتد الناس على عبد الملك بن مروان فعلته التى فعلها مع سعيد بن العاص حيث قتله بعد أن عاهده على تأمين حياته وقالوا انها أول غدرة فى الاسلام وسأل عبد الملك أحد كبار رعيته من شيوخ العرب عن رأيه فيما فعل مع سعيد فقال حسن لوقتلته وحييت فقال عبد الملك أولست بحى فقال الشيخ العربي حياة من لا يوثق له بعهد ولا عقد . فانظروا كيف عد العربي هذه

الحياة كلا حياة ولم يصل الى علمنا فى هذه الدولة حوادث أخرى من هذا القبيل لان الامة كانت لها رقابة شديدة على خلفائها

لما جاءت الدولة العباسية وقد ظهرت على أيدى عنصر غير عربى ظهر منها الاول نشأتها حوادث متكررة تدل على انه ليس للعهود في نظر خلفائها كبير قيمة فقد قتل المنصور في حياة السفاح ابن هبيرة بعد أن أمن أمانا لاشك ولا حيلة فيه وكان الذي أشار بقتله أبو مسلم الخراسانى مشيد الدعوة العباسية وكانوا لا يحبون أن ينفذوا أمرا دون مشورته . ثم أعاد المنصور هذه الرواية نفسها مع أبي مسلم بعد أن أمنه ثم فعل مثل ذلك مع عمه عبد الله بن على بعد أن أمنه وأعلن رضاه عنه ولذلك لما كاتب المنصور محمد بن عبد الله بن الحسن وقال انه يعطيه الامان أجابه محمد بقوله وأما أمانك الذى عرضت فأى الامانات هو أأمان ابن هبيرة أم أمان أبى مسلم أم أمان عمك عبد الله بن على والسلام وهذه كلمة شديدة الوقع سيئة التأثير لانها وصمة عار كبيرة لمن هو قائم مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم في حراسة دينه وسياسة الامة

وهذا الذي حصل في صدر الدولة كان مجرئا لمن أتى بعد ذلك أن يحاولوا التخلص مما تقضى به العهود اذا رأوها مخالفة لمصالحهم ولا سيما العهود التى تعقد لتولى الخلافة فانهم جعلوها من الاشياء التى يسهل حلها وان كان بعضهم يحاول أن يلبس باطله ثوب الحق فعل ذلك المنصور مع عيسى بن موسى الذى عقد له السفاح الخلافة بعد المنصور فقدم عليه ابنه محمدا المهدي وهذا التقديم وان كان قد تم بطلب عيسى ورضاه الا أنا نعرف كيف توصل المنصور الى الحصول علي هذا الرضا من الاساءات المتكررة لعيسى والتهديد المتواصل حتى هم الرجل أن يخلع طاعة المنصور ويفتن الامة وفي رأيي انه لو وجد نصراء لفعل وان كان قد أثر عنه شعر يفيد انه آثر مصلحة الامة على مصلحة نفسه وهو قوله

خيرت أمرين ضاع الحزم بينهما   اما صغار واما فتنة عمم
وقد هممت مرارا أن أساجلهم   كأس المنية لولا الله والرحم

وفعل المهدي مثل ذلك معه فعزل عن العهد بمرة وقد ارتكب من الوسائل ما ارتكبه أبوه

وفعل الامين ذلك مع أخيه المأمون فادى ذلك الى الفتنة الشعواء التى كانت بين سنة ١٩٤ الى سنة ١٩٨ قاست الامة في أثنائها مصاعب هائلة . ولم يوجد منهم من هاب ذلك الفعل محافظة على العهود والمواثيق ومن البديهى أن أمثال هذه العهود ليست قاصرة علي المتنازعين بل تتعداهم الى القواد والأمراء فهؤلاء ينشقون أيضا ويستسهلون الاقدام على فك تلك القيود التى حلفوا الايمان الوثيقة على الوفاء بها

كتب الرشيد أمانا ليحيي بن عبد الله وأكد فيه غاية التأكيد ولما ارتاب منه صار يبحث في الوجوه التى يبطل بها الامان وجعل فقهاء وقته الواسطة في ذلك فمنهم من أبت عليه شيمته ودينه أن يسترسل في الدين مع الاهواء ومنهم من سارع الى هوى الخليفة وصار يبدي الاوجه التى ينتقض بها الامان

كل هذا من العيوب التى شقت عصا البيت وتعدت الى فرقة الامة فاضعفت عصبية الدولة وآل الامر بخلفائها الى أن تكون قوتهم مستمدة من المتغلبين عليهم

وقد بقيت أسباب أخرى ثانوية يمكن استنتاجها مما تقدم فى التاريخ التفصيلى والله أعلم


فهرست

صحيفة

صحيفة